

الإسلام

مجلة علمية محكمة

تصدرها كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

عدد خاص

بأعمال الملتقى الدولي الثالث

"الإسلام والمسلمون

في القرن الخامس عشر الهجري ..

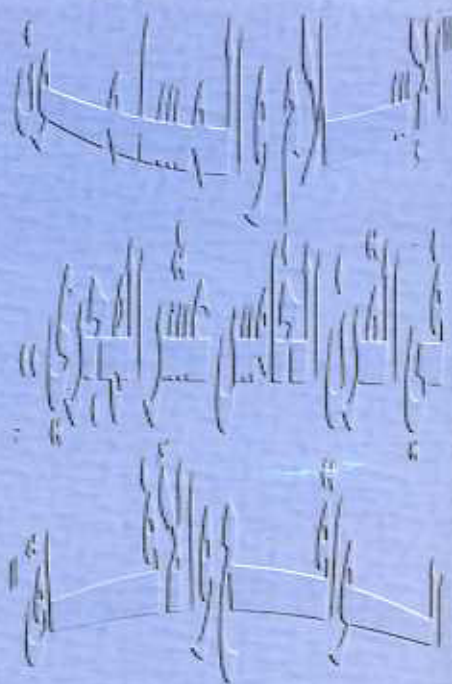
الواقع والآفاق"

أيام :

27/26/25 ربيع الأول 1425 هـ

الموافق لـ :

17/16/15 ماي 2004 م



ردمدم : ISSN 1112 - 4350

العدد الثامن 1425 هـ / 2004 م

الإحياء

مجلة علمية محكمة

تصدرها كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

جامعة الحاج لخضر - باتنة (الجزائر)

العدد السابع

1424 هـ - 2003 م

عنوان المراسلات:

السيد رئيس تحرير مجلة "الإحياء"

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

جامعة الحاج لخضر - باتنة. الجزائر

الهاتف:

033 86 28 31 أو 033 86 34 36

تلفاكس: 033 86 06 64

البريد الإلكتروني: Elihyaa@univ-batna.dz

رقم حد: ISSN 1112 - 4350

قواعد وشروط النشر في مجلة "الإحياء"

- تُنشر المجلة الأبحاث العلمية الأكاديمية المحققة لشروط وقواعد البحث العلمي المتعارفة.
- يُشترط في البحث المقدم للنشر، ألا يكون سبق نشره، وأن يتناول قضية من القضايا التي تدخل ضمن اهتمامات الكلية ونخصصها العلمي.
- ينبغي ألا يزيد البحث على خمس وعشرين صفحة وألا يقل عن عشر صفحات.
- بأي حال من الأحوال، لا تُستقبل هيئة التحرير أي بحث غير مكتوب على جهاز الإعلام الآلي مرفوقاً بقرص مغنط يتضمن نسخة البحث مكتوبة وفق برنامج (WORD)، بخط (ARABIC TRANSPARENT).
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- تعرض الأبحاث المقدمة للنشر على لساندة محكمين، من أعضاء الهيئة الاستشارية أو غير أعضائها.
- يراعى في أولوية النشر الأبحاث المقدمة من أعضاء هيئة التدريس بكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، إذا كانت مستوفية لشروط النشر، كما يراعى تاريخ تقديم البحث إلى المجلة.
- ما ينشر في المجلة يلزم كاتبه، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الكلية أو توجه فكري تتبناه هيئة التحرير.
- لا تدفع الكلية أو هيئة التحرير أي مكافآت للباحثين مقابل ما ينشر لهم من أبحاث في المجلة.
- يستفيد صاحب كل بحث منشور من ثلاث نسخ من العدد الذي نشر فيه بحثه.
- ترتب الأبحاث في كل عدد، وفق اعتبارات فنية، لا علاقة لها باسم الباحث أو مكانته العلمية.

الإمام

المدير العام

الأستاذ الدكتور محمد خزار

مدير جامعة الحاج لخضر. باتنة

هيئة التحرير

رئيس التحرير: الدكتور سعيد فكرة

نائب رئيس التحرير: الدكتور صالح بوبشيش

أعضاء هيئة التحرير :

أ. د. أحمد بوذراع	د. مسعود فلوسي
د. أحمد عقون	د. منصور كافي
د. لخضر شايب	أ. عبد المؤمن فواد
أ. حسين شرفة	

الهيئة الاستشارية للمجلة:

أ. د. عمار طابني	أ. د. عبد الرزاق قسوم
أ. د. محمد مقبول حسين	أ. د. أحمد رحماني
أ. د. إسماعيل يحيى رضوان	أ. د. رضوان بن غربية
أ. د. عمر بوقرورة	أ. د. عمار مساعدي
د. حسن رمضان فحلة	د. محمد عبد النبي
د. محمد زرمان	د. أحمد عيساوي

الحمد لله

الحمد لله الذي هدانا لهذا
والذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الحمد لله الذي هدانا لهذا
والذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول

إذا ساءلكم أمرا بما بينكم وبينكم

سورة الأنفال، الآية: 24

فهرس العدد الثامن من مجلة الإحفاء

رقم الصفحة	الموضوع
07	— كلمة العدد للسيد مدير الجامعة
09	— كلمة السيد عميد الكلية في افتتاح المنقى الدولي الثالث
11	1 — ماذا يقدم المسلمون للحضارة المعاصرة د/ عبد الخليم عويس — مصر
31	2 — الإسلام والمسلمون وتحديات القرن الخامس عشر الهجري د/ سعيد فكرة
43	3 — مستقبل علاقة المسلمين بالغرب وحتمية خيار الحوار د/ صالح يويشيش
57	4 — المسلمون في القرن الخامس عشر والتعامل مع القرآن الكريم واقع وفاق د/ عيادة بن أيوب الكبيسي — الإمارات العربية المتحدة
87	5 — الثابت والمتغير في علاقة العرب بالإسلام والمسلمين د/ مسعود قلوسي
99	6 — متغيرات وتحديات أمام الواقع الثقافي في الغرب د/حسن عزوزي — المغرب
113	7 — الإسلام رافد روعي حتمي لديموامة مدنفة الغرب د/ سليمان عشراي
133	8 — الأخلاقيات الدينية في زمن العولمة والتكنولوجيا في الغرب د/محمد بوزغيفة — تونس
149	9 — الحضارة الإنسانيبة بين التصور الديني وواقع العولمة د/ محمد زعراط
157	10 — الجذور التاريخية للوجود الإسلامي والمسلمين بالغرب إلى القرن 15 هـ د/ حميد لحر — المغرب
167	11 — التدين في العصر الحديث: الواقع، والعقبات والطموح د/ حمزه المليباري — الإمارات العربية المتحدة
173	12 — أهم الوسائل العلاجية لظاهري الغلو والتطرف د/ نصر سلمان
187	13 — الوضع الحضاري للأمة الإسلامية اليوم وسبيل النهوض بها د/ نور الدين طوابة

- 14 - ملامح مستقبل الإسلام / د/ إحسان مصطفى - تركيا 197
- 15 - مستقبل المسلمين في ضوء التحولات الاقتصادية / د/ المعز لله صالح أحمد - السودان 207
- 16 - صورة الإسلام في الفكر الغربي المعاصر... / د/ نخضر شايب 223
- 17 - البعد الحضاري لقضية المرأة / د/ نعيمة نصيب 235
- 18 - ملامح عامة حول الدعوة إلى الله / د/ نوزات صواش - تركيا 245
- 19 - الإسلام بين تقصير المسلمين وتلبس الغربيين / د/ عبد القادر عبد السلام 253
- 20 - حقوق المسلمين في بلاد الجحزة / د/ مصطفى معوان 275
- 21 - من أسلم من أهل الغرب حديثاً / د/ آنكه بوزنيته 285
- 22 - مضائق الفكر ومسالك الاضطراب / د/ محمد عبد النبي 301
- 23 - الأمة الإسلامية الواقع والمأمول / د/ عمار جبدل 309
- 24 - الخلفية التاريخية للعلاقة بين الإسلام والغرب / د/ نذير حمدو 331
- 25 - المسلمون وأسئلة النهضة / د/ محمد زرمان 341
- 26 - حاجة الإنسانية إلى الإسلام ماضياً وحاضراً ومستقبلاً / د/ قادة بن علي 359
- 27 - أمنا في معركة دائمة لتحقيق الذات / د/ حسن رمضان فحلة 373
- 28 - الإشكالات المعاصرة للتصوف الإسلامي / د/ عبد الحكيم فرحات 385
- 29 - دور الاستسراق في تآزم العلاقة بين الإسلام والغرب / د/ عبد القادر بخوش 401
- 30 - الإسلام وصراع الحضارات في القرن الخامس عشر هجري / د/ محمد بلشير 411
- 31 - واقع العالم الإسلامي والطرق السريعة للمعلومات / د/ قدور عبد الله الثاني 425
- 32 - واقع التندين في المجتمع الجزائري / د/ طاهر سعود 435
- 33 - الفقه الاجتماعي في حياة المسلمين / د/ عبد القادر بن حرز الله 459
- 34 - مقومات الرسالة الحضارية للأمة الإسلامية في الثواب الحضاري / د/ محمد دباغ 469
- 35 - القوة النورية للقران ومسؤولية المسلمين في هذا القرن... / د/ اصالح عسكر 475
- 36 - واقع التندين بين الوسطية الإسلامية والتطرف / د/ بلقاسم شتوان 487
- 37 - التععيد الفقهي للعلاقات الخارجية للمسلمين مع غيرهم / د/ عبد المجيد بوكرب 497
- 38 - رؤى من قران والسنة مشفرة لمستقبل الإسلام / د/ يوحنيك نجيب 513
- 39 - استراتيجيات اصلاح التعليم في العالم العربي والإسلامي / د/ حسين نوسن 527

كلمة العدد

للسيد مدير الجامعة الدكتور محمد خزار

لقد كان واضحا اهتمام مجلة "الإحياء" خلال الأعداد الأخيرة بالقضايا الفكرية والثقافية والمعرفية المرتبطة بالمستقبل والاستعداد لمواجهة تحدياته.

وما ذلك إلا لأهمية التخطيط للمستقبل في حياة كل أمة تتعفى سيوض وتسعى للتقدم والتطور. ولا شك أن وظيفة علماء الأمة والمفكرين فيها هي التنبيه إلى المخاطر التي تحدق بها والمحاذير التي ينبغي أن لا تقع فيها.

وقد دأبت كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بجامعة الحاج لخضر في باتنة، منذ ملتقائها الدولي الأول، وفي إطار عملها العلمي النؤوب، على دراسة قضايا ذات أهمية بالغة وذات ارتباط وثيق بحاضر الأمة ومستقبلها.

واليوم، إذ تنظم الكلية ملتقائها الدولي الثالث تحت عنوان: (الإسلام والمسلمون في القرن الخامس عشر الهجري.. الواقع والأفاق). تسعى إلى جمع ثلة من العلماء والباحثين على طاولة النقاش والحوار، لإبداء الرأي في شأن القضايا الواقعية التي تشغل بال الأمة وتؤرق أبنائها، وكذا التحديات المعاصرة التي تبتدئ مستقبلها وتمنعها من النهوض من كبوتها والتخلص من الأمراض الفتاكة التي تنهك جسدها.

وقد قدم هؤلاء العلماء والباحثون عددا من المداخلات القيمة التي تناولت جملة النقاط المطروحة في محاور الملتقى، والتي هي:

- المحور الأول: واقع الأمة الإسلامية

- المحور الثاني: واقع علاقة المسلمين بالغرب ومستقبلها

- المحور الثالث: ملامح مستقبل الإسلام والمسلمين

وهذه المداخلات منيها ما وصلت نصوصها كاملة، وهي التي ندرجها ضمن هذا العدد الثامن المخصص لأعمال الملتقى، ومنها ما وعد أصحابها بإحضار نصوصها الكاملة معهم عند قدومهم لحضور الملتقى، ونأمل أن نتمكن من إخراجها في العدد القادم بحول الله عز وجل.

وإنه لما ينتج صدورنا ويهيج قلوبنا أن العلماء والباحثين الذين كتبوا هذه الأبحاث، ينتمون إلى بقاع مختلفة من بقاع العالم الإسلامي الواسع الأرجاء، فمنهم الهندي، والمصري والسعودي والسوداني والتونسي والمغربي والتركي، والجزائري، وهو ما يجعل أواصر التلاقي والتواصل قائمة بين أبناء الأمة على اختلاف جنسياتهم وأعراقهم، ويحقق قول الله عز وجل: ((وكذلك جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم)).

أخيراً لا يسعني بهذه المناسبة الطيبة إلا أن أتقدم بالأصالة عن نفسي، ونيابة عن أسرة كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية خاصة، وأسرة جامعة الحاج لخضر عامة، بخالص الشكر والتقدير، إلى كل السادة العلماء والباحثين من داخل الجزائر وخارجها، الذين تجسّموا عناء البحث والتنقيب العلمي، وتحملوا أتعاب السفر ومفارقة الأهل في سبيل تلبية دعوتنا والمشاركة في ملتقانا. ونرجو أن نكون عند حسن ظنهم وفي مستوى إكرامهم والعناية بهم.

كما أتقدم بهذه المناسبة الطيبة، إلى جميع من ساهم في الإعداد والتحضير للملتقى من لجنة التنظيم واللجنة العلمية وكل من ساهم من قريب أو من بعيد في إنجاح فعاليات هذا الملتقى الدولي، بالشكر الجزيل المفعم بالاحترام والتقدير. سائلين الله العليّ القدير التوفيق والسداد ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ القدير.

كلمة افتتاح الملتقى الدولي الثالث

للمسيد عميد الكلية الدكتور سعيد فكرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نعمته وتسنينه وتسيديه وتسنغفده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد..

فإني في هذا اليوم الأعز البهيج أرحب بالضيوف الكرام، كما أرحب بالأساتذة والعلماء الأفاضل الذين جاؤوا من خارج الوطن، وقد تحملوا وعناء السفر والإعداد للمشاركة في هذا الملتقى العلمي الواعد.

كما أحيي الحضور الكريم من الأساتذة والطلبة وأبناء الوطن الذين جاؤوا من داخل الولاية وخارجها، فأهلا وسهلا بالجميع إخوة ومواطنين وضيؤفا.

وبداية فإته منذ فتوحات الدول الإسلامية الأولى في جميع أنحاء المعمورة، ونشر الإسلام بين شعوبها، وانبهار دولتي الفرس والروم، أقوى قوتين في العالم حينذاك أمام الزحف الإسلامي، فإن الإسلام أصبح مستهدفا لقوى الرفض في العالم، وبقي الكيد يتجمع في النفوس إلى أن وجد له مخرجا في القرن العاشر الميلادي، وكان ما كان من الزحف الصليبي، الذي نمر البلاد وأفت الحرث والنمل، واستحل الحرمات واستولى على بيت المقدس وبقية بلاد الشام، وكان فيها الممالك، وبقي هذا الاحتلال الاستيطاني حوالي قرنين من الزمان، ولكنه لم يقو على الاستمرار أمام تصميم المسلمين على استعادة أوطانهم، فأجلاهم صلاح الدين من بيت المقدس ومن باقي بلاد الشام.

وقد هدأت هذه الموجة الحربية إلى أن جاءت الثورة الصناعية الحديثة بعد زمن العصور الوسطى، وكانت فرصة أخرى لأولي الأهواء لإعادة الكرة على الإسلام والمسلمين، واعتمدت فيها الدول الاستعمارية على قوة السلاح الذي اخترعوه، فاستك أول هذه الهجمة الاستعمارية من جديد على بلاد الإسلام ففتلوا ونمروا ونهبوا مقدرات البلاد، إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى والثانية وانحسرت بعدها ذيول الاستعمار فتحزرت معظم البلاد الإسلامية من نيزه.

وتكن نفوس أهل الشر من رجال الغرب تم تهاداً حتى غرسوا إسرائيل في جسم الأمة الإسلامية واستغلوا حادثة 11 سبتمبر 2001 وأعلنوها حرباً صليبية أخرى على هذه الأمة وبسببها. منزعجين بأسباب يعجز القاموس السياسي والمدني عن ترجمتها، وتسوا لهذه الأمة ما لا يمكن أن يكون فيها، مستغلين الشيء في القتل بين المقاومة والحياد واندفاع عن الوطن والعرض والنفس من جهة وبين الإرهاب من جهة ثانية.

على أن النهضة الأخيرة لقوى الشر الغربي خطيرة، لأنها تعتبر رجوعاً بالعالم إلى الوراء، إلى استعادة الهيمنة الاستعمارية على عقدرات الشعوب مرة أخرى، وكانت النتائج مدمرة، إذ في خلال سنتين اقتطعت فيهما بلدين إسلاميين، وموامرتهم مازالت تراوح الاستعداد لغزو بلد إسلامي ثالث.

ومن أجل دراسة واقع الأمة والتحديات المستقبلية التي تواجهها انعقد هذا الملتقى العلمي الثالث لكتبة العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بعنوان:

الإسلام والمسؤولون في القرن الخامس عشر الهجري الواقع والأفاق

وذلك في أيام 15 - 16 - 17 ماي 2004 .

مستهدف تحقيق بعض الأهداف منها:

1 - الاستفادة من تعاليم الإسلام السمحة، والقابلة لاحتواء كل معاني السلم والوئام والإيمان في هذا العالم.

2 - الأصل الحضاري الإسلامي بين الحضارات.

3 - تأثير الإسلام كنظام في النظام العالمي وتأثير دعوات الخير الأخرى في نفوس المسلمين، وتراوح الخير - إن صح التعبير - فيما عندنا وعند الشرفاء من قوى الخير الأخرى.

4 - ضرورة تكثف القوى الإسلامية مع قوى الخير في العالم وتوضيح الحقائق الزائفة لهذه النهضة الضالمة، وتكثيف العمل الثقافي والإعلامي اللازم لذلك.

5 - تصدير قيم الخير والسلام عن طريق الجاليات الإسلامية في الغرب.

هذه هي أهداف وغايات هذا الملتقى المبارك والذي سوف يأتي بكل ثماره

- إن شاء الله - بحيويتكم الغالية والفاعلة، والله المستعان، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ماذا يقدم المسلمون للحضارة المعاصرة؟ (الأخلاق - الحضارة - الإنسانية)

الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس
جامعة القاهرة. مصر

الإسلام ومنظومته الأخلاقية في مواجهة الماسونية واللاينية:

إن كل المحاولات التي يبذلها دعاة الحرية الفوضوية ودعاة اللاينية واللاأخلاقية محاولات محكوم عليها بالفشل، وحسب هذه المحاولات أن تبليد أفكار الأمة، وأن تجعلها تتأكل ذاتها، وأن تفقد بالتالي عقودا أو قرونا من مسيرتها الحضارية، فلا يمكن أن يستقيم هذا العالم الإنساني بدون قيم وأخلاق وروابط تحتفظ للإنسان بإنسانيته "في أحسن تقويم" كما أراد الله له، وتحول دون سقوطه "إلى أسفل سافلين" كما يريد أعداء الله له من شياطين الإنس والجن، متفقين كانوا أو إعلاميين أو مفكرين أو سياسيين !!

وعبر كل الدراسات المحترمة التي تكلمت في قضايا تفسير التاريخ نجد أن وجود (نظام) قيمي أخلاقي وقانوني يمثل شرطا أساسيا لبقاء النوع الإنساني، وبدون هذا (النظام) تنهار الحضارات ويسقط الإنسان إلى مستوى من الانحطاط لا يستطيع الحيوان أن يصل إليه وليس الدين في الحقيقة إلا الضامن الحقيقي لوجود نظام أخلاقي يحكم الحياة والإنسان ظاهريا وباطنيا، ويقيم علاقته بالله وبأخيه الإنسان على أسس إنسانية كريمة، ومن هنا كان القول المأثور عن رسول الله ﷺ "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (1).....

- يقول هنري برجسون: لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة*.

- ويقول (شاشاوان): "مهما يكن تقدمنا العجيب في العصر الحاضر علميا وصناعيا واقتصاديا واجتماعيا، فإن عقلنا في أوقات السكون والهدوء يعود إلى التأمل في المسائل الأزلية" ... أي أنه لابد من مبادئ، وأسس وثوابت أزلية وإنسانية وقيم أخلاقية لكي تقوم الحياة الإنسانية ولكي تستقر وتتطور ... ومهما مجلة الإحياء، العدد الثامن، 1425هـ، 2004م

تكن أمام أعيننا من ظواهر حضارية تبدو أنها مزدهرة بلا أخلاق ولا قيم ولا ثوابت، فيجب ألا نخدعنا هذه الظواهر، فالخلل يبدأ من الجذور، كما تستقر الجراثيم في الجسد عشرات السنين دون أن يشعر صاحبها بها، لكنها تعمل في كل ساعة على هدمه وقد سقطت الحضارة الرومانية في عدد من القرون - حسب دراسة جسيبون - بينما كانت تشعر بالزهو والخيلاء والكبرياء القومي، ولم تترك أثرا حضاريا يحمدها، بل إنها قامت بتشويه الدين ومزجه بالوثنية عندما اضطرت إلى قبوله، كما أن هذه الحضارة عمقت مفهومين خطيرين يؤثران سلبا في حياتنا المعاصرة، وهما مفهوم (الاستعلاء العنصري)، ومفهوم (سيطرة القوة على الحق) لمجرد أنها الأقوى، وكما يقول - بحق - المجاهد الكبير (علي عزت بيغوفيتش): إن الشعوب تدخل التاريخ عندما تكون غنية في الأخلاق، حتى وإن كانت فقيرة ماديا، وعندما تخرج منه فإن الوضع يكون عادة معكوسا، ويتبع ذلك استنتاج أن الحضارة بمعنى المعرفة المادية وحسب ممكنة، ولكن الأخلاق ليست نتيجة وإنما هي مقدمة تاريخية، وهي تنقي بالإنسان عندما يملك الوعي الديني الخالص. أما عندما يبتعد الوحي، وبالتالي - ينحدر - التطور التاريخي فإن الدين ينسحب أو يتحرف ونسقط الأخلاق، ويظهر على المسرح الانهيار الأخلاقي (2).

- وفي يقيني أن أول بل وأعظم ما يعطيه المسلمون للحضارة الحديثة هو الدين بمنظومته العقديّة والأخلاقية والتشريعية، ولا سيما بعد أن انهمكت القوى الداعية إلى الدين في الحضارة الحديثة، وأصبح الدين منقادا لا قائدا، وعليه أن يقبل ضغوط الواقع، حتى ولو كان هذا الواقع هبوطا بالإنسان إلى أسفل سافلين ممثلا في زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة ليس كسلوك شاذ، بل كسلوك معتن يثق باب بعض دور العبادة بقوة، وبضغط رهيب، ويعلم عن نفسه صراحة في ظل حماية قانونية!! ولعل هذا الانهزام الأخير الذي وصل إلى هذا المستوى جاء نتيجة تلك الأفكار التي أرادت زحزحة الدين بنظمه الأخلاقية والسبوعية، ودعت إلى نسبية القيم وتاريخيتها، كما دعت إلى نزع القداسة عن قضايا الجنس وتركها تتحرك في المجتمع بدون سيطرة قيمية أو دينية، وذلك مثلما يدعو (الدكتور صلاح فضل) في ورقته المقدمة إلى مؤتمر الثقافة العربية في القاهرة (3) - إلى تلك الإباحية الجنسية الفاضحة والشذوية قائلا: (إن أولى علامات التقدم

الاجتماعي [وهي أولى علامات الانحطاط الحيواني في رأينا !! - عند من يعرفون ألف باء حضارة] - تظهر عندما يتجاوز المجتمع المفهومات والعلاقات الناجمة عن إضفاء طابع الخطورة والأهمية على قضايا الجنس، ويقيم محلها مفهومات وعلاقات جديدة تركز على العقلانية وتحقيق المصالح الاجتماعية الكبرى في المجتمع والإنتاج والرفاهية.

- لأن بدائية المجتمع البطرقي تتجسد في بدائته الجنسية، ولكي يتحرر هذا المجتمع لابد أن تكون المرأة حرة تعتز بكرامتها الإنسانية واستقلالها عن الرصاية !!

- وحينئذ لا تشغل مسألة الجنس اهتمام الرقابة الاجتماعية ولا تصبح المتعة بأولوية قصوى في سلم الاهتمامات، ويتم تقبل الحلول التي اهتنت إليها المجتمعات المتطورة في سيرتها الحضارية عبر التاريخ، بما يحافظ على تحرر المرأة من بيع الجسد وامتلاك مصيرها المستقل⁽⁴⁾... أي بدل بيع جسدها فمن حقها أن تمنحه هبة مجانية للناس حصولا على المتعة وتحقيقا لإمتلاك مصيرها المستقل، إنها الشيوعية الجنسية التي كنا نظن أن الوعي البشري قد تجاوزها ... لكنها عانت بقوة بعد سيادة الفكر الماسوني والصهيوني على العالم ذلك الفكر الذي تآلق في مؤتمر (القاهرة وبكين) للسكان والتنمية - اللذين قصد منهما إباحة العلاقات الجنسية الشاذة، وإباحة الدعارة باسم الحرية الجنسية للمراهقين، وذلك بطريقة قانونية وتربوية تحميها الدول والمواثيق الدولية، وهذا يعني أن (الدين والأخلاق) في خطر عظيم وان (الماسونية والصهيونية) قد نجحتا داخل الحضارة الأوروبية ومجالات تأثيرها نجاحا كبيرا، بحيث يبدو أن أي محاولة لرسم صورة للتركيب الحضاري الأوربي لابد أن نتقنا بجلاء بأن الروح الأخلاقية التي أطلت على عصر النهضة، قد آلت إلى روح لا أخلاقية تكتنف كل مظاهر الحياة، وحتى العقل الذي عبد في مطلع هذه النهضة، طغت عليه مذاهب لا معقولة تهيمن على عوالم الفن والأدب والسلوك الاجتماعي!!

- واستغل الماسون الشعارات الثورية: الحرية، والإخاء، والمساواة، فأصبحت بذاتها - بعد أن جعلوها مذاهب - وسائل هدم تهدد حياة ومستقبل الإنسان بالخطر، فقد استغل هؤلاء أيضا التطور الفني والتقني، وأقنعوا الفكر الأوربي بأن هذا التطور في علوم الطبيعة كاف بذاته لإعطاء تفسير يغني عن

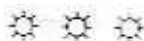
تفسير أصل الأثنياء بالله، وكاف في الدلالة على إمكانية الاستغناء عن الله، وللأسف الشديد فإن الكنيسة الأوروبية والمذاهب المسيحية أصبحت عاجزة عن صد التيارات اللاتينية والإباحية في المحيط الأوروبي وفي البلدان المأثرة به، كما أن رجال المسيحية قد أصبحوا خاضعين للصهيونية والماسونية وعاجزين في الوقت نفسه عن إقامة الجسور والتعاون مع الإسلام والمسلمين من أجل الاحتفاظ للدين والأخلاق بوجودهما وتأثيرهما، مع أن هذا التعاون ضروري ومهم ليس بين الحريصين على الدين والأخلاق من المسلمين والمسيحيين فحسب، بل بين كل المؤمنين بضرورة الثوابت الدينية والأخلاقية للحياة، وهم الذين يسميهم الرئيس (علي عزت بيغوفيتش) في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب (رجال الطريق الثالث) الذين يتكاتفون من أجل الوقوف ضد عبادة الأئمة الجديدة، وتقنين الأقانيم المادية البحتة، أو حسب تعبير رجاء جارودي الميثولوجيا الانتحارية للتقدم وللنمو على المنوال الغربي، ذلك المنوال الذي يتسم بالفصل بين العلوم والتقنيات (أي تنظيم الوسائل والقدرة) من جهة، وبين الحكمة (أي التنبصر بالغايات الإنسانية والدينية) من جهة أخرى.

- ويشير جارودي إلى ضرورة أن يكون هناك نظام اقتصادي عالمي جديد، ولا يمكن أن يوجد مثل هذا النظام بدون نظام ثقافي عالمي جديد؛ ينتقل بالإنسانية من الهيمنة الغربية العنصرية للأخلاقية إلى التصاور على مستوى الكرة الأرضية لإعادة تحديد مواصفات مشروع إنساني شامل - (مشروع الأمل) فالحوار بين الحضارات أصبح ضرورة ملحة ... إنه مسألة بقاء، ومهمتنا هي أن نعقد الحوار من جديد بين حضارات الشرق، والغرب لكي نضع حدا لمنولوج الغرب الانتحاري.

- والانتحار - في معجم جارودي - مرتبط تمام الارتباط بالكفر، وهي كلمة لها معنى محدد عنده، فهو يعرف الكفر باعتباره ("النظر إلى الأشياء كما لو كانت مستقلة عن أصلها وغايتها ومعناها") أي فصل الأشياء عن الدين والأخلاق والغايات العليا الذنوبية والأخروية.

وفي مقابل هذا الانتحار الغاياتي والأخلاقي العالمي يضع جارودي الرؤية الإسلامية للواقع، التي تنطلق من فكرة (التوحيد) والتي تعطي لكل حياة ولكل شيء معنى بالنسبة لعلاقته بالكل، وهذا التوحيد ليس توحيدا جامدا، فالتوحيد

الحقيقي هو (فعل من الله دائم الخلق، فعل من النبي، الذي بكلامه، الموحى به من الله، يكون ليس وحدة أو جملة ولكن فعل توحيد، فعل تجميع، فعل لكل إنسان يعي أنه ليس ثمة إلهي وحقيقي إلا الله وأنه في كل لحظة يربط كل شيء وكل حادث وكل عمل بمبينه * (5)



وسواء رضي أصحاب العقائد والرسالات الأخرى، ومثلهم أصحاب الطريق الثالث الذين يسعون لإنقاذ الإنسانية من الانتحار من أصحاب الضمائر والأخلاق.. أن يضعوا أيديهم في أيدي المسلمين أم لم يضعوا - فإن على المسلمين - حتى ولو وقفوا وحدهم ضد قوى الشر الصهيونية والماسونية والعلومية الأخلاقية والثقافية - أن يستميتوا في الدفاع عن الدين والحق والقيم الإنسانية الثابتة والأخلاق التي لا تستقيم الحضارة الإنسانية إلا بها ...

- وعلى الأمة المسلمة - ابتداء - أن تطهر أرضها من الأعشاب والحشرات الضارة، التي تنبت في صفوفها من أنصار الماسونية والصهيونية ... (دعاة هدم الدين والاستسلام للباطل ونشر الإباحية

الأخلاقية ... إعلاميين أو فلاسفة أو متقنين)، فيؤاء هم المنهودون من نوى القلوب الكافرة والعقول المستأجرة الذي إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون!!

- وإته لمن الخيانة العظمى لله إهمال الأمة الإسلامية لموظيفة البلاغ أمرا بمعروف ونهيا عن منكر وتثبيتا لموازنين الحق المطلق والقيم المطلقة التي تنظم كل الإنسانية.

- ومن الخيانة العظمى أيضا خضوعها لمحاولات التخل في ثوابتها وتحريف دينها ومناهجها، تعطيل حركة الدعوة والإغاثة والتكافل الاجتماعي بين أبنائها، تحت ضغط إرهابها بشعارات العنف والتطرف، بينما تعمل كل الكتلان التنصيرية، وبينما تحكم في الهند حكومة هندوكية، وتقام في أوروبا وأمريكا أحزاب مسيحية ويمينية متطرفة، وفي إسرائيل أحزاب غاية في التطرف والعنصرية ...

- أما المسلمون فيحرمون وحدهم من تقديم دينهم للعالم، ومن الإعلان العلمي الودود عن حقائق الإسلام العالمي الكفيل - قيل غيره - لو وجد رجالا

وظروفا لتمكين - بإنقاذ سفينة الإنسانية من الغرق تحت وطأة اللادينية والانحلالية الحيوانية ... بوسائله الرحيمة الكريمة التي تجسدها الآية القرآنية الكريمة: " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " (6).

- ولقد أنفذ المسلمون العالم القديم في القرن السابع عشر الميلادي، وأنقذوا إنسانية الإنسان التي كانت قد تهاوت أمام استبدك القياصرة والأباطرة والوثنيات والصراعات اللاهوتية وعبادة الشبوت والغرارز، وبالتالي غيروا المفاهيم والعقول والمعارف والعقائد على المستوى الإنساني كله بطرق متقاوتة بسطها الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه العظيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)

- وهم الآن - وحدهم - المؤهلون للدور نفسه، بعد أن أصبحت إنسانية الإنسان ميئدة بالدمار والحيوانية البهيمية واللاينية، كما يعلن (رينيه دوبو) في صدر كتابه (إنسانية الإنسان - نقد علمي للحضارة المادية) من خلال أقواله: تُحن ندعي أننا نعيش في عصر العلم، إلا أن الحقيقة هي أن الميدان العلمي، كما يدار الآن، ليس فيه تولز يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تذكر في إدارة أمور الإنسان ...

- "إن الحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية ونمو الإمكانيات الإنسانية "

- "إلا أن الاحتجاج على الأساليب التقليدية السائدة في السلوك، أو الاعتزال والانسحاب من النظام الاقتصادي الحالي لا يكفيان لتغيير الاتجاه الانتحاري الذي تسير فيه !! " (7)

- إن واقع المسلمين المريض الممزق المتخلف في هذه الأيام لا يعطي المبرر لأي مسلم - فردا أو مؤسسة أو دولة - أن يتقاص عن حمل هذه الرسالة لإنقاذ البشرية، وإنقاذ نفسه، وأداء الرسالة التي كلف الله بها المسلمين (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (8) - وأيضا (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (9)

- فالإسلام قام وانتشر وأنفذ العالم في ظروف أسوأ من ظروفنا، لكنه وجد رجالا تعاقبوا مع الله، وأخلصوا في تنفيذ العقد... (إن الله اشترى من المؤمنين

أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة..⁽¹⁰⁾ ولم يكونوا أشباه مسلمين، ولم يضلوا في الوسائل المحققة لأهدافهم، بل صبروا وصابروا واحتسبوا وامتلكوا أفضل الوسائل الحضارية للدعوة والتغيير... ولم يعطوا أعداءهم فرصة تشويه الإسلام... فنصروا الله حق النصر... فنصرهم الله ومكنهم في الأرض.....

- وتلك هي رسالتنا الثابتة... مهما كانت الظروف * إنها الدين والأخلاق... وهي رسالة كل فرد، وكل حزب، وكل أسرة، وكل مؤسسة في المحيط الإسلامي.

الإسلام وحضارته في مواجهة الحضارة المادية والفوضوية:

- جنح الشهيد سيد قطب - رحمه الله - إلى القول بأنه لا توجد حضارة سوى الحضارة الإسلامية، وهو يقصد بحضارة الإسلام حضارة كل الأنبياء... فالدين والنبوة والوحي المتكامل مع العقل الموضوعي..... هي جوهر ومسلمات كل حضارة... وبدونها.... فلا حضارة... !!

- ولو أن الشهيد سيد قطب قيّد كلامه ببعض الملاحظات الإضافية لكان كلامه مقبولاً، فالحق أن الحضارة الكاملة أو الصحيحة هي تلك الحضارة التي تقوم على العون - والوحي - الإلهيين، وترتبط بالسماء، ولا تنسى روح الإنسان وأشواقه العليا التي تمثل جزءاً أساسياً من تكوينه الإنساني.... كما تقوم - أيضاً - على العقل الإنساني، وعيا وتخطيطاً، وإبداعاً، وعلماً، وفناً، وتفصيلاً للوحي وتطبيقاً له في هذه الأرض !!

- لكن هذا لا يلغي وجود حضارات (ناقصة) أو (مؤقتة)، يمكن أن تستمر لعدة قرون، ذات صلة مشوهة أو هزيلة بالوحي !!

- وهو فقه حضاري مال إليه العلامة الجزائري مالك بن نبي.. إنصافاً للآخرين الذي استبقظوا برنة واحدة، ومشوا في الشروب بعين واحدة، ووصلوا - في بعض الأحيان - إلى ما لم يصل إليه الذين سلّوا فاعلية الوحي، وأصبحت علاقتهم به شكلية، فما انتفعوا بوحي صحيح يملكونه، ولا استهوا بعقل صحيح يعملونه... وقد كانت للإمام الشيخ محمد الغزالي عبارة ذكية يصف فيها هذه القسمة الحضارية، فيقول: * إن المسلمين ناموا في النور (أي نور الوحي) بينما استبقظ غيرهم في الظلام * أي بالعقل المحدود وحده !!

- وابتداء نحمل المسلمين جزءا كبيرا من المسؤولية في استيقاظ أوروبا بالعقل وحده، بعد أن قتلت النين الذي كاد رجاله يقتلون العقل في محيطهم، بينما وجدت أوروبا - وهي تستيقظ بعد هزيمتها في الحروب الصليبية - مسلمين لا يعرفون قيمة دينهم ولا تراثهم الذي هضمته تحقيقا لنهضتها، بينما أصحابه يعيشون مخترين بأمجاد الماضي، بعيدين عن إدراك بذور النهضة العلمية التي بدأت تظهر سيقانها منذ سقوط غرناطة 1492م بالأندلس، واستيعاب الأوربيين لما ورثوه وعاشوه في أسبانيا وصقلية ورومنس والرها وإيطاكية وبيت المقدس وطرابلس، وظهرت الخلافة العثمانية فركزت جهودها المشكورة على القوة العسكرية حماية للمسلمين المهددين، بينما غفلت - عن عدم وعي - عن الجوانب العلمية والحضارية الأخرى، ولا سيما التنظيمية والتكنولوجية !!

- وهكذا كان الوعي الحضاري الإسلامي القائم على جناحي الوحي والعقل غائبا، فكان لذلك تأثيره - مع التأثير اللاهوتي الكنسي في محاربة العقل والعلم - في الاتجاه الأوربي نحو عبادة العقل ونبذ الوحي، وفي التركيز على الجانب المادي والمصلي والتكنولوجي والندبوي من التطور، بعيدا عن مزج هذه الجوانب الحضارية بالعبادة الربانية، والوحي السماوي، ونصيب الروح والأخلاق والقيم والضمير في المنظومة الحضارية، حتى لا تسحق إنسانية الإنسان، وحتى لا يفقد الإنسان قيادة المادة للآلة، وحتى لا تنقطع الصلة الصحيحة بين الله والإنسان والندبا والأخرة والمصالح الخاصة والعامه

- وخلال قرون التطور الأوربي في عصر النهضة (القرن السادس عشر، والسابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر الميلادية) بقي الوضع ينحدر إلى أن انتهى بوصول الحضارة المادية إلى وحش مفترس يسحق شعوبا لمصالحه، ويعيش على الخداع والكنب، ويستعلى عنصريا، ولا مكان للأخرة في تخطيطه أو رؤيته أو معاملته للأخرين ... ولا في تنظيمه الاجتماعي والاقتصادي والتربوي حتى بلغ الأمر بكثير من فلاسفة الحضارة الذين عاشوا في ظلال هذه الحضارة سنوات طويلة، وخبروها عن قرب، إلى أن يياسوا من إصلاحها ... فيها هو ابنها الكبير "رجاء جارودي" بسميها (حضارة حفاري القبور للإنسانية) وعلى غلاف كتابه (حفار القبور)⁽¹¹⁾ يكتب شارحا: (الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها) ويأتي الجزء الأول من كتابه تحت عنوان: "العالم المحطم

والهيمنة الجديدة .. ونحن لا نستطيع هنا استقصاء التفاصيل التي ذكرها ... لأنها تحاول (محاولة صعبة) في أربعين صفحة حصر جرائم هدم الإنسانية خلال خمسة قرون من الاستعمار أدت إلى نهب ثروات ثلاث قارات وإلى تدمير اقتصادياتها وتكبيها بالديون (12).

أما الجزء الثاني فيتكلم فيه عن (أعراض الانحطاط).. وهو في نحو ثلاثين صفحة يحاول توضيح معنى الانحطاط الذي تقود من خلاله الولايات المتحدة العالم إلى الهاوية.. إنه (13) - أي الانحطاط - قطع أواصر النسيج الاجتماعي لتحويل المجتمع إلى ذرات، لتخريب العلاقات بين الجماعات القومية، الاجتماعية أو الدينية، وذلك عندما لا تعتبر وحدة العالم هدفا نهائيا وقاعدة كبرى. ويعني الانحطاط على المستوى الفردي، الاهتمام بالنفس ورفض الآخر ورفض أي مسؤولية تجاهه، وعلى مستوى الجماعات، هو النزوع إلى السيطرة.

وعبادة السوق والملكية المطلقة للمال تقود مجتمعاتنا - كل مجتمعاتنا - إلى الانحطاط وإلى الموت.

وتمثل الولايات المتحدة كل أعراض الانحطاط، وبصورة أكثر عمقا من الانحطاط الروماني وذلك لقيامها بالآتي:

1- تفكيك النسيج الاجتماعي من خلال تراجع المسؤولية الجماعية لصالح الأناية واللامبالاة.

2- تفكيك المجتمع بسبب تزايد عدم المساواة، (التمييز العنصري) الاقتصادي والثقافي.

3- تفكيك مستقبل المجتمع، بسبب محاولة الاستفادة القصوى من الحاضر على حساب المستقبل، باستخدام الوسائل المتاحة دون الوعي بالأهداف النهائية الكبرى.. !!

-.. ولكن (جارودي) لا يتركنا عند تشخيص المرضى أو تحليل أبعاد الأزمة، بل يقدم لنا من وجهة نظره الوسائل الكفيلة بالمواجهة، ونحن نرى ضرورة أن نتعرف عليها لنفيد منها، ولنضيف إليها، إنه يرى ضرورة القيام بما يلي:

- 1- إيقاظ رد فعل شعبي نافذ حول أهداف الحياة وحول الأهداف النهائية لتاريخنا المشترك (وفي رأينا أن المسلمين هم الأولي بالتصدي في هذا الجانب).
- 2- مفتاح حل مشكلتنا الكبرى، هو تغيير جذري في علاقات الحضارة الأوربية مع العالم الثالث بهدف قلب أساليب الضغط المدمر لصندوق النقد الدولي، وأيضا بالتوقف عن التمييز، عن طريق الهيمنة الاستعمارية للتنمية الداخلية.
- وحل مشكلات الثقافة إذا ما زيلت المزاعم الغربية بالتفوق وعالمية نماذجها للنمو والثقافة، وذلك من أجل الانفتاح على الثقافات الأخرى، برغبة في التأثير المتبادل.
- 3- ونكرر بلا ملل: العبء الرئيسية هي وحدانية السوق بنظريتها الأساسية:

- أسطورة الحداثة، وأسطورة الديمقراطية، من أجل محاربة ذلك لأبد من تقايل جهود كل من تمثل الحياة عندهم معنى: إيمان بالله، أو إيمان بالإنسان (أي لا حداثة بلا إيمان، ولا ديمقراطية بلا أخلاق)

4- تغيير نمط حياتنا لن يتم فقط من خلال التبشير الأخلاقي وعكس الوضع الحالي، بل أيضا عن طريق مشاركة لكل هؤلاء الذين لا يعيشون من التفكير الطفيلي في الفساد، لكن يعيشون من الإبداع والإنتاج الحقيقي لخدمة المجتمع (14)

وهكذا يشخص لنا رجاء جارودي الداء الحضاري الذي تعاني منه البشرية كلها، نتيجة وجود قوة يسميها هو (الولايات المتحدة الأمريكية) تحفر للبشرية قبرها، وتفقد في كل يوم شعوبا إلى الموت بدءا من الهنود الحمر، إلى المخطوفين من أدغال إفريقيا، إلى إبادة الأفغان، والفلسطينيين، ثم العراقيين... بصمت - وتواطؤ - من كثير من قوى العالم.

- لكننا نرى أن الولايات المتحدة، بينما تقوم بحفر القبر العالمي وتعرض عصر الانحطاط، كما يرى جارودي هي - كذلك - من أوائل من سيصيبيهم الزوال ... فئمة (قوة صهيونية ماسونية قبلية) تضرب بهم، وتضربهم في الوقت نفسه ... وهي التي تفعل ذلك بدرجات متفاوتة في أوروبا ... بحيث يمكننا أن نقول: إن الحضارة الإنسانية كلها في خطر والعميان - حسب تعبير بروتوكولات حكماء صهيون - لا يعرفون أنهم وهم يدمرون الآخرين إنما

يدمرون الأرض كلها ... بينة، وأخلاقاً، ودينياً وروحاً، واقتصاداً، واجتماعاً، وثقافة، واحدية النظر، عنصرية المنطلق، نافية لما سواها.

- وليس غير المسلمين بمنهجهم الحضاري الإنساني الرباني، وباحترامهم للأخر، وإيمانهم بالتعددية، وبوضعهم العلم في مكانه الصحيح... بناءً لا هدمًا، وسيلة لا غاية، وإدراكاً لما يوصل لخشية الله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (15)، وليس تقدسًا للعلم، واستغناءً به عن الله والروح والضمير والدين، فكأن هذا العلم (صنم ثابت قابل للعبادة) وعلى سدنته أن يروجوا لقداسته حتى وهو في أشد حالات تخريبه للإنسان، فالقنابل الذرية القاتلة توصف بالنكاء، والإبداع والقدرات الخارقة، والسباق يجزي، - - - بجنون عقلاني - للمزيد من امتلاك أسباب الهلاك

لكننا نحن - المسلمين - مطالبون بوضع حد لهذا الجنون العلمي، والنظر إلى العلم على أنه نسبي، لا تقل عنه وسائل معرفية أخرى، من حيث إن الدين، والإيمان، والحس الكلي ... والفطرة هي أيضا - مصادر متوازنة مع العلم لتحقيق المعرفة الصحيحة (16)، وهي مصادر تميزنا ... وتحقق لنا أهدافاً لا تتحقق في المستوى الإنساني الآن، حيث الغلبة لعبادة العلم والمادة والقوة ... !!

- وإذا كانت الحضارة الحديثة قد رضيت العلم والمادة والقوة ... !!

فنحن - في مشروعتنا الحضاري - نضع العلم في إطاره وحجمه حتى لا يتحول إلى آلة دمار وخراب ... ولكننا نعدده ركيزة أساسية في مشروعنا الإسلامي الحضاري الذي يقوم على مفاهيم مضامين محورية تتصف بالشمول والكمال كيما تكون صالحة بمجموعها لتمثيل المشروع الحضاري الذي يمثل بدوره الإسلام عقيدة وشريعة وفلسفة إزاء الكون والحياة والإنسان.

- وهذه المفاهيم المحورية ليست مجرد أفكار نظرية بل يجب إزائها لا في بوتقة العمل الإصلاحية الحضاري فحسب، بل يتعين اتساقها من الإصلاحيين أنفسهم، من حركاتهم وسكناتهم في رعايتهم وشدتهم، وأن تترجم في أهدافهم وبرامجهم، ببوتهم وأعمالهم، وفي أفعالهم قبل أقوالهم، لتستحيل تلك القضايا والأفكار إلى أكسجين منبعت في فضاء الإصلاح يتنفسه كل أحد يتنفسه الرائح والغادي ... القريب والبعيد ... الصديق والمعادي ... أي أن يكون المشروع الحضاري روحاً يتفخ الإصلاحيون فيه الحياة بتمثيلهم مقدراته، وسعيهم من أجل نشره وتنفيذه بكل إخلاص وإبداع وإتقان ... (17)

ومن أهم الأفكار المحورية التي تسهم في بلورة ذلك المشروع ما يلي:

الإسلام: دين وتسرير وحياء.

أساس الحضارة: التوحيد الخالص العملي.

فهم ومعايشة وتطبيق القرآن حتى يكون هادياً للتي هي أقوم.

توحد في المنطلقات: بوجوب الانبثاق من الكتاب والسنة.

وقود التغيير: الفعالية الروحية - مفاتيح التغيير الحضاري: الفكر بتحسين طرائق التفكير.

ومفاتيح التغيير الحضاري العملي: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

وإرادة التغيير: الرجل بأمة.

العلم بمجالاته وتركيباته وترابطه.

تكريم الإنسان: معيار تفوق الحضارة.

تنمية الإنسان أولاً: مؤشر لفته الأولويات الحضارية

العدالة: ركيزة البناء الحضاري.

الموضوعية: البحث عن الحقيقة.

الحرية: في إطار متضبط.

النقد عملية بنائية.

الإبداع: مقومات وبيئة.

نهج إداري فاعل: إنجاز التعزيز وتميز الإنجاز

الوقت: فضاء الإنجاز والعطاء.

الانفتاح والاستيعاب والإفادة من الآخر: في دائرة الخصوصية.

الرجل والمرأة: حلقان متكاملتان وعاملان منتجتان.

الجماعة قبل الفرد: نحن أولاً: (أي قبل أنا) (18)

ويضاف إلى هذه الأفكار المحورية: المقومات التي تنطلق منها

الرسالة الحضارية الإسلامية الإنسانية، وهي مقومات يحصرها الشيخ يوسف

القرضاوي في عشرين مقوماً، لكنها - بتعيين مقومات أساسية يمكن أن تضاف

إليها مقومات أخرى من هذه المقومات: رسالة العقيدة الموافقة للفطرة،

ورسالة العبادة الدافعة للعمارة، ورسالة العقل المهيئ بالوحي، ورسالة العلم المرتبط بالإيمان، ورسالة الإيمان المقترن بالعمل، ورسالة العمل المنتظم بالدعوة، ورسالة الدنيا المعدة للأخرة، ورسالة الجسم الممتود بالروح، ورسالة الموازنة مع الواجبات، ورسالة الحرية الخادمة للفضيلة، ورسالة الأخلاق المرتقية للإنسان.. ورسالة الفرد المنتظم في أسرة ومجتمع، ورسالة المجتمع الذي لا يطغى على الأفراد، ورسالة الأمة المنفتحة على العالم، ورسالة الدولة المقيمة للدين، ورسالة التشريع المحقق للمصالح، ورسالة العدل المؤيد بالإحسان، ورسالة الفن المنتظم بالقيم (19)

- ويضاف إلى هذه المقومات تلك الخصائص التي يتميز بها نسيج التكليف والأحكام والقيم الإسلامية كلها!!

ومن هذه الخصائص (الوسطية والتوازن) دون إفراط أو تفريط، بين الروح والمادة، والفرد والمجتمع بين الربانية والإنسانية، بين الوحي والعقل، بين الروحية والمادية، بين الأخروية والدنيوية، بين المثالية والواقعية بين الماضية والمستقبلية، بين المسؤولية والحرية، بين الانبعاث والابتداع، بين الواجبات والحقوق، بين الثبات والتغيير.... بل هذا هو العجيب؛ تحقيق التكامل بين ذلك كله.... بين كل ما يبدو من ثنائيات... وعلى رأس ذلك التكامل بين العلم والإيمان والوحي والعقل، والروح والمادة، والعدل والرحمة!!

وفي ختام هذا النداء الذي نوجهه للمسلمين كي يتركوا قيمة ما عندهم من دين وحضارة وينبعثوا - بالتالي - لتقديم مشروعهم الحضاري، والأخذ بيد الإنسانية المهددة في وجودها - نذكر المسلمين بأن إمامهم محمداً صلى الله عليه وسلم وتلامنته وأصحابه - وهم الأميون - قد استطاعوا صناعة الإنسان الأمي القادر على تغيير الحضارة المادية العنصرية الحضارة ربانية إنسانية.

فهل يعجز المسلمون وعندهم الآن ملايين الباحثين والأساتذة ومئات الآلاف من المدارس والجامعات..... وعشرات الآلاف من العقول المهاجرة المبدعة الهاربة من الأوضاع الداخلية الفاسدة.

هل يعجزون عن إنقاذ الإنسانية - ولديهم إمكانات هائلة - ممّا أنقذ أسلافهم الإنسانية من قتل، يوم أن كان الظلم والاستعباد وعبادة الغرائز والحروب هي القوانين المسيطرة على عالم القرون الوسطى!!!

إنسانية الإسلام في مواجهة الحضارة الحيوانية:

توشك حضارة (الشذوذ) أن تصل بالإنسان إلى (أسفل سافلين) بعد أن عقدت لعنتين الحيوانية مؤتمرات التنمية والسكان، وعقدت لعنتين اللاتينية والنقوضوية مؤتمرات العولمة والعلمنة، بقيادة الماسونية والصهيونية والقبائلية المسيطرة على مواقع التأثير السياسي والإعلامي والاقتصادي في العالم ... ونحن ملزمون بالتحذير من هذه الحضارة التي نسبت الله والدين، وأصبحت مسيحا دجالا ينظر بعين واحدة ويكيل يكيلين، ويلعب بالعقول ... ولهذا فنحن ملزمون بالإصغاء إلى (محمد إقبال) وهو يقول لنا:

أياكم وهذه الحضارة اللاتينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق، إن هذه الفتنة تجلب فتنا وتعيد اللات والعزى إلى الحزم، إن القلب يعمى بتأثير سحرها، وإن الأرواح تموت عطشا في سرايها، إنها تقضي على لوعة القلب بل تنزع القلب من القالب، إنها لص قد تمرن على اللصوصية فيغير نهارا وجهارا، إنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له .

ويتابع إقبال الذي عاش بين أحضان الحضارة الغربية تحذيره للمسلمين

قائلا:

- إن شعار هذه الحضارة: الغارة على الإنسانية، والفتك بأفراد النوع البشري، وإن شغلها الدائم التجارة، إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء، وبالحب البريء النزيه، والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة (20)

وأیضا:

إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم الذي تقوم عليه تجارتها، وتتفق سلعتها، ليست هذه المصارف العظيمة إلا ولادة دهاء اليهود الإنكباء، الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم.

إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام ما لم ينقلب هذا النظام

رأساً على عقب *

إنها حضارة شابة - بحدثة سننها والحيوية الكامنة فيها، ولكنها محتضرة تعاني سكرات الموت، وإن لم تمت حتف نفسها فستتحر وتقتل نفسها بخنجرها، ولا غرابة في ذلك، فإن كل وكر يقوم على عصب ضعيف ليس له استقرار " ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود⁽²¹⁾.

- وما تتبأ به (محمد إقبال) نعيشه اليوم، ولا سيما بعد مؤتمرات السكان والتنمية ووضوح الهيمنة الصهيونية على العرشين الأمريكي والأوروبي، وبعد أن ظهر خضوع بعض الكنائس وقساوستها لضغوط قيادات الشذوذ الجنسي، وعقد بعض الزيجات في بعض الكنائس بين الشواذ، وتمكين بعض الشواذ من القيام بخدمات لاهوتية، وهذا يجعلنا نأس من قطاع كبير من المسيحيين، ولا سيما طائفة البروتستانت، ونوقن في الوقت نفسه، أن الأصابع الصهيونية والماسونية وراء هذا الهبوط الذي دعت إليه بوضوح: بروتوكولات حكماء صهيون.

- ونحن هنا نؤيد النزعة الإنسانية والشمولية التي يدعو إليها (إقبال) - أمة المسلمين - في مواجهة هذه الأخطار، فالأمة الإسلامية ذات مسئولية نحو الإنسانية كلها، ونحن لهذا - نختلف مع العلامة (مالك بن نبي) الذي أخذ على إقبال أنه وهو يخطط للعالم الإسلامي طريق نهضته الروحية - طالبه بصبغة في التفكير تمكنه من النظر إلى الأشياء والتنظيمات " لا من حيث نفعها أو ضررها الاجتماعي الذي تعود به على بلد أو آخر بل من حيث الأهداف العظمى التي يسعى إليها مجموع الإنسانية " فهذا النوع من الفكر الميتافيزيقي الذي قال به إقبال قد يصطدم بالأذهان ذات النزعة العقلية، تلك التي ترى أن كل مالا يدخل في نطاق المادة لا يدخل في نطاق العقل" - كما يرى مالك بن نبي⁽²²⁾ أن دخول العثمانيين إلى أوروبا كان سيحمل إلى أوروبا إسلاما لا يعيش أصحابه عصر تألق به، ولا فقه صحيح له، بينما كانت حضارة المسلمين في حاجة إلى شفق يغلقيها لحظة لؤلؤها -

- لقد كانت إحداهما - أي أوروبا - بداية نظام جديد، وكانت الأخرى - أي الخلافة العثمانية - نهاية نظام دارس، وما كان شيء في الأرض يستطيع أن يدفع عن العالم النيل، الذي أخذ يسيطر سلطانه آنذ على البلاد الإسلامية في هدوء، فلو أن نيمورلنك كان قد أتبع دوافعه الشخصية لما استطاع شيء أن يحول دون نهاية الحضارة الإنسانية.

- وأخيرا ينسأل - ويجيب - مالك بن نبي قائلا: لماذا حال تيمورلنك دون قيام بايزيد وطغاطامينتش بنشر الإسلام في قلب أوروبا ... ؟

- والجواب: لكي تتابع أوروبا المسيحية جهودها الحضارية الذي لم يكن العالم الإسلامي بقادر عليه منذ القرن الرابع عشر، حيث كان في نهاية رمقه!! .
- ومهما يكن من شيء، فإن مضمون هذه الأحداث التاريخية، ليس بالبساطة التي قد تظهر لأعين الذين لا ينظرون إلى الأشياء إلا من وجهة النظر الفردية، أو القومية، فهناك حسب تعبير إقبال " خطة للمجموع " هي التي تكشف عن اتجاه التاريخ (13).

ومن جانبنا - نرى - في مجال التعليق على الرؤية العميقة لفيلسوفنا مالك بن نبي - أنه لم يكن ضرورة لازب، ولا قولاً واحداً - أن يكون الإسلام الذي يذهب به الخليفة (بايزيد) وإخوانه من الأتراك - إلى أوروبا، مقلداً بكل الشحنات الخاصة - ذات الطابع العسكري الصارم - الذي يحمله جنود آل عثمان الذي تغلب عسكريتهم وغيرتهم على فقههم الحضاري ... ولقد كان ممكناً أن يجد الإسلام في أوروبا الناهضة التثويرية الصاعدة أرضه الخصبة التي يبحث عنها - في دورته تلك - لكي ينتج من خلالها منهجية إسلامية حضارية إيجابية عقلية فاعلة بعيداً عن الجزئية والسكونية المشرقية

وقد كان من شأن هذا - الواقع - أن ينقذ الإنسانية من المسيرة الحضارية الأوربية التي تقنعت عقلاً على حساب دين الكنيسة الذي عجز عن استيعاب شروط النهضة ... وكان في جموده ووقوفه ضد العلم والعقل أسوأ - ألف مرة - من جمود العثمانيين.

- وأيا كان الأمر ... فإن الإنسانية اليوم - أوربية وغير أوربية - أحوج ما تكون إلى الإسلام الصحيح.. بعيداً عن تشردم المسلمين وتخليهم ...

- ولعل الظروف الإنسانية المعاصرة ... والشباب المسلم المثقف الحكيم الفقيه بدينه و وبالواقع يحقق هذا التلاحم بين الإيجابيات الأوروبية والأمريكية التي لا يمكن إنكار قيمتها في الجوانب المادية والمعاشية وبين إنسانية الإسلام التي تملك وحدها منهجاً إنسانياً عالمياً يقوم على الرحمة والمساواة والأخوة بين جميع البشر في المجالين معاً:

مجال تحقيق سلم عام وعلاج تام لأمراض الإنسانية في الأوقات السلمية، ومجال فرض الإنسانية في الأزمات والحروب

فأما في المجال السلمي العام والظروف العادية، فإن منهجنا يقوم على اتباع منهج رسول الله ﷺ - وهو - للأسف - المنهاج الذي يفنقه عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها، أو يتسللون إليها من نوافذها، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب، فمنهم من يوفق لإزالة بعضها مؤقتا في بعض البلاد، ومنهم من يموت ولم ينجح في مهمته.

- لكن منهج النبوة يأتي بيت الدعوة والإصلاح من بابها، ويضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه، تلك القفل المعقد الذي أعيا فتحه جميع المصلحين في عهد الفترة، وكل من حاول فتحه من بعده تغير مفتاحه، وهو مفتاح الدعوة إلى الإيمان بوجود الله وحده، ورفض الأوثان والعبادات، والكفر بالطاغوت بكل معاني الكلمة " يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ! " والدعوة إلى الإيمان برسالات الله، والإيمان بالآخرة، وبكل الأنبياء والرسل !!

- وقد رأينا أن أصحابه عندما آمنوا وتفتحت قلوبهم على الحقائق الكبرى ... عولج كل شيء لأن الإنسان قد عولجت فطرته ... فأصبح مفتاح الفطرة مؤهلا لعلاج كل الأمراض وإدراك كل الحقائق ...

- وهكذا يجب أن نفعل اليوم ... والنتائج نفسها تنتظرنا - لو حاولنا أن نصبح (أمة دعوة) أمة الحضارة الحقّة.. خير أمة أخرجت للناس ومن ثم نحول أفرادا ومؤسسات ودولا إلى (دعاة فقه حضاري خالص)، لنا مشروعنا لإنقاذ الإنسانية ... لا تصادم الباطل بالباطل، ولا العنف بالعنف، ولا دعوة الصدام بالصدام، بل بالحوار والعدل والإحسان.

إن من الواجب علينا في عصرنا هذا - أن نمضي على منهج الرسول ﷺ في إصلاح الخلل العالمي، فلا ننسخ باطلا بباطل، ولا نبدل عدوانا بعدوان، ولا نُحرم شيئا في مكان ونُجِّله في مكان آخر، أو نبدل أثره أمة بأثره أمة أخرى.

وإنما نجاهد في سبيل إخراج عباد الله جميعا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ونخرج الناس جميعا من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام (24)

وخطابنا - كذلك على خطى رسول الله ﷺ - لن يكون خطاباً لأمة دون أمة ولا لوطن دون وطن، ولكنه خطاب للنفس البشرية وللضمير الإنساني كله.

وأما في المجالات الاستثنائية - مجالات الحروب والنزاعات، فإن الإسلام - كذلك - يقدم لنا الإطار الإنساني الذي يلزم بالتزامه، وعلى المسلمين أن يجاهدوا ليحملوا غيرهم على التزامه أيضاً.....

ويقدم لنا (مارسيل بوزار) خلاصة النظام القانوني الإسلامي في هذه الحالات الاستثنائية في كتابه (إنسانية الإسلام) في هذه النقاط المحددة:

- 1- حظر التجاوز والعش والظلم في جميع المجالات.
- 2- منع إنزال الأضرار الزائدة على الحاجة بالعدو، كالقتل، والقسوة والتعذيب المهيّن.
- 3- حظر أعمال التدمير غير المفيدة، ولا سيما إتلاف المزروعات.
- 4- إدانة الأسلحة المسمومة والتدمير الجماعي العشوائي.
- 5- التمييز بين المقاتلين، وهم يحلمون في الجيوش الإسلامية شارات مميزة - وبين المدنيين غير المشتركين بصورة مباشرة في القتال.
- 6- احترام المنسحبين من الانحمام، كالجرحي، والجنود المتمتعين بأمان موسع - الحماية - وأسرى الحرب.
- 7- المعاملة الإنسانية للأسرى للذين يبادل بهم، أو يحررون من جانب واحد، حين تضع الحرب أوزارها، شرط ألا يبقى أي أسير مسلم في قبضة الأعداء.
- 8- حماية السكان المدنيين: احترام أديانهم - وبالتالي حدساتهم - رؤساء هذه الأديان، ولا شرعية لقتل الرهائن واعتصاب النساء.
- 9- تأكيد المسؤولية الفردية: إلغاء كل عقوبة تصدر بحق أشخاص عن جرائم لم يرتكبوها بأنفسهم.
- 10- لا شرعية في مقابلة الأذى بالأذى والتدابير الردعية التي قد تكون مخالفة للمبادئ الإنسانية الأساسية.
- 11- التعاون مع العدو في الأعمال الإنسانية. (25)

12- منع كل مخالف لأحكام المعاهدات التي يعقدها المسلمون منعاً

ياتنا...!!

والحق أن ما قدمه يوازى خلاصة قانونية كافية دالة على عظمة ما يملكه المسلمون للحضارة الإنسانية المعاصرة في شتى المواقف وفي كل الحالات ... والمهم أن يجاهدوه في الله حق جهاده أختين بأسباب التمكين والتأثير: "وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير * (26)

الهوامش :

- (1) روادك في لوطا، وورد في الحكم وسند أحمد والبيهقي (بنون بما) كما ورد بلفظ صالح الأخلاق
- (2) هروبي إلى الحرية: دار الفكر العربي ط1/2002 ميلادية نقلا عن مصطفى الأزهرى الشارح الجديد عند 23- القاهرة
- (3) 1- 3 يوليو 2003 المجلس الأعلى للثقافة - مصر (وهو مؤتمر تعريبي يسمى في عمدة الدين وتخصيه تسامحا مع الافتقار العلمانية والصيغونية الشامة !!
- (4) صلاح فضل - المرجع السابق
- (5) نقلا عن عبد الوهاب المسيري ك اليهود في عجل هولاء ص 119، 120 سلسلة قرأ 620 - دار المعارف، مصر
- (6) الأبيات 107
- (7) رغبية نوبوا - بسلفية الإنسان - مؤسسة الرسالة بيروت ط 1399هـ - 1979م ص 25
- (8) ل عمرو 110
- (9) البقرة 145
- (10) التوبة 111
- (11) نشر دار الشروق - القاهرة ط 1 / 1419هـ
- (12) جارودي: حقاو القور ص 17
- (13) جارودي: حقاو القور ص 68، 69
- (14) المرجع السابق ص 124-123
- (15) فاطر (28)

(16) يحيى الخواوي: بعد النظر في كل شيء - القارة او كتلة - يتصرف - بحث ليوتمر (وزارة الثقافة المصرية) (الفرنسي) - مرجع سابق !!

(17) عبد الله التويهي: النموذج والمجاز - (المنار الجديد، العدد 15، القاهرة، بحث في السلسلة الحضارية .

(18) عبد الله التويهي: المرجع السابق.

(19) يوسف القرضاوي: هل عد امتا رسالة حضارية للبشرية ؟ من بحث حاجة البشرية الى الرسالة الحضارية لامتنا الاسلامية، موقع اسلام اون لاين بتاريخ 2002/4/29

(20) الشيخ ابو الحسن الثنوي: روافع اقبال، ص 70، ط الرابع، 1418هـ - 1998م، دار الفقه، الكويت.

(21) نفس المرجع السابق، ص: 71

(22) وجهة العالم الإسلامي: ص 360، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر، دمشق 1402هـ.

(23) نفس المرجع السابق، ص 164

(24) انظر في تفصيل هذا مسأحة الشيخ ابي الحسن الثنوي: ماذا خسر العالم بالمعطاة المسلمين ص 93، 94

(25) مارسيل بولز: إمكانية الاسلام من 294 منشورات لاداب بيروت ط 1 / 1980

(26) الحج الابه الاخيرة رقم 78

الإسلام والمسلمون وتحديات القرن الخامس عشر الهجري

الأستاذ الدكتور سعيد فكرة
عميد كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

مقدمة :

إن الحمد لله نحمده وتستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسينات أعمالنا والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وبعد:

إن الإسلام في جوهره دين للحياة بكل أنماطها المختلفة، دين يريد صياغة المسلم صياغة متوازنة متزنة من خلال الجمع والترايط الوثيق بين حياة الإنسان بجميع علاقاته وصلاته بالله وبنفسه وبسائر الكائنات من جنسه ومن غير ذلك، وفي إطار ذلك يتم التوازن والاستقامة، وعليه يتم التعاون على الخير ويتنافى التعاون على الشر. ولعل من أسباب التخلف الذي تصاب به الأمم هو عدم الالتفات إلى مثل هذه الحقائق التي أقام الله عليها الدنيا والآخرة في توازن واتزان. فاستقامة النفس على طريق الخير والرشاد يحقق التواصل الرباني والإنساني. فتقسيم الحياة على أحسن التوزيع التي أرادها الله ومن أجلها خلق الإنسان في أحسن تقويم. ومن شأن الوعي بهذه الحقيقة أن يدفع البشر إلى التعامل مع بعضهم البعض وفقا للمبادئ الأساسية في الحياة وهي :

- العدل - التراحم - التعاون - المساواة - الحرية

والهدف من كل هذا هو إقامة مجتمع إنساني يسوده الأمن والاستقرار والطمأنينة فيشعر كل فرد فيه بالأمن على نفسه وعائلته. فينطلق بذلك الإنسان إلى التمتع بكل الخيرات والكائنات التي سخرها الله له وجعلها في خدمته من أجل تمجيد الكون كله لما فيه خير الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، فانه كرم الإنسان وخلقه في أحسن تقويم ورفع من مقامه وجعل الشمس والقمر كل له مسخرات لينتفع بها وهكذا سائر الكائنات، ومن منطلق هذا التكريم حملته الله المسؤولية في هذا الكون فأصبح وكيلًا عن الله وخليفة له في الأرض ليعمرها وينشر فيها الخير ويتعاون على الخير والتقوى. ويحسن عمارتها ماديا، ومعنويا، لينتفعم ذلك مع

تتأنيب خلق الإنسان من المادة والزواج، ومع هذا جعل الله البشر إخوة على اختلاف أجناسهم واللوانيم ومذاهبهم ، فكلهم أبناء آدم وحواء لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بتقوى الله.

وتأسيساً على ذلك أرسى الإسلام قواعد أساسية في التعامل بين بني البشر قائمة على منطلق التعارف والتألف والتسامح والتعاون، لا على أنها منطلق للتنازع والشقاق والحروب والخصومات . مصداقاً لقوله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ الْحَجَرَات.**

ومن هنا فرض الله على المسلمين العيش مع الآخرين في عدل وسلام بوضوحه قوله تعالى: ﴿لَا يَنْبِئُكُمْ لَهُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلِكُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ يَبْرُوهُمْ وَيَتَغَطَّوْا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمَقْصُطِينَ ۗ﴾ وهكذا يؤكد الإسلام قاعدة التعايش السلمي بين بني البشر بناء على أن جميع البشر عباد الله فيتعاونون فيما بينهم بما قضى الله. لا يقتل أحدٌ أحداً ولا يظلمه ولا يخذله، تلك هي نظرة الإسلام قديماً وحديثاً إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وذلك هو الإسلام وهذه هي نظريته وهي مبادئه التي لا تتغير ولا تتبدل أبداً الدهر سواء في عصر تعدد الأقطاب أو في عصر عولمة القطب الواحد اليوم.

غير أن النظام الدولي الجديد تمخض عن تحديات استراتيجية تتبنى إجهاض حركة الأمة وإسلاميا ومسارها، نعم إجهاض حركة الأمة نحو مشروعها الحضاري الإسلامي النازع، يستهدف إبقاء الأمة العربية والإسلامية مجزأة منقسمة، مسلوبية الهوية محرومة من أدوات النهوض المعرفية والتكنولوجية، تابعة في اقتصادها وحركتها الثقافية، بل تتفاقم مشكلة التحديات أكثر حينما تكون العلة ذات شقين داخلية وخارجية. فالتحديات التي تواجه الإسلام والمسلمين في القرن الخامس عشر الهجري كثيرة يصعب حصرها ناهيك عن علاجها في ظل قانون النظام الدولي الجديد وما تفرزه من تحديات مختلفة وشائكة في أن واحد. وهذه التحديات هي التي تحدد إشكالية هذا المنقى -أو هذه الورقة- والتي يمكن صياغتها في الأسئلة الآتية: ما هي التحديات التي تواجه امتنا؟ وما نوعها؟ وما حدثها؟ وما شكلها؟ وما هو محورها؟ وما هو عطاؤها؟ ما هو موقف الإسلام منها؟

وفي ظل هذه الأسئلة الحزنية يمكنني صياغة خطة هذه الورقة على النحو

الآتي محدداً بذلك أهم التحديات ثم تنويعها حسب ما يقتضيه البحث.

أولاً : التحديات العامة:

- 1- التحدي السياسي
- 2- التحدي الحضاري
- 3- التحدي الفكري والثقافي —عولمة الثقافة—
- 4- التحدي التكنولوجي وثقافة المستقبل
- 5- التحدي الاجتماعي والإقتصادي
- 6- التحدي الإعلامي

ثانياً : التحديات الخاصة وهي:

- 1- حوار أم صراع الحضارات
 - 2- نهاية أو بداية التاريخ
 - 3- هوية أو لا هوية الثقافة العربية والإسلامية
 - 4- ضعف الوسائل الأساسية للثقافة العربية.
 - 5- ضعف المخرجات
 - 6- ضعف أدوات التعامل
 - 7- الانفجار السكاني
 - 8- المصطلحات التي أفرزها عصر العولمة: الديمقراطية وحقوق الإنسان والتقدم العلمي وتيارات التطرف..الإرهاب.. إلى غير ذلك من التحديات التي تمخض عنها القرن الخامس عشر الهجري.
- إشارات أولية لا بد منها

أولاً: الإسلام في القرن الخامس عشر الهجري

الحديث عن الإسلام يعني الحديث عن حقيقته وعن مبادئه، فالإسلام دين رباني، ليس تياراً فكرياً وثقافياً يخشى عليه من التيارات الفكرية الوافدة، فهو دين له جذوره، جذور ضاربة في الأعماق، ولا يخشى عليه من أية تيارات داخلية أو خارجية مهما كانت قوتها وحدتها. فهو دين ينماشى مع الفطرة الإنسانية في جذورها وأصالتها لا يتأثر بالعوامل سواء الداخلية منها أو الخارجية وسواء تعت بالخير أو الشر، فهو على أصله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فهو دين يلائم كل التطورات مهما علّت وتغيرت، فالقرن الخامس عشر الهجري الذي هو

عصر المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية، وعصر القرية الكونية، عصر الفضائيات والبرمجيات والاستنساخ، عصر المصطلحات البراقة -الديمقراطية وحقوق الانسان والتعددية والمساواة والحرية . لا يخيف الاسلام بل يجد ضالته في رحابه دون شطط معتمدا المقاصد النبيلة التي تحقق الخير للبشر ، فكل هذه وغيرها اذا تم تفعيلها في إطارها الصحيح فانيا تحقق الخير والصلاح لامة جمعاء.

ثانيا : العولمة

العولمة واقع لا يجدي معه أسلوب الرفض رغم ما يحمل من أخطار على هويتنا وثقافتنا وأصالتنا واقتصادنا... ورغم أنها لم تعد جديدة ، ورغم أنها تتردد بكثرة مفرطة وتقرض نفسها بمناسبة وبدون مناسبة، لدى الحديث عن موضوعات شتى فأنها ما تزال غامضة في جوهرها ووسائلها وأخطارها وأهدافها. وهي فوق ذلك ترتبط بتداعيات وردود أفعال متباينة ومتضاربة لكن الملفت للنظر أنه رغم تمتعها بأنصار متحمسين، في مختلف القارات، فأنها تحظى أيضا بعداء في سائر أنحاء العالم ومختلف الثقافات.

والمدعش أن معسكر الأعداء ليس مفصرا على بلدان العالم الثالث ، كما يعتقد الكثيرون . بل إنه موجود أيضا في عقر دار العولمة المفترض-أي الولايات المتحدة الأمريكية إذ تبين أن نصف سكان أمريكا يعتقدون أن "العولمة" تضر أكبر مما تنفع ، كما أن درجة مماثلة من العداة للتكامل الاقتصادي العالمي شائعة في أوروبا ، وربما كان هذا هو السبب في أن حركات الاحتجاج الكبرى على العولمة لم تنشأ في بلدان العالم الثالث، وإنما نشأت أولا وبالدرجة الأولى في الغرب عموما، والولايات المتحدة خصوصا.

و السبب في هذا العداة الأمريكي الأوروبي للعولمة لم ينشأ من فراغ بل جاء نتيجة عدة عوامل نذكرمتها :

- 1-أجر العامل العادي لم يكف ينمو منذ 1973 بعد قرابة مطرد بنحو 2.25 بالمائة سنويا عبر السنوات الخمس والعشرين السابقة.
- 2-معاناة الرجال الموجودون في قاع توزيع الدخل من انخفاض ضخم في أجزهم في واقع الأمر، في حين اختفى نمو الدخل بالنسبة للنساء الموجودات في القاع.

3- السخط على تنامي عدم المساواة.

4- التهنيد بانقاص عدد العاملين من الطبقة الوسطى .

5- إشاعة أن العولمة والعلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الأخرى هي السبب الرئيس في الأنباء الاقتصادية السنية.

و نتيجة لهذه العوامل كثر اليأس من العولمة.

وإذا كان هذا حالها في عقر دارها وأوروبا ، فماذا عساه أن يكون خارجها وبالذات في نول العالم الثالث.

ومما يزيد الأمر هلعاً هو أكلوبة القرية العالمية الواحدة فالحقائق البشعة التي تحملها العولمة من تزايد وارتفاع اليأس بين الأغنياء والفقراء حيث وضحت الإحصائيات العالمية أن:

1- مجموعة الدول الأغنى تمثل 20 بالمائة من سكان العالم فقط وتمتلك 86 بالمائة من إجمالي النتائج المحلي العالمي ،بينما مجموعة الدول الوسط تمثل 60 بالمائة من سكان العالم ولا تمتلك إلا 13 بالمائة من إجمالي حصة الناتج العالمي ، و تبقى مجموعة الدول الأفقر التي تمثل 20 بالمائة من سكان العالم ولا تملك سوى 1 بالمائة فقط من الناتج العالمي.

2- كما تسيطر المجموعة الأولى على 82 بالمائة من صادرات العالم والمجموعة الثانية على 17 بالمائة والمجموعة الثالثة على 1 بالمائة و .

3- وفي الاستثمار نجد:

المجموعة الأولى تحتكر 68 بالمائة ، والمجموعة الثانية تحتكر 31 بالمائة والمجموعة الثالثة 1 بالمائة.

فهذه الحقائق تجعل الجواحر حقائق ، ويتقرر القول بأن العولمة إذا كانت لها بعض الإيجابيات ، فإنها في الوقت نفسه حرمت العالم الفقير من المشاركة في القرية الكونية العالمية الواحدة الصغيرة.و يبدأ يمكن لتحقيق أكلوبة دعوة القرية الكونية الصغيرة.

هذا هو واقع العولمة في الغرب وفي دول العالم الثالث .فما هو الموقف

عنها.

الموقف من العولمة

يمكن تلخيص المواقف اتجاه العولمة في أربعة:

الأول: الموقف القابل للعوامة الذائب فيها والمؤيد لها تأييدا مطلقا.

الثاني: الموقف الراقض لها جملة وتفصيلا.

الثالث: الموقف الملقق الذي يحاول التفتيق بين ما تحمله العوامة

والإسلام.

الرابع: الموقف المتفاعل معيا على أساس الانتقائية المشوبة بالحنز.

أما الموقف القابل بإطلاق فهو موقف تابع، وقد جنب ويزال يجانب سلبيات الحضارة الغربية لأنه موقف قائم على الخلط بين مقومات الحضارة الإنسانية التي هي بناء فكري ينبثق منه منهج التعامل مع الخالق والحياة والإنسان والكون، وبين الآلات والتكنولوجيا التي هي من منجزات علمية مشتركة بين الناس.. فالأول هي الحضارة وهي لا تُسنورد ولا تُشترى ولا يمكن نقلها من أمة إلى أمة ولا بإحداث انقلاب جذري استتصالي.

وأما الموقف الراقض فهو موقف خاسر غير واقعي وسيؤدي إلى الانكفاء والانعزال فالموت الحضاري.

وأما الموقف الملقق وهو الموقف الذي يتزعمه بعض من يسمون أنفسهم الليبراليين في عالمنا العربي. والذين يعتبرون أنفسهم معتدلين لأن المتطرفين منهم هم أصحاب الموقف المؤيد تأييدا مطلقا للعوامة.. ويدندن حول هذا الموقف من يسمون أنفسهم (اليسار الإسلامي) أيضا.. وهاتان اللفئتان تصبعان وقت الأمة بعمارستهما عمليا (قص والنزق) ويترن بعض قيم الأمة وعزلها من سياقها المتكامل لإخضاعها للفلسفات المعارضة، وما هذا الصنيع إلا نكرس لإلغاء الذات أو لتسويها لصالح الأجنبي.

وأما الموقف الرابع القائم على التفاعل الحضاري الناقد والانتقالي الحنز، الذي يقوم على الفحص والتدقيق وتقليب الشعارات والتتقيب عن المسميات، فيكشف ما تحت بريق العوامة من الظلمات كالأباحية والعادية التفعية، والميكالفة الشريرة والاستغلال الرسمالي للإنسان باسم التحرير، وفلسفة الذذة والمنع وعبادة الدنيا، ثم يأخذ ما في العوامة من الصواب والخير بعد التمييز والتفتيش والنقد الموضوعي المنبثق من الثقة بالذات والاعتزاز بالهوية، ويرفض ما في العوامة من الشر والضلال.

الموقف الصواب من العولمة :

وهذا الموقف لا شك أنه هو الحق الذي يجب اتباعه، وأصله في الشريعة الإسلامية قول النبي ﷺ : "...حدثنا عن بني إسرائيل ولا حرج" رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وورد في بعض ألفاظه : " ولكن لا تصدقوهم..ولا تكذبوهم" أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.. ووجه الاستدلال به أنه إن بالتفاعل الحضاري والتواصل الثقافي مع ما عند أهل الكتاب، غير أنه ﷺ يرفض ما يعارض القرآن ويقول ما يوافقه والحذر مما لا يعلم صدقه من كتبهم. وحتى نبرهن على صحة هذا الموقف من العولمة، نفق عند أهم أخطارها الثقافية والفكرية على امتناء لتأخذ حذرنا وتترك كيفية التعامل مع وجهة العالم الجديد، مما يمكنها عن إبلاغ رسالتها وإحقاق الرحمة بالعالمين قياما بدورها.

1- الحوار الثقافي والحضاري

فإذا كان العصر يمج بنداوات متناقضة ومتضاربة حول نهاية التاريخ وبدايته ، وحول حوار الحضارات المشروطة من أجل خير وسلام العالم. في القرن الخامس عشر الهجري، فإن الإسلام يرحب بكل ما يحقق الخير والتعاون والرحمة بين بني البشر. فيدعو إلى الحوار بين الحضارات والثقافات، وإنما يدعو إليه ويحث عليه من أجل التوصل إلى تعايش سلمي ايجابي يتم فيه التبادل النفعي لتحقيق الأمن والسلام العالمي.

قال تعالى 'و تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان'

و لم يأذن الإسلام للمسلمين بالحرب إلا لرد العدوان. لأنه دين يرفض الظلم، ويدعو إلى إقامة موازين العدل بين الناس ولو كانوا من الأعداء.

2- حرية العقيدة

و إذا كان هذا القرن يعد عصر حرية العقيدة ، فإن الإسلام يأمر المسلمين بأن يلتزموا تعاليمه في التعامل مع الناس وأعلن على مسامعهم مبدأ حرية العقيدة بوضوح قوله تعالى "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" "البقرة" -و قوله "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"

3- صدام الحضارات :

أثارت نهاية الحرب الباردة 1945-1991 جدلاً فكرياً وثقافياً أكاديمياً مستمرا بين قادة الفكر وأساتذة العلوم السياسية والاجتماعية حول مصير الحضارة

الغربية وموقعها في خريطة العالم الجديد الذي بدأ يتشكل، بمعنى آخر.. فإن الحدل والحوار حول المستقبل كان حوارا حول مصير العالم منظورا إليه من وجهة النظر الغربية، وخاصة الولايات المتحدة التي تصاعدت فيها موجات الحوار مستندة في حقيقة الأمر ضمان استمرار اليمين والسيطرة الغربية على مقدرات العالم.

استفتح هذا الحدل والحوار فرانسيس فوكوياما في بداية التسعينات عندما كتب عددا من المقالات التي صدرت بعد ذلك في كتاب عنوانه نهاية التاريخ ومصير الإنسان أو *the end of History and the Destiny of Man* أكد فوكوياما في مقالاته تلك، انتصار الغرب وتربع الليبرالية والوق على عرش العالم، ونهاية الصراع التاريخي الطويل لصالح القيم الغربية.

و خلاصة فكرته أنه بعد انهيار الأيديولوجية المنافسة للغرب وانهيار الاتحاد السوفيتي.. لم يعد أمام العالم سوى أن يأخذ بالأيديولوجية الغرب التي عدت قائمة وحدها في الميدان، وأن فرص ظهور أية أيديولوجية أخرى تتجاوز على تقديم بديل عن أيديولوجية الغرب مصيرها الزوال.

و هكذا كانت الرسالة الموجبة -عند فوكوياما- إلى العالم، شماله وجنوبه، غنیه وفقيره، مسلميه وكونفوشيوسيه تقول: إن الغرب وقيمه قد أصبح هو قتركم المكتوب، ولم يعد أمامكم إلا أن تكيفوا أموركم معه، لأن أي محاولة للمقاومة ما هي إلا جهد بائس للوقوف أمام التاريخ.

و بمناسبة مرور عشر سنوات على نشر مقاله الأول.. أصدر فوكوياما مقالا آخر يرد فيه على نقاده بعنوان :

Years after of "The endIts Author takes on 10 hits critics

history

نشرت في :

International herald tribune6-7-1999.page7

و اتسجاما مع هذا الموقف فإن الإسلام يرفض كل دعاوى صدام الحضارات التي روج لها البعض في السنوات الأخيرة بعد نهاية الحرب الباردة ويدعم الإسلام ويبتني بكل قوة الحوار بين الحضارات استنادا إلى ما بين هذه الحضارات التي صنعها الإنسان من قواسم كثيرة مشتركة. فجوهر الإنسان واحد في

كل زمان ومكان، و الاختلافات بين الشعوب والحضارات أمور طرأت على البشرية. فضلا عن أنها فنية للتعبير والتعديل. صحيح أن لنا أثرا عميقا لدى البشر هذا لا يعني أنها تلغى القواسم المشتركة والخصائص الثابتة لدى البشر جميعا. وإذا كانت سنة الحياة هي التنوع فليس هناك بأس من التمايز الحضاري الذي من شأنه أن ينرى للتجربة البشرية عن طريق التفاعل الثقافي والحوار الحضاري من أجل مستقبل أفضل للبشرية جمعاء ولعلنا بطرح قضية الإسلام في القرن الحادي والعشرين في هذا المؤتمر العالمي وفي هذه الورقة على هذا النحو السوجز لدى اكتفينا فيه بزيوس الموضوعات دون الدخول في التفاصيل-لعلنا نكون قد أسبغنا ببعض الشيء في إثارة الاهتمام بهذه القضية المصيرية بالنسبة للمسلمين الذين يشكلون اليوم خمس سكان العالم، وعليهم مسؤوليات ضخمة تجاه شعوبهم والتزامات لا يجوز الفكك منها إزاء العالم الذي يعيشون فيه وعليهم تحمل مسؤولياتهم والوفاء بالتزاماتهم إذا أرادوا أن يكون لهم مكان في القرن الحادي والعشرين يتناسب مع رصيدهم الحضاري الضخم وما يتكون من تراث جليل كان مصدر إلهام لكثير من الأمم والشعوب .

الثقافة العالمية

و يجدر بي أن أفق أمام هذا التحدي كنموذج عملي وحقيقي أمام الثقافة الإسلامية والهوية العربية والإسلامية.

فمستقبل الهوية العربية والإسلامية في مواجهة دعاوى العولمة والقرن الخامس عشر الهجري مستقبل محفوف بالمخاوف والمخاطر لأن موازين القوى بين عالمنا الإسلامي والعربي وبين النظام الدولي الجديد مختلفة خلا فاحشا . فالحضارة الغربية بعد سقوط المنظومة الماركسية توحدت قبضتها لأول مرة منذ عصر التنوير الغربي وهي تزيد صب العالم في الغالب الأمريكي والغربي تحديدا وإذا لم يرتب العالم الإسلامي والعربي وتتكامل المحاور الكبرى عندهم - الاقتصادية- والإعلامية- والثقافية- المنظومات التربوية، والمنظمات الإقليمية- الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي. والتحديات سوق عربية مشتركة . وإنما التجارة العربية والإسلامية .و إذا لم يتحول العالم الإسلامي والعربي إلى كتلة متساندة ومتكاملة -إذا لم يتحقق هذا فإن مخاطر العولمة ستكون لنا نتائج في غاية من الخطورة على هويتنا عموما.

الخاتمة :

- 1- ضرورة مراجعة وتصحيح للواقع الإسلامي بكل جزئياته بحيث يقدم كمشروع موحد للنظرية الإسلامية المطروحة عالمياً.
- 2- طرح فكرة الحوار الحضاري بشكل جدي مما يجبر الخصم على المهادنة وقبول المشروع الإسلامي كواقع مطروح.
- 3- بحث التحدي الثقافي لموجة العولمة مع أطراف لا تتفق كلياً مع أهدافنا وخصوصياتنا كأوروبا واليابان.
- 4- بحث إمكانية إيجاد (منظومة قيم) عبر دراسة القواسم المشتركة بين المسلمين وبعض الدول التي تعزز بخصوصيتها الثقافية وتكوين خطوط ضغط دولي لمواجهة أخطار العولمة الثقافية وتخصيص مراكز بحوث ودراسات لهذا الغرض في هذه البلدان....
- 5- تحديد موقعنا في خارطة العالم أي خارطة القرية الكونية الصغيرة.
- 6- الدعوة إلى عولمة الثقافة الإسلامية: تمتلك الأمة الإسلامية ثقافة قوية تؤهلها للمشاركة في عولمة الثقافة من دون خوف أو تردد، إذا ما هيئت حكومات هذه الدول الاستعدادات العلمية والفنية والبشرية لإحداث العولمة المطلوبة. وفي هذا السياق نضع بين يدي المهتمين عدداً من الأمور الأساسية، التي تكفل انتقال الأمة الإسلامية من حال المتلقي فقط للعولمة الوافدة أو الغازية - كما يحلو لبعض تسميتها - إلى حال المرسل المشارك في عولمة الثقافة، بهدف المنافسة والتغلب على الثقافات الأخرى، إيماناً من الأمة بأن ثقافتها هي ثقافة الإسلام، وأن دينها هو خاتم الأديان، الذي ارتضاه الله تعالى للبشر، تصديقاً لقوله عز من قائل: "اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً".
- إن عولمة الثقافة الإسلامية في عصر العولمة الجديد، لا يدخل في دائرة المباح أو المستحب فحسب، بل يدخل - في نظرنا - في دائرة الواجب الشرعي، انطلاقاً من واجب نشر الإسلام، وإيصاله إلى جميع مناطق العالم. الداخل في مضمون قوله تعالى: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني"، وقوله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر".

والحق أنه لا خيار لنا لا من الناحية الشرعية ولا من الناحية الواقعية، أن لا نخطط لعولمة ثقافتنا، ولكن هذه العولمة تتطلب إصلاح الوضع على مستوى الداخل، لتكون الدول الإسلامية، ومن ثمة الأمة الإسلامية مؤهلة لمخاطبة الخارج. فعلى المستوى الداخلي لابد من الاهتمام بتحقيق الآتي :

1- صياغة ثقافة لأطر الثقافة الإسلامية العامة، بالرجوع إلى الكتاب الكريم والسنة المطهرة، والسيرة العطرة للرسول صلى الله عليه وسلم والأئمة والصحابة، الذين يمثلون الثقافة الإسلامية خير تمثيل، وتحقيق اتفاق إسلامي عليها.

2- إعادة بناء الهياكل التنظيمية والإدارية في الدول الإسلامية وفقاً لهذه الأطر الثقافية. لتكون ثقافة هذه الهياكل ثقافة إسلامية.

3- إعادة بناء مناهج التربية والتعليم في الروضات والمدارس والمعاهد والجامعات، وغيرها من مؤسسات التعليم وفقاً لهذه الأطر الثقافية، مخرجات هذه المؤسسات مؤهلة لممارسة الثقافة الإسلامية على أرضها، وقادرة على المشاركة في عولمة هذه الثقافة في خارجها.

4- إعادة بناء السياسات الإعلامية، على جميع الأصعدة والوسائل، لتمثل الثقافة الإسلامية أصدق تمثيل. وتكون قادرة على خدمة هذه الثقافة وعولمتها.

5- إعادة بناء الهياكل السياسية والإدارية والإقتصادية والتجارية في الدول الإسلامية، وفقاً للثقافة الإسلامية. وإزالة جميع المتناقض معها، أو التحيل عليها في هذه الهياكل.

6- خلق قواعد متينة للبحوث العلمية والمعلومات، والمشاركة الفعالة في تطوير التقنية، إلى المستوى الذي يجعل الأمة الإسلامية مشاركا حقيقيا في هذه المجالات، بدلا من أن تلعب دور المتلقي فحسب.

إن الباحث يدرك مدى شدة الصعوبات، التي تقف حائلا دون تحقيق هذه النطلعات. غير أنه يرى أنها ليست مستحيلة. إذا ما توافرت العزيمة لدى أصحاب القرار في الأمة الإسلامية على تحقيقها، والتنسيق الفعال بشأنها. كما نذكرنا، فإنه لا خيار للأمة اليوم في تجاهل عولمة الثقافة، إذا أرادت أن يكون لها شأن في عصر العولمة الحالي، أو عصور العولمة التي تليه.

7- إحداث مستجدات إعلام إسلامي متطور خدمة للثقافة الإسلامية.

أفاق المستقبل :

لقد انصَح من سياق النقاط التي عرضتها هذه الورقة، أن الثقافة الإسلامية في عصر العولمة الجديد- أمام تحديين كبيرين : الأول : هو التحدي المتمثل في الحفاظ على الهوية في الشكل والمضمون، والتصدي لكل ما هو خطير عليها. والثاني : هو الاستعداد لعولمة الثقافة الإسلامية في عصر لا يعترف بالضعف، ولا يحترم الثقافات التي يتخلى عند أهلها. فكيف نحافظ على هويتنا الثقافية؟ وكيف نحميها، وكيف نعولمها؟

إن استراتيجية الحفاظ على الثقافة الإسلامية، لا يتأتى إلا عبر استراتيجية تعولمة هذه الثقافة وهذا يتطلب في الوقت العاجل -على الأقل- تفعيل وتنفيذ قرارات منظمة المؤتمر الإسلامي، فيما يتعلق بالإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي. التي انطلقت من مؤتمر القمة الثالث، وتم التأكيد عليها في مؤتمر القمة الخامس، وصادق على مشروعها مؤتمر القمة السادس، كما صادق على قرار تنفيذها مؤتمر القمة السابع، بمطالبة الدول الاعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي بإخلاء هذه الإستراتيجية في سياساتها الوطنية الثقافية والتعليمية والتربوية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من المهتمين يلاحظون أن هذه الإستراتيجية، لا زالت في شكل مشروع نظري، ينتظر الصياغة العملية التنفيذية. وبالرغم من وجود منظمة إسلامية متخصصة، تعنى بالتربية والعلوم والثقافة (الأسيسكو)، والتي عقدت اجتماعها التأسيسي عام 1992م، إلا أن وضع استراتيجية للثقافة الإسلامية موضع التنفيذ لا زال يصطدم بعقبات كبيرة. هذا بالرغم من شعور المسلمين العام بأن الثقافة الإسلامية التي تجمعهم تمثل أحد المداخل الرئيسية لوحدهم، بل هي في نظرنا أهم المداخل والعناصر الأساسية للوحدة الشاملة. نحن مع الشيخ محمد تقي القمي . أحد رواد الوحدة الإسلامية في منتصف القرن الماضي، في قوله : "...إن ثقافة إسلامية موحدة -بنا أنفق حولها المسلمون- كقيلة بتوحيد صفوفهم...".

و يحسن بنا أن نشير في نهاية هذه الورقة، إلى أن أفاق المستقبل ستكون ضيقة جدا أمام الثقافة الإسلامية، لو أغفل المسلمون العوامل التي أوجزتها هذه الورقة، وستكون ثقافتهم أول الضحايا في معركة العولمة الجديدة، التي لا تعترف بالضعف-كما المحنا من قبل- ولا تقم وزنا إلا بالغيرة.

مستقبل العلاقة بين المسلمين والغرب وحتىمة خيار الحوار

الدكتور صالح بوبشيش

أستاذ محاضر. جامعة الحاج لخضر باتنة

تمت فكرة الاحوار - أو الصراع - بين الإسلام والغرب إلى زمن الحروب الصليبية، حيث ركز في الوعي الغربي منذ ذلك الحين تصور خاطئ عن الإسلام، وساهم الوعي الكنسي الغربي بشكل مباشر في تأسيس هذا التصور منذ الخطبة التي ألقاها البابا الفرنسي 'إريان الثاني' عام 1095م بمدينة كليرمونت في مقاطعة أفرنسي الفرنسية فاشتعلت الحروب الصليبية وأضفت عليها طابعا مقدسا فضلا عن طابعها السياسي.¹

ولقد ظلت علاقة المسلمين بالغرب عبر قرون طويلة محكومة بما أفرزته الحروب الصليبية من قطيعة تامة وعداء كبير، وتطورت هذه العلاقة في القرنين الماضيين لتخرج من النفق التاريخي - كما يصورها الكثيرون - إلى عالم جديد يؤسس لعلاقة جديدة، قبالى أي مدى يصدق هذا التصور، وهل أن علاقة المسلمين مع الغرب اليوم تختلف عن سابقتها؟ ثم ما هو واقع هذه العلاقة ولمن يرجع القرار في صنعها؟

وإذا كان العالم اليوم قد شهد تحولات كبيرة في مختلف مناحي الحياة فما هو مستقبل علاقة المسلمين مع الغرب في ظل ما يعليه الواقع وما تقتضيه مصلحة المسلمين خاصة والإنسانية عامة؟

تحديد وتأسيس لطرفي العلاقة؛ المسلمون، والغرب:

قيل أن تفصل في طبيعة العلاقة القائمة بين المسلمين والغرب وفاقها في المستقبل، يجدر بنا أولا أن نحدد بصورة دقيقة المراد بطرفي هذه العلاقة؛ لأنه وإن بدا لنا المعنى واضحا من حيث ظاهر كلمتي المسلمين والغرب؛ إلا أن هناك

معنى آخر يلزمنا بيانه حتى نتجلى لنا ملامح هذه العلاقة، وتتضح من خلالها الآليات التي ينبغي لها أن تحكمها.

المسلمون: إذا أطلق هذا اللفظ أريد به كل من يتدين بدين الإسلام عربيا كان أو أعجميا حتى وإن كان غربيا.

وإذا أطلق اللفظ باعتباره طرفا مقابل لفظة الغرب، أريد به في الظاهر كل من يتدين بالإسلام من غير مسلمي الغرب؛ ولكن لا نريد به هذا المعنى؛ لأن المسلم الغربي معني كغيره من المسلمين بإقامة علاقة مع سائر بني جنسه ممن لا يرغبون في أن يكون الإسلام دينا لهم مثله في ذلك مثل بقية المسلمين، وإن خالفهم في كونه أقرب إلى أهل الغرب من عامة المسلمين.

الغرب: المقصود بالغرب هو الانتماء إلى الحضارة الغربية، حتى ولو لم يكن المحيط الجغرافي للغربي غربيا، كنول أوروبا الشرقية وبعض الدول الآسيوية وأستراليا...

والغرب يطلق ويراد به معنيان:

الأول؛ وهو الغرب الحضاري المسيحي في عاليه، فتحيده مرتبط بالعامل الديني والفكري أكثر من ارتباطه بالعامل الجغرافي.

والثاني: الغرب المادي الليبرالي الاستعماري، الذي لا يؤمن أصحابه لا بالدين ولا بالتقيد ولا بالأخلاق ولا بمبادئ حقوق الإنسان التي وضعها الغرب نفسه، فهذا غرب لا يكن العدا للاملام والمسلمين فحسب، بل لجميع الناس على اختلاف ثقافتهم وحضاراتهم، ومنه انطلقت فكرة التصادم والصراع بين الحضارات، ونمت في

والمعنى الأول هو المقصود بتنظيم علاقة بينه وبين العالم الإسلامي وفق خيار الحوار، علاقة ليست بالجديدة وإنما هي قائمة وموجودة منذ تاريخ بعيد، وقد شهد عليها التأثير والتأثر الواضح بين الحضارتين الإسلامية والغربية، فلا مناص من أن يحكم الحوار هذه العلاقة ويبقي على استمراريتها، رغم ما يروج له البعض من حتمية الصراع والتصادم.

— واقع علاقة المسلمين بالغرب:

لا أقصد من هذا العنصر الحديث بتفصيل عن واقع علاقة المسلمين بالغرب؛ لأنه يرجع في أصله من حيث المحاور التي يبنى عليها موضوع المنقوى إلى المحاور الثاني، وما يقدم فيه من محاضرات كاف لرصد هذا الواقع؛ ولكنني

رغم ذلك أريد أن أجمل واقع هذه العلاقة ضمن عناصر أراها دوافع مهمة ومؤثرة في رسم المستقبل الذي نستشرفه في ظل حوار شامل وبناء.. خاصة بعد التحولات الجذرية التي شهدها العالم في العشرية الأخيرة من القرن الماضي، حيث انهيار الأنظمة الشمولية في أوروبا الشرقية، والسعي الغربي — وأقصد بذلك — الأمريكي خصوصاً لإقامة نظام دولي أحادي القطبية تحت مسمى العولمة، والأحداث المأساوية التي ألمت بالعالم الإسلامي وأدخلته في دوامة كبيرة لا زال يعاني من تداعياتها إلى اليوم.

وفي قراءة شاملة لهذه التحولات يمكن لنا أن نستجلي هذه الدوافع من خلال واقع العلاقة بين المسلمين والغرب ضمن النقاط التالية:

— التبعية وسيطرة الغرب من خلال امتلاك التكنولوجيا:

وتجسد هذه السيطرة كما يصفها أحد الكتاب الأمريكيين في أن العالم الغربي يملك ويدير النظام المصرفي في العالم، وسيطر على كل أنواع العملة الصعبة، وأنه هو الذي يوفر للعالم معظم بضائعه الجاهزة، وأنه يسيطر على أسواق الرأسمالية العالمية، وأنه يقوم بمعظم البحوث والتطوير للتقنية المتقدمة، وأنه المهيمن على وسائل الاتصال العالمية، ولا شك أن على المسلمين أن يستفيدوا من كل ذلك فيما يخدم مصالحهم ويحقق لهم الاستقلالية ولو في أننى مستوياتها ليتخلصوا من عبء التبعية المطلقة، وعليهم كذلك أن ينجحوا في تعاملهم مع الغرب منهج الحوار لا الصراع؛ لأن الحوار هو الخيار الاستراتيجي الذي ينبغي أن يحكم مستقبلاً، وهو ليس بالمستحيل إذ يمكن تحصيله من خلال الرجوع إلى المشترك الإنساني والديني للعالمين الغربي والإسلامي، ونتائج المتوقعة وإن كانت هزيلة في تصور البعض بناء على تجارب عدة؛ إلا أن هذا التصور غير مقطوع به ويمكن أن يتغير إذا ما روعيت المقومات الحقيقية للحوار كما سيتقدم بيان أهمها.

— التفوق العسكري:

لقد مكن امتلاك الغرب للتكنولوجيا الحديثة والمعلوماتية من بلوغهم مستويات عليا في التسلح لا نظير لها من قبل؛ حيث شهد هذا المجال في عقود ما بعد الحربين العالميتين سباقاً متسارعاً نحو التطور النوعي في السيطرة على العالم من خلال امتلاك الأسلحة الفتاكة والمدمرة.

الأمر الذي أعطى للغرب القدرة الفائقة على التدخل العسكري في أي منطقة في العالم، وما تواجد القوات الأمريكية وقوات التحالف وتدخلها في مختلف

بؤر النزاعات والحروب المفتعلة، وسيطرته على معظم المضائق البحرية؛ إلا واقع مؤكد لذلك.

كما تتجلى الهيمنة العسكرية للعالم الغربي فيما يمتلكه من تقنية عالية في صناعة الأسلحة وما يسمى بحرب النجوم وأسلحة الدمار الشامل، مما يجعل موازين القوى بينه وبين العالم الإسلامي معدومة؛ ولذلك فإنه لا مجال لهذا الأخير لإقامة علاقة مع الغرب إلا في إطار خيار الحوار وفق ما يخدم مصلحة المسلمين ويحقق مكاسب لهم لا يمكن بلوغها لو حكم منطق الصراع والتصادم.

— حتمية العولمة وتأثيراتها السلبية على المسلمين:

لقد أضحى العولمة واقعا لا مناص من التخلص منه أو تجنب إفرزاته سلبية كانت أو إيجابية في مختلف مناحي الحياة.

ومن بين ما أفرزته العولمة على حياة الإنسان التجاهل الملحوظ من قبل المنظرين لها لتصيب حقوق الإنسان فيما ينبغي عولمته كالاقتصاد والإعلام، بالرغم من الكم الهائل للاتفاقيات الدولية والمواثيق الأممية التي تؤكد على مبادئ إنسانية ضرورية لضمان حياة الإنسان وكرامته خاصة تلك التي تضمنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والمتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية².

كل هذه الاتفاقيات والمواثيق هي عبارة عن أرضية صلبة وقاعدة أساسية لتأسيس علاقة حوار قائمة ودائمة بين العالمين الغربي والإسلامي تضمن على الأقل الحماية الضرورية لحقوق الإنسان وفق الأعراف الدولية والمشارك الإنساني.

— الهجرة المتزايدة للمسلمين إلى الغرب:

إن الدوافع الأساسية لغالبية المهاجرين من المسلمين إلى الغرب هي دوافع اقتصادية بحتة، وقد أثبت الواقع أن الغالبية العظمى منهم تفقد هويتها الثقافية لغة ودينا ومظهرا، وتتساق وراء المدنية الغربية المبنية على الليبرالية المتوحشة والإباحية المنطرفة.

ولذلك فإنه لا غرابة أن يتواجد مثلا في فرنسا أزيد من أربعة ملايين مسلم دون أن يكون لهم صوتا مسموعا أو رأيا محترما حتى في أخص خصوصيات الدين، وما قضية الحجاب الأخيرة ببعيدة عنا، بخلاف غيرهم ممن يعتقدون الديانة

السيهودية، فعددهم لا يتعدى ثمن عدد المسلمين ومع ذلك فإن لهم مواقف تهتز لها أركان الدولة الفرنسية، مثل موقفهم من دولة إسرائيل، ومعاداة السامية.. وغيرها. فعلى المسلمين خاصة ممن يعيشون في بلاد الغرب أن يكونوا راسخين وأن يعمدوا إلى أسلوب الحوار والتشاور فيما بينهم ابتداء، ليكونوا الصورة الحقيقية التي ينظر من خلالها أهل الغرب إلى الإسلام وعامة المسلمين.

— النظرة العدائية للغرب تجاه المسلمين بعد أحداث 11 سبتمبر 2001:

لقد سيطرت النظرة العدائية للغرب تجاه المسلمين وازدادت حدة لا سيما بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، وهي نظرة غالبة قوامها الخطاب السياسي والإعلامي؛ فكل منا يتذكر جيدا كيف نقلت لنا وسائل الإعلام المختلفة الوضع الذي عاشه المسلمون في الغرب — خاصة — عقب هذه الأحداث، حيث هدد أبناء الجالية المسلمة بالطرد والقتل وإحراق المساجد، وشاع في الوسط الغربي في أوروبا وأمريكا وأستراليا وجوب طرد المسلمين وترحيلهم؛ لأنهم السبب فيما وقع من أحداث دامية زرعت الرعب والخوف في جميع أنحاء العالم وخاصة الغربي منه؛ الأمر الذي ولد كراهية كبيرة في نفوس الغربيين تجاه العرب والمسلمين، وزاد ذلك في تقوية اتجاه الذين رفعوا من قبل لواء الصراع والتصادم الحضاري، حيث وجدوا في أحداث سبتمبر المبرر الأقوى لدعم فكرتهم.

وقد كان لهذا كله أثره الكبير في التراجع الواضح لنسبة المعتنقين للإسلام من الغربيين نتيجة تصورهم الخاطئ عن الإسلام والمسلمين، حيث انطبع في أذهانهم وعقولهم على أن أصحاب هذا الدين ليسوا سوى إرهابيين يهددون الأمن والسلام الدوليين. غير أن هذا لا ينفي وجود من يلمس حقيقة الإسلام من المتخصصين في الدراسات الإسلامية في الجامعات ومراكز الأبحاث الأكاديمية، وأنه خلاف ما تروج له وسائل الإعلام الغربية.

فالمسلمون في وضع لا يحسدون عليه، وما عليهم إلا أن يثبتوا بطلان كل تلك التهم التي أنصقها الغرب بهم بهتاناً وإثماً مبيهاً من خلال التحاور مع من يهتدون إلى مبادئ الأخلاق وقواعد المنطق من المنصفين الغربيين.

— اعتبار الإسلام والمسلمين الخطر الذي يهدد العالم الغربي، وعلى الجميع مواجهته:

لما كانت السياسة الخارجية الأمريكية تقوم على ضرورة وجود تهديد ما والعمل على إيجاده إن لم يكن موجودا، فإنها اتجهت بعد انتهاء الحرب الباردة إلى تصوير الإسلام على أنه التهديد الجديد واصفة إياه بالأصولية أو الراديكالية، وهذا ما تشير إليه الكاتبة الأمريكية إلين سيولينو: «في ظل غياب التهديدات الملحة الأخرى ضد الولايات المتحدة فإن الراديكالية الإسلامية نجحت في التحكم في خيال عدد من أعضاء الكونغرس»³.

وتظهر هذه الحقيقة في التغطية الإعلامية السلبية لأخبار الإسلام والمسلمين، وأن التركيز على أن الإسلام هو العقبة التي تعيق مسيرة العالم نحو الانطلاق هو محاولة لتنهية الأذهان وتمهيد الطريق أمام غزو العالم الإسلامي واتخاذ إجراءات تعبيرية فيه تؤمن اختراقه من قبل العولمة، وما هو جارٍ في عديد البلاد الإسلامية كالعراق وأفغانستان.. لدليل على ذلك.

والمسلمون أمام هذا الواقع المرير عليهم ألا يعطوا للغرب الذرائع ليفعل بهم ما يشاء باسم القانون الدولي وحقوق الإنسان وحماية الأقليات ونشر مبادئ الديمقراطية.. وغير ذلك، بل يجب عليهم أن يبتئوا عن طريق الحوار مع من يظنون فيه الخير والصلاح من علماء ومتقفي الغرب إنسانية الدين وسماحته..

— خيار الحوار، حقيقته ومجالاته:

أمام هذا الواقع المرير للعلاقة السائدة بين المسلمين والغرب، والذي لا يختلف في جوهره عن واقع هذه العلاقة عبر مختلف المراحل التاريخية، سوى في وحشيته المقننة والشاملة، تارة باسم الأمم المتحدة وتارة أخرى باسم النظام العالمي.. لا يسعنا غير التمسك بخيار الحوار، بدل الصراع الذي جنب المآسي والأحزان وعانت من ويلاته الإنسانية كلها ما عانت ولا زالت إلى اليوم..

والحوار المطلوب باعتباره خيارا حتميا لا يعني أبدا الشمولية أو الاحتوائية التي يمارسها الغرب وبالأخص كبريات دول العالم، وإنما يراد به ابتداء ذلك الحوار الذي يؤسس لفضاء جديد يتعايش فيه العالمين الغربي والإسلامي، بناء على ما يجمعهما من قواسم مشتركة في جوانب عدة كالإيمان والأخلاق والتسامح والتعاون وغير ذلك مما يمثل في مجموعه أرضية صلبة وقاعدة أساسية يقوم عليها الحوار.

— حقيقة الحوار:

الحوار لا يكون إلا بين اثنين مختلفين ومتعارضين فأكثر، والاختلاف والتعارض فيه مقدمة ضرورية لا يتحقق حوار بدونها.

الحوار ينتج حقيقة جديدة ليست لأي من المتحاورين، بل لهم جميعاً.

والأداة الرئيسية في استعمال الحوار هي الكلام أو الكتابة، وبمعنى آخر القول والمقال، وفي هذا الشأن يحكى أن الفيلسوف اليوناني إيسوب كان يخدم أرسطوقراطيا أثينا يدعى اكسانتوس يزعم أنه فيلسوف، وفي يوم من الأيام دعا اكسانتوس إلى بيته قائد حامية مدينة أثينا وقال لإيسوب: اذهب وأحضر لنا أفضل طعام في أثينا لأحتفي بصديقي، فذهب إيسوب وعادة بعد مدة بصفة مغطاة فيها طعام وهيا المائدة، ودعا سيده والضيف، وعندما كشف اكسانتوس الصفحة المغطاة استاء وصرخ إيسوب أمرتك أن تحضر لضيفي أفضل طعام في أثينا فأحضرت لنا لساناً؟ فقال إيسوب: يا سيدي إن اللسان أفضل ما في أثينا، باللسان نقول الله، وأما... ونلقي الأشعار الجيدة ونطلق أحسن الأدعية، قال اكسانتوس: حسنا اذهب ابن وأحضر لنا أسوأ طعام في أثينا، فذهب إيسوب وبعد مدة عاد... فقال له اكسانتوس لقد أحضرت لنا لساناً أيضاً.. أتسخر مني؟ فقال: كلا يا سيدي، باللسان تطلق أقذف الشائتم واللعنات وتستخدم أقذر الكلمات وتلقي الأشعار والخطب السيئة وتعلن الحروب، فاللسان أسوأ شيء في أثينا..⁴

فالقول أو المقال له دور رئيسي في الحوار والتفاهم، وكذا في الصراع

والتناحر.

والحوار قسم الصراع، وهذا الأخير منه ما هو طبيعي يطلق عليه سنة

التدافع وهو سنة كونية، قال تعالى: ﴿لَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا﴾⁵، فهذا النوع بطبيعته لا يتعارض مع وجود الحوار واستمراريته.

ومنه ما هو خلاف ذلك وهو الصراع الذي يهدم أسس الحوار ويقطع

دايره، وهو ما نادى به الأمريكي هنتجتون، حيث يعد أول من أشاع تغيير صراع

الحضارات — وهو أعلى مراتب الصراع — في مقال مشهور نشر صيف عام

1993م في مجلة ، ثم نشر في كتاب بالعنوان ذاته. فهنتجتون وإن كان سابقاً في

الجهر بحتمية العداء الغربي لكل ما هو إسلامي، وفي التعميد لنظرية الصراع، فإنه

في الواقع لم يرق سوى بالكشف عن مكنون الضمير الغربي في ميئه الدائم — مع

ساتر الناس وخاصة المسلمين — إلى الصراع بدل الحوار على مر التاريخ، وما إسقاط الدولة العثمانية والحملة الاستعمارية العالمية على جميع بلاد المسلمين في التاريخ الحديث عنا ببعيدة.

وبالرغم من ميل العديد من مفكري وساسة العالم الغربي لنظرية الصراع؛ فإن خيار الحوار يظل خيارا استراتيجيا لدى البعض منهم كما هو الحال وبشكل أقوى عند الكثيرين ممن ينتسبون للعالم الإسلامي، وهو خيار ينبغي دعمه وتوفير جميع الشروط والضمانات الكفيلة بتجسيده على أرض الواقع ليكون الإضرار الذي يحكم مستقبل واعدا لعلاقة المسلمين بالغرب.

— مجالته:

إن منطق الحوار لا يمكن له أن ينحصر في مجال معين، بل إن مجاله مفتوح على كل ما له صلة بالإنسان، ولعل أبرز مجال تتجلى فيه لغة الحوار وروحه هو المجال الديني والثقافي والحضاري والسياسي..

— حوار الديانات: وليس حوار الأديان كما يصطاح عليه عند الكثيرين؛ لأن الدين عند الله واحد، والمتعدد هو الديانات، قال تعالى: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والنبئين...

وقد أضحت اليوم حوار الديانات ضرورة إنسانية، ويتوقع أن يتصدر قائمة القضايا المطروحة عالميا لفترة طويلة في هذا القرن الجديد، وهذا بغض النظر عن الخطابات المتعددة له والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها، فمن دون شك أن معظمها لا يتوفر على حسن القصد في اكتشاف الآخر واحترامه والسعي معه لإيجاد أرضية مشتركة تحقق السعادة للجميع، بل العكس من ذلك فهي تسعى باستعمال مختلف الوسائل والأساليب لاحتوائه وتجريده من معتقداته؛ الأمر الذي يجسد سياسة جديدة في استعمار ذكي، وهو ما تتبناه كثير من الدول والمنظمات وتعمل على بلوغ أهدافه.

إلا أن كل ذلك لا يمكن أن يحول دون تفعيل آليات الحوار بما يحقق المصلحة في التعرف على الآخر واحترام رأيه ومعتقداته والبحث عن إمكانية إيجاد أطر تحكم العلاقة بين أصحاب مختلف الديانات من خلال الوقوف على المشترك الديني والأخلاقي والإنساني.

— الحوار الثقافي وحوار الحضارات:

إذا كان مهندسو العولمة قد أطلقوا العنان لمشروعهم لأن يدخل مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية والاجتماعية وغيرها؛ فإن العولمة وإن أثمرت في جانبها الاقتصادي والسياسي؛ فإنها لا زالت تراوح مكانها في المجالين الثقافي والحضاري؛ الأمر الذي دعا ببعض المنظرين في العالم الغربي إلى الاهتمام بفكرة العولمة الثقافية والحضارية، والمطالبة بلزوم تحقيقها وبلوغ أهدافها؛ لأنه لا خيار أمام الغير إلا بالاندماج في الحضارة الغربية وإلا فإن مآلهم القضاء بعد الصدام والصراع.

ويؤكد صموئيل هنتجتون على أنه لا مجال للتطور والاستفادة من التقنية واستخدامها إلا بالاندماج الكامل في الحضارة الغربية والتبعية المطلقة للنموذج الغربي مركزاً على المسلمين كمثال للعالم المتخلف، فيقول في كتابه صدام الحضارات: "فلا بد من الاعتراف بهيمنة الحضارة الغربية حتى يمكن التعلم منها... عندما يقبل المسلمون بالنموذج الغربي صراحة سيكفونون في وضع يمكنهم من استخدام التقنية، ومن ثم أن يتقدموا".⁶

وقد سار على ركبته فوكوياما — أمريكي من أصل ياباني — فادعى نهاية التاريخ وأنه لم تعد هناك حضارة ولا ثقافة غير الحضارة والثقافة الغربية، وأن بقايا الحضارات الأخرى وما يمكن أن يمثل أساليب أخرى للحياة لا بد أن يتشابه ويخضع للحضارة الغربية.

إن الدعوة إلى عولمة الثقافة تؤدي بلا شك إلى تنامي الصراع بين الثقافات إلى درجة التصادم، خاصة إذا ما دعت الدول الغربية إلى حتمية الأحادية الثقافية، كما تمكنت من فرض دعوتها إلى الأحادية الاقتصادية، وجعل الاقتصاد العالمي في قبضة منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد والقرض الدوليين.⁷ ولا سبيل لتفادي الانعكاسات الخطيرة لهذه الدعوة إلا سبيل الحوار بين مختلف الثقافات والحضارات..

وتمثل المبادرة التي أطلقها الرئيس محمد خاتمي رئيس مؤتمر القمة الإسلامي الثامن حول إعلان سنة 2001 لتكون سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات، خطوة هامة نحو تكريس منطق الحوار وسد بؤر الصراع لما في ذلك من خير ومصالحة نعم الجميع

— حتمية الحوار وتشجيع الإسلام له:

إن ما تقدم من بيان واقع العلاقة القائمة بين المسلمين والغرب ليمتد في الحقيقة دوافع وبواعث على حتمية الحوار واعتباره خياراً استراتيجياً في رسم علاقة متميزة قوامها تحقيق المصلحة واحترام الآخر.

وحتمية الحوار أمر يحدث عليه الدين الحنيف، وتستوجب مصلحة المسلمين التي يلزم تحقيقها والحفاظ عليها.

إن عالمية الدين الإسلامي خير شاهد على أن الحوار أحد مرتكزات هذا الدين الخالد، وينجلي هذا في كثير من النصوص القرآنية التي حث فيها الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم وسائر المسلمين بضرورة احترام الآخر ومحاورته بالتي هي أحسن.

وقد ذكرت كلمة الحوار في القرآن ثلاث مرات اثنتين في سورة الكهف والثالثة في سورة المجادلة.

وتشهد كثير من النصوص على سنية الاختلاف وأهمية التعرف على الآخر والاحتكاك به لما له من قيمة إنسانية وتكريم عند الله تعالى، من ذلك: قوله تعالى في تكريم الإنسان وتوقيره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾⁸ وقوله تعالى: ﴿لَمَّا آتَيْنَا آلَ الْنَّاسِ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾⁹

وقوله تعالى في جعل الاختلاف سنة كونية: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا نَزَّلْنَا مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلَئِنْ خَلَقْتَهُمْ﴾¹⁰ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كَلِمَ تَتَّبِعُونَ الْأَقْبَابُ لَكَرِهَ النَّاسُ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾¹¹ جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾¹².

فالقُرآن في أسسه كتاب حوار، يعني حوار الأنبياء مع أقوامهم كحوار سيدنا إبراهيم مع قومه، وسيدنا موسى مع فرعون وما حكاه القرآن عن يوسف وهود وصالح وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام خير دليل على ذلك، بل إن القرآن الكريم أورد لنا في سور عديدة حواراً جمع بين الله سبحانه وتعالى وإبليس شر خلقه..

— مقومات الحوار المثمر:

إن الحوار المنشود والذي يرسم أطرا جديدة لعلاقة متميزة ودائمة تحكم العالمين الغربي والإسلامي لا يمكن له أن يتحقق إلا إذا توافرت مقوماته الأساسية، وأحسبها كما يلي:

— تبني الحوار كخيار استراتيجي في العالمين الإسلامي والغربي:

لا يمكن للحوار أن يؤدي ثماره إلا في ظل تبنيه كخيار استراتيجي في العالمين الغربي والإسلامي، وأن أي تراجع من أي طرف كان في هذا الأمر يجعل من الحوار جسدا بلا روح، فهو وإن تجسدت فيه سائر المقومات الأخرى بمعزل عن هذا المقوم الأساسي، فإن ماله الفشل، وإن بدت فيه بعض الإيجابيات فهي صورية وشكلية سرعان ما تذهب وتزول.

— التركيز على القواسم المشتركة: فلا شك أن المختلفين وإن بعدت بينهما الشقة إلا أنهما تجمعهما أشياء تختلف نسبة الاجتماع هذه باختلاف كل ما يحيط بمساحة الحوار بينهما وتنتهي هذه النسبة إلى أضعف مستوى لها، فيلتقي المتحاورين عندها فتجتمع بينهما الإنسانية بكل ما تحملها من معاني.

إن العودة إلى التاريخ المشترك والإرث الثقافي الكبير والقيم الإنسانية الرفيعة كفيل بما يدعم ويعزز فرص الحوار والتقارب.

وقد أكد القرآن الكريم ضرورة مراعاة هذا الشرط في حوار المؤمنين مع أهل الكتاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾¹³ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾¹⁴.

فالحوار الذي يتأسس على أرضية صلبة يقف عليها طرفا الحوار لا يمكن أن يحكم عليه بالفشل طالما هناك ما يجمع بين المتحاورين؛ بخلاف ما لو كان منطلق الحوار هو الاختلاف البين فلا شك أن سيؤول إلى تكريس الخلاف وتعميق هوته، وينتهي بالصراع الدائم بين مختلف أطرافه.

ولنا أن نتصور طبيعة هذه القواسم المشتركة في عديد الحوارات الفكرية والعذبية والدينية وغيرها، فلو كان الحوار القائم مثلا حوارا إسلاميا علمانيا

فيمكن أن تكون القيم الإنسانية والوطنية قاعدة أساسية وهامة للحوار، ولو كان الحوار حواراً إسلامياً مسيحياً، فإن الإيمان بالله تعالى وبالرسل وباليوم الآخر والجزاء قاسم مشترك يضمن القابلية للحوار وحسن سيره في هذا الجانب.

— إيجاد إطار معرفي جديد لعلاقات مستقبلية إيجابية: لا بد لهذا الإطار كي يحقق أهدافه من تجاوز التاريخ الذي يذكر بالمآسي التي جرتها الحروب الصليبية، والإسقاطات النفسية التي تركتها في نفوس الغربيين وجعلتهم يعادون الإسلام تحت ميررات واهية، لا زالت وسائل الإعلام الغربية إلى الآن تحاول تأصيلها في نفوس النشء الغربي وضمن مناهجهم الدراسية أيضاً، بالإضافة إلى ما يبث عبر وسائل الإعلام من تشويهات للإسلام أمام الرأي العام الغربي، بغرض تحقيق مزيد من المكاسب السياسية التي تقف خلفها بلا شك دوائر يهودية وجهات معادية للإسلام.¹⁵

— أن يكون بلوغ الحقيقة والذود عنها هو الهدف الأسمى للحوار: والحقيقة لا يمكن تعيينها قبل أو عند بداية الحوار؛ لأن معرفتها وإدراك كنهها إنما يمتد في واقع الأمر هدف الحوار ونتيجته؛ فإذا كانت النتيجة محددة سلفاً فإن مآل هذا الحوار القتل المحتوم، لاستحالة أن يتنازل أي طرف من أطرافه عن رأيه وفكرته.

ولكي يكون الحوار ناجحاً ومثمراً ينبغي أن يولد هو نفسه الحقيقة التي يسعى جميع أطرافه إلى تحقيقها من خلال اعتماد أرضية مشتركة يتم التأسيس لأركانها باتفاق الجميع، وهي موجودة ومنصورة — على اختلاف طبيعتها — في أي مجال يمكن للحوار أن يطرُق بابه.

— نبذ العصبية المقيتة بين الجماعات والدول والأفراد: لا يمكن للحوار أن يؤتسي ثماره إذا ما كانت جوانبه محاطة بالعصبية للفكرة أو الرأي، فلا بد من العمل ما أمكن على تجنب الوقوع في أسر مختلف المؤثرات الاجتماعية والثقافية والسياسية والدينية وغيرها لما لها من دور فعال في توجيه الحوار توجيهاً بعيداً عن الموضوعية وما يتطلبه الحوار من البحث عن الحقيقة والوصول إليها.

— عدم الحوار من موقع دفاعي: أو من موقف إخراج الآخر من موقعه أو الاستخفاف به وبما يحمله من أفكار ومبادئ، بل يجب الالتزام بمبدأ الصوابية غير المطلقة، وتبني منطق التعامل مع الآخر في طريقتان احتمالية الصواب والخطأ في الرأي

— دعم ثقافة الحوار: وذلك من خلال تبني سياسات جديدة في المناهج التعليمية والثقافية والإعلامية تهدف إلى تعزيز روح التفاهم والتسامح وقبول الآخر. وفتح المجال للاطلاع على النتائج الثقافية والمعرفية والفكرية للأمة، والعمل على استثمارها وتوظيفها وفق ما يدعم التفاهم والتواصل بين الأمم والحضارات، ويرسي أسس التسامح والتقارب.

وختاماً فإنه لا مناص من سلوك طريق الحوار لاستشراف مستقبل مشرق يحكم علاقة المسلمين بالعرب. وأن الحوار الناجح هو ذلك الذي توافرت له مقوماته التي سبق لنا ذكرها، حيث تجعله الوسيلة المثلى للوصول إلى التعرف الذي دعا إليه الإسلام والذي به يحل السلام والتقارب بين جميع الناس على ما بينهم من اختلاف.

الهوامش والتعليقات

¹ — الإسلام والغرب، نظرة نقدية حول المستقبل. مقال لعبد الرحمن الوائلي، مجلة الكلمة، ع: 18، 1998، 1419هـ.

² — انظر تفصيل ذلك في: محمد مصيلحي، حقوق الإنسان ص: 401.

³ — انظر: محمد حسين عرند، الغزو الثقافي للأمة، مظاهر ومخاطر، بحث ألقى في المؤتمر الثالث عشر للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

⁴ — علي غفلة عريان، مكانة الحوار الثقافي في بناء الحضارة ودوره في نحت صورة إنسانية، مقال في مجلة الفكر اليمني، ع: 16، ص: 05، 2002.

⁵ — سورة البقرة، الآية: 251.

⁶ — انظر: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، صموئيل هنتجتون، ص: 112.

⁷ — صالح بويشيش، الاتكاسات السلبية للعولمة على الثقافة الإنسانية وسبل مواجهتها، بحث قدمه إلى المؤتمر الدولي الثامن الذي احتضنته كلية الحضارة الإسلامية بوهران في شهر ديسمبر 2003.

⁸ — سورة الإسراء، الآية: 70.

⁹ — سورة الحجرات، الآية: 13.

¹⁰ — سورة هود، الآية: 118.

¹¹ — سورة يونس، الآية: 99.

¹² — سورة النحل، الآية: 125.

¹³ — سورة العنكبوت، الآية: 46.

¹⁴ — سورة آل عمران، الآية: 64.

¹⁵ — انظر: الإسلام والغرب لركى الميلاد، ص: 47.

تُبت بالمراجع:

- الإسلام والغرب، الحاضر والمستقبل، زكي الميلاد وتركي علي الربيعو، ط: 1998، دار الفكر، دمشق.
- الإسلام والغرب، نظرة نقدية حول المستقبل، مقال لعبد الرحمن الوائلي، مجلة الكلمة، ع: 18، 1998، 1419هـ.
- الغزو الثقافي للأمة، مظاهر ومخاطر، محمد حسين عردنس، بحث ألقى في المؤتمر الثالث عشر للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.
- الإسلام والغرب، نظرة نقدية حول المستقبل، مقال لعبد الرحمن الوائلي، مجلة الكلمة، ع: 18، 1998، 1419هـ.
- مكانة الحوار الثقافي في بناء الحضارة ودوره في نحت صورة إنسانية، علي عقلة عرسان، مقال في مجلة الفكر السياسي، ع: 16، ص: 05، 2002.
- صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي، صموئيل هنتجتون، القاهرة 1998.
- حقوق الإنسان، محمد مصيلحي، دار النهضة العربية 1988، مصر.
- الانعكاسات السلبية للعولمة على الثقافة الإنسانية وسبل مواجهتها، صالح بوبشيش، بحث قدم إلى المؤتمر الدولي الثامن الذي احتضنته كلية الحضارة الإسلامية بوهران في شهر ديسمبر 2003.

المسلمون في القرن الخامس عشر الهجري .. والتعامل مع القرآن الكريم واقع وأفاق

الأستاذ الدكتور عيادة بن أيوب الكبيسي
كلية الدراسات الإسلامية والعربية. دبي

الحمد لله القائل في كتابه الكريم: إيتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)، فكان دستور هذه الأمة دليلاً وهادياً ونصييراً، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأحبابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فبدء أقول: جزى الله المنظمين لهذا الملئقي، والقائمين على تسيير أموره خير الجزاء، فإن الاهتمام بأمر المسلمين، والبحث عن أحوالهم وشؤونهم، وما يرقى بهم إلى مصاف الأمم المتقدمة، مما يحبه الله تعالى ويرضاه، وقد وافق هذا الملئقي المبارك رغبة في نفسي، لأدلي بدلوي المتواضع، وأعرض ما كتبته في هذا الخصوص بين يدي الإخوة المشاركين، مما أرجو أن يكون فيه النفع والفائدة بإذن الله تعالى.

وقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة، ومبحثين وخاتمة.

المبحث الأول: في أبرز أسس التعامل مع القرآن الكريم.

نرى أن أبرز أسس التعامل مع الكتاب الكريم، تركز على أربعة أمور،

وهي:

التلاوة، والحفظ، والفهم، والعمل. وعليه فقد قسمنا هذا المبحث إلى أربعة

مطالب:

المطلب الأول: في التلاوة.

والتلاوة تعني: قراءة آيات القرآن الكريم وسوره، إما مجزءاً ومفرقاً، وإما

على طريق الختمة، ويمكن أن نقسم هذه التلاوة إلى قسمين: تلاوة يومية مستمرة، وتلاوة تأملية.

أما اليومية: فهي التي يلزمها المسلم يومياً ولا ينقطع المسلم عنها، وأفضلها ما كان بطريق الختمة، كلما انتهى من ختمه شرع في أخرى وهكذا، وعد النبي النبي صلى الله عليه وسلم هذا من أحب الأعمال إلى الله تعالى، فقد سئل صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الحال المرتحل، قال: وما الحال المرتحل؟ قال: الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حل ارتحل⁽¹⁾. ولا يشترط في هذه التلاوة الكم، إنما الشرط الاستقامة والاستمرار، ويكفي فيها: مراعاة أحكام التجويد، وحضور القلب، واستشعار عظمة المتكلم سبحانه وتعالى.

وأما التأملية: فهي التي تقوم على إعمال الفكر، وتغليب النظر، وذلك بأن يقف القارئ عند الآيات وقفة تأمل طويلة، مردداً لها مستغرقاً فيها، مع صنق الوجهة وعمق التدبر، مستلهما فتح الله تعالى. وقد يطول ذلك التأمل، بل ربما استغرقت الآية الواحدة وقفات.

وهذا هو الذي عناه سيدنا علي بن أبي طالب — رضي الله تعالى عنه حين سئل: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ — فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة أعلمه، إلا فيما يعطيه الله رجلاً من القرآن⁽²⁾، ونود به عبد الله بن مسعود — رضي الله تعالى عنه — بقوله: من أراد علم الأولين والآخرين فليثور⁽³⁾ القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين⁽⁴⁾.

ولهذه القراءة التأملية أدلة من فعل النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، فمن ذلك:

ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قام ليلة بأية يرددها، فعن أبي ذر — رضي الله تعالى عنه — قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم بأية حتى أصبح يرددها، والآية {إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَاتُّبِعْتُمْ وَإِنْ تَغَفَّرْتُمْ لَكُمْ فَابْتَغُوا الْعِزَّ بِالْحَكِيمِ} ⁽⁵⁾. وقام تميم الداري — رضي الله تعالى عنه — ليلة بهذه الآية: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} ⁽⁶⁾.

وقام سعيد بن جبير — رحمه الله تعالى — ليلة يردد هذه الآية: {وَأَمَّا تَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} ⁽⁷⁾.

وقال مقاتل بن حيان: صليت خلف عمر بن عبد العزيز فقراً: {وَقَوْمِهِمْ أَنَّهُمْ مُسْوَوُونَ} ⁽⁸⁾ فجعل يكررها لا يستطيع أن يحاوزها، يعني من البكاء ⁽⁹⁾.

وعن محمد بن الحسن — رحمه الله تعالى — قال: قام أبو حنيفة — رحمه الله تعالى — ليلة بهذه الآية: (إِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمُ وَالسَّاعَةَ أَذْهَى وَأَمْرٌ) ⁽¹⁰⁾، ويبكى ويتضرع إلى الفجر ⁽¹¹⁾.

والأمثلة على هذا كثيرة، تكاد على مدى اهتمام السلف بهذه القراءة، متأسين بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، حيث إن القراءة بالتسبب والتفهم هي المقصود الأعظم — كما يقول السيوطي — والمطلب الأهم، وبه تتشرح الصدور وتستتير القلوب ⁽¹²⁾.

واقع المسلمين اليوم:

إن حظ المسلمين من النوع الأول لا بأس به، وإن المصاحف على كثرتها وتعدد طبعتها لا تفي بحاجة المسلمين، فلم تزل الطلبيات تتراعى على المراكز الإسلامية في شتى أصقاع العالم الإسلامي تترجو تزويدها بنسخ من المصحف الشريف، مما يدل على أن المسلمين حريصون على تلاوة كلام ربهم، وإن للقراء في المساجد دوراً في القرآن كنوي التحل، لا سيما في شهر القرآن شهر رمضان المبارك، وإن كان من هؤلاء من لا يقرأ إلا في المسجد أو في شهر رمضان فقط، حتى إذا ما انتهى الشهر الكريم عادوا إلى ما كانوا عليه من الهجران والغفلة.

ولا يخفى أن حظهم في النوع الأول من القراءة أكثر بكثير منه في النوع الثاني، ومع صعوبة التتبع لذلك، إلا أن الظاهر من ملاحظة القراء أن أغلبهم لا يراعون الوقوف الطويل عند الآية، ولا يعنون بتزويدها وتكرارها، وربما كان هم الكثيرين نهاية السورة، أو الوصول إلى الختمة.

الأمر الذي يقتضي من الدعاة والخطباء والوعاظ والمنكرين التنبيه إلى هذا، وتذكير المسلمين بأهمية هذا النوع من التلاوة، وبيان فوائده وفوائده، وقد كان السلف يقصون عن هذا، يقول أحدهم:

لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد، قال الإمام الغزالي — رحمه الله تعالى — وذلك بحسب درجات تدبره وتفتنسه ⁽¹³⁾.

ويقول الآخر: إني لأفتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر.

إن لقراءة التأمل ثماراً تتعكس آثارها على سلوك القارئ وتصرفاته فيعرف بذلك، وواقع المسلمين اليوم لا يشهد بذلك، وهو ما سوغ لنا القول بأن حظ

60 — المسلمون في القرن الخامس عشر الهجري والتعامل مع القرآن الكريم واقع وأفاق

الكثيرين منهم في النوع الأول لوفر منه في هذا النوع، ثم إن ما ذكرناه في المطب الثالث يرجح ما ذهبنا إليه هنا، لتوقف التأمل المفيد على الفهم كما لا يخفى — والله تعالى أعلم بخلقه — .

المطلب الثاني: الحفظ.

ولا يخفى ما له من مكانة وأهمية، ويكفي تنويها بقدره وعلو مقام أصحابه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم سيد الحفاظ وأولهم، وأن يتسابق أصحابه الكرام — رضي الله تعالى عنهم — في ذلك حتى حفظه الجم الغفير .
وكما قسمنا التلاوة إلى قسمين، يمكن أن نقسم الحفظ كذلك:

الأول: الحفظ الكامل لكتاب الله تعالى، وذلك هو القدر المعلى ومنتهى الشرف وغاية السبق ومما يدل على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها) (14).

وإذا كانت درج الجنة بعدد أي القرآن — كما جاء في الأثر —، إذا كان ذلك كذلك، تبين لك عظم منزلة حافظ القرآن، وعلو مكانه في الجنة . مكانته .
فمن استوفى قراءة جميع القرآن، استولى على أقصى درج الجنة في الآخرة — كما يقول الإمام الخطابي — ومن قرأ جزء منه كان رقيه في الدرج على قدر ذلك، فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة (15).

وفي هذا يقول أبو أمامة (16) — رضي الله تعالى عنه —: اقرعوا القرآن، ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة، فإن الله لا يعذب قلبا وعى القرآن (17).

والثاني: حفظ بعض أجزاء الكتاب الكريم، أو بعض سورته وآياته .
وفي هذا خير كثير، إذ مالا يترك كله لا يترك كله، ولأن يرتقي في بعض درج الجنة أفضل من أن لا يضع رجله في الدرج أصلا، ولأن يكون في قلبه بعض النور والخير، أحسن من أن يكون مظلما خربا .

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب) (18).

والأفضل في هذه الحال أن ينتقي بعض السور والآيات ذات الخصائص التي نوهت بها السنة المطهرة، كآية الكرسي التي هي أعظم آية في القرآن (19)، والآيات العشر من أول سورة الكهف وآخرها (20).

وكسورتي البقرة وآل عمران (21)، وسورتي يس والذخا (22)، وسورتي

السجدة والذهر⁽²³⁾، وسورة الملك⁽²⁴⁾، والمعوذات⁽²⁵⁾، ونحو ذلك من الآيات والسور الكريمة.

واقع المسلمين اليوم:

وكما قلنا في التلاوة، نستطيع أن نقول هنا من أن المسلمين اليوم لهم حظ طيب ونصيب لا بأس به من هذا الحفظ، لا سيما في القسم الثاني، فلا يكاد قلب مسلم يخلو من بعض سور من كتاب الله تعالى وآياته.

وقد بدأ الاهتمام بحفظ كتاب الله تعالى في هذا القرن ظاهراً، ودور التحفيظ ومراكزه متوافرة، وحلقات التحفيظ منتشرة في المساجد وغيرها، حتى إن كثيراً ممن لا يحسن العربية يحفظ القرآن لا يسقط منه حرفاً، ومراكز التحفيظ في تركيا وباكستان وغيرهما من بلاد المسلمين غير العربية لا تكاد تحصى.

ومن ذلك التشجيع على حفظ كتاب الله تعالى، بما يقام من مسابقات دولية ومحلية في كثير من بلاد المسلمين، وما يرصد لذلك من جوائز قيمة، فمن أبرز المسابقات الدولية في حفظ القرآن الكريم:

— مسابقة القرآن الكريم الدولية التي تعقد في رحاب المسجد الحرام بمكة المكرمة.

— مسابقة القرآن الكريم الدولية التي تعقد في دبي، برعاية محمد بن راشد وزير الدفاع بدولة الإمارات العربية المتحدة.

— مسابقة القرآن الكريم الدولية التي تعقد في القاهرة بجمهورية مصر .

— مسابقة القرآن الكريم الدولية التي تعقد في طهران بالجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وغير ذلك من المسابقات التي يتنافس فيها حفاظ القرآن الكريم في العالم الإسلامي الكبير، سواء كان بحفظ كامل كتاب الله تعالى، أو حفظ بعض الأجزاء التي تحددها لجنة المسابقة.

وأما المسابقات المحلية، فلا يكاد بلد مسلم يخلو من ذلك، إضافة إلى المسابقات التي تعقد في المساجد والمراكز ودور التحفيظ التي لا تخضع إلى رقم معين لكثرتها وانتشارها، والحمد لله رب العالمين.

ومما يشار إليه هنا أن هذه المسابقات — دولية كانت أم محلية — تتفاوت من حيث الدعم المالي، وحمس التنظيم والإعداد، وكثرة المشاركين وقتلتهم، ولسنا هنا بصدد ذكر الفوارق بين هذه المسابقات، إنما أردنا الإشارة إلى

62 — المسلمون في القرن الخامس عشر الهجري والتعامل مع القرآن الكريم واقع وأفاق

الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم، وهذا أمر يبشر بخير، مصداقا لقوله تعالى: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}.

المطلب الثالث: الفهم.

وهذا هو المقصود الأكبر من إنزال القرآن الكريم، كما قال تعالى: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليندبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} (26).
وإذا كان العمل هو لب نباب التعامل مع الكتاب الكريم — على ما سيأتي — فإن الفهم هو مفتاح العمل بلا ريب.

ولا يخفى أن هذا الكتاب المجيد قد اشتمل على أحكام ونظم ومبادئ وقواعد في مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والجهادية والقضائية والإنسانية والمالية والشخصية وغيرها من شؤون الحياة المتعلقة بأمر الناس في هذا الكون العظيم، وأنه الكتاب الذي حوى بين دفتيه مع هذا ما يعقبه من الجزاء في حياة الخلود في العالم الآخروي حيث الثواب والعقاب.

ومما يدل على هذا وغيره قوله تعالى: {إما فرطنا في الكتاب من شيء} (27)، وقوله جل وعلا: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} (28).
وصدق من قال:

كتاب الله يحوي كل شيء * * * وسنة أحمد المختار شرحه

وهذا وغيره يحتاج إلى بذل الجهد وإمعان النظر من أجل فهم ما أودع الله تعالى فيه من الحكم والأحكام، والأسرار والمعارف والعلوم.

ويمكن أن نقسم الفهم إلى قسمين:

الأول: فهم لمعاني مفردات القرآن، وما لا بد منه في سياق الكلام.

والثاني: الفهم الدقيق، والتأمل العميق، للوصول إلى معرفة مقاصد القرآن ومراميه، ويدخل في هذا: فهم ظواهر الآيات وبواطنها، وما في ذلك من الإشارات العلمية، واللطائف الروحية، ولا غرابة في هذا فإن كتاب الله تعالى بحر زخار لا ساحل له.

قال الإمام الغزالي — رحمه الله تعالى —: اعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير، فهو مخير عن حد نفسه، وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم ببرد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعا لأرباب الفهم، قال علي — رضي الله تعالى عنه —: إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في القرآن،

فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة، فما ذلك الفهم؟ (29).

واقع المسلمين اليوم:

إذا كان حظ مسلمي هذا الزمن لا بأس به في المطالعين السابقين، فإن بضاعتهم في هذا المطلب مزجاة، وإن جل مسلمي اليوم لا يكادون يفهمون مفردات القرآن الكريم فضلا عن مقاصده ومراميه!!

ولا أقول إن هذا الضعف يكثر في أوساط العوام وغير المتقنين، ولكنك تجده ظاهرا في طلاب المدارس والمعاهد والجامعات!!

ومما يؤسف عليه أن ترى كثيرا من هؤلاء غير مكترئين بما هم عليه من جهل بمراد الله تعالى، فكل همهم أن يقرأوا الآيات والسور ويحفظوها، وكان الله تعالى لم يطالبهم بقيمتها وإدراك مراده بها!!

والأمر في هذا غير محتاج إلى تحقيق وتدقيق، فيكفي أن تسأل من سُنت من هؤلاء عن بعض مفردات القرآن، أو مقاصد الآيات لتغف على الحقيقة، وعلى مدى علم هؤلاء بكلام ربهم وفهمهم له.

ولكن الصحوة التي سرت بين أوساط المسلمين، نبهت الكثيرين إلى ضرورة قراءة كتاب الله تعالى قراءة تأمل وتدبر، ولعل توافر التفسير الميسرة، وكثرة المختصرات في التفسير، وانتشار التعريف بمفردات القرآن، — والأمر لم يزل بحاجة إلى مزيد من النشر والتبسيط والتسهيل — أقول: لعل هذا، ومنه أشرطة الكاسيت المسموعة والمرئية، واستعمال التقنيات الحديثة بعرض تلك المعاني المبسطة على صفحات شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، يساعد بانن الله تعالى وتوفيقه على التقليل من هذه الظاهرة، ويحد من الجهل المستشري بين المسلمين في هذا المضمار.

هذا في النوع الأول من الفهم، وهو معرفة معاني المفردات القرآنية، وما لا بد منه في سياق الكلام، مما لا يستغني عنه قارئ للقرآن، وإلا أصبح كالبيغاء يردد ما لا يفقه معناه!!

وأما بالنسبة للنوع الثاني: فقد لا يقل عن المعنى الأول، حيث إن نسبة ذلك تعد ضئيلة بالنسبة لقرون الإسلام الزاهرة.

ومع هذا فلا يمكن تجاهل ما يبذله العلماء من جهود مشكورة في تجلية الإعجاز العلمي للقرآن، والكشف عما أودع الله تعالى في كتابه من المعارف والأسرار التي قال عنها سبحانه وتعالى: (سنزيبهم آياتنا في الأفق وفي أنفسهم

حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد⁽³⁰⁾.

ومثل ذلك ما قدمه بعض العلماء الأجلاء — جزاهم الله خيرا ورحمهم رحمة واسعة — من تقاسير قيمة، جاءت مواكبة لروح العصر من التبسيط، وحسن العرض والتنسيق، نذكر منها:

— الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى.

— التفسير المنير للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي.

— أيسر التفاسير للشيخ الجزائري.

— صفوة التفاسير للشيخ علي الصابوني.

— مواهب الرحمن لشيخنا العلامة عبد الكريم المدرس.

— في رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك.

— نحو تفسير موضوعي للشيخ محمد الغزالي.

— التفسير البياني للدكتورة عائشة بنت الشاطي.

— والتفسير الدعوي الذي أعدته زينب الغزالي.

وغير هذا من البحوث والكتب التي تعنى بخدمة القرآن الكريم وعلومه،

ولكن هنا نتساءل: كم نسبة الذين يقرءون تلك الكتب ويستفيدون منها؟!.

إن مما يؤسف عليه أن ترى كثيرا من أبناء هذا الزمن لا يعبأون بالقراءة، ولا يولونها اهتماماتهم، مما يجعل تلك الكتب قليلة التأثير في حياة الأمة، ومن هنا لزم أن نتطرق الجهود في إيجاد الوسائل المساعدة والمحبة للقراءة وجب الاستفادة، وأن يكون للتقنية الحديثة إسهاما مباشرا في هذا.

قال الإمام القرطبي في تفسيره:

وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فما أفتح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أفتح أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدرية، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا⁽³¹⁾.

ولا يخفى أن عدم الفهم سبب مهم في عدم العمل، وعدم المعرفة بمقاصد القرآن عامل مهم في سوء تطبيق نصوصه، وهو ما سنوضحه في المطلب الآتي.

المطلب الرابع: العمل.

وهو لب لباب التعامل مع الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه

مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون} (32) ومن الضياع والضللال أن نعد ما تقدم من المطالب هو غاية التعامل مع القرآن، فيصدق علينا المثل الذي ضربه الله تعالى في القرآن لأمثال هؤلاء:

{مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا} الآية (33)، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أهمية العمل بكتاب الله تعالى، ونوه بمكانته حيث قال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالثمرة طعمها طيب ولا ربح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالزبحة ربحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مر) (34).

وقد تواترت الآثار عن أسلف الصالح — رحمهم الله تعالى — بمراعاة هذا الجانب، وإعطائه الأولوية، والتادي برفعة من وفق إليه، والتشهير بمن كان على خلاف ذلك.

نكتفي من ذلك بقول ابن مسعود — رض الله تعالى عنه —: إنا صعب علينا حفظ ألقاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به، وقال: ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف، ولكن إقامة حدوده (35).

ولكن على ذكر مما تقدم عن القرطبي قبل قليل.

ثم إن العمل في القرآن ينقسم إلى قسمين:

الأول: عمل ذاتي قاصر على النفس، يقوم على امتثال الأوامر واجتناب المناهي، ومراعاة الأخلاق والأداب، بمعنى أخذ النفس ومجاهدتها للتحقق بذلك.

والثاني: عمل متعد، بمعنى: إيصال الخير إلى الغير، أي الدعوة والتذكير من أجل رد الناس إلى الله تعالى، وحثهم على العمل بالقرآن، إذ ليس العلم به مقتصرًا على تطبيق أحكامه على النفس والاجتهاد في إصلاحها وتهذيبها، بل لا بد من دعوة الآخرين، قال تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} (36).

واقف المسلمون اليوم:

إذا كان التقصير في فهم القرآن من أبناء هذا الزمن ظاهرًا، فإن تقصيرهم في العمل به أظهر، ومن المؤسف أن يكون تطبيق كتاب الله تعالى في حياة أغلب

الناس اليوم — على الوجه الذي يريده الله تعالى — مهملًا، ولكأنني بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول ما حكاه الله تعالى عنه: {وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورًا}!!

أما على مستوى الحكم، وأنه هو الدستور الذي يرجع إليه في صغير الأحكام وكبيرها، وأنه هو الذي يسير سياسة الدول، فلا أظن أن ذلك يخفى على أحد!!

وأما على مستوى الأفراد والشعوب، فالأمر في هذا بين — أيضًا —، وإن نظرة إلى واقع عموم المسلمين في العالم الإسلامي الكبير، بغنيك عن التماس الأدلة والبراهين!!

ومن عجب أن يعنى المسلمون بقراءة القرآن على أمواتهم، وقد يكونون ممن أهمل العمل بالقرآن في حياتهم!!

فمثلًا: تموت المرأة وقد كانت كاشفة لمفاتيح جسمها غير ملتزمة بالحجاب، ترى فماذا تقول إذا قرأوا عليها بعد موتها مثل قول الله تعالى: {يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أثنى أن يعرفن فلا يؤنين وكان الله غفورًا رحيمًا} (37)

ويموت من ولاة الله تعالى أمر المسلمين وهو لم يحكم بينهم بما أنزل الله، فيقرعون عليه القرآن، ترى فما هو قائل إذا قرعوا عليه مثل قول الله تعالى: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون}!! (38).

وقل مثل هذا فيمن يتعامل بالربا أو القمار، وفيمن يزني أو يسرق أو يغش أو يخون، أو يقصر في حقوق الله تعالى أو حقوق عباده، وفيمن يفسد في الأرض ويسعى في خرابها، وتحو ذلك من أرباب المعاصي والتقصير الذين يموتون من غير توبة ولا إنابة.

ليس هذا من المضحك المبكي في واقع المسلمين اليوم!! وكأنهم يزرون أن القرآن إنما أنزل ليقرأ على الأموات، وأن هذه القراءة كافية في غسل الخطايا ومحو السيئات!!

ولا أريد أن استطرد في الحديث عن تقصير المسلمين في العمل بكتاب ربهم في هذه الأيام، وإنما أريد أن أركز في الحديث عن كلمتين في كتاب الله

تعالى أرى أن إخلال المسلمين بهما كان سببا مهما في كل ما لحقهم من تأخر وضياح⁽³⁹⁾، وهو ما سأفرده بالحديث في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.
وقيل أن أنقل إلى ذلك، أود أن أقول:

إن كلامنا هذا لا ينسحب على كل المسلمين، حيث إن الواقع يشهد بأن هناك وعيا متزايدا في الأمة، وأن التصحيح أخذ طريقه إلى كثير من المسلمين، وأن الصحوة بدأت تعمل عملها في واقع الناس، وصيحات الدعوة للعودة إلى منابع الصافية للإسلام، وتطبيق أحكامها في حياة الناس بدأت تتعالى هنا وهناك، مما يبشر بمستقبل مشرق لهذه الأمة، وهو أمر وشيك التحقق بإذن الله تعالى.

المبحث الثاني:

نموذج من واقع المسلمين في التعامل مع كتاب الله تعالى.

النموذج الذي أردت أن أضربه في هذا المبحث، يتمثل في آيتين من كتاب الله تعالى، وقعت عندهما طويلا، وتأملت فيهما كثيرا، فرأيت أن بينهما ارتباطا وثيقا، وتشكلان مقصدا مهما من مقاصد القرآن الكريم، وأن العمل بمقتضاهما كفيل بتحقيق سعادة الدارين.

تلكما الآيتان هما:

قوله تعالى: {وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا سِطَّعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}⁽⁴⁰⁾.
وقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}⁽⁴¹⁾.

والذي لفت نظري فيهما هو لفظ الاستطاعة الوارد في الآيتين الكريمتين، حيث إن هذا اللفظ لم يرد بهذا المعنى في موضع آخر من الآيات.

المطلب الأول: في تعريف كل من الاستطاعة والتقوى والقوة.

تعريف الاستطاعة:

الاستطاعة: مشتقة من الطوع، كأنها كانت في الأصل: الاستطواع، فلما أسقطت الواو جعلت الهاء بدلا منها، مثل قياس: الاستعانة والاستعاذة.
والعرب تقول: تطاوع لهذا الأمر حتى تستطيعه، ثم يقولون: تطوع أي: تكلف استطاعته⁽⁴²⁾.

والاستطاعة: هي القدرة على الشيء، فهي والقدرة والقوة والوسع والطاقة: متقاربة في المعنى في اللغة⁽⁴³⁾.

وقال الراغب⁽⁴⁴⁾: وهي (أي الاستطاعة) عند المحققين: اسم للمعاني

التي بها يتمكن الإنسان مما يزيد من إحداث الفعل (45).

وهكذا نرى أن المعاجم تلتقي في تحديد معنى الاستطاعة، وعن خلال ما تقدم نستطيع أن نقول في تعريفها بأنها:

التمكن من الإتيان بالفعل وفق الوسع.

وهذا هو المعنى المقصود في قوله تعالى: {ما استطعتم}، وهو ما طلبه الشرع الشريف في جميع التكاليف الشرعية بقوله تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} (46).

تعريف القوة:

القوة — بضم القاف وتشديد الواو —: ضد الضعف، جمع قُوَى — بضم القاف وكسرهما — كالتقوية — بالكسر —، قُوَى الضعيف كرضي قوة — كان ذا طاقة على العمل — فهو قُوَى، والجمع أقوياء، وقوي على الأمر: أطاقه، وتقوى واقْتَوَى وقَوَاهُ الله تعالى تقوية، قال روية: وقوة الله بها تقوينا (47).

والقوة: هي تمكن الحيوان من الأفعال الشاقة، وتقدم أنها تأتي بمعنى القدرة (48).

وقال ابن عاشور — رحمه الله تعالى —: والقوة حقيقتها حالة في الجسم يتأتى له بها أن يعمل ما يشق عمله في المعتاد، فتكون في الأعضاء الظاهرة مثل قوة اليدين على الصنع الشديد، والرجلين على المشي الطويل، والعينين على النظر للمرئيات الدقيقة، وتكون في الأعضاء الباطنة مثل قوة الدماغ على التفكير الذي لا يستطيعه غالب الناس، وعلى حفظ ما يعجز عن حفظه غالب الناس، ومنه قولهم: قوة العقل (49)، وقال: وتطلق مجازا على شدة تأثير شيء ذي أثر، وتطلق — أيضا — على سبب شدة التأثير، فقوة الجيش مدة وقعه على العدو، وقوته — أيضا — سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا (50).

المراد بالقوة في الآية الكريمة:

ذهب العلماء في بيان المراد بالقوة في الآية الكريمة مذاهب، أظهرها: أن المراد بها الرمي لما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال على منبره ثلاثا: ألا إن القوة الرمي (51).

ولو حملنا قوله صلى الله عليه وسلم: هذا على أنه حصر لمعنى الكلمة، وتحديد لبيان المراد منها، لما جاز لأحد أن يعمل فكره فيها، إذ لا بيان بعد بيان رمول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن كثيرا من العلماء يرى: أن النبي صلى الله

عليه وسلم إنما أراد بيان أهم أنواع الأسلحة وأكثرها أثراً، وأن قوله هذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم: (الحج عرفة) ⁽⁵²⁾، وقوله صلى الله عليه وسلم: (الندم توبة)⁽⁵³⁾.

فكما أن ذكر عرفة لا ينفي اعتبار الإحرام والطواف وغيرها من أركان الحج، وكما أن ذكر الندم لا ينفي اعتبار الاستغفار والإفلاج عن المعصية من لوازم التوبة، كذلك فإن ذكر الرمي لا ينفي اعتبار أي نوع من أنواع الأسلحة.

وبإلى هذا ذهب الإمام ابن جرير الطبري حيث قال — رحمه الله تعالى — بعد أن ذكر الأقوال: والصواب من القول في ذلك أن يقال:

إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب وما يتقوون به على جهاد عدوه وعدوهم من المشركين من السلاح والرمي وغير ذلك ورباط الخيل، ولا وجه لأن يقال: عني بالقوة معنى نون معنى من معاني القوة، وقد عم الله الأمر بها.

فإن قال قائل: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بين أن ذلك مراد به الخصوص بقوله: (ألا إن القوة الرمي) قيل له: إن الخبر وإن كان قد جاء بذلك فليس في الخبر ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة نون سائر معاني القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة، لأنه إنما قيل في الخبر: (ألا إن القوة الرمي) ولم يقل: نون غيرها.

ومن القوة — أيضاً — السيف والرمح والحرية، وكل ما كان معونة على قتال المشركين، كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم وفي النكاية منهم ⁽⁵⁴⁾.

تعريف التقوى:

التقوى: بمعنى الانتقاء، يقال: وقاه وقياً ووقاية: صانه كوقاه، واتقيت الشيء وتقيته أتقيه، واتقيه تقى وتقيّة بقاء ككساء: حذيرته، والاسم: التقوى، أصله: تقياً، قلبه للفرق بين الاسم والصفة كخزياً وصدياً.

وقول الله عز وجل: { هو أهل التقوى } ⁽⁵⁵⁾ أي: أهل أن يتقى عقابه، ورجل تقى من أتقيا وتقواه ⁽⁵⁶⁾.

وفي النهاية: وقيت الشيء أتيه: إذا صنته وسترته عن الأذى ⁽⁵⁷⁾.

فالتقوى في اللغة: بمعنى الانتقاء، وهو اتخاذ الوقاية ⁽⁵⁸⁾، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره. يقال: وقيت الشيء أتيه وقاية وتقاه ⁽⁵⁹⁾.

وأما في الاصطلاح: فقد تعددت أقوال العلماء في تعريف التقوى، فمن

ذلك:

أنها المحافظة على آداب الشريعة.

1— أن يتقي العبد ما سوى الله تعالى.

2— ترك حظوظ النفس ومباينة النهي.

3— أن لا ترى نفسك خيرا من أحد.

4— الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به

العقوبة من فعل أو ترك

5— حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض

العبادات (60).

6— التقوى فيما وقع من المكروهات بالندم والإقلاع مع العزم على ترك

العود، وفيما لم يقع بالاحتراس عن أسبابه (61).

ونختار من هذه التعريفات ما تلتقي عليه، وهو:

المحافظة على آداب الشريعة، وذلك بامتنال الأوامر، واجتناب النواهي،

والتسليم للقضاء والقدر.

وبذلك نحصن النفس عن عقوبة الله تعالى وأسباب سخطه.

ثم إن التقوى مراتب:

أدناها: اتقاء الشرك بالله تعالى، وأعلىها: اتقاء ما سوى الله تعالى (62).

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين

حتى يدع ما لا يأمن به حذرا لما به اليأس) (63).

والمراد بالتقوى في الآية الكريمة: بذل الجهد والوسع، أي ابذلوا فيها

استطاعتكم، والزموا أوامر الله تعالى ونواهي، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه،

والعمل بما يعرب إليه ما أظفتم وبلغه وسعكم (64)، قال مقاتل: أي ما أظفتم، يجتهد

المؤمن في تقوى الله ما استطاع (65)، وذلك عين ما يراد بها في الآيات الأخرى،

وهو ما تم اختياره في تعريفها، وذلك واجب كل مسلم ومسلمة، وهم يتفاوتون في

التقوى بقدر ما يتحلون به من مراتبها.

ومما ينبغي التنبيه عليه: أن التقوى لا تعني العصمة، فإن المتقي قد

يعصي، غير أنه لا يصر على المعصية، قال تعالى: {إن الذين اتقوا إذا مسهم

طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون} (66)، وعن هنا نقول: إن المعصية

ليست في المعصية إنما في الإصرار عليها.

فالتذكر والإبصار من التقوى، وهذا من معاني الاستقامة المستفادة من {ما} المصدرية الظرفية، وهو ما أشار إليه ابن عاشور — رحمه الله تعالى — في تفسير قوله تعالى {ما استطعتم} حيث قال: ما مصدرية ظرفية، أي مدة استطاعتكم، ليعم الأزمان كلها، ويعم الأحوال تبعاً لعموم الأزمان، ويعم الاستطاعات، فلا يتخلوا عن التقوى في شيء من الأزمان⁽⁶⁷⁾.

ومن التقوى: الدعوة إلى هذا الدين، ونشره بين العالمين، وذلك بتدرج تحت بند اتباع الأوامر المتقدم في تعريف التقوى، إذ من الأوامر الإلهية قوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة}⁽⁶⁸⁾، والخطاب وإن كان موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه يعم الأمة كلها إذ لا نليل على التخصيص، يؤيده قوله تعالى: {ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين}، ومن المعلوم من قواعد الشرع أن الأمة نائبة عن نبيها صلى الله عليه وسلم، كما هو واضح من قوله تعالى: {وأنزلنا القرآن لأنزلكم به ومن بلغ}، جاء في تفسيرها عن محمد بن كعب القرظي — رحمه الله تعالى — أنه قال: (من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم وكنمه)⁽⁶⁹⁾، ومن المعلوم أيضاً — أنه بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى فإن أمانة التبليغ تتحملها أمته من بعده — صلوات الله وسلامه عليه

أقسام الدعوة:

يمكن أن نقسم الدعوة — هنا — إلى قسمين: دعوة فردية، ودعوة جماعية.

أما الدعوة الفردية: فهي التي ابتدأها صلى الله عليه وسلم، وقام بها صلى الله عليه وسلم خبير قيام، فقد كان يعرض نفسه على القبائل والأشخاص يدعوهم إلى الله تعالى، ولم يكن ما لاقاه صلى الله عليه وسلم من صنوف الأذى واللوان العذاب حساً ومعنى، ليعوقه عن تبليغ ما كلفه الله تعالى به، أو يصدده عن ذلك طرفة عين، وهو القائل صلى الله عليه وسلم: أخقت في الله ولم يخف أحد، وأوذيت في الله ولم يؤذ أحد، وسيرته العطرة صلى الله عليه وسلم طافحة بتماذج كثيرة من ذلك، ومحاوره عمه أبي طالب معه في ذلك شهيرة، وفيها يقول صلى الله عليه وسلم: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والغمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

ونستطيع القول بأن هذه الدعوة قائمة في الأمة لم تنقطع، فلم يزل أفراد من هذه الأمة يقومون بواجب الدعوة الفردية، سواء مع الكفرة في دعوتهم إلى الإسلام، أم مع عصاة المسلمين في دعوتهم إلى التمسك بالدين، والحرص على التزام أحكامه، والتطلي بأدبيه، وهم في هذا متفاوتون نشاطا وضعفا.

ولهذه الدعوة أهمية كبرى، وفوائدها لا تحصى، فعلى كل مسلم أن يحاسب نفسه ليرى ما نصيبه من ذلك، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم، وكم فرح النبي صلى الله عليه وسلم عندما أسلم الغلام اليهودي، حتى إنه صلى الله عليه وسلم أعرب عن فرحه بقوله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي أنقذني من النار.

وأما الدعوة الجماعية:

فهي التي أسسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد دخول الناس في دين الله، ووجود الجماعة الصادقة من أصحابه — رضي الله تعالى عنهم —، حيث كان يكلفهم صلى الله عليه وسلم بإرشاد الناس وتوجيههم، وهو الذي أرسل مصعب بن عمير — رضي الله تعالى عنه — قبل هجرته إلى المدينة المنورة، وهو الذي أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن، وكم من صاحبي كان يقول له: أنت نذير قومك، والمرسل في هذه النماذج ونحوها وإن كان واحدا إلا أن ذلك إنما تم عن تنظيم دقيق، وهو مرتبط بالقيادة العليا، وفق ضوابط وأسس واضحة، وتوجيهات سديدة، كما هو مبين في كتب السيرة وفقهها.

ونستطيع القول — أيضا — بأن هذه الدعوة مستمرة في الأمة، وإن كانت تتفاوت نشاطا وضعفا، وتقيدا وإخلالا بالضوابط أو تقلنا منها، مع تباين في الأساليب والطريقة والمنهج.

المطلب الثاني: العلاقة بين التقوى وإعداد القوة

وبعد أن عرفنا المراد بإعداد القوة المشار إليه في قوله تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة}، والمراد بالتقوى المشار إليه في قوله تعالى: {فانقوا الله ما استطعتم}.

وعرفنا المراد بالاستطاعة في الموضوعين، نذكر في هذه الفقرة وجه الربط بينهما، وفائدة تلازمهما، وخطر الفصل بينهما، إذ هو المقصود الأهم في كتابة هذا المبحث، فنقول مستمدين من الله تعالى الفتح والتوفيق:

نرى أن العلاقة بين ما في الآيتين الكريميتين علاقة عموم وخصوص، حيث إن كل من بذل المستطاع في تحقيق تقوى الله تعالى، لا بد أن يكون قد بذل المستطاع في إعداد القوة ولا عكس، ذلك لأن إعداد القوة أمر من الله تعالى — كما هو بين —، ومن أركان التقوى إمتثال أوامر الله تعالى — كما تقدم في تعريفها —، فمن قصر في هذا مع استطاعته لم يكن ممن تحقق بالتقوى على الوجه المطلوب، والله تعالى يعذر غير المستطيع.

وأما إعداد القوة: فليس من لوازمه ذلك، إذ قد يبذل المرء جهده في إعداد القوة لمواجهة عدوه ولم يكن تقياً لتفريطه فيما سوى هذا من أوامر الله تعالى، بل قد يأتى في إعداد تلك القوة لفساد نيته.

إن غير التقى إذا ملك القوة قد يتصرف فيها وفق هواه وشهوته، وربما أضرب بسعيه وأمنه، وقد يتهور فيجلب على وطنه الوليات ويوقع أهله في المهالك، ويعرضهم للنكبات، وإن شيئاً من هذا لم يكن ليقع لو كانت هناك تقوى، إذ إنها تحتم على صاحبها أن يستعمل القوة في وجهها الصحيح وفق المعايير الشرعية، لأنها تعمل على تزكية النفس فتجعلها منضبطة مترنة، تسير على هدى من الله تعالى وتوفيق من غير إفراط ولا تفريط⁽⁷⁰⁾.

من هنا نرى أن الآيتين الكريميتين تشكلان مقصدا مهما من مقاصد القرآن، يجعل الشخصية المسلمة ذات صبغة خاصة تميزها عن غيرها، فهي تقية قوية، وقوية تقية، فالتقوى تمنع غالبا من الخمول والكسل، والجبن والتفاسر، وتدعو إلى بذل الجهد والمنافسة لبلوغ ما تستطيع في كبح جماح أعداء الدين وإرهابهم، رحمة لا نعمة، وطلباً للهداية والسلام، لا طمعا في الحرب والهيمنة والاستبداد.

وإذا ما تم هذا في حياة الأمة (التقوى وإعداد القوة) فإنها تكون بذلك قد أدت ما عليها مما كلفها الله تعالى به، وهي بعد ذلك ليست مسؤولة عن النتائج، لأن من لوازم التقوى التسليم لما يقدره الله تعالى، فإن كان النصر وتم التمكين فستكر الله تعالى وتطيعه في ذلك، عملا بقوله تعالى: {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وش عاقبة الأمور}⁽⁷¹⁾، وترسي قواعد العدل بين عباد الله على أرض الله وفق شرع الله، مناسبة برسول الله صلى الله عليه وسلم حين مكنه الله تعالى في مكة المكرمة، حيث أعلن سماحة الإسلام، ودخل مكة في غاية التواضع لله تعالى، وعفا عن ظلمه صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يساهل مع من يستحق العقاب عن المتعنتين

74 — المسلمون في القرن الخامس عشر الهجري والتعامل مع القرآن الكريم واقع وفاق

وهم بضعة عشر رجلا كانوا ممن عظمت جرائمهم في حق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وحق الإسلام، فأمر صلى الله عليه وسلم بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة⁽⁷²⁾، كما جاء في سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم⁽⁷³⁾.

وهكذا علم صلى الله عليه وسلم أتباعه — وهو سيد المتقين —، كيف تعمل التقوى عملها في تحقيق العدل والرحمة من غير ذلة ولا تقربط بالحقوق.

وإن كانت الأخرى — بأن لم يتم النصر — فإن التقوى تدعو حينئذ إلى الصبر والتسليم، لأنها علمت المسلم أن ذلك لا يكون إلا لحكمة يعلمها الله تعالى، أو مصلحة خفيت على الناس، أو خلل لم ينتبهوا له، فما يسعهم بعد أن أخذوا بالأسباب على ما يريد الله تعالى إلا أن يقولوا: {إنا لله وإنا إليه راجعون}⁽⁷⁴⁾، متأملين قوله تعالى: {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون}⁽⁷⁵⁾، مصممين على المضي في نصر الله وإعزاز دينه، قائلين ما علمهم ربهم أن يقولوا: {حسبنا الله ونعم الوكيل}⁽⁷⁶⁾.

فيكون المسلم في كئنا الحالتين، على هدى من الله، لا يخرج عن الخير الذي أخبر عنه صلى الله عليه وسلم: (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) ⁽⁷⁷⁾.

المطلب الثالث: الاستطاعة بين ماضي الأمة وحاضرها

لا يخفى على قارئ تاريخ المسلمين منذ أن جاء الإسلام إلى زماننا الحاضر، أن ثمة تفاوتاً في تحقيق الاستطاعة في الأمرين بين هذه القرون التي بلغت أربعة عشر قرناً وربع القرن من الزمان، فقد كانت العصور الأولى الزاهرة مثالا ناصعا لتحقيق الاستطاعة على الوجه الذي أراده الله تعالى، فقد ربي النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام — رضي الله تعالى عنهم — على ذلك، حيث فسر لهم الاستطاعة بقوله وعمله — صلوات الله وسلامه عليه —، وكان يردهم إليها كلما حصل منهم في ذلك إفراط أو تقربط.

فقرأ في سيرته صلى الله عليه وسلم أنه قال لعبد الله بن عمر — رضي الله تعالى عنهما —: نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل⁽⁷⁸⁾، وقال للنفر الذين أتوا بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها!! فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإنا

أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأنفاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني⁽⁷⁹⁾.

ونهى عن الوصال في الصوم فقال صلى الله عليه وسلم: إياكم والوصال، قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: إنكم لستم في ذلك مثلي، أنا لبيت يطعمني ربي ويسقيني، فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون⁽⁸⁰⁾.

وقد علمهم في البيعة أن يراعوا ذلك، ففي الصحيح عن جرير بن عبد الله — رضي الله تعالى عنهما — قال: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، فلقنتني: (فيما استطعت)، والنصح لكل مسلم⁽⁸¹⁾، وعن ابن عمر — رضي الله تعالى عنهما — قال: كنا إذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم⁽⁸²⁾.

ونقرأ — أيضاً —: أنه لما قال المشركون: يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب، وتطلعوا من رؤوس الجبال ليروا الذين أضعفتهم الحمى والغزبة، أنه صلى الله عليه وسلم لما علم بهذه المقالة اضطبع بزدائه وصار يهرول⁽⁸³⁾، وأمر المسلمين أن يضطبعوا ويهرولوا، وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه — رضي الله تعالى عنهم —: رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة⁽⁸⁴⁾، ودخل مكة في الفتح دخول المتواضعين لا دخول الفاتحين المتعطرسين، والأمثلة على هذا كثيرة، وكلها دالة على تحقيق منهج الوسطية التي جاء بها الإسلام، سواء في ذلك أمور الدنيا والآخرة.

وقد سار الصحابة — رضي الله تعالى عنهم — وفق تلك التوجيهات، وتحلوا بتلك الآداب، وعلى ما تروى ربوا ربوا تلاميذهم، فسرى الخير في أفراد الأمة عبر القرون، مع تفاوت في ذلك من حيث التقيد والالتزام بتلك القواعد والتوجيهات.

ومما يلاحظ هنا: أن الله تعالى خص أفراداً خمسة في هذه الأمة — بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم — تمثل فيهم الكمال الإنساني، حيث كان كل فرد منهم في عهده أمة يقتدى به في كل خلق ديني أو دنيوي، وهم:

أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعثمان ذو النورين، وعلي الكرار — رضي الله تعالى عنهم —، ويلحق بهم المجدد الأول عمر بن عبد العزيز — رضي

الله تعالى عنه ، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى — كما يقول ابن حجر — باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها ⁽⁸⁵⁾.

ف نجد كل واحد من هؤلاء في زمانه هو: القائد العسكري، والحاكم الأعلى في الدولة الإسلامية، والمرشد المرابي، والفقيه المفتي، والتقي العابد الزاهد، ونحو ذلك من صفات الكمال البشري، فكان قوة خلقاً وهدياً، وأسوة حسنة في كل كمال، مما لا نجد في غير هؤلاء من أفراد الأمة، حيث تفرقت فيهم الكمالات، فقد نجد القائد ولا نجد فيه الفقيه، وقد نجد الحاكم ولا نجد فيه المرشد والمرابي، وبالعكس، فلم يعد المجدد الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) ⁽⁸⁶⁾. جامعاً لهذه الصفات، فقد يكون متصفاً ببعض تلك الصفات كأن يكون فقيهاً أو محدثاً أو قارئاً أو واعظاً، قال ابن حجر — بعد ذكر عمر بن عبد العزيز كما تقدم —: ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، أما من جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا كل من كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدد أم لا ⁽⁸⁷⁾، مما اقتضى الأمة أن تعود إلى سيرة أسلافها، وأن تتعاون على الخير والتقوى، وأن يكون التواصل قائماً بين الفقيه والقائم بالأمر والزاهد والمرشد والمرابي وغيرهم ممن اختصه الله تعالى بشيء من تلك الصفات المحتاج إلى تجديدها.

وقد كان هذا حاصلًا في العصور الزاهرة، حيث كان الحاكم يرجع إلى الفقيه ويأخذ عنه الأحكام التي يسير في ضوئها شؤون الدولة الإسلامية، وهكذا، بمعنى أنه لا استبداد بالرأي ولا ما يسمى في عصرنا بـ (الدكتاتورية)، بل هناك شورى وتناصح وتعاون على الخير والتقوى، حتى دبت في الأمة داء الأمم من قبلها، فحصل الانفصال، وإعجاب كل ذي رأي برأيه لا سيما الحاكم، الذي ربما جرى على أمره وبلات الحروب والتمار بسبب تصرفه الفردي وعدم الرجوع إلى هدي الشرع فيما يأخذ أو يترك، وعدم استشارته أهل الفقه والاختصاص.

وتريد هنا أن ننظر في حال أمتنا اليوم من ناحيتين:

الأولى: الاستطاعة.

الثانية: التكاتف بين الفقيه والحاكم.

فهل بذلت الأمة بمجموعها اليوم الاستطاعة في هذا الخصوص؟

إن نظرة منا إلى ما نشاهده ونطالعه، وما نسمعه يعطي جواباً بئس، لا

يلتبس على ذي عينين وليس كلامنا هنا مع أفراد معينين أو مجموعات معينة، بل النظرة إلى مجموع الأمة كما ذكرنا فنستطيع أن نقول: إن الأمة لم تبذل جهدها في تحقيق التقوى وإعداد القوة في ضوء الاستطاعة كما أمرها الله تعالى بذلك.

وقد أحسن العلامة القاسمي — رحمه الله تعالى — إذ نبه إلى هذا فقال:

(.. ولما عمل الأمراء بمنقضى هذه الآية — {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} — أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزاً عظيماً، أبي الضيم، قويّ القنا، جليل الجاه، وقير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار، وخضد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجون الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقاباً منتالية، وهم سادة الأمم، وقادة الشعوب... وأما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف، فأهملوا فرضاً من فروض الكفاية، فأصبحت الأمة أئمة بترك هذا الفرض، ولذا تعاني اليوم من غصته ما تعاني)... إلخ (88).

وأما الناحية الثانية: فالأمر لا يختلف عن الناحية الأولى، فإين رجوع الحاكم إلى أخذ رأي الشرع في تصرفاته؟ وأين نصيحة أهل العلم للحاكم؟ وهل بذلنا الوسع في ذلك؟.

إننا بحاجة إلى التأمل والتبصر، والاعتراف بالتقصير، وتصحيح الخطأ، حتى لا نخطئ في فهم القرآن.

وعلى الأمة أن تتهيئ في المطالبة بالعودة إلى تحقيق مبدأ الشورى والتكاتف والتعاون بين الراعي والرعية، والصدق في التصح وإرادة الخير، ونبذ التسلط والتعالي، والانتصار على النفس بعدم الانفراد بالرأي وفرضه بالقوة، ورحم الله حافظ إبراهيم إذ يقول:

رأي الجماعة لا تنقئ البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها (89)

ولا نريد هنا التكاتف الصوري والشورى الصورية — كما هو الحال عند بعض الناس —، لأن ضرر هذا بين، أورث الأمة ضرراً فادحاً، وأدى إلى تمزيق وحنثها، بأن يعرض الرأي للتشاور ثم يؤول الأمر قطعاً إلى ما يريد صاحب الرأي لأسباب متعددة!!!

خطر الفصل بين التقوى وإعداد القوة:

من عظيم فضل الله تعالى على هذه الأمة أن تم عليها نعمته وأكمل دينه، وأتمنّ عليها سبحانه وتعالى بذلك فقال: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً⁽⁹⁰⁾، فالإسلام دين الكمال، ولا يظهر جماله إلا إذا طبق بكماله.

وتحن هنا أمام دعامتين في غاية الأهمية، وهما:

— بذل الجهد في تقوى الله تعالى.

— بذل الجهد في إعداد القوة كما أمر الله تعالى.

وكمال الإسلام — هنا — إنما يظهر في تحقيق الدعامتين معاً، وأن التفريط بأحدهما يضرّ بالأخرى، والمقتصر على أحدهما من المكلفين لا يعتبر صادق الاتباع متى ما كان قادراً على الجمع بينهما، لإخلاله بأمر من أوامر الله تعالى، وذلك أحد معوقات النصر، حيث أخلّ بأحد شروطه التي قال الله تعالى الله فيها: لينا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم⁽⁹¹⁾، إذ طاعة الله تعالى شرط مهم من تلك الشروط.

ومما يؤسف عليه أن ترى الأمة اليوم بمجموعها قد فصلت بين الدعامتين، على عكس ما كان عليه أسلافهم، فكان من نتائج ذلك:

— أن من أغفل جانب إعداد القوة، واهتمّ بجانب من التقوى⁽⁹²⁾ — كالعبادات ونحوها —، آل أمره إلى واحد من اثنين: إما أن يمالي الأعداء ويسايرهم، كما هو واقع بعض بلاد المسلمين، وإما أن يضرب فلا يستطيع الصمود⁽⁹³⁾ أمام عدوه كما هو واقع بعض آخر!! وكيف يصمد وهو لا يملك من السلاح ما يملك عدوه؟.

وأما من أغفل جانب التقوى، واجتهد في إعداد القوة، فقد أساء استخدامها، وذلك من ناحيتين:

الأولى: الإساءة إلى إخوانه وجيرانه من المسلمين، وإرهابهم بذل أن يرهب أعداءهم.

والثانية: التصرف الخاطئ في استعمال تلك القوة، بما كان سبباً في إلحاق الأذى بالأمة والإضرار بمصلحتها.

والأمثلة متعددة، لا تخفى على من يعيش في هذا الزمن المليء بالمآسي المريرة⁽⁹⁴⁾ التي ألمت بالمسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولعل خير مثال قريب، هو ما حصل لبغداد⁽⁹⁵⁾ في تلك الليلة السوداء، حيث كان ضعف الإيمان والتقوى أو انعدامهما، عاملاً مهماً في ذلك السقوط المرعب، يقول صاحب كتاب الحرب الأمريكية على العراق: (فقد ظهر أن الأطماع

وتقلبات الأنفس والأمزجة التي لا نهاية ولا حدود لها، وحب الدنيا والتعلق ببريق الذهب ورائحة الأموال تغري العديد، خاصة ذوي النفوس الضعيفة ورفاق المصلحة، تجلئ هذا في حفنة من الضباط الكبار، الذين لا ولاء ثابت لهم، لأنهم ليسوا من المؤمنين بالله، ولا جدر لهم عميق يثد سيقانهم للوطن، خانوا بلدهم وانفسهم... وسلموا البلاد في ليلة حالكة مقابل حفنة من دولارات ملوثة ووعد بالسلامة والإقامة في أمريكا)، ثم يقول: (قلم يستتر صدام حسين إلى الخلف ليرى الخنجر المرفوع خلف ظهره حتى تم إخماده إلى النصل في تلك الليلة السوداء، مؤكدا له بعد فوات الأوان أن الثقة المطلقة بغير الله، ثم المؤمنين الصادقين بعندهم الله، هي مقتل مزجج تزداد كلما قل الإيمان وضعفت النفوس)⁽⁹⁶⁾.

وهكذا نرى أن غياب التقوى في مسيرة هؤلاء، غيرت مجرى الأمور إلى غير صالح المسلمين، ولو أن تكاثفا تم بين الفريقين، وربطاً بين الدعامتين، لكان حال المسلمين اليوم شبيها بحال أسلافهم يوم كانوا سادة الدنيا وقادة العالم.

إن واقع المسلمين المعاصر يقتضي دراسة متأنية، قائمة على التبصر والتحليل، للخروج بالذروس النافعة، ومن أبرزها: تشخيص اداء العضال بصورة بيّنة، في ضوء الأخطاء والتجارب، مع المقارنة بين ماضي الأمة وحاضرها، ثم وصف الذواء الناجع بصورة دقيقة، والإرشاد إلى كيفية استعماله بنصح صادق، وهمة قوية وعزم أكيد، يقوم على نية صافية، وإخلاص صحيح.

وإن هذه الأمة لعلى خير كثير، وهي عائدة إلى المنابع الصافية بلا ريب، وملتصكة ببيدتها، حيث إن الكل بدأ يدرك أن لا نجاة مما هي فيه إلا بذلك⁽⁹⁷⁾، وصدق من قال: والله لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وإن ذلك لكائن عن قريب بإذن الله تعالى، وصدق الله العظيم إذ يقول: (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)⁽⁹⁸⁾.

الخاتمة

نسأل الله تعالى حسنها

نذكر فيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، على شكل نقاط محددة على النحو الآتي:

النحو الآتي:

— إن القرآن الكريم كان نعمة إلهية كبرى، ومنحة ربانية عظيمة، وإن

الله تعالى تكفل لمشيئته نساءتي الدنيا والآخرة.

— إن تعامل مسلمي اليوم — بمجموعهم — مع القرآن، بالنسبة إلى تلاوته وحفظه لا يأس به، وقد أخذوا من ذلك بحظ وافر.

— إن تعاملهم مع القرآن، بالنسبة إلى قيمه والعمل به ضعيف، مما يتطلب من ذوي العلم والدعوة والإصلاح مزيداً من بذل الجهد في النصح والتوعية والتذكير.

— إن الخلف قد اتحرفوا عن منهج السلف — في هذا — قال أمرهم إلى ما آل إليه، وفق سنة الله التي يقول فيها: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}.

— إن بذل الجهد في التقوى، وبذل الجهد في إعداد القوة لمواجهة الأعداء، ينبغي أن يكونا متلازمين في حياة أمة الإسلام.

— وإن التفريق بينهما قد أضر بمجموع الأمة، فقادها إلى التفرق والتشذم الذي يعاني منه الكبار والصغار.

— إن المسؤولية في تحقيق النهوض بالأمة — على ما تقدم — تقع في الدرجة الأولى على الأمراء والعلماء، أما الأمراء: فلما أتاهم الله من ملك، وما منحهم من إمكانات وسلطات، وأما العلماء: فلما لهم من مكانة ودراية، ولما عليهم من واجب النصح والبيان الذي أخذه الله تعالى عليهم.

— لو أن التطور الهائل الذي تشهده الدنيا هذه الأيام كان بيد المسلمين الذين يحسنون التعامل مع القرآن، لكان وضع الدنيا اليوم على غير ما هي عليه الآن، فحقاً وصنعاً: كم خسر العالم بانحطاط المسلمين!!

— إن الصحوة الإسلامية التي تنتشر في بقاع المسلمين اليوم، تبشر بمستقبل مشرق لهذه الأمة، غير أنها تحتاج إلى توجيه وترشيد من ذوي العلم والمعرفة، كي لا تتحرف عن مسارها الصحيح.

الهوامش والتعليقات:

(١) أخرجه الترمذي برقم 2948 عن نصر بن علي وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عمار إلا من هذا الوجه، وإسناده ليس بالقوي، ثم أخرجه عن محمد بن بشر بنحوه وقال: وهذا عندي أصح من حديث نصر بن علي — كتاب القراءات — باب: (11) 198/5، والدارمي برقم 3476 — باب: ختم القرآن 560/2، والطبراني بنحوه في الكبير برقم 12783 — 131/12 وسكت عليه، وقال الذهبي: صالح — وهو المرعي — متروك قال: وله شاهد — كتاب فضائل القرآن 568/1-569، وابن المبارك في الزهد برقم 80 ص 276، وأبو نعيم في الحلية 260/2.

- (٢) أخرج البخاري في مواضع متعددة، أنظر رقم 3047 في كتاب الجهاد — باب: فتاك الأسير 205/6.
- (٣) يثور — بتشديد اللو — أي لينفر عنه، يفكر في معانيه وتفسيره وقراءته. النهاية 229/1 مادة: ثور.
- (٤) أخرجه الطبراني في الكبير برقم 8666 وفي رواية: خير بدل علم في الموضوعين، انظر الأرقام: 8666-8666، 135/9-136. قال في صحيح الزوائد: روى الطبراني بإسناد ورجال أحدهما رجال الصحيح 165/7، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم 1960 — فضل في تعليم القرآن 332/2، وانظر إحياء علوم الدين 283/1.
- (٥) سورة المائدة، آية: 118، والحديث أخرجه أحمد 149/5، والنسائي في كتاب الافتتاح — ترتيب الآية 2/177، وابن ماجه برقم 1350 في كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء في القراءة في صلاة الليل، قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات 429/1، والحاكم في كتاب الصلاة وقال: هذا حديث صحيح، ووافقه الذهبي 241/1.
- (٦) سورة الحجية، آية: 21.
- (٧) سورة يس، آية: 59.
- (٨) سورة الصفات، آية: 24.
- (٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب: الرقة واليكاء برقم 94 ص 101، وفي البداية والنهاية لابن كثير أنه مكث ليلة كاملة يردد بها 228/6-229 ط دار الفكر.
- (١٠) سورة القمر، آية: 46.
- (١١) انظر سير أعلام النبلاء 401/6، النجوم الزاهرة 13/2، مناقب أبي حنيفة 252/2، عقود الجمان ص 224.
- (١٢) انظر الإفتان 106/1.
- (١٣) انظر إحياء علوم الدين — آداب الثالث: في أعمال الباطن في التلاوة 282/1.
- (١٤) أخرجه أحمد 192/2، وقال أحمد شاكر في النسخة المحققة 55/11: إسناده صحيح، وأبو داود برقم 1464 في كتاب الصلاة باب: استحباب الترتيل في القراءة 73/2، والترمذي برقم 2914 في كتاب فضائل القرآن وقال: هذا حديث حسن صحيح 163/5، والحاكم في فضائل القرآن، وصححه الذهبي 553/1.
- (١٥) انظر الترغيب والترهيب للمتذري 350/2-351، والتفسير الكبير 69/1-70.
- (١٦) هو الصحابي الجليل صدي — بالتصغير — ابن عجلان الباهلي، سكن الشام ومات بها سنة ست وثمانين، أخرج له الجماعة — رضي الله تعالى عنه — انظر التقريب 366/1، التهذيب 420/4-421، الإصابة 268/2-269.
- (١٧) أخرجه ابن أبي داود بإسناد صحيح كما قال ابن حجر في الفتح 79/9.
- (١٨) أخرجه أحمد من حديث ابن عباس — رضي الله تعالى عنهما — 223/1، والدارمي في فضائل القرآن 521/2، والترمذي برقم 2913 — والتقطه — في توب القرآن وقال: هذا حديث حسن صحيح 177/5.
- (١٩) ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي بن كعب — رضي الله تعالى عنه — يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)، قال: يضرب في صدري وقال: ليهتك العلم يا المنذر. أخرجه مسلم برقم 810 في كتاب صلاة المسافرين — باب فضل سورة الكيف وآية الكرسي 556/1.

(²⁰) فعن أبي الترداه — رضي الله عنه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من حفظ عشر آيات من

أول سورة الكهف صعد من الدجال وفي رواية: من أقر الكهف. أخرجه مسلم برقم 809، 1/555-556.

(²¹) فعن أبي أمامة الباهلي — رضي الله تعالى عنه — قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

أقرعوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. أقرعوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فتنهما تليان

يوم القيامة كأنهما صامتان أو كأنهما غيلتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما.

أقرعوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة. قال معاوية بن سلافة بنغني أن

البطلة: السحرة. أخرجه مسلم برقم 804، 1/553.

(²²) نقل ابن كثير في تفسيره عن بعض العلماء في خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر صير إلا

يسره الله تعالى، وذكر حديث أبي هريرة — رضي الله تعالى عنه — عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال: من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له، ومن قرأ حم التي ينكر قيتها للنخل أصبح مغفوراً له. وقال

ابن كثير: استاده جند 570/3.

(²³) فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بيماً في صلاة الصبح. أخرجه مسلم برقم 879 و880 من

حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما 599/2.

(²⁴) فعن أبي هريرة — رضي الله تعالى عنه — عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن سورة من القرآن

ثلاثون آية شغعت رجلاً حتى شعر له، وهي سورة: (بهارات التي بيده الملتأ). أخرجه أحمد 299/2،

والترمذي — واللفظ له — برقم 2891 وقال: هذا حديث حسن 164/5، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي 2/

497.

(²⁵) فبي من أورد الترمذي، كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن أم المؤمنين عائشة —

رضي الله تعالى عنها — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث

فيهما فقرأ فيهما: (قل هو الله أحد) و (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس). ثم يمسح بيماً ما

استطاع من جسده، يبدأ بيماً على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. أخرجه

البخاري برقم 5017 في كتاب فضائل القرآن 62/9.

(²⁶) سورة ص، آية: 29.

(²⁷) سورة الأنعام، آية: 38. وقد اختلف العلماء في المراد بالكتاب في هذه الآية، ونحو الواجح ما ذهب

إليه الرازي وغيره من أن المراد به القرآن، قال الرازي: لأن الألف واللام إذا تخللا على الاسم المفرد

انصرف إلى المعنوي السابق، والمعنوي السابق عند المسلمين هو القرآن، فوجب أن يكون المراد من الكتاب

في هذه الآية القرآن، ونسبه المازدي إلى الحميوي، انظر التفسير الكبير 12/225-228، التكت والتعيون

112/2، وانظر تمة المسألة في كتابنا: أبرز أسس التعامل مع القرآن الكريم ص 66-67 هامس 2.

(²⁸) سورة النحل، آية: 89 وتماثها: (أوهدي ورحمة وبشرى للمسلمين).

(²⁹) انظر إحياء علوم الدين 1/289، وأثر على — رضي الله تعالى عنه — تقدم تخريجه.

(³⁰) سورة قصص، آية: 53.

(³¹) انظر الجامع لأحكام القرآن 1/21، والوجيز في فضائل الكتاب العزيز ص 79.

(³²) سورة الأنعام، آية: 155.

(³³) سورة الجمعة، آية: 5.

(³⁴) متفق عليه، أخرجه البخاري — واللفظ له — برقم 5059 في كتاب فضائل القرآن باب: ثم من رأى بقراءة القرآن 100/9، مسلم برقم 797 في كتاب صلاة المسافرين باب: فضيلة حافظ القرآن 549/1.
(³⁵) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص 274.

(³⁶) سورة النحل، آية: 125.

(³⁷) سورة الأحزاب، آية: 59.

(³⁸) سورة المائدة، آية: 49.

(³⁹) ويحفظهم وتأخرهم خسر العالم الكثير والكثير، قرأ في هذا: ماذا خسر العالم بتحطاط المسلمين للشيخ الندوي — رحمه الله تعالى —

(⁴⁰) سورة الأنفال، آية: 60.

(⁴¹) سورة التعين، آية: 16.

(⁴²) انظر مقاييس اللغة 431/3، المحيط في اللغة 120/1، بصائر ذوي التمييز 520/3.

(⁴³) انظر التعريفات ص 35، لسان العرب 242/8، النهاية 142/3.

(⁴⁴) هو الإمام العلامة المقرئ اللغوي، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل، المقرب بالتراب الأصبهاني — أو الأصبهاني — من أهل أصبهان، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرب بالإمام الغزالي — رحمهما الله تعالى — توفي 502 هـ وقيل: غير ذلك. انظر الأعلام 255/2.

(⁴⁵) انظر المعقولات ص 530، بصائر ذوي التمييز 521/3 مادة: طوع.

(⁴⁶) سورة البقرة، آية: 286.

(⁴⁷) انظر القاموس المحيط 552/4، وتاج العروس 306/10، ولسان العرب 207/15، والمعجم الوسيط 2/768 مادة: قوي.

(⁴⁸) انظر التعريفات ص 231.

(⁴⁹) انظر التحرير والتنوير 99/9.

(⁵⁰) السابق 55/10.

(⁵¹) أخرجه مسلم من حديث عقبة بن عامر الجهني — رضي الله تعالى عنه — برقم 1917 في كتاب الإمارة باب: فضل الرمي والحد عليه 1522/3، وقد استوفينا تخريجه في تحقيق تفسير سورتي الأنفال والتوبة لابن أبي حاتم الرازي رقم 567 (477/1-479).

(⁵²) أخرجه النسائي في فرض الوقيف بعرفة من حديث عبد الرحمن بن يعمر — رضي الله تعالى عنه — 256/5، والترمذي برقم 889 في كتاب الحج باب: 57 وقال: والعمل على حديث عبد الرحمن بن يعمر عند أهل العلم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغيرهم 237/3-238، وأبو داود في العمامة بأقول منه برقم 1949 باب: من لم يترك عرفة 196/2، والحاكم في كتاب التفسير وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه وسكت عنه الذهبي 278/2.

(⁵³) أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن شعوب — رضي الله تعالى عنه — 376/1، وفي نسخة المحققة برقم 3568 وقال الأستاذ أحمد شاكر — رحمه الله تعالى —: إنشده صحيح 194/5، وأخرجه الحاكم وصححه في كتاب التوبة والإتابة — مختصراً ومطولاً — وواقعه الذهبي 243/4.

(⁵⁴) انظر جامع البيان 37/14، أقول: العجيب من الإمام الطبري — رحمه الله تعالى — أنه أورد الخبر المذكور من عدة طرق كلها ضعيفة، ثم قال بعد كلامه المتقدم: أخذنا من وهاء سنة الخبر بذلك عن رسول

ابن صلى الله عليه وسلم⁽⁶¹⁾. — وأنت تعلم أن الحديث صحيح، أخرجه مسلم وغيره بإسناد صحيح — كما تقدم في تخريجه —.

(⁶²) سورة المدثر، آية: 56 وتامها: (وأهل المعرفة).

(⁶³) انظر القاموس 582/4.

(⁶⁴) انظر النهاية 217/5 مادة وقا قال: وقد تكرر ذكر الاتقاء في الحديث، ومنه حديث علي — رضي الله تعالى عنه —: كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم: أي جعلناه وقاية لنا من العدو.

(⁶⁵) انظر التعريفات ص 90.

(⁶⁶) انظر المفردات ص 881.

(⁶⁷) انظر في هذا: التعريفات ص 90، والمفردات 881.

(⁶⁸) انظر نظم الدرر 133/20.

(⁶⁹) انظر ما كتبه عن النجوى في: دعائم السلوك الأتمم — دعامة: اكتساب النجوى.

(⁷⁰) أخرجه الترمذي من حديث عطية السعدي — رضي الله تعالى عنه — برقم 2451 وقال: هذا حديث

حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه 634/4، وابن ماجه برقم 4215 في كتاب الزهد — باب الورع والنجوى 1409/2، والحاكم في كتاب الزرقاق وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي 4

319/، والبيهقي في شعب الإيمان برقم 5745 — للفصل الثالث في طبب المطعم والمليس 52/5.

(⁷¹) انظر جامع البيان 127/28 — طبعة دار الفكر —، والكشاف 116/4، ومحسن التأويل 15/7، والتفسير العنبر 255/28.

(⁷²) انظر تفسير ابن كثير 589/4.

(⁷³) سورة الأعراف، آية: 201.

(⁷⁴) انظر التحرير والتنوير 287/28-288.

(⁷⁵) سورة النحل، آية: 125.

(⁷⁶) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن لغيره برقم 110/198، وابن جرير برقم 13120 و12124 (11/

129)، وهو في تفسير مجاهد ص 213، وابن كثير 203/2، أخرجه ابن أبي حاتم بمعناه وبأطول عنه عن

الربيع بن أنس بسند حسن برقم 100 (113/1).

(⁷⁷) انظر فقرة الاهتمام بالنفس البشرية في بحثنا: النصر في القرآن ص 29-32.

(⁷⁸) سورة الحج، آية: 41.

(⁷⁹) فقد أخرج البخاري برقم 4286 عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم

دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المعقر، فلما بزعه جاء رجل فقال: ابن خطئ متعلق بأستار الكعبة، فقال:

قلته، قال مالك: ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فيما نرى — والله أعلم — يومئذ محرماً. كتاب المغازي

باب: أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الرية يوم الفتح 573/9، وأخرجه في كتاب جزاء الصيد باب:

دخول الحرم ومكة بغير إحرام رقم 1846 وذكر الحافظ ابن حجر سبب قتله، ونقل عن ابن عبد البر: أنه

قتله قوداً من دم المسلم الذي غدر به وقتله ثم ارتد وذكر أسماء الذين لم يؤمنهم النبي صلى الله عليه وسلم

لا في حل ولا في حرم، والتقر الذين أهدر دماءهم النبي صلى الله عليه وسلم قبل الفتح، وذكر من أسلم منهم

كعكرمة بن أبي جهيل وغيره. انظر فتح الباري 479/5-500.

(⁷³) انظر السيرة النبوية لشيوخنا الأستاذ الدكتور أبي شهبة — رحمه الله تعالى — 451/2 وقُل: ومن هؤلاء من قُتل، ومنهم من جاء مسلماً تائباً فعملاً عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وحسن إسلامه، وانظر لسيرة النبوية للدكتور علي محمد محمد الصلالي 1183/2.

(⁷⁴) سورة البقرة، آية: 156 وهي يتعامها مع التي بعدها: {الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المعدون}.

(⁷⁵) سورة التوبة، آية: 51.

(⁷⁶) سورة آل عمران، آية: 173 وتام الآية: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل}.

(⁷⁷) أخرجه مسلم برقم 2999 من حديث صهيب بن سنان — رضي الله تعالى عنه —.

(⁷⁸) أخرجه مسلم برقم 2479 في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: من فضائل عبد الله بن عمر — رضي الله تعالى عنهما — 1928-1927/4 وذلك في تفسير رويأ راها، قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.

(⁷⁹) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم 5063 في كتاب النكاح — باب: التزويج في النكاح 340/11، ومسلم برقم 1401 في الكتاب والباب السابقين، وفيه: قل بعضهم: لا أكل اللحم 1020/2.

(⁸⁰) أخرجه مسلم برقم 1102 بالفاظ مختلفة في كتاب الصوم باب: انتهى عن الوصال في الصوم 774/2-775.

(⁸¹) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم 7204 في كتاب الأحكام باب: كيف يبيع الأمام 586/16، ومسلم برقم 56 في كتاب الإيمان باب: يبين أن الدين النصيحة.

(⁸²) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم 7202 في الكتاب والباب السابقين، ومسلم برقم 1867 في كتاب الإمارة باب: البيعة على السمع والطاعة فيما استطاع.

(⁸³) الاضطباع: مأخوذ من الضبع وهو العضد، وهو أن يأخذ الإزار أو الرداء فيجعل وسطه تحت يبطه الأيمن، ويلقى طرفه على كتفه الأيسر من جهتي صدره وظهوره، وسُمِّي بذلك لإدناء الضيعين، ويقال للباط الضيع للمجاورة، انظر النهاية 73/3، لسان العرب 216/8 مادة: ضبع.

والمراد بالهرولة: الرمل — بالتحريك —، وهو الإسراع في المشي مع هز المنكين، وهو مستون في بعض الأطواق دون بعض. انظر النهاية 265/2، لسان العرب 295/11 مادة: رمل.

(⁸⁴) متفق عليه بمعناه، أخرجه البخاري برقم 4256، ومسلم برقم 1266، وأحمد 229/1 بنحوه، وذكره ابن هشام بلفظه في سيرته 371/2 في عمرة القضاء، وابن كثير في البداية والنهاية 375/6، وانظر السيرة النبوية للدكتور أبي شهبة ص 377، قال: وهي مشية تتعد عن القوة والفتوة، وهذا أصل السنة، ثم ألقاها الشارع لما فيها من التذكير بنعمة الله على المسلمين، حيث أعزهم بعد ذلهم، وفوقهم بعد ضعفهم، ونصرهم

ومكن لهم في الأرض بعد ضيعة إلهام 2.

(⁸⁵) انظر فتح الباري 127/17.

(⁸⁶) أخرجه أبو داود برقم 4291 من حديث أبي هريرة — رضي الله تعالى عنه — في كتاب: الملاحم باب: ما ينكر في قرن المائة 35/5، والطبراني في الأوسط برقم 6523 (272/7) بسند صحيح ورجله كلهم ثقان كما يقول ملا علي القاري في المرقاة شرح المشكاة 302/1، والخطيب البغدادي في ترجمة الإمام الشافعي — رضي الله تعالى عنه — 61-62/2، والحاك في كتاب الفتن والملاحم وسكت عنه وتبعه

الذهبي 522/4، ولكن قال المناوي في فيض البشير 281/2-282 رقم 1845، وملا على القاري في شرح المشكاة 302/1، والمجلوني في كشف الخفا 243/1: إن الحاكم صححه، ونقل المناوي — أيضا — عن الزين العراقي وغيره أنه قال: سنده صحيح بونكره، ولي الذين التبريزي في مشكاة المصابيح برقم 247 في كتب العلم 82/1 وقال: رواه أبو داود، وابن كثير في مواضع من كتابه البداية والنهاية فقد ذكره في الأختار عن أمور وقعت في دولة بني العباس 289/6، وفي ترجمة الإمام الشافعي 253/10، وفي ترجمة عمر بن عبد العزيز 232/6، والسيوطي في الدرر المنتثرة ص 27، وفي الدرر المنتثرة 321/1، والمتقي في كنز العمال برقم 34623 في المعجزة على رأس كل سنة 193/2، والآباني في سلسلته الصحيحة برقم 599 وقال: السند صحيح ورجاله ثقات رجال مسلم 151/2.

(⁸¹) نظر فتح الباري 127/17.

(⁸²) نظر مجلس التأويل 58-57/4.

(⁸³) عن قصيدته الطويلة في سيرة عمر بن الخطاب — رضي الله تعالى عنه — في ديوانه ص 91 فقرة (عمر والشورى)، ومطلع هذه الفقرة:

يا رافعاً رأية الشورى وحارسها * * * جزاك ربك خيراً عن محبتها
لم يهلك النزاع عن تأييد نولتها * * * وللمنية الام تعاتبها
وقيل هنا البيت:

وما لبثت برأي في حكومتها * * * إن الحكومة تغري مستبديها

(⁸⁴) سورة المائدة، آية: 3.

(⁸⁵) سورة محمد صلى الله عليه وسلم، آية: 7.

(⁸⁶) إننا قلنا بجانب من التقوى، لأن التفريط في أداء الفؤة مع الاستطاعة ليس من التقوى في شيء.

(⁸⁷) صمد صمدا وصموداً: ثبت واستمر. ومنه قول علي — رضي الله تعالى عنه: (صمدا صمدا حتى يتجلى لكم صود الحق)؛ أي ثباتاً ثباتاً، المعجم الوسيط 522/1 مادة: صمد.

(⁸⁸) مر الشيء مراراً: صار مراراً، فهو مرير، وهي مريرة، والجمع مرائر. المرجع السابق 862/2 مادة: مر.

(⁸⁹) وقع ذلك الحدث المفجع في 2003/4/9م.

(⁹⁰) انظر الحرب الأمريكية على العراق ص 30 أو 134.

(⁹¹) الحقيقة أن كثيراً من مسلمي اليوم — إن لم نغل جميعهم — عدا على علم بداء الأمة ودولها، ولكن المشكلة في القدرة على استعمال الدواء وكيفية استعماله!! فهي آتية بمرضى علم داءه ووقف على دوله، ولكنه لا يتري لماذا لا يستعمله؟ فهو في حيرة من أمره، يحتاج إلى من يعينه!!! والله تعالى وحده هو المستعان.

(⁹²) سورة التوبة، آية: 32 وهي بتساها: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأقواهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون). وفي سورة الصنف، آية 8: (يريدون ليطفئوا نور الله بأقواهم والله ممت نوره ولو كره الكافرون).

الثابت والمتغير في علاقة الغرب بالإسلام والمسلمين

الدكتور مسعود فلوسي

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية. جامعة باتنة

تمهيد:

علاقة الغرب بالإسلام والمسلمين ليست وليدة اللحظة الحاضرة ولا الأمن القريب، إنها علاقة تنبسط على مدى التاريخ عبر ألف وأربعمائة عام، وترجع بداياتها الأولى إلى تلك اللحظات التاريخية التي تم فيها التماس بين المسلمين والغرب في العصر الأول للإسلام، ثم لم تقطع بعد ذلك مطلقاً.

ورغم أن هذه العلاقة شهدت نوعاً من الحوار الثقافي والتعايش السلمي من خلال حركة ترجمة التراث الثقافي اليوناني إلى اللغة العربية، ولا سيما في عهد الدولة العباسية، ثم من خلال حركة ترجمة هذا التراث من جديد إلى اللغة اللاتينية ممزوجاً بالإضافات والإبداعات العربية الإسلامية، بالرغم من ذلك فإن الطابع الذي غلب على هذه العلاقة على مدى كل تلك المسيرة التاريخية، هو طابع الصراع لا طابع التعايش، حيث ظلت هذه العلاقة مشحونة بعوامل التوتر والاضطراب والقلق، كما حفلت بصور شتى من التوحش والحذر والتأهب، لقد ظلت علاقة "مصبوغة بالدم، ملفوفة بالضغائن"¹..

هذه العلاقة القائمة على الصراع، ظهرت إلى الوجود منذ حركة الفتوحات الإسلامية التي أدت إلى دخول الإسلام والمسلمين أراضٍ ومناطق هي بالأساس تحت النفوذ الغربي أو هي أراضٍ غربية أصلاً. فقد انتشر الإسلام أولاً في الشام وآسيا الصغرى ومصر والشمال الإفريقي، وكل هذه المناطق كانت واقعة تحت النفوذ الروماني، ثم عبر المسلمون المضيق الغربي الفاصل بين إفريقيا وأوروبا إلى شبه جزيرة إيبيريا، ثم واصلوا مسيرتهم المظفرة متجهين نحو فرنسا، ولكن هزيمتهم في بواتييه وتور أوقفت تلك المسيرة.

وفي الموجة الثانية للعدا الإسلامية نحو أوروبا، فتح المسلمون شبه جزيرة البلقان، ثم استولوا على القسطنطينية، واتخذوا من عاصمتهم الجديدة (إسطنبول) مجلة الإحياء، العدد الثامن، 1425هـ، 2004م

منطلقا لفتح المجر ووصلت جيوشهم إلى أسوار (فيينا) مرتين، وظلت جيوشهم تشكل خطرا هائلا على أوروبا.

ولم يقف الغرب مكتوف اليدين أمام التهديد الإسلامي، بل قابله بفعل مضاد، تمثل أولا في الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا على العالم الإسلامي، على مدى قرنين من الزمان (1095 - 1291م)، وشاركت فيها جيوش جرارة تبلغ مئات الألوف من المحاربين، وكان هؤلاء ينتمون إلى دول أوروبا الكبرى. كذلك لم تستكن أوروبا إزاء انتشار الإسلام على أرضها، فعملت على إخراجها من الأندلس، في حرب طويلة مريرة استمرت ثمانية قرون وانتهت بسقوط غرناطة.

كما عملت أوروبا على هزيمة الدولة العثمانية وتحطيم قوتها والقضاء عليها، ثم استعمار كثير من بلاد العالم العربي التي كانت تحت سلطتها²... وبعد الاستعمار جاءت الهيمنة السياسية والاقتصادية التي جعلت دول العالم الإسلامي، والعربي منه خاصة، تبقى خاضعة للنفوذ الغربي في السياسة والاقتصاد.

وهكذا، فرغم نوبات الضعف التي انتابت العالم الإسلامي، إلا أن الإسلام ظل يمثل هاجسا دائما أمام الغرب، كما ظل الغرب ينظر إليه بوصفه خطرا واقعا أو محتملا، وهذا ما يفسر هذه الحملات المسعورة والتحرشات المكثوفة التي ظنت تثنى على دول بعينها في الشرق العربي.

وهذه الحملة التي تثنى اليوم على العالم الإسلامي من خلال العراق لا تخرج في روحها ومظهرها عن هذا السياق، فهي امتداد للحملات الغربية السابقة على الإسلام والمسلمين، رغم تغير الشعارات وتنوع الأهداف.

ثوابت العلاقة:

إن الناظر المتمعن في هذه المسيرة التاريخية، والمتتبع لجذريات الصراع وتفصيله، لا يعدم أن يلاحظ جملة من الثوابت التي حكمت نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين، وعملت على تصاعد حدة العداء للإسلام وتحول هذا العداء إلى رغبة ملحة في القضاء على العالم الإسلامي وإتهاء وجوده، ويمكن تحديد هذه الثوابت فيما يلي:

أ - الحقد الديني:

لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل العامل الديني في تعامل الغرب مع الإسلام والمسلمين، فالأمر بالنسبة للغربيين لم يكن مجرد عمل على بقاء المسيحية وحمايتها من الاندثار أمام الإسلام، وإنما القضاء على الإسلام نفسه وبسط نفوذ المسيحية المحرفة في محله.

فلا أحد يمكنه أن ينكر ما كان لتثويهِ صورة الإسلام في عقول المسيحيين في أوروبا من أثر في بشاعة الحملات الصليبية التي شُنت على العالم الإسلامي، وما خلفته من دمار ومن مجازر بشرية بنى لها جبين الإنسانية³.

كذلك لا أحد يمكنه أن ينكر أن الرغبة الجامحة في إخراج الإسلام والمسلمين من الأندلس كان الدافع إليه نينيا بحثاً، حيث خيّر المسلمون بعد سقوط غرناطة بين التحول عن دينهم إلى النصرانية أو الهجرة إلى خارج الأندلس أو القتل⁴. وقد منّحت محاكم التفتيش نوعاً من الجهاد المسيحي ضد المسلمين، وتمت إيادة شعب مسلم لا يقل تعداده عن أربعة ملايين على أيدي مواطنيهم المسيحيين الذين سبق لهم أن نعموا بالحياة الأمنة قروناً في ظل الحكم والحضارة الإسلامية⁵.

كما يُذكر في هذا السياق؛ أن النساء في الغرب، أيام الصراع مع الدولة العثمانية، كن يخفن لولادهن بـ"التركي"، والتركي في أوروبا - حينئذ - رمز الإسلام⁶.

إن العقلية الغربية تختزن كما هائلاً من الحقد والكراهية تجاه كل ما يمت إلى الإسلام والمسلمين، بفعل الثقافة التي تركزت في المدارس الغربية والإعلام الغربي، تلك الثقافة القائمة على اعتبار الإسلام هو العدو الأول للغرب.

يقول مراد هوفمان: "إن أوروبا وأمريكا تتسامحان مع أي دين، إلا إذا كان هذا الدين هو الإسلام. نعم، إذا سيرت غور النفس الأوروبية ولو بخش سطحي

صغير لوجدت تحت الطبقة اللامعة الرقيقة عداً للإسلام، تلك العقدة الدفينة التي يمكن استدعاؤها في أي وقت⁷.

ولاشك أن مظاهر الصحوة الإسلامية، والعودة الواسعة إلى الالتزام بالإسلام في العالم الإسلامي، والتكاتف والأخوة والتفاعل الحاصل بين المسلمين بسبب ما يتعرضون له من ظلم دولي، واستهداف عربي، وكذا الشعور الغربي بأن الإسلام، يحاصر القيم الغربية في داخل أوروبا وأمريكا، كل ذلك يذكي نار الحقد الديني ويستثير كوامن التحفز والهجوم في نفوس القيادات الغربية لشن الحملات المتوالية على الإسلام والمسلمين بغية حرق المد الإسلامي وتعويق النهضة الإسلامية.

ويمكن ضرب الأمثلة من واقعنا المعاصر على الحقد الديني الغربي تجاه الإسلام والمسلمين، ففي سنة 1992 احتفالت أوروبا بذكرى مرور خمسمائة عام على اقتلاع الإسلام من الأندلس بسقوط غرناطة في يناير سنة 1492، وأقامت الدورة الأولمبية في ذات البلدة التي شهدت هذا الاقتلاع وهي برشلونة، وقد عُرضت في هذه المناسبة المسرحيات والأفلام والأناشيد التي تذكر بهذا الحدث.

ثم يشن الغرب في نفس عام هذه الذكرى 1992 حرب الإبادة لمسلمي البوسنة والهرسك أمام مرأى كل العالم ومسمعه، كي لا تقوم "دولة" إسلامية في أوروبا، رغم السماح لكل الأعراق والديانات في يوغسلافيا السابقة بحق تقرير المصير والاستقلال.. ثم يظل هذا الموقف الغربي ثابتاً من ثوابت الاستراتيجيات الغربية إزاء مسلمي البلقان، من الألبان، إلى كوسوفا، إلى غيرهما، دون كل الديانات والقوميات.

وغير خاف أيضاً أن الغرب قد هباً عن بكرة أبيه لتمكين أقل من مليون كاثوليكي في تيمور الشرقية من الانفصال عن الدولة الإندونيسية المسلمة، بدعوى حق هؤلاء الكاثوليك في تقرير المصير. وغير خافية كذلك محاولات الغرب لتمكين الوثنيين في جنوب السودان من الانفصال عن الدولة الإسلامية الأم، في حين يحرم المسلمون في فلسطين وكشمير والشيشان من حقهم في تقرير المصير لأنهم مسلمون فقط..

ليس الشعور بالخطر الإسلامي هو الذي يقف وراء إصدار الولايات المتحدة الأمريكية لأوامرها لعدد من الحكومات العربية والإسلامية بتغيير مناهج

التعليم الديني، لتقف فقط عند الشعائر والمناسك والعبادات والشكليات، مع إلغاء كل ما يتعلق بالسياسة والاجتماع والاقتصاد والدولة والثروات والعزة والجهاد وتاريخ الغزوات والفتوحات والتحرر الوطني، مع اختصار حصص هذا التعليم الديني في بعض البلاد من أربع وعشرين ساعة أسبوعياً إلى أربع ساعات فقط.⁸

ليس الحقّ الديني تجاه الإسلام والمسلمين، هو ما يقف وراء جعل الأديباء الفاسلين الذين يحترفون الهجوم على الإسلام أنطلاً في المجتمعات الغربية، حيث يُستَهْزَهُمُ الإعلام باعتبارهم مفكرين أحراراً من طراز عالٍ، ويستقبلهم رؤساء الدول وتحميمهم أجهزة الأمن وتتهال عليهم الجوائز العالمية الكبرى دون أدنى استحقاق⁹.

لا شك أن كل تلك الأدلة واضحة وصريحة تكشف عمق البعد الديني في علاقة الغرب بالإسلام والمسلمين، ذلك البعد الذي يضرب بجنوره في أعماق التاريخ.

ب - الطمع الاقتصادي:

لا يمكن كذلك تجاهل العامل الاقتصادي في علاقة الغرب بالإسلام والمسلمين، فالمسلمون يعيشون على أرض هي من أغنى مناطق العالم بالثروات الطبيعية، تلك الثروات التي يفتقدها الغربيون في بلادهم وهم بأمر الحاجة إليها في كل وقت.

فليس سراً الصراع بين الغربيين أنفسهم حول ثروات العالم الإسلامي وخيراته، بل هو المحرك لكثير من مشكلات الغربيين أحياناً فيما بينهم، كما حدث قبل حرب العراق الأخيرة بين الولايات المتحدة وحلفائها في أوروبا.

والواقع أن هذا العامل ليس متعلقاً فقط بعلاقة الغرب بالإسلام والمسلمين وإنما هو خاص بعلاقة الغرب بكل من لا ينتمي إليه، فنذ خرجت القوى الغربية تجتاح البحار والقارات، كانت تبحث عن الثروة والقوة، وتقتل كل من يعترض طريقها. لكن هذا العامل ظاهر أكثر فأكثر في علاقته بالعالم الإسلامي وفي مجاله العربي خصوصاً.

وقد شكّل ظهور البترول ومختلف مصادر الطاقة، وتعمير مختلف مناطق العالم العربي الإسلامي باستحواذها على أكبر الاحتياطات العالمية من هذه

المصادر، أحد العوامل الذي فتحت شهية الغرب وحفزت قادته للتفكير في الاستيلاء على هذه الخيرات والحصول عليها من أيسر الطرق وبأقل الأثمان.

ولم تتغير مواقف الغربيين في هذا المجال، فهم كلهم يكرهون الخير للعرب، ويرون أنهم أحقّ به منهم، بل لقد تحدث بعضهم عما أسماه "خطأ الرب"، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، في أنه جعل البترول في غير المكان المناسب، ولذلك فهم سيسيطرون على مواطن النفط بأي طريقة⁴.

وليس إقدام الولايات المتحدة اليوم على احتياح العراق سوى ذريعة للاستيلاء على أبار النفط الغنية التي حبا الله عز وجل بها هذا البلد العربي الإسلامي، فإن بقاء هذه الأبار في أيدي أهلها يجعل الولايات المتحدة في خطر ويعرض مستقبل شعبها للارتهاق. وقد سمعت وزير الدفاع الأمريكي الحالي دونالد رامسفيلد عندما سئل عن المبرر الذي حفز الولايات المتحدة لغزو العراق، يقول: إن المبرر هو مستقبل الشعب الأمريكي. ويعني بذلك مستقبله في الاستفادة من مصادر الطاقة وأمانه من نضوبها أو منعه من الوصول إليها أو الحصول عليها.

ج - الفعل اليهودي:

لا يُنكر كذلك، الدور اليهودي في تأجيج نار الصراع بين الغرب والإسلام وإطالة أمد هذا الصراع أطول فترة ممكنة، وكلما بدا نوع من محاولة التقيم والتقارب بين الغرب والعالم الإسلامي كلما سارع اليهود إلى صب الزيت على النار وتأجيجها من جديد.. فالمستفيد الأول والأكثر من استمرار الصراع بين الغرب والإسلام هم اليهود، الذين يهمهم أن يعمل الغرب على كسر شوكة المسلمين حتى يظلوا هم على قوتهم ونفوذهم وبقاء كياناتهم.

وباستقراء التاريخ، يتبين أنه ما من صراع نشأ بين الغرب والإسلام إلا ويقف لليهود وراءه. والواقع خير شاهد اليوم، فإن اليهود المسيطرين على منابر السياسة والاقتصاد والإعلام في الغرب يبذلون أقصى جهودهم لتثويه صورة الإسلام في الغرب وإظهار المسلمين في صورة الوحوش الضارية التي بدأ وصلت إلى الغرب لم يُبق ولم تترك.

ويكفي أن نضرب مثلاً بخطب نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل الأسبق في الكونغرس الأمريكي وغيره، وفي نيويورك، وفي الجامعات والمدارس والمؤسسات الاستراتيجية، تلك الخطب التي نشرت الرعب والهلع في نفوس

الأمريكيين من الإسلام والمسلمين، فقد كان يتوعددهم بالمتفجرات في الشوارع والبيوت والجامعات والمدن والأسواق والمطاعم إذا هم أقبلوا على الإسلام أو تسامحوا مع المسلمين.

وفي أمريكا عشرات المراكز اليهودية التي تتن حملات دعائية إعلامية ترهب الأمريكيين من الإسلام وتتوعددهم بالموت على أيدي المسلمين الذين يوشكون أن يحاصروا أمريكا¹⁰.

وكل ذلك يصب بالتأكيد في إطار خدمة مخططات إسرائيل الكبرى، ويعمل على حمايتها من جيرانها العرب والمسلمين الذين تشعر بتهددهم لها على الدوام.

ولم يزل التهديد بخطر الإرهاب خير وسيلة لإسرائيل والإسرائيليين في تسخير الدولة الأمريكية لهم، ودفعها للقيام بالحملات ضد المسلمين نيابة عنهم¹¹. وليس خافيا على أحد أن اليهود يشكلون اليوم الغالبية من مستشاري السياسة الغربية والأمريكية خصوصا، بل حتى من بين المسؤولين المشرفين على تسيير كثير من المؤسسات المالية والإعلامية المؤثرة في الغرب.

المتغير في العلاقة:

لعل المتغير الوحيد في علاقة الغرب بالإسلام عبر التاريخ الطويل لهذه العلاقة هو تنوع الوسائل والأساليب المستخدمة من قبل الغرب في التعامل مع الإسلام والمسلمين، ويمكن تحنيد هذه الوسائل على كثرتها في ثلاثة أنواع: الاحتلال العسكري، والغزو الثقافي، والإفقار الاقتصادي، وقد تم استخدامها أحيانا متوازية ودفعة واحدة، كما تم استخدامها على سبيل التداول مرات أخرى، على حسب مقتضيات الظروف.

1 - الاحتلال العسكري:

بدأ مشروع الاحتلال العسكري لبلاد العالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية، التي كانت تهدف إلى دحر الوجود الإسلامي في المناطق التي كانت خاضعة للحكم الروماني والبيزنطي، وإعادة إلحاقها بالعالم المسيحي.

ولما لم تتجح تلك الحملات التي دامت قرونا عديدة، فقد أعاد الاستعمار الغربي الكرة بعد اندحار الدولة العثمانية، وقام باحتلال أغلب مناطق العالم الإسلامي واقتسامها بين دول أوروبا الكبرى حينئذ.

وقد عرفت بلاد الإسلام خلال فترات الاحتلال العسكري الغربي لنها، مراحل طويلة من القمع والاضطهاد والهمجية والظلمية القائمة على التحجيل والتضليل ومنع المسلمين من تعلم دينهم ولغتهم، والحيلولة بينهم وبين أسباب اليقظة والوعي.

كما أبادت الجيوش الغربية ملايين المسلمين الذين أظهروا المقاومة ورغبوا في التحرر من السيطرة الأوروبية على بلادهم وتحكمها قيم مصائيرهم وأقواتهم.

2 - الغزو الثقافي:

تزامن التفكير في الغزو الثقافي الغربي للعالم الإسلامي، مع فترة الاستعمار العسكري، حيث شهدت هذه الفترة نشأة مراكز أبحاث الاستشراق، وعملها على سبر أغوار العالم الإسلامي ودراسة شخصية المسلمين وتراثهم الثقافي والعمل على تشويبه من خلال إبراز التيارات المنحرفة في الفكر الإسلامي وإظهارها باعتبارها حركات فكرية تحررية تعرضت للقمع والاضطهاد. وأن ذلك دليل على أن الإسلام دين الظلمية والانغلاق والقمع الفكري.

وبعد استقلال الدول الإسلامية وتحررها من الاحتلال العسكري الغربي، تم الشروع في مرحلة جديدة، هي مرحلة الغزو الثقافي لعقول المسلمين.

وقد كان الهدف الأول للغزو الثقافي؛ إسقاط العلوم الشرعية الإسلامية من مكانتها في الهمزة على حياة المسلمين، ثم إصابتها في مقاتلتها.

كما عمل هذا النوع من الغزو على خلق جيل من أبناء المسلمين زاهد في الانتماء إلى دينه، غير متحمس له ولا حريص عليه، ينظر بعين التقديس إلى الأديان الأخرى ولا يشعر بالاحترام لدينه، ويفضل التحدث باللسنة الغريبة ولغاته ويستهيئ بلغته، ويكرم زعماء العالم قديما وحديثا ولا يكثر لرجال الإسلام ودعائه.

وقد أفلح الغزو الثقافي في إنتاج أعداد من المسلمين المرتكبين عن دينهم، الذين لا يتورعون عن المنادة في بلاد الإسلام بترك الصلاة أو الصيام، أو الجهر بتخلف ووحشية شرائع الحدود والقصاص¹² وليست بخافية كذلك جهود التصير التي تكتسح دول العالم الإسلامي وشعوبه، والتي تلقى كل الدعم والتشجيع من قبل أعلى السلطات الدينية والسياسية والثقافية في الغرب. والهدف من التصير في الواقع ليس إدخال المسلمين في النصرانية بقدر ما هو إعادتهم عن دينهم وحملهم على زلزاله والتكر لتعاليمه. لكن النتيجة، والحمد لله، كانت في أغلب الحالات سلبية، حيث عجزت جهود التصير — رغم ضخامتها والإمكانات الهائلة التي سُخرت لإنجاحها — عن حمل المسلمين على الارتداد عن دينهم الحق، ولم تُفلح إلا في حالات قليلة كان ضحاياها في كثير من الأحيان من ضعاف الإيمان من المسلمين أو من الذين تربطهم بالإسلام خيوط واهية.

3 — الإفقر الاقتصادي:

بعد أن جرب الغرب مع العالم الإسلامي كلا من الاحتلال العسكري والغزو الثقافي، ولم ينجح في تحقيق أهدافه من خلالهما، هاهو يسلك مسلكاً جديداً هو الاستيلاء على الثروات الاقتصادية للعالم الإسلامي والاستئثار بها مباشرة والإشراف على استغلالها وبيعها بدلاً من أهلها الذين هم دون مستوى أهلية التصرف فيها.

والاتجاه السائد في الغرب اليوم، وفي أمريكا خصوصاً؛ أن من أخطر ما يمكن أن يستمر بقاءه أو يحدث في المستقبل هو أن يتحسن وضع المسلمين الاقتصادي، ولهذا فإن إفقر بلاد المسلمين مستقبلاً هدف استراتيجي تسلم بصحته عند كبير من الدوائر الغربية والأمريكية خصوصاً، لأن تحسن الاقتصاد يعني تحسن ظروف المجتمع وتعليمه، ويعني وجود مال للمؤسسات الخيرية، ويعني سهولة المعارضة، ويعني الإرهاب كما يزعم، ويعني أن يستطيع الفلسطينيون الإبقاء على مقاومة الاحتلال.. وكل هذه مصائب لدى المحركين اليهود. وينصح بعض الخبراء اليهود في أمريكا بأنه يجب الحفاظ على العالم الإسلامي فقيراً وذلك، لأن المسلمين إن تحرروا أو شُبعوا قاوموا الغرب. فغاية هؤلاء الحفاظ

على المسلمين فقراء مقهورين متخاصمين متقاتلين، لا يفقهون من الفقر والتخلف والخلاف والصراع¹³

وقد سبق لوزير الخارجية الأمريكي الأسبق ومهندس السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط هنري كيسنجر أن تحدث عن إمكانية تدخل الولايات المتحدة في حقول النفط حال استخدام العرب له كوسيلة للضغط أو التمرد¹⁴ ولا شك أنه في هذا السياق بالذات يندرج الغزو الأمريكي للعراق، حيث يتجلى بكل وضوح حرص الأمريكيين على النفط العراقي، فقد قاموا بمجرد دخول بغداد بإقامة حراسة مشددة حول وزارة النفط العراقية، كما قاموا بإحاطة آبار النفط في كركوك وصيانتها، في حين تركوا بقية المنشآت العراقية من وزارات وجامعات ومناحف عرضة للنهب والسلب والتدمير والإحراق، ولعلهم هم أنفسهم الذين أمروا بذلك.

وبالتأكيد لن يكون العراق هو البلد الأخير المرشح للاستيلاء على خيراته وثرواته والحجر على أهله وأبنائه، فإن القائمة لدى الأمريكيين ما تزال تتسع لأكثر من بلد، وما العراق إلا الحلقة الأولى في السلسلة المتصلة، إذ ليس واردا في المخيلة الأمريكية الجديدة أن تترك غنيمة النفط لعربي قومي أو وطني، أو إسلامي يتحكم بهذه الثروة، أو يفاوض في الأسعار..

خاتمة:

أخيرا لابد من التأكيد على أن الغرب بصورته الحديثة يرفض التعايش مع الآخر مهما كان، لكنه يرفض الآخر الإسلامي أو المسلم بصفة خاصة ولا يقبل الوقوف معه موقف الندية، فالعرب في نظر الغرب شخص مرفوض ومرمي في دائرة عقائده الغربية ودينه الخاص وجهاهه المقدس وقمعه للمرأة وجهله بحقوق الإنسان وقيم الديمقراطية ومعارضته الأزلية والجوهرية للعلمنة.. والمنقف الموصوف بالمسلم يُشار إليه دائما بضمير الغائب، فهو الأجنبي المفقوت الذي لا يمكن تمثله أو هضمه في المجتمعات الغربية لأنه يستعصي على كل تحديث أو حداثه.. والإسلام ليس معتبرا كغيره شرعية أو كقابل في الطرف الآخر يقف على قدم المساواة أو كطرف جدير بالحوار أو كشريك للأديان الأخرى، وإنما هو دائما الشيء الغائب المشار إليه بضمير الغائب أيضا، أي هو موضوع الكلام وليس

ذاتاً منكلمة وأتى له ذلك¹⁵.. وليس هذا بالأمر الغريب في الواقع، فإن الحضارة الغربية قائمة أساساً على نزعة الاستعلاء على الآخر، واعتبار نفسها هي المعيار الذي يجب على العالم أن يقيم نفسه على أساسه ويعيد تشكيل نفسه ليتوافق معه. إنه لجميل حقاً أن نتحدث عن التعايش وعن حوار الحضارات، وإنه لرائع حقاً أن نحلم بسلام دائم وتعايش مستمر بين جميع شعوب الأرض، ولكن ما أبعد الواقع عن المثال، وما أسرع ما تتهاوى الأحلام الإسلامية أمام الأحقاد والأطماع الغربية، وتلك هي مشكلتنا الأولى نحن المسلمين مع الغربيين، نريد أن نتعايش معهم على قدم المساواة وفي إطار العدالة وتبادل المصالح، ولكنهم يلبون إلا أن نذلّ لهم ونخضع، ونتكر لعقيدتنا وحضارتنا، ونبدل خيرات بلادنا وثرواتها لهم دون أن يكون لنا فيها أيُّ حق من أي نوع، وهذا ما لن نتشرح به صنورتنا في يوم من الأيام.

الهوامش:

- ¹ — موم داعية، للشيخ محمد الغزالي رحمه الله، دار القلم - دمشق، ص: 59.
- ² — لمزيد من التفاصيل، راجع بحث: الإسلام والغرب في ظل العولمة، للدكتور عبد الحميد منكور، في كتاب: الإسلام في عصر العولمة، ص — ص: 412 — 417. وهو كتاب يجمع أبحاث المؤتمر الدولي الرابع للفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ماني 1999.
- ³ — محمّد أمد: الإسلام في مفترق الطرق، ص: 57، 58.
- ⁴ — الإسلام والغرب، ليرتازد لويس، ص: 15. قصة الحضارة، لول ديورانت، مج: 4، ج: 3، ص: 219 وما بعدها.
- ⁵ — العولمة والحوار الحضاري، بحث للدكتور عبد الفتاح أحمد القاوي، في كتاب: الإسلام وحوار الحضارات، وهو كتاب يجمع أبحاث المؤتمر الدولي الخامس للفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ماني 2000، ص: 67.
- ⁶ — موم داعية، لمحمد الغزالي، ص: 59.
- ⁷ — الإسلام عام 2000، ص: 37. وانظر أيضاً ص: 33 وما بعدها.
- ⁸ — لمزيد من التفاصيل، راجع: الحلقة الجديدة على العالم الإسلامي، مقال بقلم الدكتور محمد عسارة، في مجلة المنار الجديد، القاهرة، السنة السادسة، العدد 21، شتاء 2003، ص: 84.
- ⁹ — انظر لمزيد من التفاصيل: العراق وما بعده وما قبله، مقال بقلم: الدكتور محمد بن حامد الأحصري، في مجلة المنار الجديد، مرجع سابق، ص: 4 وما بعدها.
- ¹⁰ — انظر تفاصيل أكثر، المرجع السابق، ص: 14.

- 11 — المرجع السابق نفسه، ص: 15.
- 12 — راجع التفاصيل في كتاب الشيخ محمد الغزالي: الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، دار الشروق - القاهرة.
- 13 — العراق وما بعده وما قبله، مقال محنت حامد الأحمرى، مجلة المنار الجديد، مرجع سابق، ص: 18.
- 14 — العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط. مقاهيم عصر قائم، لبيار الصنيل، ط: 1، بيروت، 1997، ص: 41.
- 15 — من بحث الدكتور عبد الفتاح الغاوي في كتاب الإسلام وحوار الحضارات، مرجع سابق، ص: 80 - 81.

هذا البحث هو جزء من رسالة دكتوراه مقدمة في جامعة القاهرة، كلية الدراسات والبحوث الإسلامية، قسم الدراسات والبحوث الإسلامية، تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب، رئيس القسم، وأستاذ الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة.

أشكر الله تعالى على ما هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وأشكر الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب، رئيس القسم، وأستاذ الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة، على توجيهه وتشجيعه ودعمه المستمر.

أشكر أيضاً الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب، رئيس القسم، وأستاذ الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة، على إتاحة الفرصة لي لأداء هذا البحث في إطار الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة.

أشكر أيضاً الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب، رئيس القسم، وأستاذ الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة، على إتاحة الفرصة لي لأداء هذا البحث في إطار الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة.

أشكر أيضاً الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب، رئيس القسم، وأستاذ الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة، على إتاحة الفرصة لي لأداء هذا البحث في إطار الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة.

أشكر أيضاً الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب، رئيس القسم، وأستاذ الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة، على إتاحة الفرصة لي لأداء هذا البحث في إطار الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة.

أشكر أيضاً الأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب، رئيس القسم، وأستاذ الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة، على إتاحة الفرصة لي لأداء هذا البحث في إطار الدراسات والبحوث الإسلامية، جامعة القاهرة.

متغيرات وتحديات أمام الواقع الثقافي للمسلمين في الغرب

الدكتور حسن عزوزي
جامعة فاس. المغرب

لا خلاف في أن المتغيرات الدولية والتطورات العالمية سنة كونية تخضع للرجبات والحاجات الإنسانية وتعتمد الطاقات والإمكانات وتتفاعل مع الأوضاع والأحوال، وقد عرف العالم المعاصر تحولات كبيرة في مختلف المجالات والقطاعات التي تحرك عجلة العلم والتكنولوجيا في العالم، والعالم الإسلامي يتعامل مع هذه المتغيرات والتحويلات بحسب ما ينسجم مع مبادئه وأهدافه وثقافته.

ومن الواضح أن العالم الإسلامي يواجه خلال القرن الخامس عشر الهجري متغيرات عالمية كبرى تؤثر كثير منها في التوجهات السياسية والثقافية والاجتماعية للبلدان الإسلامية وتمس مبدأ الحفاظ على مستوى الهوية الثقافية وحماية الشخصية الإسلامية.

ويعتبر الحقل الثقافي أبرز الحقول المتأثرة بالمتغيرات والتحويلات الدولية الراهنة خاصة على مستوى اشتداد الصراع الثقافي وسيادة الثقافة العالمية في كل الميادين، فالتحدي الكبير الذي سيواجهه العالم في السنوات القادمة هو تحد ثقافي بالأساس (1).

وإذا أخذنا الواقع الثقافي الإسلامي في الغرب نجد أنه قد ناله قدر كبير من الأضرار التي تسببها المتغيرات الدولية الحالية وأصابته آثارها السلبية التي أفرزتها تداعيات بعض الأحداث السياسية والتورات العلمية والثقافية.

ومن خلال تشخيص بعض المتغيرات والتحويلات الدولية المؤثرة في العمل الثقافي الإسلامي في الغرب يبين أن كثيرا منها تشكل تحديات خطيرة نظرا لتأثيراتها وانعكاساتها السلبية، كما أنه بالرغم من أهمية المكونات البشرية والمؤسسية التي يتوفر عليها المشهد الثقافي الإسلامي في الغرب، فإن واقع الأمر

يؤكد لنا وجود العديد من التحديات والمعوقات التي من شأنها إضعاف أثر العمل الثقافي الإسلامي في نفوس أبناء الجاليات والأقليات الإسلامية.

ونقف في هذا المستوى عند جملة من المتغيرات والتحديات التي تؤثر في صورة الواقع الثقافي الإسلامي في الغرب.

أولاً: التحولات الضخمة على مستوى الإعلام وتحدياتها

مما لا شك فيه ان المتغيرات الدولية المرتبطة بالتحول الضخم والهائل على مستوى الإعلام وما تفرزه من تحديات كبيرة لها تأثيرها الحتمي على العمل الثقافي الإسلامي في بلاد المهجر خاصة أمام إحكام السيطرة الغربية على مختلف وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية، حيث يخاطب الغرب بأفكاره ومبادئه وقيمه شعوب العالم الثالث ومن ضمنها مجموع الجاليات الإسلامية في الغرب، مما أثر كثيراً عليها على حساب عقيدتها وثقافتها ودعوتها. ومن أبرز التحديات التي يفرزها هذا التحول الضخم والتطور الهائل في الإعلام الغربي ما يلي:

1-1: الإعلام الغربي الموجه الحاقق على الإسلام

قبل بروز الصحوة الإسلامية العارمة لم يكن الإعلام الغربي يتعرض للإسلام أو يهتم به، لكن بمجرد أن رأى الغرب في الإسلام ديناً يحمل في جوهرة قدرة خارقة على الامتداد جغرافياً واكتساح القلوب المقبلة على اعتناقه سعى إلى مجابته وتثويته صورته وتمييع حقائقه عبر مختلف وسائل الإعلام الغربية المكتوبة والمسموعة والمرئية، وقد باتت حملات التشويه والتميع الإعلامية التي توجه ضد الإسلام وأتباعه ذات أثر بالغ في تكوين صورة سلبية موعلة في الأزدراء والاستخفاف بالإسلام ومثله ومبادئه، وبالمسلمين وعاداتهم وقيمهم.

ولا يخفى ان الإعلام الغربي بما أضحى يمتلكه من قدرة هائلة على الانتشار وقوة الجذب والتأثير قد استطاع أن يجعل الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين ضمن اهتمامات الإنسان الغربي. وهكذا تكون إعلام موجه حاقق يؤثر على صورة الإسلام في الغرب ويعرقل مهمة القائمين والساخرين على الشأن الثقافي الإسلامي في بلاد المهجر.

2-1: الغزو الإعلامي

مع بدء الاستخدام المكثف للأعمال الصناعية في مجال الإعلام أصبح هناك مجال واسع لتأثير القنوات والبرامج التي تحمل الأفكار والعقائد الفاسدة ومشاهد

العنف والجنس والجريمة على أخلاقيات الجاليات الإسلامية وشخصياتهم من خلال انتشار المفاهيم الاجتماعية والسلوكية الغربية بفعل غريزة التقليد والمحاكاة(2).

ولا يخفى على المنتبهين والمهتمين بالواقع الثقافي الإسلامي في الغرب أن الجاليات الإسلامية يشكون ويتربسون من كون أبنائهم وبناتهم يعزفون عن مشاهدة القنوات الفضائية العربية نظرا لعدم استيعاب معظمهم للغة العربية ويتوجهون - بالمقابل - إلى استقبال القنوات الغربية بجميع أطرافها وأصنافها، وهي تلقي جميعها على طمس معالم هوية الناشئة المسلمة وذاتيتها من خلال ما يلي:

* فرض الثقافة الغربية بكل مكوناتها نتيجة التدفق الإعلامي الهائل والمتنوع.

* نشر ثقافة الإباحية والجنس تحت شعار الحرية.

* طرح الشبهات حول العقيدة عن طريق قنوات التصوير المتعددة التي تتنافس وتتبارى من أجل نسج طرق أجدى في الإقناع والإغراء والتمويه.

* إغراء الناشئة بالجوانب المبهرة من الحضارة الغربية وزخرفها وتزيينها ومحاولة ترسيخ الاعتقاد بأن اتباعها هو السبيل الوحيد للتقدم والتحضر(3)

1-3: تحطيم الروح المعنوية للناشئة المسلمة

يتجلى هذا الأمر فيما يعرف بالحرب الإعلامية النفسية حيث يهجم الإعلام الغربي إلى التأثير في آراء وعواطف ومواقف وسلوك أبناء الجاليات بطريقة تساعد على تحقيق أهداف التغريب من جهة والتهوين من شأن الثقافة الإسلامية الأصلية من جهة أخرى وذلك من خلال تحطيم الروح المعنوية للناشئة المسلمة. وهذه السياسة الإعلامية المتبعة تزلزل عقول الناشئة المسلمة وتبليبل أفكارها وتبالغ في تزيين الأقول وتشويه الحقائق، معتمدة على تقنيات المعلومات المتطورة وأساليب الإبداع الترويجية للتأثير في الشخصية الإسلامية وبلوغ أهداف منها:

* الدفع بالإحساس بالنقص والتساؤم.

* زرع الهزيمة النفسية قصد إعادة تشكيل العقل والفكر وتغريبهما.

* التشكيك في مدى صلاحية الثقافة الإسلامية في بلدان المهجر وزعزعة

الإيمان بالمبادئ والقيم والمثل الإسلامية الأصلية.

ثانيا: عولمة الثقافة

لاشك أن موضع العظمة والسمو في ديننا وثقافتنا يتمثل في هذا الجمع بين عدد من الثوابت والمسلمات التي تكون بنية أساسية لثقافتنا والقدرة غير المحدودة على التجاوب مع المتغيرات الجديدة وتوظيف الصالح منها من خلال جهود إنسانية مسؤولة يخدم القيم العليا والمصالح الكبرى للأفراد والأمة.

ولا يتصور أبدا أن نتخلى عن هذه المهمة الثقافية الإنسانية الكبرى اكتفاء بموقف نفاعي انكماشى يمليه الإحساس المبالغ فيه بالضعف والعجز عن التعامل مع كل جديد(4).

وإذا كانت العولمة أبرز المتغيرات الحديثة التي طلعت علينا بعنفوانها وقوتها على العالم متحدية خصوصيات الشعوب وثوابتها، فإنه لا يتصور أبدا التخلي عن هذه المهمة الثقافية الإنسانية وبهذا المنهج قد تتحول تحديات العولمة إلى استنهاض الإرادات نحو النضال من أجل استعادة حرية الإنسان في أن يتمهي مع هويته ويحقق فيها ذاته عن طريق التميز والاختلاف.

وإذا كانت تحديات العولمة قد ألقت بظلالها على العالم الإسلامي، فإن الأقليات والجاليات الإسلامية في الغرب تعاني من شدة وطأتها وحدة تأثيرها على أبنائها بحكم العيش في مجتمعات معولمة تجري فيها محاولة عولمة القيم والأخلاق والثقافة وأنماط العيش والسلوك، وفي ظل هذه العولمة الثقافية الشاملة يراد أيضا أن تتعولم هويات وخصوصيات الأقليات والجاليات الإسلامية.

إن انعكاسات العولمة الثقافية على الجاليات الإسلامية وتداعياتها المؤثرة على الواقع الثقافي الإسلامي في الغرب متعددة ومتنوعة، ويمكن مقارنة بعضها من خلال النقاط التالية:

1-2: تأثير العولمة على الواقع الثقافي الإسلامي في الغرب

إذا كانت مكونات الواقع الثقافي الإسلامي في الغرب تتحدد في جملة من المقومات والمرتكزات التي تسير على تفعيلها وتعزيزها فعاليات إسلامية ومؤسسات ثقافية فاعلة، فهل هناك تأثير بالغ لتيار العولمة الجارف على العمل الثقافي الهادف إلى الحفاظ على الهوية الإسلامية والخصوصيات الثقافية.

إن مما لا شك فيه أن التأثير حاصل بقوة وحدة أكثر مما هو عليه الحال في العالم الإسلامي، غير أنه لا ينبغي اعتبار الأمر حتميا لا فكاك منه، لأن في

ذلك انهزاما داخليا لا يقره الإسلام بما يتضمنه من مبادئ وقيم ثابتة وراسخة. إن حقائق الأشياء تؤكد أن العولمة لا تمثل خطرا كاسحا ومدمرا إلا على الشعوب والأمم التي تفتقر إلى ثوابت ثقافية أما تلك التي تمتلك رصيدا ثقافيا وحضاريا غنيا فإنها قادرة على الاحتفاظ بخصوصياتها ونتاجة من مخاطر العولمة وتجاوز سلبياتها(5).

ولذلك فإن قادة العمل الثقافي الإسلامي في الغرب المخلصين بما يتوفرون عليه من إيمان قوي وافتتاح تام برصيد الأمة الغني بالثوابت والمسلمات والبيداهات قانرون على توجيه أبناء الأقليات والجاليات الإسلامية إلى ما يصونهم من سلبيات العولمة الثقافية وأثارها المدمرة والاستفادة بالمقابل ببعض الجوانب الإيجابية -على قلتها- وتوظيفها التوظيف السليم " إن المسألة في حاجة شديدة إلى ضبط منهجي نتحكم به في العولمة بأعلى ما نستطيع من قدرات، وبذلك نسلك طريقنا إلى الاستفادة من العولمة على النحو الذي يدفعنا إلى الإسهام في الحضارة الإنسانية الجديدة من موقعنا الثقافي المتميز وبخلفيتنا التاريخية وبرؤيتنا الحضارية المنفردة(6).

وإذا كان الانفتاح أو التواصل الثقافي سببا من أسباب نماء الثقافة وتطورها فإن على القائمين على العمل الثقافي الإسلامي في الغرب التعامل مع العولمة من موقع الثقة بالنفس والإدراك العميق لخصائص الثقافة الإسلامية وقوتها واستيعاب مقوماتها الأصيلة ومبادئها السامية وتعرضها للتفاعل والتكيف مع الثقافة العالمية الوافدة أخذا وعطاء والتعامل مع مستجداتها ومتغيراتها بوعي وانضباط.

2/2: العولمة والهوية الثقافية للجاليات الإسلامية في الغرب

لا خلاف في أن الهوية التي تكون لأمة من الأمم أو شعب من الشعوب إنما تتحقق من خلال " هوية ثقافية"، وقوام كل هوية ثقافية ذات بنية عضوية منماسة هو العقيدة التي تنشئ منظومة من القيم القادرة على تفعيل الإرادات المختلفة من أجل الحفاظ على سلامة المجتمع من الذوبان، وأبناء الجاليات والأقليات الإسلامية في الغرب يجدون أنفسهم أمام إغراءات العولمة الثقافية الغازية من جهة ومستلزمات الحفاظ على الهوية الثقافية الإسلامية والوطنية من جهة أخرى، لذا فإن دعوتهم إلى التفاعل الثقافي مع العولمة أخذا وعطاء في حدود الضوابط المشروعة يستلزم أمورا منها:

* القدرة على الإسهام والمشاركة الفعالة في إبراز الثقافة الإسلامية وتعزيز أفاق نشرها وبثها في أوساط المسلمين المغتربين.

* إن أمر الحفاظ على معالم الشخصية الإسلامية والهوية الثقافية للجالية المسلمة المقيمة في ديار المهجر يحتاج إلى برامج مختلفة للعمل الثقافي تكون مناسبة للأوضاع الخاصة التي تمر بها في ظل عولمة ثقافية كاسحة، فإذا كان من الضروري الحفاظ على الثوابت المميزة للهوية الإسلامية فلا بد أيضا من القيام بما هو ضروري من تغييرات يطبعها التفتح على التفكير المتجدد الذي يأخذ بعين الاعتبار المتغيرات الثقافية المشروعة.

* لا بد أن نتكامل العولمة والهوية ليصبح العالم واحدا ومتعددا في آن واحد

(7) كما أن العولمة محكوم عليها أن تتعايش مع الهوية في إطار التنوع

الثقافي. وهذا الأمر يجدر السعي إلى تحقيقه في مجتمع الأقليات الإسلامية للظروف الخاصة التي تفرضها ضرورة التوفيق المشروع بين المكتسبات والمتغيرات وبين الأصالة والمعاصرة. وإذا كان الإسلام يشتمل للهوية نوعا من الثبات والأصالة والاستمرار فإنها من دون شك قابلة للتكيف إلى حد ما - مع المتغيرات الثقافية التي يؤكد الواقع الحالي من خلالها الطفرة الكبيرة التي عرفها انتقال العلاقات الإنسانية والأفكار والقناعات الفكرية من البساطة إلى التعقيد ومن التقليد إلى التجديد(8).

* إن الجاليات والأقليات الإسلامية في الغرب لا يمكنها أن تحمي هويتها الثقافية وشخصيتها الإسلامية إلا إذا استطاعت أن تحصنها بتعميقها وتفعيلها بل انه ينحتم عليها أن تنتقل في الحفاظ على هويتها وذاتيتها من موقع الدفاع إلى موقع البناء والمواجهة التي تعني العمل على نشر إشعاع الثقافة الإسلامية الأصيلة وبث القيم الروحية والدينية وسط الفراغ الروحي والثقافي الذي يقض مضجع الناشئة المغتربة.

ثانيا: الأسرة المسلمة في الغرب ورياح التغريب

تعتبر الأسرة المسلمة في الديار الغربية أهم المؤسسات الاجتماعية التي تنتج الوحدان الثقافي والتربوي عن طريق مجموع القيم والأخلاق التي تنشرها وتوزعها على سائر أفرادها وتلقنهم إياها على اعتبار كونها تشكل جهاز المناعة ضد رياح التغريب والعلمنة. غير أن العولمة الثقافية وتأثيراتها السلبية التي عملت على تفكيك

بنية الأسرة وتهوين قدرتها على الاستمرار كمرجعية أخلاقية وتربوية للناشئة تعتبر من الأمور التي تؤرق الجهات والمنظمات المعنية التي يقع على عاتقها عبء المحافظة على القيم المكتسبة لأفراد الجاليات والأقليات الإسلامية في الغرب. من جهة أخرى خطت المدرسة الغربية لتكسير البنية المرجعية للطفل المهاجر، وذلك بواسطة عمليات هدم ممنهجة للقيم التي حملها من أسرته وثقافته الأصلية، لذلك نلاحظ أن المدرسة تساعد على إيجاد نوع من التباعد الثقافي بين الطفل وأسرته⁽⁹⁾.

لقد تأثر دور الأسرة المسلمة في مجال التربية والتثقيف وأضحت السلطة الأبوية داخل الأسرة تتراجع وتضمحل تدريجياً لتفسح المجال لمصادر جديدة لإنتاج القيم الأسرية تعيشها الناشئة عموماً في بلاد المهجر في الشارع والمدرسة ومن خلال الإعلام المرئي بكل مكوناته، الأمر الذي يهدد باضمحلال الثقافة التقليدية الأصيلة التي كانت تنساب بتلقائية طبيعية إلى الأبناء من خلال الأسرة الملتزمة بتعاليم الإسلام وقيمه ومثله.

إن من المتغيرات الخطيرة التي أضحت تهدد الأسرة المسلمة ما أصبحت تعرفه المجتمعات الغربية من "انفلات" أخلاقي وتربوي، حيث تسود ظاهرة التسبب العام لدى الأطفال المراهقين وتنتشر عوامل الإغواء والإغراء مما يضعف الوازع الديني والأخلاقي لدى الأبناء الذين يجدون أنفسهم فريسة لصراع داخلي بين دافع الوفاء لقيم الأسرة الثقافية والاجتماعية والرغبة في الانسحاق وراء عوامل الإغواء وتحقيق الأهواء والرغبات. وهنا تكون الناشئة المسلمة في أشد الحاجة إلى قيم التحصين التي تؤدي الأسرة أكبر دور في تفعيلها وتنميتها وهو ما أضحت المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية في الغرب تسعى إلى تعزيزها وبنائها إلى الأطفال والشباب في محاولة منها لتأسيس "ممانعة ثقافية" لديهم لتتصدى للانعكاسات السلبية للعولمة الثقافية الجارفة.

بيد أن ثمة صعوبات تعترض محاولات التحصين هذه وهي تتبع من الأسرة المسلمة ذاتها نلخصها فيما يلي:

أ- مشكلة الزواج المختلط خاصة عندما تكون الأم غير مسلمة وهي الحالة التي تعرفها الكثير من أسر الجاليات الإسلامية في الغرب حيث يكون أمر تربية الأبناء تربية إسلامية وشديدة هدفاً غير ميسر.

ب- غياب النموذج المحنذى أو القدوة والمثال في الوسط العائلي، وهذا أمر شائع نظرا لتفشي الأمية وضعف المستوى الثقافي من جهة وغياب أو ضعف التطبيق العملي للشعائر والأحكام الشرعية في الوسط الأسري من جهة أخرى مما يسهم في ضعف التأطير التربوي لدى المسؤولين.

ج- عدم القدرة على التحكم في الأطفال والشباب وجعلهم يستجيبون للتوجيهات والإرشادات العائلية وذلك بالرغم من أن كثيرا من الأسر المهاجرة من الجيل الأول تحمل آراء ومفاهيم أصيلة وصالحة في ميادين التربية وتهذيب السلوك، لكنها لا تستطيع أن تترجمها واقعا إلى أعمال وممارسات.

د- انشغال الأبوين عن الأبناء بالانغماس في مشاكل العمل وظروف الإقامة الصعبة وضغوط الحياة اليومية مما يلغي مبدأ متابعة ومراقبة الأبناء على المستوى التربوي والتعليمي.

هـ- عزوف المرأة المسلمة عن الانخراط في المجال الاجتماعي المؤسساتي (المساجد-المراكز والجمعيات والأندية الثقافية) والمشاركة في دورات تعلم المهارات والخبرات مما قد يحد من مستواها وكفائتها وقدرتها على تفعيل دورها التربوي داخل الأسرة في بلاد المهجر.

إن كل هذه العوامل بنجم عنها ضعف التأثير الأسري في مجال تربية الأبناء مما يؤدي إلى وقوعهم ضحية الانحراف والانهلال الخلقي وفريسة في أيدي رفاق السوء في المجتمع الغربي.

ثالثا: تداعيات أحداث 11 سبتمبر 2001

لا يشك أحد في أن أحداث 11 سبتمبر 2001 قد أفرزت تداعيات خطيرة على مستوى العلاقة بين المسلمين والغرب، ولعل أبرز تلك التداعيات بروز موجة من الحقد والكراهية والاستفزاز ضد العرب والمسلمين وخاصة في صفوف أبناء الجاليات الإسلامية في الغرب.

وتأتي هذه الأحداث لتتضاف كواحدة من أبرز المتغيرات الدولية الراهنة التي ألقت بظلالها القائمة على واقع المسلمين في الغرب على كل المستويات وتبدو معالم ذلك من خلال ما يلي:

1: مراقبة المساجد والمراكز الثقافية الإسلامية في الغرب، حيث تم تضيق الخناق على العمل الثقافي والديني من خلال مراقبة تحركات المسلمين وأئمة المساجد وأبناء الجاليات النشطاء دعويا وثقافيا وكذا أصحاب الكفاءات العلمية.

2: تكون صورة نمطية مشوهة عن المسلمين المقيمين في الغرب، حيث يمكن اعتبار الصورة

العامية التي تكونت في أذهان الغربيين عن الإسلام والمسلمين في الغرب سلبية إلى أقصى حد تمخض عنها انتعاش جديد لروح الكراهية والحقد وممارسة مضايقات استقرارية والاعتداء على المساجد والمراكز الإسلامية ومواقع الإنترنت لبعض المنظمات والهيئات الإسلامية المقيمة في الديار الغربية، وقد كان لكل هذا أكبر التأثير على مجال العمل الثقافي الإسلامي في الخارج والحد من حرية نشاطه.

3: توجيه أصابع الاتهام برعاية الإرهاب إلى كثير من الأئمة والدعاة والمتقنين المسلمين بالغرب كما حدث في إيطاليا أياما قليلة قبل شهر رمضان 1424 وكذا إلى مؤسسات وجمعيات ومنظمات ثقافية تنشط في الديار الغربية وذلك بدعوى نشر ثقافة دينية تحرض على التطرف والعنف ضد الحضارة الغربية.

خامسا: في المجال التربوي والتعليمي

* جرى التأكيد على الأهمية الخاصة التي يحتلها الحقل التربوي -التعليمي في العمل الثقافي الإسلامي في الغرب، إذ أن كل تقدم يحرز في المجال التربوي التعليمي من شأنه أن يساعد على تحسين نوعية حياة المسلمين بأوروبا، كما من شأنه أن يساعد على حسن تفهمهم مع محيطهم وتمكينهم من إعطاء صورة إيجابية عن الإسلام⁽¹¹⁾.

وبقدر أهمية ومكانة هذا الحقل في الواقع الثقافي الإسلامي في الغرب، يعظم أثر التحديات والمعوقات التي تعترض سبل تفعيله وتعزيزه، ولعل أهم التحديات التي يمكن التأكيد عليها في هذا السياق ما يلي:

1- ضعف التأهيل التعليمي للجاليات الإسلامية:

لاشك أن من أبرز معوقات الواقع الثقافي في الغرب ضعف المستوى الثقافي والتعليمي للجاليات الإسلامية التي تحولت إلى مجتمعات استهلاكية منشغلة

بالجوانب المادية من حياتها ويرجع السبب في ذلك إلى انحسار معظم المهاجرين من أصول ريفية وانتشار الأمية في صفوفهم.

وإذا كان الأمر مقتضرا فيما مضى على الجيل الأول فحسب فإن ثمة مؤشرات خطيرة تدل على أن نسبة كبيرة من أبناء الجيلين الثاني والثالث قد طالها أيضا فشو الأمية والرغبة في العزوف عن التعلم والتعرض.

2- الإخفاق الدراسي:

من الملاحظ أن ظاهرة الإخفاق والفشل وعدم القدرة على إتمام الدراسة سمة بارزة تطبع مجتمع أبناء المهاجرين المسلمين حتى أن نسبة الذين يبلغون المرحلة الجامعية نسبة ضئيلة، وترجع الأسباب في ذلك إلى جملة من العوامل عنها:

1-2: سوء الأوضاع والظروف الاجتماعية والمادية التي يعيش فيها معظم أبناء الجاليات الإسلامية، مما ينعكس على مستوى التأهيل التربوي والتعليمي.

2-2: عدم اكتراث كثير من الآباء بدراسة أبنائهم وعجزهم عن مراقبتهم ومساعدتهم على إتمام دراستهم.

2-3: عدم ملاءمة المقررات والمناهج الدراسية الغربية لحاجيات ومتطلبات أبناء المهاجرين ويؤكد ذلك ظهور اتجاه داخل أوساط الأساتذة والمربين يدعو إلى تغيير السياسة التعليمية تجاه أبناء المهاجرين واعتماد تعليم أكثر تنوعا من الناحية الثقافية (12).

2-4: شيوع التمييز العنصري في الأوساط التعليمية الغربية من خلال اعتبار أبناء المهاجرين أجنبيا لا يستوون مع أبناء البلد المضيف، مما يفرز نوعا من الإحباط وخيبة الأمل المفضي إلى الفشل في الدراسة.

3- المناهج الدراسية ذات الطابع العلماني:

تشكل المناهج الدراسية والتربوية التي يتفقهها أبناء المهاجرين المسلمين في ديار المهجر جوهر المشكلة التربوية والتعليمية، فعندما يستوي الطفل أو الشاب المسلم مع غير المسلم في تلقي المنهج الدراسي الغربي المبني على ركائز علمانية وأسس لا دينية، فإن الطفل المسلم بعد أن يكون قد نهل من مختلف المناهج التربوية الغربية لا يستطيع الانفكاك من أثرها العميق في نفسه وروحه، كما أن

ثقافته الدينية والتربوية لا يمكن إلا أن تتحوّل المنحى الذي يتوافق مع المنهج الدراسي المتبع.

4- قلة الاهتمام باللغة العربية:

يدرك قادة العمل الثقافي الإسلامي في الغرب ومعهم أولياء أمور الناشئة المسلمة أن الأبناء المهاجرين قد أصبحت معرفتهم باللغة العربية تتدنّى وتتناقص بصورة مثيرة، كما أن حصص دروس اللغة العربية الموازية والمدعمة لا تقي - في الغالب - بالمقصود، سواء على مستوى الإقبال عليها أو على مستوى الطرق البيداغوجية والوسائل التي تستخدم لتفعيلها.

وبالرغم من الجهود المحمودة التي تبذلها الجمعيات والمراكز الثقافية الإسلامية في سبيل وضع بنيات قوية لتعليم أسس اللغة العربية ومبادئ التربية الإسلامية، فإن ذلك لا يكاد يظال سوى فئة محدودة من أبناء الجاليات الإسلامية، في حين تبقى الفئة العريضة من الأطفال والشباب معرضة لتأثير المدرسة الغربية. ويمكن استشراف واقع تعليمي عربي فعال أكثر ملائمة لأبناء المهجر من خلال ما يلي:

أولاً : تحسين وتصيير جميع الآباء وأولياء الأمور بأهمية توجيه أبنائهم وبناتهم إلى تلقي اللغة العربية ومبادئ التربية الإسلامية عن طريق مختلف أنظمة تعليم اللغة العربية بالدول الغربية والتي ينحصر معظمها فيما يلي:

أ- التعليم الموازي المتمركز في المساجد والمراكز الثقافية خلال أوقات الفراغ.

ب- التعليم في المدارس الخاصة التي تتمتع بوضعية قانونية معترف بها.

ج- التعليم في بعض المدارس الرسمية التي تسمح بتخصيص حصص لتعليم مبادئ اللغة العربية والتربية الإسلامية (فرنسا- بلجيكا- هولندا...).

ثانياً: العمل على تكوين معلمين أكفاء يتم تغييرهم واستبدالهم بصورة منتظمة من أجل بث روح التحديد والمنافسة المثمرة. ويمكن للإيسيسكو أن تسهر على هذه العملية بالتنسيق وتعاون مع الجهات والهيئات المختصة.

ثالثاً: تجاوز مرحلة إقرار مناهج دراسية مرتبطة بالبلدان الأصلية إلى مرحلة إعداد مناهج دراسية ملائمة لجميع شرائح أبناء الجاليات ومراعية لخصوصية المهجر.

رابعاً: بذل مزيد من الجهود لتنشيط حركة اللغة العربية التي هي الوعاء الثقافي للأمة الإسلامية بين أبناء الجاليات والأقليات الإسلامية والعمل على التخفيف من وطأة اللغة الأجنبية وهيمنتها في الخطاب والتواصل.

سادساً: إنكفاء روح الصراع والصدام بين الحضارتين الإسلامية والغربية. لأنك أن من أبرز سلبيات العولمة على المستوى الحضاري كونها تدفع بقوة في اتجاه الصدام على مختلف الأصعدة وتخلق المناخ الدولي الذي يذكي الصراع على جميع المستويات مما يتعارض كلياً مع قواعد القانون الدولي الذي يقر بالخصوصيات الثقافية والحضارية للأمم والشعوب ويكفل حق الفرد والجماعة في التمثيل بها والعيش في كنفها * (13).

ومن الطبيعي أن يتأثر الواقع الثقافي في الغرب بتداعيات هذه النزعة التشاؤمية التي تينف إلى تعزيز نظرية صدام الحضارات التي أعلنها الخبير الاستراتيجي الأمريكي صمويل هنتجتون قبل بضع سنوات (14) كواحدة من أنشط النظريات والأفكار تداولاً ونقداً وسجالاً خاصة وأنها جاءت منثرة ومحفزة من احتمال وقوع صدام بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

فالنظرية تتضمن خيوطها التحذير من تنامي المد الإسلامي في الغرب من خلال استقرار الجاليات الإسلامية واستيطانها لكل ربوع التراب الغربي وكذا من خلال إبراز إحصائيات مهولة تبين سرعة انتشار الإسلام وثقافته وتزايد أعداد المسلمين وظهور قوتهم بشكل بارز داخل الأوساط والمجتمعات الغربية (15).

إن دعوى الخطر الإسلامي في الغرب الناجم عن تنامي عند المسلمين وتشبثهم القوي بدينهم وثقافتهم التي تعتبر سبباً من أسباب التخويف من الإسلام وجعله مرشحاً للصدام مع الغرب قد أصبحت تشكل عقدة لدى الغرب امتكت آثارها بشكل سلبي واضح إلى مختلف مكونات وسائل الإعلام الغربية التي صورت المسلمين في الغرب كخطر كامن ينتظر لحظة اليروز.

ولا شك أن الهدف الرئيس من ذلك كله هو تحريك مشاعر الغربيين وتقوية روح العداة والكراهية لديهم تجاه مواطنيهم من المسلمين. وهو ما ازداد استفحالاً وتفاقماً بعد أحداث 11 سبتمبر 2001. ومن أجل تبديد هذه المخاوف لدى الغربيين يجدر بالقائمين على الشأن الإسلامي والثقافي في الغرب التعامل مع دعوات إنكفاء

روح الصراع والصدام بين الإسلام والغرب بحكمة وروية وبعد نظر. ويمكن اقتراح ما يلي:

*-الحرص على وضع استراتيجيات للحوار والتعايش والتفاهم بدل استراتيجيات المواجهة.

*-العمل على تكثيف النشاط الثقافي في المراكز الإسلامية ذات الإسهام الواسع والتركيز من خلاله على إبراز مبادئ الإسلام السلمية والسمة الداعية إلى التعايش والتعاون وحسن الجوار.

*-الدعوة إلى ترسيخ وتفعيل آليات الحوار الحضاري بين الإسلام والغرب من خلال تنظيم لقاءات علمية وثقافية بين النخب المثقفة من الجانبين.

*-تفعيل الحوار الإسلامي- المسيحي عن طريق تبادل الزيارات وتنظيم منتديات حوارية مشتركة بين الجمعيات الإسلامية والمسيحية والحرص على إعلانها عبر وسائل الإعلام العربية (16).

*-الدعوة إلى التأكيد في كل مناسبة ثقافية يحضرها الإعلام الغربي على أن الوجود الإسلامي في الغرب ينتمي إلى حضارة عريقة ليس فيها ما ينذر بالصدام مع الحضارة الغربية. وإذا كان الإقبال على اعتناق الإسلام في صفوف الغربيين كبيراً فإن ذلك لا يعني أن الإسلام يشكل خطورة على الغرب.

*-السعي إلى حسن استغلال واستثمار أصوات المثقفين الغربيين المناهضين لدعوات الصدام والصراع بين الإسلام والغرب وذلك عن طريق استقطابهم ودعوتهم للمشاركة في الأنشطة الثقافية للمراكز الإسلامية.

*-دعوة مراكز البحث المنصفة والمعتدلين من ذوي النفوذ والقرار في الدوائر الثقافية والسياسية في الغرب إلى المحافظة على جسور التواصل والتفاهم والتعاون بين الحضارتين الإسلامية والغربية (17)، وإبراز الأرضية المشتركة على جميع المستويات وتشجيع مساعي ودعوات الحوار الحضاري الذي تمثل الأقليات والجانبيات الإسلامية في الغرب أحد طرفيه.

*-البحث على منابر إعلامية في التلفزيون وأعمدة الصحف قصد التعبير من خلالها على معالم صورة الإسلام الصحيحة ومبادئه السلمية الهادفة إلى تعزيز روح التعايش والتعاون والحوار مع الثقافات والحضارات الأخرى. ويمكن

لأصحاب الكفاءات العلمية في الغرب القيام بهذا الواجب لأنهم أقدر من غيرهم على إيجاد فرص الحديث من خلال تلك المنابر الإعلامية.

الهوامش:

- 1- الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، منشورات الإيسكو، الرباط 1997 ص 19.
- 2- محيي الدين عبد الحليم : إشكاليات العمل الإعلامي بين التّواثيم والمعطيات العصرية، كتاب الأمة رقم 64، قطر الطبعة الأولى 1998 ص 103.
- 3- وسائل الاتصال الحديثة وأثرها على المجتمعات الإسلامية، منشورات الإيسكو الرباط 1996 ص 136.
- 4- العولمة والهوية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية الرباط 1997 ص 205.
- 5- عبد العزيز بن عثمان التويجري : العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي، منشورات الإيسكو الرباط 2002 ص 16.
- 6- المرجع السابق ص 15.
- 7- العولمة والهوية، مرجع سابق ص 132.
- 8- حسن عزوزي: نحو أرضية مشتركة لثقافة الحوار في عصر العولمة، ورقة مقدمة إلى ندوة "ثقافة الحوار في عصر العولمة" ليبيا (مارس 2002).
- 9- استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب ص 91.
- 10- الإسلام والمسلمون بأوروبا (جامعة الصحوة الإسلامية -الدورة الرابعة) 293/1.
- 11- استراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب ص 110.
- 12-Ahmed Medhoune : La lutte contre l'échec scolaire chez les enfants d'immigrés. in l'annuaire de l'immigration Rabat 1994 p 402.
- 13- تراجع الوثيقة التي أصدرتها الإيسكو تحت عنوان "رؤية الإيسكو إلى المتغيرات الدولية" نص مرقوم ص 1.
- 14- تم له ذلك بعد أن طور البحث المنشور بمجلة "الشؤون الخارجية الأمريكية" عام 1993 إلى كتاب حمل عنوان: "صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي".
- 15- يراجع كتاب الدكتور المهدي المنجرة : الحرب الحضارية الأولى، الطبعة الأولى 1991 ص 147.
- 16- عبد القادر طاش : رؤية مقترحة لتصحيح صورة الإسلام في الغرب، بحث منشور بمجلة "الإسلام اليوم" العدد 15/1998 ص 108.
- 17- حسن عزوزي : الإسلام والغرب : قضايا ومواقف، الطبعة الثانية -فلس 2000، ص 65.

الإسلام رافد روحي حتمي لديمومة مدنية العرب

الأستاذ الدكتور سليمان عسراتي
جامعة الساتيا - وهران

من الواضح أن الثقافات الغربية تعاني اليوم من الشعور بالتراجع والتدافع وانتهاك حرمة بعضها بعض.

وهي إلى ذلك تستشعر مخاطر المعالمة الخارجية التي تهددها من جهة الثقافات القديمة لاسيما الثقافات ذات المتبع الصيني مثل الإسلام .

لقد ثبت أن إشكال الاعتراض على ظاهرة الاختراق الروحي هو أخطر ما يواجه الدوائر السياسية والثقافية الغربية اليوم، فبعد أن تصرمت على أوروبا قرون أمضتها في العمل المستميت من أجل كبح جماح الدين المسيحي وتقييد دوره في الحياة الأوروبية فإسحا لتوة الخلق المادي أن تتطلق وتحدث التغييرات المدنية والثقافية الشاملة، هاهي أوروبا تجد نفسها عارية أو تكاد من الكساء الروحي - القدسي - الحافظ للخصوصيات والمرسخ للهوية.

فأوروبا تعاني اليوم من تصاعد الطغيان الثقافي الأمريكي، إذ كانت أن تتأمر بعد أن باتت قيم ما وراء الأطنطي تسري في أوصال البنية الثقافية والاستهلاكية والرمزية الغربية بشكل متصاعد، ما يرح أن تحول إلى عامل كبح في منافسة غير متكافئة شملت حتى المجال المادي.

فالتفاوت الكبير في امكانيات المنافسة التجارية والاستثمار والماركوتنج جعل نشاط الرأسمال الأوروبي - وفي مجالات عدة - يتراجع، ليس على صعيد التجارة الدولية فقط، ولكن حتى داخل حدوده الوطنية ذاتها، وهو ما حث على بعض تلك البلاد أن تلجأ إلى ما يسمى بإجراءات الوقياية وحماية المنتج الوطني، ولئن تركزت الدعوة في هذا المجال على حماية المنتج الثقافي (الانتاج السمعي البصري عامة)، فالتثبت أن الشعور بضرورة توفير التغطية للحياة التجارية والانتاجية عامة يزداد بازدياد المد التنافسي الأمريكي .

ولعل من العوامل التي هيات لأوروبا أن تتوسع بحدودها السياسية وتكبح بلاد أوروبا الشرقية في حظيرتها، هو المطمح الاقتصادي وإرادة خلق الفسحة التي تخفف من الضغط الذي يولده التدافع التجاري في ظل العزومة.

بالمقابل فإن ما يشهد ثقافات الغرب من قبل مجتمعات العالم القديم هو التفاعليات الروحية التي يتوفر عليها هذا العالم، لا سيما فاعلية الديانات. وأخشي ما نخشاه أوروبا التأثير الذي يات يصلها من قبل الديانة الإسلامية، فلا غرابة أن نرى الوسائل الإعلامية لا تقفأ توسع من مجال انفتاحها على الديانات الأخرى لا سيما البوذية والهندية وحتى الطوطمية، والدعاية لها في مسعى مكشوف وهو أن تعيق وتحد من عملية التأثير التي للإسلام.

فالديانة المسيحية في علاقتها بالفرد والمجتمع لم تعد مؤهلة لإعطاء الأجوبة الملائمة التي توفر للإنسان الغربي مستوى من الطمأنينة والتوازن الذاتي، وهو ما تكلف عدة اعراض لهيكلية ومشاعر الإنكشاف والتعدم الحماية التي تسنولي على المجتمعات الغربية لمجرد حدوث هزة صنف.

فالتحولات المادية التي انجرفت بأوروبا مع ثوالي القرون أعطت هذا الناتج الذي قولناه مجتمع عاز من الحماية الروحية، مبتعد أكثر فأكثر عن ثقافة المقدس.. مجتمع لا يقفأ يتطلع - بصورة لا شعورية في أحيان كثير - إلى التثبيت بأي سبب يكفل له اشكاف مع محيطه المتصادي في الرقي المادي، ويحدد له من فسحة الأمل ووثيرة الحياة.

تفيد على هذا الواقع ظاهرة البحث عن الرموز وعن المساند المعنوية، وربما تتعكس هذه الظاهرة في سلوكيات مترجم عنها ثقافة تاليه شخصيات الفن ونجوم الرياضة وأرباب الأيديولوجيات، وهي ثقافة تنم عن جوع وفقير في مستوى الروح وسيكولوجية الأيمان.. انها الروحية التي ورثتها أوروبا من عبود الانكفاء عن الدين، قطاراً لسكوت الإنسان الغربي تتأثير المفكرين والفلاسفة واصحاب الأيديولوجيات الوضعية بمستقبل العلم والتطور واختراق اسرار المجهول، غير أن المصفي في حصان المكاسب المادية يبدأ الشكل المتزايد والناهر زاد من حاجة الإنسان إلى المعنى الروحي، وقوى من تهيئ المجتمعات الأوروبية إلى بروز نزعة ربط الصلة بالعبادة من جديد، ولما كانت صلة هذه المجتمعات بالمسيحية قد استرخت، بعد أن ترسخ الاعتقاد بالطورية الحقائق الكتابية، كان البحث عن بدائل أخرى يزيدك ويأخذ صورة كشي.

من هنا تجد الدوائر المبيمنة والمتعصبة نفسها في مراهنه فقله، إذ أن وضع الديمقراطية الثقافية في الغرب يهين للفرد أن يكون على تواصل مباشر مع الثقافات والذبات التي يجد حياها ميلا أو رغبة في الاحتكاك بها أو اعتناقها، ولما كانت تلك الدوائر تنرك قابلية الإسلام وأهليته للتواصل الطبيعي والسوي مع مشاعر الإنسان، لا سيما الإنسان الباحث عن مصادر علوية توفر الضمانات والامتياز الروحي، فإنها باتت تختلى أن يجد الفرد الغربي طريقه إلى الإسلام أو أن يتعرف على حقائقه النيرة، فلا عراية - والحالة تلك- أن نرى منياً كل هذا التشويه المتصاعد الذي يستهدف الإسلام والمسلمين.

فقيم الدين الإسلامي ترسحه لأن يكون بديلاً بحدارة لغیره في مجال العديد مندية الغرب، إذ أنه الدين الوحيد الذي يرفض التجسيم، إذ روحية سوية تزيهية، تتعالى عن الخرافي والتقمصي الشفعل، إنه الدين الذي جاء مؤهلاً لصيانة الصحة النفسية والوفاية من الأضرار التي تسببها للاطمات الحياء.

إذ التطور المادي المستطير يتطلب واقيات روحية تحفظ حياة الإنسان، وهو ما توفره الذبابة الإسلامية لا سيما من خلال شعائرها، وبالأخصه شعيرة الصلاة وما تغرسه في نفسية الفرد من راحة وسمو وضابنة.

تعمل الذبابة المسيحية اليوم جاهدة على تارك ما فاتها من حيث مفاعلة المجتمعات المعاصرة، وتسعي بلا هوادة إلى إعادة انتشارها في أوسط الشباب بالخصوص، وينتجح في هذا الإطار ما يقوم به البابا ودوائر أخرى كثيرة بصورة معنة أو خفية، وقد توسلت إلى هدفها الاستقطابي بأشاع أحدث الأساليب، بحيث أخذت ظاهرة استقطاب الحشود تأخذ شكل تجمعات (البيك نت) التي أسفوح، لكن الناتج يطر محسماً، ما تألمت ظاهرة البيك نتك هذه قد تكثرت في الأوساط الشبابية على نطاق واسع، وياتت الأوساط تمارس بها عند التفتيات والتروبجات، بل قد باتت تجمعات الموسيقى الإلكترونيون والغروسية الميكانيكية والتظاهرات التنافسية الأخرى (سباقات السيارات والتراجات وميرحانات العروض الخ.) تأخذ أكثر فأكثر طابع الكاعبات الروحية الطقسية كالتي تأخذها نقاءات المجموع مع البابا، الأمر الذي يعكس سلماً على محصلة التظاهرات الدينية، إذ تتعمر هذه التظاهرات ضمن (موضة) ثقافة الاحتفال الشباني الجماعي التي يتسع نطاقها في أرجاء العالم.

والثابت أن حاجة المجتمعات الأوروبية إلى الدين هي التي تحفزها أكثر على تنفي ما يعرض عنه، مثل عناصره القضايا العالمية والإنسانية والمناقحة عليها، فلكأن هذه المجتمعات تجد شيئا من تبيكيت الضمير لقاء ما باتت تصبطنه النفوس من مشاعر الاستيثار بالمثل القسوية، أو لكأنها تجد من الفراغ والبطالة الروحية ما يشجعها ويدفع بها إلى النضال والإعراب عن مواقف التضامن العالمي.

فالنشاط المتزايد للمنظمات الإنسانية، وتحركات الشارع الغربي وإلهتمام الملحوظ الذي تبديه قطاعات من الرأي العام الغربي بمشاكل عالمية وإنسانية لمما يدل على تنبؤ البيئة الغربية بصورة أكبر لتجاوز حالة اللاهْم، وتبني القضايا الجادة، وعقد الحوار مع العالمين، وهو ما يقوي من إمكانات التلاقح والتأثر الإيجابي بثقافات وديانات العالم القديم والتعرف عليها، لا سيما الإسلام.

الأخلاق في الغرب

من الواضح أن مجتمع الاستهلاك قد تقبل أن يرتبط مع مصادر أخرى غير المصادر التقليدية في مضمار اصطناع القيم وتبني الخيارات. لقد باتت الروحية التي تحرك الحياة في المجتمع العربي هي روية التجدد الذاتي، ولما كانت الأخلاق أوتادا تثبتت بيا العلاقات والأفكار والأحكام والرؤى وتحفظ المسار السلوكي والعرفي للمجتمعات، فقد باتت القيم الحقيقية الموروثة تشكل ضغطا على النفسية الغربية، أو على الأقل على فئات الشباب. لم يعد الإنسان العربي يتعامل حول طبيعة الأعمال والأنشطة والهويات التي يقبل عنها، ذلك لأن الحياة في المجتمعات الصناعية قد كفلت لنفسها نظاما وأعرافا من الأداء والسير لم يعد يتوفر معها للفرد مساحة واسعة للاختيار، فالمؤسسات التعليمية والتكوينية بداء بالحضارة التي أخرجت ما تنتهي إليه تجربة التكوين تربي للفرد على الإيمان بأهمية العمل والكسب وترسخ في نفسه الاعتقاد بأن الحياة هي الإطار الذي تكتمل فيه تجربة الفرد، ولا إطار هناك يمكن أن تتحقق فيه للإنسان تجربة أخرى، فليستهلك كل فرد حياته وفق التجربة التي يراها.

إن الإبتولوجية المدنية في البلاد المصنعة تحذف من مدونة التداول معاني الاحسان والتكافل، وتوكلنا إلى جهات ومصالح إدارية وتشريعية تتولى الشبوض بها. الأمر الذي يجعل تعاليم العقيدة السماوية على الصعيد العملي

والشعوري تتراجع وتتحصر، لأن المجتمع من خلال اسناده مهمة القيام بالواجبات العمومية والتضامنية إلى هياكل مدنية وإلى منظمات ودوائر جمعوية ونقابية يستغني عن تلك التعاليم الخبيثة وعن معتقديها، إذ لم يعد لها في واقع المجتمع بروز موضوعي من شأنه أن يضمن لها الصدارة ويدافع عن تعاليمها.

فالكثيسة⁴ كما سنرى تكلمت أو كانت في الوقت الراهن، ومطالب الإنسان المعاصر وتطلعاته تجاوزت بكثير منطلق الأخوة والرحمة والإحسان الذي كانت الدوائر الكنسية تكفله في عصور مضت. والرفاهية التي أتاحتها التطور الصناعي والتكنولوجي قد فوّتت في الإنسان تلك الرعونته الروحية التي تجعله أقرب إلى الجحود، إذ لا يكف يرى نور المادة والعلم يتسع ويزيد من وجهة العقل الوضعي وقوة نقادته، الأمر الذي يزعج بالإنسان في مزلق الألداد.

فالإنسان بات في حياته يراهن على تنبؤات وسائل الإشهار والرصد والترقب في مضمار التعمون والاستيلاك والمتعة، وبات ينيط حاجاته النفسية والجسدية بما نيته وكالات البحث العلمي وخبراء الصحة والتغذية. وورسات التحليل النفسي من نتائج وإرشادات.

فالتعاقف باتت إحصاءات وتوقعات في سائر المجالات، بدءا بحالة الطفل ساعة بساعة إلى رصد ما يكون لثديثة النقال من تأثير على المخ والمزاج، وكل ذلك غطى على الحرس الديني في روح الإنسان الغربي المعاصر.

ومما لا شك فيه أن الديانة اليهود-مسيحية نفسها قد استلمت على بعض أسباب هذا الانبثاق الملموس في العلاقة بين الفئات الغربية وبين الكنيسة، إذ أن مبدأ التضحية الذي كحمله فكرة اعدام المسيح نفض هذا الشعور الذي يجعل الإنسان يركن إلى مقولة أن أثم البشّر قد أزالها حادث مقتل المسيح، وأن الابن الفدوى الإنسانية بدمه، ويتركب بطبيعة الحال عن ذلك الفيم روح من التحلل ومن اللامسؤولية إزاء الوجود وإزاء تجربة الحياة، وهو ما يوقع في ورطة الإيمان بغلسفة العيب، وذلك ما ترى عليه حال بعض الأوساط في الغرب.

لقد طغقت الكنيسة تستغضب الناس والفئات من خلال الترويج لتعاليمها يمثل هذه الأفكار الإعتاقية، وهو ترويج لم يسلمه من ديماعوجية مكشوفة، الأمر الذي كان له على المدى البعيد أثر سلبي متصلي. إذ جنحت النفوس إلى توهم أن الإنسان مطلق الحرية في الحياة وأنه مخير في أن يحيى حياته على النحو الذي

يشاء مادام الرب قد تكفل به (سدغ الفاتورة). فلا عراية لأن نرى ظيور نوع من الكنائس العصرية باتت تجتهد في ابتكار سنى الجاذبيات بحيث أتحدث في طقوسها كثيرا من ألوان الترفيه التي هي في حقيقتها تمارين رياضية والنشطة تجمم أكثر منها شعائر وتعاليم دينية.

ومما لا شك فيه أن المجتمع الغربي وجد نفسه رهينا لتأثرات الإعلام، لأن مرافق الحياة الغربية تكيفت على الانصياع لتقافة الإعلام والأشعار. فالإشارة الموحية في الشارع والميترو وداخل القطار وفي البيئات السكنية وداخل مؤسسة العمل باتت نحل محل الإنسان وتؤدي الدور الذي كان له في البيئات القديمة، فإذاعة السمك هنالك هي التي توجهه، واختفاء الإنسان كمصدر للتوجيه والمراجعة هو حلقة أخرى من مسلسل التشويه الذي بدأ منذ أن قررت الفلسفة المادية موت الإله.

لقد سارت الفلسفة المادية ضمن اعتقاد يؤله الإنسان، لكن التضخم الصناعي ما لبث أن نحى بالإنسان منحى النعمية.

إن مرأى الأفرار اليوم، وهم في الشارع والمقهى وعلى درجات السلم وداخل السياره متهيكون في مكالمات هاتفية بواسطة النقال ضمن هيئة من الحركات وأمارات الانفعال والاستغراق لعمى يؤكد هذا المال المهوس الذي شاء الإنسان المعاصر أن ينتهي إليه حين آمن بقدراته على تسخير الآلة وتفعيل التكنولوجيا والحوال محل الإله.

وإن ما يلوح في أفق المستقبل ليؤكد أن الوضع الإنساني بقدر ما سيتحقق له في حقل التطور من أسباب تسخير المادة والتحكم فيها، بقدر ما سيتبين وجوده بتحوالات خطيرة تمس كنه إنسانيته، لأن الإنسان ما انفك يغفل عن مراعاة ثوابت روحية أصيلة تتمثل في الأيمان بالخالق وحتمية الانقياد له والامتثال لإرادته والاقرار بعبوديته.

إن غياب السند الروحي الموصول بالإيمان من شأنه أن يخلي الساحة الإنسانية من المعالم الجاذبية، ويجعل ظهر الفرد عاريا وعرضة للطغانات، فإذا ما انحرف الإنسان وراء طغيان المادة، فسوف لن يبرح أن يبتلى بالاستلاب ويعش العصابية الوجودية، وهو ما يجعله يتقزم أمام حوارق ما تصنع ياداه، ويفقده ذلك المصير خصائص إنسانيته التي أهدته محل التكريم الإلهي، وعندئذ لن يسعه إلا أن

يضحي مجرد شيء من أشياء التي يحفل بها الوجود، شيء منفعل وقد خلقه الله ليكون فاعلا بوعي واستنارة.

لقد دلت النتائج الأولية على أن تسخير الآلة ميلعب دورا كبيرا وخطيرا في حياة البشرية مستقبلا، ولذا سيكون على الإنسان أن يتهدأ لعبودية الآلة، لأنه قد رضى بأن يوليها الاعتبار الذي أفقده نفسه الروح ونعمة الإيمان بالخالق.

إن ما سجله الاحصائيات الغربية في أوساط الثواب بالخصوص حبال ظاهرة إيمان الألعاب الإلكترونية واستهلاك ما تبثه المحطات السمعية البصرية وشبكة الأنترنت وغيرها من مواد التلية، قد كشف عن ظهور سلوكيات جديدة، مرضية، متوحشة، وكل ذلك يندرج ضمن المسار السيكو-تكنولوجي الذي يستره حضارة تراهن على أن تصنع الإنسان الآلي.

لقد أشرنا إلى شيوع ظاهرة الكلاء الانفرادي كما كرسها استخدام النقل، وما تجسده مواقف المكالمة بالنقل من أعراض الخبل واليبيل.

لقد طغفت الأعمال المسرحية تصور الإنسان المسوس وتخصمه على هذا النحو الذي بنتا نرى عليه الأشخاص حين تستغرقهم مكالمة النقل، الأمر الذي يؤكد أن الإنسانية سائرة في طريق جديد، لا قيل ليا به، طريق لن تسلم معه الخصائص الفطرية السامية من أن تتسخ وتحل مكانها طبيعة أخرى، طبيعة صناعية، آلية، عديمة الحس الإنساني، لأنها تلقت قيمها من ثقافة اصطناعية مادتها الصورة المبيحة، المحمومة، الصورة التي ابتدعها خيال حائع، عديم الحس، عديم وازع التقديس، يؤمن بالقوة والفنك والعدمية.

ومرة أخرى نقول إن الكتاب المقدس نفسه قد حوى في بعض متونه مشاهد من دمار كوني، لا شك أن الأدب والمخيل الغربي قد وظيفيا في ابتكار هذه العوالم الدمارية كما باتت أنظرطة السينما تجسدها.

لقد فتك الإعلام المعاصر بقيم الخير، واستخف بمعاني الطهارة النبيلة، إذ جعل الجسد حقلا للشيوة والغواية، وصورا توظف في النفوس وازع الخطيئة والتائم.

فالإنسان المسيحي الذي ظل يتلقى تعاليم ومواعظ انجيلية تحذر من مغبة الوقوع في الغواية وتخوف من عاقبة السقوط في الإثم، باتت الدعاية الإيهابرية تغذيه بمكر لا يقاوم ألوانا من القيم المضادة، وذلك من خلال توظيف منطاتي

لجسد المرأة بحيث جعل الاعلام الإشهاري من الجسد الأنثوي مادة (للتسليع) والاشتهاء وعرض المغائن.

إن ما تدرجت الثقافة للانكية والأداب الإباحية في ترويض الفطرة وتكييف الأنواق عليه من الفجاجة والعري، باتت الدعاية التجارية الفاسقة تصدم به مشاعر المشاهد دفعة واحدة وبإصرار لا هواده فيه. فالماركوتنغ الإشهاري قد فاق بكثير تلك الأساليب التي تصدت بها كتابات الإباحيين إلى هنم أخلاق الحياء والفضيلة.

لقد أوشكت المستهلكات والمقتنيات التجارية جملة، أن تفتقرن اشهاريا بحضور جسد المرأة، ولا شك أن هذا الخط الإشهاري المتعنت يمس تلك الروح الهدامة التي تتصدى بها مدينة العصر الحديث لتعاليم الانجيل والكنيسة، إذ لا يمكن لتعاليم من شعاراتها وحب انقاء مغائن المرأة أن تصمد أمام مثل هذه الثقافة الإعلامية المفقدة.

وهكذا يتكشف لنا أن القيم الإعلامية التي نوظفها المدنية المعاصرة هي قيم مسخرة ضد الفطرة، إذ أتيظ بنا استزراع طبائع مضادة للنفس السليم، ولا يفنا الإشهار يعمم هذه القيم ويصعد من مستويات عربيها ويروض عليها روحية المجتمع المعاصر، تلك الروحوية التي باتت تعكس طبيعة جاتحة نحو التوحش والضللال. روحية انتعدت عن ثقافتها النبوية التي ميزت الإنسان عبر الأزمنة الطويلة، يوم كان موصولاً بحبله السري إلى السماء من حيث يسمم طمأنينته المادية والروحوية.

لقد أوشك الإنسان الغربي أن يفقد فطرته في مجال التوجدان الديني، إذ انتمى إلى مدينة صناعية اورثته سيكولوجية عشوما، فعُتف الآلة وبرودنيا وخرسها أحوال انتقلت إلى الإنسان الغربي وختمت على طبعه فاكتسب من ثمن خصائصها. بل لقد وطنته حياة المعامل وهدير الآلات على أن يعيش وضعا من الرتبة والعمل النمطي الذي تتحول به الحياة إلى حال من الجفاف والنقل والوظافة، وهو ما تترجمه أجواء السام التي تزرع تحتها حياة المدن الصناعية.

من هنا نتوقع أن يكون تضرر المجتمعات الغربية بالغا إذا ما تمدت الثقافة المادية في تصعيد هجماتنا وتحديها المعن للقيم الدينية.

ومما نسجله هنا أن المجتمعات الغربية بدأت تظهر ما يدل على أنها بدأت تغي خطورة ما يتهدد القيم والتراث في بيئاتها، لذا لا نعدم اليوم تصاعد الأصوات الراضة للمضي على هذا السبيل الخطير.

ومن المنتظر أن يكون رد الفعل الإنساني مناسباً لكي يكون قادراً على كبح الصمّاع، وإلا فإن الصائر ستكون جسيمة.

لا يعني بئساً أن حال المجتمعات الغربية هو كنه تسفل وسقوط وليس شيئاً آخر، بل لقد تعرضنا لظواهر اعتبرناها وجهاً نسيء على المدى البعيد للمجتمعات الرائعة لهذه الحضارة التي استطاعت أن تحقق للإنسانية من المكاسب والترفيات ما يضمن مستويات من سعادتها.

وحيث نتأمل تلك الأعراض السلبية التي تشهدها الوضع المدني الراهن فربما نميل إلى الاعتقاد أنها ضرورية التطور، إذ نكفل حظ من الرقي المدني فترآته السلبية، والعبرة بالمكاسب المتحققة للإنسانية بفضل تطور هذه الحضارة.

حقاً إن هناك انحرافات سياسية وطغياناً بادياً في كثير من الأحيان وإجحافاً من قبل الأغنياء والرأسماليين في حق الأمم والشعوب الفقيرة، لكن ردود الأفعال الجماهيرية المتزايدة في البلاد الغربية كما تتسجل بين الحين والآخر، وتصاعد الأصوات بشعارات إنسانية في مناسبات عدة نعتد المستضعفين ومناصرة للمقهورين، يجعلنا نطمئن إلى أن محبة الخير لن نموت من قلب الإنسان.

إن الاستعداد للخير والاستجابة لنداءت الحق حال ثابتة في الإنسان، وإذا ما تهاقنت القوى الرأسمالية واللوبيات الكارتيلية الغربية وجحت إلى السير بالإنسانية نحو المآلات المستودة، فذلك سيعيق من مطامح التضامن الإنساني وبيز من أمل توطيد القيم المشتركة بين البشر، إن استمرار قوى الابتزاز على استيفاء الأحوال على وضعها المختلف في مجال تقاسم المكاسب والمنافع، يؤكد أنانية هذه القوى وعدم قدرتها على الارتقاع إلى مستوى العدل الإنسانية.

وإذا كنا نترك أن خلق العالم من الشر أمر خيالي و(أبوظبي)، فالمؤكد هو أن تقادم الاختلالات بتقوى بيمادي الإنسان في أقراف الشرور.

وإذا كنا كذلك نشعر بأن منطق المدنية الصناعية قد سار في خط نفعي، مناهض لتعاليم السماء، نأخذ تلقى النفسية والاعتبارات الروحية، فذلك يعني أن مخاطر الحيدة عن الطريق كائنة في طبيعة هذه المدنية يرونها الصراعي، على الرغم مما ترآخ به محاصليها من خير.

وبما أن الإنسان غالبا ما يميل عن الجادة كلما تزايدت أسباب رخائه ما لم يكبح فيه الدين ذلك الجنوح، فلا ريب أن امكانيات المدينة الغربية لا تكف عن التوسع في مصمار المكاسب والمنافع والرفاهية، وهو ما يقاوم من وضع الإنسان بوصفه روحا وأخلاقا، إذ الرفاه الموحص هو الذي يشجع في الغالب على إفراز ثقافة الفاحشة والعري الأخلاقي، هذه الثقافة التي تتماهى في تعميم قيمها وسانط الإعلام الغربية اليوم. ثقافة تعكس خفليات نعسة، تتغذى بأفكار التفوق والاعتداد (الكزينوفوبي Xenophobic) المقيت.

والمؤكد أن مصائر التهذيب الروحي والأخلاقي في المجتمعات الغربية، لا سيما الكنسية والمنتشات الاجتماعية التقليدية (الأسرة والمدرسة إلخ..) أضحت تعاني من وطأة الرقوص. وتواجه المروق المعن وتحوّل القلوب والضمائر عنها، بل وأكثر من ذلك لقد صارت موضوعا للاستهزاء من حيث الطعن في قيمة دورها كفاعل مؤثر وموصل للقيم ومنتبت للأخلاق.

ومن الواضح أن ما يجعل المجتمعات الغربية تستمر على وضع الاحتفاظ بتماسك بناها الاجتماعية هو اطراد نظمها المدنية ومضيقا على السير في الخط المرسوم لها. هذه النظم التي تستمد مبادئها من الروح الكتابية التي تحولت في صورة ثقافة مدنية وسلوكيات وأعراف وقوانين وتنظيمات إنسانية تضبط مناهج الحياة، وهو ما يكفل للمجتمع هذا التوازن الذي استطاع أن يساير آليات التطور والابتعاث بمرونة متجددة.

وما نراه من سرعة تأثر الفئات في بلاد الغرب وبورتجيم ازاء ما يطرا من تغيير على وتيرة الحياة ونظم العمل (اعلاق المعامل مثلا) لهو دليل على فراغ القلب من شحنة الروح والايمان. فهم يجيبون معنى التوكل ومعنى أن تكون حظوظ الرزق في يد الله.

ولعل الفارق بقوّة بين المسلم والأوروبي من هذا الصند بالذات، إذ وازع الايمان ببعثنا نحن المسلمين لا نهتم كثيرا بأمر المستقبل، إذ يمكننا حصر الكفالة الالهية، وبمحننا هذه الطمينة التي لم نعرف كيف نرتقي بها للخارج مما لحقه به الاحتفاظ، إذ حولها إلى استسلام وعجز.

لقد أفرغت ضغوط المدينة الصناعية المشاعر والنفوس من مرصود قيم الروح الذي تسكن به النفس وتجد الفترة على مقايمة الهزات والنوازل.

لقد باثت مراجعة النفساني مثلا، والخضوع لجلساته الترميمية حالا لازمة في المجتمعات الغربية كلما اخلت الوضع وخرج عن ليطه المعادة التي يسير عليها في تلك المجتمعات. لقد حل النفساني عندهم محل الكاهن من حيث أهليته في تلقي الاعترافات واليوح بالمكشوات والمضمرات المزممة التي تتخفف بها النفس من عقدها.

ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على التحول الكبير الذي اجتاح الغيو التقليدية، إذ التقدم النوعي المنجز أوجد مصادر أخرى لتصنيع القيم السلبية لحاجة الروح وثقافة العصر.

وإذا كانت مجتمعاتنا المختلفة قد شرعت في السير هي أيضا على هذا الطريق، وباتت وتشعر بالحاجة إلى التوسل بمثل تلك الأساليب التي يتبعها الغرب في حل المعضلات النفسية مثلا، فذلك لا يعدو في أحيان كثيرة أن تكون حالا من التبعية، إذ لا زالت بيناتنا تتوفر على المسجد والمزار، ولا زالت تؤمن بكرامات أهل الله وبتأثير الآيات، ولا زال دور هذه العوامل الروحية يحفظ شيء من قوته وفاعليته.

وحين نجد أنفسنا في حاجة أحيانا إلى استخدام الأساليب الحديثة المعاصرة، فذلك أمر طبيعي أيضا، لأن المجتمع يثق طريقه على خطأ التمدن، ولذلك يتحتم عليه أن يصطنع بعضا من أساليب العصر.

الكنيسة تتقهقر أمام وتائر الجموح الصناعي

قلنا إن التطور الحضاري والمدني قد جنى على الكنيسة في العالم الغربي، إذ أفقدها الصلابة التي كانت لها إلى وقت ليس بالبعيد في المجتمعات الغربية. ومما يلاحظ في هذا السبيل هو استماتة الكنيسة في استرجاع دورها كمصدر للترسيخ الروحي والقيمي، لكن التحولات الكبرى التي شملت الحياة الفردية والجماعية تسبقت دور رجال الدين خارج الحلية، إذ لم يعد لنورهم من كبير جدوى يُعتد بها في حياة طغت عليها المادة وغاب عنها البعد الغيبي.

فالكنيسة نفسها تواجه قوى اجتماعية واقتصادية وثقافية نشطة ومصممة على حفر مزيد من الخنادق بين الفرد الغربي والمثل الكنسية، فلا عرو أن تتحول الرياضة نفسيا إلى نوع من الديالة الجماهيرية وأن تغدو ساحاتها مجالا لطفوس

تشبه طقوس العبادة، وكل ذلك يندرج ضمن ثقافة الإزاحة والاستعاضة القيمية وتجاوزها إلى اعتناق بدائل تحل محلها.

وإذا كان الأجنهاد الكنسي⁶ قد أظهر من المرونة التكيفية بحيث رابده يتم على تنازلات تفسر لب تعقيد المسيحية. من قبيل كسر تكليف عزوبة الراهب والرخصة له بالزواج، ومثل تقبل زواج الفحش المثلي، و... غيرها من الخطوات التي تعد تجاوزا فادحا في التغييرات الكنسية القديمة، فالناهت أن مثل هذا التكيف يزيد من مشاعر الاستيثار التي لا تقا ثقافة التطور. تنظر بنا إلى الكنيسة وتقاليدها، الأمر الذي يعمق من المسافة بين المجتمع والمؤسسة الدينية الكنسية، ولن يكون الناتج إلا مزيدا من الحيدة عن قيم الكينوت.

إن تهازل الكنيسة في سياستها مع المقتضيات المدنية المعاصرة سوف يلحق بها أضرارا جسيمة، وأقل ما يمكن أن يصيبها هو تشرذمها، وهو ما بدأت بوشره تظهر للعيان هذه الأيام في بريطانيا عملا على إثر تقصيص لدور الشمامسة بعض رجال الكنيسة homosexual.

إن افتقاد الضوابط يفتح الطريق أمام الشرايع والنزوات، فهو يقضي قيمة الحرمة، وإفشاء الحرمة وضع نزول معه مشاعر تعظيم المثل. وإذا ما افتقد الإنسان وازع التعظيم زابله معاني القداسة، وكل ذلك يتهدد اليوم العقيدة المسيحية، بل إن روح التجاوز التي تميز الشريعة المسيحية (الخمر، عقيدة الاعتراف، التكفير) تجعل من المسيحية عقيدة بلا صرامة، عكس ما هو عليه حال الإسلام.

إن صرامة التعاليم التي يلتزمها المسلم تنتهي بجعله مقيدا في ما يأتي من أفعال ومعتقدات على الدوام، إذ التمسك الشرعي يربي النفس على اليقظة ويرسخ فيها حسن مراقبة الذات، وهو ما يقلل من الخروقات في سيرة المسلم، إذ تصده الموانع عن إقرار الأثام.

ولو اعتبرنا بموقف الإسلام من الخمر مثلا، لرأينا أهمية الجسم التي عالج الإسلام بها مسألة تعاطي هذه المادة، عكس المسيحية، إذ أن عدم حرمة الخمر يجعل الطريق مفتوحا أمام تعاطيها، وهو ما قد يستحلل معه إقرار بغيبة الكبائر.

من هنا كانت نجاعة الدين الإسلامي ثابتة، فهو دين لا يحتجز حياة الفرد في برنامج من الطقوس أو الرياضات والاعتكافات كما تفعل ديانات أخرى. كما

لأنه دين لا يتساهل مع الفرد بحيث يعطيه مساحة من الترخيصات لا يتبين معها الحرام من الحلال . إنما الإسلام دين يتوفر على أهم عوامل تخدم الروح في العشق بطابع الإيمان وتبنيها على النهج القطري السليم، وهذا يفضل البساطة التي تسم شعائره، وبفضل جماعية هذه الشعائر كذلك، فالصلاة والحج والصوم والزكاة كلها أنشطة روحية وثقافية تتم ضمن إطار الجماعية وفي توقيت واحد، وهي شعائر تلازم الحياة بصورة انتظامية لا تتفك عنها، الأمر الذي ينتهي بصك سلوك المسلم ومواجهه على الغالب الذي ارتضاه الإسلام له. فقد امتك الإسلام، بوصفه شعائر ملازمة للحياة، خصوصية تجنيدية، وهي حال لا تخلو من عناء، لكنه عناء مثمر، لأنه يصون النفس ويضعها على استعداد للعمل الصالح، وستركد الإنسانية حتما بعد أن تحرب مزيدا من أحوال الزرع والأهواء إلى تعاليم الإسلام، لأن الرشد الإنساني سيجعل البشرية تتطلب من العقائد ما يصلح حالها وبعيد البيا إنسانيتها.

لقد بدأ النشاط الأيديولوجي الجماهيري في الغرب يسترد حيويته في وقتنا الراهن، وذلك لا يعبر إلا عما يطبع روح الإنسان من شغف بالمثل واستعداد للمناضلة من أجل تجسيدها، فحين ترى الوفود في حركة ما يسمى *mondialiste*-*L'alter* تتلاحق في المواسم وتقيم التجمعات الحاشدة، وتتادي بالعدالة الإنسانية والإخاء، فذلك يعني أن تلك التنظيمات -ومن خلال ما تمارسه من دور دفاعي وتضالي- قد حلت محل مؤسسات اجتماعية وروحية وسياسية تقليدية (مثل الكنيسة والأحزاب وما إليها).. في النهوض بالدور التضالي الإنساني.

وفي ذلك ما يدل على تجدد وعي المجتمعات المتطورة بنورها إزاء الإنسانية.

ومما لا شك فيه أن الروح التي تحرك مثل هذه التنظيمات الإنسانية تتلاقى في الجوهر مع روح الدين، لا سيما الدين الإسلامي، لذا يغدو من الحكمة مد حبل التواصل بين الجمعيات المدنية في البلاد الإسلامية وهذه الحركات، فمن شأن ذلك أن يقوي من جبهة القوى العالمية الداعية إلى الخير.

ومن المفيد أن ينكيف موقف المسلمين من حيث النظرة إلى ما تقوم به الكنيسة في مجال التقريب بين الشعوب والثقافات، ولأيمان، إذ أن المرئود الذي نعتقد أن الإنسانية ستحنيه من وراء أي فلاح يتحقق لأي دين من الديانات السماوية السوية سيكون مفيدا، لأن ذلك سيكون نتصارا عمادى الخير وتعزيز لقيم السلام.

الإسلام يحل بديار الغرب

وعما يشاهد اليوم ظاهرة انتقال الإسلام إلى النينات الغربية وهذا من خلال ما استوطنها من جاليات عربية ومسلمة وفدت على الغرب لتواخ شئى وفى ظروف مختلفة.

لقد يتنا نسمع رجال الفكر الغربى يؤكدون أن المجتمعات الغربية تتعرف اليوم على الإسلام مباشرة بعد أن كانت تعرفت على المسلم فى عيود الاستعمار. ومما لا شك فيه أن طبيعة الإسلام ومبادئه هى التى أعطته هناك فى بيئة الغرب هذه الصبغة المتميزة والمعبرة، فشيعة الصلاة مثلا من أقوى عوامل لحم الجماعة وبراؤها كصف مراض، بضبطه وازع روحى ذاتى، ذلك أن قبل المسلم على المسجد هو سلوك شخصى يجعل من ظاهرة الإقبال على بيوت الله وحضور مواعيد الصلاة، ندوة ينظمها الإسلام بفرائضه وليس بتأثير من بواعث أخرى تمارس على المسلم أو تلزمه ما لا يريد أن يلتزم به.

وكون الصلاة عبادة تتكرر فى اليوم مرات، جعل من الدين الإسلامى عقيدة روحية واجتماعية جماعية، إذ أن تكرار العبادة والقيام بها فى موافيت من النهار معلومة، يضمن للفرد شرط إدامة صلة التلاقى والارتباط مع الجماعة، وهو ما جعل الإسلام أهم العفات التى كفلت إمكانية التوسع والانتشار والتفتح على الأمم- فهو دين عالمى بلا منازع- يضمن لحمة الجماعة ويحكم الروابط بينها، الأمر الذى يحقق للفرد طمانينة الانتماء، إذ تواصله الدائم مع المسجد والجماعة هو أقوى واق له من التوثبات التى تعج بها الحياة.

إن صبغة النظار والتلاحم التى نكفلها الصلاة للمسلمين فى المجتمع الغربى تعد أكبر مستقطب للناس هناك، فالتشاط التعبدي الدائم الذى ينهض به المسجد أن يبرح أن ينكشف للأوروبيين على أنه أهم العلاجات لروحية القارة على إسعاف مرضى النفوس والمحبتين وميزوزي المعنويات.

لقد عدا الفعل التعبدي فى بلاد الغرب مطيرا يلفت الأنظار بسبب ما لحق الدين هناك من هجر، لذا تجتهد الكنيسة اليوم فى خلق المناسبات العامة لتنظيم لقاءات الفداس المفتوح.

بل لقد باتت الفئات والجمعيات المسيحية لا تكف عن تنظيم التظاهرات الثبوتية الحادة حيث يتاح للجوع أن تعارض عن العادات والتقاليد المسيحية بما يحيى قلوبهم.

لقد باتت الكنيسة تلقى العداوة من طرف المنظمات السياسية والدينية في هذا الصدد، فمن تنظيم ما يسمى بالجامعات الصيفية التي تنظم جمعيات المناشدات الثقافية (الموسيقى، الشعر، المسرح، التـ...) وهي جميعاً تظاهرات عمومية باتت محجبات ضد الجموع إليها لما يجدون فيها من أثر تنقيسي.

ومما لا شك فيه أن تادية شعيرة الصلاة، وخاصة صلاة الجمعة ليو مطهر يشد الانتباه وتترك أثره على المدى القريب والبعيد في تلك البنية التي باتت غائب الدين والتظاهرات الروحية يترك نتائجها المدمية عليها.

ومن اللافت أن هناك نوعاً من التقبل بل ومن الحداثة نحو نوع من الديانات الروحية ذات الطابع الاعترافي مثل البيوتية جعلنا نحظى لدى فئات معتبرة من العرب بالاهتمام والتعاطف، إلا أن هناك نقحاً ملموساً على الإسلام، وإذا لم يبلغ بعد الدرجة المتأخرة المرجوة، ذلك لأن القوى المعادية لا تقف تسعد من حملات التشنيع والتشهير ضد الإسلام والمسلمين.

إن قوى اليمين المتطرف والقوى الصهيونية الحاقدة وقدمى الأعداء السوداء في فرنسا وأخطا من النقيات المسلحة عن أصالتها... إن هؤلاء جمعوا يتعاضدون في مهادنة الإسلام والنيل منه، ولا تكف النوازل الغربية المعادية توظفهم وتوسع ليم المجال في بزاجها وتظاهراتها كي يوحىوا انضريات للإسلام، فالخضة المتبعة هي التشنيع ضد الإسلام وبناء الحزاز بين الإنسان العربي والإسلام حتى لا يتم الاحتكاك به، لأن بقاء الفئات الغربية على حثبها بالإسلام يكفل بقاء العرب منعقداً في وجه هذا الدين الذي لا يقاوم.

وبما يسجل هنا ظاهرة تسلل الإسلام إلى الإوساط الغربية بيسر ملموس، فقد اتحدت مثلاً الفائق العسكرية الأمريكية في حرب الخليج الأولى إلى المنزوق العربي محاربة، وحين عادت عادت وأعداء من الجند مسلمون، قد أشيروا إسلامية لمجرد تأثرهم بمن احكموا بيد من الجند الشلحي المسلم.

من هنا لا يخفى من يتنبأ بأن مستقبل الإسلام سيكون في أوروبا والعرب، ذلك لأن الإنسان العربي قد استوفى كثيراً من التوهيلات القمية التي

أتاحتها له التطور المادي، الأمر الذي جعله يغدو على قابلية كبيرة للإفادة من تعاليم الإسلام ومن نظمه الروحية والنفسية.

وإذا كانت الثقافة الصوفية قد طففت تلقى من ينجنب إليها من أبناء الغرب، فذلك لأن الإسلام قد يوفر على مناهج حية تجد فيها الروح حاجاتها على الدوام، لا سيما في عصر نكثرت هزلاته.

فكون الإسلام شريعة يمكن أن تغدو رافدا روحيا مشروعًا يستفيد منه الغرب ويتبناه كعقيدة مؤهلة للحياة ولتجاوز التعقيدات الاجتماعية أمر وارد، وتسريعًا - كمجتمعات مسلمة - لعملية انتشار الإسلام يقتضي منا اصلاح ما بذاتنا من عوج ونقائص واختلالات مدنية وسلوكية.

ومن تصاريف الخالق أن جعل المسلم - أيا كان مستواه - مبعثًا بمسلكه ولسانه وعلاقته ومواطنته على تادية فرائضه، وذلك بعد أهم دعاية تشهر لفائدة الإسلام. فيل يدعي كل مسلم اليوم أنه مؤهل لأن يكون سفيرًا من لدن الخالق يحمل رسالته المحمدية إلى العالمين؟ ما أشقها مسؤولية.

ومن الأسباب والعوامل التي تسهل انتماج العالمين في الإسلام، وجوب العمل بكيفيات مشرة وفعالة على تغيير أحوالنا الاجتماعية والمدنية، وانحاز البرامج الكفيلة بأن تخرجنا من التخلف، فالترقية الاقتصادية والمدنية هي خير دعاية يقوم به المسلمون لصالح الإسلام، أما بقاؤنا دولا متخلفة وعلى هذا المستوى من الانحطاط، فلا يزيد إلا من حال التيبوين التي عليها الإسلام اليوم.

إن ما ينال العقيدة المحمدية من تشويه من قبيل وصمها بأنها عقيدة تشجع الارهاب، يجعل مسؤوليتنا كمسلمين كبيرة في تغيير الصورة والرد على هذا الاتهام المعرض.

وربما نعرّف في هذا المقام أن الثقافة الإسلامية ما زالت في حاجة كبيرة إلى التنقية مما لحقها من شوائب أساعت لجورها السماوي، نتيجة تبنى أوساط جاهلة لها واحتراف هذه الأوساط الفتوى والقيادة الفكرية والروحية للأمة.

ومن المؤكد أن فصول الدول الإسلامية ونظرتها إلى الدين وعدم تبنيتها الخطط التي تجعل منه سباجًا ثقافيًا يفيد ليس فقط في تقوية الأسس الروحية للمجتمعات الإسلامية ولكن أيضًا وسيلة ناجعة لبناء الإنسان المسلم الفاعل. إن هذا التصير مدان، ونتأججه لا تغنا تنكيدتها الشعوب الإسلامية، من هنا وجب الإسراع

بالتكفل بالثقافة الإسلامية وبالشريعة، واعطاؤها المكانة التي تستأهلها حتى تقطع الطريق على القوى المناجزة بدين الله .

ويتوجب في هذا المجال التعجيل بإعادة النظر في التشكيلات والهيكل والمؤسسات الدينية وواجهات التمثيل الإسلامي، بحيث يتولى التنشيط فيها أولو القدرة والكفاءة الحقيقية. إذ بقاء هذه المرافق في يد المعوقين علميا وثقافيا وتخطيها بواقم من الوضع ويلقي بتعبية الضعف والقصور على الدولة، إذ نظر مدانة أمام الراي العام المسلم.

كما ينبغي العمل على خلق الفضاءات الإعلامية والتثقيفية الإسلامية، وربما ستقتضي الضرورة فتح قناة دينية وطنية تتكفل بنشر الثقافة الإسلامية، فمن المؤسف أن نسمع الجزائريين والجزائريبات يرسلون أو يهاتفون المحطات الأجنبية بفتاواهم، وليتها كانت فتاوى تستحق التصدير، الأمر الذي يدل على مدى الفراغ الفادح عندنا في مجال التداول الديني والثقافة الشرعية الإعلامية.

وبالنظر إلى صلتنا العضوية بالغرب لا سيما فرنسا من خلال القرب الجغرافي ووجود جالياتنا بحجمها المعتبر، يتوجب علينا أن نسهم في تغطية الفراغ الروحي الذي تعيشه الأوساط المسلمة هناك. إذ الدولة الجزائرية مطالبة بأن تضاعف من نشاطها التثويري لقائدة جالياتنا في المهجر، وأن تتحمل مسؤولياتها كاملة في مجال تلبية الحاجة الدينية للمسلمين بفرنسا على الأقل، فمن نتائج القصور والتقصير ما بنتا نراه من تقدم دول شقيقة علينا في مجال استقطاب الجاليات المسلمة وإحافيا بركابها، بل لقد رأينا من الدول الشقيقة ما يوسع نشاطها النحسي والبيكلي حتى إلى أقرينا.

إن النشاط الديني الذي تبذله هذه الدول في ما وراء حدودها هو من صميم الفعل الدبلوماسي، ونتائجه ميمعة بالنسبة للإنسان المسلم وخاصة في ميدان توطيد روح السنن العالمي وتفاعل الشعوب، إذا ما تجاوزت النظرة إلى ذلك النشاط مقاصد الاستحواد السياسي المرحلية.

وإذا ما أردنا أن نقف بالدول الغربية في هذا المجال فعليا إن نفعل بعض ما نفعل، فهي على الرغم مما نيا من امكانيات لا تبتدأ في حاجة مطلقا إلى بذل الجهود في مجال نصنير ثقافتنا وقيمنا إلى الخارج من أجل تقريب الشعوب إليها، إلا أننا مع ذلك نراها ترصد الميزانيات وتوفر الطاقات المبنية

وذلك الخيرة والتمرس من أجل توسيع نطاق حضورها الثقافي والديني خارج أوطانها .

إن المجال يتسع للجزائر أكثر من غيرها في أوروبا، بل وحتى في بقية القارات، لا سيما في أفريقيا، كي تتعاطى التمييز الثقافي، وإن الحفر يتسع لها في مجال نشر الشريعة الإسلامية والتثوير الديني، لكن نطل الكيفية التي ينبغي أن توجه بها اليهود والطوائف أمرا علما، لأنه لا يكفي فتح مركز ثقافي أو مركز تعليمي أو إعلامي في جهة ما لتكون النتائج مثمرة ما لم نوفق في إيجاد الهيكل الصالحة، المؤهلة، وليس المتاجرة،

إن الهيكل غير المؤهلة وعديمة الفاعلية وبعد النظر نقول في هذا المجال إلى واجبات نضرب بالدين وثقود السعة وتفر الناس عما نضلوعوا إلى عبثه من القيم والثقافة.

إن إعطاء دور جديد مثلا للملحقات الثقافية على مستوى السفارات الجزائرية في فرنسا وبلاد الغرب وإفريقيا يبدو أمرا واردا، كما أن فتح قناة تبثه وحضارية تبث لأوروبا وإفريقيا باللغات الأجنبية يغدو حاجة لا مندوحة عنها.

إن الدين بات حاجة معرفية وحضارية بالنسبة للإنسان المعاصر، لذا نحثه أن تدرس الأساليب الترويفية المفيدة وأن يعتد منها الأناجج والانتثر تأثيرا. لابد أن تتشارك هيئات وطنية في تنفيذ برامج التثوير، فكثير من الوزارات المعنية بالبحث ينبغي باعتبار الدين معرفة وثقافة وعلم، ورصد تحيوي- والإكثافات والخبرات يحتم خلق اليات تنفيذ مشتركة.

هناك عناصر من أبناء الجالية الإسلامية بدؤوا في تطوير أفعال على الساحة الإعلامية الغربية، وواحيدا وواجب جامعاتنا بالخصوص - ثم هذه الجهات العاملة، لأن خصائصهم يمكن أن يكون نواة تخصص - علمي وحيادي عصري مؤهل لمحاوره الغرب، من هنا علينا أن نفتح قنوات في وحيهم، وإن يمكنهم من الإحتكاك بطلاب العلوم الشرعية عتتنا، وعلينا أن نشجعهم على المساهمة في مشاريع بحث وفي تأسيس مخابر بجامعاتنا، ترقية تفكير الإسلامي في مرحلة العولمة وحوار الديانات.

نقد أن الدولتان لأن تتغير نظرة لمشروع الجزائر التي ليس إسلامي - لا نفس أن الدولة الجزائرية ورثت تقاليد الدولة الكولونيالية في سبيل الأمور، ولما كانت تقاليد تلك الدولة مبنية على الاستخفاف بالمفومات وفي مقدمتها الدين

والعربية، واحتقار الإنسان الأهلي، فقد استمر هذا الوضع ذاته بعد الاستقلال رغم المحاولات السطحية التي حاول المشرع أن يكيف بها المدونات، لأن القوى التي أسست لسير الدولة الجزائرية كانت تشكل من فئات تربت في كنف الإدارة الفرنسية ونطعت بسلوكات الأجنبية التي هي سلوكات عذائية، فضلا عن كون العادة التشريعية نفسها هي نقل محض لقوانين الأخر واستنساخ لها.

قد استمر هذا الوضع السئيين بالإسلام والمقومات، بل وتفاقم، وما زال ينتظر من الدولة الجزائرية أن تبذل الكثير من الجهد السئودي في مجال تصليح نفسها من أجل أن تتجاوز آثار ذلك الواقع الانتبائي الذي ما زالت الدولة من خلال هياكلها وسطها تنظر به إلى الدين والمقومات.

ماذا نفسر الإعلان اليوم⁸ مثلا في الصحافة عن التخصير تشروع في إجراء عينات مفايسة نسبة الكحول لدى السائقين؟ أليس هذا إجراء غفء تشروع عن الأخر؟ ألا يتضمن مثل هذا التدبير الإقرار بحطية الخمر؟

إن هذه التدوير قد أساءت للتدبير تنفيذ هذا القرار، فالرؤية التكيفية هنا قد تخفف من مشاعر المرارة التي يستشعرها المواطن المسلم حين يرى هذا الانتهاك لسافر يصدر عن إدارة تزعم أنها ترفع مصالح أمة مسلمة.

وما أكثر التواهد التي يمكن سوقها في هذا الصدد لإبراز مدى اليهودة السخيفة التي تفصل رؤية الطبقات المتنفذة عن ثقافتنا الروحية وعن قيم وطننا ومقومات أصالتنا.

إن من كان عاجزا عن أن يتكلم بتاريخه ووطنه، وعاجزا عن أن يفقه مرامي سن شعبي ببقية إليه محدثة، وغير قادر على أن يورث حكمة أو قولاً سائرا في سياق خطابي ما، لا يمكنه أن يزعم بأنه على تواصل وجدائي كامل مع ما يسري في ضمير الأمة، ولن يتوقع عاقب منه أن يوفق في نفس و تحفظ للأمة.

هوامش البحث:

1 غرنا مثلاً.

2 - من الواضح أن الإعلام الغربي أصبح يتكيف في تعامله مع أخضر العنف لانس التي تستخدم زعياده، وذلك تطبيقاً لتوقع ، وصرفاً لأثره بكيفية لا تبدي القبلية لالتبوير سيكولوجي التي ياتت تميز المجتمعات العربية. لقد رأينا كيف عصفت أحداث 11 مارس بوزنار ، لأن العنف بات يكتب من قوة التعول بالرأي العام ما يغير به من أوضاع الخارطة السياسية.

والأمر يعود إلى مستوى الضمن الذي بلغه الغرب، إذ كلما ازداد الرخاء ، كلما فقد الإنسان خصوصيات التماسك.

3 - حمل هذه التظاهرات الجماعية والتعسكات المفتوحة تعد من الأحواء التي تستوي الشباب، وهو ما نراه يحدث في تظاهرات الصخب لموسيقى التي ينظمها الشباب في الخلاء ، وبمخالفة القانون احداً، ولذلك تعمل الكنيسة على أن تتوسل إلى الدعوة بتخليد ما يشبه هذه الغضاءات والنيكورات.

4 - من آخر الندوات الإعلامية التي بنتها محطة 2 الفرنسية 30-03-2004، و دارت حول مسألة الدين ، أكد بعض ممثلي الكنيسة ظهور نزعة روحية اجتماعية متزايدة تفتش عن الإيمان ، لكنه من جهة أخرى قر بأن الكنيسة لم تعد إلى الآن قادرة تستقطب الأوساط العريضة إلى حقل الروحانيات.

5 - كانت حبة المسيح نفسياً تجسداً لتلك الشعارات ، إذ لم يتزوج، وكذلك سبر رجال الكنيسة المتميزة بالعزوبة والرهينة. فالنشبية بواسطة جسد المرأة -الرجل أيضاً- بعد معارضة واضحة تقيم الانجيل. لاسيما وأن الجسد في الانجيل هو عنوان القامة وسائط الرمزية لتجسيدها.

6 - لا يزال الأمر موقفاً على قرارات قرنية واجتهادات محصورة في قرية ، إلا أن أول ميل قطر كما يقال.

7 - من تلك مثلاً النشاط الذي يقوم به المدعو رشيد قاسي، وأعضاء جمعية Ni pute ni soumise، وعناصر جزائرية برزت في أوساط الحزب الاشتراكي الفرنسي.. وكل منبه يعرف أن الطعن في الإسلام هو أفضل نشاط نصلي يضمن له البروز والقبول. إذ لم يجد هؤلاء المخترقون إلا وسيلة النجاة ضد الإسلام فيبحوه، ولن يزيد ذلك الحد منبه على الإسلام إلا توسعاً . فالفرنسيون الأحرار يعرفون أن سلامة الحونة لا تعني شيئاً إلا كان بنت السوء رفيع وبيد وخيزاً.

8 -Le Quotidien d'Oran 30-03-2004

الأخلاق الدينية في زمن العولمة والتكنولوجيا الغربية

الدكتور محمد بوزغيب
جامعة الزيتونة. تونس

جاءت سائر الأديان لتقديم الغذاء للجزء المكمل للجسد - الغذاء الروحي - فركزت على البعد الأخلاقي والقيمي، وأولت المثل اهتماما واضحا، حتى ظهر خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وأثبت أنه يعث لبيتم مكارم الأخلاق، وركز في سنته القولية والفعلية على القيم الأخلاقية. وأثبت التاريخ أنه كلما قنست أمة الأخلاق كلما عمزت حضارتها، وكلما ساءت أخلاق الشعوب كلما لنت إلى الزوال، والبولر، والاندثار، ولنا في الحضارة الرومانية قديما، وفي المعسكر الشيوعي حديثا البرهان الساطع على قيمة الأخلاق في تعمير الحضارات وتطويرها، أو سحقها وتدميرها. وتقدم العقل البشري، وبلغ الأفاق، واكتشف الأنغاز وأحدث صيحات تقنية مذهلة في سنى الميادين، وتطور المستوى المعيشي، والمعرفي بشكل مدهش في المجال المادي، ولكن مع حلول القرن الجديد يبرز منظرون جدد. فهل أولوا الأخلاق والقيم عناية خاصة؟ هل أترجوها في برامج مخططاتهم في زمن العولمة والتقدم التكنولوجي؟ وما هو دور المسلمين في هذا العالم المتغير؟

فلسفة الأخلاق:

لم علم الأخلاق هو مجموعة من المبادئ المعيارية التي ينبغي أن يجزي السلوك البشري على مقتضاها، والغاية منه صون الإنسان عن الخطايا في سلوكه، بحيث يكون مستقيما في قصده وفعله وعرضه، بعيدا عن الهوى والتقليد الأعمى.

فعلم الأخلاق يتوخى إصلاح الفرد، والجماعة بملازمة الصراط المستقيم في السلوك، والغاية منه وجود مجتمع يسود فيه العدل، والأمن والتعاون على صيانة الحياة من الفساد والمظالم، ومن كل ما يشقيها، ويرهقها، والسير بها إلى

الأكمل، والأفضل، إلا أن هذه الأطروحة، تجد من يناهضها عند تفيف من فلاسفة الأخلاق الذين يقولون: "لا أصول وبدور في طبيعة البشر للأخلاق، ولا وحى نزل فيها على الإطلاق إلا عند الذين استوا به وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، وعليه فإية عبارة أخلاقية مثل الوفاء والإحسان إن هي إلا تعبير عما في نفس قائلها من شعور ذاتي تسرب إليه من عادات قومه وتقاليده بينته⁽¹⁾."

ومن نتائج أطروحتهم ما ورد في مجلة عالم الفكر الكويتية: "أن جريحا من البيض في الولايات المتحدة احتاج إلى عملية نقل الدم، ولم تتفق فصيلة دمه إلا مع فصيلة دم ملون، وقد تبرع هذا المسكين إلى الجريح بنمسه لوجه الله، والإنسانية، ولكن الممرضة أخذت الزجاجاة التي فيها دم الملون وكسرتها وتركت الجريح يموت كي لا يختلط دم العيب بنم السادات⁽²⁾؟"

فهل هذه إنسانية أو وحشية؟ وهل قتل الأولاد من إملاق دليل على ضغط الفقر وكفره، أو على قسوة الأمومة والأبوة؟ وهل قانون القتل والتهيب، وإباحته من وحى الله، والضمير، أو من الخطأ، والجهل بالمقاييس، والمعايير؟

هذا في القرن المنقضي، أما في القرن الجديد، قرن العولمة، ووسائل الاتصال الحديثة، وعصر الثقافة المنطورة، فإن المنظومة المادية طغت على القيم الروحية، التطور التقني الحديث:

توصل العلم الحديث في مجال علم الحياة إلى تطورات تقنية مذهلة منها:

- انتمكن من حل الشفرة الوراثية للجينوم البشري، فهو اكتشاف جديد لم يكن متوفرا لدى العلماء القداماء، ويعتبر من أخطر الاكتشافات في تاريخ البشرية.

- التطور الهائل في فترة العلماء على استنساخ عند كثير من الحيوانات انطلاقا من النعجة تولى، ووصولاً إلى استنساخ الطفلة حواء في نهاية عام 2002 حسب إهداء الطالبة الرائية التي نشرت الخبر، في حين شككت المختبرات العالمية في صحة هذا الإدعاء.

- تمكن العلماء من الحصول على ما يسمى خلايا المنشأ، وهي الخلايا التي ليس لها القدرة على إعطاء إنسان كامل، وتمتاز هذه الخلايا بالقدرة على إعطاء أعضاء الإنسان كافة على حدة، ويكون ذلك من خلال التحكم في برنامج عمل الجينات أثناء زرعها في أنبوب الاختبار، وبضاد إلى ذلك إمكان استخدام هذه الخلايا بشكل سهل واسع في عمليات الاستنساخ⁽³⁾.

الفوائد المبتغاة من عمليات الاستنساخ

حصر العلماء عدة فوائد من عمليات الاستنساخ منها:

- القيام باستنساخ الحيوانات التي يُخشى من انقراضها، أو التي كانت قد انقرضت.

- القيام باستنساخ الحيوانات أو النباتات واستخدامها في الغذاء، وكذلك لإنتاج الأدوية المختلفة في حليب تلك الحيوانات وما لهذا الأمر من أهمية على المستوى الاقتصادي.

- الاستنساخ العلاجي، ويتم باستنساخ بعض الأعضاء التي يمكن أن تستخدم في الطب، وينخل في هذا المجال إمكان تعديل أو إصلاح الخلل الوراثي في خلية الشخص المصاب بمرض ما ومن ثم يجري استنساخها لكي يتخلص الإنسان من مرضه.

المخاطر التي يمكن توقعها من عمليات الاستنساخ:

من الأخطار المتوقعة من عمليات الاستنساخ:

- الأخطار الصحية غير المعروفة على الإنسان المستنسخ، واحتمال احتوائه على الطفرات الوراثية الضارة لصحته، ولمعرفة هذا النوع من الأخطار يجب الاعتبار من التجارب التي أجريت على الحيوانات ومنها: النعجة "كوللي" ويخاف العلماء أن يتم بطريقة الخطأ استنساخ نوع من البشر يحملون صفات وراثية غريبة، ويتساءل البعض عن إمكان أن نستنسخ ما يسمى بالكائنات غير السوية أو الأُمسِيخ "les monstres".

- الأخطار النفسية التي يمكن أن تلحق بالمستنسخ، والتي لا نعرفها إلى الآن فكل تجارب الاستنساخ أجريت لدى الحيوانات، ولا يمكن أن نكتشف الآثار النفسية على الحيوان المستنسخ، ولذلك فإن هذا المجال سيقى مُظلمًا لأن تفسير النتائج المنوفرة من التجارب على الحيوانات لن تزيد في معارفنا في هذا المجال، ونُخيل أن لك زوجة وتم استنساخها، وبعد سنة بدأت ترى نسخة زوجتك تكبر وتكبر، وعندما ستكون أنت وزوجتك "غير المستنسخة" في سن الخمسين فإن أخت زوجتك "المستنسخة" ستكون في سن العشرين وهذا يتساءل البعض عن نوع الشعور أو العاطفة التي ستكون أنت عليها حين تنظر إليها، فهذه الشابة ما هي إلا زوجتك

عندما كانت في العشرين من عمرها، فما هو شعورك وأنت تراها ستتزوج من غيرك؟

-هناك خوف كذلك من أن تستخدم تقنيات الاستنساخ في أعمال أخرى منها تحسين النسل وما يترتب على ذلك من أخطار غير معروفة على المستقبل البشري⁽⁴⁾.

الحكم الشرعي في الاستنساخ

ناقش علماء الإسلام الرأي الشرعي حول إمكان تطبيق تقنيات الاستنساخ على الإنسان، وقدموا عدة توصيات⁽⁵⁾ منها توصيات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية التي جاء فيها:

تظهر أن تلك القضية تكنفها محاذير فادحة إن دخلت حيز التطبيق من أبرزها العدوان على ذاتية الفرد وخصوصيته، وتميزه من بين طائفة من أشباهه، وكذلك خلخلة الهيكل الاجتماعي المستقر، والعصف بأسس القربان والأساب وصلات الأرحام، والهاكل الأسرية المتعارف عليها على مدى التاريخ الإنساني.

وكما اعتمدها الشريعة الإسلامية، وسائر الأديان أساسا للعلاق بين الأفراد والعائلات، والمجتمع كله بما في ذلك من انعكاسات على أحكام القربان، والزواج والموارث، والقانون المدني، والجنائي، وغيرها، وسقت في هذا الباب فراضيات واحتمالات كثيرة.

وعلى الرغم من ذلك الرأي فإن المنظمة قد أكدت أن الإسلام لا يحجر على حرية البحث العلمي ولا يقيد بها، إذ يعدها من تكاليف الشريعة.

وتعتبر المنظمة أن الإسلام يقضي أن لا يترك الباب مشرعا من دون ضوابط تحول دون دخول تطبيقات نتائج البحث العلمي إلى الساحة العامة بغير أن تمر على مصفاة الشريعة لتمييز الحلال وتحجز الحرام، بحيث يسمح بتنفيذ شيء لمجرد أنه قابل للتنفيذ، بل لابد أن يكون خاليا من الضرر وغير مخالف للشرع.

كما ورد في توصيات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، فيما يتعلق بالرأي الإسلامي حول موضوع الاستنساخ ما يلي:

1- تحريم كل الحالات التي يقدم فيها طرف ثالث على العلاقات الزوجية، سواء أكان رحما أو بويضة أم حيوانا منويا أم خلية جسدية للاستنساخ.

2- منع الاستسناخ البشري العادي (نقل نواة جسدية ليويضة منزوعة النواة) فإن تظهر في المستقبل حالات استثنائية، تعرض لبيان حكمها الشرعي من جهة الجواز أو المنع.

3- مناقشة الدول سن التشريعات القانونية اللازمة لغلاق الأبواب المباشرة وغير المباشرة أمام الجهات الأجنبية، والمؤسسات البحثية والخبراء الأجانب للحيلولة دون جعل البلاد الإسلامية ميدانا لتجارة الاستسناخ البشري، والممارسات غير الشرعية في مجال الإخصاب البشري والترويح له.

4- الترويح إلى تشكيل لجان متخصصة في مجال الأخلاقيات الحيائية لاعتماد بروتوكولات الأبحاث في الدول الإسلامية، وإعداد وثيقة عن حقوق الجنين، تمهيدا لإصدار قانون لحقوق الجنين.

تثبت التوصية الأخيرة أن أعضاء المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية يصرون على الجانب الأخلاقي توازيا مع المستجدات العلمية، لأن معظم الاكتشافات العلمية تنطوي على جوانب سلبية ضارة بالإضافة إلى الجوانب الإيجابية النافعة وإن أهمية الاكتشاف تتبع من قدرة الإنسان على استثمار الجوانب الإيجابية، وعلى تلاقي الجوانب السلبية، ولعل ذلك يكون بفضل القوانين الصارمة التي تعاقب من يسيء استخدام الاكتشاف العلمي على نحو يضر بالفرد أو بالمجتمع.

ولكن تبقى مساحة كبيرة لضبابية بعض القوانين، أضف إلى ذلك ما يسمى الحرية الشخصية التي لا نجد لها حدودا، خاصة في عصرنا الراهن.

فيالإضافة إلى المخاطر التي قد تنجم عن الاستسناخ العنثائي ما هي

الأضرار الناجمة عن معرفة الجنينوم البشري؟

الأضرار التي ستنتج عن معرفة الجنينوم البشري:

قدم العلماء عدة تساؤلات في قراءة الجنينوم البشري وحصرها مضارها

على عدة أصعدة:

على الصعيد الاجتماعي:

- هل في صالح الإنسان أن يعلم عن نفسه أمورا نعتبرها الآن في حوزة

المستقبل؟ وما شعوره إذا علم أنه سيموت في حوالي سن الأربعين، أو أنه

سيصاب بمرض شلل العضلات الذي يظهر في حوالي الخمسين؟ إن هذه

المسألة شبيهة بمن يرى الهلال في أول الشهر فيقول بأنه سيكون نيرا بعد أسبوعين، لأن قراءة الجين أصبحت حاضرا معلوما ينبي بقاءم محتوم، فما مذاق الحياة إن علم المرء ذلك وخاض حياته بسرّقب مصيره المعلوم، ووقوع البلاء خير من انتظاره⁽⁶⁾.

- إذا قدر أن يكون لكل إنسان جينومه الخاص، فإن قراءة هذا الجينوم قد تؤخر في عمله الوظيفي، وخاصة إذا كشفت القراءة عن قابلية الشخص للإصابة بمرض قد يعيقه في مراحل متأخرة من حياته، كمرض السرطان وأمراض القلب، فإن معرفة الجينوم لشخص ما، قد يشكل له عائقا في حياته خاصة، كأن يرفض تزويج شخص تحمل مورثاته إمكان حصول مرض في مستقبل حياته، أو قد تؤدي قراءة الجينوم إلى طلق من أحد الطرفين عندما يطلع على جينومه.

على الصعيد النفسي:

من المرجح أن الشخص حين يعرف أسرار مورثاته، سيعاني مرارة نفسية مستمرة قد لا تحمد عقابها، إذ ستؤثر بالضرورة على جميع جوانب حياته وقد تتفاقم لزماته النفسية الأمر الذي يتعذر حصر نتائجه على نحو يقيني وتتوقع من هذا الشخص الإحرام أو الانتحار ولا سيما في ظل هيمنة القيم المادية وتعداد القيم الروحية إلى درجة كبيرة.

على الصعيد العملي:

قد ترفض شركات التأمين على الصحة تغطية مريض بخدماتها لأنها تعده زيوئا خاسرا، حيث تستطيع الشركة الإطلاع على الشفرة الوراثية لصاحب الطلب، حتى تتأكد من عدم وجود أي عيب وراثي، وسوف ترفض الطلب حين تتأكد أن المؤمن قد يصاب بمرض في المستقبل وهذا يهدف السعي للربح الأكيد.

وقد بدأت الدول الغربية بإصدار التشريعات الضرورية لعدم السماح لشركات التأمين بالإطلاع على المعلومات الوراثية، أما بالنسبة إلى مجتمعاتنا العربية، فإن فكرة التأمين على الحياة لم تنتشر بشكل واسع بعد، وقد تضغط قوانين العولمة الجديدة على صناعات القرار لإدخالها إلى مجتمعاتنا تحت أي مسمى آخر. حيث أن هذه الشركات التولية متعددة الجنسيات سوف تحاول وبكل الوسائل غزو السوق العربية والإسلامية لأن هدفها تحقيق الربح المضمون.

قد يتقدم مريض لعمل وظيفي في مؤسسة ما، فيقع رفضه وتفضيل غيره عليه، وما يترتب على ذلك من مشاكل، فمؤسسات التوظيف سوف تحاول استخدام من يملك الجينات القوية، واستبعاد من ثبت عند قراءة شفرته الوراثية أنه سيكون عرضة لمرض ما.

على الصعيد القضائي:

- قد تلجأ المحاكم الى طلب تحليل وراثي للمتهم حتى يُثبت أو ينفي الإدعاء، ويتم ذلك بالتحليل الوراثي لبعض الأثار التي يعثر عليها رجال الأمن ومقارنتها مع حروف الشفرة الوراثية للمتهم في القضية.
- قد تلجأ بنوك الاقتراض إلى طلب التحليل الوراثي لصاحب القرض للتأكد من حالته الصحية قبل أن تمنحه القرض.

على الصعيد العائلي:

- قد تلجأ بعض العائلات إلى تبني بعض الأطفال لأسباب كثيرة، وحين ذلك قد يحاول بعضهم الإطلاع على مورثات الطفل بعد قراءة جينومه، وسيتم قبول الطفل فقط إذا كانت نتيجة الفحص قد أظهرت أن الطفل سليم من الأمراض، ويتمتع بمورثات يمكن وصفها بأنها عالية الجودة.
- في مجال التكاثر البشري، ستتيح قراءة الجينوم معرفة عاهات الجينوم الحالية، ومعرفة أقاته التي تنتظره في مستقبله القريب أو البعيد، وستزيد بذلك حالات الإجهاض حتى ولو كانت العلة هينة.
- ماذا لو رغب الوالدان في طفل يحمل سمة معينة مثل طول القامة، أو لون البشرة، وإذا انتشر ذلك، قيل يؤدي إلى تغير المقاييس الحيوية سوية في المجتمع، بحيث تصبح الأقلية غير طويلة القامة مثلا خارج النطاق السوي؟ وهل في صالح المجتمع أن ينجب أطفاله حسب المطلوب لا حسب المقسوم، وأن تكون سماتهم صناعية لا طبيعية، أفلا يُزري ذلك ابن بهذه المواليد، فكأنها مصنوعات تحضر عمولة وحسب المواصفات، وربما من الكatalogue.

على الصعيد الشخصي:

ما عدى إمكان صيانة المعلومات الجينية، وهي من خصوصيات الشخص الداخلية في نطاق حفظ سر المهنة، وهي مسجلة على قرص الكمبيوتر تتناولها

أيادي غير طيبة، ويسطوا عليها المتطفلون من الناس أو الهيئات أو الشركات أو الحكومات وهو تجسس لا يجوز؟

- فإذا تسربت هذه المعلومات، فهل يقضي ذلك إلى دفع هؤلاء الناس بأفئتهم، ووسمهم بعلاتهم حتى ولو كانت مجرد احتمالات قد لا تجيء أبدا.

- وإذا أظهر الفحص أن هناك لفة من الآفات التي تسري في العائلات وأريد التحقق من وجودها، أو عدم وجودها في الأقارب، فهل يعد ذلك مسوغا لقتل سر هذا الشخص إلى أقاربه لفحصهم، وهل تسمح الأخلاقيات الطبية بإبلاغهم بذلك؟

قد يفضلون أن لا تفتح عليهم هذه الجبهة، ويختارون أن تسير حياتهم في مسارها العادي، الذي قسمه الله دون أن يضيقوا عليها هما جديدا.

على صعيد الاستقرار العلمي:

لقد بدأ الحديث من الآن عن الجينات السلوكية، قال باحثون: 'هناك جينا ينفع لإدمان الخمر، وإن هناك جينا للانحراف الجنسي التواطي، وهي مزاعم لم تثبت إلى الآن، ولكن إذا ثبتت، فهل نصلح شافعا لأصحابها ينفع عنهم اللوم أو التجريم.

- ويمتد الحديث كذلك إلى تحسين سلالة البشر، بزرع جينات سليم مرغوب فيها، فيزرع في الجبان جين الشجاعة وفي العنيف جين الوداعة، وفي المرأة جين العظمة وفي الرجل جين النعومة والرفقة وهكذا...

ويعتبر العلماء ذلك من قبيل الاستقراء العلمي لا الواقع العملي، ولو جاء فيو منزلق خطير، إذ يكون العلم قد جاوز التحكم في الطبيعة إلى التحكم في الإنسان، وأساس التفرّد الإنساني هو أنه حر الاختيار، وهو لهذا مسؤول عما يختار، وأي عبث بشخصية الإنسان يغير من أهليته للمسؤولية الفردية هو إهدار للإنسانية ذاتها، ولا يجيزه الإسلام بأي حال من الأحوال⁽¹⁷⁾.

يتبين من هذه الأمور السابق ذكرها، أن معرفة أحرف الجينوم لشخص ما قد تؤدي إلى أن يطبق عليه ما يسمى بالتسييد الجيني، وهكذا فكما نرى أن التطور العلمي قد يساهم من بعيد أو قريب في تعقيد بعض المشاكل الإنسانية فإن المجتمع الإنساني يجابه تحديات واسعة النطاق خاصة فيما يتعلق بقدرته على تفعيل الجوانب السلبية والإيجابية التي تنصف بها معظم الاكتشافات العلمية.

وفي مجال اكتشاف الجينوم البشري وتطبيقاتها، يجب على المجتمع أن يعرف كيف يستفيد من التطبيقات الطبية الواسعة في الجانب الطبي لتحسين الوضع الصحي للمجتمع، وأن يعرف كيف يتجاوز كل الأضرار التي قد يصاب بها المجتمع جراء هذه الاكتشافات⁽⁸⁾.

التلقيح الصناعي وأخلاقيته:

أباح فقهاء الإسلام التلقيح الصناعي الخارجي ما لم يخالف النصوص الشرعية وقواعدها العامة، وما لم يؤدي إلى اضطراب وفوضى في الأسباب، بالإضافة إلى ما يؤديه من مظالم كبيرة.

ومن الأسباب المعقولة لدى الفقهاء كون الحيوانات المنوية للزوج غير نشيطة، أو غير كافية للتلقيح طبيعياً، أو صعوبة انتقالها عند المرأة، أو الضعف الجنسي أو وجود تشوهات في مهبل المرأة⁽³⁾.

أما المحاذير المرفوضة شرعاً والتي تتبعها الدول الغربية دون نظر إلى القيم الأخلاقية فهي أكثر من أن تحصى، ومن ذلك:

- حقن المرأة من غير زوجها وهذا يؤدي إلى اختلاط الأنساب.
- ولادة أطفال لا يعرفون آباءهم لأن مانح المنى مجهولاً، وهذا يؤدي إلى فوضى عارمة في الأنساب.
- أحييت نساء الغرب نكاح الاستبضاع الذي كان مشهوراً في الجاهلية فتبحث بعض النساء عن منى رجال عباقرة أو أنكباء...
- تلجأ بعض النساء إلى المتاجرة بأجنتهن بحيث تحمّل وتبيع جنينها لمن يدفع لها أكثر.
- يتم تلقيح بعض النساء بماء زوجها بعد وفاته، وذلك حرصاً منها على اكتساب الإرث ويتم ذلك من خلال بنوك المنى المنتشرة في الغرب.
- يتم تلقيح عدة نساء بماء رجل واحد، بحيث يتحول النسوة إلى وضع يشبه الأبقار.
- المتاجرة بالأرحام، واستعمال الرحم كحضنة للمواليد.
- انتشار الأمراض الوراثية التي يحملها الرجل ونقلها إلى الأجنة مما يسبب ولادة أطفال مشوهين⁽¹⁰⁾.

الحاجة إلى هيئة إسلامية للأخلاقيات:

في ظل الثورة التكنولوجية التي تجتاح العالم، وبعد التطور الهائل الذي يمضي في وتيرة غير مسبوقة في مجال المعلومات، والاتصال، وتطور علوم الإلكترونيات، والجيئات، وما يرتبط بذلك من أفكار وعلاقات، أصبحت هناك معادلة جديدة للتقدم تعتمد في الأساس على أخلاقيات القوى البشرية، فهي الفاصل بين التقدم والتخلف في عالم اليوم.

لهذا السبب رأت الإيبسسكو تقديم مشروع وثيقة لأخلاقيات العلوم، إيماناً منها بأن الأخلاقيات هي التي ستدفع عجلة العلم والتكنولوجيا إلى خير الإنسانية، وستدفع عجلة الدين إلى سبيل الهدى والرشاد استناداً على مرجعية إسلامية مقصدها كفالة مصالح الناس في معاشهم ومعادهم، واعتنت الشريعة الإسلامية بالعلم وأحاطته باطار من الأخلاق وتقوى الله، لكي لا ينتهي إلى ما يضر الإنسان وبسوء إليه. وهذا ما دفع الإيبسسكو إلى إعداد مشروع وثيقة الأخلاقيات في الصيف المنقضي.

مشروع وثيقة الهيئة الإسلامية لأخلاقيات العلوم والثقافة:

يضم المشروع أربعة فصول، سأكتفي بإيراد الفصلين الأولين، أما الفصل الثالث فهو يضم طريقة تشكيل الهيئة، ويخص الفصل الرابع طريقة عملها⁽¹⁵⁾.

أهمية إنشاء الهيئة الإسلامية للأخلاقيات في مجال العلوم والثقافة:

نظراً إلى التقدم الهائل والسريع الذي حدث، ويحدث في مختلف العلوم، والتطور التقني المتعاظم الذي اتسمت به البحوث التطويرية في السنين الأخيرة، والإمكانات المالية الضخمة التي تستثمر في مجالات البحوث، والمصالح المشتركة للعلماء، والمؤسسات البحثية، والاقتصادية في الاستثمار الأمثل لهذا التقدم العلمي، فقد أصبح لزاماً أن يكون هناك منظور أخلاقي، وتشريعات قانونية تنظم وتحكم مثل هذا التوجه.

ونظراً لتنوع هذه التشريعات في مختلف البلاد فقد أصبحت الحاجة ماسة لمفهوم علمي للضوابط والأخلاقيات التي تنظم مثل هذه الأمور في البلاد المختلفة مع الأخذ في الاعتبار الخلفيات الدينية والثقافية، والاجتماعية لهذه البلاد، وأنشئ في العالم الغربي العديد من المؤسسات الأخلاقية، في مختلف العلوم، وعقدت العديد من المؤتمرات العلمية، وصدر كم هائل من الوثائق الأخلاقية التي تنظم البحوث

والممارسات في العالم، وقليل منها في العالم الإسلامي، عندما روج المغرضون أن العالم الإسلامي لا يعطي أهمية للضوابط والأخلاقيات، ظنا منهم بأن هذا ليس من تعاليم الشريعة الإسلامية العراء. ولم يعلم من جهل الإسلام أن مصادر الشريعة الإسلامية الأولى وهي القرآن الكريم والسنة النبوية العراء قد نصت وشجعت بل وأمرت، منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام على اتباع القواعد الأخلاقية الأربعة التي يتبناها الغرب في الثلاثين عاما الأخيرة، وهي احترام حرية الفرد والعدالة وعمل الخير وعدم فعل الشر.

لقد كانت هناك محاولات عديدة في بعض البلاد الإسلامية لعقد المؤتمرات الدولية التي تناقش المشاكل الأخلاقية، وخصوصا في العلوم الطبية وغيرها والبحوث والإحصاب الطبي المساعد وخلافه، كما كان هناك حوار جاد في بعض البلاد الإسلامية، لإنشاء لجان الأخلاقيات لمناقشة المشاكل الشائكة أخلاقيا ومراجعة البحوث من النواحي الأخلاقية قبل إقرارها كما كانت هناك بعض المحاولات الفاشحة لإدخال ضوابط الأخلاقيات لكي تدرس لطلبة الجامعات في بعض البلاد الإسلامية وتلك بعض الأمثلة وليس كلها لما تم في العالم الإسلامي. ولقد ان الأوان لكي تتضافر جهود دول العالم الإسلامي في هذا المجال الحيوي الهام، تحت مظلة هيئة دولية إسلامية دولية واحدة، مثل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - لكي تتسق جهودها من خلال الهيئة الإسلامية للأخلاقيات، التي يترجى أن تمثل صوتا هادئا، ومرشدا لدول العالم الإسلامي، ويكون مسموعا ومؤثرا في سائر أنحاء العالم يعرض وجهة نظر الإسلام في هذا المجال الحيوي الهام.

أهداف الهيئة الإسلامية للأخلاقيات في مجال العلوم والثقافة:

ستتعرض الهيئة الإسلامية للأخلاقيات في مجال العلوم والثقافة كل التحديات التي تطرحها العلوم والتطورات الثقافية أمام تحقيق رفاهية المجتمعات الإسلامية وصون كرامتها. كما ستزود الهيئة الإسلامية العلماء والعموم بالخطوط التوجيهية الضرورية بخصوص الجوانب الأخلاقية من منظور الشريعة الإسلامية بما يضمن احترام المبادئ والقيم الإسلامية. وحيث أن التقدم التكنولوجي يتطوّر بسرعة فائقة فمن الضروري دراسة تواجبه الأخلاقية بسرعة مماثلة، وإلا حدثت فجوة كبرى بين التطورات العلمية والضوابط الأخلاقية التي تحكم هذه التطورات، كما يتعين

أن تكون ديناميكية العمل في هذه الهيئة سريعة ومتطورة. ويمكن إيجاز أهداف الهيئة الإسلامية للأخلاقيات فيما يلي:

- 1- بلورة رأي عام في بعض المواضيع الهامة، والحساسة من الناحية الأخلاقية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية في المجتمع الإسلامي.
- 2- فحص ودراسة بعناية فائقة الأخطار الناجمة عن التقدم التكنولوجي والعلمي من أجل الحفاظ على هوية المجتمعات الإسلامية وحمائيتها والمنافسة في حوار لهذه المعطيات لإدراك المخاطر الناجمة عن هذه الممارسات، وذلك لتوفير الخطوط العريضة للكيانات العلمية ولأجل تبصير عموم المجتمع بهذه المخاطر.
- 3- المساهمة في التنسيق وتبادل الآراء بين لجان الأخلاقيات العلمية والتكنولوجية الوطنية فيما يخص القضايا الإقليمية الإسلامية، وتجاه القضايا التي تتناولها اللجان الدولية.

4- إحدك وتكوين رأي إسلامي موحد بشأن القضايا الأخلاقية العلمية والتكنولوجية، من واقع الدراسات والبحوث، والاستقصاءات التي تجريها اللجان والمؤسسات المعنية بالدول الإسلامية.

5- دراسة قضايا الممارسات الطبية والبيولوجية وبخاصة في مجالات الإخصاب الاصطناعي والاستنساخ والقضايا البيئية وفي مجال المعلوماتية، على ضوء الضوابط الأخلاقية والعقائدية للمجتمعات الإسلامية، والإنسانية عموماً، والتعريف بالأخطار التي قد تنجم عن الممارسات والبحوث والدراسات التي يترتب عنها العبث بالخلايا التناسلية الجرثومية أو الأجنة البشرية، ونقل الأعضاء والأسلحة البشرية.

آليات العمل:

- إنشاء جهاز معلومات لتجميع ما تم إعداده وما قد نشر في علم الأخلاقيات على مستوى العالم وفي العالم الإسلامي خاصة.
- إعداد قائمة بالموضوعات التي يجب أن تدرس نواحيها الأخلاقية إسلامياً في الوقت الحاضر.
- تشكيل لجان متخصصة لدراسة النواحي الأخلاقية لهذه الموضوعات التي لم تدرس من قبل أو درست ووجدت فيها متغيرات جعلت الحاجة ماسة لإعادة دراستها أخلاقياً.

- عقد المؤتمرات الدولية لمناقشة قضايا الأخلاقيات المعاصرة التي تمت دراستها من قبل.

- إتمام الأخلاقيات في العلوم باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من برامج التعليم والتكوين الطلابي لتعزيز الوعي والشعور بروح المسؤولية لدى الطلبة عند دراسة القضايا الأخلاقية، وذلك يحتاج إلى وضع مناهج دراسية للصوابط والأخلاقيات توطئة لتكريسه في الكليات العلمية في دول العالم الإسلامي خاصة.

- إنشاء لجان الأخلاقيات لمراجعة البحوث في دول العالم الإسلامي.

- تبني حملة إعلامية ونشر الخطوط التوجيهية والدراسات التحليلية والكتب المبسطة والمقالات للرفع من مستوى الوعي وترسيخ الإجماع حول المعايير الأخلاقية.

الخاتمة:

إن الواجب العيني للامة الإسلامية حكومات و علماء أن يتصدوا جميعاً لهذا التهور التكنولوجي، وهذا الجنون العلمي، وقرض القيم الأخلاقية التي جاء بها ديننا الحنيف، وتصديرها للأحرار لكيح جماح العلماء الفوضويين، والعمل على كفالة مصالح الإنسانية إلى ما فيه الخير العام.

وبهذا الإسهام الهام، يعود مجد الأمة الإسلامية وينتهي زمن العولمة الغربية وعندها يكون القرن الواحد والعشرين قرن المسلمين.

والله من وراء القصد

الهوامش:

(1) - مغنية: محمد جواد: فسفة الأخلاق في الإسلام: 18 - دار العلم للملايين بيروت.

(2) - مجلة علم الفكر: 48، 1: الكويت.

(3) - موسى الخفق: عصر الحتمية: استراتيجيات المستقبل الشرقي: 195، 196 - مجلة علم المعرفة ع 294: الكويت 2003.

(4) - من: 209، 210.

(5) - مجلة: نبذة الاستمخاق بتونس: 1413، 1998.

(6) - حقوق حسن: قراءة الجينود الشرقي: 231 وما بعدها: مجلة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، 1998.

(7) - راجع البحوث التي طبعتها المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية:

- العازمي: محسن بن علي: الاستمخاق الوراثي أهمية لوعية الوقاية واستبئيره الطبية والأخلاقية.

- كريم: صالح عبد العزيز: الكائنات وهنسة المورثات.

- البار: محمد علي: نظرة فاحصة لتفحوصات الطببة الجينية ط1998، وانظر الشريف: محمد عبد الغفار:

بحوث فقيية معاصرة، 225/2 وما بعدها: دار ابن حزم بيروت: 2001.

(8)- موسى الخلف: الجينوم البشري: 203.

(9)- الجابري: أحمد عمرو: الجديد في الفتاوى للأمراض التناسلية والعقم: 38، دار الفرقان: عمان: 1994.

(10)- البار: محمد علي: أخلاقيات التلقيح الصناعي: 50: الدار السعودية للنشر- جدة: 1987. السباعي:

زهير أحمد: الطبيب لديه وظيفه: 340: دار القلم دمشق 1993.

(11)- القحطاني: حسن بن فلاح: طفل الأتاييب والتلقيح الصناعي: 63- مكتبة الحميطي: الرياض: 1994.

الجديد في الفتاوى: 63.

(12)- أخلاقيات التلقيح الصناعي: 103.

(13)- بورجية: محمد: التنكين التنهي والعولمة: م الإحياء: 295 وما بعدها: 6: 2002.

(14)- ر: الشاطبي: الموافقات: قسم الضروريات.

(15)- أرشيف الإيسيكو: الرياض.

الحضارة الإنسانية بين التصور الديني وواقع العولمة

الدكتور محمد زعراط

عميد كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة السابيا وهران

لقد ظلت الحضارة الإنسانية تتواصل منذ فجر التاريخ بوسائل التداول وبفكر إنساني تلاحقت فيه النظريات والعبادئ منها ما يمت إلى أصول الدين والشريعة، ومنها ما يتصل بالقوانين الوضعية ولكي يخطو الإنسان نحو لمستقبل لا يد أن يفقد من ماضيه الحافل ويستشرق بواقعه بما يفرزه من تحولات : اقتصادية، تشريعية، إعلامية، وعلمية. وقيل هذا وذلك يمكن من المنهجية العلمية أن نحدد المفهوم المصطلحي للحضارة سواء على صعيد اللغة أو على مستوى الاصطلاح العلمي:

أولا في اللغة العربية: لقد جاء في المعجم الوسيط أن لفظ: الحضارة يقصد بها الإقامة في الحضر. وأن معالم الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي هي في الحضر¹. وفي تاج العروس * الحضارة والحضرة والحضر: هي المدن والقرى والريف، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن النياز التي يكون لهم بها قرار²

ثانيا في اللغة الأجنبية: أما في اللغة الأجنبية. فلفظ الحضارة civilisation مشتق من كلمة civitas في اللاتينية وتعني المدينة أو من civilis بمعنى مساكن المدينة أو من civilis بمعنى مدن أو ما يتصل بالتجمعات السكنية ولما كانت كلمة الثقافة culture مرادفة لمعنى الحضارة فقد اختلف معنى الثقافة وتطور مع تطور المجتمعات الإنسانية، فالكلمة من حيث الاشتقاق مأخوذة من اللاتينية، ويراد بها إصلاح الشيء وتيذيبه لذلك قالوا Agriculture وهو إصلاح الأرض وزراعتها وبهذا تكون الثقافة تذيب العقل. ومن ثم فإن لفظ culture يفيد طريقة شعب في منهج الحياة³

ثالثاً في الاصطلاح:

إن أول ما يبيننا في هذا الأمر : ضرورة الإشارة إلى أن كلمة "حضارة" لم تكن متداولة عند العرب ولفترة زمنية طويلة. أعقبت الفتوحات الإسلامية باستثناء ابن خلدون الذي عبر عن المعنى في مقدمته باستخدام مصطلح العمران البشري المرادف لمعنى الحضارة.⁴

ومما لا شك فيه أن الحضارة من أهم محالات الدراسة التاريخية فقد جعل الإنجليزي "توبيني" الحضارة محور الدراسات التاريخية وذلك في موسوعته التاريخية دراسة للتاريخ (study of history)

وهكذا عرف البعض الحضارة على أساس الفرضية بأن الإنسان الأول لم يكن يتمتع بالفعل والتميز المنطقي، فكان صورة أخرى من الحيوانات التي تعيش على وجه الأرض ثم استطاع نتيجة تراكم المعلومات التي يكتسبها بفصل ممارسته لحياته اليومية أن يعيد تشكيل بعض القدرات العقلية والمنطقية التي ساعدته على الخروج من هذه الصورة الحيوانية التي تعيش وبغزلها فقط إلى صورة جديدة قادرة على التفكير والتبوير واكتساب المعارف المختلفة، ولأن الفعل والتميز المنطقي لم يكونا من مكونات الإنسان الأول مثل باقي المكونات الأخرى للجسم البشري وإنما اكتسبها الإنسان بالممارسة البطيئة التي استمرت قروناً عديدة مثل أي شيء آخر يكتسبه الإنسان دون أن يكون من مكونات الطبيعة، ينبغي أن يعتبر جزءاً من حضارته لقد ترتب على هذا الاتجاه نحو اعتبار الصفات الحضارية صفات يكتسبها الإنسان عن طريق التربية والتعليم إن امتزج مفهوم الحضارة بمفهوم الثقافة إلى حد تصعب التفرقة بينهما. فالحضارة هي إنتاج المتراكم للإنسان عبر مراحل حياته وكل تمن يشرى يستفيد من الموروث العنفي السابق.

فقد استفاد المسلمون من الحضارات البائدة التي سبقت الإسلام أو تلك التي عاصرها، فاحتضنوا تراثها على الرغم من التباين في أنماط التفكير وتعارض نظرياته مع عقيدة الإسلام والتصوير الإسلامي للإنسان والكون والحياة إن ما يميز التفاعل الحضاري بين الأمم وجود عاملين اثنين:

الشعور بالانتماء لكوكب واحد، والشعور بالانتماء لإنسانية واحدة

فالإنسان المعاصر يواجه اليوم تحديات عميقة تدس خارج رغبته وبحسور قائمة على الإكراه لا على الحوار والتفاهم. فيما اصططح عليه بالعولمة التي تخلق

نظاماً معرفياً واحداً تخضع له الإنسانية قاطبة وهي بإمكانها أن توحد نظاماً اقتصادياً وسياسياً لكن لا يمكنها أن تخلق الإنسان النموذج لأنها تخالف السنة الكونية في الاختلاف فيما يخص الكائن البشري فلا توجد حضارة فوق الأرض كرمت الإنسان كما نجدتها في حضارة الإسلام من خلال آيات الاستخلاف والتعبير إذ أن مفهوم العولمة كما عبر عنه أحد الباحثين بقوله لا تحمل ..أي هوية ثقافية.

ومن ثم فهي لا تتطوى على عقيدة أو فلسفة أخلاقية أو أي بدائل توارثي هويتنا الثقافية أو تتفاعل معها، بل على العكس من ذلك تيمس كل ثقافة ذات طابع إنساني أو أخلاقي . وهذا ما يجعل من مواجهتنا للعولمة مواجهة معقدة، بحيث لا نغف معها على أرض مشتركة، لأنها تنفي ما نشته وثبت ما نغيه⁵

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الشعوب الإسلامية لم يترك لها المجال حتى التعبير عن رغبتها تجاه مسألة العولمة وهي زخم من المسائل التي يتخبط فيها العالم الإسلامي اليوم مثل حقوق الإنسان والديمقراطية وحرية التعبير وبهذا الشكل فإن العولمة في الصفة الأخرى (العالم الإسلامي) ينظر إليها كونها لي تتعدى واقع القضية الاقتصادية الجديدة لاستنزاف ثروتها من جديد ووضعها في تبعية مطلقة من الوجية المادية على وجه الخصوص .

فالعولمة كما يبرز بعض جوانبها التكتور الخضيرى هي مفهوم مزراوغ فالعولمة سرد طبيعية برعية الكيانات الكبرى في التوسع والسيطرة أو الهيمنة واملء الإدارة وسيط النفوذ ويتم ذلك بواسطة جوانب عديدة منها :

حرية حركة السلع وتبادلها دون حواجز

تحول العالم على قرية صغيرة بفعل التقنق التكنولوجى

ظهور الشركات متعددة الخدمات وسط تعودها وهيمنتها

ظهور فكرة حماية الأقليات .

التدخل في شؤون الدول بزعم إحلال الديمقراطية⁶ .

من هذا المنطلق يتحدد موقف العالم الإسلامي في تعامله الروحي والمادى

على السواء .

فالمسلم يستمد قوته ودعمه لوجوده من شريعة السمحاء هذا بعد إيمانه

المطلق بالله وخالق الكون وسله وملائكنه واليوم الآخر وبالقدر خيرره وشره وهنا

يُجد العالم الإسلامي نفسه في مفترق الطرق فيطرح السؤال عليه ما هو المصير حين يتجسد إيماننا بقوله تعالى: "ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون"⁷ .
 ويعد هذا ذاتي الأمور العملية التطبيقية في كيان المسلم التي فصلتنا شريعتنا السمحاء والتي توسع فيها علماء الشريعة باجتهاداتهم على مدى فمئة عشر قرنا وبما تحمله عبادات ومعاملات وحدود وحلال وحرام .
 الهداية لقوله تعالى: "لولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لهدمت صوامع وبيع صلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا"⁸ .

ولعل اقرب تصوير للمسلم اليوم ما قاله مالك بن نبي رحمه الله: "لم يكن المسلم عندما فتح عينيه في عالم الاقتصاد بعد ان نالته الصدمة الاستعمارية سوى قن بسخر لكل عمل يريده الاستعمار فينتج المطاط في قول ل الهند الطينية (فيتام) والقول السوداني في افريقية الاستوائية والارز في بورما والتوابل والكاكافو في جاوة (تنونسيا والخمور في الشمال الافريقي)"⁹
 فالتنوع والاختلاف من ساعات الكائن النشري ما استمرت الحياة الانسانية فوق الارض فالحوار المنشود بين العالمين الغربي والاسلامي يخضع لانيات وثقافات وشروط ينتظم بها كل مجتمع من المجتمعين المذكورين وذلك راجع فيما هو متفق عليه بين المختصين لعوامل منها:

الارث التاريخي المتقل بالسماء في العلاقة بين العالمي الاسلامي

والمسيحي الغربيين .

اثر الدراسات الاستشراقية في تشكيل العطلنة الغربية سلبا في اغلبها

تجاه العالم الإسلامي لتسوية صورته ختمة لاغراضهم .

ضعف ثقافة الحوار في العالم الإسلامي نظرا لنقص الحريات فيه

خلال لما هو سائد في العالم المتقدم اليوم .

ظهور افكار التعصب في العالمي الاسلامي والغربي.

مما يعيق ثقافة السلم والحوار الذي يدعو اليه الزائدين في كل المجتمعات

وهكذا فلا يوجد حد اقصى وحد اثنى للحضارة فحضارة كل عهد هي

اعلى و اقوى نسبة لحضارة عهد ياند وهي اقصر اذنى بالنسبة لعهد جديد مقبل ان

الحضارات السابقة هي ملك للبشرية بأكملها فاذا نظرنا اليوم في اعماق العصور

التاريخية السحقية نبين لنا ان القبائل التي عاشت في شبه الجزيرة العربية قبل

الإسلام قد اضطرت إلى جمع أوثان كل قبيلة في الكعبة ويذكر في هذا السياق حضارة إيزان وشاهدها عقيدة المجوسية وهنا نشير إلى عاملين اثنين : الدين هو الموحد الوحيد لأفراد المجتمع، والدين عامل مؤثر يدفع الناس إلى قبول القواعد من حيث العقيدة والتفكير والحركة ويقودهم إلى القيم المشتركة .

فإذا ما استقر لنا مفهوم الحضارة ودور العامل الديني فيها نجد أم مصطلح الحضارة في الكتابات الغربية يعود حسب الموسوعة الفلسفية لى النصف الثاني من القرن الثامن عشر وقد شاع في الغرب مفهومان للحضارة احدهما علمي يرى ام مفهوم الحضارة لا ينحصر في جماعة دون اخرى وان لكل جماعة سكانية

حضارتها الخاصة والآخر مفهوم برجماتي قائم على الفصل العنصري¹⁰ فاذا تحدثنا عن النظريات الغربية في الحضارة لثما نشير إلى عصر التنوير وإلى عصرنا الحالي وهي مرحلة فكرية ساد فيها الفكر الوضعي بشكل عام ومن مرنكزاته إلغاء دور الدين في انماء المجتمع الانساني .

المرحلة الوضعية: لم تبدأ الفلسفة الوضعية القائمة على تقديس العقل والاتريباط بالتجربة بأوجيست كونت كما هو متعارف عليه بل كانت الخزانة الفلسفية الغربية منذ عصر التنوير حبلى بهذه الفلسفة حتى أن ايما نويل كانط وهو الفيلسوف المثالي حوال التنظير للفكر التجريبي الوضعي الذي يجد مثله الأعلى في اسحق نيوتن وفلسفته التجريبية فجاء كونت وساعد على ولادة مذهبه الوضعي و أسس فلسفة في كتيبه الاربعة محاضرات في الفلسفة الوضعية 1842-1883 والمقال في العقل الوضعي 1844 وطغوس العقيدة الوضعية 182 ونظام السياسية الوصفية 1852-185.

يمتد مصطلح الوضعية ليشمل فلسفات اخرى لا ترتبط بشكل مباشر بالفلسفة الكونتية ولكنها تتفق معها في الاعتقاد بان اليقين لا تقدمه الا العلوم التجريبية وان العقل الانساني لا يستطيع ان يتجنب الخطأ سواء في مختلف الميادين¹¹

فوضعية كونت تقوم على القول يعجز الفكر عن ادراك ما يفوق المعطي الحسي فمهمة العقل إدراك ما بين الوقائع المحسوسة من علاقات أو قوانين و لا يتحقق اليقين في نظره إلا في العلوم التجريبية و بهذا ينزع كونت عن الدين كل أصالة ويحول له نشاط دينوي ويكتب قائلا كل منا عندما يتامل تاريخه الخاص إلا يتذكر أنه كان بالتتابع لا هونياً في طفولة متافيزيقياً ف شبابه وفيزيقياً في

كهيئته ... هكذا يؤكد الدين عند كونت وبسميه اللاهوت فالمنطق الذي يقضي بحتمية وجوده في بدء المعرفة يقضي أيضا بزواله في نهايتها لصالح المعرفة الوضعية وحدها.¹²

لقد وجدت الفلسفة الوضعية نفسها مضطرة إلى إعادة البعد الديني في شكل كنسية وكيونت من رجال العلم الوضعيين ويصف أحد الناقدين للوضعية قائلا: "أن مصير الوضعية كان هو مصير الفيثاغورية قديما حيث انها وصلت إلى النقطة التي تنفكي فيها مع الغزيرة الوثنية والتي تبعد تقديس ما كان مرفوضا من قبل حتى أن "كونت" لم يتورع عن القول: ان المحية الكونية كما صاغتها الكاتوليكية أكثر أهمية من فضة العقل والتي إلى استكار البحث عن الحقيقة الفعلية فقال: "مهما كان من لمرلا السعادة الناجمة عن استكشاف الحقيقة العلمية فهي لا تصل في أهميتها إلى أن تكون هي الموجه العالم للسكون".¹³

لقد كرر مؤرخو الحضارة الغربيين من فيكو وهيجل إلى شتجلر فينري فرانكفورت ... مقولة ابن خلدون عن اطوار الحضارة ومراحلها حيث تظهر وتنطج وتتوي ولا تعود البنية ... ثم يأتي بعد ذلك نظرة ارنولد تويني فقد قام في دراسته بتقسيم الحضارات البشرية إلى إحدى وعشرين حضارة لم يبق منها حسب تقسيمه سوى خمس وهي المسيحية الغربية والارتودوكسية والاسلامية والهندية وحضارة الشرق الأقصى.¹⁴ وهكذا فإن تيارا واسعا من المفكرين الفرنسيين يقر بما للدين من تأثير بالغ في بناء المجتمعات من ذلك ما أقره نيتشه على نصفين حيث قال: "والدين والحياة البنينة الخصبة القوية الحية من سميزات الحضارة كجدها في كل مظاهرها من فن ونظم اجتماعية وسياسية لأن حياة الفرد الداخلية نرية بينما المدنية تكاد تخلو من الروح الدينية".¹⁵

أما في القرن العشرين فإن أهم الأصوات التي ارتفعت للإعلان عن إفلاس الحضارة الغربية الحديثة هو صوت رينيه تيمونون الذي يرى أن الحركات المضادة للحداثة داخل الحضارة الغربية والتي تتحدث باستمرار عن سلبيات التصور الوضعي للحضارة ستبقى بعيدة عن العلم الحقيقي طالما ظل أفقا العقلي مرتبطا بالأساس فقط تون البعد الالهي وبقيت أسرة القوانين الوضعية وإن لم تذهب بعد من ذلك فإن الأمل في الخلاص ضائع لا محالة.¹⁶

وهكذا نجد أن الوضعية بمعناها العام حولت الحضارة الغربية إلى كابوس مرعب للأفراد والأمم فصلا نحد أن مفهوم التقدم منح شرعية في القرن الماضي للمستعمرين بنصفية حضارات الأمم الأخرى والقضاء على ثقافتهم لقد حاربت المادية الجوانب الروحية بلا هواة و جعلت من الإنسان حسابات وأرقاماً وماهي المسألة تنكر اليوم في شكل تطور اقتصادي تسمى بالعولمة أو بالنظام الدولي الجديد وهي شكل آخر من أشكال الصراع المادي بكل مقوماته الجديدة وهي مسألة بائت المجتمعات تتحرر من التعامل معها و حتى في المتقدمة منها .

وفي مجتمعنا الإسلامي يكون وجود الفرد قائما على توحيد الخالق الذي هو أساس الرسالة القرآنية وهو يقوم على تشكيل حياة الإنسان فالحضارة الإسلامية ذات منهج قائم على تفاعل العقل مع الوحي فهما يتكافلان فيها بهدف إسعاد الإنسان ذلك المخلوق الذي كرمه الله تعالى فإن جعله خليفة في الأرض في قوله تعالى : " ولقد كرمنا نبي آدم وحملناه في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " .¹⁷ كما ميزه بالعلم والحزيرة والإدراك وفي خضم هذا الصراع المتواصل بين المادي والروح ازدادت هموم الإنسان المعاصر في تعامله مع الوضع الدولي الجديد في خصوصية الجديدة فقد عمت العوالم مجالات الحياة المختلفة تعانیه والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقيمة أيضا اصطلاح على تسميتها بالقيم الكونية فقد أحدثت العوالم انساقا فكرية جديدة بتأسيس علاقة جديدة للإنسان مع الزمان والمكان .¹⁸

أن القيم التي أفرزتها العوالم تتجاوز الزمان والمكان لأن هدفها إخضاع المجتمعات لنموذج حضاري واحد و توحيد النظر إلى الذات والى الآخر والى القيم الكونية مثل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان أيضا قيم الغالب الذي أراد للآخر أن يكون مستهلكا ليس إلا وهو ما يتناقض مع دعوة العالم المتقدم للتعددية وقبول الرأي المخالف وحرية الاعتقاد والتعبير لأنها لا تأخذ بالواقع الأخلاقي والاجتماعي للمجتمعات في الإصلاح والتغيير لأن منطلقها اقتصادي محض حيث يشير التقرير الذي نشرته الأمانة العامة لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة بتاريخ 27 سبتمبر 1999 أن الشركات متعددة الجنسيات هي التي أصبحت تتحكم في الاقتصاد العالمي وتفرض قانونها وسياستها سواء تعلق الأمر بالاستثمار أو الإنتاج أو الاستهلاك.¹⁹

وهكذا يتضح أن نظام العولمة ليس ديمقراطياً لأنه لم يلتزم بقيمتها، إذ الأصل أن يمثل إرادة المجتمع الإنساني وأن يكون هناك تكافؤ بين الدول لتحقيقه مما يدل على غياب الديمقراطية على مستوى العلاقات الدولية في العالم. وهي تنفجر إلى البسط مبادئ العدل والإنصاف فهي كما صورها المفكر الهندي المنجزة: "لن يكون لها أي مستقبل ما دامت جذورها غير إنسانية وأهدافها غير سامية وقيمتها غير أخلاقية ومع ذلك فإن ثقافة السلم والتعايش مازالت بعيدة التحقيق فالعالم يسير نحو مرحلة أكثر فوضوية وكل ما أتمناه أن تكون هذه المرحلة قصيرة المدى وأن تعبرها البشرية بأقل خسارة .

إن غياب البعد الإنساني في القيم التي افرزتها العولمة والذي حول المنتوجات إلى بضائع تترتب عنه آفات أخلاقية تهدد وجود المجتمعات الإنسانية وتجعل العلاقات الإنسانية خاضعة لمتغيرات المصالح الخاصة وهي قيم تهدد الهوية الأخلاقية للإنسان لأنها ذات بعد اقتصادي قائم على الربح والخسارة .

الهوامش

- 1- الفيروز ابادي المعجم الوسيط ص 18 .
- 2- الزبيدي تاج العروس ج 3 ص 146
- 3- أحمد محمود صبحي فلسفة الحضارة ص 3
- 4- عبد الشين خليل التعبير الاسلامي للتاريخ ص 174.
- 5- محمد الكتاني في العولمة والهوية ص 82.
- 6- الخطيري العولمة
- 7- آل عمران : 102
- 8- الحج : 40
- 9- مالك بن نبي المسلم في عالم الاقتصاد
- 10- Encyclopédie universalise corpus vol 5 ed à paris 1989 p 944
- 11- Andree Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie Paris .Pub 1972
- 12- الموسوعة العربية الفلسفية العربية م 1 ص 445 .
- 13- Leon Brunschvicg la Maison et la Religion . Librairie Felix Alcan 1939 pp 210-
- 14- ارنولد تونني مختصر دراسة التاريخ ج 4 ترجمة فؤاد محمد ص 19
- 15- عبد الرحمن بدوي نيتشه للكوث 1975-ص 141
- 16- RENEGUENON la crise du monde moderne Paris 1975
- 17- الإسراء: 70.
- 18- احمد زايد عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوضعية ص 10 عالم الفكر الكويت 2003م
- 19- عولمة الثقافة وأسئلة الديمقراطية عند الجليل الأزدي ص 46 المغرب 2003م

الجدور التاريخية للوجود الإسلامي والمسلمين بالغرب إلى القرن 15 الهجري وبعض معاناة مسلميه اليوم

الأستاذ الدكتور حميد لحمر
كلية الآداب، جامعة فاس. المغرب

يعتبر موضوع الإسلام والمسلمين بالغرب من أهم المواضيع التي شددت اهتمام الباحثين والمؤسسات المهتمة في الأونة الأخيرة. ويأتي ذلك أمام تزايد أعداد المسلمين بالغرب، وتوسع قاعدة الإسلام، وإحداث المراكز والجمعيات والمنظمات الإسلامية أيضا، وما كان لكل هذا من رد فعلي غربي مقلق أحيانا ومؤسف تارة أخرى.

في هذه المداخلة التي أساهم بها في هذا المؤتمر المبارك، الذي خصص لمدرسة الإسلام والمسلمين بالعالمين العربي والغربي، سوف أحاول إن شاء الله أن أُنسِر إلى مراحل دخول الإسلام والمسلمين إلى أوروبا الغربية والشرقية، ثم أقف بعد ذلك عند الهجرة الإسلامية إلى أوروبا بعد هذه المراحل، وما هي أسبابها ودواعيها، وكيف تطورت في العصر الحالي - بداية القرن 15 -، وما هي التغيرات التي من الممكن أن تحدثها خلال هذا القرن، والأشياء التي ترشحها لذلك، وأختم بالإشارة إلى معاناة بعض المسلمين بالغرب اليوم.

إن صلة أوروبا بالإسلام والمسلمين صلة قديمة تاريخيا، فقد انتشر الإسلام فيها عن طريق

المسلمين غير عدة معابر: منها المعابر الجنوبية، وهي أقدم مسالك المسلمين والإسلام إلى أوروبا، ومنها المعابر الشرقية.

وأما حديثا فقد انتقل إليها، وإلى مناطق منها، لم يكن قد وصلها من قبل، عن طريق الهجرة العمالية التي قادت الملايين من المسلمين تدريجيا من مختلف البلدان الإسلامية بإفريقيا وآسيا والشرق إلى الاستقرار بأوروبا. ويمكن أن نقسم هذا الدخول حسب المراحل التالية :

1- أوروبا الغربية :

في المرحلة الأولى : عمل المسلمون على فتح الأندلس، وقد كان ذلك سنة 92 هـ الموافق لـ 710 م، ولم تَمض ثلاث سنوات، حتى خضعت لهم شبه جزيرة إيبيريا كلها، فأسسوا بها دولة إسلامية تابعة لدار الخلافة في دمشق بالشام. ثم جاء الأمويون إلى الأندلس بعد أن غلبوا على أمرهم في الشرق، وأنشأوا دولة أموية قوية بالأندلس.

وقد عرفت الأندلس بعد الأمويين تقلبات سياسية خطيرة، ثم توتر مع ذلك على الحركة الفكرية والتوجه المعنوي الفقهي المالكي، حيث حكمها ملوك الطوائف قبل أن تصبح تابعة للمغرب أيام دولة المرابطين والموحدين، وبعد ذلك أخذت أطرافها تتقلص شيئا فشيئا إلى أن حل بها الضعف الذي أدى إلى انبهارها، وقد كان لسقوط غرناطة عاصمة ملوك بني الأحمر سنة 895 هـ / 1491 م انتهاء الحكم الإسلامي بالأندلس.

وقد كانت الأندلس قبل هذا قد عاشت حياة فكرية سامية، وتألفت عاصمتها قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل والحكم المستنصر حاضرة بغداد أيام هارون الرشيد. فقد نشطت الدراسات العقلية في الأندلس بنشاط الدراسات اللغوية والأدبية والشعرية، وأخذ الإنتاج الأندلسي طابعا خاصا خصوصا في الرياضيات والفلسفة والطب والفلك، وأنجبت علماء كبار في جميع التخصصات، منهم : الطبيب والرياضي والفقير الفيلسوف ابن رشد الحفيد.

كما خلف المسلمون في بلاد الأندلس خلال القرون الثمانية التي عاشوها هناك عمرا متميزا، تجلى فيه الزاقي في المساجد والصوامع والقصور والحصون والقلاع والساحات وغيرها مما لا زال قائما إلى يوم الناس هذا، ويعتبر محط إعجاب الزوار المتوافدين عليه من أنحاء العالم.

أما المرحلة الثانية : فقد دخل المسلمون من الأندلس إلى فرنسا برا، واخترقوا جبال البرانس (البيرني)، وقد كان ذلك سنة 94 هـ / 713 م، وانطلقوا في فرنسا، وقد كانوا يسمونها وقتئذ بـ "الأرض الكبير" لأنبساطها بين جبال البرانس جنوبا، وجبال الألب شرقا، والمحيط غربا.

فقد دخلوا في البداية مدينة ناربون في سهل : لا نكدوك قريبا من البحر، فاتخذوا منها مركزا لمتابعة فتوحاتهم طوال عشرين سنة دان لهم خلالها جنوب

فرنسا من غربه إلى شرقه وتوغلوا شمالا نحو باريز حيث لم يعد يفصلهم عنها سوى نحو ثلاثمائة كيلومتر.

ويرجع هدف المسلمين منذ دخولهم أرض فرنسا أن يرجعوا إلى دمشق برا بعد فتح إيطاليا وألمانيا والقسطنطينية. وكانت مدينة بورنو آخر مدينة دخلها المسلمون عنوة بعد مقاومة طويلة، ولم يكن أمام الأمراء الغربيين إلا أن اتخذوا تحت قيادة شارل مارنل واعترضوا الجيش الإسلامي في طريق رجوعه بضواحي مدينة بواتي حيث جرت المعركة الشهيرة ببلاط الشهداء سنة 114 هـ / 732 م.

وفي المرحلة الثالثة : جاء المسلمون فرنسا من الأندلس بحرا، ونزلوا بجنوبها الشرقي في منطقة بروفانس وحبال الألب والساحل الأزرق.

وتصفي بعض الروايات الأوربية على هذا الهجوم صيغة المغامرة والمصادفة، زاعمة أن الأمر لا يعنو عشرين نفرا خرجوا في مركب خفيف من الأندلس ولقنهم الرياح في خليج سانتروبيز بين فرنسا وإيطاليا، فمكثوا بين الأدغال إلى أن لحق بهم إخوانهم من إسبانيا وإفريقيا، وكيفما كان الحال فإن الروايات تتفق على أن المسلمين استقروا هناك، ولم تمض سنوات قليلة حتى امتلأت المنطقة بالحصون، وشيدوا قلعتهم المنيعة المسماة فراكينت FRAXENET على قمة جبل ما تزال به حتى الآن أطلال وبقايا عمران.

وقد تقدم المسلمون في جبال الألب حتى وصلوا إلى أعلاها واجتازوا مضائق دوفيني Dauphiné فوصلوا حدود إيطاليا (بيموننت) وملكوا جميع مضائق جبال الألب وصار المرور بين فرنسا وإيطاليا متوقفا على إبتهم، وتوسعوا في البلاد الإيطالية إلى حدود جنوة GANOVA، ثم تقدموا إلى سويسرا فملكوا منطقة فاليه ومقاطعة كريسون GRISINS.

وقد بقي المسلمون سادة هذه المنطقة نحو تسعين سنة تحت رعاية خلفاء قرطبة الأمويين، ومساعدة الأغلبية والفاطميين بتونس، وأصبحوا لا يرتفع في وجههم رأس ولا ترتقي إلى مصارعهم همة، كما قال شكيب أرسلان¹.

وقد غادر المسلمون هذه المناطق سنة 365 هـ / 975 م بعد أن تألب عليهم المسيحيون من كل جانب بقيادة إمبراطور ألمانيا أوطون OTHON تاركين أثرا عمرانية مازالت قائمة لحد الساعة.

أما المرحلة الرابعة والأخيرة : فقد فتح المسلمون فيها جزيرة صقلية، وقد كان ذلك سنة 212 هـ / 827 م، وهي تعتبر من أكبر جزر الحوض الغربي

بالبحر الأبيض المتوسط جنوب إيطاليا. وقد نشروا فيها لغتهم العربية ونشطوا الحركة العلمية واتخذوا منها مدينة بليرمو BALERMO عاصمة لهم.

وجلبوا إليها صناعات راقية كالورق والحزير والسفن والفسيفساء، وأضافوا عليها طابعا معماريا إسلاميا بمنشآتهم الدينية والثقافية والمعدنية، ولم يعمرها بها طويلا حتى سقطت في يد النورمانديين حكام جنوب إيطاليا.

وقد استمر المسلمون في صقلية قرونا أخرى لما لاقوه من حسن معاملة النورمانديين لهم.

فقد أفروهم على ديانتهم وشريعتهم، واستعانوا بهم في دوليب الدولة وشجعوا الدراسات العربية والإسلامية، وكان بينهم تحاوب وتعاون في نقل علوم المسلمين الرياضية والفلسفية والفلكية والطبية إلى اللاتينية والفرنسية.

كما كان هؤلاء الملوك عموما معجبين بالثقافة العربية الإسلامية، يتقنها بعضهم إتقانه للغة اللاتينية.

وقيل عن روجار الثاني النورماندي أنه : كان سلطانا عربيا يحمل تاجا كملوك الأفرنج، وإن تسامحه الذي أدى إلى امتزاج الثقافات العربية واليونانية واللاتينية. ومن المعلوم أن الشريف الإدريسي وضع لروجار هذا خريطة العالم على دائرة فضية مسطحة كبيرة، وألف له بالعربية كتاب : تزهة المشتاق في اختراق الأفاق، شرح فيه هذه الخريطة. وقد ترجمت الخريطة والكتاب إلى مختلف اللغات الأوروبية².

2- أوروبا الشرقية :

لما أوروبا الشرقية، فإن دخول الإسلام إليها تأخر بضعة قرون، وسلك في ذلك سبلا مختلفة عما رأيناه في أوروبا الغربية. ويمكن حصره في ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : دخل على يد التجار المسلمين، كانوا يحملون السلع من البلدان الشمالية إلى حوض نهر الفولكا، وأخذ الإسلام ينمو ويتطور حينئذ.

في المرحلة الثانية : دخل على يد النصارى المستقرين في شمال البحر الأسود وحوض الفولكا الأسفل، حينما اعتنقوا الإسلام في منتصف القرن السابع (ق 13 م)

المرحلة الثالثة : كان للإسلام انتشارا واسعا في شرق أوروبا على يد الأتراك العثمانيين الذين غيروا وجه شرق أوروبا ونشروا الدين الحنيف في مختلف أرجائه، إلى أن جاء السلطان محمد الفاتح فانتزع القسطنطينية من يد البيزنطيين عام 857 هـ / 1453 م وجعلها عاصمة المسلمين في شرق أوروبا.

استمرت فتوح العثمانيين أربعة قرون ملكوا خلالها شبه جزيرة البلقان كلها، بما فيها بلغاريا ويوغوسلافيا وألبانيا واليونان، ودولا أخرى خارجها كرومانيا وهنغاريا، ونشروا فيها الإسلام إلى أن وصلوا إلى تخوم غرب أوروبا.

واستمر النفوذ الإسلامي العثماني في هذه المنطقة التاسعة حتى الحرب العالمية الأولى 1918 م، فاندجت بعض الدول في الاتحاد السوفياتي وصار بعضها يدور في فلك الشيوعية، ونال المسلمون من جراء ذلك عناء كثيرا، فاضطر بعضهم إلى الهجرة إلى البلاد الإسلامية المحاورة أو الرضوخ للقصر والاستبداد. ومن المنتظر أن ينبعث الإسلام ومعالمه من جديد بهذه الربوع في السنين المقبلة نتيجة انهيار النظام الشيوعي الذي كان مسيطرا على معظم المنطقة.

وقد ترتب عن فتح المسلمين لبلاد الأندلس وغيرها قيام علاقات وثيقة مع معالك غرب أوروبا التي اشتهرت منها إذ ذاك الإمبراطورية الغربية الألمانية التي اشتملت على ألمانيا الحالية وأجزاء من بلجيكا وهولندا والنمسا والمجر، وهي التي صار اسمها الرسمي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، واشتهر أعظم حكامها وهو الإمبراطور هنري الرابع بعلاقته الطيبة مع المسلمين في بلاد الأندلس، وقدمت بعثات من فرنسا وإيطاليا والأراضي المنخفضة وامتلات بها معاهد غرناطة وإشبيلية ونهلت من الحضارة العربية الإسلامية، وتأثرت بالأخلاق العربية وتعاليم الديانة الإسلامية³.

ولعل من أبرز المفكرين الغربيين الذين تحدثوا عن أثر الحضارة الإسلامية في حضارة أوروبا ونهضتها "جوستاف لوبون"، صاحب كتاب: حضارة العرب، حاول فيه أن يكون موضوعيا إلى حد ما، ومن آرائه في هذا الصدد قوله: كان تأثير العرب على الغرب عظيما وإلبيهم يرجع الفضل في حضارة أوروبا، ولم يكن نفوذهم في الغرب أقل مما كان في الشرق.

ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب في الغرب إلا إذا تصور حالة أوروبا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة العربية. وإذا رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد، يوم كانت الحضارة العربية في إسبانيا زهرة باهرة نرى أن المراكز العلمية الوحيدة في الغرب عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين يقاخرون بأنهم أميون.

وظل عهد جهالة أوروبا، ولم تبدأ الرغبة في العلم إلا في القرن الثاني عشر، ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة إلى الخلاص من الجهل طرقت

أبواب العرب يستهنونهم ما يحتاجون إليه، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العهد⁴.

واعترف المؤرخ رينو RINO في كتابه : تاريخ غزوات العرب، بفضل العرب على حضارة أوروبا ونهضتها فقال : "إن النهضة الحقيقية في أوروبا لم تبدأ إلا منذ القرن الثاني عشر، حيث أفاق الفرنسيون، والإنجليز، والألمان من رقبتهم، ونفضوا عنهم غبار الخمول، ووجدوا ضرورة الاشتراك في الحضارة الغربية، فأخذ المسيحيون في فرنسا وما جاورها يؤمنون إسبانيا لترجمة الكتب الغربية، وأصبح العرب الأمثلة العليا للشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الأخلاق"⁵.

ويقول موريس بوكاي في كتاب دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة : "إن الإسلام قد اعتبر دائما أن الدين والعلم يؤلمان، فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزء لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام، وأن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية، تلك التي أفتت منها العرب نفسه قبل عصر النهضة في أوروبا".

وبعد طي صفحة هذا التاريخ، ولمدة طويلة جدا، لنعود اليوم لنسجل تاريخا جديدا لعودة المسلمين والإسلام مرة أخرى إلى ربوع هذه المناطق، ولكن لأهداف خاصة، وبطرق متنوعة، مع التركيز على أوروبا الغربية بالدرجة الأولى التي رأينا انحسار الإسلام عنها في نهاية القرن التاسع (15 م).

ويسجل التاريخ مرة أخرى عودة المسلمين إليها أفواجا في القرن الرابع عشر الهجري (20 م)، غير أن الملاحظ هنا هو أن هذه العودة ترتبط بحركة الاستعمار الأوربي لبعض الدول الإسلامية، فكانت الدول المستعمرة تستخدم في البداية إلى بلادها جموعا من المستعمرين كيد عاملة رخيصة طبعاً، تستخدمها في الصناعة والتعدين والفلاحة وما إلى ذلك أو كجند يحاربون أعداءها في الصقوف الأمامية إضافة إلى قليل من التجار والطلاب. كما فتحت أوروبا الغربية أبوابها في وجه المضطهدين والزعماء والسياسيين المسلمين من المشرق والغرب.

وازدادت هجرة المسلمين إلى غرب أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية بسبب الحاجة إلى اليد العاملة خلفاً لمن أفتتهم الحرب، ولاسيما عند ازدهار الحركة الصناعية الأوربية في الستينات وتوسعت قاعدة الهجرة باستقلال عدد من الدول المستعمرة لتشمل التجار والطلاب والديبلوماسيين.

وأعطى حق الإقامة المؤقتة والدائمة والتجنس للمهاجرين المسلمين، وبذلك تكونت جنات إسلامية ضخمة في مختلف أنحاء دول أوروبا الغربية بالخصوص.

واليوم، ونحن في السنوات الأولى للقرن الخامس عشر الهجري، وبعد أن سبّت الدول الأوروبية أبوابها في وجه الهجرة، نجد الراغب في الهجرة أصبح يسلك سبلا متنوعة، وفي غاية الخطورة، لا تخلو من العواقب المؤسفة.

وقد انتهت أغلب هذه الهجرات بنسوية قانونية، وتحولت الهجرة بذلك من هجرة عابرة إلى هجرة إقامة واستقرار.

وتجدر الإشارة إلى أن عدد المسلمين في أوروبا الغربية تعزز في هذه العقود الأخيرة باعتراف عدد من الأوروبيين الإسلام عن رغبة واقتناع، ومنهم منفقون جامعيون ومفكرون مشهورون، ساعد على ذلك حرية التنين، وتحقق بذلك ما تنبأ به المرشد الكبير بديع الزمان سعيد النورسي الذي قال: "إن أمريكا وأوروبا حاملتان بالإسلام، فكما أن الإمبراطورية العثمانية كانت حاملة بأوروبا فولدت، فلأيد أن يولد من أوروبا دولة للإسلام".⁶

إن عدد المسلمين في العالم يناهز المليار وثلاثمائة مليون نسمة، ويقدر عدد المهاجرين من المسلمين المتواجدين في أوروبا الشرقية والغربية بما يناهز خمسة عشر مليون نسمة، من بينهم ما يقرب من مليون مسلم يعيشون في إيطاليا وحدها، وقبل بضع سنوات لم يكن من المتوقع أن يصبح الإسلام في إيطاليا، معقل الديانة الكاثوليكية، يشكل فيها الديانة الثانية في المرتبة بعد المسيحية.

وفي هولندا أيضا، وبالضبط في الأونة الأخيرة، لوحظ ارتفاع مهم في عدد الجالية المسلمة بهولندا، فحسب آخر الإحصاءات المتوفرة من مركز إحصاء المواطنين بهولندا (C.B.S.) لعام 1996، وإلى حدود يناير 1995، يصل عدد المسلمين بهولندا إلى 527000 مسلم ومسلمة، وأصبح المسلمون يمثلون الفئة الثانية بعد المسيحيين.⁷

وكذلك الشأن بالنسبة لمسلمي فرنسا وإنجلترا وإسبانيا وغيرهم، ففي جل هذه الدول وغيرها يحتل الإسلام المرتبة الثانية بعد الديانة المسيحية.

وقد يشهد القرن الخامس عشر الهجري، وكما تنبأ بعض المفكرين - الإمام النورسي السالف الذكر - بمولود أوروبا إذا خلصت النية وحسن التوجه، وأحكم

التنظيم والتمثيل لمجموعة من المؤسسات والمراكز والجمعيات والرابضات التي أحدث بمجموعة من الدول الغربية.

فبالإضافة إلى المساجد المنتشرة بكثرة بدول أوروبا، والتي تلعب دوراً مهماً في جمع شمل وكلمة المسلمين، فهناك الجمعيات، ومنها على سبيل المثال ثلاث جمعيات إسلامية رئيسية في إيطاليا، تعمل جاهدة لتنظيم العمل الإسلامي وبلورته، وإيجاد قاسم مشترك للتألف والتعاون فيما بينها، ووضع صيغة للعمل المشترك وهي:

اتحاد الهيئات والجاليات الإسلامية في إيطاليا، تأسست سنة 1990 بمدينة أنكونا المركز الإسلامي بميلانو، تأسس سنة 1977 بمبادرة من اتحاد طلبة المسلمين في إيطاليا.

المركز الإسلامي الثقافي لإيطاليا بروما، تأسس سنة 1965، وهذا يعتبر من أكبر المراكز الإسلامية بإيطاليا، خصوصاً بعد إعادة بنائه وتشكيل إدارته⁸. وفي هولندا، فبالإضافة إلى المساجد⁹، فهناك المراكز الإسلامية، وغالباً ما يتداخل مصطلح المركز الإسلامي مع المسجد، حيث يوجد عدد من المراكز الإسلامية، لكنها لا تتجاوز عمل المسجد بشيء، ومن هذه المراكز:

- المركز الإسلامي الثقافي بأمنستردام، المعروف بالمسجد الكبير بأمنستردام.
- المركز الثقافي الإسلامي، المعروف بمسجد الأمة بأمنستردام.
- مركز الفرقان بمدينة لندوهوفن Endhoven، أنشئ سنة 1989.
- المركز الإسلامي بأوترخت، مركز تابع لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، أنشئ سنة 1984.

- المركز الإسلامي بمدينة نيمخن، المعروف بمسجد أبي بكر.
- المركز الثقافي الإسلامي بهولندا، أنشئ سنة 1988 بمدينة دنهاخ.
- المركز الإسلامي للإعلام الموجود بمدينة لاهاي يرأسه هولندي مسلم، عبد الواحد قتيومل.

إلى جانب هذه المراكز الثقافية توجد جمعيات واتحادات ومنظمات إسلامية

منها:

- اتحاد جمعيات المسلمين المغاربة، ويعرف باتحاد المساجد المغربية، أنشئ

سنة 1980.

- جمعية الأئمة، تأسست سنة 1995.

— مؤسسة أرضية المنظمات الإسلامية، أنشئت أواخر الثمانينات بمنطقة رايموند، تضم في عضويتها 38 منظمة.

— جمعية المشكاة، أنشئت سنة 1986، تحت اسم: الاتحاد الإسلامي للطلبة والشباب

— جمعية الإغاثة الإسلامية، أنشئت سنة 1993.

— جمعية التوحيد، أنشئت سنة 1990 بروتردام.

— المؤسسة الإسلامية لمساعدة الطلبة المسلمين، أنشئت سنة 1993.

— جمعية البلاغ في مدينة لندن.

— منظمة الكشافة "اين بطوطة"، أنشئت سنة 1995.

وغير هذا من المراكز والجمعيات والمؤسسات ذات الطابع الإسلامي، والمنتشرة في مختلف أنحاء أوروبا.

فإذا ضممت ما ذكرناه إلى جانب ما هو منتشر في فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وألمانيا وبلجيكا وغيرهم، فسوف نجد بأن مستقبل القرن الخامس عشر لهم، إذا أخلصوا النية، وأحكموا التصرف، ومثلوا الصورة الحقيقية للإسلام. وقدما قال السادة الفقهاء: إن الحربي إذا أسلم في دار الكفر فعليه أن يخرج إلى دار الإسلام، وسوف لن أكون مبالغاً إذا قلت بأنه لابد من إعادة النظر في هذه الفتوى في هذا القرن، تمثيلاً مع قول الفقهاء أيضاً: إن الفتوى تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة.

وبالتالي، فلقد صدق القائل: إن أوروبا حيلي وستد يوماً. نعم إن أوروبا حيلي بالمساحد والمراكز والمنظمات والمؤسسات، وسوف تك في قرنها الخامس عشر إن شاء الله.

إن تحول الهجرة الإسلامية إلى أوروبا عن هجرة فرنسية إلى هجرة عائلية، ومن هجرة مؤقتة إلى هجرة دائمة، كانت له نتائجه الواضحة، مشاكل عديدة ومتنوعة تنقوت في حنئها وخطورتها، ولعل من أخطر هذه المشاكل تلك المتعلقة بتنظيم الأسرة، وفانونها. ولا يختلف اثنان في أن كثيراً من المشاكل التي تتخبط فيها الأسر المسلمة في أوروبا ناتجة عن خضوعها في كثير من القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والحضانة والإرث، لقوانين ذات صبغة علمانية، بل إننا نتعارض في كثير من الأحيان مع مبادئ ومقاصد الدين الإسلامي.

ورغم أن هناك قوانين دولية واتفاقيات قضائية تقضي بتطبيق قوانين الوطن الأصل في القضايا الأسرية بالنسبة إلى الجاليات المسلمة المقيمة في أوروبا، غير

أنها مذيلة بشرط أساسي، وهو ألا تخالف النظام العام المحلي بالبلد المضيف، الشيء الذي يخلق تعقيدات كثيرة، ويجعل تطبيق هذه الاتفاقيات في بعض الأحيان أمرا متعذرا عمليا وواقعا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدافع وراء اعتبار المهاجر مرتبطا بقانون بلده فيما يتعلق بالأحوال الشخصية، ليس هو المحافظة على هويته الوطنية، والثقافية، ولا احتراماً لخصوصيته الدينية، وإنما فرضته قاعدة المعاملة بالمثل، حيث أنه وضع أسساً لصالح الأوروبيين المقيمين خارج بلدانهم، وطبق بموجب هذه القاعدة على المسلمين بأوروبا¹⁰.

وإذا كان هذا المبدأ يطبق في بعض الحالات وبشئبة معينة على المسلمين المهاجرين، فإنه لا يؤخذ به عندما يتعلق الأمر بالمهاجرين الذين تحنسوا أو أبنائهم من الجيل الثاني والثالث، الذين اكتسبوا الجنسية بالازديك، أو عندما يتعلق الأمر بالمسلمين الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام، لأنهم في هذه الحالة يعتبرون مواطنين مثل سائر المواطنين، في الخضوع لنفس القانون المحلي المعمول به في البلد. ولاشك أن هذا له تأثيره الخطير على الزواج الذي هو أساس تكوين الأسرة، وعلى الطلاق أيضا إذا دعت إليه الضرورة، ثم على الحضانة والإرث.

الهوامش والتعليقات:

- 1 - انظر: تاريخ العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط لشكيب أرسلان وانظر أيضا: حضارة العرب في الأندلس لفي بروفنسال - تعريب توفيق قرطوط، ص: 12.
- 2 - انظر: دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية للكاتب أمين توفيق الطيبي، ص: 180-197.
- 3 - البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ص: 40-50، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض 1979.
- 4 - حضارة العرب مؤلف لوبون، ترجمة عادل زعيتر صفحة: 139.
- 5 - للصور الوسطى الأوروبية، عبد القادر أحمد يوسف ص 251 وما بعدها.
- 6 - سيرة امام محمد، يدع الزمان سعيد التورسي، ص: 19، عاصم الحيني.
- 7 - إحصائيات مركز احصاء المواطنين ببولندا (C.B.S) لسنة 1996، وإحصائيات مشروع القادمين الجدد (PIN).
- 8 - للمزيد من التوسع راجع: المسلمون بإيطاليا للكاتب عبد اللطيف الكتاني.
- 9 - ظهر أول مسجد في هولندا سنة 1947، وقيل في الخمسينات على يد أبناء الجالية الإندونيسية الذين هاجروا إلى هولندا أثناء استعمارها لاندون.
- 10 - انظر: الإسلام المهاجر في الدولة القومية: النموذج فرنسا، مجلة نشر الحوار، ص 7، ع 25 - 1992، ص 45. وانظر أيضا: بعض مشكلات المسلمين في مجتمع الاغتراب، لمحمد اليوزري: 41-71

التدين في العصر الحديث الواقع، العقبات، والطموح

الدكتور حمزة عبد الله المليباري
كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي

إن الحمد لله، و الصلاة و السلام على رسول الله أفضل الأنبياء والمرسلين، وعلى آله و صحبه و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد :

فعلى الرغم من أننا قد ورثنا مقومات أقوى أمة تستطيع أن تقود العالم و الأمم في جميع المجالات: السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية؛ إذ كانت هذه الأمة مرشحة لسيادة الناس، تأمرهم بالمعروف، و تنهاهم عن المنكر، كما جاء في القرآن الكريم ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر ﴾ فإن هذه الأمة أصبحت أضعف الأمم تن تحت وطأة الدول الكافرة و ضغوطاتها الاقتصادية و علميا وثقافيا وإعلاميا، ولا تستطيع أن تشكل قوة ضاغطة عليها !

وعلى الرغم من وجود وسائل النهضة والتعبئة والتوعية - من دول ومؤسسات وجامعات ومساجد وجمعيات ودعاة وكتاب ومفكرين وأموال وسائر الخيرات والنعم فوق الأرض وتحتها- فإن الأمة تعيش اليوم في أحلك ظروفها في التاريخ، وأسوأ أنواع التخلف، ذلك التخلف الذي لا مبرر له، فهي لا تستطيع أن تعتمد على ذاتها في جميع مجالات الحياة، بل لا تستطيع أن تواجه تحدياتها المختلفة، بعقل وعلم وشجاعة وبصيرة ووحدة وخطط استراتيجية محكمة !!

وفي نهاية كل عام هجري نرى الأمة تأتي إلى مكة في موسم الحج لتتجمع بعرفات ومنى، متحددة على رفع شعار الحج وأركانها، بشكل منقطع النظير، وجميعهم يطوفون حول الكعبة بشعار الوحدة مع اختلاف لغاتهم وجنسياتهم وألوانهم، ويتجهون جميعا إلى الله تعالى، ومع كل ذلك فإن الأمة تعيش بعد حياة مزقة ومشتتة في كل موافقها؛ لا يحترم بعضها بعضا بل يعيش بعضهم أعزاء

على بعض، وأذلاء على الكفار، وهم فرق مشتتة ومتصارعة حتى في مواجهة التحديات ومقاومة المصائب !!!

وعلى الرغم من كون الأمة تتميز بدستورها الذي تكفل الله تعالى بحفظه، وسنة نبينا ﷺ وسيرته الشاملة، التي تحمل في طياتها نصوصاً نبوية تخبر عن تجارب ماضيها المجيد، كما تخبر عن مستقبلها وما سيحدث فيه من فتن مظلمة وتفرق وتمزق كتمزق اليهود والنصارى؛ فإن الأمة تفاجأ بما يحدث لها من فتن وفرقة وتخلف، ولا تملك خطأ استراتيجية مدروسة من قبل المسؤولين لمواجهتها بأقل الخسائر البشرية والمادية، وإذا واجهتها كانت مغامرة تتسبب في خسائر فادحة وضحايا بشرية ثقيلة.

إن تكئين الأمة عموماً إنما يكون بمظاهر الدين بلا جوهره، تحافظ على الصلوات دون تحقيق نتائجها التي يدل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَتَّبِعِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرَاتِ﴾، وتصوم رمضان كل عام دون أن تحقق فوائده في التربية على خلق الصبر والتحكم في الشهوات والعواطف، والتضحية بها، وتقرأ القرآن وتحفظ السنة وتردد السيرة، بالرؤية العاطفية، بلا فهم وتفقه وعبر. وإن فهمت لا تقدر كيف تسقطها على الواقع، وترجمها في الحياة. وقد يبرر التباطؤ في ذلك بتأويلات عدة ليس لها أي أساس من الصحة. بل قد يصبح تدنيها في صورة تسيء إلى سمعة الإسلام عند أعدائها، حتى في حال كونها مظلومة من قبلهم.

ومعنى ذلك أن وسائل النهضة والتعبئة والتوعية التي تملكها الأمة غير مستخدمة كما استخدمها سلفها، كما جاء في بعض الآثار: «إن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله» (تاريخ الطبري 3/197).

وعلى سبيل المثال فواجبات الجامعات والمدارس في تربية الأجيال لم تكن تؤدي بشكلها الصحيح. ويكون الاساتذة والإداريون والطلبة كلهم مسؤولين عن تلك على حد سواء. و إنني أسألك :

من يحمل منا رسالة التوجيه و التكوين و التربية و يؤدبها كما ينبغي في مدرجات الجامعات وقاعاتها الدراسية وفصول المدارس ومجالس العلم في الجوامع والجمعيات؟

وهل تكون قدوة للطلبة في السلوك و الإبداع؟

ومن يعتني منا بجانب السلوك قبل العلم؟

وهل تقوم بتوعية أبنائنا الطلبة بأهمية السلوك و الإبداع؟

ومن يربط منا ما يدرسه من المقررات بحسب ما يحتاج

إليه المجتمع إقليمياً و دولياً؟

و من يهيمه ما تعاني منه الأمة في عصر العولمة، ثم يقترح

تطوير المناهج و مفرداتها بهدف معالجة ذلك من الجنور؟

الواقع أن الجامعات إنما أنشئت لخدمة المجتمع؛ فيجب أن تلبي حاجاتها

في جميع المجالات من خلال تطوير الدراسة و مناهجها، و عقد المؤتمرات

و المنتديات، و أهم ما تحتاج إليه الأمة إعداد أجيال قادرة على تحمل المسؤولية في

جانب تعليم المجتمع، و إصلاحهم من حيث السلوك و الاقتصاد و الصحة و البيئة

و توعيتهم بأهمية الدراسات المستقبلية في جميع مجالات الحياة، و دراسة كل جديد

يظهر في خطط الأمم الأخرى فيما يخصهم و فيما يخص علاقاتهم الخارجية،

و التخطيط الدقيق لمواجهة التحديات المحتملة في المستقبل حتى لا تفاجأ الأمة بها.

و كان ينبغي على الأساتذة أن يلتزموا بشعار الأنبياء (و أمرت أن أكون

أول المسلمين) يعني في التنافس على ما يطور المجتمع و يخدم العباد و البلاد بدءاً

من مكارم الأخلاق، فإن الإسلام يعني في حقيقته ثلاثة عناصر متكاملة و متناسقة

يبني بعضها على بعض هي: تربية المجتمع على مكارم الأخلاق و خدمة العباد

و البلاد.

أما تربية المجتمع على مكارم الأخلاق فكما جاء عن النبي ﷺ إنما بعثت

لأتمم مكارم الأخلاق، إنن يجب أن يكون شعار كل مسؤول من المسلمين (أنا أول

المسلمين) في أداء الواجبات و الامانات و العهود و غيرها من مكارم الأخلاق، بل

ينبغي أن يكون كل فرد من المسلمين لا سيما الدعاة و العلماء أولهم في الامتثال

بأوامر الله تعالى و الانتهاء عن النواهي، يعني بذلك أن يكون قوة لغيره من

المسلمين في ذلك، و كما جاء في القرآن: (و في ذلك فليتنافس المتنافسون)، لكن

لسان حال الواقع أصبح ينبغي أن شعار معظمهم (أنا آخر المسلمين) في جميع

المكارم.

و أما خدمة العباد و البلاد فإن مشكلتنا أن لا تربط الجامعات

و المؤسسات بالمجتمع إلا في إطار ضيق، و لا ننظر في برامج تعليمها

و لا مفرداتها و مدى حاجتها إلى إصلاحها و تطويرها بحيث يخدم العباد و البلاد، لا

سيما في العلوم الشرعية، أصبحت مناهجنا و مفرداتها و تدرسيها بل الأساتذة و الطلاب على حد سواء بعيدة عما يجري في المجتمع.

و أخطر ما نعانيه اليوم هو الفرقة و البعد عن قول الله تعالى (واعصموا بحبل الله جميعا) لأسباب تافهة أحيانا، مع وجود تنافس شديد بين أفراد الأمة في التدين الظاهري.

و ماذا عملنا في معالجة هذا التمزق و الفرقة أمام الأعداء عن طريق الجامعات و المدارس؟ هل قمنا بتطوير المناهج في العلوم الشرعية بحيث يعالج ذلك، مع إبقاء الحرية الكاملة و الاحترام في الآراء الشخصية و اختلافهم في الفهم و الاستنباط؟

من منا يطبق على مستوى الدول و المجتمع و الأفراد قوله تعالى :
 ﴿و لا تستوي الحسنه و لا السيئة، انفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم. و ما يلقاها إلا الذين صبروا و ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (سورة فصلت الآية رقم 24، 25).

و قوله تعالى : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنه و جادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله و هو أعلم بالميتين﴾،
 (سورة النحل الآية رقم 125).

و من منا يطبق على مستوى الدول و المجتمع و الأفراد في كل القضايا الدعوية و المصيرية الجوانب الاستراتيجية التي علمنا إياها النبي ﷺ من خلال سيرته التي قامت على تخطيط ودراسة و صبر و عقل و تدبير و حكمة في مجال الدعوة و الهجرة و السلم و الغزوات و إرسال الوفود و مواجهة الفرقة و حفظ سمعة المجتمع الإسلامي أمام الأعداء و وحدته.

و من منا يطبق في حياته قوله ﷺ ﴿خالق الناس بخلق حسن﴾
 و أين القرآن في أعمالنا و حياتنا كأفراد و دولة ؟ إلا في الألسنة!
 و أين سنة النبي ﷺ في حياتنا كأفراد و دولة ؟ إلا في المظاهر !!
 و كان علينا أن نبحث عن ثغرات الأمة كلما تظير فيهم الفرقة أو الفتن
 لنعمل سويا على سدها لتبقى الأمة على وحدتهم امتثالاً لقوله تعالى :

﴿واعصموا بحبل الله جميعا و لا تفرقوا﴾ و معنى هذا أنه يجب علينا أن نحافظ على هذه الوحدة المقدسة و لا يصدر من شيء يسمى (بئسنا من موقف سئبي،

ولا يكون رأينا إذا خالف آراء الآخرين سببا للفرقة والتحزب والصراع، بل يجب عليه أن يستعد للتضحية بنفسه ونفيسه ورأيه في سبيل المحافظة على اعتصام الأمة بحبل الله تعالى.

ومن أهم ما نراه اليوم من أسباب الفتن والتفريق سوء تعاملنا مع القرآن فهما وتحليلا وتطبيقا، وكذا السنة النبوية نسيء معها تصحيحا وتحليلا، وتفسيرا وتحليلا، في غياب المنهج السليم والمرجعية الأصيلة لذا يجب أن يكون تدرسنا للحديث وعلومه في الجامعات لتؤسس في وجدان الأجيال منهاجا صحيحا لتعاملهم في المستقبل مع نصوص نبوية تصحيحا وتضعيفا وتفسيرا وتطبيقا. أما أن ندرسها بدون ربطها بالمجتمع وما يحدث فيه من قوضى، فإن معظم الطلبة لا يعطون أهمية في استيعابهم لتلك العلوم. وبالتالي تصبح جهود الدولة في تربية الأجيال ضائعة ودون فائدة تذكر.

تعد تلك الملاحظات العابرة التي سقناها كقراءة لواقع تدين الأمة في العصر الحديث فما هي الأفاق المنتظرة؟

بناء على المقدمة السابقة يمكن أن نحدد -على الأقل- عنصرين، يتعين الحديث عن الأفاق عن خلالهما وهما :

أ- وجود مؤسسات علمية كثيرة لم يسبق المجتمع الإسلامي أن رآها من قبل.

ب- وجود حس إسلامي منتشر ومتوغل في النفوس بدون استثناء.

ولكن كيف يمكن تفعيلهما؟

تلك هي المشكلة التي نعانيتها بخصوص الأفاق والطموحات !

أما المؤسسات فهل تنتج صناعة معرفية أم تعيد المعرفة في صورة مكررة؟

وهل نملك شروط إنتاج المعرفة ؟

ما مدى توظيف المعرفة المنتجة ؟ وهل نملك شروط المعرفة لتوظيفها ؟

وما نوع المعارف التي نوظفها على المستويين: خدمة العباد وخدمة البلاد؟ وهل

نملك شروط المنهج الصحيح للطرح المعرفي و التوظيفي؟

و أما فيما يخص وجود حس إسلامي منتشر فهل هذا الحس واع؟ ما مدى

هل يمكن أن يشكل مشروعاً فعالاً في الحياة الفكرية و العملية؟
 كيف يتم إرشاده من طرف الجامعات و المؤسسات لكي تصنع منه قوتياً؟
 كيف تحول الدول الحس الشعبي الديني إلى قوة تخدم المجتمع الدولي؟
 يجب علينا أن نتفرغ لدراسة هذه الأسئلة و تحليلها بشكل دقيق مع التجرد
 عن جميع أنواع العصبية و العاطفية، لكن المشكلة قائمة فيما يخص تنفيذ المقترح
 و التوصيات التي تتخصص عنها الدراسة إذا لم نتبناها الدولة !!
 * و كذلك جعلناكم أمة و سطا لتكونوا شهداء على الناس..* (البقرة الآية
 143).

بدأ الإسلام غريباً و سيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغزباء* (مسلم 1/150)
 لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى
 يأتي أمر الله و هم كذلك* (مسلم 3/1523).

أهم الوسائل العلاجية لطاهرتي الغلو والتطرف الطاعيتين على واقع التدين المعيش

الأستاذ الدكتور نصر سلمان

جامعة الأمير نقادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة

مقدمة :

إن الغلو والتطرف يمثلان مجاوزة الحد، الذي حدده الشرع، ليلتزم به المكلف، قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾¹

فهذا الخطاب موجه للنصارى الذين قالوا على الله غير الحق، وذلك بمخالفتهم كتابهم بالإفراط، والغلو، وذلك بقولهم أشياء يزعمون أنها من دينهم، إذ جعلوا عيسى عليه السلام إلهًا، وقد دفعهم لذلك غلوهم في الاعتقاد بما يتعلق به عليه الصلاة والسلام، فبين لهم الله تعالى في هذه الآية صفات ثلاث للمسيح هي : صفة الرسالة، وكلمة الله ألقيت إلى مريم، وكونه روحًا من عنده تعالى، وأن ما زاد على هذه الصفات يعدّ خروجًا منهم عن حدود الدين، وغلوًا فيه وبالتالي يعدّ باطلا، مردودًا.²

قال الدكتور محمد الشريف الرحموني : «وإذا كان النهي عن الغلو في الدين موجهاً — في هذه الآية — إلى النصارى لما جرّه عليهم من بلايا، فإن فيه عبرة واعتباراً للمسلمين : فهم أولى بالانتهاء عن الغلو من غيرهم، وأحق بهذا الخطاب ممن سواهم، حيث إن دينهم دين الرحمة، واليسر والعدل، والاعتدال يضع كل شيء موضعه، وينزل الناس منازلهم، فلا إفراط، ولا تفريط، ولا تفتيز، ولا تبذير، ولا منة، ولا سرف، ولا وكس، ولا شطط»³

كما أنّ الناظر في نصوص السنة النبوية الشريفة يرى فيها كما هنالك من الأحاديث الدالة عن النهي عن الغلو والتطرف اللذين يقعان في الحرج، والمشقة، ومن ذلك ما رواه سعد بن أبي وقاص — رضي الله عنه — قال لما كان من أمر

عثمان بن مظعون، الذي كان من ترك النساء، بعث إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: يا عثمان إني لم أؤمر بالرهبانية، أرعبت عن سنتي؟، قال: لا يا رسول الله، قال: إن من سنتي أن أصلي وأنام، وأصوم وأطعم، وأطلق وأطلق، فمن رعب عن سنتي، فليس مني. يا عثمان إن لأهلك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، قال سعد: فو الله لقد كان أجمع رجال من المسلمين على أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن هو أقر عثمان على ما هو عليه أن نختصي فنتبئ⁴.

هذا نموذج من السنة النبوية الشريفة نبينا به على غيره من النصوص الكثيرة، التي تملأ كتب السنة، والتي جاءت ناهية عن الغلو، الذي ينافي الفطر السليمة، ويخرج صاحبه من الوسطية، والاعتدال، إلى إفقاع نفسه في الحرج والضيق، والتطرف والغلو، هذه الأشياء التي يضر بها نفسه، قبل الإضرار بالآخرين، إذ بغلوه يخرج نفسه وذلك بمنعها عما أحل الله تعالى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾⁵.

بعد هذه المقدمة الموجزة التي توضح نهي الإسلام عن الغلو والتطرف، و تبين أن المسلمين أولى من غيرهم في تركهما، و الابتعاد عن الوقوع في سركيما، نودّ طرح مجموعة من النقاط التي نحسب أنها من الوسائل الفعالة في علاج ظاهرتي الغلو والتطرف التي غزت المجتمعات العربية والإسلامية، و جرت عليها كثيرا من الآلام والويلات.

و سنتناول هذه الوسائل عبر النقاط الآتية:

أولا - بث ثقافة التيسير و رفع الحرج عن الناس من قبل الدعاة و متصدي الفتوى إن من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية الغراء، وأهدافها السامية، هو الرفق بالناس، وذلك ببراء المفاسد عنهم، وجلب المصالح لهم، ولا شك أن ذرء الحرج والضيق عنهم من أعظم هذه المقاصد، وأجلها، وذلك لتماسيه مع روح الدين الإسلامي الحنيف، الذي يقوم على التيسير، والسهولة، ونفي المشقة، والعنت، والإثم، والجناح.

إذ المنصف لكتاب الله بخير يجد فيه كما هائلا من النصوص الدالة على التيسير ورفع الحرج عن المكلفين، و نبذ الغلو والتشدد، و هذا إن دل على شيء

فإنما يدل على رحمة الله بعباده و منه و كرمه عليهم، بأن رفع عنهم أصر المشاق و أغلال التعسير و الغلو و التطرف في آيات كثيرة، نحاول اجتزاء بعض منها، و إيرادها على سبيل التمثيل لا الحصر و ذلك على النحو الآتي :

1 - ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾⁶ .

2 - ﴿ إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ﴾⁷ .

بعد نزول هذه الآية خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو مسرور بضحك وهو يقول : **لن يغلب عسر يسرين لن يغلب عسر يسرين إن مع العسر يسرا**.

قال الجصاص معنفا : يعني أن العسر المذكور بنيا هو المثني به آخر لأنه معرف بالآلف واللام، فيرجع إلى المعهود المذكور، واليسر الثاني غير الأول، لأنه منكور، ولو أرك الأول لعرقه بالآلف واللام⁸

3 ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾⁹ .

4 ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾¹⁰ .

5 ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾¹¹

6 ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم ﴾¹²

إن الناظر في جزأ كتب السنة النبوية الشريفة، يرى أن أصحابها عقدوا فيها أبوابا عديدة، ضمتوها تلك السنن الحائثة على التيسير، ورفع الحرج، ودفع المشاق، سواء تعلق الأمر بجانب العبادات أو المعاملات بمفهومها الواسع، وستورد جملة من هذه السنن الكثيرة، للتنبية بها على غيرها وللتلليل بها على سماحة الإسلام ويسره، وذلك على النحو الآتي :

1) عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : **إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسندوا وقاربوا، واستعينوا بالغدوة¹³ والروحة¹⁴ وشيء من الثلجة¹⁵⁻¹⁶**.

قال ابن المنير : في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس فإننا أن كل منتطح في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكل في العبادة، فإنه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلي الليل كله،

يغالب النوم، إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل، فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس، فخرج وقت الفريضة، وفي حديث محجن بن الأدرع عند أحمد: "إنكم لن تتألوا هذا الأمر بالمغالية، وخير دينكم اليسر". وقد يستفاد من هذا الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية، فإن الأخذ بالعزيمة في موضوع الرخصة تتطع، كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء، فيفرضي به استعماله إلى حصول الضرر¹⁷.

(2) عن عائشة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - أنها قالت: ما خير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل¹⁸.

(3) عن عبد الله بن عمرو قال: رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند الجمرة، وهو يسأل، فقال رجل: يا رسول الله نحررت قبل أن أرمي، قال: "أرم ولا حرج" قال آخر: يا رسول الله: حلفت قبل أن أنحر، قال: "انحر ولا حرج" قال: فما سئل عن شيء فتم ولا أحر إلا قال: "افعل ولا حرج"¹⁹.

بين الحديث أن من تم عملاً من هذه الأعمال على الآخر لا إثم عليه، ولا دم، وذلك رفعاً للحرج.

قال الفرطبي: "روى عن عباس: ولم يثبت عنه أن من تم شيئاً على شيء فعليه دم" وبه قال سعيد بن جبير وقتاده والحسن، والشافعي، وجمهور السلف، والعلماء، وفقهاء أصحاب الحديث، وذلك استناداً لقوله - صلى الله عليه وسلم - : "لا حرج" فهو ظاهر في رفع الإثم والغدية معاً، لأن اسم الضيق يشملهما، كما قال الطحاوي: "ظاهر الحديث يدل على التوسعة في تقديم بعض هذه الأشياء على بعض"²⁰.

(4) عن أنس بن مالك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "إني لأدخل في الصلاة، فأريد إبطالها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه"²¹.

(5) عن عروة أن عائشة - رضي الله عنها - أخبرته أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج ليلة من جوف الليل، فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحذثوا، فاجتمع أكثر منهم، فصلوا معه،

فأصبح الناس، فتحذتوا، فكثُر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس، فتمسكهم ثم قال : أما بعد فإنه لم يخف عليّ مكانكم، ولكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها، فتوفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والأمر على ذلك. ²²

(6) عن أبي موسى قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال : **بُشِّرُوا وَلَا تَتَّقُوا وَبُشِّرُوا وَلَا تَعْسُرُوا** وفي حديث أبي التياح قال سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : **بُشِّرُوا وَلَا تَعْسُرُوا وَسَكُونُوا وَلَا تَتَّقُوا** وفي رواية أبي بردة عن أبيه عن جده أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعثه ومعاذا إلى اليمن، فقال : **بُشِّرُوا وَلَا تَعْسُرُوا، وَبُشِّرُوا وَلَا تَتَّقُوا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلَفَا**. ²³

(7) عن جابر بن عبد الله أن معاذا كان يصلي مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يأتي قومه فيصلي بهم، فجاءت ذات ليلة فصلى العتمة، وقرأ البقرة، فجاء رجل من الأنصار فصلى، ثم ذهب، فبلغه أن معاذا ينال منه، فتكى ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : **لَمَعَادَ قَاتِنَا قَاتِنَا أَوْ قَاتِنَا قَاتِنَا** ثم أمره بسورتين من وسط المفضل. ²⁴

ثانياً - الاهتمام بمنصب الفتوى وثقافة المفتي :

"لا شك من الفتوى منصب عظيم الأثر، بعيد الخطر، إذ المفتي قائم مقام النبي ﷺ فهو نائب عنه في تبليغ الأحكام، وتعليم الأنام، وإنذارهم بها لعليم يحذرون، وهو إلى جانب تبليغه عن صاحب الشريعة قائم مقامه في إفتاء الأحكام في المستبطل منها بحسب نظرد واجتهاده، كما اعتبره الإمام ابن القيم موقعا عن رب العالمين، هذا وقد عرف السلف للفتوى كريمة مقامها، وعظيم منزلتها، وأثرها، في دين الله وحياة الناس، فكانوا يتهيّبون من إصدارها، ويتريثون في أمرها، ويعظمون من قال: "لا أدري" وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم - مع ما رزقهم الله به من علم عزيز، ونفاذ للبصيرة، وشرف للصحبة، كثيرا ما يتوقفون عن الفتوى، ولا يجيبون، بل إن الواحد منهم كان إذا سئل تكلم وإنه ليرعد". ²⁵

فإذا كانت مكانة الفتوى بهذه الخطورة فإنه ينبغي ألا يفسح المجال للمتفقيبين والمتطعين و أشباه العلماء بتبؤا منصبها الجليل ، فكم من الفتاوى المشحونة بالغلو والتطرف ، و التي جرت على بعض البلدان الأما و ويلات ، و ذلك بتجويزها لتكفير المسلمين ، و سفك دما نهم ، و هتك أعراضهم ، و سلب أموالهم و ممتلكاتهم بغير وجه حق .

و لذا أرى لزاما أن يكون القائمون عليها ينصفون ببعض المواصفات التي تعصمهم من الانحراف و الانزلاق في عطيات التطرف و الغلو ، و التي منها :
 1 - أن يكون المفتي حافظا لكتاب الله تعالى ، ملما بأحكامه و إرشاداته ، وحلاله و حرامه ، و ناسخه و منسوخه ، و مجمله و مفصله ، و منطوقه و مفهومه ، حسن التلاوة له و الفهم فيه .

2 - أن يكون حافظا لجملة من أحاديث رسول الله ﷺ عارفا بأحاديث الأحكام محيطا بسيرة النبي ﷺ منركا لسنته ، ملما بحياته و الشبه التي يثيرها الأعداء حول شخصه الكريم ، و سيرته العظيمة ، عارفا كيف يدفع هذه السفاسف ، متأسيا بقدوته المثلى و أخلاقه العنيفة و بالجملة أن يكون القائم على الفتوى صورة من رسول الله ﷺ .

3 - أن يكون ملما بالتاريخ الإسلامي ، قائلنا ربح عبدة و الأيام ذكرى ، و الذكرى تنفع المؤمنين .

4 - أن يلم بالقصص القرآني ، قال تعالى : **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** 27 .

5 - أن يكون حسن القدوة : فما أقبح من ينصح الناس و يحيبهم عن فتاواهم ، و هو في حاجة إلى نصح ، و ما أجبل من يظن الناس و هو مريض و إليك ما قاله أبو الأسود الدؤلي (رحمه الله) :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا	كيما يصح به و أنت سقيم
لبدأ بنفسك فانهبها عن غيرها	فإذا انتهت فأنت حكيم
و هناك يسمع ما نقول و يُستغنى	بالقول منك و ينفع التعليم

لا تنته عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وما أشع صورة العالم الذي لا يعمل بعلمه. كما ورد في صحيح البخاري
ومسلم "يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتتلق أفتابه فينور بها كما ينور
الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون يا فلان ما سألتك؟ اليس كنت تأمرنا
بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟، فيقول : كنت أمركم بالمعروف ولا أتية، وأنهاكم
عن المنكر وأتية".

وصدق الشاعر العربي وهو يخاطب العلماء بقوله :

يا علماء الأمة يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد

6 - أن يكون القائم على الفتوى حاضر البديهة : إذ يمكنه الرد عن

تساؤلات و استفسارات المستفتين من مخزونه و رصيده العلمي الذي تحصن به
لإداء هذه الوظيفة التي ينبغي أن توكل للأذكياة و الناضجين من أبناء هذه الأمة ، و
لنا في تاريخ سلفنا ما يؤيد ذلك ، فهذا علي بن أبي طالب يفتي الناس وهو على
المنبر في مسألة عالت في المواريث، إذ جاءت الزوجة تسأل عن ميراثها من
زوجها الذي ترك أمًا وأبًا وبنين وزوجة، فقال الإمام علي عليه السلام من علي المنبر
الحمد لله الذي يحكم بالحق قطعاً، ويجزي كل نفس بما تسعى، وأليه المآب
والرجعى، وقد صار ثمن الزوجة تسعاً لأن المسألة تراجمت فيها نصبة أصحاب
الفروض فعالت من الأربع والعشرين للسبع والعشرين وأصبحت تعرف عند
الغرضيين بالمنبرية لإفتاء علي عليه السلام فينا من علي المنبر، ومن داخل مسجد
الكوفة⁽²⁸⁾.

7 - أن يكون المنصير للفتوى من ذوي الكفاءات القادرة على رد شبه

الغالين و المتطرفين : بحيث يكون سريع الرد، قوي العارضة شديد المعارضة في
الحق، ومثال ذلك ما وقع للإمام الشافعي (رحمه الله) أنه حضر نرسه بجامع
عمرو بن العاص رجل من خراسان فسأل الشافعي عن الإيمان، فقال له الشافعي :
ما تقول أنت فيه؟ فقال الرجل : الإيمان قول، فقال الشافعي من أين قلت بذلك؟
قال الرجل من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾²⁹ فصارت
الواو فصلاً بين الإيمان والعمل، فسأله الشافعي : أعتنك الواو فصلاً قال : نعم،
قال الشافعي : إن كنت تعبد الهين إليها في المشرق، وإليها في المغرب، لأن الله
تعالى يقول : ﴿رَبِّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبِّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾³⁰. قال الرجل : سبحان الله

أجعلتني وثيقاً؟ قال الشافعي : بل أنت جعلت نفسك كذلك بزعمك أن الواو فصل (31).

كما ينبغي على من يتصبر للفتوى أن يتحرى الاعتدال في فتاواه وأن يتبع فيها طريق الدعاة لا طريق القضاة فيخرج الناس من دائرة الإسلام بفتاوى متطرفة بدعمها تطع وعلو، ومن ذلك ما وقع لأبي حنيفة لما قدم عليه جمع من الخوارج شاهرين سيوفهم قائلين : يا أبا حنيفة نسألك عن مسألتين إن أجبت نجوت وإلا قتلتك، قال : أعضدوا سيوفكم فيرويتها ينشغل قلبي، قالوا : كيف نغمدها ونحن نحسب الأجر الجزيل بأغمدها في رقبك، قال : سلوا ابن، قالوا : احدهما رجل شرب الخمر فعات سكرانا، والأخرى امرأة حملت من الزنا فعاتت في ولادتها قبل التوبة أهما مؤمنان أم كافرين؟ فسألتهما من أي فرقة كنا من اليهود؟ قالوا : لا، أمن النصراني؟ قالوا : لا، أمن المجوس؟ قالوا : لا، فممن كانوا؟ قالوا : من المسلمين، قال : أجبتهم، قالوا : أهما في الجنة أم في النار؟ قال لقول فيهما ما قال الخليل - عليه السلام - فيمن هو شر منيها **﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فاتك غفور رحيم﴾** ³²، أو كما قال عيسى - عليه السلام - **﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فاتك أنت العزيز الحكيم﴾** ³³.

فتكسوا الزروس وانصرفوا قائلين نزل إلى الله مما كنا فيه (34).

ثالثاً - الاهتمام برسالة المسجد :

إن المتأمل لكتاب الله تعالى يلحظ اهتمامه البالغ بالمسجد، إذ ورد ذكره فيه ستاً وأربعين مرة (35) :

ومعلوم أن شيئاً يتكرر ذكره هذه المرات كلها إلا دليل على أهميته ومكانته في حياة الأمم والأفراد وأن له دور القيادة والريادة في التوجيه والتعليم والإرشاد، هذا وإن الرائي والدارس لتاريخ المسجد في الإسلام يقر بالدور الرسالي الذي كانت تلعبه هذه المساجد في عصورنا الذهبية المجيدة .

ولا شك أن على عاتق المسجد مسؤولية ضخمة تنوء بحملها الجبال الرساليات في محاربة ظاهرتي الغلو والتطرف ، وذلك عن طريق تنوير فئات المجتمع من خلال الخطب المنبرية و تروس الوعظ والإرشاد ، وخلق العلم النقي تقدم من خلالها الصورة الصحيحة للإسلام باعتباره دين الوسطية والاعتدال والرحمة ونيل العنف والغلو والتطرف .

و مما يؤسف له أن ما نشاهده اليوم من غلو و تطرف في واقعنا المعيش
يلقى على الخطاب المسجدي في بروزه جزء من المسؤولية . إذ لم يعد يؤدي
رسالته كما كان يؤديها عبر تاريخ الإسلامي العطر .

و لقد وجدت نفسي و أنا أكتب هذه المداخلة أحاور المسجد قائلا³⁶ :

يا مسجدي يا موطن الضيياء .: و منبع الوصال و الإخاء

و مسكن الغريب في تاريخنا .: و مجمع العلوم و التفقاء

جيوشنا من مسجدي قد خرجت .: و حطمت معازل الأعداء

على حصائر لمسجدي .: قد أرسيت دعائم القضاء

و شيدت بساحكم مجالس .: للذكر و العلوم و الإفتاء

قد جئت يا مسجدينا لياكم .: مفتشاً عن هذه الأشياء

لم ألقها فقلت يا الهنا .: فما الذي دهم حضيرة السماء

و ما الذي أفرغها من روحها .: و ما الذي أرجعها حجارة جوفاء

و ما الذي جرّدها من دورها .: و ما الذي أخرجنا من عالم الأحياء

و لم تجد أسألني إجابة .: إلى نطقت صخورها الصماء

قائلة أخرجتني بسؤلكم .: رسالتي قد عبقها الأبناء

بساحتني تقاتلوا تطاحنوا .: و غيرهم قد جاوز الجوزاء

و فرزمت رسالتي و أهملت .: مينائي شرانم دهماء

و بعدما حاوطني ورد عن .: أسننتي أجهت بالكاء

ثم انصرفت مرغداً و مزبداً .: مردداً سيرجع الضيياء

رابعا - احترام التخصص : لو بحثنا في أسباب التطرف و الغلو لوجدنا من

أهمها و أبرزها عدم احترام التخصص . " إذ لكل علم أهله ، و لكل فن رجاله ،

فكما لا يجوز للمهندس أن يفتي في أمور الطب ، و لا الطبيب أن يفتي في شؤون

القانون ، بل لا يجوز لطبيب مختص في فرع معين أن يتقدم حمى فرع آخر ،

فكذلك لا يجوز أن يكون علم الشريعة كلاً مباحاً لكل من هب و نرج من الناس ،

بدعوى أن الإسلام ليس حكراً على فئة من الناس " ، و هذه كلمة حق أريد بها

باطل ، فكم نتج عن ادخال عدم المتخصصين لتوفيم في مسائل الشريعة من ماس

وويلات ، و تنأحر و تطأحن ، و علو و تطرف في الأحكام الصادرة عن غير علم و لا هدى و لا كتاب منير ، و قد عاب أسلافنا من العلماء العاملين على بعض من يتهافتون على الفتوى تون علم و تثبت و روية كافية ، و كان مما قالوه في ذلك : " إن أحدهم يفتي في المسألة لو عرضت على عمر لجمع لها أهل بدر " ³⁷ .

و لذا ينبغي احترام التخصص لتكون الأحكام صادرة عن علم و بصيرة لا عن جهل و هوى ، و بهذا يتم القضاء عن الأحكام المتطرفة التي غالباً ما كانت سبباً في فساد العباد و البلاد .

خامساً - القيام بحملات توعية واسعة النطاق عبر جميع وسائل الإعلام المرئية ، و المسموعة ، و المكتوبة قصد تعريف الناس بمخاطر الغلو و التطرف على الفرد و المجتمع و الممتلكات و الأموال و الأرواح . تكون مقرونة ببيان محاسن الوسطية و التيسير و الاعتدال .

سادساً - التشجيع بثقافة أدب الاختلاف : إذ ينبغي أن يتأصل في النفوس احترام الرأي و الرأي المخالف ، بحيث تتجذر ثقافة أدب الاختلاف في الأذهان ، فلا يكون الاختلاف مدعاة للغلو و التطرف في حق المخالف ، و ذلك بتكفيره ، أو التسيير به ، أو نعته بأشنع النعوت و أسوأها .

و لنعد إلى تاريخنا الإسلامي المجيد لتجتزىء منه بعض الشذرات العطرة من التشجيع بثقافة أدب الاختلاف لدى الصحابة رضي الله عنهم ، و إليك بعضها ³⁸ .

فهذا ابن عباس - رضي الله عنهما - كان يرى أن الحد ينزل منزلة الأب و يسقط جميع الإخوة و الأخوات في الميراث مخالفاً في ذلك زيد بن ثابت الذي يرى توريت الإخوة معه . و لا يحجبون به . حتى قال ابن عباس يوماً : " ألا يتقى الله زيد . يجعل ابن الأبن ابناً ، و لا يجعل أب الأب أباً ، و قال : " لو دنت أتي و هؤلاء الذين يحالفونني في القريضة تجتمع . فنضع أيدينا على الركن ، ثم نبتل فنجعل لعنة الله على الكاذبين " .

فابن عباس - رضي الله عنهما - الذي بلغت ثقته بصحة اجتهاده و خطأ اجتهاد زيد هذا الحد الذي رأيناه ، رأى زيد بن ثابت يوماً يركب دابته ، فأخذ يركابه يقول به ، فقال زيد : تتخ يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيقول ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلماننا و كبرائنا ، فقال زيد : أرني يدك . فأخرج ابن عباس

يده ، فقبلها زيد ، و قال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ، و حين توفي زيد قال ابن عباس : هكذا ذهب العلم ، لقد دفن اليوم علم كثير .

و هذا عمران بن طلحة الذي كان في الصف المناويء لعلي بن أبي طالب عليه السلام يدخل عليه بعد الفراغ من معركة الحصل فرح به و يديه و يقول : اني لأرجو أن يجعلني الله و ليك من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ و نزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾³⁹

ثم أخذ يسأله عن أهل بيته فردا فردا و عن علماته و أمهات أولاده⁴⁰

سابعا - عدم مقابلة التطرف بالتطرف : إذا لا ينبغي مواجهة التطرف الفكري بتطرف فكري مماثل لأننا لو فعلنا ذلك توقعنا في نفس الجاوية التي وقعوا فيها ، حيث نزيدهم بتطرفنا عنادا و إصرارا على غلوهم⁴¹ ، و لنا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أسوة حسنة في موقفه من أهل الجمل الذين قاتلوه حين سئل عنهم أمشركون هم ؟ فيقول عليه السلام : " من أشرك فمروا " . قال : أمنافقون هم ؟ فيقول عليه السلام : " ان المنافقين لا يشكرون الله الا قليلا " . فيقال : فمن هم ان ؟ فيقول : " إخواننا بغوا علينا " ⁴² .

ثامنا - إصلاح البرامج و المناهج التعليمية : و هنا تبرز مكانة المدرسة ببرامجها و مناهجها في إخراج الفرد السوي ، الذي يقدر لرحله قبل الخطو موضعها، و الذي يزن الأمور بميزان الحق و العدل و المصلحة، لا بميزان التطرف و الغلو .

ولذا ينبغي أن تكون البرامج المدرسية ، لاسيما في مناهج التربية الإسلامية، و المدنية، و التاريخ، و الأدب مشبعة بمبادئ التسامح ، و قيم الأخي و السلام، و نبذ العنف و التطرف و الغلو، حتى نشأ ناشئتنا على هذه المبادئ السليمة التي تعصمنا من الوقوع في مطبات هذه الظاهرة العربية عن مجتمعاتنا و قيمنا الأصيلة.

تاسعا - عدم الاستعجال في إقامة الناس على الحق : إذ ينبغي إقامتهم عليه بالتدرج شيئا فشيئا، حتى لا يؤدي ذلك إلى نفورهم منه و تطرفهم في تركه جملة وتفصيلا، و من أحسن الأمثلة على ذلك أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه جاءه أحد أبنائه معتقدا قائلًا له : " ما لك لا تنفذ الأمور ؟ فواته ما أهالي لو أن القنور غلت بي و بك في الحق " .

قال عمر رضي الله عنه : " لا تعجل يا بني فإن الله ذم الخمر مرتين و حرّمها في الثالثة ، و إنني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعوه جملة ، و يكون من ذا فتنة " .

ثم قال : " و الله ما أستطيع أن أخرج لهم شيئا من الدين إلا و معه طرف من الدنيا، أستلين به قلوبهم ، خوفا من أن ينحرق علي منيهم ما لا طاقة لي به " .⁴³

عاشرا - الحفاظ على وحدة المسلمين و تجنب المعارك الطاحنة بسبب الخلافات الفقهيّة : و من المواقف العملية في ذلك أن أحد العلماء زار إحدى القرى لإلقاء محاضرة بيا في رمضان ، فوجد أهل القرية قد انقسموا إلى فريقين يختصمان حول صلاة التراويح ، أهي عشرون ركعة كما صليت في عيد عمر ، و توارثها الناس على مر القرون بعد ذلك ، أم هي ثماني ركعات فقط ، كما ورد أن النبي صلى الله عليه وآله ، كان لا يزيد على ذلك في رمضان و لا غيره ؟ رأيان تعصب لكل منهما فريق من أهل البلدة حتى كادا يفتتلان و كل يدعي أنه على الحق و السنة ، و أن الآخر على خطأ و بدعة ، فلما عرفوا أن هذا العالم قادم إليهم ، رضوا أن يحتكموا إليه فيما اختلفوا فيه ، و كل فئة تحسب أنه سيحكم لها ضد الأخرى و لكن ذلك العالم اتجه بهم وجهة أخرى .

فقال : ما حكم صلاة التراويح ؟

قالوا : سنة ، يثاب من فعلها ، و لا يعاقب من تركها .

قال : و ما حكم الأخوة بين المسلمين ؟

قالوا : فريضة دينية ، و دعامة من دعائم الإيمان .

قال : و هل يجوز في شرع الله أن تضيع فريضة للمحافظة على سنة ؟

إنكم لو أيقنتم على أخوتكم و وحننكم ، و انصرفتم إلى بيوتكم ، ليصلي كل منكم في بيته ما ترجح له و اطمأن إلى دليله : ثماني ركعات ، أو عشريين ، لكان خيرا من أن تختصموا و تقتتلوا .⁴⁴

و في الختام : نحسب أننا أمطنا اللثام عن بعض الوسائل و السبل الكفيلة بمعالجة ظاهرتي الغلو و التطرف من خلال النقاط المطروقة أنفاً ، سائلاً المولى بئخذ أن يطير البلاد العربية و الإسلامية من هذه الآفات التي تتخر كيانها و تغت عضدها ، و تجعلها عرضة للتفكك و التشرذم إنه سميع قريب مجيب ، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم تسليماً كثيراً طيباً مباركاً فيه . و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الهوامش :

- 1 - النساء : 171 .
- 2 - محمد الشريف الرضوي : الرخص للفقهاء من القرآن و السنة النبوية ص 160 .
- 3 - المرجع نفسه ص 161 .
- 4 - الترمذي : السنن ، كتاب النكاح . باب : النبي عن التبتل 2 / 178 - 179 .
- 5 - الأعراف : 32 .
- 6 - البقرة : 185 .
- 7 - الترح : 5 - 6 .
- 8 - الجصاص : أحكام القرآن 3 / 473 .
- 9 - البقرة : 286 .
- 10 - النساء : 28 .
- 11 - المائدة : 6 .
- 12 - الحج : 78 .
- 13 - العودة بالفتح سير أول التجار ، و المقصود استعينوا على أداء العبادة و مداومتها بايقاعها في الأوقات المشغلة كالغداة - انظر فتح الباري 1 / 95 -
- 14 - الروححة بالفتح السير بعد الزوال
- 15 - اللجة : بضم أوله و فتحه و إسكان اللام السير آخر الليل ، و المقصود إيداع العبادة في هذه الأوقات
- 16 - البخاري كتاب : الإيمان ، باب : الذين يسر . و قول النبي ﷺ : " أحب الدين لي الله الحنيف السمحة " ، 1 / 93 .
- 17 - ابن حجر : فتح الباري . 94/1 - 95 .
- 18 - مسلم . كتاب الفضائل باب : نبأخته - صلى الله عليه وسلم - للاثم . واختياره من النجاشية له و انتقامه ثم عند التهلك حرمانه . 1813/4 .
- 19 - الترمذي . كتاب المناقب . باب : فيمن قدم نسكه شيئاً قبل شيء . 2 / 89 - 90 .

- وهم في البخاري، كتاب الحج، باب : التقيا على الدابة، 569/3، وسلم. كتاب الحج، باب : عن خلق قيل
 التحرف، 948/2، وأبو داود كتاب المتناكب، باب : قيس قدم شيئا قيل شيء في صحبة، 211/2.
 والترمذي، كتاب الحج، باب : ما جاء فيمن خلق قيل أن ينسج، 358/3، وابن ماجه، كتاب المتناكب، باب :
 من قدم نكاح قيل نكاح، 1014/2، ومالك : الموطأ، كتاب الحج، باب : جامع الحج، 421/1.
²¹ - ابن حجر : فتح الباري، 571/3.
²² - البخاري، كتاب الأذان، باب : من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، 202/2.
²³ - الجامع الصحيح، كتاب صلاة التراويح، باب : فضل من قام رمضان، 250/4 - 251.
²⁴ - مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب : في الأمر بالتيسير وترك التعسير.
²⁵ - البخاري، كتاب الأذان، باب : إذا طوى الإمام وكان ثرجل حاجة فخرج فضلى، 192/2، وسلم
 كتاب الصلاة، باب : القراءة في العشاء، 339/1 - 340، والسنن، كتاب الافتتاح، باب : القراءة في
 العشاء الأخيرة يدسح لسورك الأعلى، وباب : القراءة في العشاء الأخيرة يدو الشمس وضحاها
 والشمس : كتاب الصلاة، باب : قدر القراءة في العشاء والفظ له.
²⁶ - القرضاوي، الفتاوى بين الماضي والحاضر، 25-28.
²⁷ - محمد عوضي سلام : من الظلمات إلى النور، ص 32 - 57.
²⁸ - يوسف/111.
²⁹ سعيد بويزري : أحكام الميراث بين الشريعة الإسلامية وقانون الأسرة الجزائري، ص 139.
³⁰ - لكيف : 107.
³¹ - الرحمن/15.
³² طوابة نور الدين : دور المسجد في المجتمع الإسلامي المعاصر - نقلا عن الشوقوي : أئمة الفقه السبعة،
 ص 157-158.
³³ - إبراهيم/38.
³⁴ - المائدة/120.
³⁵ طوابة : دور المسجد في المجتمع الإسلامي المعاصر، ب بحث عاجل مخطوط يقسم لتوزيعات -
 جامعة الأمير عبد القادر، ص 103.
³⁶ أحمد الداودي السجدي في الكتاب والسنة وأقول العلماء، ص 9-50 فأنمله فته تقيس.
³⁷ هذه الآيات تصاحب هذه المناخلة الدكتور : نصر الدين.
³⁸ - يوسف القرضاوي : الصحو الإسلامية بين الحدود والتطرف، ص 203 - 204.
³⁹ - طه جابر فياض العلواني : أئمة الاختلاف في الإسلام، ص 67 - 68.
⁴⁰ - الحجر : 47.
⁴¹ - طه جابر فياض العلواني : أئمة الاختلاف في الإسلام، ص 69.
⁴² - يوسف القرضاوي : الصحو الإسلامية بين الحدود والتطرف، ص 147.
⁴³ - السبيعي : السنن الكبرى 8 / 173.
⁴⁴ - الطيب برغوث : أم أفعية في الدعوة إلى الإسلام - ضرورتها السبل إليها - ص 52.
⁴⁵ - يوسف القرضاوي : الصحو الإسلامية بين الحدود والتطرف، ص 169 - 170.

الوضع الحضاري للأمة الإسلامية اليوم

وسبل النهوض بها

الدكتور نور الدين طوابة

كلية العلوم الإسلامية - جامعة أدرار

إن الناظر في حال الأمة الإسلامية اليوم وما تمر به من أوضاع مزرية للغاية يدرك بكل وضوح مدى التفقر والاندحار الذي وصلت إليه، كل ذلك نتيجة لفقدانها رسالتها الحضارية، ونورها الريادي المنوط بها في قيادة العالم نحو بر الأمان.

وإذا كنا نعتزف أن الإسلام كان نسرا محلقا في الأعالي يصل إلى قمم الجبال الشوامخ ويطل على العالم من عليائه، فإنه اليوم يقف مبيض الجناح لا يستطيع التحليق حتى في النزع، حيث أصبحت قيمه أحلاما في عالم المثل فلا يكاد يقف المسلم على شيء منها اليوم.

وإذا قلنا هذا فليس من باب الاستغراق في البكاء على الأطلال، أو قراءة المرثي على الماضي التليد، لأن هذا الزمن قد ولي، كما أن الظروف التاريخية لحل مشكلاتنا اليومية المعقدة لم تعد مجدية في الوقت الراهن، إذ لا بد لنا من فقرة نوعية وإفلاع حضاري مشهود حتى نستطيع قوى التغيير أن تتصد الحلول لمشكلاتنا المعاصرة من منطلقنا الإسلامية، ولتقديم الإسلام الصحيح الذي يقنع الأمة بأنه قاعدتها ووسيلتها الوحيدة للتحرك من أجل البناء الحضاري المنشود.

ولعل السؤال الكبير والملح، والذي بات مطروحا اليوم هو:

1 - ما هي الوضعية الحقيقية لواقع الأمة الإسلامية اليوم؟.

2 - ما هي الأسباب الواقعية والموضوعية التي أوصلت هذه الأمة إلى ما

هي عليه الآن؟

الوضع الحصارى للأمة الإسلامية اليوم وسبل المهوض بها

3 - كيف يمكن لهذه الأمة النهوض من هذا التزدي حتى تترك ما كانت فيه ثم تبني عليه؟ وما السبيل إلى ذلك في ظل هذا التكاثر العالمي ضد كتاب ربها وسنة نبئها وكل ما يمت إلى دينها وعروبيتها بصلة؟.

أسئلة أطرحها لأحاول الإجابة عليها في هذه المناخلة المتواضعة من خلال رؤية أرى فيها علاجا لمشكلات أمتنا القائمة، وذلك حتى يتمكن لها أن تضع أقدامها على المسار الصحيح، لتسلك طريق العودة إلى المورد الصافي ولتستحيب لمختلف

التحديات، ولتعود لصفاتها الحقيقية التي وصفها بها القرآن الكريم بأنها خير أمة أخرجت للناس.

1 - تمهيد عن الوضعية الحقيقية لواقع الأمة الإسلامية اليوم:

لاشك أن الأمة الإسلامية الآن تجتاز مرحلة من العجز وفقدان التوازن إزاء مواجهة العديد من التراكمات تكاثفت عليها عبر الأجيال، ولعل من أهمها وأخطرها التخلف الحضاري، وفقدان الهوية، أضف إلى ذلك الكثير من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، فصار من المنطق والمعقول أن تصبح هذه الأمة التي تعيشها هذه الأمة عميقة الجنور.

ورغم أن المسلمين أحسوا بهذا التدهور ولكن بعد أن قامت زمام الأمور في العالم من أيديهم بسقوط الخلافة الإسلامية¹، وائلت شمس هذه الأمة إلى الغروب.

كل ذلك لأن المسلمين اشتغلوا بأهوائهم عن دينهم وبمأربهم الشخصية عن أهدافهم المصيرية وغاياتهم السامية، رغم أنهم كانوا أنفع الأمم للناس، حيث سار خبير هذه الأمة يتعدى حدود أفاق الدنيا جميعا، ومن ثم يجب أن يكون ذلك السابغ الخبز أبرز ما يلتفت أنظار العالم إلى هذه الأمة التي تبين بالإسلام والذي باسمه تتحرك وباسمه تجذب العوام والخواص².

إن فواقع الأمة الإسلامية اليوم يعدّ تون ريب واقعا مؤلما، وهو واقع يسير في اتجاه مضاد لكل مثلها وقيمتها الدينية والحضارية، فالنزاعات قائمة بين أبناء هذه الأمة أكثر منها في أي مكان آخر من العالم، وأمور المسلمين المصيرية يقررها تحيزهم.

هذا الواقع المتردي لا يجنبه الشرفاء من أبناء هذه الأمة، وإن كان غيرهم يعمل في اتجاه معاكس لطموحاتها وأمالها.

فلماذا يا ترى هذا البون الشاسع بين النموذج والواقع؟ ولماذا ترى أمتنا الإسلامية اليوم وقد تفرقت السبل بأبنائها؟ هل الخلل في المشروع الحضاري الإسلامي الذي تطرحه أم أن الخلل يكمن في الواقع المشحون بالتناقضات والعلية بالمغامرات والذي يعيشه أبناء هذه الأمة؟.

إنه من المعروف لدى كل عاقل أن إصلاح حال أمتنا لا يتم إلا بزيادة أبنائها، فإن صححت الإرادات وصدقت العزائم وخلصت النيات فلا شك أن النصر سيكون حليف هذه الأمة وهذا قانون إلهي ثابت لا يتأخر عبرت عنه الآية الكريمة (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)³.

وإننا لا نزال نأمل في غد مشرق لهذه الأمة، تتوحد فيه جهودها ورؤاها وتتفق على الأقل على الحد الأدنى من الأهداف والقضايا المصيرية⁴ لتخرج من حالة الضياع التي تعاني منها منذ حقبة من الزمن.

2 - أسباب تردّي أوضاع الأمة الإسلامية اليوم:

إن من أهم أسباب تخلف المسلمين إذا أردنا أن نجمل ولا نفضل، هي:
1 - بعدهم عن الإسلام الحقيقي، وعدم تطبيقهم له مرة وسوء فهمهم له مرة أخرى، رد على ذلك أن بعضهم يربط تخلف المسلمين بالإسلام ويدعى أن الإسلام هو السبب الأول في تخلفهم.

رغم أن الوقائع التاريخية تقول عكس ذلك حيث أننا كلما نظرنا في هذه الوقائع نجد إنما يحدث النصر والقوة، ويحدث المد عندما يقترب المسلمون من الإسلام، نجد عصر الخلفاء الراشدين عصر عمر بن عبد العزيز.. عصر هارون الرشيد الذي كان رجلاً مسلماً يحج عاماً ويغزو عاماً آخر، وعصر صلاح الدين الأيوبي كلما اقترب الناس من الشريعة نجد النصر والقوة والرخاء حليفهم، وإذا ابتعدوا عنها تحدث الهزيمة والإنكسار المنيين⁵.

ونحن في عصرنا عندما ابتعدنا عن الإسلام منينا بالهزائم من كل جانب وأصابنا بالاستعمار وغيره من الكوارث والأزمات، ولذلك فهذا التخلف سببه البعد عن حقيقة الإسلام فيما وإيماناً وتطبيقاً.

2 — ما واجبه العالم الإسلامي ويواجهه من هجمات شرسة ضد الإسلام، وقد تنوعت هذه الهجمات بين الاحتلال العسكري للبلدان الإسلامية والغزو الفكري والإيديولوجي: فالاستعمار الحديث والصهيونية والصليبية والثيوية و القرنكفونية والانجلوفونية والاستشراق والتشهير كلها حاولت أن تحد من عظمة المد الإسلامي وأن تطفي نوره⁶.

وكان نجاج هذا كله غزو فكري أغرق العالم الإسلامي الحديث في مشاكل زائفة ومارس ضغوطا قمعية على طاقته الإبداعية ومبادئه الخلاقة التي كان بإمكانها إيجاد حلول جذ نافعة للظروف المناسبة من المنظور الإسلامي النقي.

3 — أن ما لوقع الأمة الإسلامية في الضعف والفقر والتخلف، ليس سببه ضعف قواتها العسكرية أو قلة ما تملكه من سلاح وعتاد، إنما يرجع هذا التخلف والتأخر إلى الضعف النفسي الذي أصاب المسلمين في عصورهم الأخيرة⁷، حيث فقدوا الثقة في أنفسهم إلى الحد الذي باتوا يعتقدون معه استحالة اللحاق بالركب الغربي في تقدمه. وحتى لو أدركوا ما عليه الغرب اليوم يكون هذا الغرب قد سبقهم بخطوات كبرى، تحيل توازن القوى بينهم بعيدا. وهذا مما كان يزيد في غمهم ونكدهم حينما ويغرقهم في الشهوات والمذات حينما آخر.

4 — تولى أمور المسلمين رجال ممن ليس لهم الكفاءة اللازمة في ميدان الحكم والتسيير لأنهم لم يعتنوا له عدة، ولم يأخذوا له أهبة، ولم يتلقوا تربية دينية و خلقية كالتي تلقاها الأولون وكثيرون في عصرهم و جيلهم، ولم يساغوا تعاليم الإسلام إساعة تليق بقيادة الأمة الإسلامية

والاضطلاع بزعامتها⁸، بل هناك منهم من تلقى تربيته وتعليمه على أسس غربية فوعدت تحريفات في الحياة الإسلامية، وتحررت السياسة من رقابة الدين، ومن ثم أصبح رجال الدين والعلم طبقة متميزة، ورجال الدنيا طبقة أخرى لها مميزاتهما، والشقة بينهما واسعة، و في بعض الأحيان يكون بينهما من العداة والتنافس الشيء الكثير.

5 — ابتعاد الدين عن السيطرة على حركة توجيه المجتمع فزال بذلك نظام الاحتساب، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطاتها، وأخذ الناس إلى الترف والتعيم وإلى الملاهي ودور السنما والملاعب، وانغمسوا في المذات والشهوات، ومع هذا الانهماك في اللهو ضاع أفراد المجتمع بين دين

مخرف وداعية مخرف، وبين دنيا لا ترحم مزبديها حتى تغرقهم في شهواتها فلا هم تمتعوا بحياة حميدة ولا عملوا لأخرة سعيدة: (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا).

6 - ظهور الكثير من البدع في أوساط المجتمع الإسلامي حتى أنها شغلت مكانا واسعا من حياة المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح⁹، وعن دنيا العلم والتطور؛ ولقد كان للصوفية والطرفية نصيب وافر في نشر هذه البدع والضلالات نظرا لما كان لأغلبهم من حظوة ومكانة عند قوت الاحتلال في العالم الإسلامي ككل.

7 - ومما ساعد على استمرار هذا التدهور أن العلماء والمفكرين المسلمين لم يعتنوا بالعلوم الطبيعية التجريبية وبالعلوم العملية المثمرة المقيدة اعتناءهم بعلوم ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلينية التي نقلوها من اليونان، وقد أغنى الله المسلمين عنها وكفاهم هذا البحث والتقيب¹⁰، ورغم ذلك فقد ظلوا قرونا طويلة يجهلون أنفسهم مع هذه العلوم والمباحث في غير جهاد، ويضيعون نكاهم في مباحث فلسفية وكلامية لا تجدي نفعا؛ ويتشاكلون بها عن العلوم والاختيارات التي تسخر لهم قوى الطبيعة ويسخرونها لمصلحة الإسلام، ويتسطنون بها سيطرة الإسلام بعقيدته وشريعته على العالم كله.

8 - وخالصة القول فإنه بالإضافة إلى ما ذكر هناك العديد من العقبات الكبرى التي كانت سببا في تخلف المسلمين وتردي حالهم وبغائهم على ما هم عليه من سوء الحال وقد أجملها الدكتور محمد النبي - رحمه الله - في سبعة عناصر هي:

أولا: تقسيم الأمة الإسلامية.

ثانيا: الفصل بين الدين والدولة وممارسة شؤون الحكم (العلمانية).

ثالثا: الفصل بين الدين والعلم (ليس في الإسلام خصومة بين الدين

والعلم).

رابعا: وسائل الإعلام وسخريتها من اللغة الفصحى ومن القيم.

خامسا: تطلع المرأة المسلمة إلى حياة المرأة الغربية وأسلوب علمها.

سادسا: التكنل بين القوى المسيطرة في مواجهة الإسلام.

سابعا: الفصل بين الحكم والدعوة الإسلامية.¹¹

3 - سبيل النهوض بالمسلمين:

لا شك أنه يتطلب على المسلمين لكي يخرجوا من هذه المعاناة القيام بجملة من التدابير المادية والمعنوية، وذلك بالتخلي عن مجموعة السلبات، والأخذ بأسباب التغيير من الإيجابيات التي ستعرض لبعضها، حتى تجد الأمة الإسلامية سبيلها للخروج من هذا التدهور وهذه الوضعية المزرية وتعود إلى مواقع القيادة للبشرية ولعل أهم هذه التدابير والشروط يمكننا إجمالها فيما يلي:

1 - ضرورة إيمان المسلمين بدورهم الإنساني والعالمي، وأن الأزمة الإنسانية الكبرى التي تمر بها في حاجة إلى روح الإسلام العالمية، وفكره الإنساني، وتقاليده وأساليبه في التقريب، وقدرته على التنسيق¹²، لأنه إذا لم يؤمنوا بهذا الدور الرسالي فلا يمكن لهم الترشح لقيادة البشرية مرة أخرى.

2 - أن يفهم المسلمون الإسلام فهما حقيقيا، ويعملوا به عملا متكاملا، ليتمكنوا من إقامة حضارتهم كما أقامها أسلافهم، وأن يؤمنوا بأنه لا طريق لتحصننا وتحقيق تقدمنا إلا بالإسلام ولأن الأصالة والمعاصرة هما الطريق للتحضير، وكما أن الحرية لا تمنح فكذا الحضارة لا توهب ولا تشتري حتى وإن استوردت كل منتوجات الحضارة فالحضارة شيء ومنتوجاتها شيء آخر، وذلك لأن الحل الصحيح يكمن في الخلق الحضاري أي في إبداع أصيل يتماشى وروح الشريعة الإسلامية¹³، ويستجيب للأوضاع الجديدة للعالم الإسلامي، إذ من الضروري إبداع الحلول لمشاكل الاقتصاد والإنتاج والاكتفاء الذاتي من المنظور الإسلامي الصافي.

3 - العمل على تربية الأمة التي تعيد بناء كيان الإنسان والكون والحياة، مع المحافظة على ذاتية الأمة من الانصهار لأن ذلك أن من أخطر العوامل التي تقف هذه الأمة شخصيتها وقوتها وقيمتها، كما أنه لابد من العمل أيضا على تحقيق النصور الحضاري الإسلامي الذي يبدأ بدرجات عميقة في قضايا الفكر ومناهج إصلاحه، وينتهي بإسلامية المعرفة وطرح البديل الثقافي المتكامل¹⁴، وذلك بالعودة الواعية للتعامل مع الكتاب والسنة. ومن خلال هذا يمكن تحقيق تصور حضاري يسعى إلى بناء أمة ومجتمع ونولة حديثة قوية متمسكة تقوم على احترام الإنسان كخليفة الله في الأرض، وهذا حتما سيؤدي إلى تحقيق التمكين لدين الله مع ضمان الثوابت التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم.

4 - أن يعلم المسلمون أن التغيير الحقيقي لابد أن يبدأ من الداخل ولا يستورد من الخارج، كما أن إصلاح الداخل هو الطريق الوحيد لإصلاح الخارج، ولأن إصلاح الخارج لا يؤدي لإصلاح الداخل حتماً قال تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)¹⁵. كما أن التغيير نحو الأحسن يعتبر من خصائص المنهاج الحضاري الإسلامي وهو يرفض: الترفيع والترميم، ويرفض أنصاف الحلول أو أرباعها¹⁶، ويرفض المساومة في العبادات ويرفض التعاضد مع أهل الكفر والانحراف وقد كان نهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - تغييرياً. وطرق الدعوة والتغيير كثيرة وأساليبها متعددة، يمكننا تلخيصها مثلاً في زيارة الدعاة وأهل العلم للقري والمدن وتنظيم الخطب والندوات، ونشر الكتب والمقالات ومدارس كتب السيرة وأخبار الصحابة وكتب المغازي والفتوح الإسلامية وأخبار أبطال الإسلام وشهادته مع إمكانية استخدام الراديو والتلفاز والصحافة والأدب، وجميع الوسائل السمعية البصرية العصرية الممكنة والتي لها دور حيوي وفعال في الدعوة إلى الإسلام، زيادة على تقوم به الجامعات والمعاهد الإسلامية التي ينتظر أن يكون دورها جدياً فعالاً في هذا المجال.

5 - العمل على تخلص الناس من المفاهيم الحضارية الدخيلة؛ لأن هذه المفاهيم في جملتها هي التي خرجت بالإسلام عن روحانيته الصافية، وأصوب طريق لاقتلاع هذا المرض من جذوره يكمن في إزالة التناقض الكبير بين مختلف دوائر أهل الحل والعقد، بين الهيئات والمؤسسات، والعلماء والزعماء، والشباب والشيوخ، والعلماء والشعراء، والأدباء... وبين الواقع والإعلام، وبين السياسة الداخلية والخارجية... فهذا التناقض غطى على مساحة العالم الإسلامي كله، فلم يعد يعرف من الذي له الحق ومن الذي هو على باطل.

6 - ضرورة إبراز جانب العبقرية الإسلامية في مجالات العلوم والفنون ليأخذها المسلمون المبهورون فدوة حسنة، وذلك بتبيين كيف أنه لما كان جنود الفتوحات الإسلامية الأولى يفتحون البلاد للدعوة الإسلامية، كان جنود العلم يدنون العلوم المختلفة ويضعون القواعد ويرسونها لأقوى نهضة فكرية علمية عرفها تاريخ البشرية حتى عصرهم¹⁷، وأن نهضة فكرية تبلغ هذه الدرجة في تلك الفترة القليلة، لهي حضارة قائمة على مقومات خاصة، جعلتها تسبق حواجز الزمن لكي تصل إلى منارج الكمال، لتصبح حضارة جنيرة بالبقاء.

7 - ضرورة العمل على توسيع نطاق عوامل الوحدة بين أقطار الأمة الإسلامية وذلك من خلال الثقافة والفكر والتراث والعلم وتقليل مساحة الخلاف¹⁸، وخلق جو من الثقة بالنور العظيم الذي قامت به هذه الأمة عبر تاريخها الطويل، وتأكيد عامل الإيمان بقدرة هذه الأمة على امتلاك مكان القيادة والريادة وإعادة البشرية إلى الله تبارك وتعالى عن طريق تبليغ الإسلام وقيادة الزكك الإنساني وإتقان المجتمع البشري من الانتحار والانتحار.

8 - ولعل من أهم عوامل هذه الوحدة: تلافي عيوب الماضي لأن الجسم السقيم لا يستعيد قوته إلا إذا سلم من الأمراض التي أضعفته ونفي من الأدوية التي أرهقته¹⁹، وقد أرهق المسلمين الفهم الحاطي لتعاليم الإسلام والتشتت الذي فرض عليهم من قبل الاستعمار العالمي.

9 - ضرورة اتحاد المسلمين روحا وجسدا، وأقصد بالوحدة بين المسلمين أو الوحدة الإسلامية اتحاد الشعوب المسلمة فكريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا²⁰، حتى يكون أحاد هذه الأمة في كفالة جماعتهم فيشعروا بأن عليهم حقوقا لمجتمعهم، وللمجتمع حقوقا عليهم أيضا.

10 - وإذا كان العمل من أجل تحقيق هذه الوحدة الإسلامية، شرف بانذخ ومجد شامخ، فيجب على العرب قبل غيرهم من الأجناس التي تكون الأمة الإسلامية الكبرى، أن ينزكوا هذه الحقيقة وأن يربطوا ولاءهم بتبنيهم لا بجنسهم، وأن يستضربوا في نهضتهم بشرائع الإسلام وشعائره²¹.

صحيح أن تحقيق الوحدة أمر جد عسير ومهمة صعبة للغاية، لذلك كان من اللازم أن تنذل في سبيلها جهود عظيمة متواصلة وتضحيات كبيرة على كافة الأصعدة والمستويات، على صعيد الفرد والجماعة وعلى صعيد العلماء والزعماء وعلى صعيد الفكر والأدب، وذلك لما يعترض طريق الوحدة من عراقيل ومشكلات وتحديات ولكن الأمر غير مستحيل إذا صنعت العزائم وحسنت النوايا وتضافرت الجهود.

11 - نشر الوعي الإسلامي العام وترسيخ القيم الإسلامية بين الشعوب المسلمة²² فكانما كان الناس أقرب إلى التمثل الإسلامي والاهتداء بهدي النبي - صلى الله عليه وسلم - كانوا إلى الوحدة أقرب وبها لبق وهذا واضح وجلي عبر مراحل التاريخ الإسلامي.

12 - الاستعداد الصناعي والحربي: فإذا أرادت أمتنا الإسلامية الخروج من هذه الدائرة وأن تصطلح برسالة الإسلام وتملك قيادة العالم؛ فعليها بالمقدرة الفائقة والاستعداد التام في العلوم والصناعة والتجارة وفنون الحرب والقتال للدفاع عن النفس من أجل الصمود والبقاء²³، وهذا أمر مقاصدي مشروع، يمكنها من الاستغناء عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة.

ولا شك أنه بالاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والتفوق العلمي ينهض العالم الإسلامي ويؤدي رسالته فيسترجع مكانته القيادية وينفذ العالم من الانبياء الذي يهنده فليست القيادة بالهزل إنما هي جد واجتهاد وكفاح وجهاد²⁴

13 - لابد للقائمين بأمر المسلمين أن يحموا الصحوة الإسلامية من الإجهاض أو تقويت الفرصة كأساس لتضيعة المسلمين في هذا العصر. لأنها قامت على أساس الثقة بفضل الإسلام وبأنه الحل الوحيد لمشاكل البشرية وحاجة الإنسانية إليه²⁵، هذه الحركة التي تتسع وتنمو في حاجة إلى حماية وحصانة حتى تكتمل مرحلة بعد مرحلة، وهي من أهم عوامل ترشيح هذا المجتمع ومحاولة ربطه بما يشع من أمجاد أمتنا عبر تاريخها الطويل، والحافل بأمجاد الأسلاف وبطولاتهم.

• والذي يمكننا قوله في ختام هذه المداخلة هو: أنه يجب على المسلمين عموماً والدعاة على وجه الخصوص من طرح رؤية حضارية متكاملة حتى تسنم مظاهر الصحوة والعودة الجماهيرية إلى الإسلام. هذه الرؤية التي تعالج مشكلات الأمة القائمة بكل أنواعها وتضع الأمة على طريق التقدم والحضارة، وتعوضها عما فات، وتستجيب لسائر التحديات.

وهم مطالبون اليوم بتحديد طبيعة الحضارة المراد قيامها وبيان عناصر مستقبلها وقوانين حركتها وتمييز ما هو جوهرى أساسى في بناء الحضارات، وما هو عرضى، ولابد من معرفة كيفية تحقيق الاستخلاف الإلهي في الأرض، وما هو الدور المراد القيام به من أجل هذه الإنسانية إذا أردنا فعلاً تحقيق الوعد الإلهي: (كنتم خير أمة أخرجت للناس).

- 1 - طه جابر العلواني: خواطر في الأزمة الفكرية والمازق الحضاري للأمة الإسلامية، دار البعث قسنطينة 1989 ص 5
- 2 - محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام، دار الكتب الجزائر، 1987، ص 91.
- 3 - الرعدة: 11
- 4 - مفهوم وحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن والسنة، محمود حمدي زقروق، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي 22 سنة 1988 طبع مطبعة البعث 1993، ص 85.
- 5 - يوسف القرضاوي: هموم المسلم المعاصر، دار الشهاب بالقبة، ص 20.
- 6 - عبد اللطيف عبادة: العالم الإسلامي بين مواجهة التحدي والخلق الحضاري، مجلة الأصاله، السنة العاشرة جانفي فيفري 1981 ص 80.
- 7 - عمر التتاسي: الملمح المعهوب أستاذ الجيل حسن أحمد عبد الرحمن البنا دار المختار، نت، ص 67.
- 8 - أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم باحطاط المسلمين، مكتبة رحاب ط 12 سنة 1987، ص 132.
- 9 - المصدر السابق: ص 136.
- 10 - المصدر السابق: ص 135.
- 11 - أنور الجندي: صفحات مضنية من تراثنا الإسلامي، دار بوسلامة للطباعة والنشر تونس، ص 173.
- 12 - فتحي رضوان: الإسلام ومشكلات الفكر، دار المعارف بصره، ص 169.
- 13 - عبد اللطيف عبادة: العالم الإسلامي بين مواجهة التحدي والخلق الحضاري، الأصاله ص 81.
- 14 - طه جابر علواني: خواطر في الأزمة الفكرية مرجع سابق ص 19.
- 15 - الرعدة: 11.
- 16 - محمد أبو سليمان: بعض المقومات الحضارية للأمة الإسلامية، مجلة الإرشاد ع 1989 ص 23.
- 17 - محي الدين الألواني: الأمة الإسلامية ورسالتها الحضارية، منبر الإسلام العدد 1 1980 ص 172.
- 18 - أنور الجندي: الأمة الإسلامية وحدثها ووسطيتها، ملتقى الفكر الإسلامي 22 لسنة 1988، ص 17.
- 19 - عبد الرحمن عمر الماحي: كيف تكون الوحدة الإسلامية اليوم؟ مجلة العلوم الإسلامية عدد 3 جانفي 1992 ص 146.
- 20 - عبد الله بن إبراهيم بن علي الطريقي: الوحدة بين المسلمين، وأثرها في مواجهة التحديات الحضارية، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية السنة 12 العدد 32 أغسطس 1997 ص 156 وانظر كذلك محمد أبو زهرة: لتكافل الاجتماعي في الإسلام دار الفكر العربي ص 7.
- 21 - محمد الغزالي: سر تأخر العرب والمسلمين، دار الصحوة بالقاهرة ط 1 1985، ص 124، 125.
- 22 - عبد الله الطريقي: مجلة الشريعة، مرجع سابق ص 175.
- 23 - أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم باحطاط المسلمين مرجع سابق ص 272.
- 24 - المصدر السابق: ص 277.
- 25 - أنور الجندي: الأمة الإسلامية وحدثها ووسطيتها، مرجع سابق ص 19.

ملاحح مستقبل الإسلام

رسائل النور أنموذج متكامل لتقديم الإسلام إلى الغرب

الأستاذ إحسان مصطفى

مركز بحوث رسائل النور. استانبول

لعل هذا العصر هو أكثر العصور حاجة إلى تقديم الإسلام بالوجه الذي يليق به، حيث حلّ التخلف الشامل في المسلمين؛ وشهدت الحضارة الغربية تطوراً واسع النطاق. وعلى الرغم مما يشعر به الجيل الحاضر في الغرب من نفور تجاه الحضارة المادية، فإن الكنائس المسيحية عاجزة عن سد احتياجاتهم المعنوية وملء فراغهم الروحي. لذا نجدهم يتوجهون صوب الشرق بحثاً عن الهداية وملاً لما يعانونه من خواء روحي، ولا يخفى ما لمريدي الطرق الصوفية من نشاط واسع في هذا الميدان. ولكن في أغلب الأحيان ينصرفون مع الأسف نحو البوذية أو المعتقدات الباطنية والباطلة.

ومن هنا نجد الدكتور كولن تورنر الأستاذ في جامعة مانشستر بانكلترا، والذي اهتدى إلى الإسلام سنة 1975 يسأل السؤال نفسه ثم يجيب عليه محلاً:
السؤال: ماذا نستطيع نحن المسلمين أن نقدم للغرب؟.

والجواب: كل شيء... أو لا شيء..
فنحن نملك الإيمان والإسلام وهما كل شيء، ونحن نملك فيما ونفسيراً معينا للإسلام الذي هو في كثير من الأحيان لا يسمن ولا يغني من جوع، وعادة ما يكون المهتدون متحمسين جداً لمعرفة كل ما يمكنهم معرفته حول دينهم الجديد وفي أقصر مدة ممكنة. لذا فيبعد بضع سنوات من اهتدائي توسعت مكتبي بسرعة، فقد كان هناك الكثير لأتعلمه، وكانت هناك كتب عديدة مستعدة لتعليمي... كتب حول التاريخ الإسلامي، وحول النظام الاقتصادي للإسلام، وحول مفهوم الدولة في الإسلام، وكتب وكراسات عديدة حول القوانين الإسلامية (النظام الحقوقي في الإسلام)...

رجعت إلى هذه الكتب للعثور على جواب حول السؤال: ما معنى لا إله إلا الله؟ ولكنني أصبت بخيبة أمل... كانت هذه الكتب حول "الإسلام" وليس حول "الله"... كان في هذه الكتب كل ما يخطر على بال الإنسان من مواضيع... ولكن الموضوع الأهم لم يكن موجودا...

.. علماً أن النسبة بين الإيمان والإسلام في القرآن الكريم هي (5: 1) (خمس إلى واحد) وذلك لصالح الإيمان... ولكننا ترى أن هذه النسبة أصبحت في الكتب التي نشرت في ستينيات هذا القرن (1: 13) (أي كتاباً واحداً يبحث عن الإيمان مقابل 13 كتاباً يبحث عن الإسلام)... والنتيجة الحتمية لهذا هي أن التوجه نحو الغرب تركّز في تقديم الإسلام له كنظام وكنزيلة إيديولوجية، وتم هذا التقديم في الغالب دون الإشارة إلى حقائق الإيمان..

.. والمدنية الغربية المعاصرة هي المدنية الوحيدة التي لا تملك أي عقيدة دينية ظاهرة في قلبها، وهكذا فالغرب هو معنى ومجازاً أو رمزاً لكسوف شمس العقيدة وخسوف الإيمان... رمزاً لإقصاء الإله. وبما أن هذا الإقصاء والكسوف لم يعد منحصرًا على الغرب كموقع جغرافي، فإن الإنسان يستطيع أن يقول إنه أينما أفضيت حقائق الإيمان فالغرب موجود هناك.¹

نفهم من هذا أن حاجة الغرب إلى حقائق الإيمان وتنويع معرفة الله وراحة الاطمئنان القلبي أكثر بكثير من حاجته إلى فهم الإسلام نظاماً اجتماعياً واقتصادياً أو ما شابه ذلك.

ويحدد الأستاذ الدكتور طه عبد الرحمن الوسائل الناجعة في تقديم الإسلام إلى الغرب بالقيم الروحية الخالصة والمعاملة الأخلاقية الخالصة. وذلك بعد عرضه للأخطاء التي تقع فيها بعض الفئات. فيقول: "إذا كان خطأ الفئة الأولى أنها قد قدمت للمخاطب من الإسلام ما عند هذا المخاطب من القيم، فينبغي إذن أن نقدم للغرب من القيم ما ليس عنده أو ما يمكن أن لا يكون عنده، حتى يشعر بالحاجة إليه. وإذا كان خطأ الفئة الثانية، أنها قدمت للمخاطب جانب الناس من الإسلام، فينبغي إذن أن نقدم له من وجود النفع بالتي هي أحسن الموجودة في الإسلام ما ليس عنده أو لا يمكن أن يكون عنده، حتى يجد الاطمئنان إليه؛ ولا سبيل إلى إشعاره بالحاجة إلى قيم الإسلام إلا متى كانت هذه القيم تُصَحِّح القيم المادية التي تمسك بها وتتعالى عليها، وليست هذه القيم إلا القيم الروحية الخالصة؛

كما أنه لا سبيل إلى جلب الاطمئنان إليه إلا متى كانت معاملتنا له تفضل معاملته المنفعية لنا درجات وليس هذه المعاملة غير المنفعية إلا المعاملة الأخلاقية الخالصة.²

ما يؤهل رسائل النور لتقديم الإسلام على أفضل وجه:

بعد هذا التشخيص لحاجة الغرب من قبل عالَمين قاضلين ومفكرين جليلين أحدهما من الغرب والآخر من الشرق. ننظر إلى رسائل النور، لنرى مدى كونها أهلاً لعرض الإسلام إلى الغرب.

و في الحقيقة يمكننا أن ندرج تحت هذا العنوان مزايا كثيرة وكثيرة جداً في رسائل النور تؤهلها لتكون أفضل أنموذج لعرض الإسلام إلى الغرب، حيث إنها رسائل إيمانية قرآنية، إلا أننا نكتفي بالمزايا الآتية:

1- الخطاب النوري خطاب إنساني:

لاشك أن الخراب المادي والدمار المعنوي قد أصاب العالم أجمع، والإنسان هو المستهدف بالذات، وليس المسلم وحده. لذا نجد أن رسائل النور تسند خطابها على الإنسان وتفسح مجال الحوار إلى مداه الإنساني وتسعى لخلاصه من الكفر والإلحاد والضلال والضياع، وإيجاد الحلول لمشكلاته وهمومه الحقيقية من حيث هو إنسان، سواء أكلن مسلماً أم غير مسلم. فما سجله الأستاذ النورسي في الرسائل ما هو إلا أنوية استفاضها من القرآن الكريم وجزئها أولاً على نفسه حيث إن النفس الإنسانية هي واحدة في جوهرها، وواحدة في أسباب صحتها ومرضاها، كالجسد تماماً. فيقول: كل من شئت، فلا نفسك أتعى وأعصى من نفسي، ولا شيطانك أعوى وأشقى من شيطاني.³ ويقول أيضاً:

إن الدواوين والمؤلفات السابقة تقول:

كن ولياً وشاهد وارق في المقامات والدرجات، وابصر وتناول الأنوار والفيوضات!. بينما رسائل النور تقول: كن من شئت وابصر، وافتح عينيك فحسب وشاهد الحقيقة واتقأ إيمانك الذي هو مفتاح السعادة الأبدية.⁴

2- قراءة الكون كتاب الله المفتوح :

إن أكبر هدف لرسائل النور هو تصحيح العقيدة في الله، والبلوغ إلى التوحيد الحقيقي. ذلك بالنظر في آفاق الكون، حتى يتمكن المرء من أن يهتدي إلى ربه الجليل من خلال كل شيء. ويرى في كل شيء السبيل المنورة التي توصله

إلى خالقه الكريم، فلا يمنعه شيء قط عن سكينه قلبه واطمئنانه، واستحضاره لمراقبة ربه وهذا هو التوحيد الحقيقي الذي هو أسمى بكثير من معرفة تصورية مجردة، فهو حكمٌ وتصديقٌ وإدعاءٌ وقبولٌ.⁵

أي أن في كل شيء ابتداء من الذرات وانتهاء إلى المجرات، نافذة تطل على التوحيد، وفي كل منها دلائل وإشارات تدل مباشرة على الله بصفاته الجليلة.

والأستاذ النورسي لا ينقل إلى قراء الرسائل هذه الأركان الإيمانية علوماً نظرية مجردة، أو تصورات ذهنية باردة، وإنما ينقل لهم كيانه القرآني في تجربة كونية معرفية خصبة جداً، ذائبة في القرآن الكريم، إذ يقول: "ما كنتُ إلا ما شأدت، بحيث لم يبق لنفيضة عندي إمكانٌ وهمي...".⁶

3- امتزاج العقل والقلب معاً:

إن الرسائل ليست كيفية مصنفات العلماء تسير على وفق خطى العقل وأدلته ونظراته، ولا تتحرك كما هو الشأن لدى الأولياء المتصوفين بمجرد أدواق القلب وكشوفاته.. وإنما تتحرك بخطى اتحاد العقل والقلب معاً وامتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الأخرى، فتحلق إلى أوج العلا وتصل إلى مراق لا يصل إليها نظر الفلسفة المهاجمة فضلاً عن أقدامها وخطواتها، فتبين أنوار الحقائق الإيمانية وتوصلها إلى عيونها المطموسة.⁷ لذا يوصي الأستاذ النورسي لدى قراءة الرسائل بـ "الثاني والتزوي حتى يتمكن كل من العقل والقلب والروح والنفس والشعور من تناول حقائق رسائل النور التي هي في حكم الغذاء والطعام. وبخلافه فإن القراءة السريعة تجعل العقل وحده أخذاً حظه، بينما تظل الأخرى دون غذاء".⁸

4- تكامل الحس الأخرى:

"إن هذا العصر العجيب الذي أنقل كاهل الإنسان بالحياة الدنيوية بما كثر عليه من متطلبات الحياة وضيق عليه مواردها، وحول حاجاته غير الضرورية إلى ضرورة بما ابتلاء من تقليد الناس بعضهم بعضاً ومن التمسك بعبادات مستحكمة فيهم، حتى جعل الحياة والمعاش هي الغاية القصوى والمقصد الأعظم للإنسان في كل وقت، هذا العصر العجيب أنزل بهذه الأمور حجاً دون الحياة الدنيوية والأخرى والأبدية، أو في الأقل جعلها أمراً ثانوياً أو ثالثياً بالنسبة له...".⁹

ولما كانت رسائل النور تستقي من فيض القرآن وتستمد من بحره وترجع إليه، وأن رُبَّ القرآن الكريم آيات حول الأخرة، فما يفتح القارئ رسالة إلا ويجد

فيها ما يذكره بالأخرة نصريحا أو تلميحا أو إشارة، بأمنلة واقعية من حياته اليومية، فيغدو الكون بسر التوحيد، بمثابة مزرعة تبيى محاصيل وفيرة جدا لعالم الأخرة ومنزلها.. و بمثابة مصنع عظيم يبيى لوازم لطبقات دار السعادة الأخروية من أعمال بشرية غنية بمحاصيلها.. و بمثابة جهاز تصوير سينمائي دائب عظيم يضم مئات الألوف من أجهزة الالتقاط لالتقاط صور من الدنيا وعرضها مناظر سرمدية لأهل عالم البقاء ولأهل الشهود في الجنة¹⁰.

فضلا عن أن القارئ يتعلم من الرسائل أن الأخرة ليست عنتهى الدنيا، بل هي موجودة الآن فرسل إليها أعماله وأقواله في كل أن، وبهذا يتكامل حسه الأخروي. فالأخرة لديه إيمان ووجدان، وشعور وعاطفة، وعقيدة تملك عليه مشاعره وتفكيره وتصرفاته، ويتكلم عنها بانتفاع والتذاد، ويدعو إليها بحماسة وقوة. فتكون الأخرة قريبة إليه كأنه يشاهدها مشاهدة عين وبصيرة ويعايشها معايشة حياة يومية.

5- الاستثناء لا التعميم:

تستل رسائل النور الطيبين من مجموع الخبثاء، وتستغذ الفكر الجيد من بين الجماعات والهيئات التي أتت حولها غبار الشبهات. فعملية التحليل والقرز والاستثناء هي في مقدمة أي كلام حول موضوعات يختلط فيها النافع بالضرر، والطيب بالخبث، مما يجعل القارئ يشعر في هذا الأسلوب، التجرد الكامل والموضوعية التامة، والأخذ بالحيطة والحذر، والاحتراز من توريط من هم خارج الموضوع. فلا يلتبس أمر الطيب النافع بالخبث المضر، ولا يؤخذ البريء بجريرة العثم أو المجرم.

تورد هنا نموذجا لنظرة رسائل النور إلى أوروبا وكيف أنها تستثني الطيب من الخبيث ولا تعميم. يقول الأستاذ النورسي:

"لئلا يساء الفهم لابد أن ننبه: إن أوروبا لثتان.

إحداها: هي أوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحققة، وأنت خدمات حياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب - في هذه المحاورة - هذا القسم من أوروبا. وإنما أخاطب أوروبا الثانية تلك التي تعقت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفدت بالمادية الجانية، وحسبت سينات الحضارة حسنا لها، وتوهنت مساؤها فضائل. فسافت

البشرية إلى السفاهة وأزنتها الضلالة والتعاسة..¹¹

6- القول اللين المقنع:

حيث إن الظهور على المدنيين المتقنين إنما هو بالإقناع وليس بالضغط والإجبار. وإن تحري الحقيقة لا يكون إلا بالمحبة، بينما الخصومة تكون إزاء الوحشية والتعصب.¹² ونلمس هذا الخطاب الناعم المقنع مثلاً في تفسير قوله تعالى (وما أنزل من قبلك) (البقرة: 4) إذ يقول:

"إن فيه إشارة إلى تشويق أهل الكتاب على الإيمان وتأنيسهم، والتسهيل عليهم. كأنه يقول: لا يشق عليكم الدخول في هذا السلك، إذ لا تخرجون عن شركم بالمرة بل إنما تكلمون معتقداتكم، وتبنون على ما هو مؤسس لديكم، إذ القرآن معتل ومكمل في الأصول والعقائد، وجامع لجميع محاسن الكتب السابقة."¹³

وشهد شاهد من أهله:

ولقد من المولى الكريم علينا بلقاءات ودية وعلمية مع عدد كبير من الأساتذة الأفاضل في العديد من المؤتمرات العالمية والندوات العلمية التي فنز أن نشترك فيها. فبحثنا معاً شتى الموضوعات منها ما نحن بصدد.

ولهذا فأجد من الأولى الإنصات إلى بعض منهم لنرى ماذا يقولون حول ملامحة رسائل النور كنموذج لتقديم الإسلام إلى الغرب:

1- يقول الأستاذ هنري (سعيد إبراهيم) الذي اهتدى إلى الإسلام في تركيا بداية سنة 1994 بعد اطلاعه على رسائل النور وتعلم اللغة التركية في زمن قصير¹⁴:

"نحن منسوبي دين الحق الإسلام مكلّفون جميعاً بمهمة دعوة غير المسلمين في العالم الغربي الذي يؤلف المسلمون أقلية فيه. والواقع أن العيش في الغرب وفقاً لأحكام القرآن الكريم والسنة المطهرة يعتبر بحثاً ذاته دعوة فعلية للإسلام..

أنرج هنا عدداً من الأسباب التي تبين ملامحة فكر بنبع الزمان سعيد النورسي للغرب.

- يثبت وبأمثلة واقعية وأدلة لا تقبل الشك امتزاج الإيمان القائم بالعلم الحديث، وتصديق الحقائق العلمية وتعزيزها للدين. (وهذه النقطة بالغة الأهمية لأن العقل الغربي يعتقد بتناقض العلم والدين استناداً إلى تاريخ المسيحية في أوروبا).

- يحدد ويشرح بدقة لا مثيل لها مساوى الثقافة العلمانية الغربية الحديثة

ومناواة التطورات الثقافية الغربية للدين والإيمان بالله.

- كل من يطلع على أجوبته للأسئلة الدينية الصادرة من أشخاص يتبنون طرز الحياة العصرية لا يملك نفسه إلا التصديق عليها. ورغم التحديدات العديدة التي جاء بها بخصوص إثبات الإيمان فلم يجد قيد أنملة عن أحكام الكتاب المبين والسنة الشريفة.

- يكتشف بنوع الزمان سعيد النورسي طرقاً وأساليب لنشاطات برهن قبلاً على نجاحها وي طرحها على بساط البحث مجدداً في مجال الإصلاح المعنوي للمؤمنين، خارج نطاق الطرق الصوفية.

- يضع أساليب جديدة لإحياء أمور الدين وتعزيز العالم الإسلامي والوقوف بوجه الهجمة الشرسة للعلمانية الغربية وتيار المستحدثات، بجانب قبوله الجوانب الإيجابية للحضارة والتكنولوجيا والعلوم الحديثة.¹⁵

2- أما الدكتور أوليفر ليمان أستاذ الفلاسفة في جامعة جون مورس بليفربول

- المملكة المتحدة فيقول:

قدّم النورسي أفضل نوع من أدب "الإحياء" ولا سيما في مؤلفه رسائل النور. وليست المسألة في أنه ناقش بشكل أفضل من الغزالي أو من إقبال، ولا أنه عبّر عن نفسه بلباقة ورشاقة أكثر، ولكن الذي عمله هو أنه عبّر عن نفسه بوضوح وبطريقة تجمع بين العاطفة وبين العقل، فهو يمزج في نقاشه عند تناوله المشاكل أو المتون الإسلامية بين تصويره الشخصي وبين البراهين غير الشخصية، مما مكّنه من إيصال دعوته ورسائله إلى أوسع الجماهير.

"وحركة "الإحياء" الناجحة هي الحركة التي تقدّم المبادئ الدينية المقنعة والقوية بشكل تكون قادرة على الوصول إلى جماهير المجتمع. ولا يشك أحد في أن النورسي نجح في هذا الأمر".¹⁶

3- والدكتور كولن تورنر يختم بحثه القيم "الإيمان أولاً" بالنتيجة الآتية:

"بعد سنوات عديدة من البحث والمقارنة أستطيع أن أقول أن رسائل النور هي المؤلف الإسلامي الوحيد الشامل، والذي يرى الكون كما هو في الواقع، ويقدم حقائق الإيمان كما هي، ويفسر القرآن كما أراده نبينا ﷺ، ويشخص الأمراض الحقيقية الماحقة التي ابتلي بها الإنسان، ويقدم له الدواء الناجع والشفاء.

إن مؤلفاً مثل رسائل النور الذي يعكس نور القرآن، ويضيء الكون... مثل هذا المؤلف لا يمكن تجاهله أبداً، ذلك لأن الإسلام هو وحده الحائل والحاجز بين الإنسان وبين الكارثة، وأنا اعتقد أن مستقبل الإسلام يعتمد على رسائل النور وعلى الذين يتبعونها ويستلهمون من تعليماتها ومن دروسها.¹⁷

4- ونقول الأخت الفاضلة شكران واحدة (ماري ويلد):¹⁸

إن بديع الزمان برسائل النور أعطى أفضل النموذج لتقديم الإسلام إلى الغرب وشرحه لهم، وقدم بذلك للإسلام وللقرآن خدمة لا نظير لها. ذلك لأنه يفسره رسالة القرآن لإنسان هذا العصر، أثبت أن الإسلام هو تين العقل وهو منبع الحضارة الحقيقية ورفي الإنسانية وتقدمها. وفي الوقت الذي يفتّم فيه الإسلام على أنه دين المتعصبين والرجعيين، أو كأيولوجية سياسية أو أنه يمثل بوساطة بعض الطغاة والمجرمين، أثبت بديع الزمان أن جميع الكمالات الإنسانية ورفيها وسعادتها كامنة وموجودة في الإيمان بالله، وفي التصديق بوحدانيته سبحانه، وكامنة في الإسلام الذي يمثل العبودية المطلقة والدين الأسمى.¹⁹

ملاحظات مهمة حول تقديم الإسلام إلى الغرب:

يقول الأستاذ هنري: "أما عن الإرشاد الموجه نحو الغربيين فأرى أن لا يستهدف هدايتهم مباشرة، لأن مثل هذا الهدف سيكون تكراراً وتقليداً للموديل المسيحي، ومغايراً أيضاً لروح عصرنا هذا. وبدلاً من هذا علينا أن نحدد الطريقة التي يمكننا بها إثارة تفكير الغربي حول جوهر الإسلام على أكمل وجه وكيفية ملء الفراغات الموجودة في حصيلة المعلومات لدى بعض الطبقات المتكينة في الغرب والوقوف على ماهية احتياجاتهم المعنوية."

والجانب الأهم في الإرشاد هو عدم الخلط بين الدعائم الرئيسية للدين والمسائل العرفية والتقاليد. وهناك أمثلة عديدة لا تقبل النقاش في هذا الصدد، فمثلاً: أن الإنسان الغربي غير مضطر لتناول الطعام على الأرض - وليس على المائدة - لكي يكون مسلماً مخلصاً. وكذلك ليس هناك ما يدعو لرفض الملابس الغربية غير المغايرة للآداب. أما أداء الصلاة في أوقاتها الخمسة وأركان الدين الأخرى وعدم تناول الخمر وتحريم القمار فهي أمور رئيسية لا تقبل النقاش.. ولا يمكن التعامل مع مسلم غربي بنفس أسلوب التعامل المستند على الملامح القومية لمسلم نيجيري أو عربي أو تركي أو باكستاني أو إندونيسي...

ومن الأهمية بمكان عدم تنازع المسلمين فيما بينهم في الغرب، فإذا ما

اكتشف أحد الغربيين جانباً من الجوانب السامية للإسلام بفضل أحد المسلمين، أو تعرّف بمسلم وأعجب به. يأتي مسلم آخر ليفند أقوال الأول ويصفها بالبطلان ومخالفة الإسلام ويزعم أنهم وحدهم الذين يمثلون الإسلام الحقيقي. مثل هذه التصرفات يجب التهرب منها قطعاً.²⁰

المستقبل للإسلام:

نعم، إن "المستقبل الذي لا حكم فيه إلا للعقل والعلم، سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان".²¹ كما يقوله الأستاذ النورسي. ويقول: "ولو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأقواجا. بل لربما رضخت نول العالم وقاراته للإسلام".²²

والدراسات الإحصائية التي قام بها المختصون تؤيد انتشار الإسلام في العالم. نورد واحدة منها فقط:

نشرت صحيفة " الزمان " التركية في عندها ليوم 12/ نيسان /1992 عن تقرير نشر في فرنسا بـ "42" صفحة صادر عن مجلس الفاتيكان. ويحتوي على ملاحظات المجلس وقلق الكنيسة الجاد من زيادة انتشار الإسلام في أوروبا، ولكي تقوم الكنيسة بصد هذا التيار فقد قامت بأبحاث واسعة. ويحتوي هذا التقرير على نتائج هذه الأبحاث. وقد دلت هذه الأبحاث التي جرت في ستة بلدان أوروبية على دخول 58135 فرداً إلى الإسلام، وتخمين أن 130000 شخص يدخلون إلى الإسلام في أوروبا كل عام. ويجانب التحليلات النقيصة المنشورة في التقرير حول الأرقام، فقد ورد في التقرير ماضي هؤلاء المسلمين وكيف ولماذا أسلموا. وما يهمنا في هذا التقرير هو الأرقام، ثم الحقيقة التالية:

لقد تبين أن 74% من هؤلاء أسلموا - وعندهم 58135 فرداً - لأن الإسلام أنقذهم من المادية ووهب لهم الطمأنينة والسعادة، وكان 32% منهم قد ذكر بأن رسائل النور كانت السبب في إسلامهم".

هوامش البحث:

- ¹ المؤتمر العالمي الأول لنديع الزمان سعيد النورسي "مكاتبه فكر ينديع الزمان سعيد النورسي في الفكر الإسلامي". في 16/مارس / 1991 باستانبول. مجلة النور - أكتوبر 2001 ص 81.
- ² طه عبد الرحمن - حوارات من أجل المستقبل - منشورات الزمن ص 118.
- ³ ينديع الزمان سعيد النورسي. المثنوي العربي النوري - ص 34.
- ⁴ النورسي. الملاحق - ملحق قسطنطيني، ص 105.
- ⁵ النورسي. الشعاعات ص 197.
- ⁶ النورسي. المثنوي العربي النوري ص 104.
- ⁷ النورسي. الملاحق - ملحق قسطنطيني ص 105.
- ⁸ النورسي. الملاحق - ملحق أميرداغ/1. ص 262.
- ⁹ النورسي. الملاحق - ملحق قسطنطيني ص 145.
- ¹⁰ النورسي. الشعاعات ص 15.
- ¹¹ النورسي. الشعاعات ص 176.
- ¹² النورسي. صيقل الإسلام- المحكمة العسكرية العرقية - ص 446.
- ¹³ النورسي. إشارات الإعجاز في مضان الإيجاز ص 59.
- ¹⁴ وك في سنة 1953 في امستردام عاصمة هولندا. يقطن الإنكليزية والفرنسية والألمانية فضلا عن النيولندية. يعمل الآن في شركة شل بإكترا بمهمة منسق التمويل.
- ¹⁵ سعيد إبراهيم (هنري) المؤتمر العالمي الثالث لنديع الزمان سعيد النورسي. تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين ونديع الزمان سعيد النورسي في 24-26 / أيلول / 1995 باستانبول.
- ¹⁶ المؤتمر العالمي الرابع لنديع الزمان سعيد النورسي نحو فهم عصري للقرآن الكريم - رسائل النور لمونجا في 20-22 أيلول 1998 باستانبول.
- ¹⁷ مجلة النور، عند أكتوبر 2001، ص 89، استانبول.
- ¹⁸ شكران واحدة "مزي وبلد" باحثة وكاتبة. واثبت عام 1948 في مدينة إنكسايير في تكترة. تفرحت سنة 1980 من قسم الأديب التركي والفرنسي في كلية الاستشرق/ جامعة بورهان. انتقلت إلى الإسلام سنة 1981 بعد أن قرأت رسائل النور واتخذت اسم "شكران واحدة" وتعد حاليا في تركيا حيث تُعد نبوتًا حول رسائل النور، وترجمة كليات رسائل النور إلى الإنكليزية.
- ¹⁹ المؤتمر العالمي الثالث لنديع الزمان سعيد النورسي في 24/ أيلول / 1995 باستانبول.
- ²⁰ المؤتمر العالمي الثالث لنديع الزمان سعيد النورسي "تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين ونديع الزمان سعيد النورسي في 24/ أيلول / 1995 باستانبول.
- ²¹ النورسي. صيقل الإسلام - الخطبة الشامية ص 495.
- ²² النورسي. صيقل الإسلام - الخطبة الشامية ص 494.

مستقبل المسلمين في ضوء التحولات الاقتصادية

الدكتور المعز لله صالح أحمد
باحث سوداني

يبدو عالم اليوم منقسماً على نفسه، بعضه قائم على الأخلاق مهمل لقوانين السلوك البشري الشرعية مهمل لقوانين الطبيعة، والآخر عكف على الطبيعة علم أسرارها ووظفها. مضرِباً عن مكارم الأخلاق، قائلاً بنسبتها لا حتميتها ...

فهل هذا هو قدر العالم حتماً أم أمر طارئ في عالم اليوم؟ وهل الإنسان يستطيع أن يجمع بين التقوى والتفانية؟ ثم بأيهما تتحقق سعادته بالجمع أم بالفرق؟ وإذا كانت السعادة للبشر تتحقق بكلتا القانونين الطبيعي والشرعي، فما هو السبيل إلى تحقيق هذا الجمع؟

لعل هذا المدخل يمهّد لنا دخول الموضوع بشرعية فقهية معاصرة تحاول معالجته المعالجة الفكرية المتبصرة والمنفتحة نحو المعرفة التي تعتبر سلعة ذات منفعة عامة تدعم الاقتصاديات والبيئة السياسية والمجتمعات⁽¹⁾.

شهد العالم بعض التحولات الكبرى السياسية، والعسكرية، والفكرية، والتقنية أو الاقتصادية وسواها ونسب مختلفة، تركت آثارها في منظومة العلاقات الاقتصادية، وكان المسلمون في قلب الحدث المتغير فاطلون فيه ومنفعلون به يحيوا في خضم مسيباته وتطوّراته وتداعياته⁽²⁾ وتعد تكنولوجيا المعلومات وضمنها البرمجيات، من أهم دعائم هذه التحولات الاقتصادية. مع وجود رغبة دنيئة أو معلنة منذ فترة في التوسع والسيطرة التي تمثلها العولمة⁽³⁾، لكن هذه التحولات على أهميتها لا تمثل سوى صورة بسيطة باهتة من تلك الحملة الهائلة التي انطلقت رسمياً بعد الحرب العالمية الثانية، وفعلياً في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات مع تفكك الاتحاد السوفيتي، وانفجار ثورة الإلكترونيات وبداية عملية الخصخصة

وتحرير السوق وإعادة الهيكلة الاقتصادية وقيام منظمة التجارة العالمية عام 1994⁽²⁾.

وصير المبادلات التجارية وتقل رؤوس الأموال وعوامل الإنتاج والسلع، بما في ذلك التكنولوجيات الحديثة على أنماط القيادة الاقتصادية والسياسية، والاقتصاديات القروية والوطنية والأقليمية في اقتصاد عالمي موحد بعد أن صار العالم سوقاً واحدة، وأن التجارة العالمية تبدو وكأنها في نمو مطرد يستفيد منه الجميع بعد أن عدا العالم قرية كونية متشابهة النمو ومتلاحمة بجميع أجزائها، وخاصة بعد النور الذي لعبته الأقمار الصناعية وشبكة الإنترنت ومختلف أشكال ثورة الاتصالات الرقمية⁽³⁾.

يفرض هذا الطرح الأسئلة التالية: ماهي التحولات والمتغيرات الاقتصادية في عالم اليوم؟، وأي مستقبل اقتصادي لهم في عالم العولمة وتحرير الأسواق؟
التحولات الاقتصادية

تتراجع المتغيرات الاقتصادية⁽¹⁾ في كل اتجاه وتتعاظم حجماً وأهمية لتبلغ حدود التعبير الكامل أحياناً وتشمل شتى المجالات لاسيما مجال إعادة الهيكلة بعناصرها المختلفة .

تفرض التحولات الاقتصادية ، كما بات واضحاً إعادة هيكلة شاملة تتضمن المجال الاقتصادي وجميع جوانب الحياة الاجتماعية سياسياً واجتماعياً وثقافياً ويلخصها البعض في المتغيرات الأساسية التالية⁽²⁾:

1/ تراجع حجم الدولة كمؤسسة ، بالمعنى الاقتصادي على الأقل ، لمصلحة دور أكبر يتولاه القطاع الخاص. وقد بدأ الترويج لهذا التطور منذ وقت طويل، منذ السبعينات خاصة مع نقشي سياسات الخصخصة "الخصوصة" وتحرير الاقتصاد ، إلى درجة أصبحت معها مفاهيم عديدة موضع تساؤل لعل أهمها مفهوم سيادة الدولة والأمن القومي الشامل.

2/ تنامي دور الشركات المتعددة الجنسيات، التي لها عالمها الخاص وأنظمتها الخاصة لرجالها المتعددي الجنسية أيضاً وعمالها وأمنها ... والتي كبرت بسرعة في ظل التطاحن فيما بينها، وفي ظل عمليات الدمج حتى بات العديد منها أكبر من دول كبرى. وبلغ عدد الشركات نحو 30 ألفاً ، وصل إجمالي أعمالها إلى أكثر من نصف الناتج العالمي القائم، وتقدر أصول هذه الشركات بنحو

92 تريليون دولار وعدد العاملين فيها بنحو 35 مليوناً. واستناداً إلى تقارير البنك الدولي، فإن حجم أعمال خمس شركات رئيسية تجاوز في عام 1996 مجموع الناتج المحلي القائم لنول آسيا الجنوبية وأفريقيا جنوب الصحراء والدول الأكثر فقراً في العالم. وبدأ بعض المحللين يتصورون عالماً مقبلاً من الشركات، أو كما يسميه البعض العالم الشركة، بمجلس إدارة موزع في أنحاء العالم متجاوزاً حدود الدول وسيادتها. ويسيطر عدد من الشركات على جزء مهم من السوق العالمية، إذ تعد هذه الشركات الأرض كلها سوقاً كبيراً لها، بما فيها ومن فيها بحيث تتنافس في اقتسام هذه الأراضي دون أي اعتبار لقيم أو أخلاق، وهي نازراً ما تتخل في شكل استثمارات مباشرة طويلة الأمد وإنما تتخل بما يعرف بالأموال الطائفة، في استثمارات قصيرة الأجل وسريعة الفوائد والتي تحقق لها عوائد هائلة دون أن يكون لذلك مردود على التنمية المحلية، بل تفاهت معها ظواهر الفساد المالي (غسل الأموال) والرشوة والعمولة والسمسرة وما إليها.

رغم التسييلات والضمانات السياسية والاقتصادية التي تقدمها الدول التنامية لهذه الشركات العملاقة، وبما أن هذه الشركات يمينها الربح أولاً وأخيراً. نجد أغلب الاستثمارات التي تقدمها في قطاعات غير منتجة تقتصر على السلع الاستهلاكية ذات العائد الأسرع مما يجعل مردودها على مستوى الاقتصاديات المحلية لتلك البلدان ضعيفاً.

هذا، وأن الشركات المتعددة الجنسيات أدى تطورها وتضخمها إلى تعميق العولمة اقتصادياً، وتعدد أنشطتها في كل المجالات: الاستثمار والإنتاج والنقل والتوزيع والمضاربة، ووصل الأمر إلى أنها قد صارت تؤثر في القرار السياسي والبعد الثقافي والمعرفي⁽¹¹⁾، وفي ظل إنفتاح الأسواق مع بعضها استطاعت هذه الشركات الاستفادة من فروق الأسعار، ومن نسبة الضرائب ومن مستوى الأجور لتركز الإنتاج بالمكان الأرخص (في إطار ما يسمى ببرامج الشراكة) وبعد ذلك ينقل الإنتاج إلى المكان الذي يكون فيه مستوى الأسعار أعلى ويتم تسويقه هناك.

3/ إنتشار برامج إعادة الهيكلة والتثبيت الاقتصادي، وما سبقها من تحرير للأسواق في اتجاه دور أوسع لقطاع الخدمات على حساب القطاعين المنتجين للسلع (الزراعة والصناعة). ويتصور بعض المحللين هيكلة ذات غلبة حاسمة للقطاع الخدمي تماماً. ومع التغيير الملتق في الهيكلة الاقتصادية يسجل تغيير أيضاً

في اليات الإنتاج فتغزو التقنيات الآلية الإلكترونية نظم العمل والنشاط الاقتصادي على حساب المساهمة البشرية التقليدية ، وبفقدت عند منازلة عن لسع عمقه الإنساني كما تلغى الوظائف بمعدلات متزايدة وارتفاع معدلات البطالة وبطالة حاملي الشهادات الجامعية خاصة.

4/ بالإضافة إلى ذلك، برزت مسألة تحرير الأسواق المالية والنقدية، التي نخلت عن معظم الضوابط التقليدية التي كانت تسيطر العمل المصرفي والنظم النقدية لعيود طويلة. وكان من نتيجة ذلك أن الكتلة النقدية في ضوء عمليات التحرير هذه، لم تعد خاضعة للسلطة النقدية المحلية (البنك المركزي) فعمليات دخول وخروج الأموال، على نطاق واسع وبالمليارات تتم في ومضات سريعة على شاشات الكمبيوتر، وعلى نحو جعل السلطة النقدية المحلية تقف عاجزة عن انقاع عن أسعار الصرف وأسعار الفائدة وأسعار الأوراق المالية في البورصات. هكذا تحول العالم رهينة في قبضة حفنة من كبار المضاربين الذين يتاجرون بالعملة والأوراق المالية التي توفرها البنوك وشركات التأمين والمعاشات.

وسبب هؤلاء المضاربون أزمات أصبحت تثير إلى مقدراتهم القانقة على لتحكم في رفاهية أو فقر أمم ودول برمتها، دون أن توجد أي سلطة، محلية أو عالمية لمحاسبتهم أو ردعهم.

ومن خلال هذا الطرح، يبدو أن اقتصاديات العولمة التي رافقت هذه التحولات، إنما ترسم لنا صورة المستقبل بالعودة إلى الماضي السحيق إلى الرأسمالية فبعد قرن طعت فيه الأفكار الاشتراكية والديمقراطية ومبادئ العدالة الاجتماعية، تلوح الآن في الأفق حركة مضادة تقفل كل ما حققته الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من مكتسبات. وليست زيادة البطالة، وانخفاض الأجور، وتدهور مستويات المعيشة، وتقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة، وإطلاق اليات السوق، وإبتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي وحصر دورها في (حراسة النظام) وتقلص التفاوت في توزيع الدخل والثروة بين المواطنين - وهي الأمور التي ترسم الآن ملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية في غالبية دول العالم - كل هذه الأمور ليست في الحقيقة إلا عودة لنفس الأوضاع التي ميزت البدايات الأولى للنظام الرأسمالي إبان مرحلة الثورة الصناعية (1750/1850). وهي أمور

سوف تزداد سوءاً مع السرعة التي تتحرك بها عجلات العولمة المستندة إلى البربرية الحديثة⁽¹⁾.

وهكذا تتحول دعوة الانفتاح على السوق إلى أيديولوجية صارمة يجب أن يخضع لها الجميع ، وإلا فقانون الغاب سينكفل بالعقاب.

5/ من ناحية أخرى ، يعتبر من أهم التحولات الاقتصادية التي تحري في مختلف بلدان العالم في ضوء السياسات الليبرالية الحديثة هي أن الديمقراطية التي تدافع عن - وتحمي - مصالح الأثرياء والمتفوقين اقتصادياً، وتضر بالعمال وبالطبقة الوسطى، وهو ما نراه في الدعوة إلى التخفيض المستمر للأجور وزيادة ساعات العمل، وخفض المساعدات والمنح الحكومية تحت حجة (تهيئة الشعوب لمواجهة سوق المنافسة الدولية).

6/ إلا أنه، يعتبر اقتصاد المعرفة من أهم التحولات الجذرية التي شهدتها العالم في عدة مجالات في القرن الواحد والعشرين وبداية الألفية الثالثة، وتعب المعلوماتية وثورة الاتصالات الرقمية نورا هاما فيها. ومن هذه التحولات توجه الاقتصاد العالمي بشكل ملحوظ نحو المعرفة أكثر من أي وقت مضى ليصبح ما يسمى بالاقتصاد المبني على المعرفة. ويرافق ذلك أيضا تغيرات اجتماعية تجعل بعضنا يسمى المجتمعات القادمة بمجتمعات المعرفة (مجتمعات المعلومات).

وتتركز أهم المتغيرات التي فرضتها هذه التحولات العالمية في الآتي:

ازدياد أهمية الاقتصاد المبني على المعرفة.

تزايد دور المعرفة في فعاليات الإنتاج والخدمات.

تزايد اعتماد النمو الاقتصادي والاجتماعي على المعرفة.

اعتبار المعرفة من الأصول الأساسية الهامة للشركات والدول.

اهتمام أكبر بالحفاظ على سرية المعرفة، وازدياد أهمية المنظمة العالمية

لحماية الملكية الفكرية WIPO .

تعاظم دور المعلوماتية في الإدارة والاقتصاد.

ازدياد أهمية القوى العاملة ذات المعرفة على حساب أهمية القوى العاملة

العادية.

ازدياد ظواهر احتكار المعرفة باندماج الشركات التي تملكها للحفاظ عليها.

الميزات التنافسية لفعاليات الإنتاج والخدمات التي باتت تعتمد على المعرفة أكثر مما مضى.

وتلعب المعلومات دورا كبيرا في حصول هذه التغييرات أو التحولات، فبات من الضروري للدول الإسلامية الاستفادة من الفرص التي تتيحها المعلومات والاتصالات لتحقيق التعاون الاقتصادي والاجتماعي⁽¹⁾.

وتبدو فتامة المستقبل الذي سيكون صورة من الماضي المتوحش للرأسمالية في فجر شبابها، إذا ما سارت الأمور على منوالها الراهن. والسؤال الذي يطرح في هذا المستوى من البحث في أي موقع تتوقع المجتمعات الإسلامية في عالم اليوم المعرفي والالكتروني؟

أثر هذه التحولات الاقتصادية على المسلمين:

ارتبطت التحولات الاقتصادية هذه، بعملية تحويل النظام الاقتصادي الرأسمالي و حيث تم توحيد الكثير من أسواق الإنتاج والاستهلاك، وتم التخل الأمريكي في الأوضاع الاقتصادية للدول وخاصة دول العالم الثالث، عبر المؤسسات المالية الدولية: كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، التي تمارس الإملاءات الاقتصادية المغايرة لمصالح الشعوب، وبالتالي تحقق الكثير من الأهداف في المجال الاقتصادي، مثل السيطرة على رؤوس المال العربي واستثماراته في الغرب، والهيمنة على اقتصاديات العالم من خلال القضاء على سلطة وسيادة الدولة الوطنية في المجال الاقتصادي، بحيث أصبحت الدول تحت رحمة الصناديق النقد والبنوك الدولية، حين تستجدي منه المعونة والمساعدات عبر بولاية القروض ذات الشروط المجحفة، وخاضعة لسيطرة الشركات الأمريكية الكبرى على اقتصاد الدول ولعل تركيا وماليزيا من النماذج الواضحة للدول التي عصفت بها رياح التحولات الاقتصادية لصالح الشركات الأجنبية. يقول رئيس وزراء ماليزيا مهاتير محمد الذي عانت بلاده من آثار العولمة في السنوات الأخيرة: إن (العالم المعولم لن يكون أكثر عدلا ومساواة. وإنما سيخضع للدول القوية المهيمنة. وكما أدى انهيار الحرب الباردة إلى موت وتدمير كثير من الناس، فإن العولمة يمكن أن تفعل الشيء نفسه، وربما أكثر من ذلك في عالم معولم سيصبح بإمكان الدول الغنية المهيمنة فرض إرنتها على الباقين الذين لن تكون حالهم أفضل مما كانت عليه عندما كانوا مستعمرين من قبل أولئك الأغنياء).

والدول العربية باعتبارها نموذجا حيويا للنول الإسلامية - كإحدى المناطق المتأثرة بهذه الأحداث - بلغت ديونها الخارجية عام 1995 (250) مليار دولار وتناقص ديونها بما مقداره 50 ألف دولار في الحقيقة الواحدة⁽¹¹⁾. ولا شك أنه كلما ارتفعت وتيرة الديون كلما ترمستخت الشعبية ووجدت الزريعة للتدخل، وبسبب هذه الديون - التي بدأت بتشجيع من الغرب عن طريق البنك وصندوق النقد الدوليين اللذين يعملان على إغراق الدول المستفيدة بالديون - أصبح اقتصاد معظم هذه الدول متخبطا، يستطيع وبصعوبة بالغة ملاحقة خدمة الديون وفوائدها المترامية. وللعلم فقد أكد التقرير الاقتصادي الصادر عن مجلس الوحدة الاقتصادي العربي أن الجزائر مثلا ستخسر سنويا ما بين 1.5 إلى 2 مليار دولار بانضمامها وتطبيقها لقرارات اتفاقية التعريف الجمركية (الجات)⁽¹²⁾.

يتضح من ذلك، أن الاقتصاد العالمي الجديد هو لصالح فئة قليلة تزداد غنى فوق غناها، على حساب فئات واسعة وكبيرة تزداد فقرا فوق فقرها، مما يوسع دائرة الفقر في أغلب المجتمعات العربية والإسلامية.

ويمكن حصر الأخطار الاقتصادية التي تواجه الدول الإسلامية في الآتي:

- 1/ إنباء دور القطاع العام وإبعاد الدولة عن إدارة الاقتصاد الوطني.
- 2/ عولمة الوحدات الاقتصادية والحاقها بالسوق الدولية لإدارتها مركزيا من الخارج.
- 3/ العمل على اختراق السوق الإسلامية من قبل رؤوس الأموال الأجنبية.
- 4/ إدارة الاقتصاديات الوطنية وفق اعتبارات السوق العالمية بعيدا عن متطلبات التنمية الوطنية.
- 5/ العمل على إعادة هيكلة المنطق الإسلامية في ضوء التكتلات الدولية سياسيا وثقافيا.

يضاف إلى ذلك :

- الإغواء الاقتصادي؛ ويعني إغواء الدول المتواضعة تقنيا وعلميا واقتصاديا بمشاركة العمالقة في مشاريع عابرة القارات وهذه المشاريع كل مكوناتها من الخارج. بعد أن يدفع البلد الفقير دم شعبه، وضحى بحاضره ومستقبله في هذه المشاريع يتم عملية السيطرة أو الإحياض، إن شينا من هذا قد تم في ماليزيا واندونيسيا.

• السيطرة الاقتصادية ذات المظاهر المتعددة، منها: شراء موارد الدول المستضعفة ومواردها الخام بأقل الأسعار وإعادة تصنيعها ثم بيعها لها في صورة جنيدة بأعلى الأسعار، وفي حال التزول يضيفون إليه ضريبة يسمونها ضريبة الكربون، وهي تعني ضريبة تلوث أجوانهم نتيجة الشطط التصنيعي.

• سيطرة الشركات العملاقة عمليا على الاقتصاد العالمي، إن خمس دول - الولايات المتحدة واليابان وفرنسا وألمانيا وبريطانيا - تتوزع فيما بينها 172 شركة من أصل مائتي شركة من الشركات العملاقة.

• فرض السياسات الاقتصادية والزراعية على دول العالم - وخاصة النامية - بهدف تعطيل التنمية الاقتصادية، وإبقائها سوقا استهلاكيا رانجة للمنتجات الغربية.

• إضعاف قوة موارد الثروة المالية العربية، المتثلة في النفط حيث تم إضعاف أهميته كسلعة حينما تم استثناءه من السلع التي تخضع لحرية التجارة الدولية - أسوة بتجارة المعلومات - من تخفيض الضرائب والقيود الجمركية المفروضة عليه من الدول المستهلكة.

• ارتفاع أسعار المواد الغذائية في الدول الإسلامية، نتيجة إلغاء هذه الدول الدعم المالي الذي كانت تقدمه للسلع الغذائية، بسبب الاحتكار والمنافسة غير المتكافئة من الدول الكبرى، وبسبب قيود الجودة وشروط المواصفات العالمية التي تقرضها الاتفاقيات التجارية والصناعية والدولية، وهي شروط لا تقدر الدول الإسلامية النامية على الوفاء بها، ويتربب على ذلك، ابتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي وقصر دورها في حراسة النظام، وإن تبقى الأسواق الإسلامية سوقا مفتوحا رانجا أمام المنتجات والبضائع الأجنبية، وأن نقوض المصانع والمؤسسات الوطنية والاقتصاد الوطني.

• عملية إغراق الأسواق، من أهم مخاطر التحولات الاقتصادية التي أثرت بدرجة واضحة وملحوظة على مستوى الأسعار، وبعد أن وقرت اتفاقيات التجارة العالمية حرية تنقل البضائع والسلع بتعريفه جمركية صفرية في أغلب الأحيان، الأمر الذي يكون لصالح سلع الدول المتقدمة اقتصاديا لما

تتصف به من مواصفات جودة عالية وأسعار تنافسية، تقل كثيراً في مواصفات جودتها في الأسواق المحلية، أو عن سعر المثل في سوق النولة المنتجة لهذه السلعة وتصدرها، أو انخفاض سعر البيع عن سعر تكلفة الإنتاج، ويتم تداولها لفترة زمنية، بهدف استرداد نفقاتها وتحقيق الربح. تلك هي الحالات الثلاث التي تعتبر فيها السلع المستوردة بمثابة سلع أو واردات إغراق. في السابق كانت الدول تتحكم في سعر السلعة والجمارك والرقابة الاقتصادية لحماية المنتجات المحلية من شراسة المنافسة واليوم أصبح الباب مفتوح على مصراعيه لأرقب ولاعتد بما يجعل من حاضر ومستقبل اقتصاديات هذه الدول قائماً.

ولا يخفى على أحد ما أدت إليه هذه التحولات الاقتصادية من آثار اجتماعية وسياسة وفكرية وثقافية إلى درجة غيرت معها أنواق وسلوكيات المجتمعات المسلمة. إذا كانت هذه بعض الآثار جراء المتغيرات الاقتصادية فإين موقع المسلمين من هذه التحولات وآثارها؟

بعد موضة التدخل المباشر في بعض الدول والإسلامية، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001. تحت زريعة محاربة ما يسمى بالإرهاب في كل من أفغانستان والعراق وتهديد غيرها من دول المجموعة الإسلامية، إلى درجة وصل الجدل والنقاش فيها إلى تغيير مناهج التعليم من أجل تشكيل ثقافة تتوافق ومصالح الدولة المهيمنة على الاقتصاد العالمي، عبر وسائل الإعلام والاتصالات الرقمية الحديثة. أصبحت الدول الإسلامية بل الأسرة الإسلامية مهنددة في تنشئة أبنائها التنشئة السليمة أمام تسارع نسق المعلومات عبر شبكات الإنترنت والقضائيات التي دخلت البيوت دون رقابة الدولة وأرباب البيوت. فانتار معها أهد كيان وهو الأسرة الإسلامية بإعتبارها المؤسسة التربوية الأولى لهذه المجتمعات، صمام أمان الدفاع عن الهوية والثقافة الإسلامية⁽¹⁾.

هذا الوضع المأساوي السالف الذكر أفضى إلى رغبة جامعة ومشاركة بين غالبية مفكري الجيل المعاصر في العالم الإسلامي لتجنب المجتمع الإسلامي آثار المشكلات المعاصرة والحفاظ على المكتسبات التي حققها الإنسان المسلم في ميادين المعرفة والتسارع التقني.

ويمكن القول، إن هذه الرغبة هي إحدى الأسباب التي رخصت لهذا الجيل من المفكرين في دعم الصيغة الدولية لمعالجة هذه المشكلات تحت عسميات عدة، حوار الحضارات والنضامن العالمي والتي تمثلت في إقامة مؤسسات عالمية وهيئات ومنديات دولية كهد الجامعة التي تتعد فيها هذه الندوة.

بدأ المسلمون في التساؤل حول مدى فاعلية هذه التغيرات الاقتصادية على واقعهم اليوم . لذا بدأ التفكير في المستقبل في ظل هذا الواقع والبحث عن بدائل أخرى أكثر انصافاً لهذا النموذج الاقتصادي للتجارة الحرة التي تخلص من أية قيود وتجنيب المجتمعات المسلمة الأثار السلبية لهذه التحولات من أجل إيجاد موقع لها في مجتمع المعرفة والغد الإلكتروني. وأصبح هذا لسان حال المسلمين وقادتهم أكثر من غيرهم على وجه الأرض. لأن هذا النظام يتعارض مع كثير من معتقداتهم الدينية والأخلاقية. فالإسلام يعتبر الطريق الصحيح للحياة، ويعتقد المسلمون بأن الله تعالى أعطى كما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية تعاليم واضحة تؤثر في جميع مناحي الحياة على سبيل المثال، فإن الله تعالى يعطينا الهداية والإرشاد بشأن المعاملات الاقتصادية والتجارة.

قال تعالى: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً)⁽¹⁾، وقوله تعالى (لم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأنبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة)⁽²⁾.

فيهاتان الآيتان - وأمثالهما في القرآن الكريم كثير - تضعان مبدأ اقتصادياً هاماً مؤداه أن الأصل في طريق الكسب الإباحة.

وقوله تعالى: (وأحل الله البيع وحرم الربا)⁽³⁾. في هذه الآية تضع مبدأ عاماً هو حل البيع وحرم الربا. وقوله تعالى: (... كي لا تكون تولة بين الأغنياء منكم)⁽⁴⁾، تضع هذه الآية قاعدة عامة مؤداه أن لولي الأمر أن يعيد توزيع الثروة في المجتمع في حال انتفاء التوازن بين المجتمع.

وقول الرسول عليه الصلاة والسلام: (كل المسلم على المسلم حرام، نعمه وعرضه وماله)⁽⁵⁾، يضع مبدأ عاماً هو حرمة الاعتداء على مال المسلم .. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تضع مبادئ اقتصادية هامة⁽²⁾ والمسلمون ملزمون بالتقيد بقواعد الإسلام، فيما يتعلق بإداء فريضة الصلاة وفريضة الصيام والسلوك في حياتهم اليومية، فهم أيضاً مأمورون بطاعة

الأوامر والتعاليم المتعلقة بالتجارة، دعا هذا إلى قيام كثير من العلماء والمفكرين ورجال الأعمال المسلمين إلى المناداة بنموذج آخر يحقق أكبر قسطاً من المساواة مما يحققه النظام الرأسمالي بحيث يتماشى مع التعاليم الأخلاقية الإسلامية فيما يتعلق بالربح والفائدة. بل نادى الكثير منهم بأن يكون الاقتصاد الإسلامي بديل لاقتصاد العولمة⁽¹⁾، لأنهم اعتبروا النموذج الاقتصادي الإسلامي كسائر النماذج الاقتصادية التقليدية بمثابة دراسة للإنسان وسلوكه في مصادر الكسب والاستخدام بالنسبة إلى مدى الرضا والقناعة بالضرورات والاحتياجات والمتطلبات الأخرى للحياة.

ويختلف النموذج الاقتصادي الإسلامي عن النموذج الاقتصادي الغربي، وذلك بالتركيز على الاعتبارات الإنسانية والاجتماعية عند اتخاذ قرارات اقتصادية ولا يبتدئ سوى الربح بغض النظر عن التكلفة، فالمعيار الذي يتم بموجبه اتخاذ قرارات الاستثمار يتعين أن يكون منتجاً يتألف من القيم الأخلاقية والطموحات والاهتمامات والرغبة لدى الاحتياطات الأخرى وكذلك المشاعر والعواطف.

ويعتبر الاقتصاد الإسلامي أيضاً بمثابة بديل مغر للتجارة الحرة الواقعة تحت تأثير التحولات الاقتصادية لعالم اليوم، لأنه يضيف بعداً أخلاقياً لجميع النشاطات الاقتصادية، كما يعتقد هذا النموذج بأن الحياة والممتلكات هي أمانة من الله تعالى وملكية مطلقة له، وليست للإنسان، وبالتالي فإنه لا يحق للإنسان أن يدمر حياته وممتلكاته حين يشاء أو يحدث على الآخرين لمصلحته الخاصة. أن القيم الأخلاقية والفائدة الاقتصادية بالنسبة إلى البشرية عامة تحكم عمليات الإنتاج والاستهلاك بالرغم من ذلك، فإن الحرية لإقامة مشروع ما يسمح بها شريطة أن تعود بفوائد أخلاقية واجتماعية على البشر.

من ناحية ثانية، أهم ما يمكن اعتباره مواجهة لهذا الواقع، ما تلعبه التنمية البشرية اليوم في السياسات الاقتصادية للدول الإسلامية، من حيث إنها تقوم على الإنسان باعتباره الفاعل الأساس والمستفيد من كل الانجازات. وبقر ما تطلق الحرية في المعاملات يزداد الحرص على حماية الفرد والوقوف بحزم أمام مظاهر استغلاله من قبل الغير أو حتى سوء تصرفه الذاتي.

من هذا المنظور يمكن وضعت ركائز النجاح ودعائم الانصهار في الاقتصاد العالمي بصفة تدريجية ثابتة إذ استغانت الدول الإسلامية من توظيف

مكتسبات التطور العلمي والتقني في ظل الحفاظ على ثقافة وهوية الحضارة الإسلامية، باعتبارها من أهم مقومات النجاح لهذه المجتمعات، لما فيها من قيم ثقافية وأخلاقية تشجع على إبتلاك ناصية العلوم والمعارف.

بهذا التوازن في الرؤى تسعى بعض الدول الإسلامية وتحاول وضع المعايير الأخلاقية والقانونية لأسنة النمو والتطور التكنولوجي، ولعل نموذج ماليزيا خير دليل على السير في الطريق السليم من أجل كسب رهان المنافسة في المستقبل القريب.

ويتجلى هذا التوفيق بين التنمية الاقتصادية والتنمية البشرية بكل وضوح في حماية الأسواق الداخلية ومحاربة الاحتكار والتدخل في السوق لتحديد الأسعار، مع وضع مقاييس ومواصفات للسلع والخدمات ضمن الأطار العام الأخلاقي الذي يتبناه الإسلام والضوابط التي تضعها الدول الإسلامية⁽¹¹⁾، من أجل جودة السلع، وكسب رهان المنافسة، فإن جهات الاختصاص مطالبة اليوم بالأسراع في وضع مواصفات لعدة منتجات حتى يتمكن المستهلك من حقّه في الجودة، إضافة إلى ذلك، فإن المواصفات لا تهم المستهلك فقط، بل هي عنصر من عناصر تدعيم القدرة التنافسية للمنتج الوطني في ظل المنافسة الدولية⁽¹²⁾ إزاء التطورات والتحولات الكبيرة التي يعيشها العالم بسبب التقدم التقني السريع الذي لم يسبق له مثيل في مجالات تقنيات الإنتاج والتوزيع مع مزيد من التوجه الدولي نحو الانفتاح والتحرر والعولمة وتكامل عمليات الإنتاج عبر الدول وترابط الأسواق المالية من جهة ونحو الاندماج في تجمعات اقتصادية عملاقة من جهة أخرى⁽¹³⁾.

من خلال هذا، يمكن للمسلمين فتح آفاق مستقبلهم الاقتصادي، إضافة إلى ذلك، علينا أن نتذكر أنه من المستحيل في الوقت الحاضر إيجاد أي بديل يركز على دولة ما أو على معتقدات دينية أو دنوية محددة دون إقامة مجتمع المعرفة الغائم على القيم وثوابت الثقافة الإسلامية بعيدا عن الانغلاق والتفريط. ولا يمكن لأي دولة أو دين بذاته إيجاد إجابة قابلة للتطبيق على تحدي العولمة. فقد قامت أنظمة تكنولوجية المعلومات وأنظمة النقل الحديث بتمكين التجارة من تخطي الحدود إلى نزرجه أنه لا يمكن في الوقت الحاضر لأي دولة أو اقتصاد أن يصمد لوحده ويزدهر. لأن كل المشتري المتداوله حاليا بهذا الخصوص لتتود بأهمية نور الدول والحكومات والسلطات الوطنية عموماً في سن السياسات التشريعية المبتغاة ضمن

تعاون بجمع بين المؤسسات الوطنية والمنظمات الدولية المختصة والقطاع الخاص الوطني وما فوق الوطني (الشركات عابرة القارات) والمنظمات غير الحكومية⁽¹⁾.

ولكي تكون النظرية الاقتصادية الإسلامية ناجحة يجب أن تكون فكرة مرنة قابلة للتغيير في جزء من بنائها، حتى يمكن إحياء الاقتصاد الإسلامي والتزام المسلمون به وإفناع العالم بصلاحيته، عبر مختلف وسائل الإعلام ومراكز البحث العلمي، لابد من أن نشط وأن نتعدد بحوث الاقتصاد الإسلامي في المجالات الآتية⁽²⁾:

أولهما: البحث عن مجتمع معرفي بنيل، أي نوع من التعليم تحتاجه المجتمعات المسلمة في الوقت الراهن واستشراف المستقبل، بالتركيز على نوعية التعليم لا كميته، وبالإستفادة من التراكم المعرفي العالمي.

ثانيهما: الكشف عن الأصول والمبادئ الاقتصادية الإسلامية بلغة المعرفة الجديدة.

ثالثهما: إعمال هذه الأصول وربطها بما هو واقع بعالمنا الاقتصادي المعقد الحالي.

ولا ينكر أحد ما للمعرفة والثقافة بصفة عامة من أهمية في الوقت

الحاضر⁽³⁾. ولا يمكن تجاهل الحافز الإنساني الذي يتيح للإنسان أن يبذل ويحقق

التقدم والنحول في أسلوب الحياة. لذا يتعين على الاقتصاد الإسلامي في الوقت

الحاضر كما فعل في الماضي أن يتيح للجنس البشري مواصلة التطور والنمو في

جامعات عصرية مستفيدة من جميع مكتسبات التقدم العلمي والتقني المتاحة اليوم،

بل يتعدى ذلك بتوفير جامعات توطن برامج التعليم عن بعد وربطها بمشكلاتنا في

العالم أو على الأقل في عالمنا ومحيطنا الإسلامي، إلى درجة ذهب معها الدكتور

محمد مرياتي إلى ضرورة الاهتمام استعمال اللغة العربية في مجال المعلوماتية

والاتصالات، فضل عن إتقان اللغات الأخرى⁽⁴⁾.

ويمكن للقيم الأخلاقية، أن تقدم بديلاً قابلاً للتطبيق في المجال الاقتصادي

مدعماً بتطوير الأسواق وتدعيم العبادات الفردية ضمن بيئة تشجع على الخلق

والإبداع وتطوير الصناعة والحرف الصناعية التي إشتهرت بها المجتمعات

المسلمة سابقاً، وتعضير المصارف التجارية بشرط أن تعتمد على نظام يرتكز على

توزيع عادل لثروات الأرض وإقامة قيمة لحياة الإنسان بعيداً عن السعي الأعمى

لتحقيق الربح.

ويتعين على المسلمين، وغيرهم، التحاور من أجل إيجاد سوق يتسم بالمثل والأخلاقيات، ولا تنظمه مصالح أي فئة معينة، بل يتم تنظيمه وضبطه على أساس القيم الإنسانية السامية، وإذا تحقق هذا الأمر يمكننا تشكيل نظام اقتصاد عالمي يكون أقرب إلى القيم التي تعتبر أساساً لجميع الديانات ومبدأ أساس من مبادئ حقوق الإنسان. ولعل أغلب مجتمعاننا الإسلامية حوجة لهذا المبدأ اليوم لضمان شروط البقاء في هذا العالم الشرس في معاملاته.

والتحديات التي تواجه المسلمين اليوم، لا تتمثل في امتلاكهم الثروة من ذهب أو مواد خام أو موارد طبيعية، بقدر ما أصبحت الثروة تتمثل في بشر مؤهلين تأهيلاً عالياً يتماشى ومتطلبات المرحلة. قادرين على الخلق والإبداع والتنظيم وامتلاك المعلومات. فضلاً عن ترتيب البيت التجاري الإسلامي ترتيباً واقعياً وفعالاً.

كل هذه التحديات باتت اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، أمراً ضرورياً ومطلباً ملحا للغاية. إذ يعتبر انضمام المملكة العربية السعودية وسلطنة عمان إلى عضوية منظمة التجارة العالمية حدثاً في غاية الأهمية، بل منعرجاً تاريخياً بالنسبة إلى الوجود الإسلامي، ضمن فعاليات المنظمة تلك التي تعني بما يوازي 90 % تقريباً من المبادلات السلعية والخدمية والتكنولوجية الدولية⁽¹⁾

نعم نحن أمة نتفوق في الأخلاق بما عندنا من كتاب هادي إلى السلوك موضوعه (ذلك الكتاب لأرباب فيه هدى للمتقين)⁽²⁾، غير أننا نأسف للتكيف في معالجة المادة، نسقط كثيراً من قوانين السلوك في الحياة العملية والمعالجة الصناعية، كمعايير ضبط الجودة الصارمة وأركان التعاقد الملزمة والأجل المضروب لانجاز العمل والعقوبة المترتبة على الخلف الخ، كل هذه الأخلاق نجدها مصاحبة للنشاط المادي في نية أوروبا غير أنها عندنا لا تعني قيمة إلا قليلاً⁽³⁾

ختاماً أقول، إن للعولمة جوانب موجبة يمكن أن يستفيد منها الجميع، ومن بينهم المسلمون. فافتتاح أجزاء العالم على بعضها البعض معرفياً وتقنياً ومسهولة لتسياب المعلومات والمعارف والتجارب أمر يمكن توظيفه والاستفادة منه كل حسب مصلحته ومقدرته.

والأمر في غاية الخطورة وضرورة حتمية حيث لا يمكن التفوق خلف المتأخرين والاتعلق على الذات، فإن استعدالت الوحدة فمن الضرورة النصية

التعاون بين الدول والمجتمعات الإسلامية، وينبغي أن يشارك الجميع من أجل بناء العناصر البشرية القادرة على التطوير والخلق والإبداع لتجسير فجوة المعرفة وقيام مجتمع المعرفة المنشود. وينبغي أن ترافق تلك التحذيرات إجراءات في الداخل تكملها لضمان موقع في عالم اليوم. وتحقيق النبوض الحضاري لأمة العلم من جديد لتعود أمة قوية صحيحة منافسة، فليست الصعوبة في أن نصل إلى القمة بل الصعوبة أن نحافظ على وجودك فيها.

الهوامش:

⁽¹⁾ راجع: برنامج الأمم المتحدة، والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي: تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2002، ص 5.

⁽²⁾ راجع، ساين صفاق وأخرون: قضايا عربية معاصرة، مراجعة وتقديم منظر المصري، دراسة عبد الحميد شومان، الطبعة الأولى 2001 عمان - الأردن، ص 25.

⁽³⁾ العولمة حسب بعض تعريفاتها هي الحال التي نشهدها فيها عملية تغيير الأنماط والنظم الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ومجموعة القيم والعادات السائدة وإزالة الفوارق التنموية والوطنية في إطار تبديل النظام الرأسمالي الحديث وفق الرواية الأمريكية المهيمنة والتي تزعم أنها سيدة الكون وحامية للنظام العالمي الجديد.

⁽⁴⁾ البيلاوي، حازم: النظام الاقتصادي الدولي المعاصر (من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة) سلسلة عالم المعرفة - العدد 257 - مايو 2000، الكويت، ص 207.

⁽⁵⁾ هانس - بيتر مارتن وهارك شومان: فسخ العولمة (الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية) ترجمة عنان عباس علي، مراجعة وتقديم رمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة - العدد 238 - أكتوبر 1998 الكويت، ص 1. وراجع، مسألة التطور والاندماج الاقتصادي للدول في حلقة من العلاقات الاقتصادية، عند حازم البيلاوي: النظام الاقتصادي الدولي المعاصر، ص 32 وما بعدها.

(1) راجع هذه المستعيرات عند الصرماني، ربيعة خليفة في بحثه عن المستعيرات الاقتصادية والاجتماعية في ظل العولمة، مجلة دراسات الليبية، العدد العشر، الخريف 1370 على الموقع الاتي:

www.dirassat.com

⁽²⁾ راجع، صالح الرقب: العولمة (الأهداف والآثار الاقتصادية) على العنوان التالي: www.aliman.org

⁽³⁾ تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2002، ص 7

⁽⁴⁾ انظر، هانس - بيتر مارتن وهارك شومان: فسخ العولمة، سلسلة عالم المعرفة، ص 8 وما بعدها.

⁽⁵⁾ أحمد يوسف أحمد وأخرون: التعاون الاقتصادي العربي وفق المستقبل، مراجعة وتقديم ضاهر كنعان، الطبعة الأولى 2001 - الأردن، ص 267 وما بعدها

⁽⁶⁾ راجع، صالح الرقب: العولمة على العنوان التالي: www.aliman.org

⁽⁷⁾ راجع، صالح الرقب: العولمة على العنوان التالي: www.aliman.org

- ⁽¹¹⁾ انظر، العولمة والتعليم والتنمية البشرية (اجتماع خبراء)، جامعة الدول العربية (وحدة البحوث والدراسات المكتبية المنتدى العربي للتنمية البشرية) وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، القاهرة 21- 22 فبراير 2001م، ص 37 وما بعدها.
- ⁽¹²⁾ سورة البقرة، الآية 29.
- ⁽¹³⁾ سورة لقمان، الآية 20.
- ⁽¹⁴⁾ سورة البقرة، الآية 275.
- ⁽¹⁵⁾ سورة النساء، الآية 32.
- ⁽¹⁶⁾ زواة القزمازي وقال حديث حسن.
- ⁽¹⁷⁾ راجع فتحى أحمد عبد الكريم وأحمد محمد العسال: النظام الاقتصادي في الإسلام (مبادئه وأهدافه)، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، القاهرة- 1409هـ- 1989م، ص 16.
- وراجع أيضا: المصري عبد السمیع: مفومات الاقتصاد الإسلامي، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، 1403هـ- 1983م، ص 5 وما بعدها.
- ⁽¹⁸⁾ راجع ما نشر في موقع الحنوز على الإنترنت www.habtoor.com بعنوان: الاقتصاد الإسلامي يتحول لاقتصاد العولمة، تحت صمود رؤية واضحة.
- ⁽¹⁹⁾ انظر، محمد أحمد صفير: دور التوالة في الاقتصاد الإسلامي، ضمن كتاب الإسلام والنظام الاقتصادي الدولي الجديد (البعث الاجتماعي) دار سراس للنشر- تونس، ص 117- 118.
- ⁽²⁰⁾ المعززة صالح أحمد: مراقبة السوق بين الحمية والنظام المعاصر، بحث مقدم لحضرة الزيتونة لثليل شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية العام الجامعي 2002/2003 ص 121.
- ⁽²¹⁾ برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي: تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2002 ص 111
- ⁽²²⁾ العيازي، الشاذلي: السياسات الوطنية في مواجهة العولمة (صراع غير محسوم) محاضرة أقيمت على منبر منتدى الفكر السياسي للجمعية الدستورية الديمقراطية يوم 1 مارس 2002- تونس، ص 48.
- ⁽²³⁾ الفخري، محمد شوقي: المذهب الاقتصادي في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية 1986، ص 51.
- ⁽²⁴⁾ فتحى أحمد عبد الكريم وأحمد محمد العسال: النظام الاقتصادي في الإسلام، مبادئه وأهدافه مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة 1989 القاهرة، ص 32.
- ⁽²⁵⁾ راجع محاضرة: محمد حرياتي: المعلوماتية وتطورها في تحقيق التعاون العربي، كتاب التعاون الاقتصادي العربي وفاق المستقبل، ص 277.
- ⁽²⁶⁾ أحمد يوسف أحمد وآخرون: التعاون الاقتصادي العربي وفاق المستقبل، مراجعة وتقديم: طاهر كنعان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 2001، الأزمن، ص 26.
- ⁽²⁷⁾ سورة البقرة الآية 2
- ⁽²⁸⁾ يمكن مراجعة كتاب، الكازوري، عبد الجليل النذير: التقوى والثقلان في صفحة الانترنت على العنوان التالي: www.alnailin.com

صورة الإسلام في الفكر الغربي المعاصر

دراسة في الإساح الاستشراقي

الدكتور لخضر شايب

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية. جامعة باتنة

1 - الاستشراق في دائرة الفكر الغربي:

توحي التعريفات التي اعتمدها بعض الدارسين المسلمين للاستشراق بأن هذا الحقل من حقول المعرفة، لم يكن إلا أداة ابتدعها الغرب المسيحي من أجل التحكم في فهم الإسلام؛ ديناً وثقافة وحضارة. وإثنا، لو أردنا التوقف عند نماذج من هذا الفهم، لنقلنا في هذه الدراسة عشرات النصوص. ولكننا، إنذاراً للاختصار، سننقل تعريفين؛ أولهما للأستاذ بن نبي، رحمه الله، حيث يعرف المستشرقين بأنهم "الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وحضارته"¹. أما التعريف الثاني فللدكتور أحمد غراب، حيث يحدد الإنتاج الاستشراقي بأنه "دراسات أكاديمية يقوم بها الغربيون، من أهل الكتاب، للإسلام والمسلمين؛ من شتى الجوانب، بهدف تشويه الإسلام، ومحاولة تمكيد المسلمين فيه"².

والحقيقة أن الكتاب المسلمين الذين اعتمدوا مثل هذه التعريفات كانوا بعينين، تمام البعد، عن تصور الموقع المتميز الذي نبأه الاستشراق من المجتمع، أو المجتمعات، الغربية؛ منذ نشأته إلى اليوم. ذلك أن هؤلاء الكتاب قد تصوروه، كما رأينا، أداة يستخمنها الغرب، المسيحي الانتماء، كما ذهب إلى ذلك أكثر المسلمين، في صراعه الطويل مع العالم الإسلامي. بينما يدل التنوع الواعي للتاريخ الغربي العام ولإنتاج الاستشراقي، على السواء، دلالة واضحة على أنه استجابة ثقافية الطابع لحاجات تولدت عن تحولات شهدها العالم الغربي منذ القرن الحادي عشر؛ وهي التحولات التي كان يحركها، دائماً، ومهما كانت القوى الغربية التي تتحكم فيها - الكنيسة الكاثوليكية أو حركة الاستعمار مثلاً - السعي إلى بلوغ الانتشار العالمي.

وقد كان الاستشراق ابن هو الأداة الثقافية، كما قلنا، التي أبدعها الغرب من أجل التعرف، وتُمثّل ثقافات وحضارات العالم أجمع؛ وليس ثقافة وحضارة الإسلام وحده. وبناء على ما سبق، فإن تعريفه الصحيح لا بد أن يندلّ على ذلك الجهد المضبوط الذي أبدع مؤسسة علمية ثقافية تهتم بالتخطيط وإنتاج وتنظيم مجموع الدراسات التي يقوم بها الغربيون عن الشرق: دياناته، وثقافته، وأعرافه، وحضارته³. وذلك لأنه التعريف الوحيد الذي يضع الاستشراق في مكانه الصحيح، أي باعتباره إبداعاً وموقفاً ثقافياً وحضارياً واجه به الغرب الحضارات التي تطرح ثقافتها نظرة مختلفة عن نظرة الغرب للكون والتاريخ والمستقبل.

ومعنى هذا أن دراستنا للاستشراق هي دراسة لموقف الغرب من ثقافات العالم؛ وذلك باعتبار إنتاجه، كما يقول الدكتور حميش " نصاً متواتراً، هو بالضرورة مدخل للتعرف على عقلية الغرب ... وبالتالي على أنماط إنتاج صورته الغيرية وبيدولوجيته"⁴.

2 - صورة الإسلام في الإنتاج الاستشراقي التقليدي:

لا بد أن نشير، بدءاً، إلى أن حديثنا عن شيء اسمه (الاستشراق التقليدي) غير صحيح إلا باعتبار التقابل الذي أردنا أن ننسب إليه وبين (الاستشراق المعاصر)؛ وذلك من أجل تحقيق هدف هذه الدراسة، وهو بيان مظاهر التطور الحاصل في نظرة الغرب إلى عالم الإسلام في القرن العشرين.

أما في الواقع، فإن (الاستشراق التقليدي) يشمل إنتاج مراحل متعددة، ومختلفة تمام الاختلاف في أحيان كثيرة. وذلك تبعاً للميول العامة التي طبعت المجتمع الغربي، والتي استجاب لها حقل الدراسات الاستشراقية باعتباره ممثلاً للثقافة والمجتمع الذي أبدعه. وهكذا، فإن (الاستشراق التقليدي) يشمل مراحل الاستشراق القروسطي، واستشراق عصر النهضة، واستشراق عصر التنوير، واستشراق القرن التاسع عشر.

ونحن، إذن، لا نستطيع، خصوصاً في هذه الدراسة القصيرة، أن نصف الإطار العام، ونتبع تبعاً استقرارنا تماماً جزئيات النظرية - أو النظريات - التي أنشأها الغرب عن عالم الإسلام فيما سميناه - تجاوزاً - الاستشراق التقليدي. ولكننا، ومن أجل تحقيق غرض هذا البحث، سنحاول تعريف القارئ بصورة معينة ظلت تتحكم في تصور عالم الغرب للإسلام لقرون طويلة. وقد اخترنا، متعمدين، أن تكون الصورة التي نقلنا على درجة عالية من (القباحة) و(سوء القصد) و(عدم

الصحة)؛ وذلك من أجل بيان أحسن للتغيرات التي أحدثها الاستشراق المعاصر في تصوُّره لأشياء الإسلام.

وإن من أحسن الكتابات التي تحقق ما قصدنا إليه تلك الكتابات التي قادتها أول الأخويات الدينية المسيحية الحديثة ظهوراً، وهي أخوية البنديكتيين Bebedictains التي أنشأها منذ 547 م القديس بنوا من نورسي Saint Benoi، والتي اعتمد عليها البابا غريغوار الكبير في تمسيح الساكسون⁵. وقد انتشرت هذه الأخوية في إسبانيا وفرنسا، وأصبح رهبانها يتولون التأليف عن الإسلام منذ القرن العاشر الميلادي.

وقد عمل قساوسة هذه الأخوية على نقل صورة في غاية البشاعة عن الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم، رغم وجود الإمكانات الحقيقية، لمعرفة أحسن بالمصادر الإسلامية. ولكن ضرورات تنمية الحقد المسيحي على المسلمين جعلهم يعكسون المنهج فيكتبون ما بدا لهم، مستغلين الجهل العام بين المسيحيين الذين لا يجيدون العربية أو غير المتصلين بالمسلمين. وهذه حال إيلوج القرطبي Eloge de Cordoue الذي اشتهر بكونه الأكثر علماً من بين قساوسة بلاده؛ والذي لم تخرج كتاباته عن إطار الكذب المحض على النبوة والسيرورة والتشريع الإسلامي؛ فقد تنبأ محمد - ص - بالنسبة له "عندما أحس يقرب موته ... بأن الملائكة سوف تأتي لتبعه في اليوم الثالث بعد موته... وبعد نزول روحه (...). فإن أصحابه قد قاموا ليحرسوا جسده، ولما جاء اليوم الثالث ولم تأت الملائكة تصرفوا؛ لاعتقادهم بأنها لن تقترب في حضورهم. وفورا، وعوضاً عن الملائكة قدمت الكلاب لتتشم جسدي النبي. وما بقي منه دفنه المسلمون. ولينقموا من الكلاب، فإبهم أمروا بأن يقتل عند عظيم منها في كل سنة، فهذه هي معجزات نبي الإسلام"⁶.

وإضافة إلى هذه الأساطير التي تُظهر النبي - ص - في صورة المبتدع، فقد عمد الإسبان والفرنسيون إلى نشر فكرة اعتقاد المسلمين في ألوهيته. وهذا أمر واضح في ملحمة (رولان) التي كتبها الشاعر النورماندي (تيزولند) في القرن الحادي عشر مع أن الواقعة التي رواها قد وقعت في القرن الثامن. وهو يصور في هذه الملحمة المسلمين مشركين حقيقيين يعبدون مجموعة من الآلهة تتكون من: محمد، وأبولو، وجوبين، وترافاجان⁷. ورغم إمكانية التأكيد من كذب (تيزولند) المحض من النظر في عبادات المسلمين، ومراجعة الحوادث التاريخية التي تبين أن شارلمان لم يحاصر في غزوه لإسبانيا إلا (سرقسطة) التي امتعت عليه، على عكس ما يدعيه الشاعر الذي جعله يفتح كل إسبانيا ما عدا هذه المدينة. وعلى

الرغم من أن قوات مشتركة من المسلمين وقبائل (التيكس) قد أبادت موحررة هذا الجيش عند الانسحاب، إلا أن نيرولت راح بصور (حكم) شارلمان لإسبانيا وعبادات المسلمين المشركين. كما راح الأوروبيون ينسجون الخرافات حيث زعموا أن القرآن هو إله من آلهة المسلمين.⁸

والملاحظ أن منهج بلوج القرطبي المتمثل في استغلال معلومة مؤكدة يعرفها المسيحيون عن المسلمين، نظرا لظهورها في حياتهم؛ ثم اخلاق أسطورة منفردة تُرجع سبب تمسك المسلمين بها إلى أحداث السيرة، منهج يشاركه فيه غيره من الكتاب المسيحيين في تلك الفترة. ولا يخفى ما لهذا المنهج من تأثير، إذ أنه يمزج المظاهر التي لا يمكن أن يفهم أحد بالكذب فيها بالاختلاق له. حتى عند التفسير، وبهذا ضمنوا حقد قرانهم والمستمعين إليهم على الإسلام والمسلمين.

والملاحظ أن طابع الحقد الشديد الذي يظهر في مؤلفات هؤلاء الرهبان على الإسلام وأهله، وإن كان يعود في أساسه إلى عيظهم من الإسلام؛ الدين الذي استولى أهله على الكثير من الأرض المسيحية. إلا أن الغلبة الثقافية والحضارية للمسلمين الإسبان على عالم المسيحية، قد زاد من حدة الشعور بالخوف على وجود المسيحية ذاتها في إسبانيا، إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه؛ أي بقاء العربية لسنا مشتركا للمسلمين واليهود والنصارى، وزوال الترسانة اللاتينية، وانتشار زواج المسلمين من المسيحيات⁹. ومن النصوص الدالة في هذا الخصوص ما كتبه ألفارو: "إن مواطني المسيحيين يتمتعون كثيرا بالقصائد والقصص العربية. إنهم يدرسون أعمال علماء العقائد والفلاسفة المحمديين، لا من أجل نقضها؛ ولكن من أجل الحصول على أسلوب عربي سليم ورشيق. من يستطيع اليوم أن يجد علمانيا ينزس التعليقات اللاتينية على الكتاب المقدسة؟ للأسف، فل الذين المسيحيين الذين يتميزون بمواهب خاصة لا يعرفون أي آية لو أي لغة خارج اللغة العربية. إنهم يقرأون ويندسون بشراسة الكتب العربية. ومن ناحية أخرى، فأنك، عندما تحدثهم عن الكتب المسيحية، فإنهم يحتجون، باحتقار، بأنها ليست جديرة باهتمامهم... إن المسيحيين قد نسوا حتى لغتهم الخاصة"¹⁰.

3 - صورة الإسلام في الإنتاج الاستراقي المعاصر:

خضعت نظرة العالم الغربي المعاصر إلى الإسلام إلى الكثير من التغيير، الذي فرضته جملة التطورات الثقافية والسياسية التي شهدتها العالم المعاصر؛ والتي كان الغزب أكبر المساهمين في إحداثها، والخضوع لتأثيراتها. وإنما نجد مظاهر

تلك في الكتابات العامة، التي دعا أصحابها إلى ضرورة تجاوز مرحلة اللاتسامح إلى محاولة الفهم المتبادل، وإلى للتنوع المطلوب في الأفكار¹¹. كما تجده في المؤلفات الأكثر تخصصاً، والتي يعطينا عنها العالم الأمريكي الكبير، جورج سارتون، صورة جيدة؛ إذ ذهب يؤكد بشكل أكثر عمقا وإصرارا من المفكرين الغربيين السابقين عليه تبعية الحضارة الغربية المعاصرة للحضارة الإسلامية، يقول: "إن الصلة بين اليونان القديمة والنصرانية الغربية قد انتهت إلى حالة من التلاخي، لاحت كأنما هما إلى انفكاك تام ما لم يتدخل شعب شرقي آخر، هو العرب، ويجب ألا يغيب عنا أن هذا التدخل هو الموجة الثالثة من موجات الحكمة المشرقية، والمرة الثالثة التي يتلقى فيها العالم دفعة خلاقة من ناحية الشرق"¹².

وقد أرجع سارتون عبقرية الحضارة الإسلامية التي قادت العالم لعدة قرون إلى انقفاء الدين الإسلامي، الذي منحها الوجدانية والروح واللغة الواحدة، بالحضارات القديمة وخصوصا الفارسية واليونانية؛ فكانت هذه الحضارة إنتاجا بديعا، إذ لأول مرة في تاريخ الدنيا تتحد الديانة السامية بالمعرفة الإغريقية، وتفرخ في عقول كثير من الأمم. ولم يقتصر ذلك الأمر على مدينة بدأتها، أو مملكة يعينها. لقد انتشرت الثقافة الجديدة... من بغداد إلى الهند، ومن بلاد ما رواء النهر إلى آخر طرف من أطراف الدنيا"¹³.

وعلى المستوى الديني، فإن هناك تعبيرا ملموسا قد حدث في الخطاب الرسمي للكنيسة الكاثوليكية؛ التي ظلت سياساتها اتجاه الإسلام تغذي العداء ضده لمدة قرون من الزمان. وتبدو ملامح هذا التغيير في خطابها الرسمي عن الإسلام، وذلك منذ صدور الوثيقة التي وزعتها أمانة سر الفاتيكان على مجموعها الثاني لغير المسيحيين؛ والتي تدعو فيها إلى ترحيب الصورة البالية الموروثة عن الماضي، أو المشوهة ببعض الأوهام والافتراءات المسيحية عن الإسلام. وقد اعترفت فيها الكنيسة "بأخطاء الماضي وانحرافاته التي افتزفها العرب ذو النشأة المسيحية بحق المسلمين. إنها تنتقد مفاهيم المسيحيين الخاطئة عن قرية الإسلام، وتمسكه بالتشريع وتعصبه، وتلج على وحدانية الإيمان بالله، وتذكر بالمفاجأة العظيمة التي أحدث بها الكاردينال (كوشاج) سامعيه في المحاضرة التي ألقاها سنة 1969 بالقاهرة، في جامعة الأزهر، حين أعلن هذه الأفكار. كما تذكر بأمانة سر الفاتيكان

سنة 1967 التي دعت المسيحيين إلى تهنئة المسلمين بانتهاء صيام رمضان، وكونه قيمة دينية أصيلة¹⁴.

وقد أثمر هذا الموقف، بالتزامن مع الجهود المبذولة في مجال البحث الثقافي، استحداث مؤتمرات الحوار بين الأديان الذي رعته مؤسسة الصداقة الإسلامية المسيحية التي عقدت مؤتمرها الأول في قرطبة سنة 1974¹⁵. وقابل ذلك، من الجانب الإسلامي، دعوة الشخصيات الدينية والثقافية الكبرى في العالم الغربي للإسهام في إثراء البحث العلمي في البلاد الإسلامية، كما هو واضح في مؤتمرات الفكر الإسلامي الشهيرة في الجزائر.

وقد استجاب حقل الاستشراق للتطورات العامة التي حدثت في العالم الغربي إبان هذا القرن، كما كان أول المساهمين في التأسيس للعلاقات الجديدة بين العالمين الغربي والإسلامي. ورغم أن نتيج الحقل التي ظهر فيها التطور في الدراسات الاستشراقية أمر مستحيل نظرا لتعدد ملامحه، إلا أننا نحاول أن نعطي صورة عن ذلك بواسطة الإشارة إلى ظهور كتابات المستشرقين المسلمين في عالم الفكر، ومن هؤلاء: نصر الدين دينيه، ومحمد أسد، ورجاء غارودي، وعبد الواحد يحي غينون، ومزاد هوفمان ... وكذلك الظهور القوي لمؤلفات التيار المتعاطف أشد التعاطف مع الإسلام وحضارته، والذي تولى مسؤولية القيام به عدد كبير من المستشرقين أمثال: الإيطالية لورا فيشيا فاغلييري، والسويسري روجيه دو باسكويه، والألمانية سيغريد هونكه، والفرنسي موريس بوكاي، والأمريكي دانييل دانييت ...

وإننا نستطيع أن نرى ملامح هذا التطور الكبير حتى في كتابات المستشرقين الذي ظلوا محافظين على مرجعياتهم الدينية اليهودية والمسيحية أو الفكرية، مثل الماركسيين وأصناف الملاحدة. ويظهر ذلك في تعدد الأسباب التي أصبحت تحرك التأليف الاستشراقي، الذي تجاوز فيه الباحثون المعاصرون السبب القروسطي الكامن في الدفاع عن المسيحية بمنهج الانتقاص من الإسلام. كما تجاوزت الكثير من الدراسات المعاصرة المرجعية الاستعمارية إلى مرحلة بحث الإسلام والحضارة التي أنتجها انطلاقا من أهداف جديدة، مثل تحقيق التقارب بين الحضارتين: الإسلامية والمسيحية¹⁶. ومثل البحث في رسالة الإسلام باعتبارها ما زالت مستمرة، ولهذا يهمنا أكثر من أي وقت مضى أن نعرفه أكثر. في

تتويعته، وفي ميراث التقاليد والأماشي التي ما زال ينقلها إلى تابعيه¹⁷، ومثل
تتوير العلاقات السياسية للدول الإسلامية والغربية بمعرفة مرجعيات المسلمين،
ومن هذا المنظور فإن " أحداث الشرق الأوسط، ومكانة ودور الدول الإسلامية في
الساحة السياسية العالمية ليست غريبة على موضوع تعدد الدراسات والكتب
والمقالات عنه، فمن المستحسن أن ينار الحاضر بالماضي"¹⁸.

وقد تدخل العامل العلمي البحث في بعض الكتابات الجديدة، حيث ألف
بعض المستشرقين الكتب التي تطبق فيها المناهج الجديدة في دراسة الظاهرة
الدينية خصيصاً للطلبة المسلمين، ومن هؤلاء: (سوفاجيه) في كتابه الجيولوجرافي
(مدخل إلى تاريخ الشرق المسلم) الصادر سنة 1943. وقد نَقَحَ الكتاب نفسه
وأضاف إليه المستشرق (كلود كاهن) سنة 1961 بعض المواد الجديدة من أجل
تحقيق الغرض نفسه¹⁹. ومثل جون بول شارنابي الذي صرح بأنه " في السنوات
السابقة، طلب منا مجموعة من الطلبة المسلمين الذين يحضرون رسائل جامعية في
التاريخ الاجتماعي للدين تأليف كتاب يكون مدخلاً لعلم الاجتماع الديني ... وذلك
لأن مناهج ورؤية هذا العلم لا تتفق، لأول وهلة، مع التساؤلات العقديّة التي من
الممكن أن تطرح في المجتمعات الدينية"²⁰.

ومن الملامح البارزة لهذا التطور ما يلاحظ من تغيير في المناهج التي
أصبح يستخدمها المستشرق في دراسة الموضوعات الإسلامية، والتغير المحسوس
في لغة الكتابة والأحكام التي أصبح يعطيها عن موضوع دراسته. ومن هذا
المنظور، فقد أبدى جلّ المستشرقين المعاصرين رفضهم للأفكار التي صدرت عن
الاستشراق القروسطي، والكتابات الصادرة عن مرجعيات استعمارية أو عرقية.
وقصبت صورة النبي - ص - أكثر نقاء حيث " يعترف الكتاب الغربيون
المحدثون، في الغالب، بصنق شخصية محمد الذي عاملتها الدراسات القديمة -
التي لا تحتوي إلا على ادعاءات تحاول أن تطمسها - بلزراء"²¹.

وقد أثمرت هذه النقائات التي حققها الاستشراق نتائج كثيرة، لعل أهمها
شهود العالم الغربي لمؤلفات لم يعد أصحابها يجنون أي حرج في إبداء كامل
التقدير للإسلام ولشخصية النبي صلى الله عليه وسلم. وقد كتب مايكل هارت ببرر
اختياره للنبي - ص - باعتبار أنه أعظم الشخصيات تأثيراً في العالم: " لقد اخترت
محمدًا - ص - في أول هذه القائمة، ولا بُدَّ أن يندعش كثيرون لهذا الاختيار،

ومعهم حق في ذلك؛ ولكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى النبوي والتنبؤي.²²

والملاحظ أن هارت قد رأى في الامتزاج بين الطابع النبوي والتنبؤي للإسلام قيمة عظيمة. وفي هذا الحكم الذي ما فتى يتأكد باعتباره من الأوجه الكثيرة لتعلق الإنسان الغربي بالإسلام إلى درجة اعتقائه أو احترامه على الأقل، وجه من وجود الأزمة التي يمر بها الغرب المعاصر الذي نتجوت بناءاته الاجتماعية نظراً لتعيب المرجعية الدينية. وهكذا نرى تحول الفكر الغربي من اعتبار تقنين الإسلام للحياة الأخلاقية والسياسية ومزجها بالحياة الدينية عيناً، كما عث جوتزبير ولا مانس وغيرهما، إلى قيمة أصيلة، جعلت هارت - وغيره كثيرين - يؤمن بأن محمد - ص - هو أعظم الشخصيات لثراً في التاريخ الإنسانية كلها.²³

ومع هذا يبقى السبب الأول في حركة التأليف الاستشراقي ذلك الاعجاب الشديد بالحضارة الإسلامية، وهو الأمر الذي تؤكد بظهور مئات الدراسات وخصوصاً الزائدة منها، مثل كتابات (لوبيون) و(هونكه) و(جاك بيرك)، والتي أسهمت في التعريف بوجود إبداع المسلمين في جميع مجالات الحياة، وبيئت التداخل بين تاريخ الإسلام والغرب، فمنذ "ثلاثة عشر قرناً، في أوقات الحرب أو السلم، كان التاريخ الإسلامي يمتزج بتاريخنا، وحضارتنا نشأت عن الأساس نفسه. وإن كان الذي أضفناه - بقصد الطابع المادي - قد خلق هذا الاختلاف العميق. فإن المقارنة ستساعدنا على فهم أحسن لأنفسنا وللآخرين. وليزد الأسباب ... يبدو ضرورياً أن يتبوا تاريخ العالم الإسلامي مكاناً مرموقاً في ثقافتنا ... ولا بد أن نعرف أنه قيل أن يكون القديس توماس كان هناك ابن سينا، وأن مساجد دمشق وفرطية وجدت قبل كاتدرائيات فرنسا وألمانيا. وضروري (هنا) أن ننسى الاحتقار الذي قابلتنا به الشعوب الإسلامية المعاصرة".²⁴

أما أهم مظاهر هذا التطور فهو ظهور طابع النقد الذاتي الذي احتل، رغم احتشامه وجزئيته، مكاناً إلى جانب التسليم التام بمقولات الاستشراق التقليدي. ومن أمثلة ذلك الرفض الكلي الذي قابل به جمهور المستشرقين إنتاج الأب هنري لامانس، وذلك للطابع الحاد الذي ميزه، وعدم التزامه بأدنى شروط البحث العلمي والنيافة. وقد كتب كارلوفاف عنه: "يحق لنا أن نعجب أنه أعجب من كاهن كاثوليكي مثل الأب لامانس، يتطوع للدفاع عن أولئك الساكنين الطغاة - بقصد

الأمويين - ساخرًا من سذاجة علي، الذي مكروا به وخذعوه، وإنيًا لغريبة حقا هذه المباحث التي يُبدي فيها هذا المؤلف ... تشيُّعه للأمويين ضد بني هاشم، والتي تتوالى فيها المرافعات الدفاعية، والانتقادات الدعائية. أخذ بعضها برقاب بعض²⁶.

كما كتب وات منبها إلى نقض مزاعم المستشرق الإيطالي الأمير ليون كائيتاني، وه الأمر الذي يعنى نسبة النتائج التي انتهى إليها، وبالتالي سيولة - وضرورة - تقييم مبالغته في الشك²⁶. وكذلك فعل مع الأب لامانس الذي أدنى به الأمر إلى استبعاد أخبار الفترة المكية، غير أن كثيرا من العلماء اتفقوا على القول بأنه مبالغ في ذلك كثيرا²⁷. وقد أصبح شائعا في التواتر الاستشراقية أن لامانس " يتجاوز الأدلة كثيرا ... إذ أن طريقته العابثة في المعالجة ليست طريقة علمية، فهو يرفض هذا الرأي، ويقبل الآخر، حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته دون أن يعا بالموضوعية"²⁸.

والحقيقة أنه لم ينح من النقد والتقويم أي مستشرق معاصر. وقد تعرض، مثلا، المستشرق الكبير ماسينيون لنقد تلميذه جاك بيرك الذي أظهر محتوية مناهجه ومقارباته. وقد ظيرت خلافتهما بدءا من نقاشهما في (حوار حول العرب) " حيث كان بيرك ... يبرز أمام محاوره ضرورة تبني لغة جديدة تتسمج ... مع الحس الجنلي والشعور التاريخي"²⁹. وكذلك فعل هاملتون حد الذي أبرز في نقده لماسينيون الطابع الغارق في الذاتية لتحليلاته للموضوعات الإسلامية. وعدم فصله في كتاباته بين الذات والموضوع، مما شكل عقبة أمام من يحاول أن يتتبع آراءه³⁰. ومن ذلك إبطال الدراسات اللاحقة على كازانوفنا النتيجة التي انتهى إليها في كتابه (محمد ونهاية العالم) الصادر سنة 1911، والمنتملة في محاولته إثبات تأثير النبي - ص - بالمسيحيين؛ وذلك بناء على عناصر التشابه الظاهري بين بعض الآيات القرآنية وفكرة نهاية العالم في المسيحية. وقد صرح سوفاجيه وكلود كاهن بأن كتاب كازانوفنا " مثير للانتباه، ولكن نتائجه غير مقبولة على العموم"³¹. كما أبطل الفكر الاستشراقي رأيا مشابها لرأي كازانوفنا، عبّر عنه (نورندرائي) مستندا على تشابه خارجي بين القرآن الكريم وخطبة أحد وعائط الكنيسة السورية. وهو القديس أفريد، إذ أن " هذه الفرضية لا يستند لها أي دليل محدد، ولا تكفي للتعبير عن النقحة والقوة التي تُشعشعُ سور القرآن الأولى، إضافة إلى هذا، فإن محمدا يختلف تماما عن المسيحيين في تصوُّره للحياة الآخرة"³².

ومن الملاحظ أن هناك من المستشرقين من أنجز دراسات جديدة تماماً، جعلت أهدافها الأساسية إبطال مزاعم وأراء قال بيا ونشرها كبار المستشرقين. وهذه حالة المستشرق الأمريكي (دانييل دينيت)، الذي عمل على ردّ الرأي الشهير لفلهاوزن وبيكر ويل، حول عدم معرفة المسلمين بموضوع الضرائب مدة تزيد عن قرن من الزمان عن قيام الامبراطورية الإسلامية؛ حيث ظل المسلمون - حسب هؤلاء المستشرقين - يجمعون إتاوات يفرضونها على البلاد المفتوحة بشكل غير منظم، كما أنهم قنروها دون أن تعينهم طرق جمعها.

وقد أكد فلهاوزن أن لفظ (خراج) و(جزية) قد ظلا مترادفين حتى سنة 121 هـ، عندما أصدر نصر بن سيار، والي خراسان، قراراً يقضي بأن يؤدي الناس جميعاً ضريبة الأرض، وهي الخراج؛ أما ضريبة الرأس - الجزية - فلا يؤديها إلا غير المسلمين³³. ولما كان ما ادعاه يتعارض مع ما بينه الفقهاء والمؤرخون المسلمون، فقد اتهمهم فلهاوزن في كتابه (الدولة العربية وسقوطها) الصادر سنة 1902 بالتزيف، وذلك بالحقاقهم نُظم عصرهم إلى أيام الرسول - ص - والخلفاء الراشدين، حتى يحيطوا بجو عن التنبيل³⁴. وقد وافقه المستشرق (بل)، حيث رأى أنه لم يجد في الوثائق الرسمية لذلك العهد فروقاً في الاستعمال بين الخراج والجزية، كما وافقه في اتهامه للمسلمين بالوضع³⁵.

وقد ركز دانييل دينيت على إبراز أن هناك ثلاث نقاط لقيت قبولاً من المستشرقين بحيث لم يعارضها أحد منذ كتبها فلهاوزن، وهي:

ميل المصادر العربية إلى أن تنسب إلى عهد الرسول - ص - والخلفاء الراشدين نظاماً ينتمي إلى عهد متأخر.

لفظتا خراج وجزية مترادفتان في الاستعمال الإسلامي، ومعناهما الإتاوة.

أن النحول في الإسلام كان يعفي المؤمن من جميع القرامات هذه الإتاوة.

وقد شكك دينيت في جميع هذه النتائج، وركز على مسألة المنهج الذي اعتمده فلهاوزن؛ الذي كان يسوق شواهد ثم يرفض ما لا يتفق مع رأيه، ويعتبره زائفاً منتقلاً دون أن يقدم أدنى دليل على ذلك. والأدهى من ذلك أنه كان يختار عن النص الواحد فقرة بعينها "ويتم في الوقت نفسه بقية عبارات المصدر بالتزيف".

وقد أبرز دينيت أن المنهج نفسه يلاحظ في كتابات المستشرق الكبير (كايتاني)، صاحب (حوليات الإسلام) الصادر في ميلانو سنة 1912، والذي ذهب يؤكد أن المؤرخين المسلمين صاغوا قولهم شئ سئال واحد ينسبونه إلى العهد الأول، وقد

نقل عنه قوله : " إنه لا يحدث، أبدا. أن تقرأ في البلاذري لأكثر من خمس عشرة دقيقة، في أي موضوع تختاره ... دون أن يواجهك مثال على الأقل - والغالب أن يواجهك الكثير من الأمثلة - على حالة غنل فيها الاتفاق الذي تم عند الفتح، في عهد خلفاء متعاقبين " ³⁶. يقول دانيث ردا على فكرة اختراع المسلمين لرواياتهم: " وكابتائي لم يستعمل أبدا أسوأ من عبارة (كانما صيغت على مثال) حينما اتهم المؤرخين المسلمين بتزييف الفصول الرئيسية في الرواية الإسلامية الكبرى ... ولا يستطيع أحد أن يخرج من قراءة أي مؤرخ من المؤرخين المسلمين المعتمدين بفكرة أن هؤلاء يقدّمون شواهد موحّدة، كأنما (صيغت على مثال)؛ بل الحقيقة هي: أنهم يقدّمون كثيرا جدا من الحقائق، وكثيرا جدا عن الروايات المتعارضة " ³⁷.

ومن المعروف أن هذه الملاحظات وغيرها قد دفعت دانيث إلى تقرير أن الموقف الذي اتخذته فلپاوزن ومن اتبعه من الباحثين يحيط به العديد من الصعوبات، إلى حد أنه أصبح في حاجة إلى تمحيص شامل. وهو ما قام به في كتابه (الجزية والإسلام).

4 - وأما بعد: فقد حاولنا في هذه الدراسة أن ننقل صورة، وإن كانت باهتة، عن عدد من التطورات التي لحقت صورة الإسلام في الفكر الاستشراقي المعاصر. ومع هذا، فيجب أن نؤكد مع الأستاذ إنوارد سعيد أن هذا الحقل من حقول المعرفة قد ظل يتميز بموقفه التراجعي حين يقارن مع العلوم الإنسانية الأخرى بل وحتى مع فروع أخرى من الاستشراق؛ وتخلّفه المنهجي والعقائدي العام ³⁸. وتلك قضية أخرى ...

هوامش البحث :

- 1- افتتاح المستشرقين واثراء في الفكر الإسلامي - مطبوع ضمن كتاب قضايا كبرى لابن نبي - ص 167
- 2- رواية إسلامية للاستشراق - ص 8
- 3- النظر / الاستشراق - إنوارد سعيد - ص 38. والاستشراق في وفق السناد - د. ساش حنشر - ص 7
- 4- الاستشراق في وفق السناد - ص 7
- 5- Histoire des ordres religieux - Henri bonnet- p 15
- 6- Islam Medieval - Von Grunbaum - p 57
- 7- السابق - ص 58
- 8- النظر / الفتوحات الإسلامية - جوزيف زينو - ص 105، أضواء على مواقف المستشرقين والمستشرقين - د. شوقي أبو خليل - ص 204
- 9- النظر / ابن رشد - إرنست ريلان - ص 185 ...

- 10 - l'Islam medieval - Von Grunbaum - p 68 .
- 11 - histoire de la libre pensee - Albert payet - p 112 .
- 12 - تاريخ العلم والانسنة الحديثة - ص 155 .
- 13 - السابق - ص 195 .
- 14 - التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - موريس بوكاي - ص 8 . 9 . 10 .
- 15 - انظر / في الفكر الديني الحديث - د. محمد إبراهيم القوي - ص 117 .
- 16 - l'Eglise et l'Islam - G . Zanantiri - intro .
- 17 - les schismes dans l'Islam - Henri laoust - intro .
- 18 - l'Expansion musulmane - Robert mantrant - intro .
- 19 - Introduction a l'Histoire de l'Orient musulman - Sauvaget et C. Cahen - p 5
- 20 - sociologie religieuse de l'Islam - Jean paul Charnay - intro .
- 21 - la civilisation de l'Islam classique - p 24 .
- 22 - الحداثيون مائة أعظمه محمد - ص 13 .
- 23 - السابق - ص 16 .
- 24 - l'Islam des origines au debut de l'empire Ottoman - C. cahen - p 7 . 8 .
- 25 - محمد رسول الله - نصر الدين ديبه - مؤسسة الشيخ عبد الحلیم محمود - ص 53 . 54 .
- 26 - محمد في مكة - مونتغمري وات - ص 6 .
- 27 - السابق - ص 9 . 10 .
- 28 - السابق - ص 242 .
- 29 - الاسترقاق في أفق استداده - د. سالم حميش - ص 79 .
- 30 - السابق - ص 77 .
- 31 - Introduction a l'Histoire de l'Orient musulman - p 123 .
- 32 - l'Islam - Dominique Sourdel - Introduction .
- 33 - ضحك النبي - ص - على البلاد المفتوحة غنوة نظام تقسيم الأرض على الفاتحين بعد تخمينها. وقد قسّمها صر بن الخطاب في هذه الحالة على مجموع المسلمين، واستند إلى قوله تعالى : " وما آفاه الله على رسوله من أهل القرى فثمة وللرسول ولذوي القربى... " ولبناءً فقد فرض على رقب أهل الأرض (الجزية). وهي في مقابل عتقهم " وعلى الأرض الخراج ". وفي هذا نيل واضح على تمييز المسلمين منذ عهد الخلافة بين الجزية والخراج ، انظر / معجم البلدان الحموي / 1 / 44 . وقد كان المسلمون لا يميزون بين الجزية والخراج. لأن الأرض تعتبر قينا ومن الممكن أخذ الخراج عنها في الوقت نفسه. ولعل فياوازن استغل عدم تمييز المسلمين بينهما فجاء بنظريته الجزية. انظر / كتاب الخراج - أبو يوسف - ص 26 ...
- 34 - نظر اراء فلياوزن في / الجزية والإسلام - دليل دابيت - مؤسسة المترجم ص 12 . 13 .
- 35 - انظر / المرجع السابق - ص 21 . 22 .
- 36 - السابق - ص 37 . نقل عن / حوليات الإسلام - كايّتي - ج 5 - ص 273 .
- 37 - السابق - ص 38 .
- 38 - الاسترقاق - ص 256 .

البعد الحضاري لقضية المرأة

الدكتورة نعيمة نصيب

جامعة قائمة

تعد قضية المرأة من الإشكاليات الحديثة التي تطرح نفسها على الساحة الدولية خاصة ضمن الصراع القائم بين الثقافات والأديان، أين أصبحت المرأة المسلمة محور النقاشات العالمية، وأصبح وضعها بالنسبة للمجتمع ككل يطرح العديد من التساؤلات سنحاول الإجابة عنها من خلال النقاط التالية:

أولاً: وضع المرأة المسلمة نتاج لمجتمعها.

ثانياً: المرأة المسلمة والصراع الحضاري.

ثالثاً: المرأة المسلمة وأفاق تطورها.

أولاً: وضع المرأة نتاج لمجتمعها

لقد ارتبط وضع المرأة عامة بما أشيع عنها في الثقافات الاجتماعية العامة، خاصة تلك التي قال بها بعض الفلاسفة أو التي حملتها مختلف الأفكار الدينية. فأفلاطون مثلاً عاش طول حياته يتأسف لأن التي ولنته امرأة وأرسطو اعتبرها من ممتلكات الرجل، أما الهنود فاعتبروها الناسا، فالنساء عندهم كالباطل تماماً وليس من الحكمة مصاحبتين. كما يراها اليهود مصدراً للشر والإفساد و أنها مخلوق منقل بالخطيئة، بالإضافة إلى ذلك فهي السبب الرئيسي في غواية آدم و جعله يأكل من ثمر الشجرة المحرمة في الجنة وبالتالي إخراجها منها ؛ وما نتج عن ذلك من آلام للبشرية، لهذا نجد من أهم دعوا تهم في صلاتهم " مبارك أنت يا رب لأنك لم تجعلني وثنيا ولا امرأة ولا جاهلا " (1).

وانتقلت فكرة الغواية من اليهودية الى المسيحية، ومنها جاءت فكرة الخطيئة التي كانت سببها المرأة، الأمر الذي أدى إلى تشجيع الرهنة وهجر الزواج لأن البعد عن المرأة يقرب من الإله.

أما عن العرب قبل الإسلام نلاحظ تباينا في تعاملهم مع النساء، فهناك تقدير للبعض وإقرار

لدورهن واعتراف بمكانتهن في مجتمعين، مثل خديجة التي تملك القوافل وتمارس التجارة ومعروف ما للتجارة من التزامات وتبعات مادية وأخلاقية، ومع ذلك فالمجتمع العربي لم يعترض على ممارستها لهذه المهنة، أو اعتبر ذلك أمرا شاذا، بالإضافة إلى ذلك ؛ فهناك ظاهرة الانتساب إلى الأم مثل عمرو بن كلثوم، عمرو بن هند، الأمير منثر ابن ماء السماء..... وغيرهم كثير، وبالتالي فمكانة المرأة عن هذا المنظور محفوظة ودورها بارز، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تنتشر عندهم ظاهرة وأن البنات واعتبارهن عارا ؛ الأمر الذي يعبر عن النظرة السلبية للمرأة من طرف المجتمع العربي قبل الإسلام وهنا تبرز نقطة مهمة تتمثل في ازدواجية النظرة للمرأة في هذه المرحلة، فهي سلبية مزدرية للبعض وإيجابية للبعض الآخر، وهذا ما يبرزه الرسول "ص" في قوله أنه بعث للناس ليتمم مكارم الأخلاق وبالتالي فالإسلام وضع تشريعا عاما يرتقي بجميع النساء وليس البعض منهن فقط، فأول ما فعل برا المرأة من خطيئة الغواية في الديانة اليهودية والمسيحية، وتجنر الإشارة أن فكرة الغواية المرتبطة بالمرأة يقول بها بعض المتطرفين الإسلاميين وهي ليست من الإسلام في شيء، ثم عمل على إزالة فكرة الدونية الخاصة بالمرأة وسوى بينها وبين الرجل، من خلال بيان أن الله خلق الذكر والأنثى من نفس واحدة وأنهما خلقا مستقلين غير متماثلين بل متكاملان.

والحقيقة لقد غير الإسلام الواقع الذي تعبته المرأة إلى أحسنه واعترف لها بالحقوق والواجبات مثلها مثل الرجل، وأوضح أن وجه التفاضل بينهما يعود إلى العمل الصالح لأي منهما وليس إلى أي شيء آخر، لكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن إلى ماذا يعزى وضع المرأة المسلمة المتردي ؟

إن القراءة النقدية البسيطة لتاريخ المجتمع الإسلامي ككل، تبين أنه ابتداء من انهيار الحضارة العباسية وظهور الفتن المختلفة والتقهقر الذي شمل جل الميادين، بدأ الضعف ينفخ جنور هذه الأمة سياسيا وثقافيا واجتماعيا.

وعادت الخرافات والبدع التي تنسب ليست للمرأة فحسب بل إلى الدين في حد ذاته، وبرزت فكرة التصوف والاعتزال والتوقف على الذات بصحتها وخطئها، وظهرت طقوسا جديدة لم تكن موجودة سابقا وليتها كانت اجتهدا إلى الأحسن، بل كانت تحمل بوادر التراجع إلى ما قبل الإسلام، وعودة للعادات والتقاليد السيئة، ومع هذه الانتكاسة استرجعت المرأة ما لصق بها من مظاهر سلبية دوتية وعادت فكرة الخطيئة والغواية، والأنثى كعار على أبيها وأنها مركز الفساد فأصبح وضع المرأة المسلمة في أسوأ حال و تحضرنا هنا مقولة لأحد المتصوفين يقول فيها " إخواني قروا من النسوان تتجوا من الأحران * .

لقد عادت الشوائب والأفكار والتقاليد السيئة إلى المرأة كما إلى المجتمع ككل، وبما أن المجتمع الإسلامي ليس من العرب فقط فإن عصر الضعف قد جمع العديد من نقائص المجتمعات التي ضمنها اليهودية والمسيحية والوثنية والتي استمرت إلى عصرنا الحالي، واستمرت معه هذه المظاهر السلبية، لقد أصبح المجتمع الإسلامي ينتج التخلف ويعيد إنتاجه، بالرغم من أن الإسلام يشجع على الاجتهاد والتطور؛ فهو يرى أن من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وعليه فالإسلام متطور ومتفتح على المستقبل وليس عتراجعا إلى الخلف (والخلف هنا ليست القيم السامية بل الخلف هو التقاليد السلبية التي تعالی عنها الإسلام ليسترجعها مسلمو عصور الضعف، لهذا لا بد من القراءة النقدية الواعية والموضوعية لتاريخنا وتلقيته من الشوائب التي لصقت به لا سيما تلك الخاصة بالمرأة.

ثانيا: المرأة المسلمة والصراع الحضاري:

يعبر وضع المرأة في مختلف المجتمعات عن الصورة الحقيقية لهذه الأخيرة، وعن درجة التقدم الحضاري الذي بلغته، لأن المرأة تعد المفتاح الأخلاقي

والثقافي الذي يمكن من خلاله التحكم في سيرورة عملية التغيير المستقبلي لهذه المجتمعات، ومن هذا المنطلق فإن المجتمع العربي قد وعى لقاعية هذا الدور واعتمد عليه في محاولته للسيطرة الحضارية بأبعادها الثقافية والاقتصادية على مختلف المجتمعات الضعيفة.

وبطبيعة الحال فإن المجتمع العربي الإسلامي كان من بين المجتمعات التي تعرضت لهذه السيطرة عبر حركة الاستعمار والامبريالية الأوروبية على أراضيها، وبالنظر إلى ما واجهه هذا الأخير من صعوبات ناتجة عن الرفض العام لهذا الاستعمار لاسيما في سكه الثقافي والقيمي، وبالتالي القطيعة بينه وبين الشعوب العربية التي نتج عنها العديد من المشاكل والصعوبات ووضعته في حالة عدم استقرار دائمة فإنه عمد إلى بحث طرق الكفيلة بتحقيق هذا الهدف فتوصل إلى أنه لا بد من التركيز على دراسة هذه المجتمعات انطلاقا من وضع المرأة المسلمة، وفي هذا المجال يري ملكيور جوزيف اوجين توماس: melchior gesepch- (eegene -daemas) وهو جنرال فرنسي وباحث أثر ونيولوجي قام بدراسة تعرض فيها بالبحث والتحليل لموضع المرأة في المجتمع الإسلامي وركز على الحرز فتوصل إلى أن وضع المرأة في هذا البلد يستمد قواعده من تعاليم الدين الإسلامي الذي يضعها في إطار موضعين (2) هما:

- 1: ان المرأة ليست إلا متاع وكائن حسي متراخي محل مسحون في قبض الحريم.
- 2: ان المرأة عبد أو خادم محكوم عليه بالعمل الإيجابي وضعنا بالجنس الإيجابي مع زوجها.

ويرى أنه ومن خلال هذين الموضعين تمت السيطرة عليها من طرف المجتمع الذكوري الإسلامي وعزلها عن الحياة، لهذا فإنه حتى تكفل المهمة الحضارية الفرنسية التي جاءت لكي تحققها في الجزائر، لا بد علينا ان نواجه أكثر تعاقب صلابته، وهو الاستعمال الذكوري الناشط للمرأة بالتركيز على بنية الأسرة والتعبيرات الجنسية والعلاقات بين الذكر والأنثى، وذلك من أجل تحقيق استيعاب

حضاري شامل للإنسان الجزائري الذي هو في حقيقة الأمر مستلما وتابعا سياسيا لفرنسا، لكنه ومن الجانب الحضاري، وهو الأهم مستقلا بذاته وغريبا أخلاقيا وثقافيا عن هذا الآخر الذي جاءه من وراء البحار، فرنسا

ويذهب "توماس" إلى أنه وفي الحالات الطبيعية فإن فرنسا تستطيع أن تحقق الاستيعاب الحضاري للعرب المسلمين في الجزائر من خلال طريقتين هما:

1- الإلتحام الاجتماعي والثقافي وحتى السياسي بين المسلمين والفرنسيين إلا أنه يرى أن تطبيق هذه بعد حلما مثاليا لا يمكن تحقيقه لأن هؤلاء العرب المسلمين رفضوا التعامل مع الفرنسيين واتعزلوا عنهم وكونوا نيم القوانين التي تضبط سير أمورهم وتوجههم، وبالتالي فإنه حتى الأجيال الجديدة نشأ منفصلة ثقافيا وأخلاقيا عن الحضارة الفرنسية.

بالإضافة إلى ذلك فإنهم في تعاملهم فيما بينهم لا يخضعون للقوانين الفرنسية، بقدر ما يخضعون للقوانين العرفية الخاصة بهم، ومن خلال ذلك كونوا مجتمعا له قوانينه ومؤسسته الخاصة التي تنطلق في أغلبها من القيم الدينية الإسلامية.

2-2- الطريقة الثانية تتمثل في زواج ابنة الميزوم أي المرأة الجزائرية، من ابن المنتصر الرجل الفرنسي حتى نشأ أجيالا مندمجة ثقافيا في الحضارة الفرنسية، ويرى أنه حتى بالنسبة لهذه الطريقة فهي مستحيلة التطبيق وتصطدم بعاملين:

الأول: هو نظام الزواج في هذا المجتمع المسلم والذي يعد أساسا وحنثه الثقافي، وموضوعا شديد الحساسية يحمل طغوسا تتنافر مع النور الأوروبي، وغير قابلة للتنازل عنها من طرف هؤلاء المسلمين، وبالتالي فإنه حتى يتحقق هذا الزواج لابد لفرنسا أن تتدخل في تغيير معاييرها وهو أمر لا يمكن تحقيقه.

أما العامل الثاني: هو ابنة الميزوم في حد ذاتها والتي أصبحت من أقدس مقدسات المسلمين، التي عمدوا إلى الحفاظ عليها من خلال عزلتها وسجنها في بوتقة من المعايير والقيم، التي تجعل من الآخر الفرنسي العدو التودد الذي لا يمكن

الاقتراب منه هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه بالإضافة إلى هذا السجن التابع من داخلها فإنه هناك سجن آخر فرض عليها، وهو البيت والحجاب، وفي هذا المجال يقول دوماس أنه بما أن العرب المسلمين لا يعرفون الحب بنفس طريقتنا نحن الأوروبيين، فإن زواج كهذا لا يمكن أن يتم نظرا لغياب إمكانية التلاقي الفكري والمكاني بين الطرفين.

ومن خلال ما تقدم وبما أن الطريقتين غير صالحتين، فكيف لفرنسا أن تحقق النجاح في استيعاب هؤلاء العرب المسلمين ؟

في هذه الحالة حسب دوماس على فرنسا و الفرنسيين، أن ينظروا من ثقب مفتاح باب المنزل العربي في الجزائر ويستطلعوا وضع المرأة المسلمة، ويحاولوا نزع الحجب التي تخفي وراءها العادات و التقاليد الإسلامية و يحاولوا تغييرها.

ومن هنا نلاحظ كيف أن هذا المفكر توجه الاتجاه الصحيح لتحقيق السيطرة الفرنسية المتمثل في المرأة تحديدا حيث أنه يرى أننا إذا استطعنا أن نغرس الثقافة الغربية أو الفرنسية لدى المرأة فإن فرنسا في هذه الحالة تكون قد نجحت، والحقيقة أن هذه هي نفس أفكار غيره من الباحثين المستشرقين الذين يرون أن المرأة كرمز للإسلام والثقافة العربية في شمال إفريقيا كانت عقبة كبيرة أمام عملية استيعاب المجتمع العربي من قبل الأوروبيين (4)

تعد أوجع أحد الأساتذة الفرنسيين وهو اميل فليكس emile-felix gactior (5) أسناد بجامعة الجزائر سر قوة تماسك الجزائريين وقدرتهم على مقاومة الثقافية الفرنسية وصمودهم أمامها، إلى المرأة أوما يطلق عليه "الحريم" فهو يرى أن الأسرة هي الرمز المستقر للحريم هذا الأخير هو الرمز المشفر للجنس العربي (الإسلامي) (المنحرف) وفي ظل هذه المحرمات المعروفة المرتبطة بالجنس والنوع، لم يكن هناك مأوى للأجانب في منازل عرب شمال إفريقيا، ويذهب هونيه إلى أن النقطة المحورية و الفاصلة في المجتمع العربي الإسلامي هو أنك إذا أردت أن تبحث عن العنصر الأساسي في هذا الأخير ستجده الأسرة، وأن احتلال فرنسا للجزائر لم يكن في المنزل لأن ردهة هذا الأخير بقيت لأهل البلد ولو استطاعت

فرنسا أن تتحكم في هذا المقدس بالنسبة للعرب، فاتها سوف تبقى إلى الأبد في الجزائر.

وبالفعل لقد بدأت فرنسا توجه جهودها إلى الأسرة الجزائرية وبالذات إلى المرأة، لا سيما من خلال المناضلات النسويات، من خلال الدعوة إلى إعطاء المرأة الجزائرية حقوقها المدنية لا سيما حقها في التعليم النظامي في المدارس الفرنسية، ومعاملتها كمواطنة فرنسية، وبالتالي بدأت المرأة الفرنسية الميضمومة الحقوق في بلدها تلعب دور الوسيط الثقافي في الجزائر.

ونفس اللغة النسوية الداعية إلى إخراج المرأة المسلمة من بيتها ونزع الحجاب عنها استعملت من طرف أعداء النسوية أمثال الحاكم العام البريطاني في مصر كرومر.

لقد استعمل المستعمرون في البلاد الإسلامية لغة الهجوم على وضع المرأة المسلمة عن طريق تحقير المبادئ التي تحملها والتأكيد على أن تقدم المرأة العربية يقوم على مقاومة الحجاب والاتجاه نحو التغريب من خلال التخلي عن العادات والتقاليد العربية الإسلامية.

إن هذه الدعوة قد وجدت لها صدى لدى الطبقات البرجوازية في المجتمعات العربية، وهذا ما تؤكد جولبيت منس التي تذهب إلى أن الغالبية الساحقة من النساء اللواتي تركز الحجاب والسروال أو العبادة الطويلة القائمة لصالح الزي الغربي وتابعن دراستين واخترن زوجين هن من البرجوازية العصرية (6)

لقد رفض كرومر الفكر السنوي وهاجم نضال النساء في أوروبا فلماذا يناضل شخصيا لصالح المرأة المسلمة لينزع عنها ذلك التخلف الذي يدعي الحجاب، وهذا الأمر يدعو للتساؤل لماذا يهاجم مثل هذا اللباس الذي يمكن اعتباره لباسا عاديا خاصا بجماعة معينة، كما هو الأمر للباس الهندي أو الياباني، أو حتى الأوروبي، لماذا لم يهاجم المجتمعات التي يمشي أفرادها عراة بما يخش الحياء الإنساني أو الآداب العامة.

إن الإجابة عن هذه التساؤلات توصلنا إلى نتيجة واحدة هي أن هذا الناس ليس ناسا عاديا بل هو حضارة استطاعت بقيمها أن تكف أمام الحضارة الغربية واستطاعت أن تحافظ على كيان أمة بعاداتها وتقاليدها وأعرافها رغم ما يشوبها من مغالطات، وأصبحت مصدر قوة ورمز للاختلاف الحضاري والابتداء العلم، ومن هنا تترك فعلا وعي المشرع القرني بمدى تأثير هذا الناس ومدى قوته وبالتالي الدعوة إلى منعه في مجتمعهم، فمنى يعي الإنسان المسلم حقيقة ذاته ويأخذ بعناصر قوته.

ثانيا: المرأة المسلمة وافق تطورها:

لقد اتسمت التوجهات الفكرية للمرأة العربية في القرن الحادي والعشرين إلى قسمين، قسم منحرف متطرف يدعو إلى اتباع القيم الغربية وتخلص من الماضي الذي يعتبره سب تخلفها، ويعتبر القيم الدينية مسألة شخصية للفرد الحرة المطلقة في الالتزام بها أو عدمه، ويرى غير ذلك من النساء منحرفات عن الركب الحضاري، وبالتالي عدم التعامل معهن حتى يتركز ما هن فيه ويتنم بالقيم الغربية التي يناضل من أجلها باعتبارها رمز التقدم الحضاري.

أما القسم الثاني: فين المتطرفات نبينا ويرين أن القيم الدينية الإسلامية السمحة هي المخرج الوحيد للمرأة من الضياع الذي يعيشه المجتمع والمرأة ويتعززن، بالمغالطات في هذه القيم إلى درجة إفقادها لروحها الإسلامية الحقيقية، والرجوع بها إلى عهد المعتزلة والمثقفين، ويرين أن القيم الغربية هي الفساد والزديلة وينظرون إلى غيرهن من النساء بأنهن زنايات وخارجات عن الدين وغيرها من التسيهات، وبالتالي فهذا القسم أيضا يرفض التعامل مع القسم الأول حتى يترك ما هو عليه، وبين هذين القسمين يوجد قسم الإغلبية الساحقة من النساء المنهيات بين هذين التيارين أو المعينات اجتماعيا اللواتي لا تأثير لهن على كثرتهن.

لواقع أن هذه القطيعة بين هذين القسمين الأول والثاني من النساء العربيات المسلمات واتصال في اتجاهين متعاكسين بالرغم من أنهما يعيشان نفس الظروف ونفس المتغيرات الاجتماعية ويتجهان إلى هدف واحد هو صالح المرأة

والمجتمع ككل. تؤدي بلا شك إلى زيادة يؤر الصراع والأحقاق، إن التزمت ورفض الاستماع إلى الآخر من كلا الطرفين هو العامل الأساسي في لتخلف العام للمرأة والمجتمع. فنكل طرف إيجابياته وسلبياته فمنا لا يتجاوز طرفان ويستفيدان من الزوى المختلفة نكر طرف ويتجاوزا نقاط الاختلاف لصالح المرأة والمجتمع بصفة عامة.

وعليه فإن الواقع يثبت أن حيود وعمل كلا الطرفين كان عشوائيا غير ممنهجا، له أهداف جزئية وأنية غير فاعلة ولا تحمل أبعادا مستقلة استراتجية. إذن فما العمل ؟

الحقيقة أن أول شيء لابد من الانتباه إليه هو الاتجاه الواعي للمورثات الثقافية الماضية وقراءتها قراءة نقدية واعية بفرز الإيجابي من المعايير والتعبير عن السليبي والالتزام به وتطويره واستثماره في الحياة العامة (7)

ولا يقتصر هذا فيما يحصل المرأة فقط بل لا بد أن يشمل المجتمع عامة. لأن تطور المرأة لا يخرج عن تطور المجتمع الكلي، أما العنصر الثاني هو أن المرأة لابد عليها أن تتكشف قدراتها ومكائنها العامة وتتق سببا، وبالتالي الحصول العام ثم عليها أن ترتقي بنفسها عن فكرة الصراع مع الرجل لأنها فكرة عقيمة وغير بناءة وهادئة للجهد والوقت ومفككة للعلاقات الأسرية المقدسة، وعليها أن تحمل هموم المجتمع تماما كما يحملها الرجل ولا تنتظر إلى مشكلة المرأة وتتوقف عندها وبالتالي تحمل قضايا عامة.

إن فكرة رفض الآخر (العرب) جملة وتفصيلا بعد تطرفا وبالتالي فعلى المرأة أن تتفاعل مع كل الثقافات وتتلقى الأفضل والأصلح لها والمجتمعيا.

إن فكرة التطرف الديني والتطرف العنصري والتزمت لكل اتجاه لا يوصل إلى أية نتيجة بل يدعّم الحقد والكراهية والصراع الدائم. وبالتالي لا بد من التفاعل والمرونة مع بعضنا البعض والسعي دائما إلى الصالح العام.

النهامش:

- 1- أسعد السحراني. موزة عيان، نحو إطار حضاري للمجتمع العربي في القرن الحادي والعشرين، دار لقراءة للصنع للنشر والتوزيع، الإمارات، ط 1 سنة 1998، ص 294.
- 2- أميرة الأزهرى سليل، النساء وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999، ص 65.
- 3- نفس المرجع، ص 64.
- 4- نفس المرجع، ص 69.
- 5- نفس المرجع، ص 75.
- 6- ليلى احمد، المرأة و الجنوسة في الإسلام: الجنور التاريخية لقضية جنسية حديثة، ترجمة منى ابراهيم، هيئة كمال، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 1999، ص 260.
- 7- جوليت مش، المرأة في العالم العربي، ترجمة إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، ط 1، سنة 1982، ص 46.

ملاح عامة حول أسلوب الدعوة إلى الله في القرن الخامس عشر الهجري

الدكتور نوزات صواش
مؤسسة البحوث الأكاديمية - إسطنبول-

في هذا البحث نشير إلى بعض الملاح العامة والقواعد الأساسية في العمل الدعوي، مع التعرض إلى بعض سمات الداعية المثالي راجين من الله التوفيق.

1- الدعوة علم وفن

الدعوة إلى الله ليست مسألة مزاجية يزاولها الداعي قبل أن يعا لها فكريا ونفسيا وروحيا، ومن دون ذلك يمكن أن يؤدي عمله العشوائي والمزاجي إلى العكس من المرجو من هذه المهمة النبيلة. فالدعوة "علم وفن"¹ فما لم يكن الداعية على علم معمق بالذي يريد قوله، وما لم يكن على دراية بأقصر الطرق الموصلة إلى روح الإنسان فإن الإخفاق سيكون من نصيبه. وإن أمادا بعيدة ما زالت تفصل بين الدعاة وجوهر الإنسان، وإلى هذا يعزى فشل الداعية في كسب المخاطب إلى صف دعوته. فما لم يكن بوسع الدعاة الوصول إلى هذا الجوهر الذي يقوم عليه كيان الإنسان، ثم إزالة ما تراكم عليه من صدا كي يتألق من جديد ويتبين معذنه النقي النفس فإن الإخفاقات ستتوالي بدون تقطاع.

نعم، إذا كان الإنسان جزءا مهما من هذا الكون فينبغي ألا نسمح له بتدمير نفسه وسحق روحه، لأن تمار هذا الجزء الميم من الكون قد يسبب تمارا للكون كله. فنحن مسؤولون كونيا وأخلاقيا عن هذا الجزء وصيائنه من الانبياء، ولئن سمح له بأن يخرج على التوافق الكوني المدين بدين الله² ففضية الإيمان قضية تتعلق بالكون كتعلقها بالإنسان، وإن صلاح الكون بصلاح الإنسان، وفساده بفساد الإنسان.

ومن ثم على الدعاة أن يعوا هذه القضية كل الوعي بأبعادها الكونية والإنسانية، وأن يرتفعوا إلى مستوى المسؤولية. وذلك بأخصاب أرواحهم وإذكاء أفتنتهم وشدن أذهانهم وموازنة حياتهم وتعميق رواهم الإيمانية. وأن يدوروا مع الزمن حينما دار. ويجروا مع الحياة حينما جرت، ويركضوا وراء الإنسان حينما مضى. وإلى أي عالم كان انتماءه، وإلى أي ثقافة كانت ثقافته ولغته.

2- الدعوة والعقل الجماعي

في عصر العولمة هذا، أصبح للعقل الجماعي قوة تأثيرية أوسع وأسرع مما تستطيع العقول بجيها الفردي. فقيادة العالم وإحداث التغيير فيه نحو الأسوأ أو الأفضل، يمكن أن يكون أكثر فاعلية إذا مارست العقول نشاطاتها الذهنية والمعرفية من خلال المؤسسات، سواء كانت هذه المؤسسات علمية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية أو أخرى.

3- الدعوة ذات طابع حركي

ليس هناك شيء أكثر خطورة على المسلمين من السكون والاسترخاء والاستسلام للنوم والاحلام. فالسكونية عفونة روحية تنقل المواهب وتحطم الإبداع وتخلق البطولة وتكتم أنفاس العبقرية. ومنذ مات الفارغ الحركي في المسلمين، وتوقفوا عن الهجرة والانسياح في أرجاء الأرض حاملين دعوتهم إلى العالم... منذ ذلك الوقت توقفت إبداعاتهم وغاب فهمهم ونجمت في أوساطهم إشكالات فكرية موهومة وخصومات مذهبية جدلية، وانشغل بعضهم ببعض، وربما قاتل بعضهم بعضاً، متناسين مهمتهم الدعوية الأساس التي نذبتهم الله تعالى إليها. إن دعاة الإيمان إذا ما ساءوا وهاجروا إلى أي مكان في العالم وضربوا جنورهم فيه، فإن الشجرة لا بد أن تثبت عن قريب، وأن تورق وتثمر، وإن تاريخاً جديداً للإسلام سيندا يتشكل في المكان الذي زرعو أنفسهم فيه.³

وهذه طبيعة الإسلام، فالإسلام يأتي السكونية واليمودية ويأبى المحنودية، وقد هاجر المسلمون الأوائل وهم يجرؤون في العالم حيث يجري بهم الإسلام، وإذا

كان العالم قد استنزفته اليوم قوى الغرب وقيمه وسلوكياته النفعية، وفرغته من كثير من قيم الإيمان، فإن هذا يحتم على المسلم أن يبائر بنفسه لكي يعيد لإيمان اليوم عمق الهدفية الإلهية في نفسه.

ومن ثم حث العلامة الداعية فتح الله كولن على إنشاء المدارس والجامعات في مختلف أرجاء المعمورة، وجعلها مراكز للتربية والتعليم، تدعو إلى الحب والسلام، والحوار والتسامح، ومرج العلم بحقائق الإيمان، ومواكبة العصر من حيث التطورات العلمية والتكنولوجية، مع أخلاق سامية يشار إليها بالبنان، وربما يكون هذا أسلوباً جديداً غير مسبوق في تعريف الشعوب بالإسلام. وقد أثبت نجاحه حيث استطاع أن يوصل صوت الإيمان إلى أصقاع قسبة لم تكن قد سمعت بالإسلام في شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه وكافة قاراته.

4- الدعوة والانفتاح على معطيات العصر

إن الدعوة إلى الله مفتحة على معطيات العصر في العلوم والفنون والأفكار المتنوعة والثقافات المختلفة. وذلك لإكسابها مزيداً من الاحترام في أوساط واسعة من المنقذين والمفكرين في شتى أنحاء العالم، ينبغي على المسلم أن يكون هو الأرقى والأفضل بين العقول، وأن يحتل كرسي الأستاذية التي يراجع إليها في أمور الثقافة والحياة والإيمان، وألا يكون منكفئاً ومتغلقاً وبعيداً عن الواقع.

أجل لا شك أن العقلية الحضرية رافدة من روافد تشكيل العقل الدعوي، إلا أنها يجب ألا تستعيد الداعية يوماً، ولا يكون هو سجين نظريات وآراء، بل حراً يقبل منها ما له مصلح إيماني، ويتروك ما ليس له مثل هذا المصلح، وهو لا يعرف هذا الصراع المولم بين ما يفروده فكراً وبحياه عملاً. الفكر عنده هو الحياة، والحياة عنده هو الفكر.

5- الدعوة والوضوح

والداعية كتاب مفتوح، كل صفحاته وسطوره مقروءة ومكتشوفة، ليس فيه صفحات مطوية عن العيون أو صفحات مكتوبة بالحبر السري. وكما كان رسولنا

الحبيب صلى الله عليه وسلم سفرا مفتوحا بقرؤه من يزيد، من تاريخ ميلاده إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، هكذا تكون حياة أصحاب الدعوات وأفكارهم. حياة كلها نهار لا ليل فيها، وضحي واضح لا ليل فيه، وظاهر لا باطن له.

6- الدعوة وإنقاذ الإيمان

الداعية إلى الله لا يزاحم أهل الدنيا على دنياهم ولن يزاحمهم. إن الدنيا نفسها لو جاءت تسعى لعزف عنها وأدار إليها ظهره. إنه مشغول بدعوته، بإنقاذ إيمان الناس. إن إنقاذ إنسان واحد من وهدة الضلال هو خير له من الدنيا وما فيها. وإعادة إيمان غائب إلى قلب إنسان هو أعظم ما يطمح إليه، وإيصال صوت الإيمان إلى أسماع من لم يسمع به هو غاية الغايات عنده. هذه هي دعوته يعلنها على رؤوس الأشهاد لا يكتب منها شيئا ولا يخفي منها شيئا.

7- الدعوة والتركيز على جوهر الإنسان

إن معالجة انحطاف الروحي والجنب الفكري لدى المسلمين هو من أبرز مهماتنا، وحينئذ بالإنسان يجعلنا نفغ حائرين تحاهمه، ومن ثم علينا أن نهتم بالدراسات التي تعمل على كشف أسرار الإنسان ظاهرا وباطنا، ونشجع الدعوة على التخصص بها لكي تتوفر للدعوة معلومات عن كينونة الإنسان وكيفية التعامل دعويا معها، والتعمق في حقيقتها. لأن الفوضوية الروحية تجتاح العالم اليوم وتستر العطف والإنشاق عن أصحاب الغيرة على الإنسان.

إن سر قوة الدعوة هو في تطابقها مع قوانين النفس البشرية. والذين ستموا من التحليق حول جيف الدنيا سجدون في أجوائها ما يتوقون إليه من الظهر والنقاء، وأصحاب الذهنيات المعطوبة والنفوس المحترقة سيروا واحتيم الزود في إقليمها. أما أولئك الذين يتبنيون الإسلام ويخافون منه فيسلمون ألا شيء أكثر أمنا وأمانا وسلاما من الالتجاء إلى حمائه. وأن المعرفة كل المعرفة فيه، وأن من لا يعرفه فإنه لا يعرف في الحقيقة شيئا. وسكاري الأحرار ومسحوق الأوجاع سجدون في صندلية هذه الدعوة بالتسليم والشقاء.

8- الدعوة والجانب الروحي

إن الدعوة كلها دعاء، وليست شيئاً آخر غير الدعاء. دعاء بلسان الحال أو بلسان المقال. وبين الحال والمقال ترتفع الليالي مغللة بالتهجدات، موقورة السمع بالتضرعات، نضاحة بدمع القلوب، صراخة بوجد الأرواح. وركب الدعوة يمضي في طريقه مشرقاً أو مغرباً يقوده صواب المنطق، ونحدود فطنة الحكمة، ويأتيه المدد الإلهي من كل جانب، وتواكبه العناية الربانية حيثما مضى وأنى ألقى عصا ترجماله.

فالداعية يحذر من الهلاك الروحي المخيف، والسقوط في هاوية الإنحلال النفساني الداخلي. إنه لا ينفك يدعو أولئك الذين يريدون الخروج من مستقع الوحل ولكنهم لا يعرفون السبيل إلى ذلك، إنه يدعوهم إليه لينخرطوا في صفوف الإيمان.

9- الدعوة والحوار مع الآخر

إن سر الدعوة يكمن في علانيتها ووضوحها وعموميتها، وفي المرونة التي تؤهلها لمحاورة الآراء والأديان والتقاليد المختلفة، لتكشف لهم عن حقيقة رسالتها، وتزيل التساؤلات التي تثار حولها، وتعبير عن ذاتيتها بنفسها، ولا تدع لأحد مجالاً لتشويه صورتها.

إن الدعوة كائن روحي في إهاب بشري، شخص معنوي ذو ذاتية مستقلة، لكنها منفتحة على جميع الذوات. وهو إنراك عال، غير أنه ملزم بمحاطبة جميع الإدراكات. وإذا كانت دعوة الإسلام قد غيرت وجه العالم القديم، ورسمت خارطة جديدة لفكره الديني، فهي اليوم مرشحة كذلك للقيام بالدور نفسه إذا ما وجدت ممثلها الحقيقيين.⁴

10- ملامح الداعية المرتقب

الداعية المرتقب كيان إنساني مشع لا يتوقف عن بث شعاعه. فكما أن بعضاً من عناصر الطبيعة المشعة لا تستطيع أن تكف نفسها عن الإشعاع، وكما أن الشمس لا تستطيع التوقف عن إرسال ضوءها إلى الأرض، والقمر لا يقتر أن

بحرم الليل من نوره، هكذا الإنسان الداعية لا يمكنه أن يحبس نوره عن الآخرين أو يستر ضيائه عنهم. لأن الدعوة لئيب يشعل ذرات دمه، وضيأوه يموج في حنايا ضلوعه. فهو يضيء في أي مكان يحل فيه أو يرتحل عنه.

فلو انهار الكون فجأة، وتناثرت كواكبه، واصطنعت أجرامه، وسقطت السماء على الأرض، وكانت القيامة تقوم وفي يد الداعية قبيلة نور. فإنه يبحث عن قلب يزرع فيه قسيلته قبل أن يعثو العالم رمادا تنروه رياح العدم. ولأن العطاء عنده صار طبيعة وسجية فهو لا يستطيع أن يتوقف عن العطاء، كما لا يرجو سوى مرضاة الله تعالى أحرا. لذا فإن دائرة مستمعيه في السماع، وصوت دعوته في ارتفاع.

دعاة الإسلام الحق أخوة البشر وأشقاء الإنسان. لأنهم يمتون بنسب إلى كل قلب، يرتئون للأرواح السليبة من النور، وللقلوب المغنبة من فجر اليقين. إنهم أطباء القلوب، وكما تنجس الحياة من الموت، هكذا وبلمسة منهم تنفجر الحياة في موتى القلوب. لذلك صاروا بمثابة الحم الغفير من أخيار أناس طليبا للنجاة والشفاء. هؤلاء هم الدعاة العالمون العاملون، أما أولئك الذين يعلمون ولا يعملون فإنهم كالقلوب السوداء لا تعكس نورا إلى شيء.

إن الداعية المثالي يطرئ ثابت الجأش متمسك النفس قوي الإرادة، صاحب رسالة علوية، نبيل الفكر والروح دائم التوثب، لا يخفت حماسه، ولا ينطفيئ وحده. لا يعيا ولا يكل. في روحه تسكن أمجاد أمة وتاريخ إيمان وفجر الأبد ويقين الحلود. إنه عالم مشغول من القوة التي لا تعرف الضعف والانهزام، يجيش قلبه بالرافعة على أولئك التائبين الضالين من بني الإنسان، وعنى وفرة رجولته ورجاحة فضله جم التواضع، صوام اللسان إلا عند الضرورة، لا يشتر ضجيجا، ولا يقم مناحه. لا يتجمع ولا يتسكى. إنه ينور مع القدر حيث دار، ومع القفرة يستمد منها قوة، ويطلب منها المتد.

ويقول أحد علماء العصر الأفاضل أعلموا أن العرب لن يستجيب لدعوتكم إلا إذا وجد امامه أناسا تنقطر قلوبهم حزنا من أجل خلاص الإنسانية، واشفاقا عليها.. أناسا يقضون لياليهم بالتفكير والقيام لله، والمستنهم رطبة بذكر الله، لا يثرون الوقت عبثا، بل يقصونه بما يفيد البشرية وينفعها، أجل، العرب لن يسلم

روحه إلا أننا مشحونين بمثل هذه الطاقة. فإذا أصبح ممثلو الإسلام على هذه الساكنة، فسيهرع الغربيون إلى الإسلام ويدخلون في دين الله أفواجا، ولكن، والحالة معكوسة، فقد تحلت النتيجة معكوسة أيضا.⁵

إن عظماء الدعوة مشغولون دائما بأفكار وأفكارها، فهم يعلمون جيدا أن المسلم عنصر أساس في نظام العالم، فكما لا يمكن الحديث عن النظام في عالم خال من المسلمين، كذلك لا مجال للإرهاب والقوضى في أماكن يوجد فيها المسلمون. وهذا منوط بأداء المسلم وظيفته التبليغ والتمثيل حق الأداء.⁶

فهم يراقبون أنفسهم ويسارعون في ترميم ما ينهار من عزائمهم وما ينصدع من إرادتهم باللجوء إلى كتاب الله والاستمداد من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعترايهم الروحي ميزة عالية ينحذب إليها من يرى فيها السعلاء على نقاهات البشر، وعلاقتهم الحميمة مع "حس الإنسان" تفتح لهم منافذ الاتصال بالعالم، وما يلاقونه في سبيل الدعوة من عقبات صغيرة كان أو كبيرة لا تثبط همهم ولا تقفل رجاءهم.

إنهم أنكياء القلب شهماء الأفئدة، على قلوبهم منونات نورانية من عالم الغيب، فقلوبهم في جيبان دائم لا يتوقف، وصدرورهم تتطوي على رغبة في اعتناق كل البشر، إنهم بشريون حقا ولكنهم في قلوب ملائكية، ولهميون ترابيون، إلا أن أرواحهم تسبح في السماء الأعلى.

الهوامش:

¹¹ طرق الإرشاد في الفكر والحياة، تأليف: م. فتح الله كولن، ترجمة: إيمان قاسم الصالح، دار الفيل للطباعة والنشر، ص 103 وما بعدها.

² المصدر السابق.

³ نحو القرون المفقودة، فتح الله كولن، كتاب لم يترجم بعد، ص 6-7.

⁴ انظر طرق الإرشاد في الفكر والحياة، ص 185-208.

⁵ المصدر السابق، ص، 111.

⁶ المصدر السابق، ص، 111.

الإسلام بين تقصير المسلمين وتليس الغربيين

الدكتور عبد القادر عبد السلام
جامعة الحاج لخضر باتنة

تمهيد:

إن الإسلام دين ودينها، عقيدة وشريعة، عبادة وسياسة، جاء كاملاً شاملاً، صالحاً لكل زمان ومكان، له أسسه الثابتة وفروعه المتغيرة.

أما أسسه الثابتة، فهي التي لم يقبض المولى سبحانه وتعالى روح نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن تولى بيانها دقة، وإحكاماً وتفصيلاً: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً"¹، وهي الأسس التي لم يترك أمر الاجتهاد فيها لأحد، فبين أحكامها في كتابه العظيم، وسنة نبيه الكريم، "ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين"².

وأما فروعه المتغيرة فهي التي يمكن استمدادها واستنباطها من تلك الأصول الكلية، وهي التي يكون في مجالها الاجتهاد لمن استوفى شروطه من علماء الأمة، كما أنها توفر لرسالة الإسلام مقومات الخلود، ومقتضيات التجديد، والاستمرار لتكون أشد ملاءمة لاحتياجات البشرية.

كما توافقتني الرأي في أن المسلمين استطاعوا في فترة من فترات تاريخهم، يوم أن كانت تجمعهم عقيدة واحدة، وكتاب واحد أن يكونوا سادة قادة — لمدة ثلاثة عشرة قرناً من الزمان، منذ البعثة النبوية وإقامة دولة الإسلام في المدينة المنورة بالإعلان عن دستور المدينة "إلى سقوط الخلافة الإسلامية في 1924م — مدنوا الدنيا، وهدبوا العالم، وقعدوا القواعد للبشرية، وفرروا حقوق الإنسان في كل مكان، فكانوا بحق عند مستوى قول المولى سبحانه وتعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"³. وعند قوله: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فإشأ أولى بهما فلا تتبعوا الجوى إن تعلموا وإن تعلموا أو تعرضوا فإشأ كان بما تعملون خيرا.⁴

وإذا كان هذا الإسلام — صالح لكل زمان وكل مكان — وهذه أسسه وأحكامه الثابتة — وفروعه المتغيرة —، وهذه أمته في مرحلة من مراحل تاريخها، فما الذي جعل هذه الأمة اليوم في مؤخرة الركب الحضاري، تعاني حلا استشري كافة شؤونها — التشريعية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والأخلاقية، والثقافية، والإعلامية وحتى العقديّة — أورشها وقعا مرأ، وأضحى معها الإسلام في قفص الاتهام، ينعت بأشنع النعوت، وما يحذره من مدافع سوى صيحات من هنا وهناك، ممن لا يزال الإيمان ينبض في عروقهم، ولا تزال غيرة الإسلام تتطاع مشاعرهم وتثير الأميم.

إن الإجابة عن مثل هذا التساؤل ليست بالأمر السهل أو الهين كما قد يتبادر إلى الذهن، ولا هي في مقال هذه الأسطر من هذا البحث، فهي قد تأتي على مجلدات، وقد لا تستوفي إلا بمراكز بحوث ودراسات لسنوات قد تطول — ولكن هي محاولة مني فضلت من خلالها الإطالة على بعض الجوانب — لتقصير من المسلمين، والتنبس من الغربيين — ولا أزعج بذلك أتى أضفت الجديد، وإنما هي محاولة تضاف إلى ما سبقها من محاولات، ظلت ولا زالت جميعها تصب في اتجاه واحد، وتتشد منغى واحدا، ألا وهو الدعوة إلى وجوب استقالة هذه الأمة من عقوبتها بل وقل من سماتها، وتحمل مسئولياتها الدينية والدينيّة، وصون الأمانة التي وضعها المولى سبحانه وتعالى بين أيديها، والانتفات إلى ما يحدث ضدها من تسانس ومؤامرات تغندها عن النهوض بدورها الريادي.

هذا وأعود لأقول إن من بين الجوانب التي يمكن الجزم باعتبارها تقصيرا من قبل المسلمين، وتنبسا من طرف الغربيين، مما جعل هذا التقصير ونالك التنبس يتعكبان بالنسب على الإسلام ليظهرانه بعد ذلك بغير المظهر الذي يليق به ما يلي.

أولا: جانب الدعوة إلى توحيد الله

عنى عن النبيان أن دعوة الإسلام إلى توحيد الله، وأعمال أحكامه، لم تكن مقصورة على قوم دون آخرين، أو مكان دون آخر، وإنما هي دعوة، جاءت عالمية شاملة، موجّهة إلى الناس كافة غير محدودة الزمان والمكان. فكما هي واجبة في حق الأوائل من هذه الأمة، فهي كذلك في حق من جاء من بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها — متى توفرت شروطها وضوابطها — قال تعالى مخاطبا نبيه

محمد صلى الله عليه وسلم: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون"⁶.

وفي موضع آخر يقول: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون"⁹، "أنفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون"⁷.

واستجابة لهذا النداء، وتكريسا له، سخر المسلمون الأموال وفي مقدمته نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين، ومن تبع سيرتهم من قادة المسلمين، كامل إمكاناتهم المادية والبشرية لنصر العقيدة الإسلامية، والنود عنها ونشر مبادئها، وإعلاء رايها في العالمين، سواء كان ذلك عن طريق البلاغ التفضي كما أنزلت على النبي محمد صلى الله عليه وسلم⁸، أو بإقامة الحجة¹⁰ أو برفع راية الجهاد¹¹.

فإن نحن اليوم من هذا الواجب الذي لا يكاد يكون له نكرا في البلاد الإسلامية، ولا حتى في البلاد الأجنبية، إذا ما استثنينا بعض الاجتهادات الفردية أو الجماعية - والتي على قنيتها لم تعد تروق الكثير - وماذا أعدتنا من إمكانات مادية أو بشرية لأدائه، فحتى فريضة الجهاد لم نكتف بتعطيلها - بمسوغات ومبررات لا تسمن ولا تغني عن جوع - بل وبذهب البعض إلى الدافعا بما اصطاح على تسميته بالارهاب - فأصحت الحركات التحريرية في فلسطين، ولبنان، والشيشان، وأفغانستان، والعراق جماعات ارهابية بمفهوم الغرب -

وإذا كان هذا حالنا - إذ عجزنا حتى عن هزل الذباب عن أنفسنا - فإن أعداء الإسلام - الذين يعون معنى الإسلام - يترصدون له الفرصة، ويكبون له المكائد، ويسبون له الشائس، فلا يكاد يبتدأ لهم طرف، ولا تكاد تعص يد عين، فقد سخروا كامل إمكانياتهم لأبعاد المسلمين عن عقيدتهم، وذلك بطريق بث الوهن والارتباك في تفكيرهم، والتشكيك بفائدة ما عندهم من عقيدة، وقيم وحضارة، يأتي عليهم حين من الدهر يفتنون فيه الثقة بالفساد، ويعملهم الشعور بالنقص والضعف، مما يجعلهم يتطعمون إلى النيل من مصائر غيرهم، فتنتأ الثقة والآفة زويدا زويدا بما يأتي من هناك فيكسر الإعجاب والتعظيم لأراء مفكرين وعظمائهم، فيتمكن منهم التغريب ثم التنصير¹¹.

هذا وإذا كانت حركة المسلمين قد توقف عن الدعوة إلى التوحيد ونشر رسالة الإسلام، فإن الدعوة إلى التنصير - الشيسير - لم تتوقف بل وزادت

ديناميكيته وحركتها عند أعداء أمتنا. ففي القارة الأمريكية وحدها ما ينيف عن 9000 مركز للبحوث والدراسات الشرقية عامة، منها حوالي 50 مركزا تهتم بالمنطقة العربية فقط. مهمتها تتبع ما يجري فيها، وتحليله ومقارنته بأصوله العقديّة والتاريخية، ثم مناقشته مع صناعي القرار الأسباسي، وفي ضوء ذلك توضع الخطط، وتحدد الاستراتيجيات، ووسائل تنفيذها وفي مقدمة دوافعها:

— التشكيك في العقيدة ومصادرها.

— تشويه حقيقة الدين الإسلامي في عقول المنقنين.

— حماية العالم الغربي من خطر الإسلام.¹²

وقد أعزى الغرب هذا التوجه بعد أن نجح في تصدير 15 مليوناً مسلماً لندونيسيا¹³. والخطّة الموضوعة اليوم في 50 دولة أفريقية لأن ينقرض الإسلام بنوذة ودهاء، وأن يعلن فجأة بأن القارة القديمة قد أرثت كلها ونجح الاعداء في تصديرها كما يقول الشيخ الغزالي رحمه الله¹⁴. وفي شأن التخصيصات المالية يقول: "... خصصت لبحث أمثل طرق تصدير المسلمين والقضاء على دينهم وجمع لهذه الغاية ألف مليون دولار لعلها الخطوة الأولى في مشوار التصدير¹⁵. وإلى جانب الحملات التصديرية التي تظهر في الغالب في شكل مساعدات مالية، أو إعانات طيبة، أو حملات تنقيفية أو ما شابه ذلك، فهناك الدعوة العلمانية إلى ضرورة الفصل بين الدين والدولة¹⁶، والربط بين الإسلام والمسلمين، في وضعهم المتدهور وصورتهم المنفصلة عن الإسلام¹⁷.

ثانياً: جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر¹⁸ من أهم الواجبات وأخطرها التي تقع على عاتق المسلمين، وقد وردت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة صريحة في وجوب الدعوة إليه، وبإلزام الأفرار والدولة به. ومن الآيات القرآنية التي وردت في هذا الخصوص، قول المولى عز وجل: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"¹⁹ وقوله: "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر وش عاقبة الأمور"²⁰.

ومن الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الإيمان"²¹.

قلت الآيات والحديث على أن الخطاب إن صح الفهم — موجه إلى كافة المسلمين — فالكل مطالب في حدود طاقته بمحاربة المنكر، والعمل على إزالته حتى تنتشر الأخلاق الكريمة، وتغير الأخلاق الذميمة فلا يستفحل الفساد وتحقق اللعنة على العباد كما حقت على بني إسرائيل: "لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون"²².

هذا ولم تفرط دولة الإسلام في أداء هذا الواجب في يوم من الأيام، بل وأقامت له ولاية خاصة سميت بولاية الحسبة²³.

وقد نبه صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة الحفاظ عليه، وحذر من التقاعس في أدائه، وصور حال الأمة وهي بعيدة عنه بقوله: "كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفتن شيانكم وتركتم جهادكم؟"

قالوا: وإن ذلك لكانن يا رسول الله؟

قال: "نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون".

قالوا: وما أشد منه يا رسوله الله؟

قال: "كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر؟"

قالوا: وكانن ذلك يا رسول الله؟

قال: "نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون".

قالوا: وما أشد منه؟

قال: "كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا؟"

قالوا: وكانن ذلك يا رسول الله؟

قال: "نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون".

قالوا: وما أشد منه.

قال: "كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟"

قالوا: وكانن ذلك يا رسول الله؟

قال: نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون؟ يقول تعالى: بي حلفت لا نتخن ليهن

فتنة يصير الحلوم حيران²⁴

وقد أورد الماوردي ملخصاً لهذا الواجب، بين من خلاله المنكرات التي

يجب محاربتها فقال: "ومما يشمل الخاصة والعامة ما ذكرناه من الحمل على

ظاهر الشريعة والحث عليها والترغيب فيها وإظهار كرامة المستبين عليه

وجلالتهم عنده، والمنع من إظهار الفساد والفجور من الميسر وشرب الخمر وإظهار السكر والفسوق والقذف والنياحات الفاحشة على الموتى، وكل محرّم ومكروه في الدين، وما يدخل في أبواب الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر²⁵.

فإني أنت يا أمة الإسلام من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي أضحي عندهك تراثاً نسياً منسياً، فطغى نساؤك، وقسق شبانك، وتركت الجهاد والمعروف عندهك صار منكراً، والمنكر صار معروفاً، ومازتك مأساة إلا أعداؤك المتربصين بك الذين أوهموك - تلبس - بأن التبرج والفسوق والانحلال وخلع الحجاب، ومساواة الرجل والمرأة في التعبد والميراث، وما إلى ذلك من حقوق والحريات ما هي إلا علامات تحضر وتمعن لم يعد الإسلام صالحاً لاستيعابها، والأغرب في كل هذا أن تجد هذه الدعوات والتلبسات أبواً لها حتى من المسلمين في بلاد الإسلام. فعمت البصائر والأبصار، ونسيت وتناست حقيقة الحضارة الغربية وما تتطوي عليه من مخاطر جمة يجب الاحتياط لها. وصدق من قال: جاء الإسلام غربياً وسيعود غربياً، فطوبى للغرباء.

ثالثاً: جانب التشريع

يتوفر الإسلام على منظومة تشريعية ما عرفت لها البشرية في تاريخها من مثيل، جمعت بين أمور الدين وأمور الدنيا، فما تركت قضية من القضايا إلا وأحصنها، وبينت حكم الشرع فيها، سواء ما كان منها متعلقاً بالعبادة، أو العبادات، أو الحكم، أو الاجتماع، أو المال، أو السلم أو الحرب أو العلم، أو التعليم، أو الثقافة إلى آخر ما يمكن أن يخطر على تصور الإنسان من شؤونته²⁶. ويكفي للدلالة على صدق هذا الطرح قوله المولى جل وعلا: (ونزلنا عليك الكتاب نبينا لكل شيء)²⁷ وقوله تعالى: (وما فرطنا في الكتاب من شيء)²⁸ وقوله صلى الله عليه وسلم: "تركتم فيكم أمرين لن تظلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه"²⁹ وقوله صلى الله عليه وسلم: "تركتم فيكم أمرين لن تظلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعيش منكم فسيري اختلافاً كثيراً فعليكم ما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضواً علياً بالنواحي"³⁰.

وإذا كانت الشريعة قد بينت هذه الأحكام بدقة وإحكام، فإنه بالمقابل أوجبت على المسلمين اتباعها، وحذرهم من مخالفتها والاحتكام إلى غيرها قال تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)³¹ وقوله: (ومن لم يحكم بما أنزل

الله فأولئك هم الظالمون)³² وقوله: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)³³، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دعوني ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"³⁴

غير أن الذي حدث، أن المسلمين وعضو التزامهم أحكام منظومتهم، لجأوا إلى القوانين الوضعية التي هي في أساسها مستمدة من غير الشريعة الإسلامية، وتعكس نظريات ونظم متعارضة ومتناقضة فيما بين رأسمالية، واشتراكية، وقومية ونحوها، الأمر الذي أورثهم بعدا عن شريعتهم وصراعا وتمزقا في وحنهم. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: "لنتبعن بسبب من كان قبلكم شيئا شبرا وشبرا حتى لو دخلوا حجر صب تبعتموهم"، قال الراوي "فلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال" فمن³⁵ ويقول اللورد كتنز "نحن ما صلحت لنا هذه القوانين إلا بعد تربية تدريجية في عدة قرون كنا نغير فيها ونبدل بحسب اختلاف الأحوال، وإن عنكم - يعني المسلمين - شريعة عادلة موافقة لعقائدكم ولأحوالكم الاجتماعية، فالواجب على الدولة أن تعمل بها وتترك قواتين أوروبا فقيم العدل وتحفظ الأمن وتستغل بلادها الخصبة وعندئذ أنها لا تصلح بغير هذا..."³⁶

والذي زاد المسلمين بعدا عن شريعتهم السموم التي ترد إليهم من أعدائهم، والتي كانت ولا زالت تصف الإسلام بالجمود والرجعية³⁷، وعدم القدرة على مواكبة المسير الحضاري، ناهيك عن النقول بأن هناك من العقوبات التي حوتها كقطع اليد، وجلد شارب الخمر، ورحم الزاني المحصن لم تعد تستجيب لروح العصر ويجب استبعادها³⁸.

والآن، إن لنا أن نسأل: هل من الخير لنا أن نسير وراء أنظمة قانونية صاغتها أيادي بشرية - هذه الأيدي هي نفسها اليوم تقر بقصور هذه الأنظمة القانونية - فيها من المادة السامة ما يكفي لقتل أجيال ومحوها عن الوجود. أم نسير في الطريق الذي اختاره لنا المولى الخبير سبحانه وتعالى؟ وهل من المصلحة لنا كمسلمين أن ننهل من أنظمة غيرنا، ناسين أو متناسين أن لنا معين الله الصافي وتشريعه الخالد الذي يغنينا عن الاقتباس إلى يوم الدين؟

رابعاً: جانب التربية والتعليم

اهتمت الإنسانية منذ قديم العصور على اختلاف شعوبها وحضاراتها بالطرق والوسائل الكفيلة بتحقيق تربية وتعليم وثقافة أكثر فعالية، لإعداد جيل صالح له من المقومات والخصائص النفسية والاجتماعية والبدنية والعلمية، ما يكفل له القدرة على إعادة صنع الحياة على الأرض.

وقد ظل إعداد الجيل الصالح هدفاً تربوياً تسعى إليه جميع النظم التربوية على اختلاف مفاهيمها ومبادئها، والأسس والعقائد التي تعتمد عليها، فالأنظمة جميعها ترسم هذا الهدف، وتسعى إليه وتعمل على تحقيقه. ومن الأنظمة التي سعت إلى تحقيق هذا الهدف، النظام الإسلامي الذي يعد الرائد في هذا المجال بنون منازع، فكان المنهج التربوي فيه منهجاً كلياً أحاط بكل صغيرة وكبيرة، ومستقى من وحي الله، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وضع لكل عنصر من عناصر التربية قواعده وضوابطه ومناهجه التي تمكن من الوصول إلى إعداد جيل يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، والالتزام بأخلاق الإسلام وقيمه ومبادئه، والإيمان بالتكريم الإلهي للإنسانية الذي قرره القرآن الكريم³⁹.

ورغم أن الإسلام جاء بمنهج متكامل يعني عن مد اليد والاقْتباس من الغير، ورغم التحذيرات التي أطلقها علماء المسلمين من استيراد المناهج التربوية والتعليمية من الغرب لما يترتب عليها من مشاكل وانحرافات في الدين، إلا أن المسلمين أداروا ظهراتهم، وركنوا إلى مناهج غيرهم فكانت وبالاً عليهم وعلى أجيالهم، وأنسنتهم نينهم وحتى أنفسهم، وأحسن قولاً من قال: "أيك أن تكون أمنا من العلم الذي ترسه فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها"⁴⁰، لئلا بعد ذلك ويصور التعليم بالحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي فيقول: "إن التعلم هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي ثم يكونها كما يشاء، إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية، وهو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة تراب"⁴¹. ولك أن تقدر بعد ذلك صدق هذا الحديث، وما فعلته وما تزال تفعله الأنظمة التربوية والتعليمية الغربية بالمسلمين، وما ليتها توقفت عند هذا الحد، بل لا زال أصحابها ينعفون ويؤكدون على ضرورة اتساع أبناء هذه الأمة من جلدتهم، وتلبس جلدة غيرهم، ويكفيك أن تكف على أحد بتود التغيير في مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي تعرضه الولايات المتحدة الأمريكية هذه الأيام على أمة الإسلام والذي من بين بنوده ضرورة تغيير المناهج التربوية والتعليمية.

وإذا كانت الدول العلمانية، والتبوية ترفض استيراد العلوم والآداب التي نشأت في أحضان عقائد ومفاهيم لا تؤمن بها، فلماذا تحاول فرضها على غيرها، ولماذا تتهاقت وتهيل أمة الإسلام لها؟ أم هي من قبيل ولع المغلوب بالغالب في شعاره وزيه، ونحلته وسائر أحواله كم يقولون.

وفي الأخير إليك بعض آراء من فهم ووعى خطورة المناهج التربوية والتعليمية قلبى اعتناقها واعتمادها، يقول أحد أساتذة التربية في أمريكا الدكتور CONANT: " إن عملية التربية ليست عملية تعاط وبيع وشراء، وليست بضاعة تصنر للخارج، أو تستورد في الداخل، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية والأوروبية إلى بلادنا الأمريكية"⁴².

ويقول أحد العلماء الروس GOVERN " إن العلم الروسي ليس قسما من أقسام العلم العالمي إنه قسم منفصل قائم بذاته، يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف، إن سمة العلم السوفييتي الأساسية: أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة..."⁴³.

خامسا: جانب المال⁴⁴.

لاشك في أن للمال أهمية في حياة الأمم والدول والأفراد، وأن توفيره يعد من أهم عوامل الاستقرار في المجتمع، إذ به تتوفر أسباب القوة، وبه تتحقق وسائل الدفاع، وبه يندأ كل ما من شأنه أن يحل يأمن المجتمع واستقراره. ورحم الله سيدنا عمر عندما قال: "... وأني لا أجد هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث، أن يؤخذ بالحق، ويعطى في الحق ويمنع من الباطل..."⁴⁵ ويتابع ليقول: "... ولكم علي أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم علي أن لا أجتبي شيئا من خراجكم ولا مما آفاه الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه، ولكم علي أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأند ثغوركم"⁴⁶.

ذلك هو التوجيه العصامي، وتلك هي القواعد التي حكمت السياسة المالية عند المسلمين⁴⁷. فالمال لا يؤخذ إلا بحق، ولا يعطى إلا بحق، ولا يصرف في الباطل. فمصدر جبايته معلوم، وجهه صرفه كذلك. يقول الماوردي رحمه الله: "... والذي يلزمه من أمور العامة — ويعني الخليفة — عشرة أشياء... والسابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف، والناس: بتقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقنير ودفعه

في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير. والتاسع: استكفاء الأمانة وتقليد النصحاء في ما يفوض إليهم من الأعمال ويكل إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمانة محفوظة... 48.

بهذه الضوابط وبهذا الضبط، تحققت العدالة — وأعني بالضبط، الجباية في الحق والتوزيع في المستحق — وبهذه الضوابط وبهذا الضبط تحقق التقدم والرفق والأزدهار. فما الذي جعل المسلمين اليوم — في جانب المال — على غير ما كان يجب أن يكون عليه؟

لقد غيب المسلمون — اليوم — الإسلام من حياتهم في جميع جوانبها — إلا في القليل منها — وغيبوا بالتبعية النظرية الاقتصادية الإسلامية عن التطبيق. بدعوى — بتلبس من الغرب — أن هذه النظرية وإن صلحت للتطبيق في فترة من فترات الزمن، فإنها لم تعد كذلك. فهي فضلا عن كونها لم تعد تستجيب لطموحات المسلمين، فإنها لا تتماشى والظروف الاقتصادية في العصر الحديث.

والغريب في أمر المسلمين أنهم ورغم علمهم بأن داءهم من أعدائهم، وأن نواءهم في دينهم — أي أنهم يعرفون أسباب الداء ومنبع النواء — إلا أنهم فضلوا الركون إلى الداء وترك النواء وهكذا أضحي اقتصادهم، كإقتصاد غيرهم⁴⁹، احتكاريًا، ربويًا تسلطيًا بل ويفوقه تميزًا بالتبعية والتخلف، ناهيك عن الفقر المدقع الذي تعيشه الفئة الغالية من المسلمين.

سادسًا: جانب الإعلام

إن أي إصلاح اجتماعي، أو رقي حضاري، لا يمكن أن ينبغ أو يسود إلا بالإعلام.

والإعلام على قدر أهميته على قدر خطورته، فهو سيف ذو حدين كما يقولون. إذا ما أحسن استعماله حقق الغاية المتلى من وجوده، وإذا ما أسيء استعماله جنى الخراب والدمار على الناس في دينهم ودنياهم.

وقد عنى الإسلام بهذه الوسيلة، أيما عناية، فأحكم تنظيمها وفق المقاصد الشرعية. فحث المسلمين على استعمالها فيما فيه من عائدات خير عليهم. وحذرهم من الوقوع في الكذب، والبوذية، والشهيز. كما حثهم على الصنق، والدقة في الخير والأمانة والتثبت منه. ويكفيك تدليلاً قول المولى عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)⁵⁰ وقوله: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم

ولا تجسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم⁵¹.

وقوله صلى الله عليه وسلم في شأن الصدق والحث على إتيانه، والكذب والتحذير من احترافه: " إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً"⁵². بل وجعل الكذب من آية المنافق فقال: " آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أوتى أمر خان"⁵³.

ولقد فهم المسلمون الأوائل هذا التوجيه، فعملوا على تسخيره — أي الإعلام — لنشر عقيدة التوحيد، والدعوة إلى عبودية الواحد الأحد، بتحرير العباد من كل إكراه بشري، وترقية اهتمامات الناس، والسمو بتفكيرهم وسلوكياتهم، وإشاعة الثقافة المتشعبة بروح الإسلام.

وإذا كان هذا حال المسلمين الأوائل مع الإعلام على بساطة وسائله، فما الذي يمنع المسلمين اليوم حذو حذو هؤلاء؟ ومن ثم العمل على توجيهه إلى الإهتمام بشؤون المسلمين، وتبني قضاياهم، وإبرازها وتحليلها وعرض أنسب الحلول لها بما يتفق ومقاصد الشرع بعيداً عن توجيه الأعداء وتضليلهم. وبيان أن الإسلام ليس هو بالصورة التي يظهره بها أعداءه، ولا هو دين عنف، وإنما هو دين الرحمة والسلام والعدل وهو الدين الذي أراده الله أن يكون الخاتم لكل الرسالات السماوية.

الخاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى أنه إذا كانت هذه بعض الجوانب التي اعتراها تقصير المسلمين من جهة، والتبئيس من الغربيين من جهة أخرى. وهي في حاجة إلى العودة بها إلى موضعها، حيث كانت في بداية عهد الرسالة لينجلي المظير الحقيقي للإسلام، فإن الذي على المسلمين القيام به، هو تهيئة البيئة أو التربة التي بها يصلح الغرس أو النبت لينأتي أكله ذلك بـ:

1 — تمكين علماء الأمة ومفكريها من:

أ — أداء الدور المنوط بهم في توجيه حركة الحياة على مختلف الأصعدة —
العقدية، السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، التربوية... الخ —
ب — تنقية العقيدة مما علق بها من شوائب زائفة وسهام قاتلة، ووضع منهج
علمي سليم للدعوة إلى توحيد الله حتى لا يعتلي كل من هب ودب هذه
المرتبعة.

ج — تحرير واقع الأمة من النظريات والنظم الوافدة التي تتعارض
ومضمون الشريعة.

د — إعادة النظر في المناهج التربوية وبرامجها بما يتفق وروح الشريعة.
هـ — العمل على مواجهة الغزو الفكري والثقافي وتقديم البديل الإسلامي.
و — العمل على تنشيط حركة الاجتهاد الجماعي والالتزام بما ينتهي إليه من
أحكام.

2 — عمل أولى الأمر على الأخذ بأسباب الوحدة، وتجنب أسباب التفرقة.

3 — الالتزام بإعمال وتطبيق أحكام الشريعة في مختلف جوانب الحياة.

4 — إنشاء وزارة متخصصة تسخر لها جميع الإمكانيات المادية والبشرية للقيام
بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع الدول الإسلامية.

5 — العمل على الأخذ بالنظرية الاقتصادية الإسلامية في جميع جوانبها، مع الأخذ
بأسباب التكامل والتعاون والتنسيق بين اقتصاديات الدول الإسلامية، ومحاولة
التخلص من التبعية الاقتصادية العالمية.

6 — تحرير وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية من كل العناصر المشبوهة
والعاملة ضد توجهات الأمة، وكذا مختلف مظاهر الانحراف والانحلال مع تقديم
بديل إعلامي إسلامي ناجح.

المصادر والعراجع المعتمد في البحث:

— القرآن الكريم

— إبراهيم إيمان " أصول الإعلام الإسلامي " دار الفكر العربي، القاهرة.

— البخاري " صحيح البخاري " تحقيق الشيخ قاسم الشماصي، دار القلم، بيروت،

1987.

— الإمام أحمد " مسند الإمام أحمد " دار النشر، قرطبة، مصر.

— أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " دار المعرفة، بيروت، 1983.

- ابن خلدون "المقدمة" دار القلم، بيروت، ط7، 1989.
- الدكتور شوقي عبد الساهي "الفكر الإسلامي والإدارة المالية للدولة" مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1991.
- طايفر الفاسمي "نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي" دار النفائس، بيروت، ط2، 1980.
- الدكتور عبد الحميد متولي "الشريعة الإسلامية كمصدر أساسي للتشريع" منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2.
- عبد الرحمن حسن حنيفة الميداني "غزو في الصميم" دار القلم 1982.
- ابن قيم الجوزية "أطرق الحكمة في السياسة الشرعية" تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن ماجة "سنن ابن ماجة" تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- الإمام مالك "الموطأ" تحقيق فؤاد عبد الرحمن، دار إحياء التراث العربي، مصر.
- مالك بن نبي "المسلم في عالم الاقتصاد" دار الفكر، دمشق.
- الماوردي "الأحكام السلطانية والولايات الدينية" دار الكتب العلمية، بيروت.
- "نصيحة الملوك" تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، الكويت ط1، 1983.
- محمد أبو زهرة، "تنظيم الإسلام للمجتمع" دار الفكر العربي، القاهرة.
- الدكتور محمد أحمد مفتي، الدكتور سامي صالح الوكيل "النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية" (دراسة مقارنة) مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، النجدة، ط1.
- الشيخ محمد رشيد رضا "الخلافة" الزهراء للإعلام العربي، 1994.
- الدكتور محمد سليم العوا "النظام السياسي للدولة الإسلامية" دار الشروق القاهرة، ط1، سنة 1989.
- محمد سيد محمد "المؤسسة الإعلامية في الإسلام" المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط2، 1986.
- محمد الصادق عفيفي "المجتمع الإسلامي وفلسفته المالية والاقتصادية" مكتبة الخالجي القاهرة، ط1.

— د. محمد عبد الله الصوفي، د. عبد الغني قاسم * أهم التحديات المستقبلية التي ستواجه أمتنا ودور التربية في حلها " دار النشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996.

— مسلم " صحيح مسلم " دار ابن حزم بيروت، ط1، 1995.

— أبو يوسف " الخراج " دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

— يوسف كمال " الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة " دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1986.

— مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت، ع29، أغسطس 96.

الهوامش :

- 1 — سورة العنقبة الآية: 3.
- 2 — سورة النحل الآية: 89.
- 3 — سورة آل عمران الآية: 110.
- 4 — سورة النساء الآية: 135.
- 5 — سورة سبأ الآية: 28.
- 6 — سورة المائدة الآية: 67.
- 7 — سورة المائدة الآية: 35.
- 8 — عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بداية عهد الرسالة، على إرسال الرسل إلى ملوك و رؤساء الدول المجاورة للتبليغ، داعياً إياهم إلى عبادة الله وتوحيده، ومن الذين كتبهم، قيصر الروم، كسرى ملك الفرس، النجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك الاسكندرية، (في هذا راجع: ظفر القاسمي، " نظام الحكم في الشريعة التاريخ الإسلامي: الكتاب الأول، دار النفوس بيروت ط2، 1980، ص50.
- 9 — قال تعالى: " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " سورة النحل الآية 125.
- 10 — عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله. (راجع الحديث في: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والميراث، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة، ج2، ص113، حديث رقم 113.
- 11 — د/محمد عبد الله الصوفي، د/ عبد الغني قاسم * أهم التحديات المستقبلية التي ستواجه أمتنا ودور التربية في حلها " دار النشر، مؤسسة الرسالة، بيروت ط1، 1996، ص15.
- 12 — د/ محمد عبد الله الصوفين د/ عبد الغني قاسم، م. س، ص16، 17.
- 13 — الشيخ محمد الغزالي " صيحة تحذير من دعاة التصوير " دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 1991 ص 119.

- 14 — المرجع نفسه، ص 123.
- 15 — المرجع نفسه، ص 118.
- 16 — محمد الصادق عفيفي "المجتمع الإسلامي وفلسفته المالية والاقتصادية" مكتبة الخالجي، القاهرة، ج2، 1980، ص 20.
- 17 — المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 18 — في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر راجع:
- محمد أبو زهرة "تنظيم الإسلام للمجتمع" دار الفكر العربي، القاهرة، ص 23، 24.
- د/ محمد سليم العوا "النظام السياسي للدولة الإسلامية" دار الشروق، القاهرة ط 1، 1989، ص 155 وما بعدها.
- د/ محمد أحمد مفتي، د/ ماسي صالح الوكيل "النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية" دراسة مقارنة، مؤسسة الخليج للنشر والطباعة، النجدة، ط 1، ص 89.
- 19 — سورة آل عمران الآية 104.
- 20 — سورة الحج الآية 41.
- 21 — صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ج 1، ح رقم 49.
- سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج 2، ح رقم 4013.
- 22 — سورة المائدة الآية 78، 79.
- 23 — يمكنك في ولاية الحصة مراجعة:
- ابن قيم الجوزية "الطرق الحكمية في السياسة الشرعية" تحقيق محمد حامد دار الكتب العلمية، بيروت ص 338 وما بعدها.
- الماوردي "الأحكام السلطانية والولايات الدينية" دار الكتب العلمية، بيروت ص 299 وما بعدها.
- ابن خلتون، المقدمة دار القلم بيروت، ط 7، 1989 ص 255 و 256.
- 24 — أبو حنيفة الغزالي "إحياء علوم الدين" دار المعرفة، بيروت، ج 2، ط 1983، ص 308 و 309.
- 25 — الماوردي "نصيحة الملوك" تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط 1، 1983، ص 200.
- 26 — مع ملاحظة أن ما لا يعرف من كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم صراحة يعرف استنباطاً بواسطة مجتهدى الأمة.
- 27 — سورة النحل الآية 89.
- 28 — سورة الأنعام: 38.
- 29 — مؤلفاً الإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر، ج 2 رقم الحديث 1594.
- 30 — سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ج 1، حديث رقم: 48.
- سنن الإمام أحمد، دار النشر قرطبة، مصر، ج 4، حديث رقم 1718.
- 31 — سورة المائدة الآية 44.
- 32 — سورة المائدة الآية 45.
- 33 — سورة المائدة الآية 47.

- ١٤ - صحيح البخاري، المصدر السابق، حديث رقم 2095.
- ١٥ - المصدر نفسه، ج رقم 2126.
- ١٦ - الشيخ محمد رشيد رضا، الخلافة، الزهراء للإعلام العربي، ط 1994، ص 133.
- ١٧ - د/ عبد الصمد متولي، "الشرعية الإسلامية كمحدر أساسي للتشريع" منشأة المعارف، الإسكندرية ط 2، ص 26، وما بعدها.
- ١٨ - المرجع نفسه، ص 45، وما بعدها.
- ١٩ - راجع في هذا: عبد الرحمن حسن حينئذ السيداني "عزو في الصميم" دار القلم 1982، ص 16.
- ٢٠ - محمد بن حسن محمد بن عامر، الاقتباس عن العرب صولاته وحجوده ليدنه وآثاره - مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت العدد 29 أغسطس 96.
- ٢١ - أبو الحسن التتوي، الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، دار القلم ص 169.
- ٢٢ - المرجع والصفحة نفسها.
- ٢٣ - عبد الرحمن حسن حينئذ السيداني، المرجع السابق، ص 18.
- ٢٤ - المرجع والصفحة نفسها.
- ٢٥ - تعني بالمال، الاقتصاد بالمفهوم الاصطلاحي الحديث.
- ٢٦ - أبو يوسف "الفراج"، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ص 117.
- ٢٧ - نفس المصدر والصفحة.
- ٢٨ - راجع في هذا الموضوع: د. شوقي عبد الساهي "الفكر الإسلامي والإدارة المالية النبوية" مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 1، 1991.
- ٢٩ - العاودي، الأحكام السلطانية والولايات النبوية "المصدر السابق، ص 18.
- ٣٠ - راجع:
- ٣١ - مالك بن نبي "السلام في عالم الاقتصاد" دار الفكر، دمشق.
- ٣٢ - يوسف كمال "الإسلام والنهضة الاقتصادية المعاصرة" دار الوفاء، المنصورة، ط 1، 1986.
- ٣٣ - سورة الحجرات الآية: 6.
- ٣٤ - سورة الحجرات الآية: 12.
- ٣٥ - صحيح البخاري، كتاب الأئمة باب قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين).
- ٣٦ - ج 8، حديث رقم 972.
- ٣٧ - المصدر نفسه، حديث رقم 973.

الإسلام بين تقصير المسلمين وتليس الغربيين

الدكتور عبد القادر عبد السلام
جامعة الحاج لخضر باتنة

تمهيد:

إن الإسلام دين ودينها، عقيدة وشريعة، عبادة وسياسة، جاء كاملاً شاملاً، صالحاً لكل زمان ومكان، له أسسه الثابتة وفروعه المتغيرة.

أما أسسه الثابتة، فهي التي لم يقبض المولى سبحانه وتعالى روح نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن تولى بيانها دقة، وإحكاماً وتفصيلاً: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً"¹، وهي الأسس التي لم يترك أمر الاجتهاد فيها لأحد، فبين أحكامها في كتابه العظيم، وسنة نبيه الكريم، "ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين"².

وأما فروعه المتغيرة فهي التي يمكن استمدادها واستنباطها من تلك الأصول الكلية، وهي التي يكون في مجالها الاجتهاد لمن استوفى شروطه من علماء الأمة، كما أنها توفر لرسالة الإسلام مقومات الخلود، ومقتضيات التجديد، والاستمرار لتكون أشد ملاءمة لاحتياجات البشرية.

كما توافقتني الرأي في أن المسلمين استطاعوا في فترة من فترات تاريخهم، يوم أن كانت تجمعهم عقيدة واحدة، وكتاب واحد أن يكونوا سادة قادة — لمدة ثلاثة عشرة قرناً من الزمان، منذ البعثة النبوية وإقامة دولة الإسلام في المدينة المنورة بالإعلان عن دستور المدينة "إلى سقوط الخلافة الإسلامية في 1924م — مدنوا الدنيا، وهدبوا العالم، وقعدوا القواعد للبشرية، وفرروا حقوق الإنسان في كل مكان، فكانوا بحق عند مستوى قول المولى سبحانه وتعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"³. وعند قوله: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فإشأ أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإشأ كل بما تعملون خيرا.⁴

وإذا كان هذا الإسلام — صالح لكل زمان وكل مكان — وهذه أسسه وأحكامه الثابتة — وفروعه المتغيرة —، وهذه أمته في مرحلة من مراحل تاريخها، فما الذي جعل هذه الأمة اليوم في مؤخرة الركب الحضاري، تعاني حلا استشري كافة شؤونها — التشريعية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والأخلاقية، والثقافية، والإعلامية وحتى العقديّة — أورشها وقعا مرأ، وأضحى معها الإسلام في قفص الاتهام، ينعت بأشنع النعوت، وما يحذره من مدافع سوى صيحات من هنا وهناك، ممن لا يزال الإيمان ينبض في عروقهم، ولا تزال غيرة الإسلام تتطاع مشاعرهم وتثير الأميم.

إن الإحابة عن مثل هذا التساؤل ليست بالأمر السهل أو الهين كما قد يتبادر إلى الذهن، ولا هي في مقال هذه الأسطر من هذا البحث، فهي قد تأتي على مجلدات، وقد لا تستوفي إلا بمرآكر بحوث ودراسات لسنوات قد تطول — ولكن هي محاولة مني فضلت من خلالها الإطالة على بعض الجوانب — لتقصير من المسلمين، والتنبس من الغربيين — ولا أزعم بذلك أنني أضفت الجديد، وإنما هي محاولة تضاف إلى ما سبقها من محاولات، ظلت ولا زالت جميعها تصب في اتجاه واحد، وتتشد منغى واحدا، ألا وهو الدعوة إلى وجوب استفاقة هذه الأمة من عفوتها بل وقل من سماتها، وتحمل مسئولياتها الدينية والدينيوية، وصون الأمانة التي وضعها المولى سبحانه وتعالى بين أيديها، والانتفاة إلى ما يحدث ضدها من تسانس ومؤامرات تغندها عن النهوض بدورها الريادي.

هذا وأعود لأقول إن من بين الجوانب التي يمكن الجزم باعتبارها تقصيرا من قبل المسلمين، وتنبسا من طرف الغربيين، مما جعل هذا التقصير ونآك التنبس يتعكسان بالنسب على الإسلام ليظهرانه بعد ذلك بغير المظهر الذي يليق به ما يلي.

أولا: جانب الدعوة إلى توحيد الله

عنى عن النبيان أن دعوة الإسلام إلى توحيد الله، وأعمال أحكامه، لم تكن مقصورة على قوم دون آخرين، أو مكان دون آخر، وإنما هي دعوة، جاءت عالمية شاملة، موجية إلى الناس كافة غير محدودة الزمان والمكان. فكما هي واجبة في حق الأوائل من هذه الأمة، فهي كذلك في حق من جاء من بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها — متى توفرت شروطها وضوابطها — قال تعالى مخاطبا نبيه

محمد صلى الله عليه وسلم: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون"⁶.

وفي موضع آخر يقول: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون"⁹، "أنفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون"⁷.

واستجابة لهذا النداء، وتكريسا له، سخر المسلمون الأموال وفي مقدمته نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين، ومن تبع سيرتهم من قادة المسلمين، كامل إمكاناتهم المادية والبشرية لنصر العقيدة الإسلامية، والنود عنها ونشر مبادئها، وإعلاء رايها في العالمين، سواء كان ذلك عن طريق البلاغ التفضي كما أنزلت على النبي محمد صلى الله عليه وسلم⁸، أو بإقامة الحجة¹⁰ أو برفع راية الجهاد¹¹.

فإن نحن اليوم من هذا الواجب الذي لا يكاد يكون له نكرا في البلاد الإسلامية، ولا حتى في البلاد الأجنبية، إذا ما استثنينا بعض الاجتهادات الفردية أو الجماعية — والتي على قنيتها لم تعد تروق الكثير — وماذا أعتدنا من إمكانات مادية أو بشرية لأدائه، فحتى فريضة الجهاد لم نكتف بتعطيلها — بمسوغات ومبررات لا تسمن ولا تغني عن جوع — بل وبذهب البعض إلى الدخايل بما اصطاح على تسميته بالارهاب — فأصحت الحركات التحريرية في فلسطين، ولبنان، والشيشان، وأفغانستان، والعراق جماعات ارهابية بمفهوم الغرب —

وإذا كان هذا حالنا — إذ عجزنا حتى عن هزل الذباب عن أنفسنا — فإن أعداء الإسلام — الذين يعون معنى الإسلام — يترصدون له الفرصة، ويكبون له المكائد، ويدسون له السماتس، فلا يكاد يبدأ لهم طرف، ولا تكاد تعص يد عين، فقد سخروا كامل إمكانياتهم لأبعاد المسلمين عن عقيدتهم، وذلك بطريق بث الوهن والارتباك في تفكيرهم، والتشكيك بفائدة ما عندهم من عقيدة، قيم وحضارة، يأتي عليهم حين من الدهر يفتنون فيه الثقة بالفساد، ويعملهم الشعور بالنقص والضعف، مما يجعلهم يتطعمون إلى النيل من مصائر غيرهم، فتنتأ الثقة والآفة زويدا زويدا بما يأتي من هناك فيكسر الإعجاب والتعظيم لأراء مفكرين وعظمائهم، فيتمكن منهم التغريب ثم التنصير¹¹.

هذا وإذا كانت حركة المسلمين قد توقف عن الدعوة إلى التوحيد ونشر رسالة الإسلام، فإن الدعوة إلى التنصير — التبشير — لم توقف بل وزادت

ديناميكيته وحركتها عند أعداء أمناء. ففي القارة الأمريكية وحدها ما ينيف عن 9000 مركز للبحوث والدراسات الشرقية عامة، منها حوالي 50 مركزاً تهتم بالمنطقة العربية فقط، مهمتها تتبع ما يجري فيها، وتحليله ومقارنته بأصوله العقديّة والتاريخية، ثم مناقشته مع صناعي القرار الأسباسي، وفي ضوء ذلك توضع الخطط، وتحدد الاستراتيجيات، ووسائل تنفيذها وفي مقدمة دوافعها:

— التشكيك في العقيدة ومصادرها.

— تشويه حقيقة الدين الإسلامي في عقول المنقّفين.

— حماية العالم الغربي من خطر الإسلام.¹²

وقد أعزى الغرب هذا التوجه بعد أن نجح في تصدير 15 مليوناً مسلماً لندونيسيا¹³. والخطّة الموضوعة اليوم في 50 دولة أفريقية لأن ينقرض الإسلام بنوذة ودهاء، وأن يعلن فجأة بأن القارة القديمة قد أرثت كلها ونجح الاعداء في تصديرها كما يقول الشيخ الغزالي رحمه الله¹⁴. وفي شأن التخصيصات المالية يقول: "... خصصت لبحث أمثل طرق تصدير المسلمين والقضاء على دينهم وجمع لهذه الغاية ألف مليون دولار لعلها الخطوة الأولى في مشوار التصدير¹⁵. وإلى جانب الحملات التصديرية التي تظهر في الغالب في شكل مساعدات مالية، أو إعانات طيبة، أو حملات تنقيفية أو ما شابه ذلك، فهناك الدعوة العلمانية إلى ضرورة الفصل بين الدين والدولة¹⁶، والربط بين الإسلام والمسلمين، في وضعهم المتدهور وصورتهم المنفصلة عن الإسلام¹⁷.

ثانياً: جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر¹⁸ من أهم الواجبات وأخطرها التي تقع على عاتق المسلمين، وقد وردت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة صريحة في وجوب الدعوة إليه، وبإلزام الأفرار والدولة به. ومن الآيات القرآنية التي وردت في هذا الخصوص، قول المولى عز وجل: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"¹⁹ وقوله: "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وش عاقبة الأمور"²⁰.

ومن الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الإيمان"²¹.

قلت الآيات والحديث على أن الخطاب إن صح الفهم — موجه إلى كافة المسلمين — فالكل مطالب في حدود طاقته بمحاربة المنكر، والعمل على إزالته حتى تنتشر الأخلاق الكريمة، وتغير الأخلاق الذميمة فلا يستفحل الفساد وتحق اللعنة على العباد كما حقت على بني إسرائيل: " لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون"²².

هذا ولم تفرط دولة الإسلام في أداء هذا الواجب في يوم من الأيام، بل وأقامت له ولاية خاصة سميت بولاية الحسبة²³.

وقد نبه صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة الحفاظ عليه، وحذر من التقاعس في أدائه، وصور حال الأمة وهي بعيدة عنه بقوله: " كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسدت شيانكم وتركتم جهادكم؟ "

قالوا: وإن ذلك لكانن يا رسول الله؟

قال: " نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون."

قالوا: وما أشد منه يا رسوله الله؟

قال: " كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر؟ "

قالوا: وكانن ذلك يا رسول الله؟

قال: " نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون."

قالوا: وما أشد منه؟

قال: " كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا؟ "

قالوا: وكانن ذلك يا رسول الله؟

قال: " نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون."

قالوا: وما أشد منه.

قال: " كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ "

قالوا: وكانن ذلك يا رسول الله؟

قال: نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون؟ يقول تعالى: بي حلفت لا يتخفن لهن

فتنة يصير الحلوم حيران²⁴

وقد أورد الماوردي ملخصاً لهذا الواجب، بين من خلاله المنكرات التي يجب محاربتها فقال: " ومما يشمل الخاصة والعامة ما ذكرناه من الحمل على ظاهر الشريعة والحث عليها والترغيب فيها وإظهار كرامة المستبين عليه

وجلالتهم عنده، والمنع من إظهار الفساد والفجور من الميسر وشرب الخمر وإظهار السكر والفسوق والقذف والنياحات الفاحشة على الموتى، وكل محرّم ومكروه في الدين، وما يدخل في أبواب الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر²⁵.

فإني أنت يا أمة الإسلام من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي أضحي عندهك تراثاً نسياً منسياً، فطغى نساؤك، وقسق شبانك، وتركت الجهاد والمعروف عندهك صار منكراً، والمنكر صار معروفاً، ومازتك مأساة إلا أعداؤك المتربصين بك الذين أوهموك - تلبس - بأن التبرج والفسوق والانحلال وخلع الحجاب، ومساواة الرجل والمرأة في التعبد والميراث، وما إلى ذلك من حقوق الحريات ما هي إلا علامات تحضر وتمعن لم يعد الإسلام صالحاً لاستيعابها، والأغرب في كل هذا أن تجد هذه الدعوات والتلبسات أبواً لها حتى من المسلمين في بلاد الإسلام. فعمت البصائر والأبصار، ونسيت وتناست حقيقة الحضارة الغربية وما تتطوي عليه من مخاطر جمة يجب الاحتياط لها. وصدق من قال: جاء الإسلام غربياً وسيعود غربياً، فطوبى للغرباء.

ثالثاً: جانب التشريع

يتوفر الإسلام على منظومة تشريعية ما عرفت لها البشرية في تاريخها من مثيل، جمعت بين أمور الدين وأمور الدنيا، فما تركت قضية من القضايا إلا وأحصنها، وبينت حكم الشرع فيها، سواء ما كان منها متعلقاً بالعقيدة، أو العبادة، أو الحكم، أو الاجتماع، أو المال، أو السلم أو الحرب أو العلم، أو التعليم، أو الثقافة إلى آخر ما يمكن أن يخطر على تصور الإنسان من شؤونته²⁶. ويكفي للدلالة على صدق هذا الطرح قوله المولى جل وعلا: (ونزلنا عليك الكتاب نبينا لكل شيء)²⁷ وقوله تعالى: (وما فرطنا في الكتاب من شيء)²⁸ وقوله صلى الله عليه وسلم: "تركتم فيكم أمرين لن تظلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه"²⁹ وقوله صلى الله عليه وسلم: "تركتم فيكم أمرين لن تظلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعيش منكم فسيري اختلافاً كثيراً فعليكم ما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضواً علياً بالنواحي"³⁰.

وإذا كانت الشريعة قد بينت هذه الأحكام بدقة وإحكام، فإنه بالمقابل أوجبت على المسلمين اتباعها، وحذرهم من مخالفتها والاحتكام إلى غيرها قال تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)³¹ وقوله: (ومن لم يحكم بما أنزل

الله فأولئك هم الظالمون)³² وقوله: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)³³، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دعوني ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"³⁴

غير أن الذي حدث، أن المسلمين وعضو التزامهم أحكام منظومتهم، لجأوا إلى القوانين الوضعية التي هي في أساسها مستمدة من غير الشريعة الإسلامية، وتعكس نظريات ونظم متعارضة ومتناقضة فيما بين رأسمالية، واشتراكية، وقومية ونحوها، الأمر الذي أورثهم بعدا عن شريعتهم وصراعا وتمزقا في وحنهم. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: "لنتبعن بسبب من كان قبلكم شيئا شبرا وشبرا حتى لو دخلوا حجر صب تبعتموهم"، قال الراوي "فلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال" فمن³⁵ ويقول اللورد كتنز "نحن ما صلحت لنا هذه القوانين إلا بعد تربية تدريجية في عدة قرون كنا نغير فيها ونبدل بحسب اختلاف الأحوال، وإن عنكم — يعني المسلمين — شريعة عادلة موافقة لعقائدكم ولأحوالكم الاجتماعية، فالواجب على الدولة أن تعمل بها وتترك قواتين أوروبا فقيم العدل وتحفظ الأمن وتستغل بلادها الخصبة وعندئذ أنها لا تصلح بغير هذا..."³⁶

والذي زاد المسلمين بعدا عن شريعتهم السموم التي ترد إليهم من أعدائهم، والتي كانت ولا زالت تصف الإسلام بالجمود والرجعية³⁷، وعدم القدرة على مواكبة المسير الحضاري، ناهيك عن النقول بأن هناك من العقوبات التي حوتها كقطع اليد، وجلد شارب الخمر، ورحم الزاني المحصن لم تعد تستجيب لروح العصر ويجب استبعادها³⁸.

والآن، إن لنا أن نسأل: هل من الخير لنا أن نسير وراء أنظمة قانونية صاغتها أيادي بشرية — هذه الأيدي هي نفسها اليوم تقر بقصور هذه الأنظمة القانونية — فيها من المادة السامة ما يكفي لقتل أجيال ومحوها عن الوجود. أم نسير في الطريق الذي اختاره لنا المولى الخبير سبحانه وتعالى؟ وهل من المصلحة لنا كمسلمين أن ننهل من أنظمة غيرنا، ناسين أو متناسين أن لنا معين الله الصافي وتشريع الخالد الذي يغنينا عن الاقتباس إلى يوم الدين؟

رابعاً: جانب التربية والتعليم

اهتمت الإنسانية منذ قديم العصور على اختلاف شعوبها وحضاراتها بالطرق والوسائل الكفيلة بتحقيق تربية وتعليم وثقافة أكثر فعالية، لإعداد جيل صالح له من المقومات والخصائص النفسية والاجتماعية والبدنية والعلمية، ما يكفل له القدرة على إعادة صنع الحياة على الأرض.

وقد ظل إعداد الجيل الصالح هدفاً تربوياً تسعى إليه جميع النظم التربوية على اختلاف مفاهيمها ومبادئها، والأسس والعقائد التي تعتمد عليها، فالأنظمة جميعها ترسم هذا الهدف، وتسعى إليه وتعمل على تحقيقه. ومن الأنظمة التي سعت إلى تحقيق هذا الهدف، النظام الإسلامي الذي يعد الرائد في هذا المجال بنون منازع، فكان المنهج التربوي فيه منهجاً كلياً أحاط بكل صغيرة وكبيرة، ومستقى من وحي الله، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وضع لكل عنصر من عناصر التربية قواعده وضوابطه ومناهجه التي تمكن من الوصول إلى إعداد جيل يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، والالتزام بأخلاق الإسلام وقيمه ومبادئه، والإيمان بالتكريم الإلهي للإنسانية الذي قرره القرآن الكريم³⁹.

ورغم أن الإسلام جاء بمنهج متكامل يعني عن مد اليد والاقتراب من الغير، ورغم التحذيرات التي أطلقها علماء المسلمين من استيراد المناهج التربوية والتعليمية من الغرب لما يترتب عليها من مشاكل وانحرافات في الدين، إلا أن المسلمين أداروا ظهراتهم، وركنوا إلى مناهج غيرهم فكانت وبالاً عليهم وعلى أجيالهم، وأنسنتهم نينهم وحتى أنفسهم، وأحسن قولاً من قال: "أيك أن تكون أمنا من العلم الذي ترسه فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها"⁴⁰، ليأتي بعد ذلك وبصور التعليم بالحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي فيقول: "إن التعلم هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي ثم يكونها كما يشاء، إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية، وهو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة تراب"⁴¹. ولك أن تقدر بعد ذلك صدق هذا الحديث، وما فعلته وما تزال تفعله الأنظمة التربوية والتعليمية الغربية بالمسلمين، وما ليتها توقفت عند هذا الحد، بل لا زال أصحابها ينعقون ويؤكدون على ضرورة اتساع أبناء هذه الأمة من جلدتهم، وتلبس جلدة غيرهم، ويكفيك أن تكف على أحد بتود التغيير في مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي تعرضه الولايات المتحدة الأمريكية هذه الأيام على أمة الإسلام والذي من بين بنوده ضرورة تغيير المناهج التربوية والتعليمية.

وإذا كانت الدول العلمانية، والتبوية ترفض استيراد العلوم والآداب التي نشأت في أحضان عقائد ومفاهيم لا تؤمن بها، فلماذا تحاول فرضها على غيرها، ولماذا تتهاقت وتهيل أمة الإسلام لها؟ أم هي من قبيل ولع المغلوب بالغالب في شعاره وزيه، ونحلته وسائر أحواله كم يقولون.

وفي الأخير إليك بعض آراء من فهم ووعى خطورة المناهج التربوية والتعليمية قلبى اعتناقها واعتمادها، يقول أحد أساتذة التربية في أمريكا الدكتور CONANT: " إن عملية التربية ليست عملية تعاط وبيع وشراء، وليست بضاعة تصنر للخارج، أو تستورد في الداخل، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية والأوروبية إلى بلادنا الأمريكية"⁴².

ويقول أحد العلماء الروس GOVERN " إن العلم الروسي ليس قسما من أقسام العلم العالمي إنه قسم منفصل قائم بذاته، يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف، إن سمة العلم السوفييتي الأساسية: أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة..."⁴³.

خامسا: جانب المال⁴⁴.

لاشك في أن للمال أهمية في حياة الأمم والدول والأفراد، وأن توفيره يعد من أهم عوامل الاستقرار في المجتمع، إذ به تتوفر أسباب القوة، وبه تتحقق وسائل الدفاع، وبه يندأ كل ما من شأنه أن يحل يأمن المجتمع واستقراره. ورحم الله سيدنا عمر عندما قال: "... وأني لا أجد هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث، أن يؤخذ بالحق، ويعطى في الحق ويمنع من الباطل..."⁴⁵ ويتابع ليقول: "... ولكم علي أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم علي أن لا أجتبي شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه، ولكم علي أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأند ثغوركم"⁴⁶.

ذلك هو التوجيه العصامي، وتلك هي القواعد التي حكمت السياسة المالية عند المسلمين⁴⁷. فالمال لا يؤخذ إلا بحق، ولا يعطى إلا بحق، ولا يصرف في الباطل. فمصدر جبايته معلوم، وجهه صرفه كذلك. يقول الماوردي رحمه الله: "... والذي يلزمه من أمور العامة — ويعني الخليفة — عشرة أشياء... والسابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف، والناس: بتقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقنير ودفعه

في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير. والتاسع: استكفاء الأمانة وتقليد النصحاء في ما يفوض إليهم من الأعمال ويكل إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمانة محفوظة... 48.

بهذه الضوابط وبهذا الضبط، تحققت العدالة — وأعني بالضبط، الجباية في الحق والتوزيع في المستحق — وبهذه الضوابط وبهذا الضبط تحقق التقدم والرفق والأزدهار. فما الذي جعل المسلمين اليوم — في جانب المال — على غير ما كان يجب أن يكون عليه؟

لقد غيب المسلمون — اليوم — الإسلام من حياتهم في جميع جوانبها — إلا في القليل منها — وغيبوا بالتبعية النظرية الاقتصادية الإسلامية عن التطبيق. بدعوى — بتلبس من الغرب — أن هذه النظرية وإن صلت للتطبيق في فترة من فترات الزمن، فإنها لم تعد كذلك. فهي فضلا عن كونها لم تعد تستجيب لطموحات المسلمين، فإنها لا تتماشى والظروف الاقتصادية في العصر الحديث.

والغريب في أمر المسلمين أنهم ورغم علمهم بأن داءهم من أعدائهم، وأن نواءهم في دينهم — أي أنهم يعرفون أسباب الداء ومنبع النواء — إلا أنهم فضلوا الركون إلى الداء وترك النواء وهكذا أضحي اقتصادهم، كإقتصاد غيرهم⁴⁹، احتكاريًا، ربويًا تسلطياً بل ويفوقه تميزًا بالتبعية والتخلف، ناهيك عن الفقر المدقع الذي تعيشه الفئة الغالية من المسلمين.

سادسًا: جانب الإعلام

إن أي إصلاح اجتماعي، أو رقي حضاري، لا يمكن أن ينبغ أو يسود إلا بالإعلام.

والإعلام على قدر أهميته على قدر خطورته، فهو سيف ذو حدين كما يقولون. إذا ما أحسن استعماله حقق الغاية المتلى من وجوده، وإذا ما أسيء استعماله جنى الخراب والدمار على الناس في دينهم ودنياهم.

وقد عنى الإسلام بهذه الوسيلة، أيما عناية، فأحكم تنظيمها وفق المقاصد الشرعية. فحث المسلمين على استعمالها فيما فيه من عائدات خير عليهم. وحذرهم من الوقوع في الكذب، والبوذية، والشهيز. كما حثهم على الصدق، والدقة في الخير والأمانة والتثبت منه. ويكفيك تدليلاً قول المولى عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)⁵⁰ وقوله: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم

ولا تجسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم⁵¹.

وقوله صلى الله عليه وسلم في شأن الصدق والحث على إتيانه، والكذب والتحذير من احترافه: " إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً⁵². بل وجعل الكذب من آية المنافق فقال: " لية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان⁵³.

ولقد فهم المسلمون الأوائل هذا التوجيه، فعملوا على تسخيره — أي الإعلام — لنشر عقيدة التوحيد، والدعوة إلى عبودية الواحد الأحد، بتحرير العباد من كل إكراه بشري، وترقية اهتمامات الناس، والسمو بتفكيرهم وسلوكياتهم، وإشاعة الثقافة المتشعبة بروح الإسلام.

وإذا كان هذا حال المسلمين الأوائل مع الإعلام على بساطة وسائله، فما الذي يمنع المسلمين اليوم حذو حذو هؤلاء؟ ومن ثم العمل على توجيهه إلى الإهتمام بشؤون المسلمين، وتبني قضاياهم، وإبرازها وتحليلها وعرض أنسب الحلول لها بما يتفق ومقاصد الشرع بعيداً عن توجيه الأعداء وتضليلهم. وبيان أن الإسلام ليس هو بالصورة التي يظنها بها أعداءه، ولا هو دين عنف، وإنما هو دين الرحمة والسلام والعدل وهو الدين الذي أراده الله أن يكون الخاتم لكل الرسالات السماوية.

الخاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى أنه إذا كانت هذه بعض الجوانب التي اعتراها تقصير المسلمين من جهة، والتبئيس من الغربيين من جهة أخرى. وهي في حاجة إلى العودة بها إلى موضعها، حيث كانت في بداية عهد الرسالة لينجلي المظير الحقيقي للإسلام، فإن الذي على المسلمين القيام به، هو تهيئة البيئة أو التربة التي بها يصلح الغرس أو النبت لينأتي أكله ذلك بـ:

1 — تمكين علماء الأمة ومفكريها من:

أ — أداء الدور المنوط بهم في توجيه حركة الحياة على مختلف الأصعدة —
 العقديّة، السياسيّة، الاقتصاديّة، الاجتماعيّة، التربويّة... الخ —
 ب — تنقيّة العقيدة مما علق بها من شوائب زائفة وسهام قاتلة، ووضع منهج
 علمي سليم للدعوة إلى توحيد الله حتى لا يعتلي كل من هب ودب هذه
 المرتبة.

ج — تحرير واقع الأمة من النظريات والنظم الوافدة التي تتعارض
 ومضمون الشريعة.

د — إعادة النظر في المناهج التربوية وبرامجها بما يتفق وروح الشريعة.
 هـ — العمل على مواجهة الغزو الفكري والثقافي وتقديم البديل الإسلامي.
 و — العمل على تنشيط حركة الاجتهاد الجماعي والالتزام بما ينتهي إليه من
 أحكام.

2 — عمل أولى الأمر على الأخذ بأسباب الوحدة، وتجنب أسباب التفرقة.

3 — الالتزام بإعمال وتطبيق أحكام الشريعة في مختلف جوانب الحياة.

4 — إنشاء وزارة متخصصة تسخر لها جميع الإمكانيات المادية والبشرية للقيام
 بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع الدول الإسلامية.

5 — العمل على الأخذ بالنظرية الاقتصادية الإسلامية في جميع جوانبها، مع الأخذ
 بأسباب التكامل والتعاون والتنسيق بين اقتصاديات الدول الإسلامية، ومحاولة
 التخلص من التبعية الاقتصادية العالمية.

6 — تحرير وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية من كل العناصر المشبوهة
 والعاملة ضد توجهات الأمة، وكذا مختلف مظاهر الانحراف والانحلال مع تقديم
 بديل إعلامي إسلامي ناجح.

المصادر والعراجع المعتمد في البحث:

— القرآن الكريم

— إبراهيم إيمان " أصول الإعلام الإسلامي " دار الفكر العربي، القاهرة.

— البخاري " صحيح البخاري " تحقيق الشيخ قاسم الشماصي، دار القلم، بيروت،

1987.

— الإمام أحمد " مسند الإمام أحمد " دار النشر، قرطبة، مصر.

— أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين " دار المعرفة، بيروت، 1983.

- ابن خلدون * المقدمة * دار القلم، بيروت، ط7، 1989.
- الدكتور شوقي عبد الساهي * الفكر الإسلامي والإدارة المالية للدولة * مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1، 1991.
- طايفر الفاسمي * نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي * دار النفائس، بيروت، ط2، 1980.
- الدكتور عبد الحميد متولي * الشريعة الإسلامية كمصدر أساسي للتشريع * منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2.
- عبد الرحمن حسن حنيفة الميداني * غزو في الصميم * دار القلم 1982.
- ابن قيم الجوزية * الطرق الحكمية في السياسة الشرعية * تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن ماجة * سنن ابن ماجة * تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- الإمام مالك * الموطأ * تحقيق فؤاد عبد الرحمن، دار إحياء التراث العربي، مصر.
- مالك بن نبي * المسلم في عالم الاقتصاد * دار الفكر، دمشق.
- الماوردي * الأحكام السلطانية والولايات الدينية * دار الكتب العلمية، بيروت.
- نصيحة الملوك * تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، الكويت ط1، 1983.
- محمد أبو زهرة، * تنظيم الإسلام للمجتمع * دار الفكر العربي، القاهرة.
- الدكتور محمد أحمد مفتي، الدكتور سامي صالح الوكيل * نظرية السياسة الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية (دراسة مقارنة) مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، النجدة، ط1.
- الشيخ محمد رشيد رضا * الخلافة * الزهراء للإعلام العربي، 1994.
- الدكتور محمد سليم العوا * النظام السياسي للدولة الإسلامية * دار الشروق القاهرة، ط1، سنة 1989.
- محمد سيد محمد * المؤسسة الإعلامية في الإسلام * المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط2، 1986.
- محمد الصادق عفيفي * المجتمع الإسلامي وفسفته المالية والاقتصادية * مكتبة الخالجي القاهرة، ط1.

— د. محمد عبد الله الصوفي، د. عبد الغني قاسم * أهم التحديات المستقبلية التي ستواجه أمتنا ودور التربية في حلها " دار النشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996.

— مسلم " صحيح مسلم " دار ابن حزم بيروت، ط1، 1995.

— أبو يوسف " الخراج " دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

— يوسف كمال " الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة " دار الوفاء، المنصورة، ط1، 1986.

— مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت، ع29، أغسطس 96.

الهوامش :

- 1 — سورة العنقبة الآية: 3.
- 2 — سورة النحل الآية: 89.
- 3 — سورة آل عمران الآية: 110.
- 4 — سورة النساء الآية: 135.
- 5 — سورة سبأ الآية: 28.
- 6 — سورة المائدة الآية: 67.
- 7 — سورة المائدة الآية: 35.
- 8 — عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بداية عهد الرسالة، على إرسال الرسل إلى ملوك و رؤساء الدول المجاورة للنبوة الفتيحة، داعياً إياهم إلى عبادة الله وتوحيده، ومن الذين كتبهم، قيصر الروم، كسرى ملك الفرس، النجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك الاسكندرية، (في هذا راجع: ظفر القاسمي، " نظام الحكم في الشريعة التاريخ الإسلامي: الكتاب الأول، دار النفوس بيروت ط2، 1980، ص50.
- 9 — قال تعالى: " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " سورة النحل الآية 125.
- 10 — عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله. (راجع الحديث في: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والميراث، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة، ج2، ص113، حديث رقم 113.
- 11 — د/محمد عبد الله الصوفي، د/ عبد الغني قاسم * أهم التحديات المستقبلية التي ستواجه أمتنا ودور التربية في حلها " نرا البشير، مؤسسة الرسالة، بيروت ط1، 1996، ص15.
- 12 — د/ محمد عبد الله الصوفين د/ عبد الغني قاسم، م. س، ص16، 17.
- 13 — الشيخ محمد الغزالي " صيحة تحذير من دعاة التصوير " دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 1991 ص 119.

- 14 — المرجع نفسه، ص 123.
- 15 — المرجع نفسه، ص 118.
- 16 — محمد الصادق عفيفي "المجتمع الإسلامي وفلسفته المالية والاقتصادية" مكتبة الخالجي، القاهرة، ج2، 1980، ص 20.
- 17 — المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 18 — في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر راجع:
- محمد أبو زهرة "تنظيم الإسلام للمجتمع" دار الفكر العربي، القاهرة، ص 23، 24.
- د/ محمد سليم العوا "النظام السياسي للدولة الإسلامية" دار الشروق، القاهرة ط 1، 1989، ص 155 وما بعدها.
- د/ محمد أحمد مفتي، د/ ماسي صالح الوكيل "النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية" دراسة مقارنة، مؤسسة الخليج للنشر والطباعة، النجدة، ط 1، ص 89.
- 19 — سورة آل عمران الآية 104.
- 20 — سورة الحج الآية 41.
- 21 — صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ج 1، ح رقم 49.
- سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج 2، ح رقم 4013.
- 22 — سورة المائدة الآية 78، 79.
- 23 — يمكنك في ولاية الحصة مراجعة:
- ابن قيم الجوزية "الطرق الحكمية في السياسة الشرعية" تحقيق محمد حامد دار الكتب العلمية، بيروت ص 338 وما بعدها.
- الماوردي "الأحكام السلطانية والولايات النبوية" دار الكتب العلمية، بيروت ص 299 وما بعدها.
- ابن خلتون، المقدمة دار القلم بيروت، ط 7، 1989 ص 255 و 256.
- 24 — أبو حامد الغزالي "إحياء علوم الدين" دار المعرفة، بيروت، ج 2، ط 1983، ص 308 و 309.
- 25 — الماوردي "نصيحة الملوك" تحقيق الشيخ خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، الكويت، ط 1، 1983، ص 200.
- 26 — مع ملاحظة أن ما لا يعرف من كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم صراحة يعرف استنباطاً بواسطة مجتهدى الأمة.
- 27 — سورة النحل الآية 89.
- 28 — سورة الأنعام: 38.
- 29 — مؤلفاً الإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر، ج 2 رقم الحديث 1594.
- 30 — سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ج 1، حديث رقم: 48.
- سنن الإمام أحمد، دار النشر قرطبة، مصر، ج 4، حديث رقم 1718.
- 31 — سورة المائدة الآية 44.
- 32 — سورة المائدة الآية 45.
- 33 — سورة المائدة الآية 47.

- ١٤ - صحيح البخاري، المصدر السابق، حديث رقم 2095.
- ١٥ - المصدر نفسه، ج رقم 2126.
- ١٦ - الشيخ محمد رشيد رضا، الخلافة، الزهراء للإعلام العربي، ط 1994، ص 133.
- ١٧ - د/ عبد الصمد متولي "الشرعية الإسلامية كمصدر أساسي للتشريع" منشأة المعارف، الإسكندرية ط 2، ص 26، وما بعدها.
- ١٨ - المرجع نفسه، ص 45، وما بعدها.
- ١٩ - راجع في هذا: عبد الرحمن حسن حينئذ السيداني "عزو في الصميم" دار القلم 1982، ص 16.
- ٢٠ - محمد بن حسن محمد بن عامر، الاقتباس عن العرب صولاته وحجوده لسببه وآثاره - مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت العدد 29 أغسطس 96.
- ٢١ - أبو الحسن التتوي، الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، دار القلم ص 169.
- ٢٢ - المرجع والصفحة نفسها.
- ٢٣ - عبد الرحمن حسن حينئذ السيداني، المرجع السابق، ص 18.
- ٢٤ - المرجع والصفحة نفسها.
- ٢٥ - تعني بالمال، الاقتصاد بالمفهوم الاصطلاحي الحديث.
- ٢٦ - أبو يوسف "الفراج"، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ص 117.
- ٢٧ - نفس المصدر والصفحة.
- ٢٨ - راجع في هذا الموضوع: د. شوقي عبد الساهي "الفكر الإسلامي والإدارة المالية النبوية" مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 1، 1991.
- ٢٩ - العاودي، الأحكام السلطانية والولايات النبوية "المصدر السابق، ص 18.
- ٣٠ - راجع:
- ٣١ - مالك بن نبي "السلام في عالم الاقتصاد" دار الفكر، دمشق.
- ٣٢ - يوسف كمال "الإسلام والنهضة الاقتصادية المعاصرة" دار الوفاء، المنصورة، ط 1، 1986.
- ٣٣ - سورة الحجرات الآية: 6.
- ٣٤ - سورة الحجرات الآية: 12.
- ٣٥ - صحيح البخاري، كتاب الأئمة باب قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين).
- ٣٦ - ج 8، حديث رقم 972.
- ٣٧ - المصدر نفسه، حديث رقم 973.

حقوق المسلمين وحررياتهم في بلاد الهجرة مسألة الحجاب بين شرعية القبول وعنصرية الرفض

الدكتور معوان مصطفى
جامعة الجبيلي اليابس. سيدي بلعباس

تمهيد:

إن الحديث عن حقوق الإنسان في الفكر المعاصر يجب أن ينصرف إلى عالميتها في كل من الثقافة الغربية والثقافة العربية الإسلامية. لأن التأسيس الثقافي لحقوق الإنسان اليوم غدا شعار يرفع في جميع أنحاء العالم وأن توظيف الإعلام الغربي لهذا الشعار ضد الجهات التي يضعها الغرب في موضع الخصم في مصالحه. ويبقى العمل بهذه المبادئ وكيفية التعامل معها العنصر الأساسي في تقييم ما وصل إليه الغرب اتجاه المسلمين في بلاد الهجرة على أساس ما يطالب حوار الحضارات وحماية حقوق وحرريات الجالية الإسلامية المهاجرة.

ولعل مسألة ارتداء الحجاب الإسلامي وما صاحب ذلك من مؤيد ومعارض أخير دليل على استعمال الغرب لسلح حقوق الإنسان ضد المهاجرين في فرنسا خصوصا في المدرسة التي يتمرس فيها أبناء المسلمين، حيث أصبح مفهوم لباس الحجاب عند البنات مفهوما جديدا في نظر رجال القانون والتربية والدين والسياسة باعتبار أن تلك المبادئ التي يناهون بها تصدر عن ثوابت الثقافة الأوروبية وتعكس خصوصية هذه الثقافة وتتجاهل ثقافة المسلمين وديانتهم وهي بالتالي ثوابت تختلف عن ثوابت وخصوصيات المجتمع الإسلامي.

فالمجتمع الفرنسي الذي أقر منذ قرن من الزمن مبدأ الفصل بين الدين والدولة والحق في حرية الاعتقاد والاختلاف كحقيقة وجودية في مختلف النصوص القانونية أصبح لا يدرك ذلك عندما يتعلق الأمر بأبناء المهاجرين في المدارس، حيث تدخل القضاء في تنظيم عقيدة هؤلاء ملزما إياهم ألا يرتدوا لباسا يعين بشعور الغير، وأن كل مخالفة لذلك يعرض صاحبا للطرد من المؤسسة التعليمية، الشيء الذي زاد من حدة التوتر الاجتماعي والتطرف السياسي، فكان على

صانعي القرار إلا أن يتخذوا إجراءات تأديبية في كثير من القطاعات بدأ بالقطاع التربوي تجاه البنات بصفة خاصة، متجاهلين أن الإسلام نفسه يقرر حق الاختلاف في الأديان وتعددتها كقوله تعالى: ﴿مُولُوْا شَاءَ رَبِّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً. وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ، وَنَلَيْكَ حَقِيْمُهُ﴾ (سورة هود، الآية 118-119).

ذلك يُبقي التساؤل مطروحاً حول أي حوار يريدونه، خاصة وأن المدرسة تعد المكان الأول الذي يتلقى فيه التلميذ مبادئ الحوار الحضاري واحترام حرية المعتد ولا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى.

وعلى الرغم مما يتميز به اليوم أبناء المسلمين المهاجرين في ممارستهم لعقيدتهم في بلاد الاغتراب فإنه بات من الضروري أن يتحمل المكثفون لمسؤولية التبليغ والنطلع نحو احترام الغير في ظل حقيقة اختلاف بين الناس والمعتقدات ونبذ التطرف الديني والدعوة للتعايش السلمي بين مختلف الأقليات المهاجرة. تلك هي أهم العناصر التي تحتويها مداخلتنا مع التركيز على تحديد مفهوم حرية المعتد في المجتمع الغربي وتطبيقات ذلك على ما يسمى بقضية الحجاب الإسلامي عند أبناء المهاجرين في فرنسا بخصوص، وما صاحب ذلك من توترات مختلفة، مع محاولة اقتراح الحلول الممكنة في إطار حوار الحضارات ودور ممارسة العقيدة الإسلامية في ذلك.

1- الانتعاش الداخلي مرهون بقوة الحضور على المستوى الدولي:

إن عملية التقويم لابد للمجتمع العربي والإسلامي أن يجريها وبصفة تورية للوقوف على مواطن الضعف والتعرف على عناصر القوة. فالمجتمع العربي والإسلامي ينبغي أن يكون قريباً من الأحداث ومما يجري في المحيط البشري حتى لا تفاجئه مواقف الآخرين وتضطره إلى تسجيل ردود أفعال مجهولة.

والحقيقة نقال: إن انتعاش المجتمع داخلياً يكون في الأصل ثمرة طبيعية لانتعاشه خارجياً، فالفرص متاحة للفرد الأمريكي اليوم والإمكانات التي توجد تحت تصرفه بحميتها التواجد القوي لولايات المتحدة الأمريكية في المحيط العالمي، كما أن التدهور الذي يميز حياة الفرد في المجتمعات المختلفة (منها

بلدان العالم العربي والإسلامي) يصاحبه ضعف في حضور هذه المجتمعات على مستوى الصراع الدولي، ذلك أن بسط النفوذ وتعزيز هذا الحضور كثيراً ما يساهم في تغطية مظاهر عجز المجتمع داخليا بالنسبة للمشروع التربوي والثقافي، إذا لم يكن صالحاً ليسخر في تحسين وضع المجتمع، وهذا لا يتم إلا من خلال سياسة انفتاح إيجابية، فإنه يتحول بالضرورة إلى أداة تعمل في حلقه مفرغة لتكريس الواقع المر لتصبح العملية التربوية لاحقاً عالة عليه، بعبارة أخرى فإن المشروع الثقافي يتعزز بدوره وسط الصراع ومن خلال الاحتكاك ومواجهة التحديات، لذلك نقول إما أن تدخل الأمة العربية والإسلامية في الصراع الثقافي لتحافظ على تواجدتها القوي أو أنها تموت ثقافياً وحضارياً.

2- رسالة الأمة العربية والإسلامية:

إن زحف العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية سيأتي على كثير من الأنظمة والأمم حتى من بين تلك التي تملك في الظاهر قوة وتتمارس بعض النفوذ فضلاً عن الأمم الضعيفة والعاجزة، لأن البقاء الحضاري والثقافي يستدعي نبأنا في صراع دقيق بأهداف دقيقة ووسائل ذات خصائص ومواصفات متميزة، فلا يكفي امتلاك قوة عسكرية مثلاً.. فالمشروع الثقافي الذي طالما دافع عنه الاتحاد السوفياتي البلد العملاق بات لا وجود له في الواقع، والحضارة الرومانية في عهد قسطنطين¹ ثم تعفياً هيمنتها العسكرية من اعتماد الديانة النصرانية كمصدر رئيسي في توجيه سلوك أفرادها رغم أن الكنيسة كانت في تلك الفترة من التاريخ تمثل الطرف المهزوم، هذا بدون إدخال الاعتبار الذي يرى أن اعتناق الرومان للنصرانية لا يعني أن الرومان تنصروا ولكن الكنيسة هي التي تزومت، والتار الذين هزموا المسلمين في بداية الأمر اضطروا فيما بعد إلى تبني مشروع المسلمين الثقافي في حياتهم والانتشار الإسلامي في آسيا بواسطة التجار الذين حملوه كسلوك وكأخلاق وكواقف كان له تأثير أكبر من الإسلام الذي انتقل إلى أوروبا بعد دخول جيوش المسلمين إلى هذه المناطق من العالم، ورغم دخول تابلينون² مصر منتصراً فإنه نقل شريعة المسلمين إلى أوروبا واعتبرها مصدره في صياغة ما عرف لاحقاً بقانون تابلينون³ بل الحاجة دفعت سينقستر الثاني⁴ وهو على رأس الفلتكان في الفترة ما بين 999 م و 1003 م إلى

المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية وتنظيم حياة أفراد المجتمع على أساسها ليس كعقيدة وكنين وإنما كقانون.

في ظل هذه الصراعات القائمة التي يسعى فيها الأقوياء إلى إخضاع الضعفاء، فإن الأمة العربية الإسلامية ذات الخصائص المتميزة تستطيع أن تقاوم تيار العولمة الجارف وتحوله في اتجاه تصبح من خلاله من أكبر المستفيدين، إذا عرفت بطبيعة الحال كيف تتموقع وكيف ترتب أولويتها وتنظم حياة أفرادها داخل هذا النسق المعاصر.

3- بداية المواجهة وحقيقة الصراع:

تتجدد عبر المراحل المختلفة فصول المواجهة الاتصالية والصدامية بين الإسلام والغرب، وتتغذى المواجهة بالمتراكم وتتلاقى الجوانب اللاهوتية بالحضور الناسوتي، ويتخذ الصراع أبعادا مرتبطة بحسابات المصلحة، وفي العقود الأخيرة كان بدء العصر الحديث مقترنا بتجدد الحملات الصليبية من خلال محاكم التفتيش التي تتبعت المسلمين في الأندلس.

ومن خلال تمكن الخلافة العثمانية قبل سقوط غرناطة بأربعة عقود من الاستحواذ على القسطنطينية، ومن تزامن ذلك مع اكتشاف العلم الجديد وبدأت القوة الغربية مرتكزة على الإبادة، مما جعل غارودي يصف الغرب بأنه حادث، فالقوة ارتبطت بجدل التقدم بإبادة الآخر، وخلال الحملات الاستعمارية تلبست الحملات بالنزعة الصليبية وتوارى نهديم وتحويل المساجد مع الإبادة والاستحواذ على الأزرق، وحضر الدين في الحركات المواجهة مع الاستعمار، وبعد استقلال كثير من الدول الإسلامية تجددت محطات المواجهة في الصراع مع إسرائيل، ثم اتخذت علاقة الإسلام بالغرب شكلا آخر مع ثورة إيران عام 1979 وتعمق الأمر بعد سقوط المعسكر الاشتراكي، وأصبح الإسلام مكان الشيوعية، وتزامن ذلك مع انفجار المد الأصولي الذي تقمص شكل المواجهة المسلحة في بلدان إسلامية كالجرائز ووقعت التفجيرات في الغرب، لكن نبين أن هناك نفاقا غربيا في التعامل مع المعطي والسعي لتوظيف لتكريس طروحات معينة.

ومؤخرا صدر في فرنسا في سياق التحضيرات للرئيسيات قرار بمنع الحجاب في الفضاءات العمومية بدعوى الحفاظ على اللانكبة، وهو ما أثار جدلا

واسعا في الساحة الإسلامية، وأظهر حقيقتها بشرح نخيبها الدينية والثقافية والسياسية، وفتح القرار ما فتحته المواجهات كلها وتراجع الحضور الإيجابي لشيراك في الوسط الإسلامي، وتأكدت حدود اللانكية المزعومة وتناقضاتها وزيف الديمقراطية وتجنر نزعة التمركز على الذات، إن القرار هو إعلان خوف من هوية برموزها وألوانها، وتنقل بعض الردود تعميما للقائدة:

في خطبة الجمعة بمسجد عمر بن الخطاب في الدولة يوم 19 ديسمبر الماضي، أعلن القرضاوي أن قرار منع الحجاب يخالف مبدئين أساسين هما الحريتين الشخصية والدينية، وأنه لا يجوز للمسلمة ترك الحجاب، وصحح القرضاوي خطأ إنراج الحجاب مع انكيا [القبعة اليهودية] والصلب كرمز وهو ما ليس كذلك لأن الرمز كما أوضح هو ما ليس له وظيفة سوى الإعلان عن انتماء ديني أما الحجاب فهو مرتبط بأمر من الله واجب التنفيذ، أما الرمز فمسألة اختيارية.

وقسم القرضاوي العلمانية إلى نوعين متطرفة ومعشلة، وذكر أنه مما يندى له الجبين ما يجري في بعض بلداننا الإسلامية كتونس، وذكر القرضاوي بأنه سيرفع دعوى قضائية في حالة عمل فرنسا بتنفيذ المنع الذي يمكنه تغذية التطرف، ويستند الشيخ الذي يرأس المجلس الأوروبي للأبحاث والإنماء على تنافي القرار مع الدستور الفرنسي ووجه في 24 ديسمبر رسالة إلى شيراك يدعو فيه إلى مراجعة قراره.

وبدوره طالب الشيخ محمد حسين فضل الله شيخ الأزهر بالاعتذار للمسلمين لأنه أساء إلى الإسلام والمسلمين عندما أعطى فرنسا الحجة الشرعية، وطالب نائب مصري تعيين شيخ جديد للأزهر وهذا كما جاء في رسالته، وهو الدكتور حمدي حسن، وقال عبد الصبور شاهين إن فتوى طنطاوي تمثل خطأ جسيما وأنه أهان الأزهر وأهان الإسلام.

مفتي الأزهر محمد سيد طنطاوي اعتبر يوم 17 ديسمبر الماضي الحظر أمرا دخليلا لا يحق لأحد التدخل فيه، وهو ما أثار ردود فعل حادة لدى مختلف الأوساط، ففي الأزهر ثارت حركة معارضة كبيرة لما صنف كإهانة ومس بحامع ظل رمزا لكل المسلمين، وألقى الشيخ رمضان البوطي خطبة الجمعة رد فيها بقوة على فتوى الشيخ طنطاوي.

ومثل البوطي علق علماء وأئمة السنة والشيعة ونظارت المتحجبات في القاهرة، وكتبت الصحف، وممن كتبوا الصحفي مصطفى البكري تحت عنوان: هذا إمامنا الأكبر فاعزلوه، ووسع المجال ليثير جملة سقطات للشيخ كوصفه للرافضيين للتطبيع مع الصهيانية بأنهم جبناء، جبناء، جبناء، وكررها هكذا، وأن ما بدر منه نبيل من مكانة الأزهر ومن نوره، وذكر البكري عينات من ردود الفعل كخطبة جمعة للشيخ عبد الهادي الدراجي في مدينة الصدر بغداد الذي انتقد خرجة الطنطاوي وطالب الحوزات العلمية في لبنان والباكستان والنجف وإيران بإصدار فتاوى تحريم ومقاطعة البضائع الفرنسية.

ولقد اعتبر رجال من الأزهر كالمفتي علي جمعة والكتور عبد الصبور مرزوق موقف شيخ الأزهر وجهة نظر شخصية، وقال المفتي جمعة: <إننا يجب ألا نخلط الأمور بالقول، إننا عندما ندافع عن الحجاب نتدخل في شؤون دولة غير إسلامية، إننا ننصح الفرنسيين والرئيس شيراك بالألا يفعلوا ما قالوه بمنع ارتداء الحجاب لأنهم يتدخلون بذلك في أخص خصائص الإسلام>.

وإلى جانب ما ذكره، روج لشرعية القرار الفرنسي صبيح بن الشيخ العباس ودليل بويكر ودعاه محمد أركون وأدونيس وهناك من حاول نزع الطابع الإسلامي معتبراً الحجاب ارتداء يعود لما قبل الإسلام. بينما ذكرت حركة الإخوان المسلمين في بيان بتاريخ 22 ديسمبر أن القرار منافي للمواثيق الدولية، وقالت رئيسة الرابطة الفرنسية نورة جاب الله أن شيخ الأزهر كان رهين مواقف سياسية لا علاقة لها بالحجاب، وقالت مليكة شورابي الممثلة للانتلاف النسائي المسلم والذي أسس للدفاع عن حق النساء في ارتداء الحجاب: [إن الطنطاوي لا يمثلنا من الوجهة الشرعية].

4- الحجاب الإسلامي بين المد والجزر:

كانت عودة الحجاب ملمحاً أساساً من ملامح الصحوة الإسلامية في مرحلتها المعاصرة التي تبدأ من سبعينيات القرن العشرين، وأصبح الحجاب رمزاً من رموز الصحوة وشعاراً من شعاراتها والآن — وبعد ما يقرب من ثلاثين عاماً، تنوعت وتعددت فيها أشكال المواجهة وميادينها بين الصحوة وأعدائها — لا تزال زاوية الحجاب ترفرف في ساحة المعركة، ولكن على نحو يختلف كثيراً

عما كانت عليه في السبعينيات في أكثر المجتمعات الإسلامية؛ وهذا الاختلاف في مسألة الحجاب هو ما نحن بصدد توصيفه وتقويمه في هذه الصفحات، ولأن الواقع لا يعطي معانيه ولا يكشف أسزاره إلا بإضافته إلى ما قبله من الزمن، فلا بد من إضافة بُعد تاريخي يسير بقدر ما يكشف لنا الدورة الكاملة لنشوء الحجاب وتراجع.

5- الأبعاد التاريخية لمعركة الحجاب والسفور في المجتمعات الإسلامية:

يروق للمحللين والعلمانيين المحليين كلما طرحت قضية الحجاب أن يعرفوا في التساؤل عن الدوافع والأسباب وراء انتشار هذه الفريضة المتزايدة منذ السبعينيات، وهذا تساؤل معكوس حقيقة، لا بد معه من إضافة البعد التاريخي حتى نرى الأشياء في سياقها الحقيقي، فيصبح التساؤل الصحيح عن الدوافع والأسباب الكامنة وراء تخلي المرأة المسلمة عن حجابها؛ فانحرافاً فرعياً في التاريخ لا يتجاوز سبعين أو ثمانين عاماً (متوسط عمر رجل واحد)، لا يمكن بحال أن يقضي على أصل متجذر منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً من الزمان كتنجزة ضخمة فرعها ثابت، وأصلها في السماء.

ومن الشواهد العجيبة على هذا الانتقال التعسفي التاريخي من الحجاب إلى السفور أن بعض رواده الكبار (الأصاغر) يشعر المتأمل في سيرة أحدهم كأنه يقرأ عن شخصين، الأول: يرفع راية الحجاب ويدافع عنه، والثاني: يعادي الحجاب ويرفع راية السفور، وتذكر مثالين على ذلك: الأول من مصر، والثاني من تونس. ففي مصر، كان أول كُتِّب قاسم أمين: "المصريون" دفاعاً حماسياً عن فضائل الإسلام على المرأة المصرية، ورفعاً من شأن الحجاب، ثم لما تمت إعادة برمجته على أيدي رواد صالون نازلي، أصدر كتاباً به: تحزير المرأة، "المرأة الجديدة"، وجعل من نفسه الداعي الأول لفقنة التبرج بين المسلمين.

وفي تونس، سنة 1929م وقف شاب عمره يومذاك 26 سنة - في إحدى الندوات - يرد على امرأة سافرة تدعو إلى تحزير المرأة، فقال: "الحجاب يصنع شخصيتنا، وبالنسبة لخلعها: جوانبي هو الرقص، ولارتفاع الضحج في القاعة، وانتقل الجدل إلى الصحف، وتابع الشاب الدفاع عن الحجاب بنشر مقالات في صحيفة تونسية فرنسية، ولم يكن هذا الشاب سوى المجاهد الأكبر

الحبيب يورقبيه نفسه الذي قام في اليوم التالي للاستقلال بسحب غطاء الرأس عن النساء النونسيات. وسار كثيرون في أنحاء العالم الإسلامي على نهج قاسم أمين فأصدروا كتبهم المسمومة، مثل كتاب: "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" للظاهر الحداد في تونس سنة 1930، و"السفور والحجاب" لنظيرة زين الدين في سوريا في العشرينيات، واستمرت جهود العقّفين والمفكرين — المتبنين للمنهج النعريي — طيلة الحقبة الاستعمارية في الترويج للتبرج حتى أصبح واقعا مفروضا إلى جوار الحجاب، ولما أن أتى عهد الاستقلال وتولى القوميون زمام الأمور عملوا ما عجز عنه الاستعمار، وعمدوا إلى القضاء على البقية الباقية من الحجاب في بلادهم.

يقول صحفي ألماني واصفا فترة إقامته في مصر من 1956 — 1961 م: "ويكفي أن تعلم أنه منذ عشرين عاما فقط كانت كل النساء تقريبا يرتدين الحجاب، أما اليوم فإنه حتى في أكثر المناطق شعبية لم نعد نرى الحجاب، وفي سوريا مزق رجال "البعث" الحجاب في شوارع دمشق، ومنعوا المحجبات من دخول المدارس بحجابهن".

وحقق العهد الاستقلالي في المغرب ما لم يستطعه الاستعمار في عشرات السنين.

6- الحجاب الإسلامي ما بين العلمانيين والأصوليين:

المدافعون عن حرية لبس الحجاب يقفون على الضفة المقابلة، ويظرحون السؤال التالي: ولكن ماذا لو كان الحجاب خيارا شخصيا لا علاقة له بضغط الوالدين، كما كان الحال في قضية الأختين ليلي ولمعى ليفي (وهما بنتا يهودي يعرف نفسه بأنه بلا ديانة وأم قياتلية جزائرية مسيحية)؟ ففي هذه الحالة يتخذ المدافعون عن الحجاب في المدارس مبدأ الدفاع عن الحريات الشخصية كحصان طروادة لغزو كل حصون خصومهم؛ حيث يقولون: إن الدفاع عن حرية لبس الحجاب هنا هو في صميمه دفاع عن مبدأ الحريات الشخصية؛ وليس مجرد دفاع عن دين أو معتقد. فاحترام الاختيار الفردي وحرية كان دائما صمام أمان لقوة العلمانية والمجتمع الحر والديمقراطية.

يصف مناصرو الحجاب في المدارس خصومهم بأنهم بمثابة آيات الله العلمانية؛ أي أنهم أوصياء على تفسير النصوص العلمانية وتأويلها، بينما يصف مناهضو الحجاب في المدارس خصومهم بأنهم يختمون أهداف الأصوليين، ويعملون على زرع التفرقة في المدارس العلمانية بحجة الحريات الشخصية.

لا شك أن الحرية الشخصية أصبحت بين يدي كمامة من خلال رؤيتين، ككلاهما تعتبر أن العلمانية هي حجته في معركته؛ وهي درعه التي يحتمي بها، ويبدو أن المعركة لن تحسم بطريقة سهلة ومنصفة، وإن كان الرأي الأرجح بالنسبة للبعض هو أن قانون منع الحجاب في المدارس سيكون الحل الأنسب، ولكن النقاش يدور حول تفاصيل هذا القانون، ومدى صرامته وشموليته للرموز الدينية بصفة عامة؛ حتى لا يفهم الأمر على أنه موجه للمسلمين دون سواهم.

كثيرون يصفون إمكانية صدور قانون من هذا النوع بمذابة تراجع حقيقي عن مكاسب الحريات الشخصية التي أصلت لها الثورة الفرنسية؛ ولكن العديدين يذهبون إلى القول بأن الأمر أصبح محتملاً لحماية الأخطار والتحديات التي أصبحت تواجه القيم العلمانية، وخاصة أمام صعود التيارات الدينية بأنواعها، ولزاء ما يسمى بالغول الإسلامي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

لا أشك أن العلمانية الفرنسية تعرف هذه الأيام زلزالها الأول الذي لم نعرفه منذ قرن من أحداثها، كنظام اجتماعي وسياسي، تعافت عليه الفرنسيون، وكان نتيجة تصحيات وثورة حزبية أدت إلى خلق مجتمع منفتح بدلاً من مجتمع الإقطاع.

غير أن الكثيرين يرون أن هذا الزلزال لن يكون إلا وقتياً؛ بعده ستترجع العلمانية قوتها وفتوتها وقدرتها على هضم المستجدات؛ لأنها كأيولوجيا مبنية أساساً على فكرتي الاختلاف والحرية.

فعندما تضرب فكرتنا الاختلاف والحرية فإننا لن نكون بعينين عن النموذج السوفيتي أو النموذج الطائفي الذين حاربنا هذين المبدأين، وجعلنا من الحريات الخاصة ملكاً للتولية باسم قسرية الحريات العامة والمصالح العليا للوطن، فبداية السقوط لأي فكرة -مهما كانت- تبدأ عندما يشعر المواطن أن حريته واختياره أصبحت تملأ عليه من خارج ذاته، وأن هذه السلطة التي

بقضية فيرية، لا يملك أمامها إلا الخضوع والانصياع؛ وهذا أحد معاني المقولة العمرية الشهيرة: متى استعبدتم الناس ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ التي يوازينا البند الأول من الميثاق العالمي لحقوق الإنسان الذي يقول في بنده الأول: تولد جميع الناس أحرارا.

7 - وضع المرأة العربية المهاجرة في فرنسا:

جميعنا سمع عن العنصرية الأمريكية في حقبة الستينيات، ولكن من سمع عن العنصرية الفرنسية في بداية القرن الحادي والعشرين؟! جميعنا سمع عن الديمقراطية الفرنسية وعن حرية المرأة، ومساواة المرأة بالرجل، ولكن من سمع عن الوضع السيئ الذي تعيشه المرأة العربية في فرنسا، واضطهادها في العمل والسكن وفي الحياة العامة؟

تعتبر العنصرية الفرنسية أشد الصعوبات التي تعانيها المرأة العربية المهاجرة رغم حصولها على الجنسية الفرنسية؛ فقد أشار استطلاع للرأي أجرته اللجنة القومية لحقوق الإنسان عام 1999 إلى أن 69% من الشعب الفرنسي يمارس التمييز العنصري ضد الأجانب خاصة النساء، وإلى أن سبعة فرنسيين من كل عشرة أكدوا أنهم مارسوا العنصرية ضد المرأة الأجنبية. كما أكد 61% من المفترعين أن 75% من السكان العرب يتعرضون لتهديدات وأعمال عنف ذات طابع عنصري.

يؤكد "ماليك بوتيج" رئيس جمعية SOS المناهضة للعنصرية في مجلة "هي" مارس 2000 أن العنصرية ضد المرأة انتشرت في جميع المجالات، مثل: التعليم، والوظيفة، والسكن، والحياة اليومية، وفي جميع قطاعات الشعب. كما يؤكد ماليك بوتيج أن البطالة قد ارتفعت وسط النساء من جنود عربية إلى ثلاثة أضعاف؛ فقد ارتفعت من 10% إلى 30%، كما يحظر على النساء السود والعرب تمثيل أدوار تليفزيونية جيدة كشرطية مثلا أو طبيبة؛ فهناك أدوار للبيض وأدوار للسود.

كما تقول 'كات جان جوزيف' مديرة وكالة توزيع الفنانين في المسرح والسينما، كما تحرم كتابة اسمها على إعلانات الفيلم، وتضيف: 'إن الرجل الأبيض يعتقد أن الأسود لا يستطيع أن يلعب دوراً جيداً'.

فالمرأة الفرنسية ذات الأصول العربية مثلاً تحرم من العديد من الوظائف الجيدة رغم حصولها على مؤهلات علمية عالية تتيح لها ذلك، وكما تقول 'تورثي ورنر' و'كارولين ثورنث' في مجلة 'هي' (مارس 2000): 'إن المجتمع الفرنسي يرفض أن تكون المرأة العربية محصلة مالية في شركة، أو تعمل في وظيفة إدارية رفيعة؛ لأنه يراها في صورة خادمة في منزل أو عاملة في بارات أو ملاه ليلية'.

وتقول ياسمين -من أصل جزائري- في مجلة 'هي' (مارس 2000): 'كنت على وشك سرقة الطعام لأطفالي؛ لأنني لم أجد عملاً، وحين تقدمت لإحدى الوظائف اشترط مدير الشركة تغيير الاسم من ياسمين إلى كارين، وقد فعلت، ومع ذلك فابني أعاني من المعاملة السيئة من زميلاتي؛ لأنني عربية فطرة -كما يقولون-'

ويرفض الفرنسيون ديناميكياً قبول النساء العرب في العمل؛ حيث يؤكد 'فريدريك لبيبيل' -مسئول مشروع تسهيل العمل للشباب المتعلم- في نفس المصدر السابق أن الديناميكية المرسومة في عقول أصحاب الشركات هي أن المرأة العربية المسلمة مهملة في عملها؛ لأنها تحب إنجاب كثير من الأطفال خاصة إذا تزوجت رجلاً مسلماً، وتتعلق كثيراً بأسرتها؛ لذا ينتهي بها الحال للبقاء في المنزل.

وفي مجال السكن ذكرت مجلة 'العلوم الإنسانية' في فبراير 1997 أن مجموعة من الدراسات التي أجريت عام 1992 أثبتت وجود ممارسات عنصرية ضد المرأة العربية في مجال السكن؛ فمن الصعب إيجاد شقة تعيش فيها، وهو ما أنتج شعوراً بالظلم وفقدان الثقة في الدولة الفرنسية التي تتنادى بمبدأ الحرية والمساواة والإخاء لكل الإنسانية، ويرفض الشعب الفرنسي قبول العرب والسود في مساكنهم، في الوقت الذي تدفع فيه النساء المغاربية والأتراك ثمناً مضاعفاً للسكن فضلاً عن المعاملة السيئة من جيرانهن.

وفى النواحي الاجتماعيه يعامل المجتمع الفرنسى المرأة العربيه بنوع من الاحترار والحساسيه؛ فنقول سكينه فى مجله 'هى' (مارس 2000)، وهى متزوجه من رجل أبيض: كنت الوحيدة السمراء فى هذا الحي الرافى، وقد دعيت إلى حضور اجتماع، وقد نظرت إلى النساء باحترار لىمترى السمراء. وعندما أذهب للمدرسه لأصطحب أطفالى بسألتى العامل كاتى خادمة جاءت تأخذ أطفال سيدها. ويصعب على النساء شراء حاجتين اليوميه -كما يقول فريدريك نيبيل- بسبب إهانات رجال الإدارة. كما يصعب أن يقف ليا ناكسى يقلباً حتى نهاية الشارع، فضلاً عن تواجد لافتات تقول: ممنوع تواجد العرب هنا.

1/عنصريه داخل وخارج الحدود:

وقد امتتت العنصريه الفرنسيه إلى حرمان المرأة المسلمة من ارتداء زيبها الإسلامى الذى يتمثل فى الحجاب، خاصة فى المؤسسة التعليميه التى ما زالت تتمسك بالمفهوم الحازم للعلمانيه؛ حيث ترى ضرورة التخلص من الإشارات الدينيه التى تتعارض مع العلمانيه، وذلك ليس فى داخل فرنسا فقط وإنما خارجها أيضاً، فى الوقت الذى أكد فيه مجلس الدوله عام 1989 أن المظاهر الدينيه الإسلاميه لا تتناقض مع العلمانيه.

منعت العديد من الفتيات المسلمات داخل فرنسا من الذهاب إلى مدارسهن بسبب ارتداء الحجاب الإسلامى. كما ذكرت جريده 'لومنت ديلوماتيك' 2001 أن مجلس العلاقات الإسلاميه الأمريكى تدخل لدى القنصليه الفرنسيه فى شيكاغو لصالح امرأه مسلمة ترتدى الحجاب فى صورنيا الموجوده على جواز سفرها. وفى مصر أيضاً منعت المدرسه الفرنسيه بالإسكندريه دخول فتاة ترتدى الحجاب للمدرسه رغم صدور حكم قضائى يبيح لها دخول المدرسه، ولكننا العنصريه الفرنسيه الممتدة خارج البلاد.

ويرجع تنامي العنصريه إلى القصور فى تطبيق القانون رغم تشديد العقوبات ضد كل من يمارس التمييز العنصرى. وكما تقول 'تورشي ورتز' و'كارولين لورنتس' فى مجله 'هى' (مارس 2000): إن مادتى القانون المدنى 225-1 و 225-2 نصًا بنفع غرامه تقدر بـ 200 ألف فرنك فرنسى وقضاء

عامين في السجن ضد كل من يمارس التمييز العنصري. ولكن يكمن التصور في صعوبة إحضار الدليل؛ فلا أحد يرفض تعيين موظفين عرب أو تسكينهم بوزارة مكتوبة!

2/ الحياة الأسرية للعرب في فرنسا:

تميزت المرأة العربية بالخصوبة العالية على عكس النساء ذوات الحذور الأوروبية، كما أشارت مجلة العلوم الإنسانية في فبراير 1997 إلى أن معدل الإنجاب للمرأة من حذور شمال إفريقيا ارتفع من 2-3 أطفال عام 1981 إلى 2-8 أطفال عام 1991، كما ارتفع متوسط عمر الأمومة وأصبح مساوياً مع نظيره عند المرأة الفرنسية.

يفضل المسلمون ارتباط النموذج العائلي الأسري والعدالة بين الرجال والنساء، وإتاحة الحرية للمرأة عند الزواج، وفي الوقت الذي ما زال يفضل الرجل الاحتفاظ بعاداته الشرقية والسيطرة على الأسرة، فإن المرأة تعتبر أكثر انفتاحاً عن الرجل على المجتمع. وتخشى المرأة تأثير الثقافة الفرنسية على أطفالها؛ لذا تقول فاطمة في مجلة لوتوفيل أبزرفاتور "22-28 فبراير 1996: نحن الآباء نشاهد القنوات الفضائية المغربية والجزائرية والمصرية، بينما يفضل أطفالنا مشاهدة القنوات الفرنسية". وتصيف سامية من أصل تونسي: إن أطفالنا هم أطفال فرنسا، ورغم أن هؤلاء الأطفال مسلمون ويحافظون على الشعائر الدينية فإنهم يفضلون الثقافة الفرنسية، كما أصبح يتحدث باللغتين العربية في المنزل فقط.

وتزايدت أنشطة المرأة المغربية في الفواحي الاجتماعية خلال العشرين عاماً الأخيرة، كما تشير مجلة العلوم الإنسانية في فبراير 1997 إلى أن أنشطة المرأة المغربية ارتفعت من 8.4% إلى 36.6%.

وفي مجال الشعائر الدينية تحافظ المرأة العربية على الصلاة والصوم خاصة في رمضان، وغالباً تذهب لصلاة الجمعة والعيد بصحبة أزوتها، وكما تؤكد مجلة لوتوفيل أبزرفاتور "أن النساء يصلين في زوايا خاصة بين في المسجد أو خلف الرجال، كما يحافظن على حضور محاضرات تفسير القرآن الكريم والأحاديث في المسجد. كذلك تكثر المنازل النسائية التي تقدم النصائح

الدينية والتربوية والقضائية والعلاجية للنساء المسلمات. ويعتبر أشهر هذه المنازل "منزل ماليكه" الذي نشأ عام 1993، وتجمع فيه النساء المسلمات بهدف التساؤل حول فقه الصيام وتقديم النصائح المختلفة.

3/ قانون الأحوال الشخصية:

منذ أن بدأت الدولة الفرنسية محاوّلانيا في إندماج المهاجرين العرب في هويتها القومية برز قانون الأحوال الشخصية الخاص بتنظيم العلاقات الأسرية والمدنية للمسلمين في فرنسا، وتم تحديد هذا القانون حسب دستور 1958 في المادة 75 التي تنص على "أن مواطني الجمهورية المسلمين الذين هم من جنور مصرية يتبعون القانون المصري، مع تدخل قليل من القانون المدني العام بهدف الدفاع عن حقوق النساء والمساواة".

وقبل إقرار هذا القانون اتبع القضاء الفرنسي تطبيق نظام "حالة بحالة" - كما تقول سعيدة راحال في مجلة كانترا 1995 - بهدف حل الصراعات الأسرية دون أن يكون هذا الحل متفقاً مع بلد المنشأ. وعند النظر إلى هذا القانون فإننا نترك عدم المساواة بين المرأة من أصل فرنسي والأخرى ذات الأصل العربي.

الطلاق المعلن في فرنسا لا يمكن أن تصدق عليه محكمة فرنسية، ولكن يجب أن يسجل في البلد الأصلي. في عام 1983 اعترفت المحكمة الفرنسية بنوعي الطلاق الإسلامي، وأن الطلاق "اليسيط" أقل خطورة من الطلاق "النهائي"؛ حيث يستطيع الزوج رد زوجته مرة ثانية. وبالنسبة للميراث تقول سعيدة راحال: إنه في حالة حصر الإرث فإنه يخضع للقانون الفرنسي على عكس التشريع الإسلامي الذي يكون نصيب المرأة أقل من نصف نصيب الرجل. ويرجع ذلك لتدخل جماعات حقوق الإنسان.

وفي مجال الإرث تبرز بعض القضايا مثل قنوم طفل خارج الزواج أو طفل متبنى؛ قالتبني متاح في فرنسا. وما زال زواج المرأة المسلمة بغير المسلم زواجا ظنيا غير جائز في الشريعة الإسلامية، بينما سمح به القانون الفرنسي، ولكنه يحدث في حالات نادرة.

وبالنسبة لحضانة الأطفال، فقد سمح القاضي الفرنسي للمرأة المسلمة ذات الأصل الفرنسي فقط بتولي مسؤولية الحضانة وتربية أطفالها. بينما المرأة المسلمة ذات الأصل العربي فإن الحضانة تخص الرجل فقط أو أحد أقربائه منثما هو سائد في البلدان الإسلامية.

وقد حاولت بعض الاتفاقات -مثل الاتفاق الفرنسي الجزائري عام 1988 - تنظيم حرية انتقال وحركة الأطفال عبر الحدود مع بلدانهم الأصلية بجانب ضمان حق الأم الفرنسية في حضانة أطفالها إذا كانت متزوجة من رجل عربي. ونلاحظ أن هذه الاتفاقات في صالح الأميات ذوات أصل فرنسي، بينما الفرنسيات ذوات أصل جزائري أو عربي فلا ينطبق عليهن ذلك.

وفي النهاية، فإن كل امرأة تمتلك إحدى الجنسيات العربية فهي تخضع لقانون الأحوال الشخصية لهذه الدولة، والصعوبة أن هذه القوانين تُحرى عليها تعديلات بصور دائمة، وهي لا تدرى بهذه التعديلات، كما يجهل الجيل الثاني هذه القوانين ولا يتدرى بها إلا أثناء الصراعات الأسرية. لذا فمن الضروري إعداد قانون أحوال شخصية إسلامي يطبق على جميع مسلمي فرنسا دون النظر إلى جنسورهم الأصلية.

المراجع:

1. السباعي مصطفى * من روائع حضارتنا * - دار الصنيفية للنشر 1400 هـ - 1980 م - الجزائر.
2. الغزالي محمد * عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق * - دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة - الجزائر 1985 م.
3. رينوج * الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادي * تعريب وتعليق الحواشي وتقديم: إسماعيل العربي - دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر - الطبعة الأولى 1984 م.
4. مجلة الدعوة، العدد 1136 أبريل 1988 - الرياض.
5. روى مغايرة، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، مايو 1997م.
6. مجلة البيان عدد 36.

7. مجلة المختار الإسلامي نوفمبر 1987م.
8. جريدة الشفق الجديد التركية.
9. إحصائيات قدمت في المؤتمر الذي عقد خلال شهر مارس 1988 في القاهرة حول القوي البشرية في الوطن العربي، مجلة الدعوة - العدد 1136 أبريل 1988 - الرياض.
10. جوزيف رينو "الفنوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر ميلادي".

من أسلم من أهل الغرب حديثاً أراء وافاق

الدكتورة انكه بوزنيته

كلية العلوم الإجتماعية والعلوم الإسلامية. جامعة ياتنة

لا توجد أرقام رسمية ثابتة وموثقة عن عدد المسلمين في الغرب، وأنا أقصد البلاد الأوروبية والولايات المتحدة. وتتراوح الأرقام المذكورة بين 13 أو 14 إلى 20 مليون مسلم في أوروبا و6 ملايين في الولايات المتحدة(1)، ولعل العدد الحقيقي أكبر، لأن الإحصاءات غير دقيقة في هذا المجال. ومن المعروف أن معظم هؤلاء المسلمين المقيمين في أوروبا جاءوا في إطار الهجرة من المستعمرات السابقة أو للعمل في مصانع الغرب أو للدراسة في الجامعات الغربية. أما الولايات المتحدة، فلا يفرق بين الساكن الأصلي والمهاجر من حيث تاريخ البلد، وللمعظم المسلمين جنسية البلد (2).

من المعروف أن الإسلام هو الدين الأسرع نمواً في العالم، وقرن عدد المسلمين الجند في العام 1999 بـ 135000 شخصاً سنوياً في الولايات المتحدة فقط، وارتفع هذا العدد كثيراً في السنتين الماضيتين(3). أما أوروبا، فتسجل البلديات البريطانية اسم "محمد" للمولودين أكثر من أي اسم آخر، وأعلنت الكنيسة الإنجليزية تخوفها من انخفاض عدد التابعين لها أمام عدد المسلمين إن استمرت حركة الدخول للإسلام(4).

فيعض الأسماء لأعيان الغرب الذين أسلموا من خلال القرن الماضي معروفة: كمحمد أسد، ناصر الدين دينية، يوسف إسلام، مراد هفمن، روحية جارودي وغيرهم. فقد وجد هؤلاء اهتماماً كبيراً لشهرتهم في المجتمعات الغربية وتفوقهم في مجال العلم والفن والثقافة قبل إسلامهم وبعده. وفي الحقيقة، فقد كان هناك دائماً عدد معين من أهل الغرب الذين سخرت لهم الفرصة للتعرف على الإسلام والذين دخلوا الإسلام عبر التاريخ، ولكنها بقيت حوادث فردية بالنسبة للحركة المعاصرة. أما مجموعات المسلمين المعاصرين من أصل غربي، فقد

من أسلم من أهل العرب حديثاً - آراء وأفاق

اعتبرت أفتية من بين الأقلية المسلمة ولم تواجه اهتماماً كبيراً إلا في السنوات الماضية لما كثر عدد الداخلين في الإسلام مع زيادة مترامنة في الأزمات الدولية التي جذبت أنظار أهل الغرب إلى الإسلام.

ويواجه هؤلاء المسلمون الجدد أسئلة ورغود أفعال من طرف الغربيين تتيم عن استغراب وعدم استيعاب لهذه الظاهرة:

وما الذي يجعل إنساناً تربي، في نظرهم، على الثقافة والحزبية الغربية، يقتنع بهذا الدين الغريب والمتعصب والمتخلف، وخاصة النساء منهم؟ ويشرح كثير من المسلمين الذين ولدوا من والدين مسلمين وتربوا على الإسلام هذا السؤال: كيف وجد هؤلاء الطريق إلى الحق رغم البيئة التي يعيشون فيها، ورغم الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين، ورغم الواقع الاجتماعي اليوم؟ يحاول هذا المقال الإجابة على بعض الأسئلة حول المسلمين الجدد في الغرب من حيث:

أ - الصورة المهيمنة من الإسلام والمسلمين والتي تمثل الحاجز الرئيسي للتعرف على حقيقة الإسلام، جذورها ووظيفتها في الواقع الاجتماعي للبلاد الغربية.

ب - الأسباب والبواعث التي تجعل الإنسان يتجاوز هذه الصورة وأحكامه المسبقة، والطرق والظروف التي تؤديه إلى دخول الإسلام، ولا يتناول هذا الفصل مسألة الهندي والضلال وإنما اقتصر على أحوال الإنسان المباشرة.

ج - تبادل الحضارة، ويتناول هذا الفصل: أولاً، ردود أفعال في البيئة المحيطة. وثانياً، التنق في الدين الإسلامي، أفاق وإشكاليات.

د - الخاتمة: مكان المسلمين الجدد في الأمة الإسلامية.

و استعنت من خلال البحث بسير ذاتية لبعض المسلمين الجدد نموذجاً (5).

أ - صورة الإسلام في الغرب، جذورها ووظيفتها

تمهيداً للعناية بأسباب النحول للإسلام، لا بد من بعض الكلمات حول واقع المسلمين في الغرب، ولا أريد أن أعالج وضعية المسلمين في الغرب ذاتياً من حيث ظروفهم السياسية والاجتماعية، بل من حيث إنراكيهم من قبل المجتمع و الرأي العام وتأثير هذا الإدراك على واقعهم. تمثل الصورة السبينة للإسلام والمسلمين في الغرب جزءاً مهماً من هذا الواقع الذي يواجهونه يومياً: قبلي

معاملة غير المسلمين تجاه هذه الأقلية المسلمة في العلاقات الشخصية والإدارية والقانونية والتعليمية ومؤسسات الحياة العامة في إطار التعامل على مفاهيم خاطئة ومتعصبة. ما هذه الصورة، وما وظيفتها؟

البحوث حول صورة الإسلام في الغرب من تأليف المسلمين وغيرهم متعددة(6)و. يتفق في أن لصورة الإسلام في الغرب جذورا تاريخية عميقة وأسبابا ووظائف معينة. يذكر الدكتور عبد القادر طاش في كتابه "صورة الإسلام في الإعلام الغربي أن المراحل التي مرت بها العلاقة التاريخية والحضارية بين عالم الإسلام والغرب أربع، وهي: 1- الفتوحات الإسلامية عبر البحر المتوسط، 2- الحروب الصليبية، 3- الغزو الاستعماري، 4- المرحلة ما بعد الاستعمار(المباشر)(7).

ويبدو أن الصورة السينة عن الإسلام نشأت لما طيز الإسلام كمنافس للكنيسة، وعندما اعتبر المسلمون بربرا متوحشين داخلين البلاد الأوروبية ووبأ من أوبئة الزمن بدأ رجال الكنيسة والأمراء الأوروبيون يرسمون صورة الإسلام كتشويه ووسواس السحر مع نمو أهمية الإسلام عالميا(8). وزادت هذه الصورة تشويها وحدة لما بدأت الحروب الصليبية، فخطبة البابا أوربان سنة 1095 ميلادية بمناسبة ما أعلن به تحرير البلاد المقدسة من أعداء المسيح معروفة لنشر الحقد على الإسلام والمسلمين وتحريف الحقيقة التاريخية(9)، ولم تقف هذه الصورة حيوتها في الأدب والاعاني والتخصص الأمثال الشعبية، وظلت في عمق ذاكرة الشعوب الأوروبية إلى اليوم. هذا ولم تختلف هذه الصورة عند الفرق المتنوعة في تاريخ الفكر الغربي: فقصور لوتر، مصلح الكنيسة الكاثوليكية، ومؤسس الكنيسة البروتستنتية، لا تقل تشويها وحدة عن صورة الآخرين. وهو الذي وصف المسلمين كقوم ليست لهم قابلية الهدى قط(10).

ومن الملفت للنظر أن الغرب حافظ على هذه الصورة السينة التي أصلها عند رجال الكنيسة والأمراء المسيحيين حتى بعد تدهور قوة الكنيسة وتفصال الدين عن الدولة، ورغم التغيرات الجذرية التي مرت بالمجتمعات الغربية حضاريا وثقافيا وسياسيا. ولا يختلف رأي ولثير وهو صاحب "الاستنارة الغربية" اللادينية مثلا عن صورة الكنيسة التي قام بهجومها، ويختلف هذا التشويه تماما عن محاولات تشويه صور شعوب أو أديان أخرى(11). وهذه ظاهرة إنسانية فريدة من نوعها بلا شك(12).

قد بحث الدكتور إدوارد سعيد في هذه الصورة ووظيفتها من خلال الثقافة الغربية ووجد أن مجموعة الصور والأراء تُجاد الشرق والإسلام عبارة عن بناء شرق متميز يعنف وعدم العقلانية والسيوآت لا وجود له في الحقيقة التاريخية، وأن هذه الصورة استعملت لتبرير أغراض استعمارية(13).

فالوظيفة التاريخية لصورة الإسلام في الغرب واضحة. ومن الملفت للنظر أن هذه الصورة بدأت تعود وتنتشر بقوة في السنوات الماضية ابتداء من سقوط الاتحاد السوفييتي والغاء الشيوعية كقوة في النظام الدولي، ثم زادت سيطرة على الرأي العام بعد حرب الخليج الثانية، ونالت قمة قسوتها بعد 11 سبتمبر 2001 (حادث مسكوك في فاعله إلى اليوم) وعندما وجد نوع من الموضوعية في بعض دوائر المنقذين رجعت معادلة مسلم يساوي إرهابي إلى ذاكرة الشعوب الغربية وحتى إلى أعمال وأقوال كثير من المنقذين. فنظرت المناقشة بين منقفي العرب والشرق في إطار آراء فوكوياما عن تفوق الحضارة الغربية ونهاية التاريخ بفوزها على الحضارات الأخرى وآراء هنتجتن عن صراع الحضارات، وأصبحت هذه الآراء عبارة عن لفظ مشترك وجدول لبناء النقاش في الثقافة الغربية الحالية مما يتضح لزميتها الفكرية أكثر من أي تطور في محاولة فهم الحضارات الأخرى ومنها الحضارة الإسلامية. ويقول المسلم الألماني الأصل، مراك هفمن، إن هذه نوعية التفكير وهو ينقش العبارة:

خطر أن نقل العالم الإسلامي على-Huntington- Fukuyama Syndrome إلى شبه حذقة الحيوانات أو منطقة قليلة الأهمية متميزة يتخلف وحماس وتعصب(14). ويحاول آخرون كسب التوازن وتحقيف المواجهة بفكرة حوار الحضارات، غير أن هذا الحوار يبني على مقاييس وقواعد منبثقة عن الحضارة الغربية ولا يخلو من فكرة تفوقها وهدف انتشارها، ومن أسباب انمو في استعمال الصورة المشوهة والأحكام المسبقة السيئة عن الإسلام في الغرب في المدة الأخيرة:

أولاً، تعاني المجتمعات الغربية من أزمة اقتصادية، اجتماعية وأخلاقية، مما أدى بكثير من المفكرين الغربيين إلى مناقشة الأزمات المعنوية بمعنى أن معظم السكان فقدوا قيمهم الاجتماعية وأنهم يهتمون بالقيم المادية ومتابعة مصالحهم الشخصية فحسب - من غير اعتبار للأثار والنتائج على المجتمع، ونشأت هذه

الظاهرة من عدم وجود قيم روحية. أما الكنيسة ودورها كضمان القيم الروحية والأخلاقية في الغرب، فقد فقدت الثقة عند الناس إما لأن تعاليمها غير عصرية، وإما لأنها عصرية جدا في تابعة الرأي العام وفي تغييرها المستمر لعقائدها الأساسية؛ فإذا أخذنا آراء الكنيسة حول تزواج زوجين من نفس الجنس نموذجا، وجدنا أن الكنيسة البروتستنتية وجزء الكنيسة الكاثوليكية أصبحت تبيح وتنفذ هذا الأمر، وهو أمر مستحيل تصوره قبل 50 سنة.

ثانيا، إن المجتمعات الغربية وجدت في الإسلام والمسلمين بديلا للتبعية بعد سقوط الاتحاد السوفييتي في وظيفة العدو الخارجي. تقول باحثة ألمانية، أندريا لوج، إن المجتمع الغربي يحتاج إلى صورة عدو خارجي لتحديد وتعريف هويته (15). أما الإسلام، فإنه يمثل هذه الوظيفة اللازمة للغرب في التاريخ، وتوجيه الرأي العام إليه بناء على الحكم المسبق المنتقل من الماضي أسلوب سهل والرجوع إليه متوفر.

وقد وصف العالم الألماني المشهور في علم الاجتماع، ماكس WEBER، في بداية القرن العشرين الميلادي ومع ظهور الشيوعية هذه الإيديولوجيا بإسلام القرن العشرين — مما يتضح سهولة التبدل.

ولا يوجد في هذه الظروف الاجتماعية وفي هذه الأزمات المعنوية مع عدم وجود حلول جذرية علاج أنسب من انعكاس مشاكل المجتمعات الغربية على الغير أو الغرب، والإسلام يمثل هذا الغير.

ونأخذ في هذا الصدد المناقشة حول المرأة في الإسلام نموذجا؛ فمن الملفت للنظر أن اهتمام الغربيين تركز من بداية الهجوم الفكري الاستعماري على المرأة في الإسلام وكم هي مظلومة وبغير حقوق ومصيق عليها بلباسها الغريب البخ. وتذاع صورة مزيفة عن المرأة والعلاقات الاجتماعية في الإسلام. ولا يوجد بحث في مفاهيم وأحكام الإسلام بناء على المراجع الأصلية. وفي الحقيقة، يصرف هذا المنطق الأعوج عن التفكير العميق والمناقشة الجادة حول المرأة وواقعها في البلاد الغربية، وحول عدم التسوية في الحقوق القانونية والاجتماعية وتاريخ اضطهادها في الغرب؛ فينسى انعكاس صورة المرأة المظلومة في الإسلام وضع المرأة الغربية واستغلالها لأغراض مادية. وينسى أن المرأة في الغرب لم تكتسب حقوقها المدنية الأساسية، مثل حق المشاركة في الانتخابات، وحق التعليم العالي وحق التصرف على أموالها بغير وصي إلا بعد معركة مستمرة وفي بداية القرن

العشرين فقط. هذا بالنسبة لواقع المسلمين في الغرب من حيث الصورة المهيمنة التي تحكم معاملة غير المسلمين لهم. ولا بد أن الافتتاح بالإسلام من قبل شخص شرب هذه الصورة المشوهة مع حليب الأم عبارة عن تجاوز عراقي كبير وعقبات كثيرة.

ب - تجاوز الأحكام المسبقة

من الثابت في النصوص الشرعية أن الإنسان يولد على فطرة الإسلام. قال تعالى: فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم (الروم 30) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودونه أو ينصرانه أو يمجسانه" (16). وعلى ما الأساس، نجد أن المسلمين الجدد يفضلون اسم "الراجع" على كلمة "الداخل" (convert/revert). للإسلام يعني الراجع إلى الإسلام كدين الفطرة ومن الثابت أيضا أن التساؤلات في الكون ومن خلقه وما كان قبل الحياة وما سيكون بعد الموت وهدف الحياة تساؤلات متباعدة عن هذه الفطرة. وبالتالي، نجد نماذج للباحثين عن الحق في التاريخ الإنساني بأكمله. غير أن من الواقع الاجتماعي في الغرب أن هذه الفطرة مغطاة ومغيرة بعوامل كثيرة (الاهتمام الكبير بعالم الغرائز والشهوات: أفلام، ألعاب، موسيقى، الجنس، الثروة المادية...) وهذه الأمور تبعد الإنسان عن التأمل والتفكير في بيئته ومن خلقها، وما هدف حياته وما بعد الموت؟ فلا بد من عوامل تساعد على إزالة هذا الغبار وتجاوز هذه العرقلة الرئيسية.

وكثيرا ما بدأت هذه العملية بنقد المجتمع من خلال البحث عن الحق في بعض القضايا: كالتركيز على القيم المادية مثلا، أو العنصرية، أو استغلال المرأة لأهداف مادية، أو التناقضات في العقائد المسيحية أو عدم تطبيق التعاليم المسيحية من قبل مؤسسة الكنيسة وغيرها من التناقضات التي تتسم بها المجتمعات الغربية. غير أن هذا النقد يبقى بلا تغيير جذري أو هدف لعدم الجواب الصحيح: ولعل ترك المسيحي بيئته تماما أو تدينه ظاهريا وأنكر عقيدة التثليث باطنيا، ولعل للمرأة الواعية باستغلال النساء تختار أن تصارع لتحرير المرأة. ولعل فقدان الروحانية يؤدي إلى التوجه نحو فلسفات أسبوية. فلا بد من نقطة احتكاك تربط بين الإنسان المتأمل الباحث وبين الإسلام كجواب صحيح.

ويتبين من خلال السير الذاتية لبعض المسلمين الجدد أن هذه النقطة يمكن أن تتجسد في احتمالات متنوعة: فيمثل السفر إلى البلاد الإسلامية نقطة احتكاك ممكنة نظرا لكثرة السواح الغربيين، والكثير وجد الطريق إلى الإسلام من سماع الأذان وتلاوة القرآن ومشهد صلاة الجماعة. أما في الغرب ذاته، فيساعد التعرف على فرد مسلم أو مسلمة في إطار العمل أو الدراسة أو مكان من الأمكنة، وعلاقة شخصية متواصلة أو لمحّة/حادثة معين مع مسلم على إلغاء أو التثبّت في الآراء المسيقة. ويتناول هذا الاحتمال أيضا الزواج بين مسلمين وكنائيات في البلاد الغربية كفرصة للتعرف على الإسلام. ويبدو أن المثل الحسن والصحيح لتطبيق الإسلام يؤدي في كثير من الحالات إلى دخول الإسلام، مما يثبت القول أن كل مسلم وكل مسلمة في الغرب بمثابة سفير لدينه.

و من الثابت في التاريخ أن بلدانا كثيرة أسلمت بناء على قوة حسن المثل والمعاملة، إذ دخل الإسلام إندونيسيا وإفريقيا جنوب الصحراء عن طريق تجار مسلمين، ولم تشهد تلك البلدان فتوحات عسكرية، وحسن إسلام أهل هذه البلاد.

وهنا لا بد من ملاحظة في هذا الصدد: وأنه كثيرا ما استندت الصورة المشوهة إلى واقع المسلمين أنفسهم وسوء أخلاقهم وسوء تطبيقهم للإسلام: ولكن هذا القول يصح جزئيا فقط. صحيح أن الظواهر السيئة موجودة ومتعددة، ولكن، أولا، لكل إنسان قدرة التفرقة، وإذا وجد المثل السيئ، وجد المثل الحسن أيضا. ثانيا، انتشرت الصورة المشوهة في التاريخ والإسلام مطبق أحسن التطبيق.

و يبدو أن إدراك الإسلام في الغرب إدراك انتقائي سلبي بمعنى أن الرأي العام يدرك الجزئيات التي توافق أحكامه المسيقة السيئة ولا يدرك الجزئيات التي تعارضها، ولو كانت متجسدة لقواعد وأحكام الإسلام ومنتيقة عنها. وينحرف هذا الإدراك بالإنسان عن رؤية الصورة الصحيحة حتى وجد مخرجا من الرأي العام. ويبدو أن الاهتمام بالإسلام ازداد بعد حواث 11 سبتمبر، وسجلت المساجد والمراكز الإسلامية عددا كبيرا من المسلمين الجدد الذين جعلهم الحادث يبحثون لأول مرة عن حقيقة هذا الدين، وأعلنت المكتبات في الغرب أن ترجمات معاني القرآن قد بيعت تماما لكثرة الاهتمام والرغبة في البحث. وسمت الباحثة Jocelyne Cesari الفرنسية (17). هذا جذب الانتباه بـ"عامل بن لادن".

من أسلم من أهل العرب حديثا - آراء وأفاق

أو وكيف إذا وجد الإنسان الطريق من هذا التأمل الأولي إلى الاعتقاد أن الإسلام هو الدين الحق والحل لعقده الكبرى ؟

فلا بد أن هناك عملية فكرية يسبقها البحث عن الإسلام وعقائده وثقافته والمقارنة بين واقع المجتمع الغربي أو تعاليم الدين المسيحي أو أي دين آخر وبين الإسلام. وكثيرا ما بدأ هذا البحث كبحث علمي والقراءة لترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأوروبية كبحث في مقارنة الأديان.

و يعلن كثير من المسلمين الجدد أن ما أدهم إلى الاعتقاد بالإسلام أمور منها:

1- أنه لا يوجد في الإسلام تناقض بين العقيدة والعقل، وأن عقيدة التوحيد في الإسلام واضحة بلا تشويه.

2- أن الإسلام يتمثل بعقيدة ونظام للتطبيق، أو بإيمان وعمل، وأنه لا يبقى فلسفة نظرية.

3- أن الإسلام يوافق الفطرة.

4 - أن الإسلام لا ينقصه شيء، وأنه لا يحتوي على أي شيء لا ضرورة أو سبب له.

5- أن الإسلام رسالة عالمية هادفة في أي مكان وزمان.

ويقول محمد أسد، المسلم النمساوي الأصل المشهور في سبب دخوله الإسلام: لماذا اعتنقت الإسلام؟ يجب أن أعترف بأنني لا أعرف جوابا شافيا، لم يكن الذي جذبني تعليما خاصا من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع والعجيب والمنزامي بما لا نستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الخلقية بالإضافة إلى مناجاة الحياة العلمية. لا أستطيع أن أقول: أي النواحي قد استهوانني أكثر من غيره. فإن الإسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة، وكل أجزاءه قد صيغت ليتم بعضها بعضاً، ويشد بعضها بعضاً، فليس هناك شيء لا حاجة إليه، وليس هناك نقص في شيء ففتح عن ذلك كل اختلاف متزن مرصوص. ولعل هذا الشعور من أن جميع ما أتى به الإسلام من تعاليم وفرائض قد وضعت مواضعها هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي. (18) والإنسان في الإسلام غير مجبر على أن يرفض الدنيا، وليس ثمة حاجة إلى تكشف يفتح به الإنسان باباً سرياً إلى النهر الروحي، فالإسلام

ليس عقيدة صوفية ولا هو فلسفة ولكنه نهج في الحياة حسب قوانين الطبيعة التي
سناها الله لخلقها. (19)

ج - تبادل الحضارة:

أولاً: ردود أفعال في المجتمع

يبدو أن نطق الشهادتين نتيجة طبيعية بعد فترة البحث والتساؤل
والمناقشة. وتبدأ هذه العملية كتغيير نفساني داخلي بغير أو قليل من الانتباه أو
الاهتمام من قبل البيئة المحيطة. غير أن تطبيق الأحكام الأساسية من طرف
الشخص تظهر التغيير الجذري الذي وقع: للتغيير في السلوك الشخصي، التوقف
عن تناول المحرمات: لحم الخنزير والخمر خاصة، ولفظ أنظار العائلة والزملاء
والأصدقاء. ويتم بنطق الشهادتين وتطبيق الإسلام في الحياة اليومية الخروج من
العقيدة والحضارة والثقافة السابقة وبيدأ الدخول في حضارة وثقافة أخرى .

ولقرار تبادل الدين والحضارة نتائج متجسدة في ردود أفعال البيئة
المتمسكة بأحكامها المسبقة والتي لم تتم ولا تفهم هذا التطور. ويتبين من روايات
المسلمين الجند أن ردود أفعال هذه تختلف وتتنوع من تجاوزات مادية إلى قطع
العلاقة إلى مناقشات أو عدم العناية أو تدعيم أو العناية بمبادئ الإسلام
والاقتناع به. ونجد ردود أفعال البيئة ما بين قطبين: الرد العنيف

والمقاطعة، أو دخول الأقرباء الإسلام. (20)

ورغم أن مثل اللورد البريطاني الذي أعلن عن إسلامه في بداية القرن
العشرين (1913)، اللورد هنلي، استثناء في اختفاء هذا القرار، فإنه لم يعلن إسلامه
لمدة 50 سنة خوفاً من رد أسرته المربوطة بجنورها المسيحية(21)، فيحتاج المسلم
الجديد إلى مدة معينة ليبيان هذا القرار أمام نفسه وأمام الآخرين: فوجدت من بين
السيرة الذاتية رواية قيس سابقاً، الدكتور دركنس، الذي اعتنق العقيدة الإسلامية
لمدة وقضى الصلاة والصيام، ولكن، لما سئل إذا كان مسلماً، أجاب بأنه يؤمن بالله
ومحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، ولكنه ليس بمسلم.

و إنما نموذج مسيحي غير معتاد وظل ضمن هذه الحيلة النفسية حتى زار
الأردن — ولما سئل في الشارع: هل أنت مسلم؟ وهو غير متمكن من العربية، بقي
له الاختيار بين "نعم" و"لا" فقط، وأيقن من جوابه "نعم" وفي عدم وسائل لغوية
وحيل نفسية أنه كان فعلاً مسلماً(22).

ظل المجتمع الغربي متعجبا ومستغربا في وجه كثرة الغربيين الذين دخلوا الإسلام في السنوات الماضية، وخاصة النساء متيم، ووجد الموضوع اهتمام بعض دوائر البحوث العلمية، وهدفها، كما يبدو، تصنيف الظاهرة وإعطاء اسمها العلمي ومكانها في جدول ظواهر العصر، فتحاول الإجابة عن هذه الظاهرة الاجتماعية ضمن المقاييس العلمية الغربية. هذا في إطار العلم (23). أما في إطار المجتمع، فيجد المسلم الجديد نفسه في مكان الغريب في المجتمع الذي كان جزءا منه، وكثيرا ما يرى المجتمع الغربي المسلمين في حدود بلادهم نائبا عن العدو الخارجي ومعاوناً له، واستعملت عبارة "الجيش الخامس" للمسلمين المقيمين في الغرب، عبارة تاريخية نقلت للشيوخ الداعيين لهجوم النظام الرأسمالي في الغرب منذ نشأة الاتحاد السوفييتي.

وإضافة إلى ذلك، يعد المسلم الغربي الأصل في ذهن الجماعي الغربي حائنا للحضارة الغربية. وتقول مسلمة ألمانية الأصل في سيرتها الذاتية: "لم تعد ألمانيا وطني منذ اعتناقي الإسلام ديناً". (24) ويعد المسلم الجديد العوض في الطريق إلى جماعة أخرى — وهي الأمة الإسلامية وعالم أفكارها. يقول د. دركس: "إن من أسلم حديثا سوف يجد، بإذن الله، التضحية المتوقعة وغير المتوقعة ثمنا قليلا للعوض الذي يكتسب بها". (25)

ثانيا. التنقّف في الدين الإسلامي

يقضى الاعتقاد بالإسلام تعلم المبادئ الأساسية من اليوم الأول: ابتداء من العقائد وأحكام الطهارة وفقه العبادات واكتساب المعلومات الضرورية لقضاء الفروض، مما يتطلب جهودا كبيرة. ويتناول هذا التبادل للحضارة إمكانيات كبيرة وأخطار في نفس الوقت: أما الإيجابيات، فيستطيع المسلم الجديد تعلم مفاهيم الإسلام صافية بلا تشويه أو تحريفات تقليدية، ونظرا لكونه في عملية فكرية حيث بدأ طريقه إلى الإسلام عقليا، لن يرضى بأي كلام بغير دليل. وإذا كانت هذه العملية ناجحة من حيث أخذ التعاليم الصحيحة وتطبيقها، فينتج عنها مسلم واع وملتزم بإذن الله. بقيت مشكلة كيفية وأساليب التنقّف: وكيف يتعلم هذا الإنسان مفاهيم دينه الجديد حتى يتقنها إلى مستوى يمكنه من بداية جديدة؟ إذ أن مفاهيم الإنسان هي التي تحكم سلوكه؟

مشكلة اللغة:

يكون المسلم الجديد المثقف والمتربى على الثقافة الغربية ولغاتها وأساليبها بطبيعة الحال غير متمكن من اللغة العربية التي هي مفتاح الفهم الدقيق. فيكون مضطراً للتغنى في لغته الأصلية. ويشتمل هذا الواقع على إشكاليين: أولاً، معظم المراجع المكتوبة باللغات الأوروبية حول الإسلام يتألف غير المسلمين، وبالتالي، تختلف وجهة نظرها عن الرأي الإسلامي أو تنقص الموضوعية أو تعرض أفكاراً مغلوطة. وإن كثرت المراجع يتألف المسلمين في السنوات الأخيرة نظراً لكثرة الاهتمام بكل اللغات الأوروبية (و خاصة الإنجليزية التي أصبحت اللغة الثانية للمسلمين في العالم لعدد المسلمين الناطقين والمؤلفين بها)، فيحتمل قراءتها إشكالا، لأن كل لغة تعكس تاريخ ومفاهيم الناطقين بها، وإن ترجمة تلك المعاني من لغة وثقافة إلى لغة أخرى تفقد أصالتها.

وإن كان فهم غير الناطق باللغة العربية المكتسب بواسطة لغة أخرى صحيح وسليم في المبادئ، وإن كان ترجمة وشرح العقيدة الإسلامية معكن في كل اللغات البشرية ليساطتها ووضوحها ولكون رسالة الإسلام رسالة عالمية، فيبقى الفهم في كثير من الحالات التي تتطلب الدقة بمعزل عن كثير من الفرائض والصلات الثقافية الطبيعية التي تكون الفهم الشامل، ولو ظلت تلك الفرائض غير معتبرة وبتنظر الإحياء، ولكن الوسيلة إليها والمفتاح لفهمها موجود بواسطة اللغة العربية. فيشبه تحويل المفاهيم الإسلامية من اللغة الأصلية، لغة الوحي، إلى لغات غير المسلمين عمل المصفاة أو الغزيلة التي تسمح لبعض المعلومات بالخروج وتمسك بعضها الآخر وتفقدنا للقارئ.

وهذه المشكلة محسوسة بالنسبة للمسلم غير الناطق بالعربية مثل الفارسي أو التركي أو الباكستاني أو الماليزي — مع الفرق المحسوس أيضا لن لغات هؤلاء تغيرت منذ دخول تلك الشعوب الإسلام بعملية الاندماج إلى الأمة الإسلامية، واستعارت كثيرا من العربية من الألفاظ والمصطلحات مما يسهل للناطقين باللغات التركية والفارسية والأردنية والماليزية الوسيلة إلى فهم أرق من الفهم المكتسب بواسطة اللغات الغربية. وساهمت الشعوب غير العربية في بناء الحضارة الإسلامية بعد عصر الفتوحات، مما ترك أثارا في لغاتهم وفي اللغة العربية أيضا. أما اللغات الغربية، فظلت وسيلة التعبير لحضارة غير الحضارة الإسلامية. وساهمت في تاريخ غير التاريخ الإسلامي، ونجدها بطبيعة الحال ناقصة للتعبير

المناسب عن بعض المفاهيم والأفكار والألفاظ والاصطلاحات، إن الصعوبة في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغات أجنبية معروفة، ومن أسباب ذلك أن اللغات غير العربية لا تعادلها في قوة تعبيرها وثروة ألفاظها.

وهل طرحت مشكلة المسلمين الجدد في تبادل المفاهيم الأساسية التي تبني عليها الحضارة في التاريخ؟ في الحقيقة، سجل التاريخ عدداً كبيراً من المسلمين الجدد من أصول وجنسيات وأديان ولغات مختلفة في عصر الفتوحات، ولم ينقل إلينا أن هؤلاء وجدوا صعوبات في اكتساب المفاهيم الجديدة، ولكنهم، بالعكس، اندمجوا في الحضارة الإسلامية ولقنوا العربية مثل أبناء جلدنا بعد قليل. واندمج الفرس والأمازيغ والنوبة والروم في الأمة الإسلامية الناطقة بالعربية.

ولعل هناك آلية أصيلة للحضارة الإسلامية عبارة عن أفكار أو أحكام أو نظم معينة تسهل عملية الاندماج، ونستطيع الاستفادة منها لحل المشكلة المطروحة؟ إن هناك فرق جوهري بين ماضي من أسلم في إطار الفتوحات ومن أسلم من الغربيين اليوم. تميزت الفتوحات ببناء مجتمع جديد بفعالية العقيدة الإسلامية، وتغيرت البيئة المحيطة وواقع الحياة بالنسبة لهؤلاء. فقد نفذ الإسلام شاملاً، وأخذت اللغة العربية مكان وسيلة التنقف، وساعد نظام المولى كثيراً على اندماج الشعوب في الأمة الإسلامية: فمن أسلم على يد رجل أصبح مولاه، ومن أصبح أسير لرجل أصبح مولاه، وكان من وظائف المولى تعليم وتنقف هؤلاء (26). واندمجت الشعوب بالمصاهرة. حدث هذا الاندماج وبشون أن تفقد الشعوب طبائعها وصفاتها السابقة من لغة وبعض الأشكال المدنية التي لا تعارض الإسلام ديناً ز

غير أن من أسلم في الغرب حديثاً ليس له مولى، ولم تتغير بينته: فلا بد من مبادرة نفسه حتى يجد الطريق من عالم معلومات الكتب إلى المسلمين ومساجدهم ومراكزهم في الغرب، ولا بد من معلم مناسب يساعد على إزالة الإشكاليات في الفهم والتطبيق. وفعلاً، تعرض بعض المساجد برنامج الإشراف على المسلمين الجدد، بمعنى أن لكل من أسلم حديثاً مشرف تابع للجماعة الإسلامية. وإضافة إلى ذلك، أصبح الإنترنت عبارة عن سوق حيوية لتبادل المعلومات وكسب معارف جديدة مما يسهل الطريق إلى التنقف. فإذا قارنا الواقع التاريخي بواقع من أسلم في الغرب من حيث عوامل الاندماج والتنقف، لم يبق لنا

إلا رسالة الإسلام الخالدة وفعاليتها في نفس الإنسان والإشراف نابها عن أساليب الماضي، مما سوف يؤدي إلى فرق محسوس من حيث النتيجة.

وأما/أخطار التنقّف بالنسبة للمسلمين الجدد، فتتعلق بواقع المسلمين بصفة عامة وبالأقلية المسلمة المقيمة في الغرب بصفة خاصة. وكون المسلمين الجدد جزءاً من هذه الأمة يجعلهم مشاركين في مشاكلها وصفاتها الحسنة منها والسبئية في مفاهيمها الصحيحة والمغلوظة في نهوضها وانحطاطها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحصى والنهير" (27). بالتالي، لن تجد مشاكل هذا العضو أو هذا الجزء للأمة حلاً حقيقياً إلا بمعالجة الجسد أو الأمة ككل.

ويقدر ما نجد وباء القومية والعصبية منتشرا في هذه الأمة، ويقدر التفريق بين البلاد الراقية ماديا والبلاد الأخرى، وما ينبثق عن هذا التفريق من عقدة التفوق والنقصان، يقدر ما تعاني الأمة من مشاكل اجتماعية وفكرية، يتميز المسلمون الجدد بآثارها. ولعل لم الإحساس بتفوق الغربيين لم يزل في قلوبهم، ولعل الشعور بأنهم ينفصلون من المسلمين المقيمين في الغرب وأن مكانهم في المجتمع مكان أقلية محتقرة متهمّة بالتخلف، ولأنهم لا يريدون أن يعتبروا أنفسهم جزءاً منها متصف بصفاتهما. وأثار هذه العقدة موجودة في بعض المؤلفات: فيشكي مراد هفمن مرارا وتكرارا من المظاهر الشرقية للمسلمين المقيمين في الغرب من لحية وجلابيب ومن عدم موافقة ملابس المسلمين للتوق الغربي، واستعمال اصطلاحات عربية في الكلام اليومي من سبحان الله إلى ما شاء الله: وتجعل هذه الظاهرة، في نظره، الإسلام دين العرب في وجهة نظر الغربيين (28).

ونظراً لإدراك الإسلام كدين أقلية مهاجرة قادمة من العالم الثالث، وبالتالي كمشكلة من مشاكل الهجرة، نشأت محاولات لتفريق إدراك الإسلام من إدراك المهجر، مما أدى إلى تأسيس جمعيات ومراكز للمسلمين الجدد بناء على جنسياتهم (29). ورغم أن تبادل الأفكار والتجربة بين المسلمين الجدد يبدو طبيعياً من حيث الخلفية الاجتماعية المشتركة ومن حيث الاحتياجات المنبثقة عن وضعيتهم الخاصة، يظهر خطر التكتل على أساس قومي في وجه الجهود لإبداع إسلام أوروبي مقابل ما يصف بعض الباحثين بالإسلام العربي والإسلام التركي والإسلام الآسيوي. ويفهم من مشروع الإسلام الأوربي محاولة لتسجيم الفكر

الغربي منهاجا ومنتجا بالإسلام وجعل الإسلام ديننا حسب المفهوم الغربي: دين مجرد عن التطبيق وميياً لتغيير وتبديل مبادئه مع تغيير الرأي العام.

ونضيف إلى قائمة الأخطار التنكف على أيدي غير المسلمين في الكليات الاستشراقية ، وبخص هذا الإنكسار أو كالمعجزين والمسلمين الجدد، إذ يجنبهم مظهر التعليم الأكاديمي مع عدم إمكانيات أخرى. وتترس تلك المراكز الإسلام بواسطة أساليب ولأهداف غير إسلامية، وتتنظر إلى المسلمين نظرة الباحث إلى حشرات غريبة تحت المجهر، ولعلها تخرج الشاب المسلم بنظرة غريبة عن دينه.

وهناك أيضا مشكلة عدم التفريق بين الدين وتقاليد منتشرة، مثل ما هناك من مشكلة البقاء في ثقافة الغرب منهجيا وفكريا. وأنا لا أقصد التمسك بأسكال عنيفة لا تعارض الإسلام، إذ تتفاعل العقيدة الإسلامية في الأنفس وإن تكون هذه العملية إن صحت شخصية تحكم على بيئتها وتترك ما عارض الإسلام وتختار ما يوافقها بناء على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وإنما أقصد من ظل في عالمه الفكري السابق ولد يغير أسس تفكيره مبدئيا: فقد أعلن جارودي بعد إسلامه مقالا: دخلت الإسلام وبأحدى يدي الإنجيل. وباليد الأخرى كتاب رأس المال لماركس، ولست مستعدا للتخلي عن أي منهما. (30) مما يدل على عدم عملية التفاعل عند.

د - خاتمة

أما هدف التنكف في الإسلام، فلا يكون غير الانسجام مع الأمة الإسلامية وخدمتها: فمن أسلم من الغربيين له مسؤولية أمام رب العالمين مثل باقي أجزاء هذه الأمة، وله مسؤولية في تعلم مبادئ هذا الدين مثل من تربى عليه، وكثيرا ما يعترض عملية تنكف بدأت عند من تربى على هذا الدين في مرحلة الطفولة والتي استمرت لسنوات في مدة وجيزة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تجدون الناس معان، خيارهم في الحاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" (31). إن لمن أسلم حديثا مسؤولية لمصير ومستقبل هذه الأمة مثل أجزائها الأخرى، ولا يوجد فرق بين هؤلاء وأولئك إلا في التقوى. قال تعالى: وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون.

الهوامش

- (2) مع الملاحظة أن كثيرين من السكان الأصليين، وهم الهنود، كانوا مسلمين حسب بحوث جديدة كما تبين بالإسلام كثير ممن أخذ عنوة من القارة الإفريقية ونقل إلى أمريكا كعبداً. انظر في هذا الصدد:
Enslaved in the Americas. New Sylvaine Diouf: *Servants of Allah: African Muslims*
York University Press, 1998.
- Fareed H. Numan: *American Muslim History: A Chronological Observation*
<http://www.islam101.com/history/cherokee.htm>
- [http://www.suite101.com\(3\)AnayatDurrani: The search for truth](http://www.suite101.com(3)AnayatDurrani:The%20search%20for%20truth), April 1999.
- Times. (4)Yusuf Estes: Back to Islam? Reverts to Islam in Modern
<http://www.islamtomorrow.com/index.html>
- (5) أنور الجندي: افق جديدة للعودة الإسلامية في عالم الغرب. مؤسسة الرسالة، بيروت.
<http://www.geocities.com/anjashbuchAnja'sBook>.
<http://www.welcome-back-org>
<http://www.convertstoislam.com/Stories/stories.html>
<http://www.algonet.se/ulwur/reverts/index>
- (6) أنظر مثلاً: عبد القادر طائش: صورة الإسلام في الإعلام الغربي- القاهرة، 1993.
- Sigrid Hunke: *Allah ist ganz anders. Enttuehlung von 1001 Vorurteilen ueber die Araber*. Muenchen, 1990.
- Jochen Hippler/ Andrea Lueg: *Feindbild Islam*. Hamburg, 1993.
- Maxime Rodinson: „Das Bild im Westen und westliche Islamstudien.“
Bosworth/Schacht: *Das Vermaechtnis des Islam*, Tome I. Muenchen, 1983. P.23-81.
- 1979Edward Said: *Orientalism*. London.
- (7) طائش: صورة الإسلام، ص 40.
- Rodinson: *Das Bild im Westen*. P.33 (8)
- un peuple venu de (9) «...En effet, comme la plupart d'entre vous le savent déjà, Perse, les Turcs, a envahi leur pays. (...) Beaucoup sont tombés sous leurs coups, beaucoup ont été réduits en esclavage. Ces Turcs détruisent les églises: ils saccagent le royaume de Dieu. (...) Quelle honte, si un peuple aussi méprisé, aussi dégradé, esclave des démons, l'emportait sur la nation qui s'adonne au culte de Dieu et qui s'honore du nom de chrétienne! (...)» Balard/ Demurger / Guichard: *Pays d'Islam et monde latin*, Paris, 2000. P.64-65. .
- Hunke: *Allah ist ganz anders*. P.15-21
- (10) طائش: صورة الإسلام، ص 50.
- (11) المصدر السابق، ص 67.
- (12) المصدر السابق، ص 42.
- (13) Edward Said: *Orientalism*. London, 1979
- (14) Hofmann: *Muslims as Co-Citizens of the West*
- (15) 8Andrea Lueg: *Feindbild Islam*, S.3

(16) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، رقم الحديث 1270

إن لبا فريزة رضي الله عنه كان يحدث قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من مؤلود إلا يؤلذ على التطرة فلو أذ يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول لو عذت فريزة رضي الله فطرة الله التي فطر الناس عليها الآية.*

Jocelyne Cesari : *Der Bin-Laden-Effekt*, Zeitschrift fuer (17)Kulturaustausch 02.

<http://www.ifa.de>

(18) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق، اقتباس من: أنور الجندي: أفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم العرب، مؤسسة الرسالة، ص 148.

(19) المصدر السابق، ص 350.

(20) انظر المراجع المذكورة تحت (5)

(21) أنور الجندي: أفاق، ص 139.

<http://www.welcome-back-org/profile/dirks5.html> (22)

(23) من أمثال تلك البحوث:

Monika Wohlrab-Suhr: *Konversionen zum Islam in Deutschland und den USA*.

Frankfurt, 1999.

Anja's book, Chapter 6 <http://www.geocities.com/anjiasbuch> (24)

surrendering to Allah, (25) "For those contemplating the acceptance of Islam and the glorified and exalted is He, there may well be sacrifices along the way. Many of these sacrifices are easily predicted, while others may be surprising and unexpected. There is no denying the existence of these sacrifices, and I don't want to sugar coat that pill for you. Nonetheless, don't be overly troubled by these sacrifices. In the final analysis, these sacrifices are less important than you presently think. Allah willing, you will find these sacrifices a very cheap coin for the goods you are <http://www.welcome-back-org/profile/dirks6/htmlpurchasing>."

(26) انظر : جمال جودة: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالى في صدر الإسلام، عمان، 1989.

(27) صحيح مسلم، كتابالزكوة والصلة والادب، رقم الحديث 4686

عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن كرجل واحد إن اشتكى رآه تداعى له سائر الجسد بالسختى والسخير.*

Hofmann : *Muslims as Co-Citizens of the West*, (28)

(29) ومنها رابطة الألمان المسلمين المؤسسة سنة 1952 بيهنورج.

(30) عادل التل: جارودي بين المدنية والإسلام، دار البنية، بيروت، 1997، ص 33.

(31) صحيح البخاري: كتاب المناقب، رقم الحديث: 3234.

عن أبي فريزة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تجدون الناس معاندين خيارهم في جاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا وتجدون خبير الناس في هذا الشأن أشدكم له كراهية وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه*

مضائق الفكر ومسالك الاضطرار

الدكتور محمد عبد النبي

كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر

لا تزال النخب تجادل في أنجع السبل للخروج من اتفاق تزداد ظلمتها كل حين ، وبعض من سعى للعلاج غدا جزءا من السقم ، وبعض من جاهد من أجل البراء شعارا أعطى الولاء اضطرارا، والذين كفروا بالولاء، سبيلا لإزالة العيب، استبطنوا النصر فكفروا الأنصار، وانجرف دعاة التعقل في مهرجان الحماسة، فأغوتهم موجة الشهرة، وولجوا بابا لم يطرَقوه، ودعا أنصار الحرية إلى الديمقراطية ، فلما أفاد منها خصم أفنوا بالتحريم، وجميع هؤلاء وغيرهم صوبوا سهامهم في البدء باتجاه واحد ، فلما تشاغلوا بالخصومة تفرق دم الشعوب على القائل ، وخف الوطء على الجاني المفترض .

ليس الأمر معينا أن يراجع مسلك أو أن يعاد النظر في أسلوب فيجتنب خطأ تكرر، أو يكسب موقع يقضي على اللفظ، ومن المحامد أن يطرا التجديد على فكر تتسع به مساحة الحراك، وأن ترتبط الفتوى-تغييرا- بواقع تتسارع أخطاه، فتحقق مقصد اليسر الذي ثبتت سنته، والذي يمجه الذوق والعرف أن تُدعى فاعلت تستجد، كلما تحسن المرء اتجاهها لكسب ثلوح بواتره، أو أثرا لمغانم يسعى لأصطيادها، وأشد من ذلك أن يُوصل لفكر لا يسمع الناس غيره، فإذا اضطر العلو صاحبه إلى أضيق السبل أسرع في التوصل، واستئيد له بما يحفظ ماء وجه أريق. لا ينبغي أن تسلم الرقاب -على المستوى الشعبي والرسمي- للأحداث والأغزار، تغريهم فكرة فينحازون إليها، أو تأسروهم منه فيربطون مصير أمة باليمن، تُساق الحجج لتأكيد النهج، وتسن القوانين لعقاب من خالف، وحين يعز للزعيم أن يُرشد تحت وطأة الإكراه، أو لسبب مزاج يتقلب، يحد من مظاهره، ومن يبرر له، وأثار الثقل بتحملة الأمة مرغمة، وقد تُحمل على التصفيق له.

ليس صحيحا أن تلاحق الجناية-فقط- من تنفذ، نعم، قد تعظم مسؤوليته، لكن البيئة تصنع نفس الأدواء، وإن اختلف حجم الإثم أو العدوان، وقد تكمن خلال

السوء، فإذا اعتلى المنصب تبتت، وبعض من ادعى التميز أظهر به سمنا وفكرا، فلما احتجج إليه لاقتسام لوم، أوتيرير مسلك، استجاب اجتهدا، ثم عوجل بالمعتم، فتغير سمت، وخفت تيرة، ومن خلط في البداية أوغل، حتى فاق عن ألف، وتحولت السهام باتجاه وافد غر، تلحقه العناية، فيؤصل وبشيز، حتى يتفرد بالحمل برهقه، ويكتفي من رشحه، بالمشهد يريجه، ويؤنسه.

لن يحمي الشعار المرفوع-مهما أبرقت صفحته-تابعا أساء، ولن تتخلف السنن عن ملاحقة من قصر، ولو كان مؤمنا، " نيس بأمانتكم ولا أماني أهل الكتاب.. تماما كالعطاء لن يمنع في الدنيا عن أحد بدعوى الجحود والكفران كلا تمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا."

ينبغي أن نفر بأننا فضلنا في اقتفاء آثار السنن الكونية، التي لا تحابي أحدا، وبعضنا لا يزال يعاند صرامة فيها لا تتخلف، ولوفتر لسنة أن تتخلف إكراما لأحد لتخلفت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، في تخفيف العناء وتقريب النصر والظفر، كما أننا لم نفرق بين الكرامة الفردية التي يمن بها الله على البعض، وبين الكرامة الجماعية التي ينتظرها الناس حتى وإن ضلوا السبيل.

إن الإصرار على الخيبة التي تلاحقنا أو تلاحقها سببه -في كثير من الأحيان- انتصار لنفس أهينت، أوليست عليها الإهانة، فقامت تستجاب الأنصار لتقاما، تكسوه بغير رداء، ترغيبا وتعبئة، وأذهلها مزاجه عن مبادئ اندفاع وأجنديات الصراع، فراحت تقدم غير هياية ولا وجلة، تغريها مواقع حيزت، أو أعطيت، لإكمال استرجاع ثعلم نهايته، ويقدر من يملك الزمام عواقبه، فيترقب القطاف حين ينعه.

لست ممن يحشره الموقع فلا يبصر غير ما يعيب، ولا ممن تدفعه الخصومة فيترصد للزلل، يلوم به من زلت به القدم، ويسحب لنفسه، أو جماعته، رصيذا يباهي به من جحد، ولكن التحسب للتعثر، والتنبؤ بالمأل-إشفاقا وخوفا-من خصال من عقل، وعواقب التسرع قد تصيب غير من تسبب، ولو كان الجزاء على قدر الجناية والجاني لتسنى للبعض ألا يبالي، ولكنه المركب الذي يسمع الجميع، ولا يتأني فيه إهمال من يعبث بالقاع، نحججا بالشعار، والنجاهة من العرق لا تتم إلا بالأخذ على يد من عبث.

إن من عوائق المسار التي تحجب عنا الحياة الكريمة وتمنع العطاء-ولو تحت غير الظلال التي ينبغي أن نحبس النفس والفكر على رؤية لا نرى في غيرها

ميدانا لصواب، أو مجالاً لحراك، يتلو النظر-ضرورة-أن يُعتقد بالألا سبيل إلى نجاة
إلا بإزاحة 'الباطل'، والتفرض على كرسية ليغدو الحق المطلق الذي لاحق سواه.
بعض التجارب في العالم الإسلامي لا تسمح لهذا الوهم أن يستمر، بل تدفعه
للتأسي، وإقامة ما أمكن من الشعب في ظل الممكن والمتاح-هو الذي يخفف من
أحمال النظريات وزحام الاضطراب، الذي يحيل الحياة أشبه بجحيم لا يحتمل، حتى
ولو أريد التخفيف من سطوته بالحلول الجزئية، أو بالوعود التي يستحيل الوفاء بها،
وإن التعود على التعاش في ظل مثل هذه التجربة-يقضي على أو هام التفرد،
وادعاء احتكار الحق والصواب، وغناء التراث الذي ورثناه كفيل بافئاع من تردد،
إذ لم تحفظ حضارة حقوق الأقليات فيها كما فعلت الحضارة الإسلامية، والمناصب
التي نقلها البعض من هؤلاء تسبق كل القوانين التي يتبجح بها قتلة الأطفال
والشيوخ قديما وحديثا.

إن الترتيب الذي يحرم الالتزام بالشعب الأدنى، أو يخليه من الجدوى ترتيب
لا يقفد إلى الشرعية فحسب، بل يضاعف من العنت الذي قد يؤول بأصحابه يوما
إلى التحلل، وأغرقت الأحداث بمقارنات بين مرتد مفترض وكافر أصيل، أغفلت كل
الفروق، لتفصح الطريق لاستنتاج لا يرى في غير الخروج حلا، قد كانت أولى
مراحله وأسهلها استباحة لمحرمات الأنفس والأعراض، تريد النيل من الهدف
السهل، يزاح من الطريق ابتداء، للوصول إلى من تترس، وهيبات.
من الفضائل أن يرجع من أخطأ عن ذنبه، وأن يقر بذلك، فيغير من أسلوب
أضر بالدعوة والدعاة، ولكن أن تتم العودة بنوع من التبرير بعيد الاعتبار، أكثر
مما يشير إلى الجنائية، فهو إقرار شكلي يلقف صاحبه عليه، وينسب محمداً إلى
النفس قد لا يستحقها.

فمن مقدمة "المراجعات" التي أعلنت، يقول كاتبها مخاطباً من يتوقعه يعترض
على اجتهاد جديد ينتكز فيه لما سبق: "...ونرجو ألا يصددهم عن هذه الدراسة أن
يقول قائل: لماذا غيرتم اجتهادكم وفتواكم اليوم في بعض المسائل (إذن هو اجتهاد-
حتى ولو كان المجتهد من ذوي التخصصات العلمية-فيستحق صاحبه الأجر حتى
وإن سبب اجتهاده في المأسي والفتن؟ ولا تظنوا أنه في النهج كله، بل هو في بعض
المسائل، فلا يصدق عليه وصف الانقلاب الشامل)- نقول لمثل هذا السائل: إن
المعصوم الوحيد هو الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كل إنسان يؤخذ من قوله
ويرد، سوى المعصوم صلى الله عليه وسلم (أي فلنأخذ أول ولا آخر من أخطأ) وإن

الحق أحق أن يُتبع.. وأن من هم خير منا من أئمة السلف قد غيروا اجتهاداتهم وفتاواهم (أي فلسنا في الأئمة بدعا في ذلك) فهذا الشافعي يغير بعض اجتهاداته وفتاويه (كذا) بعد قدومه إلى مصر، وأصبح له مذهبان: القديم والجديد (ونحن كذلك، فاعتبروا هذا التغيير في المواقف من هذا القبيل، ولا يضر أن مذهبه القديم لم يترتب عليه فتنة ولا دماء كذهبننا) وهذا الإمام العظيم أحمد بن حنبل له في بعض المسائل عدة أقوال، كل قول ينقله إمام من تلاميذه عنه، ولم يغير هؤلاء الأئمة اجتهاداتهم عن هوى أو شهوة، ولكنهم غيروها على أسس علمية سليمة، وقواعد شرعية ثابتة (وهكذا أصبح مذهب هؤلاء هو الذي يحتاج إلى تزكية، وعلى أيدي أصحاب المراجعات) فالمجتهد له أن يغير فتواه إذا رأى المصلحة في ذلك، وهذا دليل قوة، وليس دليل ضعف.. (وهكذا يراد للإقرار أن يكون ذريعة لاستعادة القوة، وليس الترياق فقط، وسيرى القارئ أن العنوان يندرج ضمن هذا الإبحاء، فلا يزال العمل الذي يخضع للمراجعة يحمل اسم الجهاد): (تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء: 20-21)

إن الرضى عن بعض من دين بالردة، وخلع أوصاف الشهادة على من قتل، بعد أنهار من الفتن والدماء يقتضي الانسحاب والتوبة، ولا ينبغي أن يكون طريقا تُسبم مواقع عليا في الاتجاه المعاكس، وينبغي أن تسود ثقافة الاعتراف بالخطأ، والإقرار بالخطيئة، بدلا لثقافة الإصرار وعدم التنازل.

إن المكاسب التي تُسبت إلى طوائف منا في بعض البلاد سرعان ما التفت عليها فتن أنت على أحضرها، وكيود تغذي وتتقمم، وراح يريق النصر يتوي، بخطفه من قدر، ويجعل مجاهد الأمل إلى مطارد لغنيمة يُعلن، أو فريسة لحليف تطاردها قوانين سنت على عجل.

لقد أثر عن بعض من حمل المشعل، يبشر أتباع المشروع بقرب تحقيقه، لفظه لتجارب مرث، ونقيه لإنجاز تحقق، بأسلوب فيه من التيكم والعجب ما تتصاغر أمامه تصريحات أتباع المشاريع الأخرى، ولولاستطرق التاريخ القريب، وتقط إشارات العقلاء لتحاشرى الشرك التي نصبت ابتداء، ولما سُمح للمأسى أن تتصاعف وتتكبر، ولكنه الزهو والكبر حين يتسلل إلى نفس الضعيف، فيحيله نمرا من ورق.

ولقدّر لأخرين أن يتواضعوا فيقرعوا تاريخ الرجال لئلا أغرامهم وهج النصر في بعض المواقع بعقد القياسات الخاطئة، ومزاج الظفر على السوفييت الذي دفعهم إلى إعادة التجربة في الداخل، ارتدوا به على الأعقاب، ونقص الرصيد الذي جمع، أو أنف، فطرقوا بالأمة بابا للفتنة لا يزال مشرعا، ولا يزال العدو سحجة إغلاقه - يدمر كل شيء في طريقه.

من الذين تقطنوا لمزالق القوة فلم يستجيبوا لإغراء التجربة: المجاهد العلامة بديع الزمان النورسي، حيث أثر في المذهب الحنفي نيج التربية الذي مجرد الخصم من مبررات تُفعل، ورفض الأسياق خلف مغامرة تحسب لعال فيها لا تُحمّد عواقبه، بالرغم مما اكتسبه من تجربة الصراع ضد عدولا خلاف في عدلته، وبالرغم من تورط الخصم الجديد في مناهضة عقيدة الأمة، مما كان سيوجب له الحليف والنصير، ويضفي على الخطوة تفهما، وإن لم يرق إلى مستوى النصرة الفاعلة، التي تواجه حالة الإبادة الموثوقة.

لقد كان من وسائل البعض للإفحاح أن يلعن تاريخ قريب حافل بالعبير، وأن تدغدغ عواطف جماهير، تؤشك أن تصنع تاريخا جديدا، فإذا بالتاريخ يستغفها، ويعيد نفسه، على غير ما يعتبر، لتعيد الكوارث والمحن لنتاج نفس البلاء، ولتضرب الخيبة من جديد أنصار تغيير تمنع، فتغنى البعض بما كان بالأمس يلغنه.

لقد حملت بعض الأحاديث على جوانب لا يضر كثيرا أن تُغفل، فالعلوفى العيادة - على المستوى الفردي - يعود بالأثر السلبي على صاحبه، والمبالغة في الحب والبغض لا تمن إلا جاهلا أو صاحب هوى، لكن التدين المتين - على مستوى المواقف العامة والخيارات الشاملة - الذي لا يوغر فيه برفق، والعواطف الجامحة التي ينثني عليها ولاء أوبراء أودت بالكثيرين إلى الهلاك، وطبعت واقع الأمة بغير قليل من الفشل المتنوع بالخيبة واليأس. والمصحوب بالشتائم واللعنات.

ما الذي يعني أن ينقلب زعماء على أنفسهم وتاريخهم، فيمنح الذوق مواقف لهم تستجد، لا علاقة لها البتة بما كان يُرفع من شعار، أو يعلن من خصام، بل يتطوع أصحاب الحناجر والحناجر بتقديم خدمات قد يستحي من تقديمها عميل مستأجر، ويضفي التعقل والواقعية على سلوك أقل ما يوصف بأنه يخضع لمزاج من يشعر بامتلاك البلاد والعباد.

وما الذي يعنيه أن ينقلب حماة المشروع الواحد إلى أعداء، يسجن بعضهم بعضا، ويلعن أحدهم الآخر، ويظل كل منهما يدعي حماية المشروع ورفع رايته،

وقيل ذلك نُداس قيم باسم المشروع ذاته، قد يتفق عليها كل الناس، ولا يُكفى برفض جوار من لجأ، بل يُحتكى بالبعض حتى يبلغ المأمَن، ثم تُقضى الإجارة لحساب صفقة تختلط فيها ضرورات الإكراه، بشيوات نفس تميل إلى الجاه والمال. إن ادعاء رعاية مصالح الأمة بهذه الطريقة لا علاقة له بمراعاة المصلحة الشرعية، ولا يمت بصلة إلى "المراجعات" المدعاة، التي تدخل ضمن دائرة النقد الذاتي الذي اُثِمنا بالنتكر له، فإذا بالبعض يتنزع به ليلغي تاريخاً صنعه، ومساراً خطته يمينه، بالرغم من اعتراض من عقل، واتيم حينها بالجبن والخور، والانحراف عن حدود الشرع ومنهج الرواد.

لقد مرت على البعض عقود في مواقع القيادة، ورفض التغيير بحجة الإجماع، وإنما هي شيوة التصدر تتربع على القلوب، تنأى بالتأويل عن إشارة استهجان، وتبغى بالبقاء مسايرة نفس تتحدث عن التناول ولا تأتيه، وتلعن نفرد الأغيار وتمارسه، وما لم تضبط نوازغ التسلط قوانين رادعة في ثقافة من يدعي التغيير، فسنبقى ثقافتنا مرتعاً لكل مغامر يدعي الإصلاح.

لا أزال أدعي أن البعض قد استدرج للنزال، وبانت عاقبته، وهناك من استدرج لساحات أخرى، عاجلته بلذائذ لم يكن له بها عيد، تبرجت له، فاستجاب، ولم يخالطه حرج، أوتنازعه ريبه، يحصر التبرج في امرأة تريد أن تصرعه، قد تحسب لها، فأمن، فلما سلكت غير الجادة، وتأنطت له دنيا أقبنت، أقبل، باسم الدعوة تارة، وباسم مصالحتها تارة أخرى.

لقد سقطت هالة التقديس التي صاحبت ظروف النشأة، وغدا المتدين بشراً يجب ويكره، يسمو وبهوي، يخطئ ويصيب، وهو أمر محمود، غير أن الخلطة والإيغال فيها أوقعه فيما يقع فيه غيره، وقد يزيد، ذلك أن الآخرين أصبحت لهم - يحكم الثعود - أعراف لا يتجاوزونها، أما صاحبنا فقد فوجئ بالمراحل تخفي، ليجد نفسه ومن معه في مواقع لم تراوده في أحلام الصبا، فانصب ينهل منها خوفاً من الفوات، يحدوه طمع في البقاء، يظاهرة بما تبسر من سبل، لتحقيق غرض يسبق عليه - كالعادة - مسحة يعدد بنا سهاماً تطيش أو تصيب.

إن مسايرة وجدان الأمة واجب لا مرأى فيه، وكلما ازداد العدو شراسة كلما ازداد هذا الوجدان اشتعالاً، وتزكياً على الدوام، أو الاستجابة لمطالبه في كل مكان، أو مجاراته لحيازة مغنم مؤقت أضرت بسير تسلل به العمل الجاد في الغرب إلى مواقع مشهودة، واقتحم أبواباً لم تكن في الحسبان.

لن يضارَ العدويشيء أكثر من أن تُسحب منه مبررات للهجوم، يملك التصرف فيها دوماً، وكلما صرخ المعبون أمدّه بما يضاعف من صراخه، ولو خفت الصراخ، وتحولت طاقته إلى عمل هادئ لا تنتفض، ولا تزال أجنادل في صدق الرواية الرسمية لأحداث سبتمبر الشبيرة، ولا تزال أعتقد أن من أولى ضحاياها هو العمل المنظم الذي شرعت في انتهاجه الأقليات العربية والإسلامية، وأخسى أن أجازف فأقول بأن من أهداف هذا الحادث هو الوجود الإسلامي ذاته، وما يلحن به بعض قادة الغرب-ويسارع "الطيبون أو الخيباء" للتخفيف من آثاره مراعاة للموقع وعملاً بواجب التحفظ-يصرح به مثل "توين"، الذي حذر صراحة من هذا الوجود، الذي سينحاز حتماً إلى بلده الأصلي، في حال قيام أي نزاع مسلح أو حرب، كما صرح شارون بأن السبب في تنامي الشعور "ضد السامية" هو الوجود الإسلامي.

لقد بات المسلمون في الغرب يتخوفون من أي تصرف يحسب عليهم، ويلحق الضرر بما يتمتعون به من حقوق المواطنة، ومزاي الإقامة، وبغض النظر عن المتسبب في الأحداث المذكورة فإن استغلالها أضحي مكشوفاً، والتنديؤ بالمسلسل بهذه الحقوق في أمريكا صار من الأولويات لدى بعض العقلاء فيهم.

بعض الناس تسعفهم الفطرة والخلق، فيستجيبون للتغبيز، بمجرد التبشير به، وبعضهم لا يستقيم إلا بعضاً السلطان تقومه، وربط الإصلاح الشامل بالسلطة قاد إلى التحفز مسلماً، وإلى الاعتداء على الحريات وقاية، ومن نجح في المسعى أخلف بالوعد، وغدا أسوأ ممن سبق، ومن أرك التوسل به والقفز على مشروعيته برره بالغاية تشرفه ونجمه، فخالق نهجا ينغني به، ويميزه عن الأغيار، وأما الآن قلم يعد يخضع الجدل بين موافق ومخالف، بل غدا وسيلة تمجيد الأعراف، ويقترّب القانون الدولي من تجريمها.

أزعم أن الأمر يحتاج إلى رأي حاسم يردع من يفكر في مثل هذا الأمر، وذلك لما يغلب عليه من مساوئ تصحبه، ولما يجره من قنن، ويلحقه بالأمّة من ضرر، ولما للجهة التي ألقت القيام بهذا الأسلوب من بنية يستحيل معها أن تفرط في مكسب، أو أن تتنازل عنه عن طيب خاطر، أو أن تحترم القيم المدنية، التي تفترق كثيراً عن قيم وضوابط يحبسها المجتمع المعاصر في نطاق ضيق، ويحددها دستور محترم، نجيزه أغلبية حرة فاعلة.

والأمّة التي يعاني ثمانون بالمائة من أفرادها من العقد النفسية-حسب بعض الإحصاءات-لا يمكنها أن تنصر فكرة أو أن تحمّل مشروعاً-بهذا المستوى-

بأسلوب يقفز على كل المراحل، والإرث الذي تعاني منه يصعب إزالة آثاره أو التخفيف من وقعه بين عشية وضحاها، لتأهيلنا لتحمل المشروع ورعايته، مع أن الكثيرين فكروا أو سعوا لحمله وقيادته.

يقول رئيس المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية: لا يمكن أن يخضع مجتمع يكامله للعلاج، ولكن نستطيع أن نساعد (إذا أقررنا بهذه النتيجة) على التحرر كي يتوصل إلى مستوى من المسؤولية، ومن الوعي الذاتي، يمكنه من حل مسألته الشائكة. وتكمن مسؤولية المفكر العربي في أن يحرر ذاته أولاً من رواسب الموروث الثقافي الترجسي، لكي يتقل رسالته ثانياً إلى مجتمعه، في إطار علمي قابل للجدل. (صحيفة الحياة-10-04-2004)

لكن هذا لا يعني الانكفاء على التربية المجردة دون المزاومة- للوصول إلى التغيير المنشود، فهذا الاعتقاد يكاد يكون وهماً، يراد من توجس، أو تلهذ، تزداد بهما عزله، ويحتل موقعه، بحسب الشر قد توقف، بينما تقوى بالعزلة شراسته، ودينه أن يلاحق الخير حيث حل، أو أن يمنعه من الوجود أصلاً.

إن احتكار الحق والصواب، ومسعى الإقصاء والتفرد بالساحة، من العوائق التي منعت التقدم حيناً من الدهر، وأحسب أن لا مقر من التعاون والتعايش، والقطيعة المدعاة التي ترتفع بيا عقيرة كل الأطراف ينبغي أن يخلو منها خطاب، لا يحسد الانتصار إلا بالوقوع في الخصوم، ولا يقم بناء إلا بتهديم أبنية الآخرين.

إن الاستجابة لنوازع النفس في ثلبية المطالب وتحقيق ما تطمح إليه نفوس الأسوياء، في ظل ما يتاح من هوامش تضيق أو تتسع، لا ينبغي أن يتعطل انتظاراً لتغيير أريد له أن يتخلف، والبدل المتع استجابة محدودة لمطالب البطن، يصحبا انسحاب نفسي يأس من حياة تنبثق بكرامة البشر، تتشأ عنه نزعة انتقام. تفرط فيما يحوزة المجتمع من مستنكات. وقد تتلقه.

الفكر الذي ننشئه، ونرود استنهاض الهمم به، يتردد بين نزعة غير توجيهه، يرى العالم كله ساحة حرب، يقتل فيها العدو أو يذعن، وبين دعوة إلى المسالمة، لا تستثنى أحداً. حتى وإن عزى أو سلب، يستليمون تجزية اليودي، على وجاهة فيها قد لا تُسكر، وينديرون النظر لسيزة تعطي الحق في دفع المعتدي، وترتب الأجر الجزيل على الشجادة دون الأرض والعرض، وحتى الموائيق الدولية التي يتنكر لها الآن، تعترف بحق في المقاومة، وينكره علينا من يدعي السبق أو التجديد.

الأمة الإسلامية.. الواقع والمأمول

الدكتور عمال جيدل

كلية العلوم الإسلامية. جامعة الجزائر

يفرض تناول الموضوع من الناحية المنهجية عرض مختلف الخلفيات الفكرية لتجاوز محنة الانحطاط، وإصلاح أوضاع الأمة، ثم نعرّج على مختلف المشوشات الفكرية التي تحول دون التفكير السوي في التقدم، لنخلص إلى لفكرة معقد الأمل في اكتشاف المشكلة والإحساس بها قبل التفكير في حلها لأن تحديد المشكلة والإحساس بها يسبق التفكير في حلها.

أولا : الخلفية الفكرية

تتجاذب التيارات الفكرية المحلية مجموعة من المدارس الإيديولوجية، تتقاطع مع بعضها في السعي نحو تجاوز الأمة محنة التخلف والتأسيس لأنموذج التقدم والتنمية، كما تشترك غالبيتها في مجموعة من الميزات:

1 - فقد الإحساس بالانتماء العنصر:

أ - تيارات فكرية غريبة عن الموروث الثقافي والاجتماعي للأمة، مما جعلها مرتعا للنخب الفكرية والأكاديمية المتصلة من أمنيا، بسبب فقدها القدرة على التواصل معنا، وهوما يدفعها باستمرار إلى التركيز على هدم الفكر المحافظ، ظنا منهم أن الفكر المحافظ يحول دون فهم أفكارهم، واستيعاب أطروحاتهم، فيكون هذا الفكر بفعل ممارسته فكرا هدميا لا يقدم خلفية فكرية معينة بقدر السعي للذوب إلى استئصال الفكر المخالف.⁽¹⁾

ولعل من أبين نماذج تلك التيارات، الاتجاهات العلمانية بصورتها (العالمية/المطلقة) أو الموطنة (المحلية) التي يؤسس لأطروحاتها بحجج من موروثنا الثقافي، مثل ديمقراطية الإسلام، أو عقلانية الإسلام،....

ب - التيارات الفكرية العرقية، الأحزاب القومية: تعالي بعض الاتجاهات الثقافية والفكرية على التميز العرقي؛ فتجعل منه برنامجا، لا تحسن التعني بغيره، بل وتعطيه الأولوية المطلقة على حساب الانتماء إلى الأمة وموروثها الثقافي

والدني، بحيث يصبح الانتماء الفرعي أصلاً والانتماء الأصلي معنا عن الاهتمام. وقد لقيت هذه الأطروحة تأييداً من قبل قوى أجنبية، وخاصة الفرنسية في المغرب العربي، والإنجليزية والأمريكية في الشرق العربي^(٢).

ج - تيارات فكرية إسلامية أودينية تعيش التدين مذهبا مزاحما للتدين في أصوله البنية، أو تعيش في غير اللحظة الحضارية الراهنة، فتصورات خصوصيات وهمية لا وجود لها في غير مخيلات منظريها، أو عاشت الحياة السياسية كسائر الأحزاب الأخرى؛ فصنعوا مصادفية المتدينين بآبائهم على الدنيا والتناك عليها في تجربتهم السياسية^(٣)؛ «فغيبت الرؤية الحضارية للتدين، واهتقدنا في تصرفاتهم قيم العدالة والتواضع والخدمة العامة، وظهرت فينا نقائصها، فبذت الأناثية، وحب الدنيا (أم الخبايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية)، والتعصب العقيد،... ومن ثم وضعت خطط غير واقعية للتغيير، مما أفقدها الفعالية المنشودة، وضيع المصالح العامة للأمة والمجتمع، وسرى فيهم التعلق بالمصالح الخاصة على حساب حاضر الأمة ومستقبلها، إننا افقدنا فيهم الرسالية ومقتضياتها، من تضحية وفداء وإخلاص».

كما سرى في مجمل التيارات الإسلامية تغليب اليوم النكيتية المرحلية على حساب الانتصار للأمة، فالمتصل بالسلطة المتحالف معها لا يرى الحل في غير ذلك المسلك، والمنفصل عنها لا يرى الحل في غير المعارضة، بل ويذهبون في ذلك إلى أبعد مدى، فيميلون إلى الاتهام المتبادل لبعضهم، والأدهى أن يتعلق الاتهام بالنيات، وهو ما لا يمكن إثباته أو نفيه، وفق المعايير الشرعية، متعافين عن قاعدة أساسية في التعامل الاجتماعي إسلامياً: حسن الظن بالمؤمنين^(٤). أيضاً يمكن أن يطال النقد والنمحيص المسالك السياسية والتجربة الاجتماعية والاقتصادية، لكن دون أن ينتقل إلى الاتهام بالنفاق أو... ولأنك إن مجموع تلك التصرفات تنبئ بتخلفنا عن تمثل مبادئ ديننا من جهة، تخلفنا في امتلاك الأدوات المنهجية في تحديد استحقاقات اللحظة الراهنة من جهة أخرى.

2 - فقد الإحساس بالوحدة

تشم تلك التيارات الفكرية على تنوع مشاربيها، يفقد الإحساس بالانتماء إلى الأمة؛ فغاب في تصرفها السياسي والاجتماعي النزوع نحو الوحدة، وتجانسيتها التصورات والتصرفات الأناثية المقززة، فكانت تلك النفاصل سبباً في الأسهام في

تهديد وحدة ، وتجلت تلك الرؤية في تصرفات مثل بنفسها على الانحطاط بكل معانيه، الفكرية والمعرفية والاجتماعية، فظهرت فينا أمراض فتاكة، على رأسها:

أ - الولاء مقدم على الكفاءة: المجموعة أو الزعيم لا يختارون غير الموالين ولاء تاما لا تتويبه ثنائية؛ فلا يرضون بوجود معارض داخل الصف أو داخل المؤسسة، رغم أن المعارضة وسيلة فعالة في تنمية القدرات المعرفية والإسهام الفاعل في التأهيل لسياسي والاجتماعي، بل يعد أهم وسيلة في تطوير الوعي السياسي للأمة جميعا، وذلك بما تفرضه المطارحة الفكرية بين المخاصمين من تطوير الأدليات بما ينسجم مع ما يطرح من أفكار وبرامج. (٦)

ب - الشرعية النضالية عوض الشرعية العلمية: ينال الرجل في الحزب أو الحركة مكانته بماضيه النضالي لا بكفاءته العلمية، فتظير فينا الشرعية النضالية بدل الشرعية العلمية.

ج - الشرعية التاريخية بدلا عن المؤهلات العلمية والخبرة المهنية: والشرعية التاريخية لا تختلف عن الشرعية النضالية، فترى الرجل زعيما منذ نشأة المؤسسة إلى أن يموت الزعيم أو تحل الحركة، أما أن يستقيل أو تؤسس للتداول على تسيير المؤسسة، فنحن عن أبعد الخلق عن ذلك، والمرض حسب تقديرنا عام، يشمل المؤسسات السياسية والحزبية والمهنية والنقابات والحركات... على تنوع مشاربيهم (٧)، إنها تصرفات متخلقة لا تتشد تقديما ماديا أو معنويا.

د - الشرعية الابتلائية عوض التكوين العلمي: عرفت الحركات السياسية - على تنوع مشاربيها - فكرة الشرعية الابتلائية، ومفادها أن الرجل المنصب بقدر عدد سنين سجنه؛ فكلما طالت كان أرقى،... بمعنى تتناسب المناصب القيادة بعدد سنين الابتلاء، لهذا سميناها الشرعية الابتلائية، وهي كسابقتها مثل على عدم وضوح المعايير العلمية الواجب توفرها في القيادة والمؤسسة.

هـ - فقد النزوع نحو العمل الجماعي وتغيب الاجتهاد الجماعي في العمل السياسي والتغيير الاجتماعي: الزعيم بمجرد نيله المنصب، يسعى جاهدا إلى إيجاد مجموعة تاتمر بأمره وتخضع لنوحيته عوض الخضوع للمبادئ العامة التي تحكم المؤسسة سواء كانت سلطة (تنفيذية، قضائية، إعلامية،...) أو حزبا أو حركة اجتماعية،... يحكمنا التخلف والانحطاط في تصورنا للعمل الجماعي (٨).

و - غياب عقلية التنازل لصالح المجموع، المعتبر في الغالب عن التوافق لمصلحة الأمة: المفقود لنزعة العمل الجماعي داخل مؤسسته الأصلية، ينزع إلى

إلغاء الآخر وإن أبدى شيئاً من النزوع إلى قبول الآخر، إذ لو كان كذلك لأبدى قبول الأمر في مؤسسته قبل التبحر بالتكني الأمر أمام الملاء...، ومن كان هذا شأنه لا يمكن أن يبحث عن التوافق لصالح الأمة، بقدر ما يسير حيث تجره المنفعة الأتانية، سواء كانت منفعة زمرية أو مجموعة توافقت أهواها...،

إن البشر بطبعهم ميالون إلى تصديق الحال (التصرفات) بدل المقال (التصريحات)؛ فمن أراد بيان ميله إلى التوافق من أجل مصلحة الأمة، فليبد ذلك في مؤسسته ومع أقرب الناس إليه.

حصلت تلك النقائص بفعل مجموعة من العوامل، سميتها في هذه الورقة المشوشات الفكرية، وهو ما نحاول عرضه في الفقرة اللاحقة.

ثانياً : المشوشات الفكرية

تعتبر المنظومة التربوية (التعليم بجميع مراحلها وفلسفته ومقاصده) مصنع الإنسان الذي يزد استساخه، إذ تعتبر المنظومة التربوية سلسلة مترابطة من المراحل التي يمر بها الإنسان في تكوينه بدءاً من مرحلة التعليم الابتدائي وانتهاءً بالتعليم الجامعي، إضافة إلى التعليم الموزي كالأُسرة والمساجد أو غيرهما، وي طرح بهذا الصدد سؤال أساسي مؤداه، ما هو نموذج الإنسان الذي يراد تكوينه في منظومتنا التربوية الرسمية وغير الرسمية؟

نسجل بهذا الصدد الملاحظات الآتية:

أ - النظام التعليمي في بلداننا يصنع وعياً مزيفاً، بسبب شغل التلاميذ والطلبة بمشاكل وهمية لا وجود لها في غير محيطة واضعها، رغبة منهم في تصفية حسابات سياسية أو فكرية مع جهة معينة، بغرض إقصائها من التأطير الاجتماعي؛ فأصبحت المنظومة وسيلة وآلية في يد الساسة ومفكرهم في تصفية الحسابات مع المخالفين وخاصة المناوئين لمشاريعهم. (٨) وقد حاول الغالب الوقتي الاستحواذ على التعليم لصناعة وعي جديد يقبل الغزو ويؤسس ويوصل لقبوله، مما قد يقضي إلى اجتناب التفكير في مقاومته فضلاً عن مقاومته بالفعل، وما مال أصحاب الحضوة فينا إلى قبول هذا المسعى أو السعي إلى الحد من آثاره السلبية إلا بسبب غربتهم عن مجتمعهم، وهو أكبر دليل انحطاطهم وتخليقهم عن ركب أمتهم من الناحية الفكرية على الأقل، إذ لو كان لهم بالأمة اتصال ما رضوا بهذه الأفكار المسمومة، ولأعلنوا أنهم مع أمتهم في خندق واحد... لكن هيهات؛ فالانتماء ليس كلمات جوفاء، بل هو التزام وتضحية.

ب - التعليم الانتخابي القاصر: عمل التعليم على تنمية قدرات الباحث في مجالات العلوم التي لا أوطان لها، ولكنه يفند إلى العلوم والخلفيات الفكرية التي تضع جداول لصب تلك العلوم في النهر العام لتقدم الأمة، بحيث تيسر للتلميذ التجذ في فيلق المرافعة عن مصالح الأمة يتمثل آمها وإمالها، ويجعل من التقدم قضية الجميع.

ج - شغل بالمعارك الهامشية: تشتغل بعض برامج التحصيل ببعض المسائل الميئة من مرافدها، بحيث يندفع الباحث إلى صرف طاقات لا حصر لها فيما لا يفيد الأمة في حاضرها أو مستقبلها، بل يشعلها عن التفكير في مصيرها الحضاري والتربوي والاجتماعي فضلا عن السياسي، ولا يبعد من ذلك تعليق نهضتنا بتقليد الغرب في كل ما نقل عنه، دون تمييز ودراسة موضوعية، إذ ينصوّر مقلد الغرب خصومات وهمية بين دين الأمة وتقدمها المادي والمعنوي.

د - الاستغلال بما يفرق: الأدهى والأمر أن يشغل الباحثون بما يفرق الأمة، وتيسير استعمارها ثم استعمارها بأقل التكاليف، وقد كانت تلك المعارك هي الغالب - استجابة لنزوة حاكم أو خضوعا لضغط غالب.⁽⁹⁾

هـ - الغفلة عن المشاكل الحقيقية (الأسئلة المبعدة): إبعاد أسئلة النهضة والتنمية والتقدم ... وتعويضها بخصومات وهمية الراح فيها خاسر، خصومات يحكمها الانتصار للنظام السياسي القائم أو خضوعا للمجموعات (محلية أو جهوية أو دولية) الضاغطة في الساحة السياسية والثقافية والفكرية والاقتصادية.

و- قصور النظام الاجتماعي ومضاعفاته الثانوية:

- السلطة مكسب: اجتماعيا مازلنا منذ لحظة الدولة الوطنية (خروج الاستعمار) إلى يومنا هذا نكرس فكرة أن السلطة مكسب لا يمكن التنازل عنه، فأصبحت السلطة حامية منسبها والمرافعين عن كيانها السياسي، غير آبهة بما آل إليه أمر الطبقات المسحوقة إلا في لحظات الحاجة اليهم (الانتخاب، الاستعانة بهم في فض الخصومات الفكرية، تصفية الحسابات السياسية، التضحية من أجل المصلحة الوطنية أو القومية، الخطر الأجنبي)، هذا بالنسبة للأنظمة أو الأحزاب الحاكمة، أما بالنسبة للأحزاب السياسية المساهمة في المشهد السياسي، فإنها عاجزة عن تحويل فكرها الاجتماعي إلى برنامج اجتماعي (هذا إن كان لها فكر اجتماعي) يحكم الحياة العامة للمجتمع، بسبب عدم امتلاكها آليات تحويل الأفكار إلى واقع، بسبب المنظومات القانونية التي تضعها القوة المتحكمة في الفعل السياسي، كان

الحاكم مانع دون تحويل الفكر السياسي إلى وقاع اجتماعي، زيادة إلى رضا بعض الممثلين السياسيين بالدور الذي تحدده له السلطة الحاكمة... وهي تصرفات تكل بنفسها على انحطاطنا حكاما ومحكومين راعي ورعية.

- **إنكار جدوى الفعل السياسي:** زهد عموم أفراد المجتمع في الممارسات السياسية، بل أفضى بهم الأمر إلى إنكار جدوى الممارسة السياسية في بلد يعجز فيه الممثلون السياسيون عن تحويل فكرهم السياسي إلى برنامج سياسي يحسن الأوضاع الاجتماعية للناس (وهي اللغة الأكثر فهما لدى عموم الناس)، مما يدفع الناس إلى الاستقالة الطوعية من التفكير في مزاوله السياسية فضلا عن مزاولتها بالفعل.

- **قبول العدوان في المسائل الاجتماعية:** الاستقالة من مزاوله السياسية بسبب ما أشرنا إليه، يقضي إلى التأسيس لسلبية قائمة، تقضي في كثير من الأحيان إلى قبول العدوان الاجتماعي، بسبب فقد المجتمع الثقة في القدرة على تحويل غضبه السياسي إلى برنامج سياسي، وذلك بسبب ضعف الأداء السياسي والعجز عن وضع آليات جديدة تتجاوز المعوقات التي وضعها المتحكم في سوق السياسة والاجتماع، وقد تنتقل فقد الثقة إليه، فيفقد الثقة بقدرته على تجاوز المعضلة القائمة، فيصبح العدوان مقبولا لا مفر من قبوله، لهذا أؤكد أن الممارسة السياسية الراشدة لا بد أن تعمل على إيجاد آليات تسمح بمشاركة أكبر في تسبير شؤون الأمة والمجتمع، وإلا ستؤسس لمؤسسات عملية بسبب سوء تصرفنا السياسي، وقد وك هذا الخلل أثرا جانبية خطيرة، لعل من أهمها:

التسيب والاحتلال: ظهر التسيب والاحتلال بمفهومه الاجتماعي الدال على لطلاق البائن مع موروث الأمة وثقافتها، فلا يعار أي اهتمام لقيم المجتمع في مزاوله السياسة أو تسبير الإدارة؛ فترى الإداري فاقدًا للأمانة، سارقًا، عميلًا، مختلسًا، بل تراه موصوفًا بكل الموبقات التي يأنف عن الاتصاف بها عموم الناس فضلا عن خاصتهم.

قبول الغزو الفكري: هيمنة التسيب والإهمال الاجتماعي، كان سببا في إهمال الإحساس بالانتماء، فيقبل الغزو من غير إنكار أو تفكير في مقاومته، والأدهى أن يتحوّل الغزو إلى حالة عادية قابلة للتعايش، بل قد تصبح جزء من المشهد الثقافي والسياسي العام للأمة، وفي ذلك أقصر طرق صيرورة الغزو عاملا ضاغطا

وصانعا نوعي مغشوش يركز على العمالة بجميع معانيها الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تهيؤ النفوس للقطيعة مع الإسلام: يهيئ الغزو الفكري لقبول القطيعة مع ثقافة الأمة وموروثها الحضاري، بل ويتجاوز ذلك إلى رفض خيرة الأسلاف فضلا عن الأصول التي تؤسس لرؤيتنا للإنسان والكون والحياة المادية والمعنوية: فتحول عن أمتنا ونقبل الانفصال عنها في عاضيبها وحاضرها ومستقبلها، بسبب التساهل في التعامل مع الغزاة الجدد، أو قبول المساومة في الأصول النظرية التي تقوم عليها رؤيتنا للكون والحياة.

التشكيك في نموذج الإنسان الذي تصنعه منظومتنا الفكرية والتربوية والحضارية والاجتماعية: القابل للقطيعة مع الانتماء الحضاري للأمة، يضطر إلى رفض نموذج الإنسان الذي تصنعه المنظومة العقيدية الفكرية الأصيلة في أصل وضعها النظري، وإمعانا في تجاوز هذا النموذج يشكك في الأصول التي تصنعه بالكون ومكوناته المادية والمعنوية، فتصبح أصولنا مهددة بسيل جارف من التشكيك والتهميه والاثام، بغرض تيسير الانقضاض على أهلنا وتبيئتهم لقبول الاستخفاف الفكري والحضاري.

إصابة علوم الشريعة الإسلامية والعلوم الاجتماعية في فعاليتها: لا يتأتى الخلوص إلى النتيجة السالفة الذكر ما لم تحل الأساليب الجديدة دون الأفكار المحركة ومصانعيها، وأول مصانع الوعي المدرسة وملحقها (المسجد، الجامعة، الأسرة،...) ومحرك تلك المصانع المعارف المستندة إلى الوحي، المستفيدة في صياغتها في شكل برامج من تراكم الخبرة، لهذا بدأت الحيلولة دون مقاصدها الأصلية، فتحوّلها عن الهدف المنشود، فتصاغ بشكل يصنع وعيا مزيفًا أو على الأقل يمنع صناعة وعي صحيح، كأن يصبح السؤال المركزي بعد التعمق مسائل التاريخ والوقوف دونها أو الاهتمام بالفروع والمذهب عوض الأصول التي تصنع وعينا بالكون والحياة.⁽¹⁰⁾

ذلك هو وضع أمتنا، فما السبيل إلى تجاوز الخلط الطارئ، والتأنيس لمستقبل أحسن، هذا ما سعيته في الورقة المقدمة بالأمول.

الأمول في زمن التخلف:

المخرج من أزمة الانحطاط يفرض من زاوية وظيفية التركيز على بيان أساسيات الخروج من دائرة التخلف، وقد أجملتها الورقة في مجموعة من الأفكار الرئيسية:

عودة جميع أفراك الأمة حكاما ومحكومين إلى الانتساب الإيماني بوصفه عامل التحريك الأساسي.

الابتعاد عن فكر الوصاية والإقصاء.

إيجاد الوعي الحضاري المعزّز عن الانتساب الإيماني.

إبداع آليات جديدة تُترجم انتمائنا إلى الأمة في منظومتها التربوية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تعهد الفرد نفسه بالمراقبة المستمرة، بما ييسر له المحافظة على تغيّره ونمو ذلك التغيّز.

المأمول تفصيلا:

تحقيق الرهانات المنوطة بالأمة، يقتضي التأسيس لنظرة جديدة، تتجاوز الطرح الذي يقسم الأمة إلى سلطة ومعارضة. فيجب أن تتضافر جهود الجميع سلطة ومعارضة وباحثين ومعلمين ومتعلمين وسائر أفراد المجتمع على القيام بوظيفة التغيير المؤسس للتقدم، بالنسبة للقائمين معرفيا ونفسيا، وبهذا الصدد يجب أن نعمل على تحرير الفكر الاجتماعي للأمة من ضغط الواقع من خلال اكتشاف الخطر الذي يتهدد الجميع سلطة ومعارضة، سواء تعلّق الأمر بضغط داخلي، يرجع إلى السلطان أو الرعية، أو خارجي يرجع إلى القوة الغالبة في اللحظة الراهنة (أمريكا) ينبغي بهذا الصدد أن تتفق كلمة الباحثين على أن التقدم وتجاوز التخلف تكليف عيني في حق الأمة المسلمة جمعاء، حكاما ومحكومين، ومن هذا المنطلق وبغرض تمكين هذه الفكرة ينبغي العمل على أن تتحوّل فكرة التقدم والسعي إلى تحقيقه هدفا للجميع سلطة ومعارضة، ويسمح هذا المسعى بتحقيق مكاسب عظيمة، ويجنبنا الوقوع في مطبات خطيرة:

1 - تحرير الفكرة من الضغوط:

تصبح الدعوة إلى التقدم ملكا مباشرًا للأمة، فلا يمكن لأعداء الأمة أن يجعلوا محاربة المخالف السياسي الإسلامي مطية لمحاربة الدين الإسلامي نفسه، مما يسمح بالتمييز المطلق بين الدعوة إلى التقدم كضرورة حضارية والعمل السياسي بوصفه تصورا إنسانيا للمشروع السياسي الإسلامي في إطار إكراهات واقعية معينة.

2 - حضارية المسعى إلى التقدم:

ينبغي على العاملين على التأسيس للتقدم أن يعلموا أنهم في الصفوف الامامية للدفاع عن الموروث الحضاري لهذه الأمة، إذ بالتقدم نؤسس للخزان البشري والمادي والمعنوي الذي يسمح بالانتشار الحضاري للفكرة، بسبب تحويلها إلى مشروع عملي، وذلك نفذ لأساليب الدعوة إلى فكرة وأوضح دليل على نجاحها ونجاحها، وهم بهذا العمل سينشئون جيلا جديدا يمثل خلفية بشرية، حرية بأن يؤمن على حمل الأمانة إلى الأجيال اللاحقة دون أن يكونوا مقيدين بغير ما يمليه عليهم لتنمؤهم لأمتهم..

3 - السعي نحو التقدم تكريس للاستقلال:

تقال الأمة من استقلال بقدر تقدمها، فالاستقلال يتناسب مع التقدم، من هذا المنطلق، ينبغي العمل على تمكين استقلال الفاعلين في مشروع التقدم عن السلطة السياسية (المقصود السلطة وليس السياسة)، وطريق تحقيق ذلك أن تعمل الأمة على تمويلها بالطاقات البشرية المؤهلة، كما يجب على السلطة أن تشجع ثقافة التقدم، بجعله هدفا لجميع المساعي التربوية والتعليمية والسياسية والاجتماعية.

4 - جعل السعي نحو التقدم فوق التحزب السياسي:

ينبغي على العاملين للتقدم على اختلاف أماكن مرابطتهم (في أي منصب كان)، الابتعاد عن ربطه بالاستغلال بالسياسة، فحسب، بمناسبة هذا الفريق ومعارضة ذلك، لأنهم إن أصروا في مثل هذه الظروف على حصر التقدم في السياسة بمفهومها الضيق وهم سعيهم نحو التقدم وامتد الاهتمام السياسي على حساب المد الحضاري المطلوب⁽¹¹⁾ . وفي هذا الصدد لا بد من تدقيق، حرصنا على الابتعاد عن السياسي بمعناه الضيق (تأسيس الأحزاب، الانتخابات، والترشيح والترشح، والحملات السياسية التحسيسية، ..) لا عطلق العمل السياسي لأنه لا يتصور إبطاء المطالب السياسي من قائمة التكاليف الشرعية والوطنية، لأننا نرى أن فصل السياسي عن الفكري والعقدي أمر مستحيل عند عامة المسلمين فكيف بخاصتهم، وبيدوان طبيعة العصر نقرض اختيار مسلك جديد في الدعوة إلى التقدم بجميع محتوياته التشريعية والسياسية وإن كانت السياسية غير ظاهرة للعيان وفق ما تقتضيه الإكراهات الفكرية والحضارية الجديدة.

مواصفات رجال التقدم ومسلكهم:

ينبغي أن يتوفر في مسلكهم مجموعة المواصفات الرئيسة.

أ - مركزية المصادر في خطاب التقدّم:

مركز هذه المواصفات ومدار رحاها بالنسبة للأمة الإسلامية أو المنتسبين إليها حضارياً، يبدأ ببيان موقع القرآن الكريم والسنة النبوية في سلم المعارف الإسلامية، إذ باكتشاف هذه المنزلة تميّز العقلية الإسلامية بين المنتج المعرفي الزمني (والذي يجب أن يقرأ من قبل أهل الاختصاص قراءة نقدية) والوحي الإلهي الذي جعله الخالق سبحانه وتعالى فوق الزمان والمكان، أي أنه يتعالى عن الخبرة المعرفية الإسلامية والإنسانية، وسيمكننا ترتيبها من تجاوز بعض مظاهر انحطاطنا الفكري والتربوي و....، إذ تسمح بثلافي الوقوع في أمراض نفسية وفكرية واجتماعية تصيب الحضارة في مقاتلتها، منها على سبيل المثال لا الحصر:

* - تغليب الزمني على الوحي كان سبباً في تغيب البعد الوظيفي للدين الإسلامي، إذ يرجع إليه بعث الخلافت الفرعية في الأمة وتغليبها على ما يجمعها، فيكون تقديم القرع على الأصل سبباً في ضياع الأصل والقرع على حد سواء، وفي ذلك أوضح مظاهر الانحطاط المعرفي والقيمي.

* - تغليب الزمني على الوحي كان سبباً في إشاعة القراءة التبركية للقرآن الكريم وإبعاد التلاوة الوظيفية التي يخضع لها القلب ويقتنع بها العقل وتخضع لها سائر الجوارح؛ فكانت تلك الأساليب في تأسيس تدين متخلف غارق في التاريخ على حساب الرؤية الحضارية التي يؤسس لها الدين.

* - تغليب الزمني على الوحي كان سبباً في إبعاد القرآن الكريم والسنة المعطهرة من مصاف المصادر اليقينية في مجال المعارف المتعلقة بأمور العقائد (الإلهيات، النبوات، السمعيات، نشأة الكون، مصير الإنسان، بداية الإنسان الأول) أو المتعلقة بمصالح الدنيا في المعاش وتنظيم شؤونه؛ فأقدم العقل فيما لا يملك اليات الخوض فيه، فأصبح تائها في بيداء لا ساحل لها، وحصر التدين في استنساخ نماذج تاريخية لها ظروفها الخاصة، وأهمل البعد الحضاري للدين.

ب - واقعية التفاعل مع المعطيات:

يجب التفاعل الموضوعي مع الإكراهات الواقعية، وينبغي اختيار أسلوب جديد يركّز على محركات الفكرة الإسلامية من الناحية التربوية الروحية بوصفها الخزان الرئيس لأي تغيير حضاري أو فكري أوسعٍ محتمل نحو تقدّم، وبهذا نجلب الأمة بوصفها معبرة عن توجه حضاري إنساني الوقوع في كثير من المطبات القاتلة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الدخول في معركة أعد الخصوم ظروفها المادية والمعنوية والنفسية.
- التفاعل النفسي التشنجي مع أحداث بالغة التعقيد من حيث الموضوع والمنهج (وهو ما ديز دليل للعامّة أو من سار في ركابهم من المتعلمين).
- الخلط بين القضايا الإستراتيجية والمسائل التكتيكية في التأسيس للتقدم.
- إبعاد التوجهات الحضارية من ساحة الفعل الفكري وتمكين العقلية الجزئية من القرارات المصيرية، وقد كانت هذه العقلية سببا في الانتصاع إلى الأحداث بعقلية الصببية الذين لا يعلمون من مقاصد الأمور وحقيقتها شيئا، فتأخرت الأمة بفعل تلك التصرفات الرعناء أو على الأقل صرفت طاقات عظيمة في مجالات لا طائل منها.

ج - الولاء للأمة عوض الولاء للأحزاب والتيارات الفكرية:

تعددت مناحي الحديث عن هذا الهدف، فيمكن أن يتناول من جية العمل الفردي كما يمكن تناوله من جية التوجه الحضاري الذي يجب أن يمكن الفهم الجماعي للأمة ووعيها، فيظهر في التعامل المذهبي كما يظهر في العمل الحزبي... وهكذا في سائر مناحي الحياة، لهذا يظهر وجوب الولاء على مستويين أولهما مستوى العمل الحضاري وثانيهما مستوى العمل الفردي.

أ- الولاء على مستوى العمل الحضاري

يجب أن يعاد الولاء للإسلام كتوجه حضاري عام شامل لكل مناحي الحياة على مستوى كل المجتمعات الإسلامية ولا سيما على مستوى النخب المثقفة، وقد جسد هذا القيم كثير من علمائنا سلفا وخلفا، وفي هذا المقام قال أحدهم: "أنا رجل شرفي الأول والأخير أن أقول وزراء محمد ﷺ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له (الانعام 162-163) أنا أشعر حين أكل بأن الله هو الذي وضع اللقمة في فمي، وحين أفكر بأن هو الذي أسرج مصباح عقلي بأني يستحيل أن أسوي بين مؤمن وكافر، أو أشرك مع عابد عجل أو عابد نفسه وحدها في عمل ما لرفع مستوى البشر..." (12)

وقد تجسدت تلك الغاية في العمل على تمكين الولاء للإسلام من الزوايا الآتية:

- يجب على المهتمين بالتقدم بإصلاح الواقع الإسلامي أن يعملوا على فهم وإفهام غيرهم بأن الولاء للإسلام كتوجه حضاري - هدفه إصلاح الإنسانية وإنقاذها من الظلم بالعدل ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة - ينبغي أن

ينظر إلى الإسلام من جهة كونه " ينظم شؤون البيت والشارع، والمدرسة والديوان، وعلاقات المرء بنفسه والآخرين، وواجباته في الحرب والسلام، وضوابط المعاملات الاقتصادية الرحيمة"⁽¹³⁾، خاصة وقد عرف القريب والبعيد أن الإسلام نظام متكامل، وأن إنفاذ بعض تعاليمه مع غيبة البعض الآخر لا يقيم مجتمعا إسلاميا، وأن إصدار فتاوى في الحالات العارضة مع إغفال الملابس قد يسيء إلى الإسلام أو إلى الأمة أو إليهما معا.⁽¹⁴⁾

لا يمكن تحقيق الولاء للإسلام إلا إذا فهم أن الإسلام كنين للحضارة الإنسانية فوق المذاهب الإسلامية نفسها، وحق لنا القول بأنه الأصل الذي انبثقت عنه تلك الفروع المعبر عنها بالمذاهب (بصرف النظر عن تقويم تلك المذاهب)، لهذا يجب الابتعاد عن التفتيح في الفروع الصغيرة التي ستقضي مع مرور الأيام على الأصول نفسها، وفي هذا سياق يقول أحد أعلامنا: لاحظنا بحزن أن الاهتمام بالفروع الصغيرة غلب على العبادة والمعاملات، أما البحوث (ذات الدور الحضاري الفعّال) في الفقه الإداري والاقتصادي والسياسي فهي قليلة، ولعل بعضها كان مقلقا.⁽¹⁵⁾

ويؤكد التوجيه نفسه بقوله: " ولازلت أرى أن فقه الفروع لا ينبغي أن يقسم الأمة شيعا، ولا أن يصرفها عن أركان الإسلام الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الأركان..."⁽¹⁶⁾، ويكرر النصيحة نفسها بقوله: إنه في بعض الفروض والتفاصيل، ما لا يجوز أبدا أن يقصد ودا أو يوقع خصاما، إن الأسس الذي تحرص عليه هو العقائد والأخلاق، إنني أميل إلى مدرسة الرأي مع احترامني لأحمد بن حنبل وتقديري لصلابته وتقواه... وأشعر أحيانا بأن الخلاف - في الفروع والتفاصيل - جزء من المجتمع الواحد -... وينبه في السياق نفسه إلى عدم تأثير الخلافات الفرعية في الهم الحضاري لدى الأمم الأخرى، حيث يقول: ففي الولايات المتحدة حزب للديمقراطيين وآخر للجمهوريين، انيما متفقان في الولاء لدولتهم والانتصار لها عالميا، ومع ذلك فالجدال بينهما مستمر في شؤون سني، فلماذا يتطير البعض من الخلاف الفقهي وينادي بالويل والثبور وعظائم الأمور⁽¹⁷⁾ يجب أن يكون الولاء للإسلام بسموله، لأن الإسلام ليس نظاما من سائر الأنظمة المعروضة ليختار منها المسلم ما يشاء، ويهمل ما يشاء، وإنما هو نظام منبثق رأسا من عقيدة التوحيد ومعبر عنها في واقع الحياة الاجتماعية⁽¹⁸⁾

ضرورة توجيه الطاقات إلى البعث الحضاري بتمكين الولاء للإسلام من النفوس، وفي هذا السياق يستحسن التقليد في أحكام الفقه للعامّة ومن في حكمهم، ومن المستحسن أيضا حثهم على توجيه قدراتهم العقليّة إلى البحث الدقيق في مجالات تخصصهم بما ينفع الأمة في مشروع التقدّم، وفي ذلك يقول أحد المهتمين بالدعوة الإسلامية في العصر الحديث: استحب التقليد المذهبي للعامّة ولأشباههم، وللأخصائيين في علوم الكون والحياة وشؤون الدنيا، حتى لا تشغليهم الفضول عن الأصول، وأعني الأصول ما توفروا عليه من مهارات فنية وحيوية، مدنية أو عسكرية لا بد منها لدعم أجهزة الجهاد ورفع كفاءتها، فإن مصاب المسلمين في هذه فادح قاصح⁽¹⁹⁾

يفرض الولاء للتوجه الحضاري من الناحية المحلية * الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي * أما الناحية العالمية فينبغي * الاستفادة من كتوف الفلسفة الإنسانية في علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ ومزج هذا كله بالفقه الصحيح للكتاب والسنة⁽²⁰⁾، وينتج عن ذلك العمل تجاوز تخلفنا الذي كان بعيد المدى بفعل التفرقة التي مزقت جماعتنا وأذهبت ربحنا وأحبطت سعينا⁽²¹⁾، كما يفرض حسن التعاون مع جميع التيارات الفكرية التزيية في مجال السعي نحو التأسيس لمشروع التقدّم.

إن هيمنة الولاء الحضاري لدى المسلمين سيقتضي لا محالة على التعصب وعلى تقديم المذاهب عن الولاء لله، كما سيتحقق بينا الولاء العمل على التمكين للإسلام بجميع أبعاده الوظيفية التي تشح على جميع ميادين الفعل الإنساني، فيظهر الولاء في الأداء السياسي والاجتماعي مثل ظهوره في العبادات الفردية إذ الهدف تحقيق مطالب شرعية، بعد هذه الأفعال في حقيقة الأمر عن إعادتها الوظيفية⁽²²⁾.

ب- الولاء على مستوى العمل الفردي

لعل من أهم مظاهر العزة والامتنان أوليات مؤهلات التقدّم على المستوى الشخصي، الولاء الفردي المتجلي في القيام بالواجبات الشرعية دون خوف أو حرج أو خضوع لضغوط الواقع الفكري أو السياسي. ولتبدأ يستغرب من مسلم هذا العصر الذي يستحي من الصلاة بينما ينادي غيره بعبادته دون وجل أو حرج رغم كونها باطلة عقلا ونقلا.

إشاعة النقد والتحصيص أهم عوامل النقد: يجب على المسلمين عدم الضيق بالنقد الموجّه لهم، بل يجب مجابهة شبه الردود العلمية المترّنة تمكيننا لفكرة الولاء بمحتواها العقدي والفكري، وفي هذا السياق وتنفيذا لهذه القاعدة ناقش علماؤنا المستشرقين والعلماء المعاصرين أومن لفّ لفهم، كمنافضة الغزالي لخالد محمد خالد في دعوته إلى إبعاد الدين الإسلامي عن السياسة، وخاصة في قوله: إن الدولة عرضة للنقد والتجريح، وعرضة للسقوط والهزائم والاستعمار، فكيف نعرض الدين لهذه المهانة؟

فقال الشيخ الغزالي: "الدولة عرضة للانتصار والانهيار، فإذا تأسست على الدين فأبي ضير على الدين أن يكون في حال النصر زماما يمنح "تتسدر من الطغيان، وفي حال الهزيمة حافزا يغري بالمقاومة ويدفع الشعوب إلى رد العدوان، ولنفرض أن حكومة دينية محضة سقطت أمام أعدائنا فهل ينقلب الحق باطلا لأنه اتخذ في معركة؟ أي عار على الدين إذا لحقته الهزيمة على يد الدولة التي تتفاح عنه؟"⁽²³⁾، لهذا فالهزيمة تبين قلة حيلة المدافعين، مما يوجب عليهم العمل على تحسين قدراتهم وتحصيلهم العلمي وشحن هممهم ليتسنى لهم تحقيق الأمر الإلهي في كل مناحي الحياة، لا أن يبعثوا الدين عن ميادين الحياة، لأنه غير متلائم مع الشريعة الإسلامية أصولا وفروعا وخبرة، ويعود الدين مهمته ببعث روحه من جديد.

د- إعادة الروح لعقائد الإسلام وشرائعه:

لا يعود الدين إلى وضعه الأصلي كعامل تحريك مؤسس للحضارة الإنسانية، إلا إذا عادت الروح إلى تعاليمه، وتبعث الروح في تعاليم ديننا العقديّة والتشريعية والأخلاقية.... مركزين على أبعادها الوظيفية التي تتجلى في جميع آثار الفعل المنتظر من المسلم.

تتجلى هذه الروح في الجانب النفسي والمعرفي الثقافي، كما تظهر في الفعل السياسي والاجتماعي والفكري بصفة عامة، وعموم تلك الأهداف المتوخاة تبين مركزية الهم الحضاري في الخطاب الإسلامي الراشد الذي يجعل من أهم مقاصده بعث الروح في تعاملنا مع تعاليم ديننا.

1 - إعادة الروح للعمل الفردي

يتوخى في هذا الجانب تحقيق مجموعة الأبعاد الوظيفية المنتظرة من الالتزام بالشريعة²⁴ نظرا لابتعاد المسلمين عن مقاصد الشريعة وغايات عقائدها، وتتوجب عملية إعادة الروح لتعاليم ديننا في الجوانب المعرفية أولا والنفسية ثانيا والتفنيية ثالثا.

أ/ الجانب المعرفي :

ينبغي على الصحوة الإسلامية ورجالها العمل على إحياء الثقافة الإسلامية الصحيحة، وتكوين جيش شجاع للمحافظة عليها في الداخل والحديث عنها في الخارج، لأن هذا العمل أهم ألف مرة من تحقيق الاستقلال السياسي لبلد ما في إحدى القارات... ما قيمة الاستقلال إذا فقدنا فيه علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا⁽²⁴⁾

ويجب في هذا السياق التنبيه إلى ما أصاب الثقافة الإسلامية من قصور في عدة جوانب يمكن اختصارها في جانبين أحدهما تأسيلي وثانيهما نقدي.

ومن أهم تجليات التمكن المعرفي الوعي الشامل، ووعي الرسالة ووعي الذات ووعي الموقف، فيعرف فكرته ونفسه وموقعه، وعتوده، وماذا يريد في الفترة المحددة وكيف السبيل للوصول إلى ذلك المبتغى⁽²⁵⁾

الجانب التأسيلي:

حثّ علماءنا على استثمار مجموع جهودنا الفكرية في التأسيس للفهم الصحيح للدين الإسلامي الذي تأثر بفعل الأيام، حيث تحول عند كثير من الناس مراسم وشعارات لا تكون فضائلا ونظاما أولن تَمس ظواهر الأشياء ولا تتغلغل في صميمها⁽²⁶⁾

وفي هذا الصدد يوجه العلماء إلى القراءة الوظيفية والعمل الثقافي، إذ القراءة عامل مركزي في السعي نحو التقدم، القراءة هي الشيء الوحيد الذي يعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشؤونه، وهي التي تضع حدودا صحيحة لثنى المفاهيم، وكثيرا ما يكون قصور المفكرين والمناضلين راجعا إلى فقرهم الثقافي، ولا طريق لتجاوز ذلك بغير القراءة الموسوعية الشاملة، يقرعون كتب الإيمان، ويقرعون في كتب الإلحاد، ويقرعون في كتب السنة، كما يقرعون في كتب الفلسفة، وباختصار يقرعون كل منازع الفكر البشري المتفاوتة، ليعرفوا الحياة والمؤثرات في جوانبها المتعددة.⁽²⁷⁾

وقد تجلّى ذلك الاهتمام الثقافي بتناول ميادين الثقافة الإنسانية فرعا فرعا، وخاصة تلك لها صلة بالواقع العربي والإسلامي المعاصر، زيادة إلى إحاطتهم بتقنياتهم، وكل ما من شأنه خدمة مسألة التقدّم في المجتمع.

واهتماما منهم بالجانب التأسيلي المؤسس لوعي التقدّم، دعوا إلى إعادة صياغة بعض العلوم الفاعلة في حياتنا الفكري والاجتماعية، بما لها من أثر في صناعة الوعي بالذات واللحظة الحضارية وما تفرضه من رهانات.

الجانب السياسي والاجتماعي :

العمل على تكريس الواقع السياسي على الحال الذي عليه، من خلال الابتعاد عن نقد الواقع السياسي بسبب فقد روح السعي نحو التقدّم في تصرفاتنا السياسية والاجتماعية، وخاصة في بيئة تميّزت بقمع واستبداد سياسيين لا مثيل لهما، من هذا المنطلق وفي إطار محاولة بعث الروح في التزامنا تجاه أمتنا يجب تثمين القيمة الوظيفية للنسائير التي تساهم في التأسيس القانوني للحرية أولا، وقيمة تلك الحرية في المساهمة في تنوير الرأي العام بالفكر الصحيح والمساهمة في نموه وازدهاره ثانيا. مرجع ذلك كله وضوح الخلفية الفكرية.

وضوح الخلفية المعرفية للمسعى التقدّم:

- الخلفية العقديّة والفكرية:

العقيدة الإسلامية في جانبها النظري، أساس تحريك المسلم وتجنيد اجتماعيا، فهي التي تسمح بتجنيد أصحابها في سلك الهم الاجتماعي المؤسس على رؤية حضارية معيّنة، ذلك أن فاعلية الفكرة ترجع أساسا -بعد صد وقبيلتها من حيث هي - إلى قدرتها على تجنيد الناس، ودعوتهم إلى الانخراط في سلك التغيير الاجتماعي ثم المساهمة في التغيير، ذلك أن تلك العقيدة لا تزال حية فينا⁽²⁸⁾، لما تملكه من تصور متميز عن الحياة والإنسان وفي مرتبتي العقائدية...الإيمان هو المخلوق الوحيد من بين كل مظاهر الوجود الذي يملك أربع خصائص ممتازة...وهي الوعي والإرادة والحريّة والاختيار والقدرة على الاختيار والمنع والخلقية⁽²⁹⁾

هذه الخصائص بقدر ما تمنحه السيطرة والقدرة على الطبيعة تجعله مسؤولا أمام هذه الإرادة الواعية الخلافة المطلعة والما فوق السانية، أي الشعور الذي تتبعت منه معجزة الحركة والنظام والحياة، وهذا يفرض إعادة النظر في

رؤيتنا وفهمنا الديني، والعودة إلى الإسلام الحقيقي، والوقوف على الروح الحقيقي للإسلام الأول⁽³⁰⁾، الإسلام الذي يدعو أتباعه من منطلق وجودي واقعي إلى الارتفاع بالواقع إلى مستوى المسؤولية الاجتماعية التي يفرضها الدين الحقيقي غير الممسوخ، الذين يرتفع بأصحابه إلى أرقى مستويات التقدم النظري (التصوري)، ومركز تلك المحركات التوحيد.

التوحيد أبرز محركات التقدم:

التوحيد مركز العبادة في الإسلام ومحرك فعالية المسلم في الحياة بجميع مكوناتها، ولهذا التوحيد تحليات ثلاث، أولها صلة الإنسان بربه، وثانيها صلة الإنسان بسائر البشر، ثالثها صلة الإنسان بسائر المخلوقات الكونية.

١ - صلة الإنسان بربه:

قوام التوحيد في جانبه الإلهي، وصف الله بجميع صفات الكمال وتزييه عن جميع صفات النقص، لهذا صلة الإنسان بربه هي صلة عبادة وتعظيم وإجلال وخضوع لما شرع، وبهذا التميز من جهة الصفات والأفعال، كمال إلهي يقابله نقص بشري، قوة إلهية يقابلها ضعف بشري، وعنى الله يقابله فقر البشر إلى خالقهم، وقد عبرت الألفاظ القرآنية عن تلك المعاني بأبلغ تعبير، "الله أكبر" تفيد صيغ الكمال المطلق وتعبير عن الحاجة البشرية المطلقة لخالقهم، لأنه أكبر من جميع الوجود⁽³¹⁾، ومؤسس لنجاوز التخلف الذي يمثله الشرك والكفر.

ب - التوحيد في جانبه البشري:

يؤسس التوحيد فكرة وحدة البشر من حيث مادة خلقهم وعناصر تولدهم وبقائهم ووحدة مصيرهم، فالإنسان فعل من أفعال الله، خلق الله جميع أفراد الأسرة البشرية من مادة واحدة (تراب) جعل خلقهم على نسق واحد (التناسل)، ويصيرون إلى مصير واحد (الموت). وهو ما يؤسس لصور كرامة الإنسان في جميع أحواله، ذلك أنها نظرة مبنية على جوهر الإنسان.

يمثل التوحيد في جانبه المتعلق بالبشر حلقة نظرية أساسية مؤسسة لنظرة تكميلية لبني البشر جميعاً، والتي منها تبدأ فكرة التقدم المبنية على مساواة البشر جميعاً، مجاوزاً في ذلك الفكر القائم على التمييز بجميع أشكاله.

- دور التوحيد في تحرير الإنسان:

بحوي التوحيد في العقيدة الإسلامية من ناحية مضامينه البشرية عنصراً فاعلاً في التأسيس الموضوعي للتقدم المعنوي والنظري، إذ يوصل للحرية⁽³²⁾ (تركيز

أصولها في النفس البشرية نفسها (وحدة الخلق، وحدة طريقة التنازل، وحدة المصير، ...)، من منطلق ما سبق تقريره، يعد التكرير -جميع صورهِ المعرفية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو...-، رأس الانحطاط والتخلف، طارنا على أصل خلقة الإنسان، ولا يقل عنه شناعة قبول الاستضعاف والاحتقار، ذلك أن الله كرم الإنسان في أصل خلقته ولقد كرمنا بني آدم، وجعل قبول الاستخفاف جريمة لا تقبل خطورة عن الاستكبار.

إن الإحساس بالتكريم الإلهي يمنع القوي من التكرير والاستخفاف بغيره، ويدفع الضعيف إلى الأخذ بحقه من القوي لإحساسه بالكرامة والعزّة التي غرّزت في أصل خلقته.

- المضامين الاجتماعية والتعميرية للفكرة:

الهداية الإسلامية السارية في عالم الأفعال الاجتماعية كالروح الباعثة للحياة في الجسد، تخرج الحياة من دائرة العبثية إلى الغائية والمقصدية المندرجة في إطار نسق متكامل شامل لجميع مظاهر الحياة، إنها إن مكنت (الهداية) من النفس اكتسبت الفعل البشري إنسانية منظورة في جميع مشمولات الأفعال، يؤكد تلك المعاني ربط بعض علمائنا وعلى رأسهم العلامة عبد الحميد بن باديس العيش للإسلام بالعيش لإسعاد الإنسانية، فضلا عن المساهمة في سعادة بني دينه، فينكر معقبا على أولئك الذين اعتبروا هذا الرأي (العيش للإسلام) ضيق أفق وتعصب، متحججين بقولهم أن ليس الإسلام وحده دينا للبشرية، ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان، فيقول الشيخ: نعم إن خدمة الإنسانية... واحترامها... هو ما نقصده ونرمي إليه، نعمل على تربيتنا... ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السيل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة، فوجب التفكير في الوسائل المرصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع... ثم يقول ونحن لما نظرنا في الإسلام وجنتاه الدين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها فيقول: ولقد كرمنا بني آدم، ويقرر التساوي والأخوة بين بني جميع تلك الأجناس، ويبين أنهم كانوا أجناسا للتمييز لا للتفضيل وأن التفاصل بالأعمال الصالحة فقط، فيقول: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم

لهذا انتهى الشيخ إلى أن العيش للإنسانية لا يتم إلا بالعيش للإسلام، يؤكد هذه الفكرة قوله: ... إيصال النفع إليها (الإنسانية) لا يكون إلا من طريقه فإذا عشت له

فاني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها، في جميع أجناسها وأوطانها...فيذا معنى أعيش للإسلام⁽³³⁾.

كما يدعو إلى رحمة الضعيف بصرف النظر عن مظاهر ذلك الضعف أو نوعه، ونصر المظلوم، والأخذ على يد الظالم، وحرم الاستعباد والخبروت بجمع وجوهه، ليس هذا فحسب، بل يدعو إلى الإحسان العام، وحرم الظلم بجمع وجوهه، ويأفل قليله عن أي أحد على أي أحد من النامر. قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَايُنَا قَوْمَ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدُوا الْعِدَّةَ وَمَا أُوتُوا إِلَىٰ النَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة 6) واللفظ عام يشمل الظلم بجمع أصنافه، فلا يقصر كما هو شائع على النواحي الاجتماعية والسياسية فحسب بل يندرج تحته جميع مضامين الفعل الإنساني، ولعل من أهم مشمولاته الظلم المعرفي الذي كان وما يزال أهم أسباب تدمير جسور التواصل بين العقلاء على مر تاريخ الإنسانية.

ونظراً للمركز الذي تحتله المسألة الاجتماعية في البنية الفكرية للعقيدة الإسلامية يمكن تجنيد المخالفين في سلكها، بما فيهم العلمانيين الصادقين في نيتي العدالة الاجتماعية، وخدمة المستضعفين و... لأن المنطلق الاجتماعي من الدين يستطيع معه المخالف الصادق أن يسهم بقسط وافر في تحقيق المطلوب الاجتماعي.

- مسلك التأسيس للدين:

التقدم فكرة وحالة نفسية قابلة للتجديد، والإنسان المتخلف صاحب عقل متخلف، وتبدأ رحلة تقدمه بتحرير عقله من أسر المعارف السابقة وأقوال الأجداد والآباء، وهو ما احتفل القرآن به، فدعا تأسيس العقيدة على العقل في أصل التوجه إلى الاقتناع، أما مباشرة الفعل وانتظار الثمرة فإنها من مشمولات القلب، لهذا كان أول ما يطالب به المؤمن الإقرار بالشهادة بعد النظر في الشواهد الميثوقة بين يديه في الأفق والآنفس، ثم ينتقل إلى التمثل القلبي لمطالب الشريعة، بوصف القلب سلطان الجسد، ويتجلى هذا المسعى في أن البرهان أساس الاعتقاد.

السمات العامة لحركة التقدم المأمول:

التأسيس لعمل علمي مؤسس للتقدم بفرض نهضة ظروفه الموضوعية، وعلى رأسها تربية روحية زائدة وولاء معرفي وقلبي وعقلي للفكرة.

1/ يعمل جميع المهتمين بمسألة التقدم على جعل التربية الروحية عنصرا مركزيا في إيجاد الفاعلية، لأن أزمنا أخلاقية أكثر من أن تكون معرفية، والتربية الروحية في هذا السياق ليست تربية سلبية وفق مسالك البعض، بل هي عملية إيجابية يتغير بموجبها موقف المربي من الحياة بجميع مضامينها، بمعنى أن الوظيفة الأصلية المنتظرة من التربية الروحية هي تصفية القلب عما سوى الله والله تعالى، وفي ذلك أكبر عوامل تهيئة المسلم للتقدم.

2/ بعث الولاء في جانبيه المعرفي والتربوي النفسي، وبتمكته من المجتمع سنقل ولا شك عناصر التصادم فتغى بذلك العقلية الصدامية من المجتمع، فتعود إلى المسلم أبعديات أسلمة الوجه لله تعالى، فترجع إليه ابتسامته وتعامله الإنساني حتى مع المخالفين في الدين، وحسن ظنه بإخوانه.

3/ الحفاظ على التنوع الموضوعي في المجتمع سواء كان تنوعا معرفيا أو إجتهاديا أو نفسيا أو مسلكيا أو منهجيا في إطار الولاء لله تعالى، فهذه حقائق موضوعية من رام تغييرها فقد طلب المحال في الحاضر والمستقبل.

4/ الحفاظ على التنوع في إطار الولاء لله تعالى بوجب وعيا بما يحيط بنا محليا ودوليا من الناحية السياسية والمعرفية والثقافية والحضارية.

5/ ينبغي التفكير في الطرائق الموضوعية لتحقيق مقاصد فرعية دائمة ما دامت الحياة، ولعل من أهم ما تتعلق به الهمم ما موحزه النقاط الآتية:

أ/ العمل على الحفاظ على مكاسب التقدم بجميع أشكاله الاجتماعية والمعرفية والأدبية والسياسية.

ب/ العمل على تحرير مساحات إضافية للتقدم، وإذا وقع التناقض بين تحرير مساحة وقد وقع يحسن حسب تقديرنا دراسة السعديات بشكل جيد وإن كان الغالب تقديم ذرة العفاس على جلب المصالح. (34)

ج/ تجاوز فكرة وحدة مساعي ووجهات التقدم لعدم موضوعيتها أولا وعدم عمليتها ثانيا، ولكن ذلك لا يُلغ التعاون والتأزر بوصفها مطالب شرعية دائمة وثابتة.

د/ التكيف العملي مع هذه الضرورات الموضوعية بوجب العمل على تنويع مساحات المزاينة دون مشروع التقدم لكل في دائرة اختصاصه وفق ما يخدم المشروع الحضاري.

الهوامش :

1- تصب في هذه الحالة أغلب التيارات اليسارية الإقصائية، إذ لاهم غير التعليق على المخالفين الفكريين، وخاصة الاتجاه الإسلامي، انظر مثلا تصريحات الحركة الاجتماعية الديمقراطية في الجزائر.

2- ظهرت الدعوة إلى القومية العربية في بلاد الشام على أيدي التنصاري الذين استوحوا أفكارهم من رجال التنصير الأوربيين والأمريكيين.

انظر كتابنا بنبع الزمان النورسي، وثائق الحقائق الإيمانية - المنهج والتطبيق - 37-43، وانظر كيف هدمت الخلافة الإسلامية، عند القديم زلوم 19-34، ظهرت الدعوة إلى القومية العربية في بلاد الشام على أيدي التنصاري الذين استوحوا أفكارهم من رجال التنصير الأوربيين والأمريكيين.

انظر كتابنا بنبع الزمان النورسي، وثائق الحقائق الإيمانية - المنهج والتطبيق - 37-43، وانظر كيف هدمت الخلافة الإسلامية، عند القديم زلوم 19-34، النظر التبشير والاستعمار /الخلافي، وفروغ ص 224-232، التبشير والاستشراق / عزت الطيطاوي 44، حاضر اللغة العربية في بلاد الشام/ سعيد الأفغلي 14-17، 196.....

3- التجربة البرلمانية في الجزائر، أو تجربة المشاركة في الحكم، يثبت أن المشيئين في تصرفاتهم السياسية كمشائر السياسيين، وقع كثير منهم صرع التهاك على الدنيا وفتتها المادية (أمل، المسكن،....) (والمنعوية) (القرب من السلطة، الآية،....). وقد بلغ الأمر ببعضهم حد سريان غطليات تمثل الأمة في تصرفاته السياسية والاجتماعية

4- نظرة سريعة في رواد الإسلاميين على بعضهم بعضا تؤكد تلك الملاحظة.

5- انظر قائمة أعضاء المكتب السياسي أو المجالس الشورية، واللجان المركزية، فتجد القاعدة محكمة لدى الجميع.

6- أغلب رؤساء الأحزاب أو الثقلات أو الحركات، لا يرححون إلا بالملك الموت أو النبوة، فتجد زعيما ثقلية مدة جازوت الأربعين سائلا، ورئيسا لحزب قريب من ذلك، وجمهورية يحكمها رئيس تزيد من ثلاثين سنة.....

7- انظر قائمة القيادة بعد انتخاب الزعيم، فإنداء واحد وإن اختلفت المشارب الفكرية والمعرفية.

8- كان برنامج التعليم يختلف من بلد إلى آخر، إلا أنه وبغض ضغط الغالب الوقتي قد يصبح برنامجا واحدا، موحدا، يصنع وعيا مزيفا، ويرسخ فينا قنن الثقة في نيتنا وأمتنا، ويسلمنا للغالب الوقتي فيؤسس لنا ديننا جديدا قولاه، يقول الاحتلال من غير تفكير في تحرير فضلا عن تصديده، وقد بنت بعض إرهافات هذا البرنامج تلوح في الأفق، ومنها التحل المسافر للغالب الوقتي في برامج تعليم الدين... لتحويل الدين من محرك لصناعة الحضارة إلى وسيلة في يد الأقوياء لمحاربة المستضعفين والمقهورين....

9- راجع الحملات الإعلامية المتبادلة بين الدول المتجاورة في منطقتنا العربية الإسلامية، وتصرفات الشعوب لا تختلف عنها، إذ تبادلون التهم بطريقة رديئة جدا، أقل ما يقال عنها، أنها تصرفات متخلفين دينيا - مخالفة القيم - ومعرفيا - لا يعرفون خطورة ما يقومون عليه - وسياسيا - الأثر على وحدة الأمة - واجتماعيا - تفتيت المجتمع -.

10- جعل التعنيق على المخالف (تديعا، وتسيقا، وتكفيرا،....) مقصدا رئيسا من تروى العقيدة والعلوم الملحقة بها في بعض البلاد الإسلامية، حتى غدا تروى العقيدة لا يصنع وعيا بالكون والحياة، بل يعلم الطلبة التعصب

- عوض الترام... يوم... لاداء الى لحيث... سسر البحث في التعيق على المخالفين... وبدا الامر يتفجر فبشاً جيل من المتعلمين والمتعلمين لادم لهم غير حراسة الاخرين... ماذا يقولون «قيما يفكرون»...
- 11 / أصبح مصتر سابق ص 291
- 12 / إسلامية المعرفة العدد السابع مقالة الغزالي / الإسلام والثقافة العربية في عالمنا الجديد ص 150
- 13 / المصتر نفسه ص 149
- 14 / الغزالي / معركة المصحف ص 339
- 15 / المصتر السابق ص 143
- 16 / مجلة أسلمة المعرفة لعدد السابع / قصة حياة الغزالي (مكتشفات من منكرات الغزالي) ص 167
- 17 / الغزالي / الإسلام والتأقية العربية في عالمنا الجديد ص 143
- 18 / الغزالي / من هنا نعلم ص 29-32
- 19 / أنظر ما قلناه الغزالي في منكراته المنشورة في مجلة أسلمة المعرفة (العدد الخاص بالغزالي)، ويؤكد التوجه نفسه المرحوم سعيد حوى في كتابه جولات في الفقهين الكبير والاكبر
- 20 / قطب عبد الحميد / خطب الشيخ الغزالي في شؤون الحياة ص 15، وأنظر أيسر الصبح برفيب / محمد الطاهر بن عاشور
- 21 / مجلة أسلمة المعرفة لعدد السابع / قصة حياة ص 181
- 22 / مجلة الموافقات العدد الرابع / جيل عاصر / تجديد دراسة العقيدة الإسلامية
- 23 / الغزالي / من هنا نعلم ص 51، ونظر القرضاوي المرجع السابق ص 260
- 24 / مجلة إسلامية المعرفة العدد السابع / الغزالي الإسلام والثقافة العربية في عالمنا الجديد ص 149
- 25 / النظر الحلل الإسلامي فريضة وضرورة / يوسف القرضاوي . ص 240-243
- 26 / الغزالي / دفاع عن العقيدة والتشريعة ص 121-123
- 27 / أحمد المجنوب / عشاء ومفكرون
- 28 - العودة إلى الذات / الدكتور علي شريعتي ص 51
- 29 - العودة إلى الذات ص 363
- 30 - الإمامة والامة / الدكتور علي شريعتي ص 9
- 31 - أشاهد إن الله هو الغني الحميد، أنتم الفقراء من كان مستعينا فليستن بالله
- 32 / أنظر كتابنا مائة الانسان وصلتها بحريته ووظيفته الاجتماعية ص 54-55
- 33 / نظر العلامة عبد الحميد ابن باييس / الأثر 4/109-113
- 34 / شرح قواعد الفقيه / أحمد الزرقاد / دار الغرب الإسلامي ط 1403-1404 هـ / 151-1983-1982

الخلعة التاريخية للعلاقة بين الإسلام والعرب

ودور المستشرقين في تسوية صورة الإسلام

الدكتور نذير حمادو

جامعة الأمير عبد القادر - سنطينة

المحور الأول: نشأة الاستشراق

نشأت الصلة بين الغرب خاصة و المسلمين منذ أن كان المسلمون في الأندلس، وكانت أوثق الصلات بالمسلمين من فرنسا، وإيطاليا، وإنجلترا. ففرنسا عرفت المسلمين منذ أن اجتاح عبد الرحمن الغافقي بجيوشه جبال البرانس واستولى على ناربون وكاركسون ونيم، وليون، وماكون، وأوتن، وغاليسيا، وأعلى الزون، واللوار ولتون، وأفينيون، وبوردو، وشمالا حتى مدينة تور، ولم يتوقف زحف المسلمين وتراجعهم إلا في موقعة بواتييه سنة 732م. وكانت هناك صلات في العصر العباسي بين الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان، كان لمراسلتهم دور في توثيق الصلات، ثم جاءت مرحلة الحروب الصليبية، ثم تبادل السفراء، واحتلال شمال إفريقيا، وحملة نابليون على مصر والانداب الفرنسي على سوريا، ولبنان. كل ذلك أثمر نتائج متعددة متنوعة حضارية، وثقافية وفكرية وعقدية.

لقد كانت صلة فرنسا بالثقافة الإسلامية أولا في مدارس الأندلس وصقلية حيث تأثرت بها، وأثنت على إثرها مدارس للدراسات الشرقية، والإسلامية، ومعاهد وجامعات، ومجلات.

و أما إيطاليا فقد كانت أعرق دول الغرب اتصالا بالمسلمين، وحضارتهم، اتصالا دينيا قويا باعتبار الفاتكان تمثل معقل المسيحية. فكان اهتمام الفاتيكان كبيرا باللغة العربية خاصة، وبالعلوم والثقافة الإسلامية عامة فنشطت حركة الترجمة والنشر، فعينت جامعة بولونيا سنة 1076م بعلم العرب، وجامعة نابولي سنة 1224م بثقافتهم، وجامعة سبيغا بأديبهم، وجامعة روما سنة 1248م بالآثار، واللغة، والآداب العربية، والألسنة السامية، وجامعة فلورنسا سنة 1321م باللغات

الشرقية، والجامعة الغريغورية سنة 1553م باللاهوت، والحق، والقانون الشرقي، والدراسات الإسلامية⁽¹⁾ وكان من أثر اهتمام الفاتكان بالاستشراق، أن تأثرت كل فرق النصارى على كثرتيها بهذا النوع من الدراسات حتى بلغت أعداد الرهبان المتخصصين بالعلوم الشرقية والإسلامية خاصة العشرات.⁽²⁾ و أصبح الرهبان يشكلون طلائع الاستشراق بصفة عامة

و أما إنجلترا فإنه تيباً للمستشرقين فيها ما لم يتيباً لغيرهم، فقد كانت الاتصالات العلمية و الاقتصادية ثم الاستعمارية في الأندلس، ثم الهند، والعراق، و مصر، وفلسطين سبيلاً للاتصالات الثقافية، و الاحتكاك المباشر بالمسلمين، و علومهم، و تمثل ذلك في كثرة الرحالة من المستشرقين ابتداء من الطلائع الأولى الذين رحلوا إلى الأندلس، و صقلية فنهلوا من الثقافة، و العلوم الإسلامية، و ترجموا كثيراً من كتبها إلى لغتهم، و كان من أبرز هؤلاء "توماس براون، و إد لرد أوف بات، و روبرت لوف تشستر، و دانييل أوف مورولي، و ميخائيل سكوت، و روجر بيكون، و غيرهم كثير. هؤلاء الذين تتفوقوا بالثقافة العربية، و ترجموا كثيراً عنها، و صنفوا النقيس فيها، فجاءت تواليهم و مصنفات زملائهم من علماء أوروبا - و كلها باللاتينية يومذاك - تحمل القرون الوسطى دينا ممزوجا للعرب و المستشرقين، فالعرب نقلوا الكثير من التراث الأساسي و حافظوا عليه، و كملوه، و أبدعوا منه، و صنفوا فيه. و المستشرقون نقلوه و شرحوه، فقصوا على جباله القرون الوسطى، و أقاموا النهضة الأوروبية الحديثة على أسس متينة من الرقي، و التطور، و التكامل.⁽³⁾

و قد أثمرت جهود أولئك المستشرقين الإنجليز حركة استشراقية واسعة، فأنشأت في إنجلترا كراسي للغة العربية، و الدراسات الشرقية في جامعاتها مثل: جامعة أكسفورد سنة 1167م، و جامعة كامبريدج سنة 1257م، و جامعة لندن سنة 1828م، و جامعة درهام سنة 1838م، و جامعة فيكتوريا سنة 1880م، و جامعة ليند سنة 1884م، و جامعة ويلز سنة 1893م، و جامعة ليفربول سنة 1903م، و جامعة شيفيلد سنة 1905م، و جامعة بريستول سنة 1909م. كما أنشأت المكتبات، و المجالات الشرقية المتخصصة.

و إذا كان الاستشراق قد أخذ مكانة هامة في هذه الأقطار الأوروبية بالذات، فإنه لقي اهتماما كبيرا أيضا في بقية الأقطار الأوروبية و الشرقية قديما و حديثا، كما

هو الحال في إسبانيا، و النمسا، و ألمانيا، و الدانمرك، و بلجيكا، و تشيكوسلوفاكيا، و يوغسلافيا، و رومانيا، و سويسرا، و المجر، و روسيا، و أمريكا.

و يلاحظ أن جهود الاستشراق في المجالات العلمية قد تركزت في إنشاء مراكز للدراسات الشرقية، و الإسلامية خاصة من مدارس و معاهد، و جامعات و غيرها، و من خلال هذه المراكز تدرس علوم المسلمين، و آدابهم، و فنونهم، بالإضافة إلى دراسة و تحقيق المخطوطات الإسلامية، و تأليف المعاجم القيمة⁽¹⁾، و إنشاء المكتبات و المتاحف العلمية، و الترجمات الواسعة لشتى الفنون، و العلوم الإسلامية، و العلوم التي نقلها العرب المسلمون عن اللغات الأخرى، و إنشاء المطابع، و المجالات العلمية المتخصصة في العلوم الإسلامية.

ولا شك أن هذه الجهود أثمرت نهضة كبيرة أدت إلى اكتشاف الحضارة الإسلامية من جانب، و العلوم الإسلامية من جانب آخر، و من ثم أدت إلى تحديث مواضع القوة و الضعف من خلال منظورهم العملي، أو السياسي أو الاقتصادي..

المحور الثاني: أهداف المستشرقين

إن مما لا شك فيه أن التراث الذي خلفه المستشرقون تراث ضخم يعدّ بمئات المصنفات تأليفًا، و ترجمةً، و شروحا و غير ذلك. كما أن هذا التراث فيه الغث و السمين، فيه العلم الرصين، و التحقيق و التدقيق، و فيه التصحيح، و الخطأ و الحيل، و السطحية كما أن فيه ما هو إنصاف للإسلام، و شريعته، و تاريخه، و فيه ما هو طعن، و دس، و تحريف، للإسلام، و شريعته، و تاريخه.

و لعل مرجع هذا المزيج المتناقض عند المستشرقين إلى أن قدراتهم وإمكاناتهم على فهم العربية، و دلالات ألفاظها ليس متساويا، و لا متكافئا هذا من جانب، و من جانب آخر، فإن أهداف المستشرقين ليست واحدة، بل هي متعددة و مختلفة؛ و ذلك راجع إلى أن حركة الاستشراق، و إن كانت محاضنًا الأولى تكاد تكون دينية؛ - حيث نشأت على أيّد الرهبان - إلا أنها خضعت لظروف، و ملامسات أخرى متعددة، فكانت أهدافا دينية تبشيرية مرة، و علمية مجردة مرة، و مصلحة شخصية مرة، و خدمة استعمارية مرة أخرى، و لا شك أن اختلاف قدراتهم، و تباين أهدافهم هذه، أدى إلى إنتاجية تتناسب و هذه القدرات، و الأهداف، و هذا ما يجعل الحكم على المستشرقين صعبا، كالحكم على إنتاجهم، فمنهم الحصيف النقيق، و منهم حاطب ليل لا يدري أين يضع الكلمة، و منهم

المتجرد الباحث عن الحقيقة المنصف، بل منهم من أدى به إصافه إلى إعلان إسلامه فتاعة، وبقينا أمثال: بوكهارت، و كرنكوف، و زونستين، و شنيترسر، و دينه، و فلوري، و ميشوبيلر، و مارمانوك،

و فليتي، و يوبولفيس، و جرمانسو أرزولايان، و خديجة دنك، و نيورس، و جميلة زوسرنج، و ألبرت كانلر، و غيرهم كثير. (5)

كما أن و سلامه عليه فيهم المعرض المنعصب الحاقف الذي يروم الطعن، و يتقصّد النسوية، و يتتبع ما يمكن أن ينال به الإسلام، أو نبيه صلى الله عليه وسلم. و لذا فنحن بحاجة إلى تصنيف المستشرقين، و مراحل كتاباتهم حسب الملابسات و الظروف؛ لمعرفة تطور الكتابة عن الإسلام عندهم إصافاً أو إجحافاً.

المحور الثالث: مراحل كتابة المستشرقين

نستطيع تقسيم كتابة المستشرقين إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الطلائع

كانت الكتابات الأولى عن الإسلام على يد طلائع العلماء الذين رحلوا إلى البلاد العربية و الأندلس (إسبانيا) خاصة، و تأثروا بالحضارة الإسلامية، فتعلموا العربية، و ترجموا كتبها بقصد إثراء أوروبا حضارياً، و انتشالها من الجهالة التي كانت تخيم على مجتمعاتها، و كان أبرز هذه الطلائع من العلماء:

1- جلبرت دي أورلياك (938-1003م) Gerbert de oraliac من الرهبان، قصّد الأندلس و أخذ عن أساتذتها في مدارس رينول، و أنشيلية، و قرطبة، حتى أصبح أوسع علماء عصره ثقافة، بالرياضيات، و العربية، و لما ارتحل إلى روما سما على أقرانه و انتخب حبراً أعظم باسم سلفستر الثاني (999-1003م) فكان أول بابا فرنسي. و قد أمر بإنشاء مدرستين عربييتين: الأولى في روما مقر خلافته، و الثانية في رابيس وطنه، ثم أضيف إليها مدرسة شارتر، و قام بنشر الأعداد العربية في أوروبا - التي كان ينقصها رقم صفر - و ترجم بعض الكتب الرياضية، و الفلكية، و له دراسة، عن كتاب أقليدس بالعربية.

2- إيلرأوف باث (1070 - 1135م) Adelardof Bath

ولد في مدينة باث و نسب إليها، و اتخرط في سلك الرهبان، و طلب العلم في تور و الأندلس، و مصر، و صقلية، و لبنان، و أنطاكية و اليونان، و القدس، و جمع معارف في علوم الطبيعة و الفلك و الرياضيات، و عند عودته إلى إنجلترا

عين معلما للأمير هنري الذي أصبح فيما بعد الملك هنري الثاني، و قد تَضَلَع في الثقافة العربية، حتى كان يؤثر مذهب العرب المسلمين في العلم على مذهب الفرنجة، فقال في كتابه " المسائل الطبيعية " و هو محاوره بينه و بين ابن أخيه خريج جامعات الفرنجة: " إنني، و قاندي هو العقل، قد تعلمت من أساتذتي العرب، غير الذي تعلمته أنت، فببرتك مظاهر السلطة بحيث وضعت في عنقك لجاما نقاد به قياد الإنسان للحيوانات الضارية، و لا تترى لماذا و لا إلى أين؟ ... فقد منح الإنسان العقل؛ لكي يفصل به بين الحق و الباطل ... فعطينا بالعقل أولا، فإذا اهتدينا إليه بحثنا في السلطة، فإن سايرت العقل قبلناها ... " و له آثار علمية كثيرة.

3- يوحنا بن داود الإسباني (منتصف القرن 12) Juan Abendaud

يهودي متتصر، خلف رايونودو على أسقفية طليطلة، و لم يكتب بما نقله مع زميله جونثالث، فترجم وحده كتاب العلال، و كتابا في الطبيعة، و آخر في المنطق، و فلسفة ابن رشد (1230م) و كتاب السياسة لأرسطو عن ترجمة ابن البطريق (1135م - ثم أعاد ترجمته فيليب الطرابلسي 1340م)، و كتاب الجبر للخوارزمي، و صنف كتابا بعنوان كتاب الخوارزمي في الحساب العملي (نشره ب. بوناكومباني في روما 1857م) و ترجمات من الكرايسى، و الفرغاني (فرارا 1493م، و نورميرج 1357م، و باريس 1456م) و كتابي القيسي في النجوم، و أبعاد الكواكب.

4- روبرت أوف تشستر (اشتهر من عام 1141م إلى 1148م)

Robert of chester

نلقى العلم في تشستر، و نسب إليها، و نحل سلك الرهبان، و قصد الأندلس، و عين أسقفا على بامبلونة (1143م)، و تتقّف بالثقافة العربية. و اختير مستشارا لصقلية، و اشترك مع زميله هارمان الزلماطي في ترجمة العلوم، و قد ترجم القرآن الكريم باللاتينية فأنماه عام (1143م) و كانت أول ترجمة للقرآن الكريم استعانا فيها باثنين من العرب و نشرها بينلياندر في ثلاثة أجزاء (بال 1543م)، و لنجز ترجمته الثانية الأب ماركوس الطليطلي بتوجيه من الأسقف رودريك دي وادا في القرن الثالث عشر، ونشر الساندر و باجانيني أول طبعة للنص العربي (البنديقية 1530م)، و قد ترجم روبرت كتابا في الكيمياء و الفلك، و الجبر، و صنف عدة رسائل (1147م).

5- توما الأكويني (1225 - 1274) Thomans d'Aquin

و لد بمدينة أكويني، من أسرة ألمانية شريفة، و تعلم في ديز مونتي كاسينو (1230م) ثم التحق بجامعة نابولي.

و من آثاره: خلاصة المذهب الكاثوليكي ضد الوثنيين، في أربعة مجلدات (1267 - 1273م)، و نقاسير لما بعد الطبيعة، و وحدة العقل، و أزلية العالم، و مجموعة الردود على الخوارج، و قد اعترف صراحة بأنه كان يقنن من ابن سينا، و الغزالي، و ابن رشد.

6- ميخائيل سكوت (1175 - 1236م) Michad Scot

اسكتلندي من الرهبان، تلقى العلم في أكسفورد، و لما حاز من جامعة باريس لقب العالم الرياضي غادرها إلى بولونيا، و طليطلة حيث ألقن العربية والعبرية، و انكب على تصنيف أول مصنف نفيس له هو: خلاصة الفلسفة لابن سينا فاتمه عام (1210م) و ترجم تاريخ الحيوان لأرسطو من العربية في عشرة أجزاء، و كتابة السماء و العالم لأرسطو بشرح ابن رشد، و كتاب الهيئة للبطروجي (1217م).

هؤلاء من أبرز العلماء الذين كانت جهودهم هي اللبنة الأولى للاستشراق، و كانت غايتهم من وراء هذه الجهود غاية علمية بالدرجة الأولى، و دينية بالدرجة الثانية، حيث كان للرهبان دور في احتضان الحركة الاستشراقية، و توجيهها و حية دينية كما يظهر ذلك من بحوثهم، و مصنفاتهم.

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد سقوط غرناطة

حين غادر المسلمون غرناطة (1492 م) أوقفت الدراسات الشرقية، و منع تدريس اللغة العربية، إلا أن هذه الدراسات بدأت في روما، و لعل المزاد من دراسة العربية في هذه المرحلة هو تسهيل مهمة التبشير، و من أهم أسلحته فيهم الإسلام حتى يمكن الرد على المسلمين، و نشر المسيحية بين ربوعه.

ولقد شهدت هذه المرحلة كتابات عن اللغة العربية خاصة، و عن الإسلام عامة و كان من أوائل من كتب ذلك هو الأستاذ Guillaume (1510 - 1581م) ثم بدأ تلميذه Joseph Scaligero (1540 - 1609م)، و هو مبشر، و كان متأثراً بكتابات ابن سينا و غيره، و قام بترجمة و نقل بعض التراث الفلسفي، و اللغوي

الإسلامي، إلا أن الجانب اللغوي أخذ حظاً وافراً من الكتابات، و في هذه المرحلة من مثل كتابة Tomas Van Erpe

(1584 - 1624م) و قد نشر أول كتاب في النحو العربي، و Jacob Goluis (1596 - 1667م)، و Edward pacock هو أول أستاذ كرسي للغة العربية في أكسفورد عام 1638م.

و بعد هذه الدراسات الغنية حول اللغة العربية، و قليل من الدراسات الإسلامية العامة بدأت الكتابات حول الشرق الإسلامي تأخذ نقطة بدايتها على يد الأستاذ B.d'Herbelot (1625 - 1695م) و قد قام بكتابة أول كتاب له أهمية خاصة بعنوان Encyclopedia of ISLAM عام 1697م، و هذا الكتاب كان عبارة عن محاولة لكتابة موسوعة إسلامية.

ثم قام A. Galland بترجمة كتاب " ألف ليلة و ليلة" ⁽⁶⁾ Arabian Nights

(1704 - 1717م)، و كان لترجمة هذا الكتاب دور بارز في توحه المستشرقين إلى فتح نافذة الثقافة الإسلامية.

فقد كان موقف المعرضين من المستشرقين في هذه المرحلة عدائياً نحو الإسلام، عداً على غير أساس صحيح، و لا رؤية واضحة للإسلام، بل وصل الأمر بهم إلى اعتبار الإسلام عبثاً، و كان للأستاذ Simon Richard مشكور في توضيح الإسلام في كتابه القيم Histoire critique des creances et des coutumes des nation du levant. و تكلم فيه عن الشرق و المسيحية و تعرض لشرح العقائد الإسلامية من العبادات، و المناسك و غير ذلك، و لم يهاجم الإسلام، بل كثيراً ما كان يمتدحه فيما يراه أفضل في الإسلام عنه في المسيحية.

و لعل مسلك هذا الكتاب في تحري النصحة في عرض الإسلام له اعتد على مصادر إسلامية بحتة، و كتب كتاباً آخر على نفس المنهج بعنوان Critique Dictionnaire عام 1697م، و كتب عن حياة النبي ﷺ كتابة سليمة.

ولقد ظهر بوضوح تأثير مسلك الأستاذ Richard في الكتابات من بعده، حيث أصبحت دراسات المستشرقين تأخذ جانب الموضوعية - بعد عام 1700م -

و هذه الموضوعية جعلت الكتاب يتنوع على الإسلام ويستحسنونه، بل صرحوا بأن العقيدة الإسلامية معقولة من حيث المنطق و الفكر خلافا للعقيدة المسيحية. وكانت كتاباتهم في هذا الإطار عامة يتناولون في ظلها كتب اللغة العربية، و المغازي و السير، و التاريخ.

وفي عام 1734م ظهرت ترجمة للقرآن الكريم على يد الأستاذ George Sale (1697-1736م) و قد وضع له مقدمة، و كتب عليه تعليقات كثيرة. ثم جاء الفقيه القانوني J.J. Reiske (1716 - 1774م) و أشار فيما كتب إلى الحقائق الإلهية في الإسلام، و نلاه الأستاذ Simon Ockley، و كتب كتابه History of the Saracens (1708 - 1718م) و قد رفع عن شأن الفكر الإسلامي، بل و الشرق الإسلامي، و أعطاه مكانة عالية على العالم الغربي، و كذلك فعل Gibbon Edward (1737 - 1794م).

ثم جاء الشاعر، و الفيلسوف الألماني Goethe و كتب كتابه Mohamets Gesang عام 1774م، و كذلك كتب المفكر الفرنسي الشهير Voltaire كتابا شعريا بعنوان Mahomed عام 1742م، و لم تكن كتاباتهم في عمومها طعنا في الإسلام، بل كان تأثيرها بالفكر الإسلامي واضحا، إلا أن أول كاتب كتب دراسة محققة متخصصة هو الأستاذ Silvestre de sacy و كانت دراسة للإسلام دراسة من منظور مجرد غير متأثر بالعقيدة و الفكر المسيحي كما كان سابقوه. فمرسته تعتبر ممثلة لمذهب اللاأثريين Agnosticism، و قد أصبح de sacy فيما كتبه من مؤلفات حول الإسلام أستاذا و مرجعا للدراسات الاستشرافية للأوروبيين و فتح في نفس الوقت - الباب للكتاب المستشرقين من غير المسيحيين؛ لولوج هذا النمط من البحث، و من بعد بدأت الكتابات تأخذ طريق التخصص نوعا ما، و ساعد في ذلك ظهور مجلات متخصصة عن الدراسات الشرقية، و التي بدأها الأستاذ Josef Hammer von (1774 - 1856م) بمجلته Fundgruden des orientis (1809 - 1818م)، و توالت بعد ذلك المجلات في فرنسا، و إنجلترا، و روسيا من مثل Journal Asiatique عام 1823م و Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britanic and Ireland في عام 1834م. و Journal of the Asiatic Society of Bengal عام 1893م.

و Zetschrift der Deutschen Morgenlän dishen عام 1849م، وظلت كتابات المستشرقين في هذا الإطار الموضوعي غير العدائي في جملتها - خصوصاً ما صدر قبل 1800م - تأخذ مكانها في حقل الدراسات الاستشراقية.

المرحلة الثالثة: مرحلة ما بعد سقوط الخلافة الإسلامية

و هذه هي مرحلة العداء الذي طغت فيه الأهواء، و الأغراض و العصبية على كثير من المستشرقين؛ و ذلك عندما حمى صراع الأوربيين على ما يسمى بالمسألة الشرقية مع بداية القرن التاسع عشر Eastern Question، و يعنون بها مسألة دولة الخلافة الإسلامية في استنبول، و بدأت كتابات المستشرقين تصور الإسلام لا على أنه عنو للمسيحيين فحسب، بل على أنه هذه المرة عنو للعلم، و التقدم، و الحضارة. و أخذوا يصفون الإسلام بأنه عبارة عن الرجعية Fundamentalism. و أخذت كتاباتهم تصور الإسلام في هذا الثوب. ثم تعرض سبيل الخلاص للمسلمين من واقعهم الأليم؛ و ذلك بأخذهم بالتقافة، و المدنية الأوربية Civilization، و تصور هذا النمط من الكتابة أمثال Lydutev، L.Massignon، T.E Lawrence ثم اشتهر من بعدهم S. Blunt في كتاباته حول إحياء الإسلام، و العالم الإسلامي، و تلونت كثير من الكتابات الاستشراقية حينئذ باللون السياسي الاستعماري الطامع، و أخذت الكتابات حول واقع المجتمع الإسلامي تبرز بصورة ترافقة على أنها هي الإسلام و الإسلام هو المشكلة، و لقد ساعدتهم على ذلك ما كان يعيشه المجتمع الإسلامي وقتها من مشاكل كبيرة. فقد كانت الاضطرابات، و الثورات متلاحقة في العالم الإسلامي الممزق، فالثورة الكمالية في تركيا، و في الأجزاء الإسلامية من روسيا و ثورات في الجزائر، و أندونيسيا و إيران و غيرها. فكان هذا الواقع مجالاً خصباً لظهور كتابات مشوهة من مثل H. Grimme، و كتابه J. Wellhausen et Mohammed Die politischen oppositions parteien im Alten islam-religiös عام 1901م، و C.H. becker، و كتابه Islam Studien عام 1924 - 1932م L. Gaetani، و كتابه Deruntergang des Studiaistoria orientale و O. Spentler، و كتابه -the racing tide of color against white world عام 1918م و supremacy عام 1920م، و كتابه New word of islam عام 1921م، و Joseph Schacht، و كتابه The origines of Mohammadan jurisprudence^[1]

و هكذا ظلت الكتابات الاستشراقية حول الإسلام بين تقنيات متتالية، تتأثر مرة بالعقل، ومرة بالعاطفة، وأخرى بالسياسة، و ما إلى ذلك، إلا أنها كانت في أغلبها كتابات تنطلق من منطلق العداء للإسلام بسبب العصبية و الجهل به في حقيقته، إلا أن صنوف المستشرقين في هذه المرحلة - على كل حال - لم تخل من المنصفين، من أمثال Paul . A. Boisard الفرنسي وكتابه

islam'humanisme de l'I. (The humanism of islam)

و Edward. W. Said، و كتابه القيم Orientalism، وقد خصص هذا الكتاب كله لكشف أغراض المستشرقين، و تتبع آثارهم، وقد عرض فيه الإسلام عرضاً جيداً. (8)

و Norman Daniel، و كتابه Islam and west the Making of an image و Southern و Duncan Black و Western view of islam و Macdonald، و كتابه The religious attitude and life in islam

وهكذا، فإن الغربيين ليسوا سواء، بحيث منهم المنجرد الباحث عن الحقيقة المنصف، بل منهم من أدى به التصاقه إلى إعلان إسلامه قناعة، و يقينا، وفيهم المعرض المتعصب الحاقق الذي يروم الطعن، و يتقصّد التنويه، و يتتبع ما يمكن أن يقال به الإسلام، أو نبهه صلى الله عليه وسلم.

هوامش البحث

(1) - انظر: المستشرقون للاستاذ نجيب العقيقي 347/1.

(2) - انظر ترجمة ما يقرب 60 زهداً من كبار المستشرقين في كتاب المستشرقون للاستاذ العقيقي 3/ 1080-1044.

(3) - مستشرقون للاستاذ العقيقي 1162/3.

(4) - كالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، الذي ألفه جماعة من المستشرقين

(5) - انظر: المستشرقون للاستاذ نجيب العقيقي 429/2.

(6) - كتاب ألف ليلة وليلة من الكتب الأدبية، و ليس كتاب الفقه، أو حديث، أو تاريخ، و من ثم من حكم على الإسلام من خلال هذا الكتاب فيو محطون.

(7) - ترح المستشرقون في كتاباتهم وصف الدين الإسلامي بالدين المحمدي فيعبرون به الفقه المحمدي أو الإسلام... الخ. متأثرين بنسبة المسيحية إلى المسيح عليه السلام، و لا شك أن هناك فارقاً جوهرياً بين الاثنين و لعهد يريثون من وراء ذلك إبراز فقرتهم في بشوية الإسلام.

(8) - و قد نشر لأول مرة لهذا الكتاب في عام 1978م في لندن.

المسلمون وسؤال النهضة

الأستاذ الدكتور محمد زرمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة باتنة

مقدمة

منذ أكثر من قرنين من الزمن، وبالتحديد منذ عام 1798 م تاريخ الحملة الفرنسية على مصر وما صاحبها وأعقبها من صدمة حضارية هزت العالم الإسلامي هذا عنيقا، طرح أكبر سؤال في تاريخ الفكر الإسلامي الحديث وثما زال يطرح إلى يومنا هذا : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟. وازداد هذا الطرح حدة وإلحاحا يوما بعد يوم على كافة المستويات السياسية والثقافية، وأصبح بشكل هاجسا دائما تعيئه النخب المثقفة والشرائح الاجتماعية البسيطة سواء بسواء

وقد تعددت الإجابات حول هذا السؤال الجوهري الذي يعبر بصنق عن عمق الأزمة، وينفذ إلى أغوار الواقع الإسلامي المتردي، وتباينت فيما بينها إلى حد التناقض. ويمكن أن نفرزها ونصنفها إلى ثلاثة اتجاهات أو إجابات كبرى :

الإجابة الأولى ترى أن العالم الإسلامي لم يتخلف إلا لأنه ابتعد عن دينه، وأهمل شريعته، وأن دواءه يكمن في العودة إلى الإسلام الحقيقي الصحيح والتمسك بالماضي، وإحياء التراث واستنساخ حقبه الذهبية، والاكتفاء بما عندنا من مفومات. ولثرت الاحتماء بالتراث الذي أضفت عليه هالات من التقديس واعتقدت أنه الحق ولا حق بعده، واختارت التفوق والانغلاق على الذات وعدم الانفتاح على الآخر ورفضه رفضا مطلقا، مع الإصرار على أن المسلمين لن يعود إليهم عزهم إلا باقتفاء آثار الأبياء والأجداد .

أما الإجابة الثانية على سؤال النهضة فهي تمثل اتجاها مناقضا ومعاكسا للاتجاه الأول، وهي ترى أن خروج العالم الإسلامي من التخلف واللاحق بركب الحضارة المعاصرة لا يمكن أن يتم إلا باحتذاء الغرب شيئا بشيرا وشرعا بذراعا، وقد دعا أنصار هذا التوجه إلى اقتباس الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها، ورموا التراث بالعقم والجمود، ودعوا إلى هدم صرحه ومحوه من الذاكرة،

والانسلاخ منه إيماناً منهم بأن علة المسلمين في إسلامهم، وأن تخلفهم يكمن في تدينهم، وأن التراث سلاسل تقيدهم لتحريمهم من الحركة والتغيير، فرفضوه برمته بما في ذلك قيم الوحي المعصومة .

والإجابة الثالثة حاولت الوقوف في الوسط والتوفيق بين الاتجاهين، فرفض أصحابها جمود الأولين ووجود الآخرين، وأمنوا أن الحياة تتغير كل يوم، وكل تغيير تتبعه حركة تناسيه، وأن هناك ثوابت ترتكز عليها الأمة لا يجب أن تطالها الأيدي بالتبدل، وعلى هذا الأساس اعتبروا وجود التراث في المشروع النهضوي ضرورة لا غنى عنها، لأنه يحفظ للأمة كيانها النبوي والتاريخي من الشوبان، ويحمي شخصيتها الحضارية من التحلل، وكل ذلك من الأسس الياقوتية التي يقوم عليها بناء المجتمع، ويكمن فيها منبر وجوده وسر بقائه. ودعوا في الوقت ذاته إلى الانفتاح على الحضارة المعاصرة انفتاحاً مشروعاً، والافتقار من علومها ومعارفها ومخترعاتها وخبراتها الإنسانية، واستقدام كل ما هو ضروري لتغيير حياة المسلمين نحو الأحسن، وكانت رؤيتهم تقوم على الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، والانفتاح على العالم المعاصر دون الشوبان فيه، والثبات على الأهداف والمرونة في الوسائل .

ودخلت هذه التوجهات الفكرية التي أقررتنا الصدمة الحضارية معترك التغيير والبناء الحضاري، وحاولت أن تعالج الواقع المتردي للعالم الإسلامي حسب رؤاها وتصوراتها، لكنها كبت جميعاً، ولم توفق في احتواء التحديات، وتحديد الأولويات، ووضع قاطرة النهضة في طريقها الصحيح، فمرت العقود تلوع العقود والعالم الإسلامي يراوح مكانه، والهوة تزداد اتساعاً بينه وبين الغرب، ومضاعفات التخلف تضغط على قواه وتشدده أكثر فأكثر إلى الخلف، وما زال سؤال النهضة مطروحاً بالصيغة نفسها التي طرح بها أول مرة منذ قرنين أو أكثر وكأنه جرح قازف : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟

بل إن هذا السؤال قد ازداد حدة بعدما أخذت بعض بلدان العالم الثالث زمام المبادرة وحدثت لنفسها بداية الطريق، وسارت أشواطاً واسعة في مضمار النهضة، فأعيد طرح السؤال بمرارة وحسرة : لماذا استطاعت بلدان غير إسلامية مثل اليابان التي انطلقت لبناء نفسها مع مصر في نفس التاريخ وبظروف متشابهة أن تحقق نهضة حضارية عملاقة بينما ما زالت مصر في بداية الطريق على

الرغم من تشابه المقدمات لكن مع اختلاف كبير في النتائج ؟، وأمام هذا التأزم الحضاري نتساءل :

لماذا عجز العالم الإسلامي طوال هذه العدة عن الخروج من عازق التخلف؟ هل المشكلة تكمن في عالم الأفكار ؟ أم في عالم الأشخاص ؟ أم في عالم الأسماء ؟ أم في عجز المسلمين عن بلورة نظرية في العلاقة مع الذات والتعامل مع الآخر والإسكاب بأبعاد فقه الحضرة، وفق رموز جدلية التخلف والتقدم ؟ أم في غياب مشروع حضاري أصيل، واضح المعالم، يبين القسومات، متكامل الأطراف، قائم على استيعاب التحديات، ووضع اليد على عكاس الخلل، والاستفادة من العنرات والإخفاقات المتكررة، واستشراف المستقبل، وتحديد نقطة الانطلاق بدقة ؟ وهذه الورقة تطمح إلى البحث في ثنائية التخلف والتقدم في العالم الإسلامي وتتبع مراحلها المختلفة، وتحاول استكشاف الأبعاد الحقيقية التي تتحكم في هذه الثنائية، وتسعى إلى تسييط الضوء على العوامل والأسباب التي أدت إلى فشل الطروحات النضوية ومشاريع التحديث المتعددة في تحقيق الاستقلال الحضاري للأمم، وتهدف إلى رسم استراتيجيات واضحة للخروج من العازق الحضاري .

ومما لا شك فيه أن الإجابة عن هذه الإشكالات سيساعدنا على تحليل سؤال النهضة في العالم الإسلامي، والبحث في مدلولاته ومضامينه رغبة منا في استشراف آفاق العالم الإسلامي في بداية الألفية الثالثة وعصر العولمة.

أولاً : المسلمون وأزمة التخلف الحضاري

لقد كان انحطاط العالم الإسلامي وسقوطه في هذه التخلف إغراقاً طبيعياً لعوامل ذاتية داخلية ما فتئت تتخر بنبائه حتى أنهكت قواه وأسلمته لحالة الانحطاط الفظيعة التي وصل إليها في العصور الحديثة. وقد شمل هذا الانحطاط جميع مجالات الحياة وتوونها، وألقى بظلاله القاتمة على كل القطاعات الحيوية في الأمة :

في العقيدة والتربية والأخلاق والتعميد والسياسة والاقتصاد والاجتماع ...

وعلى الرغم من الانتهاز الشامل الذي أصاب الحضارة الإسلامية بعد أن فقدت خطوط اتصالها بمذاهبها، وانحسرت أمام موجات النكوص، إلا أن عوامل القوة الذاتية فيها لم تمت وبقيت كامنة في أعماقها، تطفوإلى السطح بين أونة وأخرى، وتظهر في شكل حركات تجديد، تعبر عن الفلق الحضاري الذي ينتاب ضمير الأمة الجمعي، وتمثل رد فعل على مظاهر الانحراف والفساد، وتحاول

مراجعة الماضي، وتقويم الواقع، ونقد الذات للوقوف على أسباب التقيؤ والسقوط، والتמיד لإعادة بناء الكيان المتهدم، إلا أن إكراهات الواقع الثقيلة كانت أقوى منها كلها .

وتعد الحركة الوهابية التي قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب بنجد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أول محاولة لطرح مشروع إسلامي جديد في العصر الحديث. وقد جاءت كرد فعل قوي على الوضع المتردي الذي أتت إليه الأمة في ذلك الوقت حيث انتهى واقعا : >> إلى وضع من الوهن الشامل الذي يمثل خلاصة التخلف الذي اتحدت إليه الأمة منذ قرون قبل ذلك. فكان ذلك الانحدار قد وصل إلى النقطة التي تلامس أصول وجودها ملامسة تهدد بالإتيان عليه، فكانت النقطة التي أتت في الوقت نفسه إلى استقزاز ضميرها من شدة الخطر الناهم ليستيقظ ويتجه في سبيل الدفاع عن الذات <<¹. ويدخل ضمن هذا الإطار عدد من الحركات التي حدثت حذوها وكانت صدى لها، والتي اصطاح على تسميتها بالدعوات الإصلاحية، ومنها الحركة السنوسية، والحركة المهدية وغيرها . فقد اتفقت هذه الحركات على أميات القضايا التي يجب أن تعالج لينهض المسلمون من كبوتهم، والتي تتمثل في العودة إلى الأصول وفتح باب الاجتهاد وتنقية الدين من الخرافات والبدع ومحاربة التصوف المنحرف وتصحيح اعتقاد العامة. فالحركة التصحيحية كانت داخلية، والعلاج الذي طرح كان أيضا داخليا .

ثانيا : لحظة الصدام وميلاد السؤال

غير أن الاتبعات الإسلامي لم يقفز له أن يكمل مسيرته بالوتيرة نفسها التي بدأها، إذ سرعان ما اتخذت هذه المسيرة منعطفا حاسما حينما اصطدمت بالغرب الاستعماري، ووجدت نفسها وحيا لوجه مع الحضارة الأوروبية بكل عنفوانها وقوتها وأطماعها، فقد كانت لحظة الاحتكاك التاريخية التي جمعت المسلمين بالغرب لحظة تاريخية انتهت فيها أوروبا، وشعرت فيها بعظمتها وجبروتها، واهتز لها العالم الإسلامي هزة عنيفة زلزلت كيانه، وخلخلت ثقته بنفسه، وصدمة صاعقة جعلته يدور حول نفسه ولا يعرف فوق أي أرض يقف : >> فإتسان أوروبا قام — نونما قصت — بدور (الديناميت) الذي نسف معسكر الصمت، والتأمل، والأحلام. وبذلك شعر إنسان ما بعد الموحدين ... بهزة انتفض بعدها مستيقضا، ليجد نفسه في إطار جديد لم تصنعه يده <<²

لقد أدرك العالم الإسلامي بعد الدهشة المروعة أن الموجة الغربية الحديثة لون جديد من ألوان التحدي الحضاري لا تشبه في وجه من وجوهها أنواع التحدي الذي واجهه في الماضي، لأنها عرته أمام نفسه، وكشفت له أمراضه الداخلية، وأمطت اللثام عن عيوبه وعجزه وتخلفه المريع، وجعلته يدرك يوماً بعد يوم مقدار التقهقر والتراجع الذي سقط فيه .

وفي خصم هذه التغييرات الجذرية التي نفلت العالم الإسلامي من حالة إلى حالة ظهرت ردود الفعل، وتحركت القوى المفكرة في الأمة تمعن النظر في الواقع الجديد، وتفحصه، وتتلمس قسماته، وتتعرف إلى مكوناته، وتحاول أن تعيد للنقبة المسلمة توازنها الذي فقدته عند الصدمة الأولى . وفي هذا الإطار طرح السؤال المركزي الذي لا يزال يطرح إلى اليوم بنفس الصيغة ونفس الإلحاح : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ وما هي السبل الكفيلة بإخراج الأمة من وضعها المتردي والأخذ بيدها نحو النهضة لتنتخلص من المغلوبية الحضارية ؟ وإلى أي حد يمكن الاعتماد على المنجزات الحضارية الغربية لدى الجسم الإسلامي بالقوة اللازمة للنهوض ؟ فقد أصبح الغرب طرفاً أساسياً في هذا السؤال بعد أن أرغم العالم الإسلامي على الاعتراف بقوته، والاتجاه نحو نموذج المتفوق لزأب الصدع وإصلاح الحال .

وعلى الرغم من أن الهاجس الذي سكن النخب المثقفة الإسلامية كان واحداً، والهدف الذي اتحيت نحوه كان واحداً أيضاً، إلا أن الإجابات عن السؤال الكبير اختلفت، والمناهج تبانت، فأبرز الحضور الغربي القوي في الساحة الإسلامية اتجاهات فكرية متعددة، تبنت كل واحدة منها إجابة مغيرة ورسمت معالم مشروع نهضوي يختلف قليلاً أو كثيراً عن المشاريع الأخرى التي تبنت في الأرض نفسها، وخرجت من الظروف نفسها، وعلى هذا الأسس، فإن الفكر الإسلامي أثناء تلمسه طريق الخلاص من التخلف وتحقيق النهضة اتخذ ثلاثة محاور أساسية: — الأول : يرى أن النهضة لا تتم إلا عبر محاكاة الغرب والأخذ بحضارته

— والثاني : يعتقد أن النهضة لن تتم إلا بمحاكاة الماضي الإسلامي والتمسك بالتراث ورفض الوافد الجديد رفضاً تاماً.

— والثالث وقف موقفاً وسطياً توفيقياً بين تطرف الأول وتشدد الثاني، وحاول إيجاد صيغة تحفظ للأمة كيائها الديني والتاريخي، وتمكنها في الوقت نفسه من الاستفادة

من الحضارة الحديثة. والافتقار من علومها ومعارفها بالتقدير الذي يضمن لها السير الصحيح في طريق النهضة .

ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا الانشطار الفكري لا يزال يسيطر على الساحة الثقافية الإسلامية إلى يومنا هذا.

وقد مثل رفاعة رافع الطيطاوي. وخير الذين التوتسي صورة صادقة للحالة التي عاشها المثقفون المسلمون بعد الصدمة الحضارية التي أحدثها احتكاكهم بالحضارة الأوروبية، حيث أصيبوا بالانقياس الشديد الناتج عن إدراكهم لعمق الهوة الفاصلة بين العالم الإسلامي والعرب، ووقوفهم على مقدار التقدم الهائل الذي أحرزه الأوروبيون في مقابل التخلف المريع الذي سقط فيه المسلمون خلال الفترة التي استسلموا فيها للدعة والخمول.

وكان المشروع الذي طرحه من أوائل المشروعات النهضة التي ظهرت في العالم الإسلامي، وقد قام على الدعوة إلى الانفتاح الواسع على الغرب . والافتقار اللامحدود منه، وحصر نهضة الأمة في اقتداء هذا النموذج، لكنه لم يغفل الذات الحضارية، وحرص على أن يتناسب الواقع مع أصولها ومقوماتها. وقد كان رد فعل على الصدمة الحضارية، وحلا استعجاليا متناسبا مع الظروف الحرج الذي عاينه العالم الإسلامي في ذلك الوقت، حيث تنفق سيل الحضارة الغربية عليه وهوفي وضع متضعع ومتفكك وهش لا يقوى على أية مقاومة، وأمراضه التي ورثها عن عيود الانحطاط تنهش جسمه، وتقتل كل بارقة أمل في أن يتمكن من الصمود أمام الزحف الأوروبي.

وقد اعتقد هؤلاء الرواد أن استساخ المظاهر الحضارية الغربية كقيل بمدواة جروح الأمة العائرة، ودفع عوامل الاستعباد والتبعية عنها. وغاب عنهم — في عز الأزمة وثدة وطائيا — أن الأحداث التاريخية الكبرى التي تمخضت عنها التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تنعم بها أوروبا وتنفيها طلابها كانت وليدة جملة من العوامل والأسباب اللصيقة بالسنة الأوروبية والعظيمة الأوروبية، واستعدك المجتمع لمثل تلك الانقلابات التي دامت قرونا، وكانت عصيرة المخاض، شارك في تحقيقها الفلاسفة والمصلحون والمفكرون والثوار والساسة الأوروبيون، حتى غدت مكاسب عليا لا يجرأ أحد على المساس بها، واستقر احترامها وضرورة المحافظة عليها في اعماق كل مواطن، واستيرادها جاهزة لإسقاطها على المجتمع الإسلامي الذي يغاير المجتمع العربي في كل شيء محاولة

فأشلة، كما أن السعي للتوفيق بين مبادئها والمبادئ الشرعية الإسلامية يفرغ كلا الجانبين من محتوَاهما الثقافي، وبصبحان بلا معنى.

ثالثاً : سؤال النهضة والإجابات الكبرى

وإذا كان أوائل المفكرين المسلمين الذين احتكوا بالحضارة الغربية أيام تسللها النيطي إلى العالم الإسلامي قد قدموا ما في وسعهم، وأشاروا إلى طريق الخلاص كما صورتها لهم تجربتهم المحدودة، وظروفهم الخاصة. فإن الأحداث بعد ذلك تسارعت واتخذت منحى آخر تمثل في اختراق أوروبا للعالم الإسلامي اختراقاً مباشراً، واتساع نفوذها فيه اتساعاً كبيراً، واستقرار مؤسساتها العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية استقراراً مكيناً، قلب فيه موازين القوى، ووضعها في موقف حرج جداً لا يحث عليه. وتحتم على أبناء العالم الإسلامي اتخاذ موقف واضح من كل هذه التغيرات التي تم فرضها عليهم من الخارج وبالاعتق. وفي ظل هذه الظروف نشأت الإجابات الكبرى على سؤال النهضة، وتبلورت الاتجاهات الفكرية العامة التي حاولت تلمس طريق الخلاص، والخروج من حالة الدهشة والتردد إلى مجال الفعل والإنجاز.

— الإجابة الأولى : — التيار التحديثي العلماني

ظهر التيار التحديثي العلماني في العالم الإسلامي نتيجة لسياسة التغريب التي مارستها أوروبا الاستعمارية، والتي كانت ترمي من وراءها إلى سلب المجتمعات الإسلامية عن هويتها وإدماجها في النموذج الحضاري الغربي ليسيل إخضاعها، وتيسر عمليات استغلالها اقتصادياً، وتضمن ولاءها وتبعيةها الأبديّة. وقد وجدت هذه السياسة استجابة من بعض شرائح الأمة الذين اتبهاوا انبهاراً شديداً بما تتمتع به أوروبا من قوة وعظمة وتقدم، ورأوا أن النهضة لا تمر إلا من هذه الطريق، وأن العالم الإسلامي لن يخرج من ليل التخلف إلا إذا احتدى سيرة أوروبا، وترسم خطاها واستسخ مظاهرها، ونخلص من عبء تراثه الثقيل، وعليه فقد بنى مشروعه النهضوي على تحديث البلدان الإسلامية وفق النمط الأوروبي، بتبني مجموعة من الأسس والمبادئ تتمثل في :

1 — العقلانية والوضعية في الجانب الفلسفي

2 — العلمانية التي تفصل بين الدين والدولة في الجانب السياسي

3 — الحرية ومبدأ المنافسة الفردية في الجانب الاقتصادي

4 - تمجيد الإنسان والسعي نحو المنفعة الدنيوية في الجانب الأخلاقي

ومن أبرز أعلام هذا التيار : أحمد خان، ومصطفى كمال أتاتورك على الرغم من أنه لم يكن مثقفا ولا عالما ولا مفكرا من طراز خاص، بل كان جنديا في نشأته، سياسيا في تحاهه لكنه أسهم في دعم هذا التيار والتمكين له إسهاما لا ينكر، وفرح أنطون، وشبلي سميل، ويعقوب صروف، وقاسم أمين، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، وسلامة موسى⁴، وغيرهم.

وخرج هؤلاء الأعلام جموعا زاهرة من التلاميذ الذين صلّموا منهم راية القيادة، واستمروا على النهج نفسه، يؤيدهم النواير الغربية وتشد أزرها وتمكن لهم بنفوذها من تسلّم المناصب الرفيعة في مختلف البلاد الإسلامية، وهذه الفئة المتغربة هي التي راهنت عليها الدول الاستعمارية عشية انسحابها من الأقطار المستعمرة ومهدت لها السبيل لتحقيقها على سدة الحكم حتى ينسئ لها الاستمرار في تطبيق برنامجها الاستغلالي في الميدان الاقتصادي، ويسهل عليها فكريس تبعيتها في الميدان السياسي والثقافية : >> إن الدولة الحديثة القائمة على إبداع عربي، ملزمة منطقيا بالتمثل القانوني للغرب، بنقله ونسخه وتقليده، فيجري استبدال الشرع بالنسائير الغربية، ويجري إبعاد العلماء ورجال الدين عن المجالات الحقوقية والإدارية لتحل محلهم نخبة التي تفتقت حديثا على متغفي الاستعمار. إن هذه النخبة كانت نتاج اعداد دقيق من الرؤى والمؤسسات الغربية التي هدفت إلى تأهيل هذه النخب لقيادة المجتمعات المفسدة التي سيجري "تحريزها" من أصولها ولحماتها وعصبيتها التاريخية >>⁵.

وما زال هذا التيار إلى يومنا هذا يمسك بزمام الحكم في البلاد الإسلامية بيد من حديد، وما زال مصرا على تنفيذ بنود مشروعه النهضوي التغريبي لإلحاق العالم الإسلامي بالحضارة الغربية ودمجه فيها على الرغم من كل ما سمرت عذة التحارب المتعددة والمنكررة من الإخفاقات وأنواع الفشل الترييع.

الإجابة الثانية : التيار التقليدي المحافظ

يمثل هذا التيار اتوجه المناقض مناقضة تامة للتيار الحداثي العلماني؛ ورد الفعل القوي المتصرف على حركة التغريب القوية المتطرفة. فعملما اختارت طائفة التماهي في الحصارا الغربية والانسلاخ الكلي من الأصول، رأت هذه الطائفة أن السبيل طريق إلى تحقيق النهضة هي التمسك بالماضي والنسج على متواله، وتقدّيس

الأسلاف، والاحتماء بالموروث، وإعادة استنساخ الحقبة الماضية بكل مواصفاتها، ومقاطعة الحضارة الأوروبية ورفض كل ما يصدر عنها، واتخاذ موقف معاد من مكتسباتها الحضارية مهما كان نوعها، لأنها تمثل تهديدا خطيرا للهوية الحضارية للمسلمين.

ومما زاد هذا التيار انتكفاء وتراجعا وإشراقا في التوقّع والانغلاق ما ظهر من عداة لافر للإسلام من جانب الغرب، وما تكشفت عنه سياساته الاقتصادية والثقافية من أهداف استغلالية واستثنائية، ورغبة حامية في تقييده وتغييره بمختلف الوسائل والأساليب، حيث أثارت هذه المؤامرات المعلنة والخفية شعورا عميقا بالخطر، وإحساسا قويا بوجود الانعزال والمنافحة والتثبيت المنسحبين للهوية، وكان هذا التيار سباقا في إبراز انتقاض المعرفي والثقافي مع المشروع الغربي، ورفض التميّط الثقافي باسم وحدة الحضارة وتقوق المركز الأوروبي⁶.

وإذا كان أنصار التيار التقليدي المحافظ — في عهد المجندين الأوائل — يمثلون مواقف متطرفة لفئات معينة، لم تتبلور وتقوى لتكون اتجاهها بارزا في الساحة الثقافية الإسلامية، فإن الأحداث المتسارعة التي عصفت بالعالم الإسلامي منذ سقوط الخلافة وخضوع الدول الإسلامية للاستعمار الغربي، وظهور يولان الحركة الصهيونية في فلسطين، وما صحب ذلك من خيانات شريرة للشعوب وتلاعيات بمصائرها واستيثار بحقوقها قد أعطى دفعا قويا لهذا التيار، وعزز صفوفه، وجاء تشدده في التمسك بالماضي ورفضه القاطع للحضارة الغربية وكل ما يمت إليها بصلة، والتطرف في إظهاره ولأنه المطلق لثرائه ردا عنيفا على كل ممارسات الغرب الإذالية، وسياساته الاضطهادية. وقد ظهرت ظاهرة التطرف في الحركة الإسلامية مع هيمنة التغريب: << تصاعدت مع تصاعده، وهي تتوَمع عتوه ... وبينولي أن الغلوسينقي بدرجات سقى وأشكال متنوعة وعلى فترات ممتدة أو منقطعة ما بقيت هيمنة التغريب، ولن تضعف إلا بضعفها >>⁷.

الإجابة الثالثة: التيار الإصلاحى الوسطى

ظهر التيار الإصلاحى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكونه بمجموع الظروف والفكرية التي قدمها أعلامه اتجاهها بارزا في الفكر الإسلامى الحديث، أخذ على عاتقه مهمة الإجابة عن السؤال الحرج: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟. وقد تميزت الظروف التاريخية التي عاصرها أعلام هذا التيار بتغول أوروبا وتحولها إلى قوة إمبريالية استعمارية متوحشة، ابتلعت أجزاء من

العالم الإسلامي وتتحفز بإصرار وقوة لابتلاع ما تبقى منه، وانكشف الوجه الاستغلالي للغرب وظهرت أطماعه واضحة جلية، ونفطن كثير من المفكرين لموجة الغزو الفكري التي استهدفت التشكيك في الإسلام، والطعن في قيمه ومبادئه، وإثارة الشبهات حول قدرته على مواكبة العصر، وخفت حدة الصدمة الأولى التي أذهلت الجيل الأول، وظهر تغيير واضح في نوعية الإجابة التي قدمها هذا التيار .

إن أبرز ما ميز الطرح الفكري النهضوي الذي عالج به التيار الإصلاحية حالة الأمة المتردية هو التركيز بشكل كبير على الأمراض الداخلية، والعكوف على تحليل الوضع الذاتي للأمة والاجتهاد لإيجاد مكن الخلل فيها، إيماناً منه أن الانتكاسة التي أصابها كانت نتيجة أخطائها وانحرافاتهما، وقد زادها الاستعمار الغربي ضعفاً على ضعف، ثم تحديد البات التعامل مع الحضارة الغربية ومنجزاتها ومن أبرز أعلام هذا التيار وقادته الكبار الذين أسهموا في وضع أسسه والتنظير له، وكانت لهم جهود كبيرة في انصال من أجل مبادئه، والسعي المتواصل لتحقيق أهدافه على أرض الواقع نذكر : جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الحميد بن باديس، وحسن البنا، وأبو الأعلى اللودودي، ومحمد الطاهر بن عاشور، وسيد قطب، ومالك بن نبي⁸ وغيرهم .

وقد قام هذا التيار على أسس عامة تمثل الخطوط العريضة للمشروع النهضوي الذي قدروا أنه كفيلاً بإخراج الأمة من أزمتها الحضارية، ووضعها في الطريق الصحيح الذي يضمن لها التحرر والنهوض :

أ - الدعوة إلى العودة الصادقة إلى تعاليم الكتاب والسنة، والاتصال بالمبادئ بهما واستنهاج الحلول الإسلامية للواقع المعاصر من خلال الاستنباط الأصولي .
ب - محاربة التقليد والتعصب المذهبي والطائفي، والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد، والاعتماد على الفهم المقاصدي للتريعة في سبيل إحداث الإحصاب بينها وبين طبيعة العصر .

ج - الانفتاح الحذر على الحضارة الغربية، واستصحاب الحاسة النقدية في اقتباس المكتسبات العلمية والعمرانية منها مما لا يتصادم مع كليات العقيدة الإسلامية، ومحاربة التقليد الأعمى للغرب .

د - التوفيق بين العلم والإيمان. يقول الأفغاني : >> القرآن يجب أن يجعل عن مخالفته للعلم الحقيقي خصوصاً في الكليات، فإذا لم نر في القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة، ورجعنا إلى التأويل، إذ لا يمكن أن

تأتي العلوم والمخترعات بالقرآن صريحة واضحة، وهي في زمن التنزِيل مجبولة من الخلق، كإمته في الخفاء لم تخرج لتحيز الوجود، ولوجاء القرآن وصرح بالسكة الحديدية، والبرق، وما تفعله الكهربائية من العجائب وغير ذلك، أضلت الناس وأعرضت عنه وحسبته كذبا >>⁹ .

هـ - رفض الاستبداد السياسي باعتباره مظهرا من أهم مظاهر التخلف في البلاد الإسلامية، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن جمال الدين الأفغاني هو الذي ضرب بمنهم وافر في هذا المجال، وإن تضمن الخطاب الإصلاحى لكل من جاء بعده تعبيراً عن رفض الاستبداد، ودعوة مخلصه لتبني النظام الإسلامى القائم على الشورى والعدل، غير أنه تميز عنهم جميعاً بدعوته الحارة إلى إصلاح نظام الحكم في مختلف البلدان الإسلامية، والحد من سلطات الحكام، وإشراك الجماهير في سياسة الدولة عن طريق المجالس الانتخابية التي تسهر على حفظ مصالح المواطنين .
والدفاع الحار والمستميت عن الإسلام وكتابه وشريعته ونبيه وتاريخه ضد شبهات المستشرقين ومطاعنهم، وهجوم الفئات المتغربة .

ز - تنمية الوعي النبوى في نفس المسلم، وتصويره بوظيفته السامية التي خلقه الله من أجلها، وبث روح العمل فيه ليقوم بصنع التاريخ وتغيير واقعه بإرادته، وصنع مستقبله من المنطلقات الأساسية للإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً .

رابعاً : مشاريع النهضة وعوامل الإخفاق

لقد مئات العشرية الأخيرة من القرن العشرين - وهي الفترة التي كان الغرب يستعد فيها لتحويل الألفية الثالثة بطموحات وأمال تتجاوز الأحلام - مرحلة من أحرز المراحل في التاريخ الإسلامى، لأنها الفترة التي اكتشف فيها بكل مرارة أنه - وبعد قرابة قرنين من الجهود التصحيحية والتجديدية ومشاريع النهضة والتحديث - ما زال يزأج مكانه، ويعيش نفس الإشكاليات الحضارية التي كان يعيشها في بداية القرن التاسع عشر، ويعاني من العلل نفسياً في جميع الميادين : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وينحط في وهدة التخلف بكل أشكاله، والتبعية القطعية بكل ألوانها، ولم يتغير في واقعه سوى ازدياد عمق الهوة التي تفصله عن الغرب الذي كان يأمل في يوم ما أن يلحق به، واتساع الفجوة بينهما لتساعاً مخيفاً، وفشل جميع المشاريع النهضوية التي راهنت عليها النخب المسلمة فشلاً ذريعاً، ووصولها إلى مرحلة الأزمة التي لم يعد بإمكانها معها أن تقدم شيئاً جديداً، وبدأت معها تتساقط طروحاتها وهشاشتها، وشاع في الأدبيات الفكرية

الإسلامية جملة من المصطلحات التي تعبر عن هذه الوضعية العربية التي انتهى إليها المسلمون مثل " عصر الأزمة المفتوحة " و " الانهيار الشامل " و " الانحطاط المعاصر " و " الانكشاف الكلي " و " فشل التحديث والعصرنة " و " المأزق التاريخي " و " أزمة التقدم العربي " ¹⁰ وما إليها، وأصبح السؤال الذي كان يبحث عن سبب تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، يبحث عن سبب فشلهم في النهوض وعجزهم عن تحقيق النهضة المنشودة بعد هذه الحقبة الزمنية الطويلة، ويتساءل أين ذهبت تلك الجيود المتواصلة، والمشاريع المتعددة، والشعارات الكثيرة التي ملأت سماء العالم الإسلامي ضجيجاً، وملأت القلوب أمالاً وأحلاماً؟، وبذلك أصبح سؤالاً مزدوجاً، وأزمة مضاعفة، ووضعاً حضارياً حرجياً، ومستقبلاً ضبابياً .

وفي ضوء الدراسات الكثيرة التي طرحت في الساحة الإسلامية قضية النهضة في محاولاتها وانتكاساتها، وحاولت قراءة هذه الفترة ضمن فكر المراجعات الذي فرض نفسه ودفع المفكرين والدارسين دفعا لتسريح المشاريع التي تبنت النهضة وقادت مختلف توجهاتها، يمكننا الوقوف على جملة من العوامل الجوهرية التي كانت - بشكل أوبأخر - سببا في تباين المشاريع النهضوية وإخفاقها في تحقيق الحلم الإسلامي .

- التيار التحديثي العلماني : لقد تكتفت التجربة المساوية للتيار التحديثي العلماني عن إخفاقه في تحديد ماهية المجتمع الإسلامي، وفشله في تصور مشروعه النهضوي، وعجزه عن معرفة الآليات التي تحرك المجتمع من الداخل فيستجيب لتواعي التحديث ويتفاعل معها، وظهر للجميع بعد عقود من الممارسات القهريّة أن العالم الإسلامي - في ظل السلطة التحديثية - لم يتقدم قيد أنملة، وأنه لم يحقق أي هدف من الأهداف الاستراتيجية التي كان يحلم بها .

وانتهى الدارسون والمحللون إلى أن هذا الإخفاق النشيع في أحداث النهضة إنما يعود بالأساس لمصانمة المشروع التحديثي العلماني للمعادلة الاجتماعية للامة، ومحاوئته فرض نظريات وفلسفات تصطنح مع هويتها الحضرية وتتعارض مع موروئها الثقافي الذي تستمد منه أسباب الوجود ومعالم التميز. ذلك أن العوامل الثقافية والدينية والتاريخية تلعب دورا أساسيا في صياغة الخصائص النفسية لكل أمة، وتكون هذه الطابع هي الآلية المحركة للمجتمع والمشاريع النهضوية التي تعمل على تغيير واقع المجتمعات المتخلفة منزهة بمراعاة المعادلة الاجتماعية لهذه المجتمعات، لأنها إذا لم تكن منبثقة من طبيعة

الأمّة، منسجمة مع خصائصها الحضارية، مستوحاة من حاجاتها الحيوية فلن تجد استجابة من الجماهير .

وقد تأكدت هذه النظرية بعد التجربة الطويلة والمرّة التي قام بها التيار التحديثي العلماني في العالم الإسلامي، وما زالت تثبت صحتها يوماً بعد يوم، وتعلّمنا الانتكاسات المتوالية أن النهضة يجب أن تنبثق من عمق الموروث الثقافي للأمة الإسلامية، وأن نركز في نطلقاتنا على أفكار الأمة وقيمتها وتتجاوب مع تركيبها الثقافي والاقتصادية والسياسية والتربوية. إن الفكر النهضوي يجب أن يكون فكراً خصوصياً يولد وينجح في وسط اجتماعي وتاريخي يستمد حياته من تراث الأمة، وهو فكر إنساني يخضع في سماته العامة لمعادلتنا الاجتماعية التي تعطيه صفة الخصوصية وتجعله غير قابل للتصدير والاستيراد .

وقد وعى كثير من دعاة الحداثة والعلمانية - بعد فشل طروحاتهم النهضوية - أن أي اتجاه تحديثي مهما بلغت حدائقه لا يمكنه الاستقرار في التربة الإسلامية إذا أغفل معطيات الواقع العربي الإسلامي التي ما زالت مؤثرة بعمق وتؤثر في المعتقد والفكر والسلوك . ومنهم محمد حسين هيكل الذي اعترف بأن البذر التحديثي كان يزعم في التربة العربية فلا تستجيب له، ولا بد من بذر مخصوص صالح لطبيعتها : >> لقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية، لتتخذها جميعاً هدى ونبراساً، ولكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته، فإذا الأرض تبصمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه، وانقلبت الشمس في تاريخنا البعيد في عيد الفراعين مؤثلاً لوحى هذا العصر ينشأ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العيد من سبب قد يصلح بزراً لنهضة جديدة، وروايتُ فرايتُ أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر >>¹¹ .

وهذا يعني أن التقليد طريق منحرف لن يقضي أبداً إلى النهوض. ولن يكون سبيلاً قوياً للانطلاق الحضاري، لأن الحضارة والنهضة ولادة داخلية وإبداع ذاتي، لا يُستعار ولا يُستورد، وهي تنبثق من الحاجات الأساسية والضرورات الملحة التي تحس المجتمعات أنها بحاجة إليها فتكيفها وفق قيمها وتحددها حسب احتياجاتها فتكون تعبيراً صريحاً وحقيقياً عن هويتها الحضارية.

وفي هذا الإطار يمكننا إدراج التيار التقليدي المحافظ الذي قام هوليساً على تقليد الأسلاف والتمسك بأهداب الماضي، والقطيعة مع المتغيرات الجديدة،

والمنظومة المعرفية التي تصنع الحدث وتشكل الواقع، واتسحب من الحياة وصراعاتها واحتضن التراث بشدة وقاوم تيار التغريب لكنه لم يستطع أن يقدم البديل الذي يناهض النموذج الحضاري الأوروبي ويحد من امتداده، ولم يستطع أن يصوغ مشروعاً حضارياً متكاملًا يؤسس للنهضة على قواعد متينة بل اكتفى بالتحصن في المواقع الدفاعية الأمر الذي أفرغ الساحة الفكرية والواقعية من فعاليتهم وتركها نهياً للاستلاب الحضاري والتغريب .

أما بالنسبة للتيار الإصلاحى التوفيقى الذى أسس مشروعه النهضوى على القاعدة الإسلامية ووضع ضمن مبادئه ضرورة الاستفادة من الغرب فى الحدود التى تتناسب مع مقاصد الشريعة وكلياتها العامة كإجراء ضرورى . لرحام بالواقع والتأثير فيه ومعايشته دون فقدان الهوية الحضارية، فقد كان منذ البداية عبارة عن رد فعل للتحدي الغربى للكاسح الذى استهدفه استهدافاً مباشراً، وجنّد لإقصائه وتهيمشه واحتوائه، وتكميره إن أمكن كل ما تقفّت عنه عقيرة مفكره وساسته .

وبذلك وجد التيار الإصلاحى نفسه — منذ أول يوم — مضطراً للدخول فى مواجهة سافرة وعنيفة مع مقولات الحضارة الغربية وتمانجها التحديثية، وكان لا بد لاختلال ميزان القوى الذى رجح كفة الفكر الغربى ومشروعه أن يكون له تأثيره على التيار الإصلاحى الذى وجد أن النموذج الإسلامى الذى صاغه علماءه ومفكروه للخروج من حالة التردى الحضارى الشامل، والذى اجتهدوا فى أن يزوجوا فيه بين الأصالة والمعاصرة مجبر على الانزواء والتقهقر . وقد أرغمته الهزائم المتتالية، والضربات القاسية التى لم يتوان الغرب عن إلحاقها به لأنه صاحب السيطرة الفعلية على الواقع على الأنطواء على نفسه، والاتكماش والانغلاق والتراجع إلى خط الدفاع كثقافة شعبية مغلوبة لا علاقة لها بتحديد الخيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية والتنمية والاقتصادية والتربوية للمجتمع، ولم يستطع قادة هذا التيار الذين نادوا بتطبيق المبادئ والمعايير والسياسات الإسلامية أن يضعوا كل ذلك موضع التطبيق لأنهم لم يكونوا فى موقع القرار، بل كانوا مهمشين مبعدين عن الحركة التى تموج بها الساحة الإسلامية لحساب التخب السياسية الاقتصادية الثقافية الداعية إلى التحديث فى المجتمع وفق النموذج الغربى .

لذلك غلب على التيار الإصلاحى طوال هذه المدة الطابع التبعوى الدفاعى، وظل مرابطاً فى الخنادق الأمامية يدافع عن الكيان الحضارى للأمة، ويحمي ببيضته، ويرد عنه الشبهات ويدحض الأباطيل، ويحافظ على التوازن

النفسي للإنسان المسلم حتى لا يجرفه التيار التغريبي العاتي ويقنعه من جنوره، وكان طبيعياً أن تحتجز هذه المعارك الفكرية المستمرة نشاط المفكرين الإصلاحيين، وأن تستوعب فاعليتهم وتستهلك جهودهم ونشاطاتهم الذهنية، وأن يحرمهم هذا الاستنزاف الفكري الطويل من النظر في مشكلات الأمة الحقيقية، ويحول دونهم ودون القدرة على تصنيفها، وبتقييمهم على مستوى رد الفعل في علاقتهم وصراعهم مع المشروع التغريبي، الأمر الذي يفسر إخفاق مشروعاتهم النهضوي، وإعادة إنتاج الفكر الإصلاحي لقضايا القيمة، وإعادة طرحها بنفس الشروط وذات المواصفات التي كانت ملازمة له مع أوائل القرن التاسع عشر .

وعلى الرغم من أن المشروع النهضوي الذي قدمه التيار الإصلاحي قد أُنقِص في تحقيق أهدافه نظراً للصراع المحتتم بينه وبين التيار التغريبي المدعوم عالمياً بالمركزية الغربية المنتددة في أنحاء العالم، والذي سعى وما زال يسعى إلى مسح من الوجود لأنه يمثل تهديداً لاتجاه العولمة الرامي إلى قولبة العالم كله في القالب الغربي وتنويع جميع الثقافات والكيانات الحضارية الممانعة والمقاومة، فإنه أثبت خلال تاريخه الطويل أن صموده في وجه التحديات وتجاوزاته للمحن والنكبات دليل على اثباته من عمق الأمة، وبرهان حي على نمته لأمالها وآلامها وانخراطه انخراطاً عميقاً في ثنايا ذاتها الحضارية المثوية للظهور. وبإيه يعود الفضل في تعبئتها لمقاومة الاحتلال العسكري، ومواجهة معارك الإغناء مواجهة صلبة، والنيات على المواقع أثناء الأزمات الخائفة بقيادته لحركات التحرر، والانتفاضات الشعبية والثورات المسلحة التي أنهت الوجود الأوروبي في البلاد الإسلامية .

ومما سبق نخلص إلى أن إخفاقات مشاريع النهضة تتعلق بعوامل كثيرة من أهمها الميل إلى التقليد يسوي في ذلك المقلدون للتراث النزاعون إلى رفض سائر الآثار الغربية، المعترزون بأصالتهم، والمقلدون للغرب، المنفتحون انفتاحاً واسعاً على فكره دون ضوابط أوقود، فكلا الفريقين استنط في موقفه وتطرف، هؤلاء بالانغلاق الذي يعارض عملية النهوض ويدفن المواهب والكفاءات في كفن الماضي ويحجز عليها التفاعل مع العصر وتفجير طاقاتها الكامنة لإيجاد الحلول المناسبة لوضعيتها، وأولئك بالتماهي في الأحر إلى درجة الذوبان وفقدان الهوية الحضارية والتحول إلى تابع مهين، لا هم له سوى تكديس منجزات الغير واستجلاب بضاعته لتغيير الوجه الخارجي للمجتمع، وأصبحت الشعوب الإسلامية تحيا الحداثة بقافة التخلف وتاريخه، فهي لا تنتج ولا تعيش الفعالية الحضارية، بل

تعيش الاستهلاك والتبعية بأحلى صورها وأشكالها، وهذا من جراء العلاقة الفوقية والمصطنعة التي تربطها بالحدثة، وفي الوقت نفسه يفرض علينا أن نمر بالمراحل نفسها التي مر بها التاريخ الأوروبي، لأن القانون النهضوي الغربي قانون عام وحتي على مشاريع النهضة قاطبة. ولم تكن النهضة في يوم ما قائمة على التقليد أو الانغلاق، بل هي ابتداء ذاتي،

ومن العوامل الأساسية في هذا الإخفاق الحضور الدائم والمكثف للغرب طوال مسيرتنا النهضوية، ذلك أن إغفال هذا العامل الأساسي فيه تجاوز كثير من الحقائق التاريخية، فقد كانت المشاريع النهضوية العربية أساسا ومنذ البداية وليدة الصدمة مع قوة خارجية مهيمنة هي قوة الغرب وتوسعه الرأسمالي الاستعماري، ولم يكن هذا الغرب على استعداد لأن يفسح المجال لعدوه الحضاري ليمتلك مقومات النهوض والتقدم، وهو الذي رأى فيه غنيمة نسمة تشبع نهمه للتوسع، وتضع بين يديه ثروات هائلة لتغذية صناعته المتطورة، وتسويق منتوجاته، وإمداده بعناصر القوة والسيطرة. فكان طبيعيا أن يعمل بجد للحيلولة دون أن تحقق النهضة أهدافها ويتخلص العالم الإسلامي من قيوده وتبعيته، وأن يحرص أشد الحرص على أن لا تقوته حركة تعاكس التوجه الاستعماري وتجاوزة .

خاتمة

إن الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم يؤكد أن جميع الجهود النهضوية التي قام بها المسلمون منذ ما يزيد عن قرنين من الزمان لم تثمر في الأخير شيئا يذكر. فالنخب الفكرية والقواعد الجماهيرية ما زالت إلى يومنا هذا تبحث في أساسات المدنية وشرائط النهضة، وهذا معناه أن النهضة الحديثة قد فشلت في تقديم الأجابة الشافية الكافية على أسئلة النهضة، وأنها أخطأت السبيل إلى عقل الأمة وضميرها التاريخي .

إن الواقع الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم يؤكد أن جميع الجهود النهضوية التي قام بها المسلمون منذ ما يزيد عن قرنين من الزمان لم تثمر في الأخير شيئا يذكر : ففي المجال الاجتماعي ما زال الإنسان المسلم يعاني من الجهل والفقر والمرض والتخلف، وبتفشي في أوساطه أنواع الأفات كالتهنئة والخداع والغش والنول الإسلامية تركزت تبعيتها السياسية والاقتصادية عندما عجزت عن تحقيق أدنى أنواع التنمية الوطنية، فشلت في بلوغ الاكتفاء الذاتي في الغذاء واللباس والسواء، وأصبحت عالية على الغرب تسنيك ما تطرحه مصانعه مما يست

حاجاتها اليومية، وتستبدل ذلك كله ببرواتها الباطنية التي أفاء بها الله عليها، وترزح تحت مديونية رهيبة نتيجة لغياب التخطيط، وانعدام المشاريع الاقتصادية ذات الأبعاد التنموية الاستراتيجية، مما جعلها مسلوية الإرادة في قراراتها السياسية والثقافية، ووافقها المصيرية، وليس هناك واقع أكثر ترددا من هذا الواقع. فلماذا فشلت المشاريع النهضوية في تحريك هذا الواقع المنكمس؟ ولماذا يميل أصحابها إلى إنتاج وإعادة إنتاج المشاكل واجترار الهموم وطرح الإشكاليات نفسها وكأنها رد فعل للعجز والقشل عن تحقيق إنجازات ملموسة على أرض الواقع؟

إن النخب الفكرية والقواعد الجماهيرية ما زالت إلى يومنا هذا تبحث في أساسات المدنية وشرائط النهضة، بحثاً عما يتعين على المسلمين أخذه أو تركه من الحضارة الغربية، ودول إشكالية الدين والدولة، وحول العلمانية ومشروعيتها، وحول المرأة وأوضاعها ودورها وسبيل النهوض بها، وحول الهوية الثقافية وموازنتها بين الوافد والموروث، وحول التراث العربي الإسلامي وكيفية التصرف تجاهه، وما تأخذ منه وما تدع، بل ومنهج البحث فيه، وحول الوحدة والتجزئة في ديار الإسلام، مقتضياتها ومشروعيتها ومحاذيرها¹²، وهذا معناه أن النهضة الحديثة قد فشلت في تقديم الأجوبة الشافية الكافية على أسئلة النهضة، وأنها أخطأت السبيل إلى عقل الأمة وضميرها التاريخي

إن اتساع الفجوة بين الحاضر والأمل المنشود يدفع العقل المسلم لمراجعة منطلقاته وإعادة النظر في قضايا النهضة والتجديد، وإن المآلات الفكرية والحضارية والاجتماعية والسياسية التي انتهت إليها النهضة الإسلامية الحديثة التي ولدت في بواكير القرن التاسع عشر تشهد جميعها بوجود خلل خطير في أساسات هذه النهضة، بحيث أدى إلى فشل هذه الجهود الكبرى في إحداث بناء فكري ومعرفي ومدني شامل ومترن وقوي، تعتمد عليه الأمة في مسيرتها الطموح نحو السبق الحضاري الكبير، وهذا ما يتطلب قلب أوراق النهضة لاستكشاف جذور الخلل التي أنت إلى انهيارها، ومكامن العلل التي أضاعت مجهودات أبنائها هباء وأوصلتهم إلى طريق مسدود، وتقييمها بعين الحاضر وحس المستقبل .

لقد اكتشف المفكرون المسلمون ومن ورائهم الجماهير المثيكة أننا مازلنا في بداية الطريق لأننا مازلنا مضطرين لطرح السؤال نفسه الذي طرحناه منذ قرنين : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ وما هو السبيل الأمثل للنهوض من هذه الكبوة الحضارية؛ والتخلص من أضرار التحلف والانحطاط والمغلووية

الحضارية⁴، وهذا يستلزم استئناف مسيرة نهضوية جديدة على أنقاض كل الطروحات التي ملأت الساحة الفكرية والميادين الواقعية للعالم الإسلامي، وكأنها كانت سرايا طوוא الأفق.

الهوامش :

¹ النعزم، عبد المجيد، شذيع الشهيد الحضاري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1999م، ص 18

² بن نبي، مالك، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 1981م، ص 42

³ راجع: التونسي، خير الدين، أقود المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق: د. معن زيادة، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1978م، ص 112، 115، 147، 156، 172، 206، 247

⁴ لمزيد من التفاصيل راجع: عبد الغني، د. عبد المقصود، دراسات في الفكر الإسلامي الحديث، ص 110 إلى 115، وحسين، محمد محمد، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 6، 1403 هـ - 1983م، ج 2، ص 222، 229، والبيبي، د. محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته

بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 1، 1405 هـ - 1985م، ص 34 - 37، و⁵ أمين، فاسم، الأضال الكاملة، جمع وتحقيق: د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1976م، ج 2، ص 209، وحسين، طه، مستقبل الثقافة في مصر، ج 1، ص 21، 45، 49، 50.

⁶ إسماعيل، فادي، الخطاب العربي المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط 1، 1991م، ص 114

⁷ صارة، د. محمد وآخرون، الشكائيات الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات العالم الإسلامي، مطاب، ط 1، خريف 1991م، ص 218

⁸ لخبية عن الكتاب، رؤى إسلامية معاصرة، تقديم: د. محمد سليم العوا، كتاب العربي، رقم 45، وزارة الإعلام، الكويت، 15 يونيو 2001م، ص 42 - 43

⁹ لمزيد من التفاصيل راجع: المغزومي، محمد، خاطرات جمال الدين الأفغاني، الطبعة العمية ليوسف صابر، بيروت، 1931م، ص 161، 177، والأفغاني، جمال الدين، الأضال الكاملة تحقيق: د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، 1981م، ج 2، ص 333، والأفغاني، جمال الدين

ومحمد عبيد، العروة الوثقى، ص 59، ورضا، محمد رشيد، تاريخ الأستاذ الإمام شيخ محمد عبيد، مطبعة المنار، القاهرة، ط 1، 1931م، ج 1، ص 11، وعبيده، محمد، رسالة التوحيد، ص 141 - 142، والبناء، حسن، مجموعة الرسائل، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ط 2، 1401 هـ -

1981م، ص 96، والمودودي، أبو الأعلى، نحن والحضارة العربية، ص 317 - 318، و¹⁰ بن نبي، مالك، مشكلة الأكل في العالم الإسلامي، ترجمة: بسم بركة وأحمد شعبو، تحت الشراف عمر كامل سقاوي، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1413 هـ - 1992م، ص 56

¹¹ المغزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني، ص 161

¹² إسماعيل، فادي، الخطاب العربي المعاصر، ص 123 - 124

¹³ هيكل، محمد حسين، في منزل الوحي، دار المعارف، القاهرة، ط 6، 1974م، ص 22

¹⁴ السلطان، جمال، "رؤية في أوراق نهضتنا الحديثة"، رسالة الجهاد، ص 9، ج 92، 1990م، ص 90

حاجة الإنسانية إلى الإسلام ماضيا وحاصرا ومستقبلا

الدكتور قادة بن بن علي
جامعة الجبالي اليابس. سيدي بلعباس

جاء الإسلام والمجتمع الإنساني في أثنأ أزمنته التي أحاطت به من جميع
التواحي الدينية والسياسية

والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، والتي يستقرئ التاريخ يقف على
أسوأ ما روي، فقد كانت الأوضاع متردية إلى أقصى حد (1)، وبلغت الجباله
أوجها وسادت الخرافات وانتشر الظلم وعم الصغيان واليغي، وانحرفت البشرية عن
الطريق السوي، وضيعت الأمانة ولم تقم بأعباء الخلافة في الأرض. وفي وسط
هذه الانحرافات والضلالات، أنن الله بقيام الأمة الوسط التي عيند إليها بقيادة
البشرية وجعلها خير أمة أخرجت للناس، فتغير مجرى تاريخ البشرية، وظهر عيد
جديد قوامه العدل والأخوة الإنسانية والمساواة، وقاعدته الإيمان بالله الواحد الأحد
الفرد الصمد، ورفض الخرافات مهما كان نوعها وأيا ما كان مصدرها، وكانت
حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وحلفائه مثالا يحتذى به وقوة لا يوجد لها
نظير، وانطلق مجتمع الرعاة للغنم إلى المحيط الهادي شرقا، وإلى الهند والصين،
إلى إندونيسيا وباكستان، إلى الفلبين، إلى الأطلسي غربا، وصولا إلى أسبانيا
وإيطاليا، بقيادة قتية بن مسلم، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، وعقبة بن
نافع وغيرهم، فانطلقوا بكلمة التوحيد وبمولزين الحق والعدل والأمن والسلام،
يصنعون التاريخ ويخططون لعمارة الأرض. ويخرجون الناس من عبادة العباد إلى
عبادة رب العباد ومن جور الأنيان إلى عدالة الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة
الدنيا والأخرة، فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

وقد استطاع الإسلام خلال القرن الأول أن يبلغ بدعوته ما بين الشرق
والغرب وأن يضم تحت جناحه أمما وشعوبا، اختلفت لغاتها وألوانها، وتباينت
طبائعها وعاداتها. وساد العمران في أنحاء النولة الإسلامية التي ظلت رافعتها تسع

يوما بعد يوم، وتستقطب شعوبا جديدة أضناها الظلم وأصاعها الفساد، لتجد في أحضان الدين الجديد إطلاق مراحها وصلاح أحوالها وعتق أسرارها، وقد وجنوا فيه ما يدعوهم إلى العمل ويحرضهم على العلم، فظهرت آثار العلماء المسلمين في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء وغيرها ... ونظرا لأهمية الموضوع وشاعته ارتأيت أن أقسمه إلى قسمين أتناول في الأول حاجة الإنسانية إلى الإسلام ماضيا، وفي الثاني حاجة الإنسانية إلى الإسلام حاضرا ومستقبلا .

أولا : حاجة الإنسانية إلى الإسلام ماضيا

لقد ظهرت حاجة الإنسانية إلى الإسلام ماضيا إلى ما عانته من الظلم والإستبداد، ومن أزمات دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية، وكذلك إلى ما تميزت به رسالة الإسلام من مميزات وخصائص والتي نلخصها فيما يلي :

1- أنها عالمية :

إن من ميزات الإسلام الأولى عالمية رسالته(2)، فليس فيه تخصيص قط، فالدين الإسلامي في جوهره مفتوح للجميع، ودعوة القرآن الكريم موجهة إلى كافة الناس على اختلاف مشاربهم ، وتباين عاداتهم وتقاليدهم، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا " (3)، وقال له أيضا : " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (4)، فالرسالة الإسلامية الذي تستمد أصولها من القرآن والسنة واجتهادات الفقهاء، تتلاءم مع مصالح الأفراد وحاجاتهم ، وما يتطلبه المجتمع المتطور ، فهي لم تأت لوقت دون وقت أو لعصر دون عصر ، وإنما هي للبشرية جميعا من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فنصوصها وأحكامها لا تؤثر فيها مرور الزمن ولا تعاقب السنين ، فهي صالحة لكل زمان ومكان (5)، وفي هذا يقول الشيخ الرقاعي " نزلت الشريعة لتطبق في كل زمان ومكان ، فهي تشمل كل ما يهتم الإنسان في حياته ... عقيدة وشريعة، أخلاقا ومعاملات " (6).

فالإسلام باعتبارها آخر دين منزل يضم تحت لوائه جميع الرسالات السماوية التي سبقته، ولذا نجد المسلم ملزماً بأن يؤمن بالرسالات الإلهية التي سبقت رسالة الإسلام، قال الله تعالى : " آمن للرسول بما أنزل إليه من ربه

والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله
وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " (7)

2- أنها تقوم على الوسطية والاعتدال :

الوسطية هي إحدى المعالم التي يميّز بها الله تعالى أمة الإسلام عن
غيرها من الأمم ، قال الله

تعالى : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون
الرسول عليكم شهيدا " (8)، فأمة الإسلام هي أمة العدل والاعتدال التي تشهد في
الدنيا والآخرة على كل انحراف يميناً أو شمالاً عن خط الوسط المستقيم (9)،
فالإسلام يطلب من المسلمين الوسطية والاعتدال بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة
معاً ، لأنّ الدنيا مرتبطة بالآخرة ، والدنيا دار عمل وإبتلاء وامتحان ، والآخرة
دار حساب وجزاء ، وعندما ترتبط الدنيا بالآخرة في حسن المسلم ، فإنّه يعمل
لآخرة كما يعمل للدنيا ، فهو إنسان متوازن يعيش لندياه كما يعيش لأخراه ، ولهذا
يقول المولى عزّ وجلّ : " وابتغي فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنسى نصيبك
من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إنّ الله لا
يحبّ المفسدين " (10) كما يصف المسلمون الذين يدعون ربهم قائنين : " ربنا آتانا
في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " (11)

ومما يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنّه كان يقول : " اللهم
أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ،
وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي " (12) .

وتتجلى الوسطية في الرسالة الإسلامية أيضاً في أنّ الأحكام التي جاءت
بها على نوعين :

- 1- أحكام لإقامة الدين ، وتشمل أحكام العقائد والعبادات .
- 2- أحكام المعاملات ، وتخصّص أحكام الأحوال الشخصية والدستورية
والدولية والجنائية والاقتصادية...

فالتشريع الإسلامي على تنوع أحكامه وتعديدها ، جاء بقصد إسعاد
الناس في الدنيا والآخرة ، وتحقيق مصالحهم وإقامة المساواة والعدل بينهم، يقول

حاجة الإنسانية إلى الإسلام ماضيا وحاضرا ومستقبلا
الإمام الشاطبي في كتابه : - الموافقات - " إن أحكام الشريعة ما شرعت إلا
لمصالح الناس، وحيثما وجدت المصلحة فتمّ شرع الله " (13).

3- أنها تقوم على الواقعية والمثالية :

لقد بنى الإسلام تشريعه على أسس تتماهى مع القطرة الإنسانية ، لأن
الإسلام دين ينبع من أعماق الإنسانية ، ويدعوا إلى الحياة الفاضلة السعيدة، يقول
الشيخ محمد عبيد " إن الإسلام أكثر ملائمة لمقتضى القطرة السليمة ، فأباح
الطيبات من الرزق ، ولم يكلف نفسا إلا وسعها ، فكان الدين الإسلامي أكثر ملائمة
للطباع والعادات والقوى البشرية على اختلافها " (14) .

4- أنها تدعوا إلى المساواة في القيمة الإنسانية المشتركة

لقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان بأن خلقه بيده ، ونفخ فيه من
روحه، وأسجد له ملائكته ، وسخر له ما في السموات والأرض جميعا منه،
وجعله خليفة عنه، وزوّده بالقوى والمواهب ليسود الأرض ، وليصل إلى أقصى ما
قدر له من كمال مائي ، وارتقاء روحي، وقد حرص الإسلام على تفرير مبدأ
المساواة في القيمة الإنسانية في أكمل صورها . فأكد على أن الناس سواسية في
أصل خلقهم الأول وفي طبيعتهم البشرية ، وأن ليس ثمة تفاضل في إنسانيتهم،
وإنما يجري التفاضل على أساس تفاوتهم في الكفاءة والتعلم والأخلاق والأعمال
..... وإلى غير ذلك ، وفي هذا يقول الله عزّ وجلّ : " يا أيها الناس إنا خلقناكم
من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم . إن
الله عليم خبير " (15)، وفي شرحه لهذه الآية يقول الدكتور عبد الواحد وافي :
" أي إنكم جميعا من جنس واحد ، فلا فضل لأحدكم على الآخر بحسب
عنصره وطبيعته ، وإذا كان الله تعالى قد جعلكم شعوبا وقبائل ، فإنه لم يجعلكم
كذلك لتفضيل شعب على شعب أو قبيلة على قبيلة . وإنما قسمكم هذا التقسيم ليكون
ذلك وسيلة للتعارف والتمييز والتسمية، ك شأن الأفراد يحمل كل منهم اسما يُعرف
به ويتميز عن سواه، والتفاضل بينكم في نظر الله إنما يجري على أساس أعمالكم
ومبلغ محافظتكم على حدود دينكم، فأكرمكم عند الله اتقاكم " (16).

وفي آية أخرى يقول الله تعالى : " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم
من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء " (17)، هذه
الآية تفرز حقيقة لا يمكن تجاهلها، ألا وهي أن الجنسين الذكر والأنثى يرجعان

كلاهما إلى أصل واحد ، وهذا ما أكده الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع التي جعلها دستوراً للمسلمين من بعده : " يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أبابكم واحد ، كلكم لآدم وأدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، ألا فيبلغ الشاهد منكم الغائب " (18) .

وقد سمع مرة النبي صلى الله عليه وسلم أبا ذر الغفاري يقول ليلال الحبشي يا ابن السوداء ، فظهرت آثار الغضب الشديد على وجهه صلى الله عليه وسلم ، فأنشأ أبا ذر وقال له : " إنك امرئ فيك جاهلية ، كلكم بنو آدم ، ليس لأبني البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو عمل صالح " فوضع أبو ذر خذه على الأرض وأقسم على ليلال أن يطأه بحذانه حتى يغفر الله له زلته هذه ، ويكفر عنه ما بدر منه من خلق الجاهلية الأولى (19) .

وقد ساوى الإسلام بين جميع أفراد البشر في التكريم بقطع النظر عن كونه مؤمن أو غير مؤمن بقوله تعالى : " ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً " (20) .

5- أنها رسالة تدعو إلى العلم والتعلم

نظراً لما للعلم من أهمية كبيرة في حياة الإنسان ، لأن به تنهض الأمم والشعوب فتحقق لأبنائها الخير والسعادة والرفاهية ، وبه يتحرر الإنسان من الأوهام والخرافات والأضاليل والجمود ، فقد اهتم الإسلام به اهتماماً كبيراً فحث على تعلمه وتعليمه ، وجعل له منزلة عالية في الحياة ، ورفع من منزلة العالم درجة عالية ، حتى أن الله عز وجل ساوى شهادة العلماء بشهادته وشهادة الملائكة في وحدانيته فقال : " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط " (21) .

كما رفع مقام العلماء بين الناس درجات بقوله : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " (22) ، كما ذكر أن العلماء أشد خشية لله بقوله عز وجل : " إنما يخشى الله من عباده العلماء " (23) ، ويشيد الله تعالى بالعلم والعلماء فيقول : " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب " (24) .

كما جاءت الآيات الأولى التي نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم منظوية على تعظيم العلم ووضعها في المكانة الأولى من نعم الله تعالى على الإنسان ، ومن دلائل عظمته وقدرته فقال سبحانه وتعالى : " اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم " (25).

كما أمر الله عزّ وجلّ من نبيّه محمّد صلى الله عليه وسلم أن يطلب المزيد من العلم لفضله العظيم ومنزلته الرفيعة فقال: " وقل رب زدني علماً " (2). وقد رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تشيد بالعلم والعلماء وتحث على تعلمه وتعليمه من ذلك :

1- قوله عليه الصلاة والسلام : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " ، وقوله أيضاً : " فضل العالم على العابد كفضلي على أمتاكم رجلاً " (27) ، وقوله : " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة " (28)، كما حثّ الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب العلم ولو بالصين : " أطلبوا العلم ولو بالصين " فيذه إشارة إلى طلب العلم مهما بعدت نياره وحيثما كان ، لأنه عنصر من عناصر الشخصية القويّة ، وسبيل إلى التقدّم والازدهار .

2- ومما يزيد العلماء فضلاً أن الإسلام يعتبر العلم النافع امتداداً صالحاً لعمل العالم ، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له " (29) .

3- ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة في حقّ التعلّم والثقافة ، فقد أعطى للمرأة نفس الحقّ الذي أعطاه للرجل ، وأباح لها أن تحصل على ما تشاء الحصول عليه من العلوم والآداب والثقافة ، بل إنه ليجب عليها ذلك في الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها وحسن قيامها بأمور بيتها ورعاية زوجها وتربية أولادها، وقد اعتبر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة وركناً من الإيمان بالله ، شأن المرأة في ذلك شأن الرجل سواء بسواء ، ففي الحديث الشريف عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " ولفظ المسلم في الحديث يشمل الذكر والأنثى على السواء، فللمرأة حقها الكامل في التعلّم والتعليم (30). ولقد أمر الله

تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالتعلم والتعليم مساهمة في نشر الدين الإسلامي .

قال الله تعالى : " واذكرونا ما ينزلنا في بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفاً خبيراً " (31)، وفي حديث البخاري عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: " نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين " (32)، وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم أروع مثل في تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في حقّ التعلم والثقافة ، وفي حرصه على تعليم المرأة وتنقيتها بما فعله مع زوجته حفصة أم المؤمنين ، فقد روى أن الشفاء العدوية وهي سيدة من بني عدي رهط عمر بن الخطاب ، كانت كاتبة في الجاهلية ، وكانت تعلم الفتيان ، وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما تزوجها عليه الصلاة والسلام طلب إلى الشفاء العدوية أن تتابع تنقيتها، وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة (33)

وهكذا ترى الإسلام يحرص على التعلم والتعليم ، ويبين مكانة العلم

العظيم ومنزلته العليا ، مما يبين أن التعلم حق لكل إنسان ، والناس سواسية في طلب العلم ، فلا فرق بين غني وفقير ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا بين كبير وصغير ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد "

6- أنها رسالة تدعوا إلى المواخاة والتسامح بين الأديان

فكما أحي الإسلام بين البشر جميعاً على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، دعا كذلك إلى المواخاة بين الأديان كلها، والإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين. قال الله تعالى : " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (34)

كما أمر الإسلام أتباعه ألا يجادلوا أصحاب الديانات الأخرى إلا بالتي هي أحسن: " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن " (35). وهذا ما دفع بأصحاب الديانات الأخرى إلى الدخول في الإسلام فأوجا لإتباعه هذا الأسلوب في الدعوة وتركه الحرية التامة المطلقة لكل صاحب دين أن يبقى على دينه، فلا اضطهاد ولا إكراه، بل التسامح هو السبيل الوحيد لتقريب وجهات النظر: " لا

إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" (36). فقد كفل الإسلام حرية الفرد فيما يعتقد، فلا يكره إنسان على أن يدخل فيه، لأن ذلك يصادم طبيعة فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، فدعا إلى الإيمان عن طريق الإقتناع بالطريقة المهيبة وبالتي هي أحسن.

ويعترف المستشرق البريطاني السيد * أرنولد * الأستاذ بجامعة لندن سابقا في كتابه * الدعوة إلى الإسلام * بالتسامح التيني عند المسلمين، ويؤكد أن القبائل المسيحية التي دخلت في الإسلام إنما فعلت ذلك عن إرادة واختيار، ثم يقول: * إننا لو نظرنا إلى التسامح الذي امتد إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، لظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق *. ثم يسرد الأمثلة الكثيرة التي تؤكد كلامه، وتبين أن جميع من دخل في الإسلام إنما دخل بإرادته المطلقة (37) .

ومن سماحة الإسلام مع أهل الذمة واحترامه لأماكن عبادتهم، أن

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما ذهب إلى بيت المقدس لم يصل في كنيسه، فقيل له ألا تجوز فيها الصلاة فقال : خشيت أن أصلي لله فيها، فيزيلها المسلمون من بعدي ويتخذونها مسجدا (38) .

ثانيا : حاجة الإنسانية إلى الإسلام حاضرا ومستقبلا

يموج عالم اليوم في أزاعات ومحن وبصارع ألوانا من الكوارث والفتن، ويتخبط في ظلمات الإلحاد والكفر، ويعاني صراعات عقائدية إعتبرت الأديان خرافات وأساطير، ويمارس إنحرافات أخلاقية وصورا من الفسق والإباحية لم تعرفها البشرية في تاريخها الطويل، ويعيش تحت نظام الغاب حيث يأكل القوي الضعيف وتسيطر قوة السلاح بدلا من قوة الحق والقانون .

وفي خصم هذه الأحداث وأمام عجز الهيئات الدولية عن تخفيف حدة الصراع والسعي إلى إقرار السلام وتوفير الأمن للشعوب والمجتمعات، ينطلق الناس إلى وسائل الخروج من هذه الأوضاع المزرية والمتدهورة على جميع المستويات، وكان التاريخ يعيد نفسه، وبقي أن نتساءل، هل إلى الخروج من سبيل ؟ وكيف إلى هذا الخروج ؟ ومن هو ذلك الذي سيقود العالم إلى ذلك الخروج ؟

الحقيقة أنّ البشريّة لا تستطيع أن تعيش بعيدة عن فطرتها التي خلقها الله عليها فترة طويلة من الزمن، فهي تتعطش إلى نظام ينقذ العالم ممّا يندحر إليه من الإنحطاط والتدهور في كلّ أوضاعه الإقتصاديّة والسياسيّة والأخلاقيّة، ويتطلع بشوق حارّ إلى من يأخذ بيده لينقذه من محنه وفنته وتداعيه. ذلك لأنّ القوانين والنظم الوضعيّة أثبتت فشلها في إسعاد الناس وطمأننتهم، فقد شهد الناس في هذه القوانين الإفلاس الروحي، والتحلل الأخلاقي، والإنهيار الاقتصادي والإلحاد الفكري، ونحت ظلّها شتت الأمم بالحروب والإستعمار، ولا زالت تنقى إلى يومنا هذا من ثقافة الهيمنة، وسيطرة القوي على الضعيف، وذلك لانقضاء الجوانب الخلقية والروحية لهذه القوانين والنظم وفي هذا يقول أحد كبار العلماء الغربيين (سبنسر) * بعد الثورة الفرنسيّة أخذ المشرعون الأوروبيون في تجريد القوانين من كلّ ما له مساس بالدين والأخلاق والفضائل الإنسانيّة، فاقصرت رسالة القانون على تنظيم علاقات الأفراد الماديّة وما يمسّ نظام الأمن ونظام الحكم ... (39).

ولهذا فعالمنا اليوم في أمسّ الحاجة إلى مقاييس جديدة تحكمه وتزيل ما يعانيه من أزمات فكريّة واجتماعية واقتصاديّة وخلقية، وإلى قوانين ونظم توفّر له الأمن والسلام وتحقق له العدل والمساواة، وترفع عنه الظلم والطغيان، ولا أرى نظاماً آخر قادراً على توفير هذه المطالب غير النظام الإسلامي(40)، فهو المنهج الوحيد الذي يعيد الإنسانيّة إلى المسار الصحيح، وإلى الطريق المستقيم، وينقذها مما تنتردى إليه من الدمار والإنحطاط، ويحقق لها منظرها العليّ، وإنسانيّتها الكاملة، ذلك لأنّ الإسلام جاء بمنهج كامل للحياة، يشمل الدنيا والآخرة، ويشمل العبادات والمعاملات، ويجعل للعمل جزاء، كما يجعل للعبادة أجراً، و يلبّي طلبات الإنسان من ولادته إلى وفاته، بل حتى قبل ولادته(41) وبعد وفاته(42)،

لقد ظهر في بلاد الغرب كتاب مشهورون لفتوا النظر إلى الأخطار المحيطة بالبشريّة، ويعتقد بعضهم أنّ الإسلام وحده هو الدين المؤهل للقيادة الحكيمّة لأنّه يعني بالدنيا كما يعني بالآخرة وبالقرود والمجتمع، ويؤمن بالحرية والإخاء والعدل والإحسان، كما يحرص على تكريم الإنسان ويطالب بأداء رسالته كخليفة الله في الأرض، ويؤكد هذا القول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي حيث يقول: * فلإسلام من تاريخه الحضاري العظيم، وله من ماضيه الخالد في قيادة العالم وتوجيهه، وله من ميادنه وقيمه ومثله وفلسفته، له من كل ذلك براهين

قوية لا تقبل الشك، على أنه هو القائد والرائد المنتظر للعالم، وعلى أنه لن يصلح غيره في تهذيب الحياة وتوجيهها، وفي بناء الحضارة ودعم صرحها * .

فالإسلام لم يجرى بالعقيدة الثنوية وحدها، ولا بالنظام الأخلاقي المثالي الذي يقوم عليه المجتمع فحسب، بل جاء مع هذا وذاك بالشرعية المحكمة العادلة، التي تحكم الإنسان ونصرفاته ومعاملاته في خاصته نفسه، وفي علاقاته بأسرته، وفي علاقاته بالمجتمع الذي يعيش فيه، وفي علاقة دولته بالدول الأخرى. وبذلك يكون الإسلام قد أتى بالشريعات التي لا بد منها لقيام المجتمع الصالح الذي يسود فيه العدل والمساواة والسلم والرفاهية والأزدهار .

ولهذا فالتشريع الإسلامي يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة المتطورة، وفي هذا يقول الدكتور السنيوري في مذكرة تنقيح القانون المدني المصري " ... فالشرعية الإسلامية تعد في نظر المنصفين من أرقى النظم القانونية في العالم، وهي تصلح لأن تكون دعامة من دعائم القانون المقارن، ولا تعرف في تاريخ القانون نظاما قانونيا قام على دعائم ثابتة من المنطق القانوني الدقيق ما يضاهي الشرعية الإسلامية، فإذا كان لنا هذا التراث العظيم، فكيف جاز لنا أن نفرط فيه ؟ ... " (43) .

ويشهد على صلاحية الشرعية الإسلامية لكل زمان ومكان وعلى تفوقها على القوانين الوضعية نخبة من علماء الغرب، منهم الدكتور " إيزيكو ساباتو " حيث يشهد بأن " الشرعية الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوروبية، بل هي التي تعطي للعالم أوسع الشرائع ثباتا " (44) . ويؤكد هذه

الشهادة الأستاذ " شيرل " عميد كلية الحقوق سابقا بجامعة فيينا، حيث يقول: " إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد صلى الله عليه وسلم إليها إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع منكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة " (45) .

والإسلام حرر النفس البشرية من عبودية غير الله، ففضى على الوشوية والإسلام أول وحدة عقائدية وسياسية في حياة العرب، ففضى بذلك على النزعات القبلية والعنصرية، كما فضى على حاكمية البشر، وأعلن أن الحاكمية لله تعالى، لقوله عز وجل: " إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن

أكثر الناس لا يعلمون" (46)، وحقق الأمن والسلام، ونشر العدل والمساواة، وقدّم للإنسانية تراثاً ضخماً من العلم والحضارة لا تزال تعيش على آثاره حتى اليوم .

الخاتمة

لعله انضح لنا من خلال ما سبق، أن الإنسانية بحق في حاجة إلى الإسلام، فهو النظام الوحيد الذي يستطيع أن يعيد الإنسانية إلى المسار الصحيح، وإلى الطريق الحق، فكما أنقذ البشرية في الماضي وحررها من الظلم ومن كل الخرافات والانحرافات والضلالات، فهو قادر على إنقاذها اليوم ممّا تنزّذت إليه من الدمار والهلاك والخراب والضياع، وبحقّق لها مثلها العليا، وإنسانيّتها الكاملة، وفطريّتها الخالصة، وحرّوة سعائتها، وجماع أهدافها، ذلك لأنّ الإسلام هو الرسالة الخاتمة التي أنزلت بعد أن اكتمل للبشرية نضجها وإدراكها، وأنها الرسالة السماوية الوحيدة التي عالجت قضايا البشرية والإنسانية بصورة شاملة، حيث رعت متطلبات الروح والجسد من غير أن يطغى أحدهما على حسب الآخر، وهو نظام يقوم على العدل والمساواة لا على أهواء الناس، قال الله تعالى: "وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم" (47)، وهو نظام كما يقول د. محمد مينا العلي "يحتوي على أروع النظم الاجتماعية وأسلم النظم السياسيّة وأعدل النظم الاقتصاديّة، وكلّ ذلك ليحقق للناس حياة حرة كريمة، وعيشة هنيئة في الحياة الدنيا، وسعادة ونعيمًا في الدار الآخرة" (48)، وقد صنع حضارة لم تر الإنسانية لها من قبل ولا من بعد مثيلاً، في نشر العلم والمعرفة و العدل والمساواة والسلام في كل مكان حل فيه (49).

إلا أن الأمة الإسلاميّة بوضعها الحالي الممزق سياسياً، والمتدهور اجتماعياً، والمتأخر تكنولوجياً وعلمياً، والضعيف اقتصادياً، لن يكون لها دور الطليعة والقيادة في هذا العالم - كما كان لأسلافها في الماضي - ما لم تعد إلى أصلاتها وحضارتها فتعالج ما أصابها من وهن ونذل وهوان، وتحقق وحيثها، وتسرّد كرامتها المهنّرة، ودورها القيادي والحضاري (50)، مصداقاً لقوله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (51)، فهذا الوصف لهذه الأمة يدلّ دلالة واضحة على أن لهذه الأمة دوراً يختلف عن أنوار الأمم الأخرى، فهذه الأمة أخرجت للناس، وبناء الفعل لغير الفاعل يشير إشارة واضحة إلى أن خروج هذه الأمة عمل مقصود لذاته، ولما

بحقّه من أعراض كثيرة للإنسانية، فنورها دور يختصّ بالناس، لأنها أخرجت لهم، وصنعت من أجلهم، والصانع هو الله تعالى، فهو بحكمته الخالصة، وبرحمته بالناس صنع لهم هذه الأمة فأحسن صنعها وإخراجها، وأعطاهم الدور الذي لا يجدر بأمة غيرها أن تحمله، ألا وهو دور الطليعة والقيادة، والمثال المحمدي، وبما أن الله هو أحسن الخالقين يصغيها بأتم خير أمة فلا بد أن تكون كذلك .

ومن الطبيعي أن يكون دور الطليعة والقيادة منوط بخير أمة أخرجت للناس لأن إعطاء القيادة لغيرها يعني أن يكون الأفضل تابعاً لمن هو أقلّ منه فضلاً، وأن يكون صاحب الخير الأكبر خاضعاً لتوجيه من لم يؤت مثل نصيبه من الخير، وهذا لا يؤدي إلا لشقاء الأمم والشعوب، وشقاء البشرية عموماً،

وأحتم بحثي هذا بقول العالم المسيحي برناردشو : "إني أكنّ كلّ تقدير لدين محمدٍ لحيوته العجيبة، فيذا الدين هو دين الوجود، الذي يبدو لي أنّ له طاقة هائلة لملازمة أوجه الحياة المتغيرة والصلاحيّة لكلّ العصور، لقد درست حياة صاحب هذا الدين، وفي رأيي أنه يجب أن يستقى منقذ البشرية، دون أن يكون في ذلك عداً للمسيح، وأني لأعتقد أنه لو أتيح لرجل مثله أن يتولّى منفرداً حكم هذا العالم الحديث لحالفه التوفيق في حلّ جميع مشاكله بأسلوب يؤدي إلى السعادة والسلام للذين يفتقر العالم إليهما كثيراً، وأني أستطيع أن ألتبأ بأنّ العقيدة التي جاء بها محمدٌ ستلقى قبولا حسناً في أوروبا في الغد، وقد بدأت تجد أذانا صاغية في أوروبا اليوم" (52).

الإحالات

1- فتعاليم المثنوية والمزدكية التي سادت الإمبراطورية الفارسية لم تعد صالحة، والإغتيال للاستيلاء على العرش أصبح سائتاً، والحرب مع الإمبراطورية البيزنطية لا يظفأ أوارها حتى تشب من جديد، ولم تكن هذه الإمبراطورية بأحسن حال، والرتوم الباهتة والطقوس البالية هي كل ما يتبقى من اليهودية والتصرافية اللتان استحكمت بينهما العدا، والحل في المجتمع العربي لم يكن بأحسن منه في غير، فحياتهم حمر وميسر، وسلب ونهب، وقتل وواد ليليات وحرمانيين من التراث، وعبادة الأصنام، حتى أصبح لكل قبيلة رب، وكان يحيط بالكمية ثلاثمائة وستين صنماً أو أكثر.

2- يقول الأستاذ حبيب الشطي في هذا الموضوع : "إن من ميزات الإسلام الأولى عظمية رسالته، فليس فيها تخصيص قط، والدين الإسلامي مفتوح للجميع، ودعوة القرآن موجبة إلى من يسمعها ... رسالة الإسلام، رسالة عالمية"، مجلة رسالة اليونسكو، باريس، سبتمبر 1981، ص 15

3- سورة الأعراف - الآية 158 -

4- سورة سبأ - الآية 28 -

- 5- حتى يكون التشريع صالحاً لكن زماناً ومكاناً، يجب أن يكون في طبيعته وأصوله ومصادره ما يجعله قابلاً للتطور حسب الزمان والمكان، وهذه الميزة لا نجدتها إلا في التشريع الإسلامي، فقد بدأ يعرف التطور منذ أيام الخلفاء الراشدين، وذلك عن طريق استحداث مصادر جديدة كالاجماع والقياس، وزادته تطوره ظهور المصادر الاجتهادية الأخرى كالاستحسان، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، والتعرف... في عصر ظهور المذاهب الفقهية الكبرى: الحنيفة، المالكية، الشافعية، الحنابلة.
- 6- الشيخ منصور الرفاعي عبيد، نظام الحكم في الإسلام، دار الثقافة للنشر، ط01، القاهرة ص 68
- 7- سورة البقرة - الآية 285 -
- 8- سورة البقرة - الآية 143 -
- 9- أنظر حسن رمضان فحمة، "مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام"، دار الهدى ط01، ص 142 .
- 10- سورة القصص - الآية 77 -
- 11- سورة البقرة - الآية 201 -
- 12- حديث متفق عليه، أنظر، جواهر البخاري وشرح القسطلاني، دار الفكر، بيروت، 1341 هـ ص 576
- 13- الإمام الشاطبي، الموافقات، نقلاً عن د. عبد العفيف طيارة، المرجع السابق، ص 307.
- 14- الشيخ محمد عبيد، مقاصد القران، نقلاً عن الأستاذ حسن رمضان فحمة، المرجع السابق، ص 138
- 15- سورة الحجرات - الآية 13 -
- 16- د. عبد الواحد وافي، حقوق الإنسان في الإسلام، دار النهضة، ط 04، مصر، 1967، ص 09
- 17- سورة النساء - الآية 01 -
- 18- الأستاذ حسن رمضان فحمة، المرجع السابق، ص 163 .
- 19- د. عبد الواحد وافي، حقوق الإنسان في الإسلام، المرجع السابق، ص 10
- 20- سورة الإسراء - الآية 70 - .
- 21- سورة آل عمران - الآية 18 -
- 22- سورة المجادلة - الآية 11 -
- 23- سورة الزمر - الآية 09 -
- 24- سورة فاطر - الآية 28 -
- 25- سورة العلق - الآيات 01 إلى 05 -
- 26- سورة طه - الآية 114 -
- 27- رواه الترمذي، نقلاً عن د. صلاح عبد العلي محسن، الحقوق العامة للمرأة، ج 01، مكتبة دار العربية للكتاب سنة 1998، ص 190.
- 28- أنظر د. صلاح عبد العلي محسن، نفس المرجع، ص 190.
- 29- أنظر د. محمد رفعت عثمان، المرجع السابق، ص 61 .
- 30- أنظر د. صلاح عبد العلي محسن، المرجع السابق، ص 189 و 190 .
- 31- سورة الأحزاب - الآية 34 -
- 32- رواه البخاري، نقلاً عن د. صلاح عبد العلي، المرجع السابق، ص 194

- 33- أنظر د. علي عبد الواحد وافي، حقوق الإنسان في الإسلام، المرجع السابق، ص 32 .
- 34- سورة البقرة الآية 256 .
- 35- سورة البقرة الآية 136 .
- 36- سورة العنكبوت الآية 46 .
- 37- أنظر د. أرنك الدعوة إلى الإسلام- نقلاً عن د. مصطفى ساتي أسس الدولة الإسلامية، ص 234 .
- 38- أنظر الإمام أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع " دار الفكر العربي- القاهرة، سنة 1965 ص 185
- 39- راجع د. طه عبد الباقي سرور، المرجع السابق، ص 157 .
- 40- أنظر د. طه عبد الباقي سرور المرجع السابق، ص 105 .
- 41- كحق الجنين في الوصية، وفي السر، فقد نص المشرع الجزائري على هاتين الحقيقتين في قانون الأسرة، فقد جاء في المادة 187: " تصح الوصية للعمل بشرط أن يوكف حياً، ولذا ولد تولد يستحقونها بالتساوي ولو اختلف الجنس " وجاء في المادة 134 على ما يلي: " لا يرث الحمل إلا إذا ولد حياً ويعتبر حياً إذا استهل صارخاً أو بنت منه علامة ظاهرة بالحياة " .
- 42- كحق الميت في تجهيزه، وتسيده نيوته، وتنقيح وصيائه، انظر المادة 180 من قانون الأسرة 43- انظر د. طه عبد الباقي سرور، المرجع السابق، ص 155 .
- 43- أنظر د. طه عبد الباقي سرور، المرجع السابق، ص 164 .
- 45- أنظر د. طه عبد الباقي سرور، المرجع السابق، ص 165 .
- 46- سورة يوسف - الآية 40 -
- 47- سورة العنكبوت - الآية 49 -
- 48- البرك محمد مهنا العلي - الانتزاع في الإسلام - ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991 ، ص 13
- 49- قال الأمير شارل ولي العهد البريطاني، في ندوة تحت عنوان " الإسلام والعرب "، بجامعة أكسفورد الثانية، لدى تحرفه إلى مساعدة الإسلام في تكوين الحضارة الأوروبية: " الإسلام ساعد على إنشاء أوروبا العصرية وهو بذلك جزء من تراثنا "، جريدة النساء، بتاريخ 30 / 10 / 1995 .
- 50- يقول الكاتب الأمريكي (نوروب استوارت) في مقابلة كتابه حاضر العالم الإسلامي " ظهر الإسلام في أمة كانت قبل ذلك العهد متخضعة الكيل، ومنحطة التلال، قدم بعض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ممرقا ممالك مترامية الأطراف، وهناك أبنين قديمة كبرت عليها الحقب والأجيال، وسفيرا ما بنفوس الأمم والأقوام، وبيتايا عالم الإسلام ... وهكذا رأى الناس بالتجربة الثابتة أن الإسلام هدى وسقاء وآله التواء الوحيد لإنقاذ الأمم متى طبقت قوانينه وتعاليمه تطبيقاً صحيحاً "، انظر الشيخ محمد الصالح النفوس، الإسلام وخطوبه، مجلة المعرفة، العدد 05، ماي 1979، تونس، ص 18 .
- 51- سورة آل عمران الآية 110 .
- 52- أنظر د. محمد القحاده، الإسلام صالح لكل زمان ومكان، مجلة الفكر الإسلامي، ص 04، الجزائر، سنة 1972، ص 83 .

أمتنا في معركة دائمة لتحقيق الذات

الدكتور حسن رمضان فحلة

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية جامعة باتنة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله عز وجل: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) البقرة: 143.

وقال سبحانه: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) آل عمران: 110.

وقال جل وعلا: (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) المؤمنون: 52.

يتبين من هذه الآيات أن لكلمة الأمة دلالات متعددة:

1- إنسان + رسالة.

2- منهاج حياة، وما يتضمن ذلك من معتقدات وقيم وعمارسات وتقاليد.

3- فترة زمنية.

4- مجموعة من الناس لها مهنة واحدة.

5- مخلوقات أخرى من الحيوانات والطيور والحشرات التي تنتمي إلى جنس واحد.

ومن هذه الدلالات تبدو عناصر الأمة التي هي: العنصر البشري، والفكري، والاجتماعي، والزمني، ومن هنا قالوا إن الأمة ((مجموعة من الناس تحمل رسالة حضارية نافعة للإنسانية، وتعيش طبقاً لمبادئ هذه الرسالة، وتظل تحمل صفة- الأمة- ما دامت تحمل هذه الصفات))¹.

ويتجلى من بين هذه العناصر الإنسان الذي قد يكون فرداً واحداً كإبراهيم عليه السلام، كما في قوله تعالى: (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين) النحل: 120.

فقد سمي إبراهيم أمة لأنه جمع من الفضائل والكمالات ما لو تفرق لكفى أمة². وجاء في تفسير الطبري: ((الأمة الذي يعلم الخير ويؤتم به ويفتدى))³.

والإنسان قد يكون جماعة من العلماء الدعاة الذين يحملون رسالة إصلاحية كقوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف) آل عمران: 104.

وقد يكون طائفة أو قبيلة لها معتقدها وتهجيا كما في قوله تعالى:

(وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمماً) الأعراف: 160.

وقد يكون جيلا له فكر واحد ولون حضاري واحد، كما في قوله تعالى:

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) البقرة: 134.

وقد يتسع مفهوم الإنسان حتى يشمل الإنسانية كلها، إذا اجتمعت على فكرة واحدة ومنياج واحد كما في قوله تعالى: (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) يونس: 19.

وبالإضافة إلى هذا العنصر، يتجلى عنصر الرسالة التي ((هي مثل أعلى يقدم النموذج الأمثل للجوانب الخيرة في سلوك الفرد والجماعة، ليأتم الناس به ويسعدوا، ويقدم الصورة الشاملة للجوانب الشريرة ليتجنبها الناس ويسلموا من آثارها))⁴.

ورسالة الإسلام منهاج حياة بما فيه من معتقدات وقيم وممارسات وتقاليد يحتاج الإنسان إليها لتحقيق خصائصه الذاتية، وتوفير له السعادة الحقة والسكينة والطمأنينة ... ((هذا هو المنهج الذي يحتاج إليه الإنسان في عصرنا، ولا يوجد إلا في الإسلام))⁵.

الإسلام الذي ارتقى بالمستوى الإنساني نحو حضارة إنسانية في مختلف العبادات التي ربي النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين على معايشة المثل الأعلى والتضحية في سبيله، لذلك فإن وجود الأمة مرهون باستمرار حمل الرسالة والالتزام بتطبيق أحكامها.

إلا أن الأمة أصيبت بالوهن، فتشوه مفهومها، وتعددت دويلاتها، وأصبح الكم الهائل من أهلها كثرة كغناء السيل كما جاء في الحديث النبوي الذي رواه أحمد وأبو داود: ((ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة وليقذفن في قلوبكم الوهن)). قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: ((حب الدنيا وكرهية الموت)).

فأصيبت الأمة في عقيدتها بحيث نشأت انحرافات خطيرة في جسمها، وبدت أمراض عديدة في مظاهر مختلفة، ظهرت على شكل تخلف عقلي أدى إلى فساد

في التصور، وفساد في السلوك ((الذي جر على الأمة الويال - منذ القديم - إذ أدى إلى اجتياح جحافل التتار دولة الخلافة، وتدفق الصليبيين من الغرب يريدون إطفاء نور الإسلام))⁶.

وأدى هذا التخلف العقدي إلى علل كثيرة نخرت في جسم الأمة وفي مقدمتها إبعاد الشريعة الإسلامية عن الحكم على يد الغزو الصليبي الذي استعان بوسائل وأسباب مادية وفكرية لإبعاد المسلمين عن الكتاب والسنة⁷. هذا الإبعاد الذي أدى بهم إلى تخلف في الحضارة والسياسة والاقتصاد فأصبحت أمتنا أمة استهلاك وبنفاق لا استثمار وتنمية، وأمة استيراد وتبعية لا إبداع ولا اعتماد على النفس.

وإلى جانب ذلك الزهد في القيم الأخلاقية والاستغناء عن الكثير منها، لأن الأخلاق الكريمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقرآن والسنة.

وهذا الانحراف عن العقيدة ترك الأمة بعيدة عن الواقع الشرعي، فنتج عن ذلك سلوكيات مدمرة ومفاسد خطيرة كالكذب والخيانة، والإخلاف بالوعد والبنفاق والسهوون في العمل والإنتاج والبخل والجبن، والحقد والحسد... بسبب النفاق والتواكل، والضعف العلمي، ورهن العرائم، والانصراف عن عمارة الأرض، وضياح التجارة من يد المسلمين.

ولم يقتصر ضعف الأمة في النواحي الحضارية مادياً ومعنوياً بل شمل النواحي السياسية والعسكرية وهذا ما جعل أمة الإسلام تعيش في تبعية محرفة في الفكر والقانون والسياسة والاقتصاد، لدرجة استيراد كل شيء حتى الغذاء من عند الغرب حيثما كان وكيفما وجد ولو كان فيه الدمار للعقيدة أو الخلق أو السلوك.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: من وراء ذلك كله؟

وقبل أن نعدد الأسباب التي هي جزائيم سامية تنخر في جسم أمتنا نقول بسبب ذلك الأساسي البعد عن التحصين العقدي مما سبب ضعف المناعة الجسدية التي يكسبها من القيم الإسلامية فجعل هذا الجسم يتقبل كل ما يرد إليه: ((إن المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب، في شعاره، وزيه، ونحلته وسائر أحواله، وعوائده... حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه، والافتداء خطر كبير، كما هو في الأتراك...))⁸. ونلك هي

نظرتنا إلى الآخر، أما أسباب تخلف المسلمين فنوجزه بما يلي:

- القيم الخاطئة لروح الإسلام ومقاصده وعالميته.

- التخصيص الذي لسم به عند من الدعاة مما سبب أزمة كبيرة في الدعوة.
 - الجزوب من النقد الذاتي الذي يتم عن طريقه البناء المتكامل.
 - الانقسام والاختلاف والتفرقة بين المسلمين لا نقول العوام منهم بل الذين يتعلمون ويدعون لفض علماء الأمة وتفريق الوحدة المطلوبة.
 - المناهج التربوية القديمة التي لا تساير التقدم العلمي، ولا تعد الناشئة للعصرنة، وتحقيق الذات.
 - التخصيص والضعف في مواجهة المنظمات التبشيرية والاستشراقية التي نشوه حقيقة الإسلام.
 - الزهد في التخصص العلمي الذي يجب أن يكون في التعليم الجامعي، وخاصة التخصص الدقيق من أجل اتساع المعرفة ونموها والتعمق في فروع العلم والثقافة حتى نستطيع مواجهة الآخر.
 - الانجاء بفكر المرأة المسلمة إلى المشاركة الإيجابية في توجيه المجتمع، وإزالة العوائق التي وضعها الآخر في طريق مسؤولياتها المشرفة، وهذا يعني تحريرها من جميع الرواسب والأفكار القديمة التي ليست من الإسلام في شيء.
- هذه مبادئ ومفاهيم تتخر في جسم الأمة من الداخل، سنبينا الخارجي ليس بالجديد، بل قديم قدم شراسة المعارك المتواصلة التي هجمت على أمتنا من الخارج، وما زالت باقية إلى هذا اليوم، نذكرها في فرعين اثنين:
- الفرع الأول: المواجهات القديمة:** ونعدها بما يلي:
- أولاً- **الغزو الصليبي:** الذي بدأ منذ بدايات القرن العاشر بعد طرد الإسلام من الأندلس، ثم توالى الحملات الصليبية على أمتنا مستخدمين الغزو العسكري، والحملات التبشيرية التي تمهد لهم السبيل إلى استعمار كامل، حيث استعناو بعدد من الحكام لتنفيذ مخططاتهم العدوانية.
- ثانياً- **الغزو الفكري:** الذي يهدف إلى إبقاء العالم الإسلامي خاصة والنامي عامة تابعاً للدول الكبيرة المتقدمة تبعية غير منظورة، الأمر الذي يجعل تلك الشعوب المغزوة تحض بالحزبية والاستقلال بينما تعيش حقيقة في قيود الذل والتبعية.⁹
- * ولهذا الغزو مظاهر كثيرة وتيارات متعددة وركائز ونظريات مختلفة وفلسفات هدامة، وأساليب يرافقة خداعة لتغريب المسلمين والمسلمات. ولقد قامت مؤسسات عديدة لنشره وترويجه منها: الصهيونية العالمية، والتبشير والاستشراق، والاستعمار، ووسائل الإعلام والاتصالات الحديثة.

وكان من برامجها لتحقيق أهدافها، نشر المبادئ والنظريات المعادية للإسلام فقامت بحملات لتثويبه الإسلام، كما استهدفت أهدافا خبيثة حتى تهتز ثقة المسلمين في دينهم، وتجعلهم يهجرون نظام الحياة الإسلامية المتكامل.

والى جانب ذلك حملات التغريب التي تستهدف تأثير فكر الغرب وحضارته في المسلمين، مستعينة لتحقيق ذلك مجموعة من الدراسات والأعمال والثقافات والنظم التي تجعل المسلمين متشبعين بالفكر الغربي المعادي للإسلام¹⁰. فحاولوا تغريب التعليم والثقافة والحياة الاجتماعية والقيم الخلقية والآداب السلوكية، فبدؤوا بتغريب المرأة وإفسادها ونادوا بأن تخلع حجابها وشجعهم على ذلك الغافلون من أبناء دينها، ولم يقتصروا على ذلك وإنما حاولوا تجريدتها من ملابسها، وزينوا لها الاختلاط، وأخرجوها إلى ميادين العمل ومزاحمة الرجال في المصانع والفنادق، والقنون المختلفة معنية وممثلة وراقصة حتى عدت سلعة رخيصة تباع وتشتري، ثم عبثوا بحقوقها المشروعة لها كنظام الحضانة والزواج والميراث....

ثم تكالبت سراسه هذه الحملات نحو الأسرة ففرقوها وجعلوا أولادها يعيدون عنها حيث قامت مربيات أجنبيات لتربية الأولاد الذين فقدوا حنان الأم مما أدى إلى جنوحهم وانحراقهم. كل ذلك لتطبيع المسلم بطابع المجتمع الغربي.

* ركائز الغزو الأجنبي وأدواته، والتي هي منطلقات خطيرة لشن الغارات المتتالية على الإسلام فكراً وأسلوباً، وعلى المسلمين أفراداً وهنات، وعلى بلاد المسلمين وخيراتهم في الحاضر والمستقبل، ومن هذه الركائز:

1- الصهيونية أو اليهودية العالمية التي هي حركة خبيثة هدامة هدفها القضاء على المبادئ والقيم وكل ما هو غير يهودي. ابتدأت في إقامة وطن لليهود في فلسطين، ومن ثمة خدمة اليهودية العالمية ليصبح العالم كله والمسلمون في قبضة اليهود وتحت سيطرتهم كما تزعم كتبهم المزيفة "سيقوم الرب، ويقبس الأرض ويجعل عبدة الأوثان - الأمميين - تحت يد إسرائيل، وتسلم جميع ممتلكاتهم إلى اليهود"¹¹؛ معتمدين في ذلك على النساء اليهوديات المنتكرات في صور الفرنسيات والإيطاليات وغيرهن لتشر الخلاعة والتهنك في حياة أكثر المترعسين في مجتمعاتهم، وبالتالي لتثويبه الإسلام، وأخلاق المسلمين، وإثارة الحروب الأهلية في الكثير من البلدان.

2- التبشير بالمسيحية بين المسلمين بغية تنصيرهم تحت رعاية الكنيسة في التبشير بالمسيحية في العالم الإسلامي بالذات لخنق واقتلاع الإسلام من نفوس المسلمين، وإحلال المسيحية محله، تحت شعار (حملات التنصير).

ومما قاله "تورانس براون" (إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية، يمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أو يمكن أن يصبحوا أيضاً نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير)¹².

3- الاستعمار المتحالف مع الصهيونية والتبشير والاستشراق ضد الإسلام والمسلمين، والهدف من ذلك الاستيلاء السياسي والحضاري على العالم العربي والإسلامي، فإن لم يتيسر له ذلك استعان بالاستيلاء العسكري.

والاستعمار قديم منذ الجذور في ماضي الأمة منذ تسعة قرون أي مع الحروب الصليبية الأولى بقيادة بطرس الراهب عام 489هـ - 1095م والتي كانت من مراحلها حملة لويس التاسع 647هـ - 1249م وكذلك الحملة البريطانية لغزو فلسطين 1917م.

فكان من جراء ذلك الاستعمار العديد من التول العربية في آسيا وشمال إفريقيا، وفي هذه الفترة استطاع أن يثير الفتن والقتل، ويقم الإدارات السيامية في الداخل للقضاء على كل نزعة إسلامية، وهذا ما يحدث في هذه الأيام في العراق.

كما استطاع تشجيع الدعوات الطائفية والعرقية والمذهبية والقومية والشعوبية، لإبعاد المسلمين عن الوحدة ليسهل عليه اقتسامها.

4- نشر النظريات والمبادئ الهدامة المعادية للإسلام، التي سغلوا الناس بها كالنظريات الاقتصادية (الاشتراكية و رأسمالية) وسياسية وما يتفرع عن ذلك كله. إلى جانب الفلسفات الهدامة كالوجودية التي لا تقيم للأخلاق وزناً ولا للآداب مكاناً (فالوجودية فلسفة ملينة بالتناقض خارجة على حدود كثير مما يقره العقل ويرضاه المنطق فضلاً عن مخالفتها لما جاء به الإسلام من منهج رضيه للناس ديناً ونظاماً في حياتهم الدنيا)¹³ كل ذلك للقضاء على المنهج الرباني من جهة، و تحويل الولاء عن الإسلام إلى تلك النظريات والفلسفات.

ومن أخطر هذه الزكائن: الماسونية والروتاري وهما من نشاط اليهود المعادي للدينين عموماً والإسلام على وجه الخصوص قلما هبت على المسلمين

أعاصير الاحتلال، حملت معها كل الموبقات الأوروبية فأخذت تتدلع وتشيح، ثم جاء القانون الوافد حاميا لها، بل لا تغالي إذا قلنا أنه أنشأها وشجع عليها¹⁴.

ويتضح ذلك من خلال الأدوار التي قام بها القانون الوضعي من أجل الانحلال الخلفي والتخريب الاقتصادي، وعلى سبيل المثال إشاعة الفوائد الربوية في المعاملات الاقتصادية كالرهنون والمضاربات، والقروض بنوعها الإنتاجي والاستهلاكي.

الأمر الذي جعل ربط مصالح الناس الحيوية بقانون وضعي بصرفهم عن الالتزام بالأحكام الشرعية في الإسلام.

* **ومن الأخطار الجائئة على صدر الأمة تقليد الأخر وخاصة عندما كانت الأمة في ركود حضاري وجمود اجتماعي، حيث بدأ التقليد وظهرت المحاكاة، ومضاهاة الكفار في كثير من العادات السيئة والأحوال الفاسدة، وأشكال الحياة الماجنة، والأساليب المظهيرية التي أثرت على الأنواق والأخلاق، فكان من ذلك الاختلاط بالكفار الوافدين إلى بلادنا ثم بين الذكور والإناث فيما بيننا في الأعمال والوظائف والبيوت والنوادي والتجارة، بحيث امتد الفساد إلى داخل الأسر عندما رفضت الاحتمك إلى الشريعة.**

5- **العلمانية التي دخلت على أمتنا في ربي حادع براق، لأن العلمانية كلمة حق يراد بها باطل، فهي تدعو إلى العلم، ولكن أي علم؟ (لله العلم الذي ينزل عن الدين انعزالا حاسما، بل ويقف منه موقفا معاديا، فحيث كانت للعلم كلمة عند هؤلاء العلمانيين، فليس للدين أن يكون له حساب معها، أو رأي فيها، أيا كان هذا الرأي موافقا أو مخالفا... إننا لا نقبل من الدين حكما لها أو عليها في مقررات العلم ومعطياته، لأنها لا تعترف بالدين، ولا تحفل بمقولاته¹⁵.**

الفرع الثاني: التحديات المعاصرة الشرسة:

وفي هذا العصر ظهرت هواجس مخيفة و منها "العولمة" التي عدت كالعنبريت الذي تخوف به الأم ولبدها عندما يخالف أمرا من أوامرها، وهي وإن كانت كذلك لكنها هيمنة على الأفكار والعقول، وعكبت على الثقافات والنظم والعادات، ووضعت شاكيا على النظم والتنظيمات والقوى الاقتصادية وفي الدول النامية الصغيرة لتلقي خصوصياتها عليها ولتجعلها تسيروا وفق النموذج الثقافي الغربي الأمريكي الصهيوني.

لأنها التداخل الواضح فى أمور العالم سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

إنها تنظر إلى ما وراء الظواهر، وتتحدى منح إخضاع العالم لقوانين مشتركة، فهي بذلك هيمنة ثقافية معينة على ثقافات أمم أخرى. بمعنى أنها دعوة إلى صياغة حياة الناس وفق أساليب موحدة بين البشر، بإضعاف المناهج والأساليب التربوية الخاصة والنظم الحياتية، لكي تحل مناهج العولمة فى مكانها¹⁶.

إنها نوع جديد للسيطرة الغربية على العالم عامة و الأمة المسلمة خاصة لاستغلال ثرواتها وسلب خيراتها، وزعزعة عقيدتها ودينها تحت مظلة الغرب النصراني المتقدم.

إنها تهدف كما تدعى توحيد العالم ضمن أطر عقلية وسياسية واقتصادية واجتماعية، ويودون فرضها على أمتنا أولا والعالم الثالث - ونحن من أفرادها - ثانيا.

إنها ظاهرة تبرز من خلال الأبعاد المتعددة، ونيار حارف يظهر من بين العلاقات القائمة بين الأمم اقتصاديا ومعلوماتيا وثقافيا، لغرض النموذج الغربي الواحد على العالم، ومن ثم لتمكين النول الرأسمالية الكبرى للاستيلاء على الآخرين من خلال المؤسسات الاقتصادية كالشركات المتعدية الجنسيات، والإعلامية مستخدمة الاتصالات الحديثة المتطورة، والمنتجات الفكرية كالإنترنت والفنون الفضائية، إلى جانب المؤسسات السياسية والعسكرية المسخرة لخدمتها من أجل إلغاء خصوصيات أمتنا وشربعتنا رغما عنا، كما يحدث فى العراق اليوم.

العولمة دعوات مخربة هدامة للأمة الإسلامية، فمن دعواتها:

- الدعوة إلى وحدة الأديان بحسب اتجاهاتها وإيديولوجياتها المختلفة كسر حاجز النصر للدين الإسلامي، فيذا حرب ضمنى للإسلام.
- الدعوة إلى تحرير المرأة والنبدل والشجوات.
- الدعوة إلى الربا ليكون صيغة موحدة يتعامل بها جميع الناس.
- الدعوة إلى الاعتراف بالآخر بكل ما عنده من قيم وعقائد وأعراف ولو كانت تدعو إلى الكفر والانحلال..

و هي بذلك تعمل على تهديم ما عندنا من قيم دينية، وضرب الإسلام فى فكره وتاريخه وحضارته، وتهديم النظم الاقتصادية الإسلامية لأن ما عندها يقوم على الربح والتسلط والمنافع الشخصية للرأسمالية، والمصلحة الذاتية.

وفي الوقت نفسه أقيموا نظم الحياة في الإسلام بالرجعية والعجز عن مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي.

تهديم القيم الأخلاقية التي تتجلى في الظلم وانتهاك الأعراض والغصب والوحشية حيث تعم الفوضى وينعدم الأمن والأمان وتفقد الطمأنينة، ويموت السلام.

تهديم عرين المسلمين في التعليم والحياة الاجتماعية، ليتحكموا في مقدرات الأمة، ولهم في ذلك أساليبهم الشيطانية التي أتى بها من سبقهم، ولكنهم أفحشوا وأفسدوا أكثر ممن سبقهم.

والغاية من ذلك أن ينسلخ المسلم عن دينه، ويتجرد من قيمه الروحية والاجتماعية، فيغدوا كالطبل الأجوف ويندفع بغير وعي، ويسير على غير هدى، مقلدا أهل العولمة من صهاينة أذال وأمريكيين طعاة، وأوروبيين انتهازيين.

أجل إنها معركة مستديمة لم تنقطع. ولن تنقطع ما دام (الغرب غرب، والشرق شرق)، ولا يمكن لهما أن يصبحا شيئا واحدا، ولكن سيكون بإمكان كل واحد منهما أن يستفيد من الآخر إذا ما راعى كل منهما حقوق الطرف الآخر، وخصوصيته الحضارية، وأخذها بعين الاعتبار في حالات التعاون وفي حالات التنافس والعداء، وسنظل نأمل بحصول شيء من ذلك، مهما كانت المعطيات السائدة باعثة على التناؤم¹⁷.

ونحن إزاء هذه المعارك المستمرة نخاذلنا وأصبحنا أذلاء وصرنا أشبه بمن استشهد بعبارة من الكتاب المقدس المحرف المتضمن هذا القول: "إذا ضريك أخوك على خذك الأيمن فحول له الأيسر، وإن أخذ رداءك فأعطه ثوبك هذا إن صدق لقول مع الأخ، فكيف يكون الحال مع العدو الغاشم؟!".

إننا عقيبات كآداء تقف في طريقنا تعوق المسيرة، ولكنها لا تمنع المسير، ولذا ونحن في عصر التكتلات والتجمعات الكبرى في العالم، فإننا سنضلع بعض الأسس التي نحتاج إليها من أجل تحقيق الذات لأمتنا ومنها:

1- تحقيق الذات الإنسانية المؤمنة المحملة بالثقافة الإسلامية وهذا يحتاج إلى تربية إسلامية صحيحة تؤخذ من المنهج الرباني ثم تزويد الإنسان المؤمن بالأدوات التفاعلية التي تجعله محققا للمسؤوليات المترتبة عليه.

- 2- التفكير العميق القائم على العلم بنوعيه الشرعي والعام، والتخصص الدقيق فيه لتصل إلى الإعتاد المادي والمعنوي الذي نرهب به عدو الله وعدونا، ثم التخطيط المتواصل لما تجود به عقريتنا وأبنائنا وبناتنا لاستخدامها فى معركة الفكر والبناء.
- 3- التأكيد على الهوية الحضارية للأمة المسلمة حتى تريح المستقبل، وهذا يتطلب منا التمسك بالقيم الاجتماعية والثوابت الوطنية.
- 4- العمل على تحقيق الوحدة الإسلامية التي لا مناص منها من أجل وحدة الكلمة، والدفاع المشترك، والاستفادة من الخيرات المتنوعة لكل أبناء الأمة، وعندئذ نستطيع الاعتماد على النفس فى كل شيء.
- 5- تعريف الناس بحقيقة الإسلام، وبعدهم عن أساليب الغزو الفكري ومفاسد العولمة حتى نتمكن بواسطة حملة الفكر والدعوة والإعلام العربي الإسلامي من موازنة التطور.
- 6- الشروع فى تنظيم إيديولوجية حقيقية المبتعدة من العلم بقوانين الطبيعة والكون وفهم آيات عملها، واعتماد النظرة الإسلامية للكون والإنسان والحياة.
- 7- التخلص من التبعية والاتجاه بالقدرة والإرادة نحو تحمل المسؤولية ومن القوضى والارتجالية إلى التخطيط العام والنظام الواعي الدقيق، كأننا نتطلق من البداية وعندئذ ينبغى الاهتمام والوعي بسنن الله الكونية، واستيعاب روح العصر الذي تبدأ الأمة منه المسيرة، وتحديد الموقف الملائم من قضايا العصر.
- 8- الوعي بالتكوين النفسى والتاريخى والفكرى للأمة أو ما يسمى بمكان الأمة والمركز الحضارى الذي يضعها تاريخياً وثراثياً فيه، والوعي بتلك العقيدة الدافعة التي يمكن أن تربط بين العناصر المحققة لذلك من عطاء مادي وثقافي، والالتزام بالمبادئ والأهداف ثم الولاء والنصرة للإسلام وأهله.
- 9- الالتزام الصادق المخلص بالمبادئ الإنسانية التي نادى بها الإسلام والإصرار على تنفيذها فى الحسط والأنظمة المقترحة والتصوير الحقيقى للواقع وثربية الشعب على متطلبات العصر وفتح آفاق المستقبل وهذا يتطلب:
 - أ- التكيف مع الجديد والأخذ بالجيد وطرح السيء، والتمييز بين ما ينفع وما يضر، وبين ما ينفق مع الإسلام وما يتعارض معه.
 - ب- التضحية بالنفس والمال واستغلال القدرات البشرية بأقصى درجة ممكنة، وحث كل الإمكانيات المتوفرة والتخطيط المنظم لاستغلالها.

ج- النقد الذاتي البناء من أجل التقييم والتكوين لمواجهة التحديات، وإقامة علاقاتنا مع الآخر على ضوء ما نعرفه عن أنفسنا لا عما يعرفه الآخر عنا.

وهذا يتطلب منا التحرر من التبعية للأجانب والتخلص من الولاء لغير المؤمنين.
د- فتح المجال أمام الأجيال بحرية وسلام وطمأنينة لرسم معالم طريق المستقبل الذي يتجلى فيه تحقيق الذات للأمة المسلمة.

10- إنراك ما أمامنا، وما يجب علينا أن نصنع كتحسين أنفسنا بالفتح الشرعي والرجوع إلى الأحكام الشرعية و الالتزام بها للتمكن من مواجهة الأعاصير الآتية من الخارج، لأننا نملك مخزوننا ثقافيا وبيدولوجيا نستطيع به مواجهة التحديات التي تواجهنا اليوم وإذا.

وفي الختام... إننا المواجهة المطلوبة منا، لا تعني أن تكون مرآة تعكس هموم الأنظمة فتقلقنا وتجعلنا خائفين حزينين، بل أن تكون المواجهة بعزيمة وإيمان وصداقة وإخلاص، بعد رسم معالم الطريق نحو القضايا الاستراتيجية، معتززين بديننا وثقافتنا وحضارتنا، عاملين على فتح الحوار مع الآخر بحيث نكون متمسكين بشخصيتنا الإسلامية القوية.

فتحن اليوم أكثر من أي وقت مضى لإعادة بناء الأمة، وإقامة الوحدة الثقافية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، وتطوير إمكانياتنا العلمية والتقنية والمالية والثروات المعدنية والنفطية فهي كثيرة في وطننا.
فإن أخذنا بالأسباب استطعنا الوصول إلى ما نصيوا إليه في حضارتنا ومستقبلنا.

الهوامش:

¹- الكيلاني ماجد: الأمة المسلمة، عتس، 1991م، ص: 18.

²- المراعي: تفسير المراعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج: 14/157.

³- الطبري: تفسير الطبري، ج: 14/190.

⁴- الكيلاني: المرجع السابق، ص: 15.

⁵- القرضاوي يوسف: لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، عه: 2001، ص: 19.

⁶- قبض محمد: وقفا المعاصر، مكتبة رحاب الجزائر، ص: 165.

⁷- انظر: المرجع نفسه ص: 173.

- 8- مقدمة ابن خلدون: طبعة كتاب الشعب، القاهرة، الفصل 23، ص: 123.
- 9- محمد علي عبد الحليم: أضواء على مفهوم الغزو الفكري، جامعة الإمام محمد الرياض، 1981، ص: 8
- 10- أنظر: المرجع نفسه، ص: 107.
- 11- المرجع نفسه، ص: 122 وأنظر ص: 133.
- 12- الخالدي مصطفى وآخر: التبشير والاستعمار، طبعة بيروت ص: 192، ولعزيد منة الإطلاح أنظر، مولود قاسم: آنية وأصالة طبعة وزارة التعليم الأصلي الجزائر.
- 13- محمود علي عبد الحليم: المرجع السابق، ص: 160.
- 14- عبد الستار فتح الله: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، القسم الثاني، جامعة الإمام محمد الرياض 1981 ص: 248، 249.
- 15- الخطيب عبد الكريم يونس المرجع السابق، القسم الرابع، ص: 428.
- 16- تم الرجوع إلى عدد من المراجع التي تتعلق بموضوع العولمة منها:
- أ- أولريش بك: ماهي العولمة، ترجمة: أبو العين دونو، منشورات الجبل 1999.
- ب- ودا أحمد كيكسو: العولمة والتنمية الاقتصادية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 2002.
- ج- محمد مقداني: العولمة رقاب كثيرة وسيف واحد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2002.
- 17- بكر عبد الكريم: عصرنا والعيش في زمانه الصعب، دار الفهد دمشق، طبعة 1. عام 2000 ص: 20.

التطورات المعاصرة للتصوف الإسلامي

الدكتور عبد الحكيم فرحات

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

أطلق مصطلح التصوف على اتجاهات سادت في العالم الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري، طمحت إلى تفعيل الصلة الروحية المباشرة بين الإنسان والله جل وعلا¹، وشحذها في إطار الرؤية العقدية الإسلامية²، عبر توظيف كل ملكات الإنسان الحسية والنفسية والعاطفية والعقلية والبدنية للارتقاء به في سلم الوصول الروحي، والقضاء على كل العوارض والعوائق التي تصد عن ذلك³.

وما زال التصوف الإسلامي يتطور الفينة بعد الأخرى، من ذلك العهد إلى القرن العشرين، حيث تجلى في بنيات جديدة لم يعرفها من قبل، واتسعت معالم جغرافيته ليدخل بلدان لم يضأها ذات يوم، وظهرت لخطابه أنماط متباينة، وتعددت أشكاله المقدمة، وهذا ما يمكننا تناوله في المباحث التالية:

أولاً: بنية التصوف المعاصر

يزخر العالم الإسلامي المعاصر بتيارات صوفية مختلفة، وطرق متباينة، ورثها عن القرون الماضية، استلهمها بناهاها التقليدية المتعددة، والتي يمكن إرجاعها إلى شكل أساس، وهو الطريقة، ممثلة في شيخ ومريدين؛ شيخ يؤسس التعليم الروحي ويسديه إلى متلقيه. ومريدين يصبون إلى المعرفة الروحية. وقد تتطور لتصير البنية شيخاً، ومقهما، ومريدين، حيث الشيخ يرأس مجموعة من العارفين بطريقته، الراغبين في نشرها بين الناس؛ أي المريدين، وهم الذين يسمون بالمقدمين، لتصير بنيتها ثلاثية؛ شيخاً ومقهما، ومريدين؛ كما هو شأن الطريقة التابعة بالجزائر⁴، والطريقة البونيشية بالمغرب⁵.

ولزادت بنية بعض الطرق الصوفية تعقيداً، لما تنوعت وظائفها وتعددت، فصارت مؤسسة متعددة الوظائف، تضم شيخاً، ومؤسسة إدارية، ومقدمين، ومريدين، وتباينت وظائف حتى صارت عسيرة الحصر. وهذا ما نلاحظه في طريقة التصوف العالمي، التي تجمع بين الوظائف الكثيرة، والأقسام العديدة⁶.

ويمكن أن نصنف الطرق الصوفية المعاصرة تبعاً لملاحظتي؛ فإذا رما النساء وجدنا ثلاثة: طرقاً صوفية تاريخية، وطرقاً صوفية مشتقة، وطرقاً صوفية

حديثه؛ أما الطرق الصوفية التاريخية، فهي استمرار وجودي للطرق الصوفية التي ظهرت في التاريخ الإسلامي عن غير تغيير تقريبا، ناهيك عن التعديل والتطوير، ولذلك صرح نعتها بالطرق صوفية تاريخية، كشأن الطريقة الشاذلية والقادرية والتيجانية بالجزائر⁷، والنقشبندية بالهند⁸، والرافعية بسوريا⁹.

وبالمقابل فقد ظهرت طرق جديدة، تمت بصلة اشتقاق الي تلك الأنفة الذكر، تتصل بأسانيد واحدة منها، أو أكثر؛ لتصير متجذرة في الإرث الصوفي، تسهل من هنا وهناك، لتنتقي من سننها وأدبها، ولذلك صرح وسمها طريقة صوفية مشتقة، كالطريقة التابعة بالجزائر، والطريقة البوديشية بالمغرب مثلا، اللتان تتهلان من الشاذلية والقادرية معا¹⁰.

وكما تعددت مآخذ الطرق الصوفية المعاصرة فقد تنوعت أنماطها تبعاً لحيويتها، لتصير طرقاً صوفية حية، وطرقاً صوفية اتباعية، و طرقاً صوفية مندثرة؛ أما الطريقة الحية، فتبض بالحياة بأدائها وظائفها الروحية، فتتحمل مسؤولياتها التربوية، وتهض بأعباء التربية الروحية، وإدارة شؤون المريدين، فتسدي لهم النصيح، وتحدد لهم الأوراد، وتتابعهم في أحاسيسهم الروحية، وتحلل لظائفهم، وتكشف عن مكنوناتهم، وهذا ما لا يتحقق إلا بوجود القادر على هذه المهام البصير بتعلقاتها، ويزهين كماله به، و يكشف عن وجه نعت هذا النوع من الطرق بالصوفية بالحية. وأحب أنه يمكن أن تصنف تحت هذا النوع من الطرق الجزائرية، الطريقة الهيرية بتلمسان قبل وفاة شيخها المؤسس بلقائد، والطريقة التابعة بعنابة، وادي الذهب، التي تقوم بكل الوظائف الروحية، وتهتم بمسؤولياتها الصوفية، ولذلك فهي في انتشار يوماً بعد يوم¹¹. و أكبر من هذين طرا الطريقة النقشبندية، إذ تقوم بنشر التصوف، وترجمة كتبه، وعقد المؤتمرات، وتكوين الشيوخ، و تبليغه في الأفاق الواقعي منها والافتراضي، والولوج به إلى بلدان غربية متعددة، لتدخل به إلى آفاق العولمة¹².

وخلافا لهذا، فإن الطرق الصوفية الاتباعية تعيش حالة من الضعف والانطواء، وتقوم على أنقاض تراث صوفي موروث، تقتدي به ولا تغير منه حرفاً، تكفي بإقامة الأذكار، وعقد الجمع، لتصير بذلك تقليداً أكثر مما هي وعي روحي، وممارسة وجدانية. وعادة ما تعزري الطرق الصوفية هذه الحالة إثر خلوها من قائد بعد وفاة الشيخ المؤسس، ففي بمطالباتنا الروحية والتعليمية، ويجدد خطابها، ويدعم أصولها؛ كشأن الكثير من الطرق الصوفية الجزائرية، ومن ذلك الطريقة التيجانية¹³، والطريقة الرحمانية¹⁴.

وأما الطرق الصوفية المنتشرة، فقد انطمست معالم وجودها، ولم يبق لها كيان يرى، ولم تغدو سوى تاريخ يذكر، وأخبار تنبأ، كحال الطريقة السنوسية مثلا، إذ لا تعثر لها الآن على تابع واحد لها¹⁵.

ومن جهة أخرى يمكن توظيف الفضاء الجغرافي كمحك للتمييز بين الطرق الصوفية، لنفسي الطرق المحلية، والطرق الوطنية، وليست الثانية سوى انتشارا للأولى، كالطريقة النقشبندية التي انتشرت في كل بلدان الشرق تقريبا، وتنتشر الآن في بلدان الغرب، وهذا ما يوطئ للحديث عن الطرق العالمية، والتي تعد سمة خاصة للقرن العشرين¹⁶.

وما جاءتنا به نهاية القرن العشرين من تكنولوجيا معلومات وتواصل مكن لتكون بنية جديدة للتصوف، بدخوله العالم الافتراضي، بعد أن كان متحفظا بالعالم الواقعي، لتظير الطرق الصوفية الافتراضية، وتتأسس زوايا على شبكة الأنترنيت، ولعل نظرة خاطفة في محركات بحث الواب تثبت هذه اللفتة، وتكشف عن عمق التفاعل بين التصوف وثورة المعلومات، ليصل من خلالها إلى قلب كل متصل بالشبكة في شتى بقاع الدنيا¹⁷.

وقد ظهرت بنايات جديدة للتصوف المعاصر، تطمح إلى لم شمل مختلف الطرق الصوفية تحت تنظيم واحد في الدولة الواحدة، أو التفكير في إيجاد تنظيم عالمي، كما هو شأن الاتحاد الوطني الجزائري للطرق الصوفية، والاتحاد العام المصري للطرق الصوفية، اللذين يجمعان جل الطرق الوطنية. وإذا كانت الاتحادات الوطنية قد نجحت نوعا ما في لم شمل الطرق الصوفية، فإن تحقيق اتحاد عالمي للطرق الصوفية لم ينجح إلى حد الآن، وإن وجدت بعض التنظيمات التي تحمل هذا الاسم، إلا أنها في الحقيقة لا تعبر إلا عن نفسها، مما يجعلنا ننظر إلى لاقتها بشيء من التحفظ¹⁸.

ثانيا: جغرافيا التصوف المعاصر

انتشر التصوف الإسلامي من قديم في جل البلدان الإسلامية، وبدأ ينتشر بمؤسساته المختلفة في بلدان غربية لم يعرفها من قبل، كدول أوروبا وأمريكا¹⁹، لفتح بذلك صفحة جديدة في تاريخ التصوف الإسلامي وجغرافيته، تبدأ بسنة 1910²⁰، حيث اتجه السيد حضرة عنايات خان الشيشتي إلى الغرب، أوروبا ثم أمريكا، بإيعاز من شيخه المتمرس بالطريقة الشيشتية الهندية، لينشر فيها المعرفة الروحية والآداب الصوفية²¹. ولما تبينت له الصورة السيئة التي يحملها الغربيون حول الإسلام، سلك السيد عنايات خان مسلكا استراتيجيا بتعبير كيني²²، يسعى

لتقديم تصوف جديد، تختفي فيه الأصالة الإسلامية لتحل بدلها القيم العالمية، فيصير أشبه شيء بالفلسفة الأبدية 'perennial philosophy' التي بسطها ألنوس أكمل' Aldous Huxley²³. ولم يكن هذا عسيرا عليه، وهو الذي نشأ في الطريقة الشيشينية، التي تبلورت في الهند، بلد الديانات و الفلسفات الروحية، مما أتاح له فرصة المقارنة الدينية²⁴، والتعرف على الممارسات الروحية لمختلف الملل والنحل الدينية، ليصل إلى نظرية صوفية شاملة، زينتها أنه لم يوجد في الواقع والتاريخ إلا دين واحد، له أشكال متعددة، منها المسيحية واليهودية واليهودية والإسلامية، وغيرها كثير، ولئن أزحتنا لم تلبث في الأخير إلا ديناً واحداً، هو دين الصوفي²⁵، وفي هذا ما يكفي لعده تصوفاً جديداً غير إسلامي، بله ديناً جديداً، يحتاج إلى تتبع خاص، نقوم في عنصر موال.

وقد بقي الغرب ربحاً من الزمن لا يعرف التصوف إلا بحضرة عنایت خان إلى بداية السبعينيات تقريباً، ليختلف الأمر ثلثها كثير²⁶، بعد تعرفه على متصوفة العالم التصوف الإسلامي الذين قدموا من مختلف بقاعه؛ تركيا، وشمال إفريقيا، والشرق الأوسط، وحتى سريلانكا، الذين اختلفت صفاتهم بين زائر وطالب، ومهاجر، فحملوا معهم طرقهم الصوفية التي تلقوها في أوطانهم، وجهدوا في تقديمها بأصالتها الإسلامية²⁶.

ومهما يكن فقد وجد أذنا صاغية، ولتباعاً كثراً، وتواتر الانتشار، تحمّل رايتهما أنماط مختلفة من المريدين، منهم المسلم المقيم، ومنهم الغربي المأذون، ومنهم الدعي الذي ليس له إلا الدعوى، فانتشرت الطرق الصوفية في كل البلدان الغربية تقريباً، وتوزعت الزوايا في مختلف بقاع الغرب بما يزيد على المئات سيما منها النقشبندية، وتكونت الخلوات، وصارت مواقعها التعريفية على شبكة الانترنت تزداد يوماً بعد يوماً²⁷، وألفت فيه الكتب بلغات البلدان المختلفة، تعرض التصوف بلغات مختلفة، وتوظف أنوار إقناعية تترك ما يصول في فكر الغربي واهد تلماته²⁸، وبذلك تكون نمط من التصوف، يمكن تسميته بالتصوف الغربي²⁹.

ثالثاً: خطاب التصوف المعاصر

استلم الفكر الإسلامي المعاصر التصوف بأساقه التقليدية، المكونة من بني متعددة، وأنظمة متنوعة، وأساليب متداولة³⁰، تحوي أنواعاً من الطرق الصوفية، منها القادرية، والشاذلية، والنقشبندية، وغيرها، كما ورث معها سلاماً تحفل بها الإجازات وأبائات الشيوخ، تؤكد اتصالها بالجذاب المحمدي³¹، وتؤكد اقتباسها من

المعین الأحمدي، وتسلفها بأفضل الخلق طراً³¹. كما استلّم معها الخطاب الصوفي القاعدي، الذي تشكل في القرون الثلاثة الهجرية الأولى، الذي تنوّي فيه المنطلقات والمفاهيم الصوفية الأساسية، أهمها الطريقة والشيخ والورد والمقام والحال، وصفوتها الدعوة إلى ضرورة التقيد بشيخ والتسليم له، لتزكية النفس وتطهيرها، والارتقاء في مقامات القرب، والالتحاق بزكب الوصال، تعبير عن ذلك بممارسات شعائرية وارتباطات تربوية، وتعتمد على المحافظة على النوافل، والمواظبة على الأوراد التي يحددها الشيخ سلفاً لمريديه، وحضور المجامع الروحية، والانشغال بالمراقبة القلبية، والتسليم للشيخ فيما يقترحه، وغيرها، ولكل طريقة في ذلك شأن. ورغم أهمية تاريخ المفاهيم والمنطلقات الصوفية إلا أننا ما زلنا نفتقر إلى دراسات تهتم بتتبع تاريخ مفاهيم التصوف، وإعادة تفكيكها مرة أخرى، للتعرف على الجديد فيها، والنخيل عليها، والكشف عن دلالاتها الاجتماعية والنفسية والرمزية، وبذلك نتمكن من تاريخ مفاهيم التصوف الإسلامي، ونصير أقدر على من فهم العقليات الصوفية.

ويختلف خطاب التصوف المعاصر عن مثله في التصوف التعيدي؛ إذ لا ترى إصراراً على الزهد كما هو الشأن عند السلف الصالح، وما نظره الإمام الغزالي، كما يختلف عن التصوف الفلسفي؛ إذ لا نرى عرضاً لوحدة الوجود، ولا اهتماماً بالفلسفة الصوفية. بيد أن التصوف المعاصر يقترب من تصوف القرون المتأخرة (السادس إلى الثالث عشر هجري)؛ أي مرحلة الطرق الصوفية، حيث تبلورت معالم الطرق الصوفية، وصارت الغلبة للممارسة أكثر مما هي للتتظير³². كما تبلورت في هذه المرحلة أدوات تواصل الخطاب الصوفي، منها كالمنظومات الصوفية، والحكم الصوفية، والمدائح الصوفية، وفنون السماع الصوفي³³، كما تبلورت في عهده لاحق السمات الأساسية للصوفي في المخيال الجماعي، أساسها معرفة الأسرار الإلهية والكونية، والاتصال بالحكومة الباطنة، وامتلاك الكرامة، وظهور البركة، والقسرة الخارقة، والفنون الروحية، ليصير بذلك رمزا اجتماعيا، وخبيا لا شعبيا وواقعا جمعويا. ولا شك أن كل هذا لم يكن بمنأى عن النقد الفقهي الذي اهتم بتحقيق مسائل التصوف وسير مقولاته. ومهما يكن، فإن التصوف قد استطاع أن يكتسح المجال الاجتماعي في الدولة الإسلامية في القرون الأخيرة السابقة للنهضة الإسلامية، ورمزا من رموزه الخاصة، حتى إنه صار لا يميز بينه وبين الإسلام.

و بدأ التصوف يتراجع في العالم الإسلامي الحديث بعد ظهور النهضة العربية وتكون الحركات الوطنية في جل البلدان الإسلامية، حيث وجهت اتهامات رجعية إلى الخطاب الصوفي في الحركة الصوفية، و ووصمتها بالبدعة الدينية، والدروشة السلوكية، والخرافة العملية، والعمالة الاستعمارية³⁴. ثم ازداد تراجعها بعد تكون الحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة التي حملت في طياتها خطابا نقديا للتصوف، تؤكد ما سبق تقريره من نقد، وتشكك في أصالته وسلفيته، فوجدت لها من المجتمع الأذان الصاغية، وبذلك صارت تنافسه في تعبئة أتباعه، وندافعه في حشد مرديه، وليس بعيدا عن هذين: أي التيارات الوطنية والحركات الإسلامية موقف التيارات الحداثية التي تمثلت نظرة نقدية لكل الطريق الصوفي، متهمه إياه بالأسطورة والخرافة³⁵.

وقد عجز التصوف في القرن الأخير بمواقف متباينة، وخطابات متعارضة، وما زال يعجز كذلك، بين مستلم لمقولاته، قابل لكل مفاهيمه وتفصيله، ساع لتبرير كل ما فيه، و بين رافض له جملة وتفصيلا، ملق به في دهاليز الابداع، ومهابط الانحلال³⁶، و بين جاعل منه معينا لأبحاث جديدة، و تنظيرات دقيقة لميادين أخرى، كما سنرى في العناصر الموالية؛ و بين ناظر إليه بعين النقد، ومحك السقويم، يسبر أحكامه بمعيار الشرح، متبعا ما فيه من حق، ومتجنباً ما فيه من زلل، كما فعل الشيخ الغزالي رحمه الله في كتابه الجانب العاطفي من الإسلام³⁷، والشيخ القرضاوي بموسوعته السلوكية، والدكتور محمد البوطي بكتابه شرح الحكم العطائية³⁸، والشيخ سعيد حوى بكتابه تربيتنا الروحية³⁹.

وقد جعل هذا التباين النقدي التصوف المعاصر متذبذبا بين الإسلامية والتعددية، كما تذبذب المقصد الصوفي بين الكثف والتسلف، وتذبذب الممارسة بين النظرة العقيبية والاختيارات الصوفية، وتذبذب الرؤية الصوفية بين الزهد والانشغالات النيطصوية، وتذبذب التصورات الصوفية بين الدروشة والرؤية الإسلامية، و تذبذب صورة الواصل بين المثالية والواقعية، وهي كلها سمات لا يخلو منها الخطاب الصوفي التقليدي. سواء الحديث منه، أو المعاصر⁴⁰، وهذا ما يكشف عن أثر الحركة النقدية الموجهة للتصورات الصوفية وأبعادها الاجتماعية والمعرفية.

وعلاوة على هذا، فإن هذه المواقف قد فرضت على التصوف التقليدي الحديث والمعاصر إعادة النظر في خطابه، والتدقيق في مقرراته، والسبر لأدلته، مما صير كل مسلمائه القديمة في حاجة لإعادة استكشاف جديد، بما يتوافق و

ونظرات الفقه، ويلي احتياجات العصر، فتصاغ مقولاته صياغة جديدة، وتحث مفاهيمه بحيث تراعي اللغات النقدية التي وحيث إليه، وتقرأ الاتهامات التي صويت إلى جنباته، كما ظهرت في كتاب الشيخ سعيد حوى المشار إليه نقلاً، ومهما يكن فإن هذه الطموحات هي التغيرات التصوف الحديث والمعاصر، ولا تزيد عن كونها محاولات لم تضر محل لفاق.

وهذا التباين النقدي كون لدى المجتمع الإسلامي المعاصر صورة اجتماعية، تتسم بالقلق والاضطراب، إذا ما قورن بمفاهيم إسلامية أخرى، يرجع هذا إلى الاضطراب المنطقي، والفوضى الفكرية، والتناقضات المذهبية، والاختلال المنهجي، الذي يعاني منه المسلم المعاصر، والناتج عن الثقافات المتغيرة التي يحيا فيها بين داع للإسلامية ومنتسب بالعلمانية، وزائنه حدة اختلاف التعليم بين تقليدي ومدني، مما كون ركاعاً من المعارف، ينقصها التنظيم والتنسيق، الذي يفترض في المعرفة الفاعلة، فصارت عاتقة أكثر مما هي نافعة، تمنعه من الحراك، وتصيره متذبذباً في الحكم، غير قادر على النماء الفكري.

كما ساهم في ضيائية صورة التصوف في المجتمع الإسلامي الحديث والمعاصر عدم اهتمام الجامعات والكليات الإسلامية بتدريسه إلا إشارة، فلا تكاد نجد في مقرراتها إلا مقياساً واحداً، حشيت فيه كل المباحث الصوفية، من تعريفات ومواقف علماء ومفامات وأحوال وطرق وبدع وفلسفة⁴³، مع كبير اهتمام بهذه، وبالتاريخ، وبذلك لم تقدم كثيراً لهذا المجال الواسع والدقيق من الثقافة الإسلامية، كما لم تقدم بديلاً عنه في الاهتمام المعرفي والتزكية الروحية، والمعالجة القلبية والوظائف الروحية، كأنهم بذلك قد تركوا هذا المجال الإسلامي لأقسام الفلسفة، بحلوت خطاباته وفق رؤية فلسفية محضة⁴².

وقد حاول التصوف التقليدي أن يجد من وسائل خطابه، ليضيف إلى التقليدي منها - والتي هي الحلقات والدروس، والكتب والمنشورات - وسائل جديدة، منها التلفزيون⁴³، والتسجيلات الصوتية⁴⁴، ومواقع الانترنت⁴⁵، لتضطلع بنشر أصوله، والدفاع عن أهدافه وغاياته. وهذا ما مكن من ظهور أنماط من التصوف، أهمها التصوف الافتراضي، الذي يتابع فيه الشيخ مریده عبر شبكات الانترنت⁴⁶، فيعطيه ما يلزمه من أوراق، ويتلقى ما يشاء من سماع، ويحاور ما يريد من إخوان على شبكة الانترنت⁴⁷.

رابعاً: أشكال التصوف المعاصر

إن المنتبج للواقع الإسلامي المعاصر، شرقيه وغربيه⁴⁸، يجد أشكالاً جديدة له، إضافة إلى النمط التقليدي، أهمها ما يلي: التصوف الافتراضي، والتصوف النفسي، والتصوف الصحي، والتصوف العالمي، وقد أتينا فيما آنف ذكره على تحليل الشكل التقليدي، وتعرفنا على التصوف الافتراضي، لننتقل بذلك إلى ما تبقى.

1. التصوف النفسي

ظهرت محاولات معاصرة تطمح إلى جعل التصوف علم نفس، وصحة نفسية، يصلح للوقاية كما يصلح للعلاج، ولا يمكن تفسير هذا الوجه ما لم نحط خبيراً بالتوجه العالمي إلى العلاج الروحاني خاصة، والثقافي عامة، بدلاً عن السيارات التي جعلت ركزتها العقاقير الطبية، والتحليل النفسي، مفتحة بأن ثقافة الإنسان ومواقفه العقيدية دوراً كبيراً في صحته النفسية، ولها فعل في مرضه النفسي، بما توحيه من تشاؤم وتفاؤل ورضى، وما تسديه من شؤم وطيرة وكفر نعمته، وهي كلها مواقف تضرب بأصول في العقيدة؛ مما أكد لكثير من علماء النفس أن للمرض النفسي جذوراً ثقافية، ونماذج فكرية⁴⁹. وكان أن ظهرت الاتجاهات النفسية المتأثرة بالسيارات الروحية المختلفة، كالبنوية والطاوية وغيرها⁵⁰، مما جعل بعض الباحثين المسلمين ينتجبون إلى تراثهم، ينظرون ما فيه من نظريات، ينهلون منها لتأسيس نظرية في هذا المجال، تلبي الاحتياجات النظرية في علم النفس، سواء علم المستوى العلاجي، أو على المستوى الوقائي⁵¹.

ولا يخفى ما للتصوف من وطيد الصلة بالدراسات النفسانية، بما أثاره من أبحاث حول النفس والقلب والسلوك، وما أيداه من ملاحظات حول الانفعالات والمشاعر الإنسانية، تكشف عن بنية السلوك الإنساني والعوامل الفاعلة فيه، وتبين مظاهره المختلفة، بشهادة علماء النفس المعاصرين⁵². ولما كان التصوف الإسلامي يسعى لتكوين النفس الكاملة، بينما يزيد علم النفس الإنسان السوي، ولما كانا كذلك، أمكن القول إن موضوع التصوف التقليدي يلتقي مع علم النفس في مباحثه، ويضيف إليها مباحث أخرى، كالارتقاء بالنفس إلى الكمال، تلك الموضوعات التي لا يهتم بها علم النفس الحديث؛ بحجة أن هذه معيارية، تأباها الموضوعية.

وقد تشكلت لهذا الغرض مؤسسات عالمية حرة، منها الجمعية العالمية للتصوف 'International Association of soufism'⁵³، والتي تعقد ملتقيات دولية وحلقات دراسية دورية؛ للنظر في التراث الصوفي الإسلامي، والكشف عن

نظرياته النفسية، والتحقيق في مصطلحاته، ونشرها في مجلات عالمية، و تلخيص نتائجها في مؤلفات تقنية، تطمح إلى التحسين بالبعد الروحي للأمراض النفسية، والكشف عن النور العلاجي النفسي للتصوف الإسلامي، وإعادة صياغة التصوف صياغة جديدة، ليصير علاجاً روحياً بنا، يمكن إسدائه للغير، كما يبسر تكوين خبراء علاج فيه، يستطيعون تقديم العلاج النفسي باستخدام نظريات المتصوفة، تبعاً لبرامج دراسية مقترحة. وقد تخرج اعتماداً على ذلك جيل من الممارسين في أمريكا وأستراليا، منهم المسلم، ومنهم غير ذلك. ونأسف كثيراً أن هذه الجهود تتم في العالم الغربي، خصوصاً أمريكا، بعيداً عن العالم الإسلامي، ويزداد أسفاً إذا علمنا كل نتائج هذه الحركة العلمية، ثم تدوينه بلغات غير العربية، خاصة منها اللغة الإنجليزية، بعد أن كانت قروناً، ليُدخل بذلك التصوف عهداً جديداً.

2. التصوف الصحي

يمكننا إطلاق هذا الاصطلاح على محاولات توظيف التصوف المعاصر لمفهوم الصحة، ليتكون بذلك التصوف الصحي 'Sufi Healing'⁵⁴، طامحاً في تقديم مشروع نظرية صحية، تستند إلى التراث الصوفي الإسلامي، كما هو الشأن في الطريقة الرفاعية القادرية الأمريكية التي نشر شيخها إبراهيم الأنصاري في الشهور الأخيرة برنامجاً صحياً لتفعيل صحة مربيهه، ينسبه إلى متصوفة البلاد العثمانية في القرنين الأخيرين. وقريب من هذه طريقة السيد مير محمود هاديان 'Mir Mahmoud Hadian'، الذي يصل نسبه الشريف لرسول الله ﷺ، كما يخبر أنه إضافة إلى تكوينه العلمي العام، فقد تلقى تربيته الصوفية، وتكوينه العرفاني في الشرق على يدي الشيخ العارف أحمد طالب، الذي يتصل سنده الروحي بالعارف شمس التبريزي، صديق جلال الرومي الرومي رضي الله عنهما⁵⁵، فتعرف مير على مختلف الطرق الصوفية والأساليب الروحية قصد الاطلاع لا قصد التلمذ الحقيقي، فدرس القادرية والشاذلية، والنقشبندية، والجراحية، كما تمكن من تعاليم عنايات خان، كما درس غيرها⁵⁶، ويأمر من شيخه انتقل إلى الغرب، وبالتحديد إلى بريطانيا؛ لنشر منهجه الذوقي و رؤيته الصوفية، وأسلوبه الصحي الروحي، و الاستمرار في تعليم الراغبين من الشرق والغرب⁵⁷، لا يريد منهم شكوراً، و لا ينتظر منهم ربحاً⁵⁸.

وتتميز طريقة التصوف الصحي بتقديم نظرة كلية لتحقيق الذات، تشمل كل الأساليب الصوفية المعروفة لدى الطرق الصوفية المختلفة، من تفكير، وربط، وذكر، وسماع، ووجد، وتفكير، وغيرها، إلا أنها تختلف عما هو معروف لدى

صوفية العالم الإسلامي في ضرورة كون المرشد مسلماً؛ لأن التصوف إحسان، وتكميل لمقامات الإسلام، بينما يقبل مير هديان المرشدين مرشديه من كل الأديان، شرط الإيمان بالله تعالى، ولذلك لا يبايعه إلا بعد الاستفسار عن عقائده بغية التأسيس عليها⁵⁹، وهذا ما ترى فيه نزعة عولمة، وتأثراً بالطريقة الصوفية العالمية، التي أخبرني أنه نهل منها⁶⁰. وأهم ما يمتاز به المشروع الهندي في التصوف هو صياغته للعديد من طرق التأمل، التي يسرها أسلوبه؛ أسلوب صوفي رايكي 'Sufi Reiki'، و أسلوبه الثاني صوفي شي يوغا 'Sufi-Chi Yoga'، وقد بسط أصول الأول في موقعه على الويب، بينما أعطى أصول الثاني على شبكة الأنترنت، وترك التفصيل لوقت لاحق⁶¹. وميماً يكن، فإنه يعلمهما مجاناً لكل من شاء من غير استثناء⁶².

و أسلوب صوفي رايكي 'Sufi Reiki' الذي بسط أصوله المرشد مير هو أسلوب تأمل متميز، يعكس ثقافات الشرق الكبير، ويرجع اشتقاقه اللغوي لكلمتين، وهما 'صوفي' و'رايكي' ولا شك أن الأولى لا تحتاج تحليلاً، على عكس الثانية⁶³، ولذلك فقد بين هديان أنها كلمة يابانية، تفيد كل عمل استغاثي، يعتمد على قوة الطاقة الكامنة التي بثها الله تعالى في الحياة الكونية⁶⁴، وعضامي عدة إطلاقات رائجة لدى ثقافات مختلفة، مثل نسي 'Chi' في الثقافة الصينية، و الكي 'Ki' في الثقافة اليابانية، والبرانا 'Prana' في الثقافة السنسكريتية، والذي عادة ما يستخدم الهنود لنقل الطاقة، كما قد يستخدم القدمين، و أي جزء من البدن، كما قد يتم عن بعد، وذلك لأعراض استغاثية مختلفة، بدنية ونفسية⁶⁵.

وإذا قارنا بين ما طرحه السيد مير في الرايكي صوفي وما هو موجود من رايكي لدى تصوف الثقافات الأخرى وفلسفاتها الوجودية، لتبين لدينا أنه قد أخذ الكثير من مصطلحاتها ونظرياتها وتفسيراتها، خاصة ما تعلق منها بالطاقة الكونية الكامنة، ومجالها في بدن الإنسان، إلا أنه يتميز عنها بخصوصيته الصوفية، التي تظهر في التأكيد على ضرورة الطهارة البدنية، والمراقبة الروحية، والتأمل الواعي، والنقد الذاتي للنفس، والتذكر المستمر، والرقية الداعية، والطائف الصوفية، وهذا ما عناه بالنظام اللطيف⁶⁶.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لأول مرة في تاريخ التصوف تم التلاقي بين الفلسفة الصحية الهندية والتصوف الإسلامي في مدرسة مير هديان، بما اقتبس من أوضاع يوغية وطرق تنفسية واسترخائية، مضيفاً إليها ما عنده من لمسات صوفية، لتتكون بذلك يوغا صوفية، وهو الأمر الذي يحتاج تحليلاً عميقاً للتعرف

على أبعاده النفسية ونتائجه الروحية. وأكثر ما يشد في هذا التصوف، تمسكه بحظ الصحة، مع أن الإجماع الصوفي قائم على ترك الحظوظ، ونبذ الالتفات إلى تعلقاتها، وإلا عدم الإخلاص.

3. التصوف العالمي

ويعد بحق من أحدث إفرزات التصوف الإسلامي، وإن كنت مترددا في تسميته بالإسلامية لمحاولته التخلل منها، واستبدالها بالعالمية كما سنرى، لولا أنه ما زال مصرا على تعلقه الإنساني وتلقيه الروحي من معين التصوف الإسلامي، من خلال محاولته ربط صلته بسلسلة صوفية، والتي تبدأ بشيوخ الطريقة الشيخية، لينتهي بعلي ابن أبي طالب عن أبي بكر الصديق، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم⁶⁷. وحقيقة هذا التيار الدعوة إلى تيار تصوف لا يمت بصلة إلى دين معين ولا إلى تقليد محدد، بما في ذلك الإسلام، لينحصر بذلك من كل التقاليد الصوفية السائدة، مؤكداً أن 'الصوفي يرى الحقيقة في كل دين'⁶⁸، وهذا ما يفسر سبب إصرار أصحابه على عالميته.

ويمثل هذه النزعة في وقتنا الحاضر اتجاه صوفي، يعرف باتحادية الخطاب الصوفي 'The Federation of the Sufi Message'. تأسس سنة 1997، ليشكل وحدة لكل الحركات الصوفية التي تكن احتراما لفكر حضرة عنايات خان 'Hazrat Inayat Khan'، وتستقطب جهودها، وتتضوي تحنها إلى حد الآن حركتان. وهما: الحركة الصوفية العالمية 'The International Sufi Movement' التي أسسها حضرة عنايات خان 'Hazrat Inayat Khan'، الموسيقار الصوفي الهندي (1926-1982)⁶⁹، و حركة الروحانية الصوفية العالمية 'the Sufi Ruhaniat International'، التي أسسها حضرة بير موادين جابلونسكي 'Pir Moineddin Jablonski'⁷⁰، وكلاهما تطمحان إلى تحقيق أهداف مختلفة: أولها نشر معرفة الوحدة، وديانة الحب والحكمة، التي يمتلك بها قلب الإنسان، مما يوجب دفع مفسد ذلك؛ وثانيها، الكشف عن النور والقوى الكامنة في الناس؛ إذ هما سر كل دين، وقوة كل تصوف، وجوهر كل فلسفة، دون تعلق بتقليد أو عقيدة. وثالثها المساعدة في فك الحواجز القائمة بين قطبي العالم الحاضر، الشمال والجنوب، عبر التفاعل الفكري والتبادل الثقافي، بما يسهم في توطيد الأخوة العالمية. خارج الوطنية الضيقة، والعرقية المنهية⁷¹.

نظرت هذه الحركة إلى التصوف باعتبارها اختيارا إنسانيا، ومسلكا عرفانيا، وتجربة حياتية. وحضورا انفعاليا، من غير الثقافات إلى بعده التنزيلي،

الذي يقضى بأن التصوف أمر إلهي بالتباعد الشرع، والتوقف عند حدوده، واتباع أوامره، والتمسك بأصوله وفروعه من غير تحريف ولا تبديل ولا ابتداع، لتصير بذلك بداية الطريق هي الشروع في التمسك بالأحكام الشرعية، ونهايتها هي كمال التحقق بها اعتقاداً وفعلاً وحالاً. وهذا ما لا يمكن تحقيقه إلا من خلال تنزيل واحد.

وتقوم فلسفة الحركة الصوفية، على معرفة التوحيد التي تتبني عشرة مبادئ أساسية، تعد قبلة التزكية والمجاهدة في هذه المدرسة ومشرعها العقدي، عشرة كاملة، وهي: وتقوم فلسفة الحركة الصوفية، على معرفة التوحيد التي تتبني عشرة مبادئ أساسية، تعد قبلة التزكية والمجاهدة في هذه المدرسة ومشرعها العقدي، عشرة كاملة، وهي: الإله الواحد 'One God'، القطب الواحد 'One Master'، والكتاب المقدس الواحد 'One Holy Book'، والدين الواحد 'One Religion'، والقانون الواحد 'One Law'، والعائلة الواحدة 'One Family'، والأخلاق الواحدة 'One Moral Principle'، والعبادة الواحدة 'One Object of Praise'، والحقيقة الواحدة 'One Truth'، والطريق الواحد 'One Path'⁷².

وبذلك يظهر أن حركة التصوف العالمي قد جعلت من التصوف نظاماً معرفياً موازياً لكل الأديان، لا يتعلق بنين معينين، وإذا كانت الأديان تقرر أنها المدخل المشروع لمعرفة حقيقة النفس والألوهية، فإن حركة التصوف العالمي بمبادئها العشرة تؤكد أن كل الأديان تصلح للقيام بهذا الغرض؛ وهذا ما يمكن عده نظرة توفيقية، تصبو إلى توحيد الأديان، والتقريب بينها، ولأنك أن الحركة الصوفية بسلوها هذا الاتجاه لا تشعر أنها نصير إلى تصوف لا يعترف به دين من الأديان التي تظنح إلى التوفيق والتقريب بين مقرراتها.

إن اعتراف حركة التصوف العالمي بكل الأديان هو اعتقاد في وحدة عقائدها من غير التفات إلى الفروق الكامنة بينها، والإيمان بقطبية (أي نبوة) كل من يقتسم أهل الأديان، قد أوقعها في تناقض لا محيد عنه؛ إذ كيف يمكن التوفيق بين الإلهيات المتناقضة، والمصادر المتكاذبة، والأقطاب المتعارضة، ليس ذلك دليل على وهم هذه الحركة، وتشفوها إلى سراب لا يتحقق أبداً؟.

ويمكن الآن بعد رصد هذه الأشكال الجديدة للتصوف الإسلامي أن التصوف الإسلامي المعاصر تميز بالخصائص الآتي ذكرها:

1. عدم الأشتغال بالكتابة التنظيرية الاجتهادية في مجال التزكية الروحية، والممارسة الصوفية، وضوابطها الفقهية، إذ لا تكاد تعثر على كتاب يتناول التصوف تناو لا جديداً، يحمل ثقافة العصر والبيئة في التواصل، ويتفاعل مع

النقد الذي وجه للتصوف، نفاعلاً يؤسس أصوله، ويبين مقاصده، ويبرز اهتماماته، ومثروعيته الموضوعية، لينتج بذلك نمط من التصوف لا يميز بين المقاصد والوسائل، ولا بين الأصول والفروع، ولا بين الاستدلال والاتباع، وهذا ما يؤكد أن الخطاب الصوفي التقليدي يعيش مرحلة عدم معرفة بفقهاء التصوف، وغياب عن الواقع، وعدم وعي واستيعاب لخصوصيات القرن العشرين، بله الواحد والعشرين.

2. إصرار الخطاب الصوفي التقليدي على اختيارات تبلورت في المرحلة السابقة حتى لو كانت مرجوحة، مع أنها نظر فقهي وممارسة ذوقية تزكوية تمخضت في ظروفها الخاصة، وهو الدليل على عدم التمييز بين المقاصد الصوفية والممارسة الفروعية، ولذلك نجد أن الصوفية المحدثين والمعاصرين يدفعون كل ما يوجه إلى التصوف من نقد، أصوله وفروعه، رغم وجاهة بعضه، ومن ذلك للحجاج القائم حول الذكر بالاسم (هو)، و(رابطة الذكر)، إذ رغم قوة النقد الموجه، إلا أن كثيراً من الطرق من الصوفية ما زالت تدافع عنه، كأنه أساس التصوف ومقصده، ويكفي أن نعلم بطلان ذلك بعدم معرفة كثير من الصوفية الأوائل لهذين، مما يثبت لنا أن التصوف التقليدي لم يستطع استيعاب منهجه، ولم يستطع التمييز بين مقاصده وفروعه، وبين أهدافه ووسائله.

3. إن اهتمام الفكر الغرب المعاصر بالفكر الصوفي الإسلامي أكثر من اهتمام المسلمين أنفسهم، لما وجدوا فيه من نظريات، وأطروحات، منها ما يخدم توجهاتهم الحضارية، كالأعتماد على القلب في المعرفة دون غيره، وكالتفكير بوحدة الأديان، ومنها ما يستفاد من فرائضهم الروحي، ويحل مشكلاتهم المعرفية المثار إليها انقار.

4. شهد التصوف الإسلامي في القرن العشرين تطورات جديدة في اللغة والخطاب والأهداف والوسائل، منها ما من بإسلاميته، كما رأينا في التصوف العالمي، ومنها ما استفاد منه في تكوين وصياغة فنون جديدة، كما رأينا في الأشكال الصوفية الأخرى، ومنها ما دعم أصوله، وساعد على نشر الإسلام في الغرب، كما حدث مع الطريقتين الرفاعية القادرية والتشيعندية.

5. إن الفهم المستوعب للتصوف باعتباره ظاهرة تصوف، له خصائص مختلفة، فهو ظاهرة تاريخية وإسلامية من جهة، وهو ظاهرة اجتماعية ونفسية ورمزية من جهة أخرى، كما أنه موقف فلسفي ووجودي من جهة أخرى، مما يحوج إلى فتح مخابر دراسة تنظر في المعارف المختلفة، للإحاطة بالظاهرة الصوفية، تجمع بين مواقف الشرع الإسلامي، ومواقف الفقهاء وتاريخها، لما لها دلالة شرعية، وإبانة عن مواقفها الاجتماعية. كما أن الإحاطة بتاريخ التصوف له

دخل كبير في تحقيق كينونة التصوف التقليدي المعاصر، وسينبع الغاية من العلم لو تم دعم نظريته بنفحات من علم النفس التاريخي، وعلم الاجتماع، وعلم الأثرولوجيا، لما فيها من كشف عن الأبعاد الواقعية للتصوف التقليدي؛ كما أن التحليل الفلسفي لقضايا هذا التصوف تدخل إلى منطلق هذا التصوف، وتقر لنا خصوصية العقل الصوفي.

وما ذكرناه في هذه المداخلة لا يزيد عن كونه لفئات، نحس بأهمية التطورات المعاصرة للتصوف الإسلامي، وتنبه إلى أهمية دراستها ونتبع نتائجها، ولكنها لا تدعي الوفاء ولا الكمال.

الهوامش

¹ اختلف النقاد في اشتقاق كلمة التصوف اختلافا كبيرا يمكن مراجعتها في: (قاسم غني، تاريخ التصوف في الإسلام، ص: صادق نشأت، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، نت)، ص 67)

² لا يعتبرنا هنا وجود بعض الفرق الصوفية المنحلة، لأننا ببساطة لا نصفها مع الفرق الصوفية الإسلامية.

³ راجع تعريف التصوف: قاسم، تاريخ التصوف في الإسلام، ص 67، وراجع للمقارنة مقالة:

'the meaning of sufism' in www.sufimovement.org

⁴ طريقة صوفية معاصرة أنشأها الشيخ الجزائري، محمد التابعي الحسني، مقرها بعنابة وادي الذهب.

⁵ طريقة صوفية مغربية، أنشأها الشيخ حمزة، (راجع موقعها: www.tariqa.net)

⁶ راجع موقعها على الويب: www.internationalsufism.org

⁷ راجع: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998)، ج 64 حيث أفاض في الحديث عن أخيار هذه الطرق في الجزائر

⁸ راجع موقعها العالمي: www.naqshabandi.org

⁹ راجع موقعها العالمي: www.rifai.org

¹⁰ راجع موقعها العالمي: www.tariqa.net

¹¹ نقلا عن منشورات الطريقة، (نقلا عن أحمد بنوي، مسؤول العلاقات العامة لهذه الطريقة)

¹² راجع موقعها العالمي: www.naqshabandi.org، حيث كشف عن انتشار هذه الطرق ونشاطاتها.

¹³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 46، ص 191-205

¹⁴ المصدر السابق، ص 139

¹⁵ المصدر السابق، ص 244

¹⁶ راجع: Bryan S. Ayers., Virtual Sufism. From Samuel L. Lewis to the Appearance of Sufism on the World Wide Web, (Bryan S. Ayers, 1997), p66-89

¹⁷ Ibid

¹⁸ ومن ذلك الحركة التصوف العالمي التي سنأتي على ذكرها العنصر الموالي، راجع موقعها:

www.internationalsufism.org

¹⁹ راجع: Bryan S. Ayers., Virtual Sufism, p4-5

Ibid, p4²¹

Ibid²¹

Jay Kinney, Hidden Wisdom: A Guide to the Western Inner Traditions (New York: Penguin / Arkana: 1999),p100-150.²²

Bryan S. Ayers.,Virtual Sufism, p4-5 راجع:²³

Ibid²⁴

Ibid²⁵

Kinney and Wisdom: A Guide to the Western Inner Traditions,p100-150.²⁶

يمكنك التأكد من ذلك من خلال توظيف الكلمات التالية (order sufism) في المحرك
www.google.com²⁷

راجع ما تعرضه كبرى المطابع الأمريكية في الموقع: (www.amazon.com)²⁸

Ibid, p14²⁹

سينسور ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، تح: د.عبد القدر الجبرلوي، ط1، (بيروت: دار النهضة³⁰

العربية، 97)، 61-117

المصدر السابق³¹

المصدر السابق³²

المصدر السابق، ص 251-285³³

المصدر السابق، ص 358-364³⁴

المصدر السابق³⁵

راجع على سبيل المثال: والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق للتصوف في ضوء الكتاب والسنة³⁶

محمد الغزالي لسان، الجانب العاطفي من الإسلام، (الجزائر: دار الشهاب)³⁷

محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، (بيروت: دار الفكر، 2001)³⁸

سعيد حوي، تربيئتنا الروحية، (الجزائر: دار الشهاب، 199)³⁹

المصدر السابق⁴⁰

كما هو شأن في الكليات والجامعات الإسلامية بالجزائر مثلا⁴¹

راجع على سبيل المثال: مقرر الجامعات الإسلامية بالجزائر وسوريا ومصر، أقسام أصول الدين.⁴²

للطريقة النقشبندية بتركيا مواقع تليزنية خاصة⁴³

ومن ذلك فإن الطريقة النابغية بالجزائر تمتلك ما يزيد على أربعمئة شريط من إلقاء شيخها ومؤسسها⁴⁴

محمد التابعي، كما أخبرني المكلف بعلاقتها العامة السيد أحمد بنوي

راجع على سبيل المثال موقع الطريقة العلوية بمستغانم: (www.tasawuf.ws,(france,2003)⁴⁵

Bryan S.,Virtual Sufism, p66-89 راجع:⁴⁶

راجع على سبيل المثال: التصوف العالمي الذي سيأتي ذكره في العناصر الموالية⁴⁷

نتيجة هذا إلى أن خريطة العالم الإسلامي قد اختلفت كثيرا في الوقت المعاصر، فلم تضر تقاصرة على⁴⁸

الشرق كما هو معهود، إذ امتدت لتشمل بلدان مختلفة من أوروبا نتيجة الهجرة الإسلامية المتوالية إليها، و

هذا ما نتج اختلافا مماثلا في خريطة الفكر الإسلامي، فظهر مفكرون مسلمون في الغرب، كما تأسست

معاهد شرعية في جز البلدان الغربية، تشر بحيل من المفكرين المستنيرين، وهو الأمر الذي غالب كثير من كتبا عن الفكر الإسلامي.

⁴⁹ د.ميخائيل إبراهيم سعد، المرشد في العلاج النفسي، ط2. (بيروت: دار الافاق الجديدة)، ص143-153. و ص185-197، وراجع أيضا الموقع العالمي لهذا الاتجاه في التحليل النفسي: (www.ahpweb.org.(2003)

⁵⁰ ميخائيل إبراهيم. المرشد في العلاج النفسي، ص185-197

⁵¹ ومن ذلك جهود المركز العالمي للفكر الإسلامي في هذا المجال، وما أصدره من مستلآت في هذا المجال.

⁵² راجع: نصير بنين في موقعها (www.australiansuficenter.org)

⁵³ راجع موقعها على شبكة الانترنت IAS: (www.ias.org.(2003))

⁵⁴ راجع موقعه على شبكة الانترنت: (www.mirsufi.org/sufireiki/about.shtml)

⁵⁵ صوفي مير ستر، رسالة بعثها إلى، جوليا على استفسارات، (بتاريخ 28 سبتمبر 2003)

⁵⁶ المصدر السابق.

⁵⁷ راجع موقعه على شبكة الانترنت: (www.mirsufi.org/centre/grandmaster.shtml)

⁵⁸ راجع موقعه على شبكة الانترنت: (www.mirsufi.org/centre/nonchanging.shtml)

⁵⁹ راجع موقعه: (www.sufimir.org/sufireiki/distant1.shtml)

⁶⁰ صوفي مير ستر، رسالة بعثها إلى، جوليا على استفسارات قدمتها إليه على شبكة الواب، (بتاريخ 28

سبتمبر 2003)

⁶¹ المصدر السابق

⁶² راجع: (www.mirsufi.org/centre/grandmaster.shtml)، UK: the mir sufi center, 2003),p7

⁶³ والتي هي من الشهرة في العالم الغربي، ولدى المشتغلين بالعلوم الروحية والفنون القتالية، والطب البديل

⁶⁴ راجع: (www.mirsufi.org/centre/grandmaster.shtml)، UK: the mir sufi center, 2003),p7

⁶⁵ المصدر السابق.

⁶⁶ راجع: (www.mirsufi.org/centre/grandmaster.shtml)، UK: the mir sufi center, 2003),p29

⁶⁷ راجع موقع: www.ruhaniat.org الموقع الرسمي لحركة Sufi Ruhaniat International

⁶⁸ المصدر السابق.

⁶⁹ راجع تفاصيل ترجمته في موقع حركته: (www.sufimovement.org)

⁷⁰ صوفي أمريكي، درس مختلف لتقاليد الصوفية بما في ذلك الإسلام، وسمى نفسه بعلي مراد، توفي سنة

1982 راجع موقعه: (www.ruhaniat.org)

⁷¹ راجع: (www.ruhaniat.org) The work of sufi movement in

⁷² راجع موقعه www.ruhaniat.org/the10SufiThoughts/readings/10-10

دور الاستشراق في تأزم العلاقة بين الإسلام والغرب

الدكتور عبد القادر بخوش
جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

ليس من شك أن تأزما واضحا يطبع العلاقات الغربية بالعالم الإسلامي، فتصور الإسلام كعدو للغرب لا يعد جديدا في الدراسات الاستشراقية الكلاسيكية، فله جذوره التاريخية التي قد تعود إلى الحروب الصليبية، ولكنه مع حاضري الدراسات الاستشراقية بلغ العداوة للإسلام أوجه، وأضحى سعة غالية فيها. كما لم يعد خافيا على أحد رواج مقولات على شاكلة التحدي الإسلامي، سيف الإسلام، السيف الأخضر، المخلص الجديد الذي لا يعرف التسامح ن الإرهاب الإسلامي، إن لهذه المقولات وأمثالها أثرها الفعال في الدعاية إلى التصادم بين الإسلام والغرب وبهذا يحق للباحث أن يتساءل عن أسباب هذا التأزم وما هي مصادره؟ وكيف عملت على ترسيخ العداوة بين الغرب والإسلام؟

أولا: مفهوم الاستشراق

الاستشراق أو الدراسات الاستشراقية مصطلح أو مفهوم عام يطلق عادة على حركة فكرية واسعة النطاق، متعديّة الجوانب تُعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمة الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام بصفة خاصة⁽¹⁾. ومع أن الاستشراق ومجال الدراسات الاستشراقية كان مقتصرًا في بدايته ظهوره على دراسة الإسلام وحضارته، واللغة العربية وآدابها، فإن دائرته اتسعت فيما بعد ووضحت تنوع دراسة الشرق كله، لغاته وآدابه وعاداته. وإن ظل الذين الإسلامى يستقطب اهتمام المستشرقين في دراساتهم.

أما مفهوم الاستشراق في الأدبيات الغربية، فهو يمثل مادة علمية تتعمق في دراسة الشعوب الشرقية من خلال لغاتها وتاريخها وحضارتها. وبذلك أضحي محلة الإحياء، العدد الثامن، 1425هـ، 2004م

موضوع الاستشراق معترفاً به أكاديمياً، وبموجبه تم تعيين كرسي الأستاذية في كبرى الجامعات الغربية⁽²⁾.

ولذلك أطلقت كلمة مستشرق على كل من يتخصص في الآداب الشرقية أو اللغات الشرقية، أو المتصلع في تاريخ إحدى الدول الشرقية، أو حتى الدارس لسociologie أو أنثروبولوجية هذه الشعوب⁽³⁾.

وبهذا ظهرت كلمة مستشرق في اللغة الإنكليزية في سنة 1779م، وفي الفرنسية ظهر هذا المصطلح عام 1799م. أما الأكاديمية الفرنسية فأدخلت في قاموسها كلمة "استشراق" "ORIENTALISM" عام 1837م⁽⁴⁾.

إن الدراسات الاستشراقية مع عزارة مآلتها وتوسعها من حيث الكم والكيف⁽⁵⁾.

فإن ما يميزها في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر - فترة تشكل أرضية الاستشراق المعاصرة - هو أنها أضحت تمثل مؤسسة استراتيجية بدأت تنتظم في نسق واحد يعتمد تقنيات ومناهج محددة، حيث ازدادت فيه أهمية المعرفة المنظمة بالشرق، وهي معرفة دعمتها المواجهة الاستعمارية، فافتضح أمر الاستشراق وانكشفت نواياه⁽⁶⁾. وهو ما جعل "إدوارد سعيد" لم يتردد في وصفه بأنه أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه⁽⁷⁾.

ومن ثم فإن الاستشراق لم يكن نظاماً أكاديمياً صرفاً، بل هو مشروع غربي يعني بمعرفة الشرق من قبل الغرب ليتمكن من إخضاع شعوبه والسيطرة عليهم، ويعترف بذلك "بارت"⁽⁸⁾ قائلاً: «لا يعيش المستشرقون في الفراغ، شأنهم في ذلك شأن ممثلي الأفرع الأخرى في الدراسات، بل يضعون أنفسهم - وإن بدا عليهم شبيهاً بعمل العلماء الخاصة شبيهاً كبيراً - في خدمة المجتمع الذي ينتمون إليه، والذي يمولهم ويشجعهم»⁽⁹⁾.

ثانياً: أصل نشأة الاستشراق

إذا كان من الصعوبة بمكان التعرف بشكل دقيق على تاريخ نشأة الاستشراق وأسباب ظهوره، حيث أثير حول هذه المسألة الكثير من الجدل والنقاش بين المؤرخين والباحثين، فمن المؤكد أن القساوسة ورجال الدين المسيحيين يمثلون طلائع المستشرقين، وأسأتنتهم منذ ظهوره وبروزة على الساحة الفكرية⁽¹⁰⁾.
ولذلك يكاد يتفق الباحثون على أن الاستشراق ولد في أحضان الأديرة والكنائس، وبذلك ظل الدافع الديني عاملاً ملحاً في نشأة الاستشراق ودفعه قدماً نحو تحقيق أهداف مقصودة.

هذا ما يعبر عنه "محمد عبد الله الشرفاوي" في قوله: «ملاك القول إذا، أن الاستشراق ولد أولاً في سرانيب الأديرة والكنائس، ووظفه المستشرقون من رجال الدين في الغرب لتحقيق هدفهم في محاربة الإسلام بالافتراء الحاد عليه، والنس الرخيص والكذب في محاولة لطمس وتسوية حقائقه، ووضع الحواجز والسدود بين الشعب الأوروبي وتفهم الإسلام الصحيح. وقد نجح هؤلاء في تحقيق أغراضهم، وحرموا العالم الغربي من نعمة الإسلام وهدية»⁽¹¹⁾.

إذا كان أثر المسيحية في نشأة الاستشراق بارزاً، فلماذا لم تحظ اليهودية بقدر كاف من تسليط الضوء في هذا المجال؟

ثالثاً: امتهان اليهود للنوساطة العلمية بين الشرق والعلمية

برز أثر اليهود في الاستشراق مبكراً، منذ أول لقاء بين الغرب والشرق، حيث اضطلع الباحثون اليهود بدور الوساطة في نقل التراث الإسلامي إلى الغرب، مع التعليق عليه، ومحاولة تسويبه. وقد شكل هذا مادة ضخمة أضحت الأرضية التي قامت عليها الدراسات الاستشراقية فيما بعد⁽¹²⁾.

إننا إذا سلّمنا بمقولة المستشرق الألماني "بارت" في تاريخه لبداية الدراسات العربية والإسلامية في الغرب إلى سنة 1143م، حيث اكتملت ترجمة القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الراهب بطرس الميجل⁽¹³⁾.

فإن الممارسة الفعلية لهذه الترجمة تولت القيام بها شخصيات يهودية⁽¹⁴⁾.

ليس من شك أن مدارس الترجمة التي شهدتها الغرب كانت بحث نهاية عصر الظلام في العرب، حيث تم نقل صفوف نتاج العقل الإسلامي ونظرياته إلى اللغات اللاتينية والعبرية وغيرها، حيث تمكن الأوروبيون من الاطلاع على ذخائر الثقافة الإسلامية، وعلى أساسها أقاموا حضاراتهم الحديثة⁽¹⁵⁾.

هذا المعنى يعبر عنه عبد المتعال محمد الجبري في قوله: «كل ما نقله المستشرقون عن العرب المحور الذي تحركت حوله الأفكار التي نشأت عنها حركات النهضة في أوروبا منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي»⁽¹⁶⁾.

لقد تنافس المنقون اليهود في اقتناء الكتب وجمع المصادر العربية لترجمتها، وقد اتخذ إقبالهم على الترجمة شكلا علميا ومنظما، حيث برزت أسر يهودية بكاملها في الأندلس تجيد اللغة العربية، فتخصصت في الترجمة للتراث العربي، ولذلك لا زالت الذاكرة الاستشرافية تتوه بأعجاب وتقدير بأعمال «موسى بن حيون» لترجمته لكتب ابن رشد⁽¹⁷⁾، وكتاب القانون الصغير لابن سينا، وترجمته لكتاب العناصر لإقليدس من اللغة العربية، وكتاب الترياق للرازي⁽¹⁸⁾، وكذلك النور الذي اضطلع به «ابن فلانير» بالتعاون مع أحد أفراد أسرته في نقل وترجمة العديد من الأعمال الفلسفية، وفي طليعتها أعمال ابن رشد⁽¹⁹⁾.

كما اشتهر في ميدان الترجمة اليهودي «كولونيموس ماير» حيث نقل تهاافت التهاافت إلى اللاتينية، أما «كالونيموس داود بن تودور» فقد ترجم بعنوان «هيالاها هيالا» إلى اللاتينية⁽²⁰⁾.

وهكذا نتابعت الترجمات للكتب العربية وإعادة تحقيقها من قبل المنقنين المشغولين باليهودية⁽²¹⁾، هؤلاء هم من نعتبرهم بالفعل طلائع المستشرقين. وقد أبان «إدوارد سعيد» عن هذا المجد العلمي الكبير مؤكداً تمكن القوم من تاحية الترجمة في قوله: «لقد كان مستشرقو النهضة مختصين في لغات الأقاليم الثوراتية، مع أن «بوستل» كان يتباهى بأنه يستطيع عبور آسيا وبلوغ الصين دون مترجم. وقد كان المستشرقون بشكل عام حتى منتصف القرن الثامن عشر باحثين في الثورات، أو دارسين للغات السامية، أو مختصين بالإسلام، أو مختصين بالصين»⁽²²⁾.

استمت ترجمات اليهود في معظمها بالتشويه والتفنيق، فوردت إلينا بعض الكتب منقوصة عمدًا، وأخرى تحوي مقدمات سجلوا فيها تصوراتهم عن الإسلام. ناهيك عن استغلالهم لتسامح الإسلام، حيث كانوا يترجموه كتب العلوم وينسبونها إلى أجيالهم وحاجاتهم⁽²³⁾.

وهكذا تجلى الدور الخطير الذي لعبته حركة الترجمة اليهودية في تشويه حقائق الإسلام، ثم نقلها إلى الغرب، مما أسهم في تصعيد حدة التوتر بين الإسلام والغرب.

وهذا فضلا عن أنها كانت وسيلة تجسس على المسلمين حيث وضع المترجمون اليهود كل إمكانياتهم لخدمة الاستعمار لاحقا. هذا ما يعترف به المؤرخ اليهودي "صموئيل آتينجر" بأن الفرنسيين إبان احتلالهم للجزائر سنة 1830م، كانت معلوماتهم عن الجزائر ضحلة للغاية، فاستعانوا باليهود في مجال الترجمة للتعرف على تلك المنطقة⁽²⁴⁾.

وفي محاولة لتتبع النعد الإيديولوجي الذي يوجه هذه الدراسات العدائية يستند إلى دراسة يصفه بالذكية جدا لـ"لاستشرق" قام بها المستشرق "جاك فارنبرغ" بعنوان "الإسلام في مرآة الغرب" اكتتابها لخمسة من كبار المستشرقين المحسوبين لصورة عدائية عن الإسلام، وهم: أجناس جولززيهر، ودنكي بلاك ماكدونالد⁽²⁵⁾، سنوك هرجرونجه، ماسينيون⁽²⁶⁾، وكارل بيكر⁽²⁷⁾.

وتخلص هذه الدراسة إلى نتيجة في غاية الأهمية، هي أن الاختلافات البارزة بين مناهج هؤلاء المستشرقين تغدو في النهاية أقل أهمية من اجتماعهم الاستشراقي على طبيعة الإسلام بوصفها⁽²⁸⁾.

ثم أردف إدوارد سعيد معلقا بقوله: «إن لهذه الدراسة فضيلة إضافية هي أنها تظهر أن هؤلاء الباحثين الخمسة اشتركوا في تراث فكري ومنهجي كانت وحدته فعلا عالمية»⁽²⁹⁾.

واعتقد أن إدوارد سعيد قد لَمَح إلى الدور الصهيوني في القضية بكثير من الذكاء، حينما أقر بأن هذه الدراسة لم تؤكد بدرجة ثانية أن معظم المستشرقين في أواخر القرن التاسع عشر كانوا مشغولين إلى بعضهم بعضا سياسيا كذلك⁽³⁰⁾.

رابعاً: حاضر الدراسات الاستشراقية

راجت في الأونة الأخيرة مقولة تروى الاستشراق واندثاره، وربط مروجو هذه المقولة الاستشراق بانقضاء الاستعمار العسكري التقليدي، مما حدا ببعض المستشرقين إلى القول بنهاية زمن الاستشراق عام 1975⁽³¹⁾.

ليس صحيحاً أنه مع لنتياء الاستعمار العسكري للبلدان الشرقية خفت موجة الدراسات الاستشراقية لانقضاء وظيفتها، باعتبار أنها كانت أداة فاعلة عول عليها الاستعمار في تحقيق أغراضه.

والحقيقة أن ظاهرة الاستشراق لم تنته بانقضاء الاستعمار الأوروبي، بل غيرت مواقعها فقط، فما أن تخلت أوروبا عن نورها القيادي وتسلمت أمريكا زعامة العالم باعتبارها الوريث الجديد، حتى أخذت ظاهرة الاستعمار لونا جديداً يتمثل في استبدال الاستعمار العسكري التقليدي بالاستعمار السياسي والاقتصادي. والذي يعمد إلى تحقيق الهيمنة السياسية والسيطرة على الموارد، مما حدا بأمريكا إلى احتضان الاستشراق وتطويره ليتمشى والمستجدات الجديدة.

وقد نجح المستشرقون في أمريكا في تنشيط هذه الدراسات وإعطائها الصبغة العالمية، بما أنشؤوا من دوائر للاستشراق⁽³²⁾.

ومنه انتقل مركز الاستشراق من أوروبا إلى أمريكا، مما شجع العديد من المستشرقين الأوروبيين بنورهم إلى الهجرة نحو أمريكا للإقامة بها لإثراء الدراسات الاستشراقية وبعثها من جديد.

يؤيد هذا الرأي أحد الباحثين المسيحيين هو "جورج كتورة" في قوله: «لقد أضحى الاستشراق رديف مؤسسات حكومية وخاصة تُعنى باستشراف المستقبل وتبوير الملوك مؤسسة شبه حكومية، أو عاملة عند المؤسسة الحكومية، لمدّها بالمعلومات، ولتطرح عليها تصورات معينة. قد يقال إن الاستشراق قد صار بذلك لشد خطراً من الماضي، ربما ولكنه تحولّ ينبغي إدراكه»⁽³³⁾.

وفي الأخير فإن أي دعوة إلى التقارب والتعايش بين الإسلام والغرب ينبغي أن تمحص وتغربل هذه الدراسات الإستشرافية العدوانية وتكشف نوايا أصحابها، فمن دون ذلك لا يمكن الحديث عن أي تقارب أو تعاون يقف على أرضية ملغمة قد تتفجر بين الحين والآخرى.

هوامش البحث

(1) - إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ذيب، (بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ط4، 1995م)، ص 80-81.

و عدنان محط وزان، الاستشراق والمستشرقون، وجهة نظر، ص 15.

وعلى حسن خريوطي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، (القاهرة، ترانس الإسلام، بصرها: المجلس الأعلى للتعاون الإسلامية، سنة 111، 10، 15 أجمادي الآخرة 1390هـ/ 17 أغسطس 1970م)، ص 7.

(2) - إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ص 80.

و رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ نيونور تولنكه، ص 12-13.

(3) - محمد إبراهيم القوي، الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي، ص 17.

(4) - آيس جوزيفسكي، الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد الجراد، (سلسلة كتب علم المعرفة، الكويت، سنة 215، نوفمبر 1996م)، ص 103-104.

(5) - ولييان كم الجال من المؤلفات الاستشرافية فإتنا نجد أن صوبين لكتب التي ظهرت في الفترة ما بين عامي 1939م و 1949م، خاصة بالشرق الأدنى قد جمعت في أكثر من 2000 صفحة، وكذلك تصنيف الفهرس الإسلامي، وهو قائمة تضم الدراسات الإسلامية، (بنون ما نشر في شكل كتب) في الفترة ما بين 1906م و 1955م، زادت على 26000 عنوان. ثم الحق الفهرس بسجد لأصول من 1956 إلى 1960 يضم ما يزيد على 7200 عنوان. فمن الذي يستطيع الإحاطة بمادة من هذا الحجم؟ نظر: رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ نيونور تولنكه، ص 74.

(6) - إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ص 73.

(7) - المرجع السابق، ص 231-232.

(8) - بارت رودي، RUDI PARET (1901-1983م)

مستشرق ألماني، ترجم القرآن للكريد إلى الألمانية، ولد في 3 أبريل 1901 بجنوبي ألمانيا، من أسرة مسيحية متدينة. وتلقا بجامعة بونين حتى تحصل على الدكتوراه الأولى، في سنة 1924م، ثم على الدكتوراه للتدريس في الجامعة سنة 1926، وفي سنة 1941 عُيِّن أستاذا للعلوم الإسلامية والاسميات بجامعة بون، وانخرط في خدمة الجيش سنة 1941، وظل في الأمر حتى سنة 1946م. وفي سنة 1951 عُيِّن أستاذا

- للإسلاميات في جامعة تورنجن، حتى أُحيل على التقاعد في 1968/9/30م. وتوفي في يناير 1983. إثر مرض. وقد ترك مصنفات عديدة حول الإسلام، منها محمد والقرآن، و الإسلام والتراث الثقافي اليوناني. انظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 62-63.
- (9) - رودني بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الآسيوية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولتكه، ص 103.
- (10) - ناسي سالم الحاج، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ج 1، ص 32.
- (11) - الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر، ص 48.
- (12) - الاستشراق في الفكر الإسلامي المعاصر، ص 29.
- (13) - رودني بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولتكه، ص 9.
- (14) - محمد عبد الله الشرفاوي، المرجع السابق، ص 29.
- (15) - محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، نقد العقل التاريخي، (الرياض، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، ط 1، 1991م)، ص 139.
- (16) - الاستعمار وجه للاستعمار الفكري، (القاهرة، مكتبة وهبة، ط 1، 1416هـ/1995م)، ص 40.
- (17) - محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، ص 141.
- (18) - ناسي سالم الحاج، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ج 1، ص 42.
- (19) - محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، ص 141.
- (20) - المرجع السابق، ص 141-142.
- (21) - يعترف المؤرخ دي نسي لوليري، بأن جميع التحارب العقلية للجماعة الإسلامية قد تردد صداها بين اليهود، عن طريق الترجمة.
- النظر: الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة إسماعيل البيطار، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط 1، 1982م)، ص 220-222.
- (22) - إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ص 81.
- (23) - محمد ياسين عريبي، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، ص 143.
- (24) - اليهود في البلدان الإسلامية 1850-1950، ص 350.
- (25) - ماكندونك بلاك DUNCAN BLACK MACDONALD (1863-1943)، مستشرق أمريكي الإقامة، بريطاني المولد والنشأة، وك في جلاسجو. لعب نورا هاما في الترويج للتبشير بالمسيحية كما أسهد في اعتاد المبشرين في مدرسة كندي للدراسات التبشيرية البروتستانتية. له مؤلفات عديدة تسم بالتجريح، أهمها:
- أوجه الإسلام، الموقف لنبيي والحياة الدينية في الإسلام، كما كتبه عدة دراسات تُعنى من شأن اليهودية باعتباره من المسيحيين المحنودين. من أهمها: العنصرية الأدبية العربية، العنصرية الفلسفية العربية، توفي سنة 1943م. انظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 538.

(26) - لويس ماسينيون (1883-1962) LOIS MASSIGNON

ولد في 25 يوليو 1883 في ضواحي باريس، وعرف عنه منذ نعومة أظفاره حبه الشديد للقرن، وله في هذا الجانب إشارات رائعة، وبخاصة فيما يتعلق بالقرن الإسلامي، مما مهد له للتعرف على الجانب الروحي في الإسلام. إلى جانب ذلك شغف بالرحلات منذ شبابه، فسافر إلى الجزائر عام 1901، وعاد بعدها إلى باريس لتتابعه دراساته الجامعية، فحصل على الليسانس في الآداب، ثم سافر إلى مراكش في 1904، وكتب بحثاً موجزاً نال به دبلوم الدراسات العليا في السوربون بقصد العلوم الدينية، وتحصل على دبلوم في اللغة العربية الفصحى والعامية من المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية عام 1906.

ومنذ ذلك الحين بدأ اهتمامه بالدراسات الشرقية، فاشترك في المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين الذي انعقد في 1905 بالجزائر، وثمة تعرف على جولز زيهر.

وحياته زاخرة بالتركيب والتأليف، وقد تولى لتدريس بالجامعة المصرية عام 1910 بتزكية من جولز زيهر، واسنوك هو وجرونييه، وتتمكّن عليه طه حسين، وتولى تحرير مجلة العالم الإسلامي في 1919 وترك مؤلفات عديدة خاصة في التصوف، وكانت رسالته للدكتوراه حول الحلاج، وظل على هذه الحال من الحيوية والنشاط حتى توفي في 31 أكتوبر 1962.

انظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 529-535.

(27) - كارل هاينريش باكر KARL HEINRICH BEKKER

مستشرق ألماني وسياسي بارز، وك في 12 أبريل 1876م، من أسرة تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، قضى بكر أيام دراسته الثانوية في فرانكفورت، ثم دخل جامعة لوزان أولاً، ثم من بعد درس في هينينبرج وبرلين، وأخيراً رجع إلى هينينبرج، فاستمر بها حتى حصل على الدكتوراه الأولى، عام 1899. وعرف عنه ولع شديد بعلم اللاهوت، وقضاياها بما دفعه إلى البحث في تاريخ الأديان بصفة عامة، وتاريخ الإسلام بصفة خاصة.

ومن أجل الوقوف على حقيقة الإسلام زار عنيدا من الدول العربية أهمها مصر، وفيها اتصل بالأستاذ محمد عبده، وقد تأثر بأبحاث جولز زيهر، فكان لها التصيب الأوفر في تكوينه، وكذلك المستشرق مخرجوه، الذي استفاد من دراسات الاستعمارية للبلاد الإسلامية، ولذلك التفت بكر من الأستاذية إلى العمل في السياسة لخدمة بلاده، وبذلك اشتغل بالمسائل الشرقية السياسية التي وجهت إليها الحكومة الألمانية عنابة خاصة، إبان الحرب العالمية الأولى.

واعترفا بما قدمه هذا المستشرق للسياسة الاستعمارية من أبحاث توجهت بلاده ليكون وزيراً سنة 1921، ومع ذلك لبث يدير مجلة الإسلام التي أسسها، والتي تنبأ بكثرة بارزة ضمن مجلات المستشرقين، وكان يشترك في مؤتمرات المستشرقين، وبعد أن غادر الوزارة عاد يعنى بالدراسات العلمية في باب الاستشراق، وظل كذلك حتى توفي يوم 10 فبراير 1933.

انظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 113-116.

(28) - إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ص 220.

(29) - المرجع نفسه.

(30) - المرجع السابق، ص 220-221.

(31) - شوقي أبو خليل، الإعجاز في مناهج المستشرقين، ص 6.

الإسلام وصراع الحضارات في القرن

الخامس عشر

قراءة نقدية لأفكار هنتنغتون

الأستاذ محمد بن بشير

كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة تلمسان

غير خاف على كل متأمل للواقع الدولي المعقد، وللأحداث العالمية المربية، وما يعرض للأمة الإسلامية - و هي بسبيل تطلعها إلى استرداد عافيتها الحضارية و تكاملها - من تحديات و مخاطر و عداء، و معاناة داخلية و خارجية. ولعل الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون، كان الصوت العالي الذي دعى للاستعداد للمواجهة مع المسلمين، حيث قال * ينبغي أن يستعد الغرب لمواجهة حاسمة مع الشرق الإسلامي، فالعالم الإسلامي يشكل واحدا من أعظم التحديات السياسية الخارجية للولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين (1) ومن هنا يتضح أن الحضارة الإسلامية قوة مرشحة لتواجه حضارة الغرب فيما يعرف بصراع الحضارات.

وفي ظل هذا، طرح صمويل هنتنغتون (2) في صراع الحضارات تطورا جديدا للقرن الخامس عشر، و أثار نقاشات و تساؤلات و انتقادات، و اعترف بتبويب الحضارات الحضارات بصفة مشبوهة، كما اعتبر أن هذه الحضارات ستصطدم يوما ما.

و العالم اليوم يعيش في قرن جديد و في وضع مضطرب، فماذا بإمكان العالم الإسلامي أن يفعل؟ و ماذا يتوجب على الغرب أن يقوم به؟ لو تفحصنا بما يعنيه بعض المفردات التي لها علاقة ببحثنا هذا و التي استعملها هنتنغتون في مؤلفه (صراع الحضارات) لأمكنا أن تميز الطريق في استقرار العقل المهيم عالميا.

فكلمة (CLASH) صدام تعني بالدفقة (يتضارب، يتدافر، يشتبك، يصطدم، يتعارض، لشيكاك مسلحا صليبا، قففة) ³، و القصد في استعمال كلمة

صدام، أن يحق للحضارة الغربية أن تقوم بما يمكنها من القيام به لتجاه أية حضارة أخرى تراها تكون تهديدا عليها.

فالقنل و التمييز و...مسالك يمكن للحارة الغربية ان توظفيا لخدمة أهدافها، كما أنها أجازت لنفسها في حالة صدامها و تناقروها مع الآخرين بسلوك ما تراها مفيدا...لأن الصدام بعقلية الغرب، لا يوفقه موانع او مقدسات او قوانين، بل يسيره عقلية تغعية هما الأول أن تكون الأولى من دون النقية من الآخرين.

أما مفهوم الصراع (STRUGGLE) الذي تجري استعمالاته موافقة مع مفهوم الصدام من منظري الاستراتيجيات الكونية، فهو أقل استقرازا و تبيجا مما يرافقه فهو يأتي تحديدا على شكل (كفاح، نضال، يكافح، يناضل، يقاوم، يجاهد...⁴) و هذه المعاني أقل ضررا و عدوانية من الصدام، لأن الصراع تدخل تحته أشكال متعددة من الحوارات سواء أكانت سياسية أم ثقافية أم اقتصادية أم عسكرية للوصول الى الاتفاق. كما أن الصراع سنة ماضية في الكون، والصراع بين الحضارات إنما هو في جوهره صراع بين معتقدات لا بين طبقات و لا عرقيات، فقد ينتمون إلى طبقة أو عرق واحد لكن يختلفون في المعتقد فيكون بينهم الصراع.

أولا : ما معنى الحضارة ؟

لا شك أن المصطلحات الراجحة في هذا الحقل مثل المدنية والثقافة، والحضارة غير محددة وللحضارة وحدها تعاريف كثيرة جدا...ففي كم يراها مالك بن نبي تعتمد على منهجين: احدهما تحليلي تركيبى و الثاني وظيفي.

فبالمنهج التحليلي التركيبي، يسوق مثال المصباح الذي نستدير به، ويتساءل متى يصح تسمية هذا المصباح بالإنشاح الحضاري؟ و الحقيقة، كما يبدو، لا يمكن وصفه بذلك إلا إذا كان هذا المصباح.

و الأفكار التي صاحبت إنجازها، و الأدميون الذين قاموا بعملية الإنجاز، يمثلون جميعا منتجات اجتماعية لحضارة معينة.

أما التعريف الوظيفي للحضارة فهي كونها: * مجموعة الشروط الأخلاقية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل عضو من أعضائه، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة، الى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه⁵ ، في حين يراها هنتون * أنها كيان ثقافي يتحدد

بعناصر موضوعية مثل اللغة والتاريخ والعادات وعناصر ذاتية تتركز على التماهي الذاتي للثامن⁶.

ويرى هنتينغتون أن الهوية الثقافية نكتسب المزيد من الأهمية، كما أن شعور الانتماء إلى حضارة معينة سوف يكون له شأن متزايد في المستقبل و يحدث الحضارات الكبيرة بسبعة هي، الحضارات: الغربية، والكونفوشية، واليابانية، والإسلامية، والهندية، والسلافية الأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية، وربما تكون الثامنة الأفريقية و يضيف قائلاً: " إن خطوط النزاع الرئيسية ستكون على امتداد خطوط التقسيم الثقافية، التي تفصل هذه الحضارات عن بعضها البعض."⁷

ثانياً: أسباب صدام الحضارات:

يستند هنتينغتون في أفكاره إلى فرضية تقول: إن المصدر الرئيس للصراعات القائمة بين الحضارات سيكون ثقافياً ومع أن الدولة القومية ستستمر في القيام بنور أساسي في الشؤون العالمية فإن الصراعات المهيمنة في السياسة الدولية ستكون بين الدول و الجماعات التي تنتمي إلى حضارات مختلفة. وستقوم الحضارات بتكوين علاقات التماسك أو التفتت و الصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة، وتأسيساً على ذلك فإن الصراعات السياسية المحلية التي ستبرز ستكون هي الصراعات العرقية و الأثنية، في حين سيكون الصراع المقبل على المستوى العالمي، صراع الحضارات، كما أن القضايا الجوهرية على الساحة الدولية ستترتب بشكل مباشر بالاختلاف بين الحضارات.⁸

ويرى أن الفروق بين هذه الحضارات هي فروق أساسية تتلخص في التاريخ واللغة الثقافية، والأهم الدين، فالدين مركزي في العالم الحديث، وربما كان هو القوة المركزية التي تحرك الناس، وتشددهم، وهذه الفروق الثقافية ليست قابلة للتبديل أو الحلول الوسط، ومع تحديد العلاقات المختلطة بمقياس ديني أو إثني فستأ تحالفات في صورة متزايدة تستغل الدين المشترك والهوية الحضارية المشتركة، وبناء على ذلك يحدث صدام بين الحضارات.⁹

— يلاحظ هنتينغتون أن الغرب برغم أنه في أوج قوته — فهو يواجه حضارات ليست غربية، ترغب في تشكيل العالم بطرائق ليست غربية، ولا تتقصها الإرادة ولا الإمكانيات لتحقيق هذا.¹⁰

— إن النزعة الإقليمية الاقتصادية ستدعم الوعي الحضاري، كما للثقافة المشتركة أثر فعال في نمو هذه النزعة، على غرار ما يحدث بين الصين الشعبية وهونكونغ وتايوان وسانغفورة، إذ أخذت الجماعات تتجاوز خلافاتها الإيديولوجية وهذا بفضل ثقافتها المشتركة.¹¹

— إن الخطوط الفاصلة بين الحضارات سوف تكون هي خطوط المعارك، وتتمثل في التنافس العسكري و الاقتصادي و مدى السيطرة على المؤسسات الدولية إضافة إلى ترويج القيم السياسية و الدينية الخاصة.¹²

— و يرى هنتينغتون أن الصراع الرئيس سيكون بين حضارة الغرب و نوع من التحالف بين الحضارتين الإسلامية و الكونفوشيوسية¹³ بقوتها الصناعية و العسكرية، و الحضارة الإسلامية باحتياطياتها النفطية و قريبا الجغرافي من الغرب، ومن هذا المنظور فإن الصراع بين الإسلام و الغرب مستمر منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، غير أنه يشير إلى توقع استمرار هذا الصراع إلى زمن طويل مقبل، أما الصراع بين الغرب و الحضارة الكونفوشيوسية فهو صراع قصير.

و بناء على ذلك فإنه يخاطب الساسة الغربيين محذرا بقوله: "على الغرب أن يحد من توسيع القوة العسكرية لحضارات معادية محتلة، خصوصا الكونفوشيوسية و الإسلام" و يوضح أن مصطلح الحد من الأسلحة ينطلق من المركزية الغربية في المفاهيم و الأهداف، و يهدف حقيقة إلى منع استحداث المجتمعات غير الغربية لقدرات عسكرية قد تهدد مصالح الغرب " فالغرب يحاول تحقيق هذا الهدف عبر أربعة أشكال: الإتفاقات الدولية، و الضغط الاقتصادي، و قيود التسليح و الرقابة على نقل تكنولوجيا السلاح".¹⁴

ثالثا: أهمية الدين بين عناصر الحضارات:

يرى مالك بن نبي أننا حينما نتأمل القرآن الكريم " يبدو الدين كونه تحكم فكر الإنسان و حضارته، كما تحكم الجائنية المادة، و نتحكم في تطورها. و الدين على هذا يبدو و كأنه مطبوع في النظام الكوني. قانونا خاصا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحد إلى أخط الوثنيات البدائية".¹⁵

و يذكر هنتينغتون أن أركان الحضارة المشتركة التي تربط بين الجماعات هي: اللغة و الدين و التاريخ و العادات، و كل هذه محتمة في الدول العربية، ثم إن الدين وهو أقوى الأركان يربط الدول العربية بالدول الإسلامية برباط قوي، وبخاصة أن

الإسلام خلق تشريعات مشتركة و قيما وأخلاقا لكل المسلمين، و هذه العلاقات بين المسلمين بعضهم البعض أقوى من الأيديولوجيات والسياسة، واللغة العربية لغة القرآن واسعة الانتشار في البلاد الإسلامية بعضها ببعض¹⁶.

وبهذا فهو يركز على أهمية الدين الإسلامي في توحيد شعوب الحضارة الإسلامية؛ كما أننا نجد بثد على أن الدين الإسلامي هو أحد خصوم الحضارة الأرثوذكسية، ويوصي بروسيا (الاتحاد السوفياتي سابقا) في أن تكون حليفا طبيعيا للغرب في مواجهة التحالف الرئيس بين الحضارتين الإسلامية و الكونفوشيوسية، وهذا ما جعل الرئيس السوفياتي الأسبق ميخائيل غورباتشوف حين خاطب الأمريكين يقول: " نحن نقوم بأمر مروع لكم، فنحن نحرمكم عدوا"¹⁷.

يرى هنتينغتون أن أشكال التحدي الإسلامي للحضارة الغربية تتمثل مظاهرها في إقبال الغربيين على اعتناق الإسلام بكثافة تلقائية مما يغذي قاعدة الإيمان بالعناصر البشرية، خصوصا إذا أخذنا في الاعتبار أن الإحصاءات الأخيرة قد أثبتت أن مجموع أعداد المسلمين في أوروبا وأمريكا تتيف عن العشرين مليونا، سنة منها تحرك داخل أمريكا، و تأتي بعدها فرنسا التي يوجد فيها ما يناهز الخمسة ملايين أي نسبة 22/1 من سكان فرنسا حسب إحصاءات عام 1999م، و تذكر بهذا العدد أن الفاتيكان كان ثمر عام 1985م إحصاءات بين فيها للمرة الأولى في تاريخها أن عدد المسلمين فاق عدد الكاثوليك. وحسب هذه الإحصاءات فإن عدد الكاثوليك وقتئذ كان قد بلغ 850 مليون نسمة مقابل 865 مليون نسمة عدد المسلمين¹⁸.

ولذلك فإن هنتينغتون يرى أن حظورة الإسلام تكمن في التوسع الخارجي للمجتمعات الإسلامية أو على شكل الهجرة إلى أوروبا و أمريكا 19 مما ينبغي لتساع الرقعة الجغرافية للإسلام

و يصف صاموئيل هنتينغتون العلاقة العدائية بين الإسلام و الغرب بأنها حالة شبه حرب بسبب عدم خضوع بعض الدول و المنظمات مبدأ الهيمنة الأمريكية الذي تريد تطبيقه على العالم وفق القياس الأمريكي. مما أوجد آليات جديدة في مقاومة مثل هذه النزاعات يصل بعضها إلى العنف كالعراق... لو إلى المقاطعة الاقتصادية كليبيا سابقا²⁰.

ويوضح هنتيغتون عداؤه للإسلام بالقول إنه متصادم و معاد اتجاه الحضارات الأخرى، و يؤرخ لتاريخ النزاع بين الإسلام و الغرب عبر ثلاثة عشر قرنا و الامتدادات المتبادلة بينهما وما تحفل به من جراح عميقة.

ثم يستعرض في خطوط النزاع القائمة على طول حدود العالم الإسلامي من الغرب، ويستعمل تعبير "حدود الإسلام الدنوية" عما يوحي بأن المسلمين هم الطرف العنواني على الآخرين، لأن اتجاهات العنف عند المسلمين يمكن تلمسها من أن الإسلام كان منذ البداية (تدين سيف)، كما إنه يعظم القيم العسكرية من خلال التركيز على فكرة الجهاد من أجل الدين²¹.

هذه أهم أفكار صدام الحضارات، التي أجمعها هنتيغتون في دراسة الفكر السياسي الغربي وقد مر عليها عشر سنوات، وعزها الكثير من الإنباتات والبراهين، لكن واقع المسرح السياسي الدولي في ظل التفرد البيعنة الأمريكية على الساحة العالمية، — ما يمكن أن نسميه بالأمركة أو العولمة — ، يكاد يجعل من هذه الأفكار قانونا اجتماعيا غربيا مطلوب تطبيقه، في إدارة الصراعات الدولية والحلول المقترحة لها وفق القياس الأمريكي، وبالتالي فإن نظرية هنتيغتون هذه أحد المخارج التي توصلت إليها النخب الحاكمة في الولايات المتحدة للحفاظ على مكاسبها الناجمة عن استمرارية موازنات الحرب في الارتفاع، وعن تنازل المجتمعات الغربية عن جزء منهم من حقوقها في التقدم مقابل الحصول على قدر أكبر من الأمان لتجاه الأعداء المفترضين.

— يحاول هنتيغتون خلق عدو خارجي للولايات المتحدة، ووصفه أنه عدو قوي، و لابد للغرب بأن بعد العدة لحرب قادمة، ويغشى أن تتوالى الولايات المتحدة الاستعداد لهذا العدو.

— في تصنيفه للحضارات التي يمكن أن تتصارع فيما بينها فرق بين مفاهيم ثلاثة متداخلة، الحضارة الغربية، وحضارة أمريكا اللاتينية، والحضارة السلافية الأوثودوكسية، في حين أنه تطلق إزاء تقويمه للحضارات من أساس ديني، غير أنه تناسى أن هذه الحضارات تنتمي إلى أصل حضاري واحد هو المسيحية كدين وثقافة.

— إن فرضية هنتيغتون في صدام الحضارات تخفي داخلها أمورا منها:

— رقصه فصل الثقافة على الحضارة، و اعتبر أن الثقافة هي الفكرة العامة في كل تعريف للحضارة، ما انعكس بنوره على مفهومه عن الحضارة وربطه بالدين، و هذا خلل واضح إذ أن استخدام مفهوم الحضارة، و الذين بوصفه المؤشر الأساسي للتمييز بين أطراف الصراعات الرئيسية في واقعنا اليوم لا يساعد فيهما لهذه الصراعات.

أما استعماله مصطلح الحضارة الغربية فإن هذا المصطلح لم يظهر إلا في القرن العشرين، و هو مصطلح يتضمن إدراك أن هذه الحضارة على عكس من الحضارات على عكس غيرها من الحضارات لا تضعه الدين في مكانه مركزية، كما أنه يركز بعنف على أن الحضارة الغربية هي بيئة العقيدة الأمريكية²² و في ذلك عنوانية و مصانرة للأخرين و ادعاء بطولي في غير محله.

- أظهر أفكاره العدائية بطرح الموضوع على أنه صدام أو صراع ونسى محاولات غرس التسامح بين الشعوب، الذي تنادي به جميع الأديان السماوية و خاصة الدين الإسلامي.

- حذر هنتيغتون الغرب مما أسماه تحالف بين الحضارتين الإسلامية و الكونفوشيوسية، بيد أن هذا الارتباط بين الحضارتين لا أساس له فالحدود فيما بينهما تمثل إحدى أكبر بؤر الصاع الحضاري.

- نجد هنتيغتون يرتب أوليات دافعية الصراع الحضاري في القوة العسكرية و السياسية و اختلاف الثقافة. غير أن النظرية في عمومها تتمحور حول اثنين كعنصر سببي فريد لا مجال لمقارنته بأي نوافع أو مقومات اقتصادية أو أساسية أو غيرها، يمكن أن تنسب بسببها حرب أو يحتدم صراع بين الحضارات على اختلافها.

- نظرة هنتيغتون إلى الإسلام نظرة عنوانية فالإسلام حسب رايه يناقض القيم الحضارية الأخرى فهو يعد الإسلام حضارة كالحضارات الغربية و ليست ديناً سماوياً، كما أنه لا يناسب القيم الديمقراطية و عنوانيا بطبعه لأنه أنتشر بحد السيف.

إذا رجعنا إلى تاريخ الغرب في علاقته بالحضارات التي استمد منها حضارته بواسطة الغزو منذ القرن السادس عشر ميلادي ، حيث حرص " هرمان كورتز" على أن يبني ثقافة " الأرنك"

و ثقافة " المايا" بحجة إدخال المسيحية، ولكن ما بقي من معابد " بالانك" أو " شيشن ايتزا" يعلن أن من شادوا هذه المعابد كانوا قاندين على تقديم الكثير من المظاهر الحضارية لو لم يواجهوا من الغرب بسطوة الغازي المعتصب، فقد سبقت هذه الشعوب إلى إيجاد زراعة متقدمة، و عرفت كثيرا من الأعشاب الطبية... وكان لهم من ناحية أخرى تقويم أدق من تقويم أوروبا في ذلك العصر. فلما غزاهم الإسبان و البرتغال بأسلحتهم أبادوا هذه الحضارات، بدلا من التحاور معها والإفادة منها، فكانت تلك الفرصة الأولى التي فقدتها أوروبا في مواجهة الحضارات.

وكانت الفرصة الثانية التي فقدها الغرب... أن المستعمرين الفرنسيين والإنجليز والأسبان عملوا على تشويه ما قدمه العرب المسلمون من إسهامات حضارية فوصفوا ما قدموه للإسبان من شتى ألوان الحضارة، بأنه غزو عسكري، مغفلين ما قدموه للإسبان من تحرير، حيث أنقذوا الأتقان من وصاية ملوك "الغريغوط" و ما أقاموه في إسبانيا من أجمل منشآت الري التي عرفها العصر، وما تهله الإسبان الأوروبيون جميعا على أيدي العرب المسلمين من علوم في شتى المجالات.

فالمسلمون ما دخلوا أوروبا غزاة، و لكنهم دخلوها معلمين، ناشرين تلك الحضارة الإنسانية الشاملة، التي حظيت بقبول الجماهير التي كانت تترشح تحت وطأة نظام الرق²⁵.

إن الشكل العدواني الذي رآه هنتيغتون في الإسلام يحضه التاريخ، فمن الذي جيش جيوش الحروب الصليبية و قاد حملاتها ضد بلاد المسلمين؟ ومن الذي مورس ضده الاستعمار والاستعمار؟ العالم الإسلامي أم العالم الغربي؟ و من يقتل الأبرياء في فلسطين و في العراق و في الشيشان...؟ و من؟ و من؟....

فتاريخ العرب تاريخ عنصري مليء بالاضطهاد، بل ومحاولات التطوير العرقي والديني للأقليات العرقية و الدينية، الذي وقع في بعض البلدان الأوروبية كإسبانيا. عندما شنت الكنيسة حرب الإبادة ضد المسلمين و اليهود في هذه البلاد، و كما حدث لمسلمي البوسنة و الهرسك في عصرنا الحالي؛ إن تعصب الغرب ضد الأقليات هو الذي حكم و يحكم موقفها ضد الأديان وأهلها حتى اليوم.

هذا بعكس الإسلام الذي حافظ على الأقليات في بلاده و أعطى الجميع الحرية الدينية ومن ثم استطاع ان يقدم وثيقة رائدة تنظم حياة المجتمع المتعدد الجنسيات و الأديان " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي.." البقرة ٢٥١ و التصور الإسلامي لا يكرس الصراع كقاتون تاريخي مطلق كما يقول هنتيغتون، و لكن الصراع في التصور الإسلامي بمعنى التدافع ليس إلا سنة واحدة من سنن الاجتماع البشري إلى جانب سنن الله الكونية الأخرى، يقول تعالى " و لو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض و لكن الله ذو فضل على العالمين" البقرة 251.

كما أنه له منطقه المختلف عن مفاهيم الصراع الأخرى، و لذا فإن الجهاد في معناه الواسع²⁴ ليس صراعاً مع الآخر للقضاء عليه، و لكن أداة لحماية الدعوة و نشرها بين الآخر، و من ثم فهو أحد أدواته حيث أداة التعاون السلمي تظهر إلى جانبه، و لكل من الأداتين ضوابطهما و شروطهما و ليست أحدهما بديلة مطلقة للأخرى.

كما نجد هنتيغتون يخلط متعمداً بين الإسلام كدين وبين ظاهرة ما أسماه "الأصولية الإسلامية" ففهم الأصولية على أنها وسيلة لإرهاب قيم خاطيء²⁵ ، فالمسلم صحيح الإيمان إنسان أصولي يتبع أصول الدين و أخلاقياته و قيمه، و هو بعيد كل البعد عن الإرهاب و العنوانية، و متمسك بالتسامح الإسلامي كما أثر عن الرسول صلى الله عليه و سلم.

هذا غير أن الدين الإسلامي إنساني النزعة يجد تألقاً له و لفكره حينما يتلاقح مع الأفكار الأخرى بطريقة الأخذ و العطاء بما يخدم الإنسانية، و لهذا السبب لم نلاحظ في التاريخ الإسلامي محاكم للتفتيش، بل التاريخ يشهد و أحاديث الرسول عليه الصلاة و السلام على تعامل المسلمين حتى مع أسرى الحرب.

إن زيادة عدد المسلمين في بلاد الغرب أصبح يخوف الغرب! غير أن هذا التخوف لا يشكل في حقيقة الأمر أي تهديد على البلاد الغربية، فالمسلمون في هذه البلاد أناس بسطاء مسالمون، يمارسون شعائير عباداتهم و تعاليم دينهم بشكل عادي و طبيعي، بل هم المعتدى عليهم، وما قضية الحجاب في فرنسا خير دليل على ذلك، و محاربة و ممارسة سنة ذبح أضحية العيد بحجة المحافظة على الحيوانات.. و غيرها كثير.

ثو يرى مراد هوفمان²⁶ أن من أبرز أسباب عداة الغرب للإسلام، هو إدراكهم أن الحضارة الغربية بحاجة إلى دين يصنع لها حدودا حتى لا تتقلب إلى فوضى، ولا يوجد من يتصدى لتلك المهمة، غير الإسلام، فيو دين الحضارة الذي يحدث توازنا في جميع أنشطة الحياة، هذا عدا كونه علاجا حاسما لحالة التغريب والانخلاع التي يعيشها المجتمع الغربي²⁷. و لذلك فلا غرابة حينما نجد هنتيغتون يقول: إن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب، موضع شك²⁸.

فالغرب و إعلامه يحرضان على التخويف من أسس الإسلام و مبادئه و قيمه، زعما بأنها تفكير يؤدي إلى الغنى و التطرف و الرجعية، و نسي هنتيغتون و غيره صور الإرهاب في أمريكا و فرنسا... و... و غير أننا نجد من أبناء الغرب من يحذر بين مظاهر العنف في العالم الإسلامي و بين الإسلام و قيمه و مبادئه، مثل الأمير تشارلز - ولي عهد بريطانيا - حيث يقول " إن التطرف ليس حكرا على الإسلام، بل ينسحب على الديانات أخرى بما في ذلك المسيحية، و الغالبية العظمى من المسلمين يتبعون بالاعتدال، و النبي محمد كان يمتد التطرف و يحارب التعصب، و من الخطأ الجسيم أن نحكم على المسلمين بالإرهاب لبعض الحوادث التي تتصل بهم، فذلك مثل الحكم على نوعية الحياة في بريطانيا من خلال وجود جرائم القتل و الاعتصاب و الاعتداء على الأطفال و ادمان المخدرات²⁹.

فيذه الشهادات و مثلها تساعد كثيرا في تصحيح الصورة النمطية المتوارثة عن الإسلام في الغرب، و ستقترب وحيات النظر في القضايا الخلافية لخدمة الإنسانية و سعادتها، و عيشها في حوار و تعايش سلميين، لأصدام و صراع كما يدعو إليه هنتيغتون، فتمط العلاقة بين الحضارات في المفهوم الإسلامي هو تعارف و حوار الحضارات لا صراع و صدام يقول الله تعالى " يا أيها الناس إنا خلقناكم من نكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم". (سورة الحجرات)

إن أهم ملامح الحضارة الإسلامية في عصر تعدد الحضارات تتمحور في أربعة عناصر أساسية متعاونة إيجاباً، وبها وعليها قامت حضارة الإسلام الزبانية، الإخاء الإنساني، الشمول، المنهجية العلمية.

فالربانية صلة بين الإنسان و ربه.

و الإخاء صلة بين الإنسان و أخيه الإنسان .

و الشمول صلة بين الإنسان و الكون .

و المنهجية العلمية بمفهومها الإسلامي الذي يجمع بين الوحي و العقل، طريقة

للتعامل بتورين من الوحي و العقل، مع الكون و الإنسان .

فبيده الملامح نقدم حضارتنا الإسلامية إلى حضارة الغرب و الحضارات

الأخرى، نقدمها بإبداعاتها و قيمها، نقدم رؤيتنا لقضايا العالم، من حقوق الإنسان،

و سلام و ديمقراطية و أخلاقيات في التعامل و المحبة و التعاون....

لكن لا بد قبل تقديم من معرفة جوانب قوة و مكامن ضعف هذه الحضارة،

و اكتشاف قدراتها الحقيقية و إمكانياتها الروحية و الفكرية و البشرية و العادية،

و إدراك صورة هذه الذات عند الحضارات الأخرى، و لا بد بعد ذلك من تقديم فهم

عقلي لعالمنا المعاصر، كما يتطلب تقديم الإجابة الواضحة عما يسميه هنتيغتون

تهديد الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية.

غير أننا إذا نظرنا إلى أفكار هنتيغتون نظرة إيجابية لمستقبل الإسلام ربما

نجده متفائلاً أكثر من المسلمين و أكثر منه " باول سمتر" حيث يقول " لا يساورني

شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاءها برباط متين، و تتماسك أطرافها تماسكاً

قويًا، و تحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام، سيكون لها النصر في النهاية.. و إذا

كان المسلمون قد تخلقوا في التكنولوجيا فإتيم يستطيعون تدارك ذلك، و لكن في

مقابل هذا سيكون من الصعب علينا استعادة أو إحياء التعاليم الروحية، تلك التي

فقدتها المسيحية، و لكن الإسلام حافظ عليها³⁰.

و في هذا الصدد نجد مالك بن نبي ينظر إلى مستقبل العالم الإسلامي نظرة

تفاؤلية، فهو لم يفقد الأمل في إنسان ما بعد الموحدين رغم الصفات السلبية التي

وصفه بها.. و التي تطابق المسلمين اليوم.. و لذلك نجده يقرر بقوله " الواقع أنه

على الرغم من قابليته للاستعمار قد احتفظ بمعنى جوهرى هو : معنى القيمة

الخلقية، و هو ما ينقص الفكر الحديث الشامخ".³¹

ابن فابيان ما بعد الموحدين - إلى يومنا - هذا مازال يحتفظ بالورقة الزابحة ورقة القيمة الخلقية الدينية الروحية، التي هي شرط أساس لكل إقلاع حضاري و يبقى البناء أو إعادة البناء دائما في وسعه إذا ما تمثل قوله تعالى: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الزمر 11)

وأختم بحثي هذا بخطاب قدمه الشاعر الكبير محمد اقبال رحمه الله الى الأمة الإسلامية:

توحدت من قديم الظير أمتكم ما بالها انقسمت في أرضها أم قد خادعتكم من المستعمرين يد سم العقارب في أكمامها استظر كم أهدروا من شعوب أديمتها كم أيقضوا فتتا؟ كم أفسدوا و قطروا؟ توارت العرب الأحرار وحدثهم مدى عصور وأجيال و أزمان حتى إذا جاء الاستعمار قسمها إلى شعوب وأقوام وأوطان . اضرب خيامك في دنيا وجونك لا تقف بها عند رسم الدار و الدمن و ادفع بناقتك الميدان أسبق من ربح الصحاري و نقد وحدة الوطن يا أيها العربي انظر لعصرك في دنيا يفوز بها من أحكم النظر بالسلم بالعدل تبني ما تأمله إن شئت للأرض عمرانا فكن عمر.

- 1- RICHARD NIXON: SEIZE THE MOMENT, New York 1986, pM39-54. -1
(انتهزوا الفرصة)
- 2- صامويل هنتنغتون: أسدًا في جامعة هارفرد الأمريكية، قد العود السياسية- و مدير معهد (جون ويلز) الدراسات الاستراتيجية.
طرح أفكاره عن صراع الحضارات في القرن الجديد على شكل مقال في مجلة الشؤون الخارجية FOREIGN AFFAIRS عام 1993، تحت عنوان "صدا الحضارات
(THE CLASH OF CIVILIZATIONS)، ولقد أثرت تلك المقالة عاصفة من النقد و اندلعت التي أبرزت نقاط الضعف فيها . فعاد - هنتنغتون - إلى منتقديه بطرح موسع لفكرته الأصلية في كتاب بالمعنوان نفسه، و لكن بشيء من التوسع و التعقيد .
- أسندت له مسؤولية قد التحليل و الاستشراف في مجلس الأمن القومي الأمريكي.
- 3- ينظر: قاموس أكسفورد الحديث، مطابع جامعة أكسفورد 1999، ص 128
- 4- قاموس أكسفورد الحديث، المرجع نفسه، ص: 745
- 5- مالك بن نبي: افق جزائرية، دار الفكر - دمشق . سوريا، ص 46، 47
- 6- SAMUEL P. HUNTINGTON- THE CLASH OF CIVILIZATIONS AND THE REMAKING OF WORLD ORDER- NEW YORK Simon and Schuster 1966 p189. -6
صامويل هنتنغتون: صدام الحضارات، مركز الدراسات الاستراتيجية و البحوث بيروت لبنان ص 19
- 7- صامويل هنتنغتون، المرجع نفسه ص 19
- 8- المرجع نفسه ص 294
- 9 10 - المرجع نفسه ص: 21 وما بعدها.
- 11- جودت سعيد و عبد الواحد علواني : الإسلام و الغرب و الديمقراطية، دار الفكر، دمشق . سوريا، ط 1 . 1996م /1417هـ . ص 29
- 12- صامويل هنتنغتون، المرجع السابق ص: 23.
- 13- الكونفوشيوسية؛ نسبة إلى كونفوشيوس 479/551 ق م، للتوسع عن الكونفوشيوسية يراجع: سعد الدين و هبة، نصف قرن في الصين، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 1، 1980
- 14- مرجع نفسه، ص: 38 .
- 15- مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق . سوريا 1984م . ص: 300.
- 16- صامويل هنتنغتون، المرجع السابق، ص: 306 وما بعدها.
- 17- المرجع نفسه، ص: 198
- 18- ينظر: المهدي منجرة الحرب الحضارية الأولى مكتبة الرحاب- الجزائر . ص: 140
- 19- صامويل هنتنغتون؛ المرجع السابق، ص: 261
- 20- المرجع نفسه، ص: 282
- 21- المرجع نفسه، ص: 280

- 22- ينظر: نجيب غصبان: صدام الحضارات و إعادة صياغ النظام العالمي، مجلة المستقبل العربي، العدد 226، الشهر 12 / 1997 ص: 144
- 23- للتوسع ينظر أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر ط1 ج: 8، ص: 35، 36.
- 24- للتوسع حول مفهوم الجهاد في الإسلام يراجع: محمد سعيد رمضان: الجهاد في الإسلام، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 2، 2000 م .
- 25- للتوسع ينظر أحمد شلبي: العالم الإسلامي و أفق القرن الواحد و العشرون، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة، مصر، ط: 1، 1995، ص: 24
- 26- مراد هوفمان: مفكر إسلامي كان يعمل سفيرا لبلاده ألمانيا لدى كل من الجزائر و المغرب.
- 27- مراد هوفمان: الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود، تعريب: عادل المعلم و يس إبراهيم، مكتبة الشروق، القاهرة، ط1، 2001م ص: 160
- 28- هنتنغتون: المرجع السابق ص 339
- 29- نقلا عن محبوب عمر: الإسلام و الغرب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1995 ص: 14 و ما بعدها .
- 30- باول شمتر : الإسلام قوة الغذ العالمية ، ترجمة محمد شلبي ، مركز الحضارة العربية، القاهرة مصر 2001. ص: 19
- 31- مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا 1981. ص: 157 .
- 32 - محمد إقبال: ديوان محمد إقبال، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة.

واقع العالم الإسلامي والطرق السريعة للمعلومات

الأستاذ عبد الله الثاني قدور

قسم علوم الإعلام والاتصال جامعة وهران

يبرش العلماء بأن هذا القرن الجديد، القرن الواحد والعشرين سيشهد ثورة حقيقية في نظم الاتصالات الفضائية، وتكنولوجيات الإعلام والاتصال، ولا شك أنه في ظل تنفق المعلومات الإلكترونية عبر الطرق السريعة للمعلومات والأقمار الصناعية، تؤدي إلى تغيير مفاهيم الحياة البشرية بصورة جذرية خلال العقود القادمة. وإن إنشاء شبكة الإنترنت في أحضان وزارة الدفاع الأمريكية لها أكثر من دلالة، وخاصة أنها ثمرة الحرب الباردة وشهادة على تفوق الغرب وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، وما إيجاد الطرق السريعة للمعلومات في الدول الغربية إلا ضمان لسرعة الاتصالات وتنفق الأخبار والمعلومات، ومجال خصب لاستثمارها في مجال الإعلام والاتصال وفي سنى مراكز البحث والتوثيق. وفي سنة 1993 تجد نائب الرئيس الأمريكي (القرور)¹ يعلن عن أكبر مشروع لإنجاز الطرق السريعة للمعلومات، تحت عنوان (البنية الأساسية الوطنية للإعلام)². وهدفه الأساسي في ذلك الوقت، أن يشترك 90% من المواطنين الأمريكيين في شبكة الإنترنت³ قبل سنة 2000. وفي نفس هذا الاتجاه شرع الكنديون والأوروبيون في التشاور وما زالوا يواصلون مشاوراتهم منذ سنتين للاتفاق على أرضية لوضع برامجهم وإقامة أعمالهم في هذا الميدان⁴.

أما البلدان العربية والإسلامية فإنها مازالت تراوح مكانها، ولعل ذلك يعود لشعورها بالإحباط بعد إخفاق جهودها خلال العقود القريبة الماضية. وخاصة الإرث الكبير من الهزائم المتتالية، إذ كانت تسعى بكل حماس إلى إقرار نظام اقتصادي دولي جديد وما كان ينبغي أن يترتب عليه من اختيارات حاسمة في مجالات الإعلام والاتصال ومن حسن الحظ فإن بعض البلدان العربية لم تبال بالصعوبات، وأقدمت على خوض معركة التنمية على الرغم من قلة إمكانياتها فجمعت كل ما لديها، وجعلت من ضعفها قوة حيث نراها اليوم تحقق نتائج إيجابية في هذا الميدان، بحيث تجاوزت مخلفات الأزمات المتعددة، التي تعيشها⁵. فإن الطبقة المثقفة في الدول العربية قد أدركت أهمية الرهان في مجال التكامل بين

الإعلام والتنمية المستدامة، وتلك من أجل وضع استراتيجيات متكاملة والانصهار في المشروع الكوني الهادف إلى بناء مجتمع جديد قوامه الإعلام بوسائله المختلفة ومضامينه المتعددة⁶.

• الطرق السريعة للمعلومات

وتسعى البلدان الصناعية الكبرى لتسخير الطاقة الهائلة للألياف الضوئية وتوسيع خدمات الاتصالات ونقل المعلومات أضعافاً مضاعفة، وبأخص التكاليف من خلال الأقمار الصناعية التي تسير في مدارات متفاوتة حول الأرض، ويتخوف العلماء من أن تؤدي هذه النظم المتعددة من الاتصالات في المستقبل إلى حدوث إرباك وتشابك بين الخدمات عبر الأقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية ومثلها بالألياف الضوئية إضافة إلى الكابلات الأرضية⁷. لذلك يتطلب الحال عقد بروتوكولات فنية لتنظيم هذه الفعاليات في نقل المعلومات بكفاءة وجودة، ولتوفير متطلبات القرن الحالي أيضاً يسعى المهندسون لأبتكار أعمار صناعية جديدة تعمل بأفاق واسعة يمكنها من اعتماد الألياف الضوئية والكابلات الأرضية معاً في خدمات الاتصالات لتوسيع قدراتها إلى 1000 ضعف مما هو متوفر في عقد التسعينات من القرن الماضي⁸.

وينتظر العلماء إلى المستقبل، بناء شبكات الاتصالات الشاملة بأقل التكاليف، وذلك بإرسال أقمار صناعية إلى الفضاء يمكن إعادةتها إلى الأرض نصيانتها وبرمجتها ثم إطلاقها للفضاء مرة أخرى. وهذه التكنولوجيا المستقبلية يخطط لها من خلال أربعة مشاريع مختلفة:

- إرسال مركبات فضائية تعمل بغاز الهليوم ويقودها الرجل الآلي.
- تسيير أقمار صناعية تعمل بالخلايا الشمسية.
- تشغيل مركبات فضائية تعمد بالدفع النفاث.
- إرسال أقمار صناعية بقوة إطلاق مباشرة⁹.

ومن خلال هذا التطور التكنولوجي الهائل، كان لابد من وضع هذا المشروع الضخم الذي يعتد مصطلح (مجتمع المعلومات)، وهدفه في ذلك مستقبلاً، هو إرساء تنمية مستدامة لمختلف المجتمعات، وفي كل القارات. فإن الطريق السريع كما يعرفه كثير من المختصين، هو نتيجة لقاء المعلوماتية والتلفزيون والياتق، وذلك بمزج الصور المتحركة مع الصوت والنص المكتوب والمعطيات المختلفة، وهي على استعداد للدخول إلى كل البيوت بواسطة شبكات الإنترنت ذات

رفعة عريضة وخلال جهاز الملتيميديا (أي المطراف الشامل لمختلف الوسائط الإعلامية)¹⁰.

وتجد هناك تباينا ملحوظا، ووجهات نظر مختلفة، حول تسمية هذه الطرق السريعة للمعلومات وتحديد أهدافها. سواء كان ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية، أو في أوروبا أو اليابان. ومما يلاحظ حول التسميات المتصلة بهذا المفهوم هو تعددها وتنوعها، فمنها:

• الطريق السريع الرفيع الأمريكي للإعلام.

• الطرق السريعة الأوروبية للاتصال.

• الطريق السريع الإلكتروني الياباني.

ويقتضي بناء هذه الشبكة العظيمة وجود إمكانات كبيرة وأموال ضخمة لإنشاء البنية التحتية، وصناعة وسائل الاتصال وإنتاج البرامج والمضامين الكثيرة، التي ستغلها تلك الوسائل المختلفة. عبر شبكة الانترنت Internet حسب التصور الأمريكي. وبذلك يصبح النفاذ إلى المعلومات يسيرا جدا ومؤمنا إذ يمكن الحصول عليها في كل مكان بأقل التكاليف وبالعديد من الوسائل ومن خلال مختلف الشبكات.

• إعطاء الدفع للإنتاجية وتنشيط الابتكار والإبداع وتنمية الخدمات وتطوير التشغيل، علاوة على تحسين البرامج الترفيهية التي تتجدد رفعة بصور الواقع الافتراضي image virtuelle.

• تعميم التعليم عن بعد والبحث العلمي والإبداع الفني لفائدة البشرية قاطبة، بالمدارس والجامعات الافتراضية virtuelle. ضمانا لسلامة المعلومات وشبكات التوزيع. وحماية حقوق الملكية الفكرية.

• تشجيع الاستثمار الخاص من خلال التراخيص التشريعية والإعفاءات الجمركية، والحث على المبادرة في مستوى المجموعات المحلية والجماعات الأكاديمية والغرف التجارية.

• التفاوض مع الدول الأخرى لتنسيق المبادرة والإشراف على وضع الاتفاقيات الدولية، والسير على تماسك العمل بين القطاعات الكبرى.

• الإعلام والاتصال والطرق السريعة للمعلومات

لا أحد يستطيع إنكار أهمية الإعلام والاتصال، وخير دليل على ذلك ما نراه في عصرنا الحاضر، حيث تنقل هذه الوسائل مكتوبة كانت أو مسوعة أو مرئية، الخير الصحفي والإذاعي من أقصى العالم إلى أقصاه بنمح البصر. ولم

يقتصر هذا النقل على الخبر بل تعداه إلى نقل المعلومات الثقافية ونشرها بالتعليم والتوعية والتوجيه والإرشاد في كافة الميادين، وتقديم المواد المسلية المفيدة الهادفة، وغرس بعض العادات والتقاليد وإكساب المهارات.

وأمام هذا التطور الكبير كانت شبكة الإنترنت Internet أقدر وسيلة إعلامية عرفها الإنسان حتى الآن. بحيث أنه جمع بين الصوت والصورة وبذلك يستطيع السيطرة على حاسني البصر والسمع، وهما من أهم الحواس. لقد أصبحت من أخطر وأهم أجهزة الاتصال الجماهيري في هذه الأيام، إذ قلَّ أن نجد بيتاً، في جزء من العالم — سواء كان غنياً أو فقيراً — يخلو من هذا الجهاز. فقد أصبح عين الإنسان وأذنه في هذا العصر، واستقل هو وغيره من وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري المرئي المسموع لترويج صناعة مربحة هي صناعة الثقافة¹¹. وقد أدى هذا الإعلام دوراً هاماً في تطوير المجتمعات البشرية وفي تغيير سلوك الأفراد، وفي تنويع الصلوات التي تربط أفرد هذه المجتمعات فيما بينها¹²، وخاصة إذا علمنا أن هذا الإعلام سيف ذو حدين، حيث يمكن لوسائله المنتشرة أن تكون أداة استتياض ورقعة أو أداة انحطاط وتخلف. وأن يكون الاهتمام بالهوية العربية والإسلامية هما وطنياً لا يسمح بالاعتداء عليه ممن سال لعابهم لكسب المال دون شعور بالمسؤولية¹³. ولكن رغم هذا نجد أن المادة الإعلامية الموجهة إلى أجيالنا، من أخطر الصناعات الإعلامية في العصر الحالي، ومن أكثر الصناعات التي تشهد إقبالاً من طرف المستثمرين وشركات الإنتاج العالمية.

من أهم مظاهر ثورة وسائل الإعلام والاتصال تطور التكنولوجيا الرقمية التي ساهمت في قلب المشهد التلفزيوني كلياً. فبات إنجاز نظام (ضغط المعلومات) يسمح بتعدد القنوات التي يصل إليها المشاهد بواسطة اشتراكات شبكات كابلية أو (باقات رقمية). ونتوقف عند هذا التحول نحو التلفزيون (الاختياري) الذي يتنافس أكثر فأكثر التلفزيون (الشامل) لأنه يمثل بالنسبة إلى الباحثين الاختصاصيين موضوع جدل وتساؤلات كثيرة تدور حول نتائجه الاجتماعية المحتملة: يتناول دومينيك فولتون في دراسته هذه النتائج مركزاً على خطر (التفريد) الذي يشكله هذا (التلفزيون الجديد) في نطاق الخلايا الأسرية وفي المجتمع ككل¹⁴.

وهذا التطور التكنولوجي المتسارع في وسائل الاتصال طور وظيفة العلاقات العامة، وجعلها تتميز بالسرعة والغزارة وسعة الانتشار. ومن الأمثلة على ذلك تطبيق العلاقات العامة في هذه التكنولوجيات المعاصرة وما تشهده اليوم من استخدام كبير للوسائل الإلكترونية في العالم وبسرعة فائقة.

ومنها الصحافة الإلكترونية وحيثما الرقمي، في حين تجد محاولات محتشمة لبعض الصحف العربية في الاستفادة من هذه التكنولوجيات الحديثة في جعلها إلكترونية، غير أنها اقتصرت على عملية التصوير الإلكتروني للجريدة ليس إلا.

إن معظم الصحف والمجلات و الجرائد العالمية ، أصبحت تحت أمر الفأرة ولوحة أزرار الكمبيوتر، وانتقلت من عالم واقعي تحكمه القوانين والقيود ومشاكل السحب والتوزيع إلى عالم افتراضي (virtuelle) وقضاء معلوماتي عتري الأطراف، يمكننا من قراءة الجرائد والمجلات وزبارة مواقع المحررين والتحاور مع الصحفيين في أطراف العالم، ونحن في غرفنا قابعون. وكل ذلك بفضل اختراع التكنولوجيات الحديثة في الإعلام والاتصال التي تنطلق من مرتكزات العالم الغربي وثقافته التي تقوم على احترام عتدا الزمن(الوقت من ذهب)¹⁵

إن الصحافة الأوروبية وجدت ضالتها في شبكة الإنترنت من خلال توقع أكثر العناوين على الخط الإلكتروني ، فحسب الجمعية¹⁶ العالمية للجرائد لنول أوروبا الخمسة عشر، أن هناك من بين 1217 يومية تصدر في أوروبا ، 646 يومية موجودة على الخط الإلكتروني، وتحتل ألمانيا الصدارة ب179 موقعا من بين 387 يومية صادرة باللغة الألمانية. إلا أن المجلات - حسب الجمعية - هي أكثر عتدا من اليوميات ، وأقل مغامرة في مواقع الإنترنت، ربما لاستقانتها الكبيرة من عائدات الصفحات الإشهارية الملونة، غير أن اليوميات استطاعت أن تتسجم بسهولة مع هذا الحامل الجديد ، لأن سرعة شبكة الإنترنت قريبة من الثقافة الصحفية التي تعتمد كثيرا على الحدث، ذلك أن للإنترنت.

الشبكة الإلكترونية جمعت بين ثلاثة {w}

Word Wide Web أي الأسئلة الرئيسية المتبنذة من طرف جميع

صحفي العالم مع الخمسة {w}

and how What When Where What

وهذا المزج أعطى شبكة الإنترنت القدرة الفائقة على النشر والإشهار في وقت قياسي للمعلومة وتخزينها، ومن هنا كانت الإنترنت، بدون شك الحامل الإعلامي الأول القادرة على الإجابة عن جميع هذه الأسئلة¹⁷.

أما الصحافة الأمريكية فهي السبابة في الالتحاق بشبكة الإنترنت فمنذ 1970 نجدها تجيزت بالإعلام الآلي، وشرعت في إنجاز رقمية المقالات منذ

1980. وحسب الجمعية الأمريكية¹⁸ للصحافة فإن مواقع اليوميات تضاعفت من 953 موقعا في 1997، إلى 1489 موقعا في سنة 1999.

• الخدمات الضرورية والطرق السريعة للمعلومات

إن التعليم والصحة والإعلام مثلا، وغيرها من الخدمات الضرورية للمجتمعات تتم بسرعة وكفاءة عالية بفضل الاتصالات الفائقة عبر الأثير. أما شبكة المعلومات فستنتشر إلى أفق أبعد و أشمل لتغطي جميع الميادين التجارية والصناعية والزراعية والعلمية والترفيهية. فخلال السنوات الخمس القادمة ستنتشر في الفضاء شبكة من الأقمار الصناعية يصل عددها إلى ألف وتعمل في مدارات مختلفة، وتيسر مدى هذه الشبكات السريعة ذات الرقعة العريضة، والربط بينها على أوسع نطاق عالمي، وخاصة ولنا الآن في مرحلة الانتقال إلى مجتمع المعلومات¹⁹.

ولتحقيق مفهوم مجتمع المعلومات يجب التأكيد على زيادة الوعي الثقافي وتحديث التعليم الذي يعتبر نقطة البداية الحقيقية لأي تنمية شاملة.. سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا.. لذا فإنه من الطبيعي أن تتغير أشكال التعليم وتتطور مع تصاعد التطور التقني، ولا بد أن نتجه البلدان العربية إلى تطوير العلاقة بين التعليم ومقاهيم تكنولوجيا المعلومات²⁰، لأن الاختلال في التوازن يتزايد يوما بعد يوم في كل البلدان العربية بين الحاجات والإمكانات المتوافرة في مجالات التعليم والتدريب المهني وأصبحت نسبة 6% من الناتج الداخلي الإجمالي التي خصصها بعض البلدان للتربية غير كافية على الإطلاق، وتقتضي تلبية الحاجات مضاعفة هذا الجهد، أي تخصيص 12 % لإدخال وسائل تربوية جديدة والاستجابة لرغبات العدد المتزايد من المتعلمين²¹. وتطوير أنظمة التعليم في كل المستويات بالإقبال على التلفزيون التربوي والإكثار من وحدات التدريب عن بعد بالمدارس والجامعات الافتراضية. وذلك لفائدة الطلبة الذين يجدون أنفسهم مضطرين إلى البحث عن مقعد في إحدى المؤسسات الجامعية مباشرة بواسطة الأقمار الصناعية والتحاوور عبر الشاشات الالكترونية مع الكفاءات العلمية ذائعة الصيت. وذلك بتحمل التعاون العربي ودولي بتمويل نفقات الاتصال عن بعد، بنقل مباشر للدروس الجامعية بالصوت والصورة وذلك من خلال .:

1. تغيير مناهج التعليم لمواكبتها مع المفاهيم الجديدة لعصر المعلومات، وإدراك المتغيرات العالمية. وتصور برامج تربوية وتعليمية مستمدة من ثقافات متعددة وفائدة الجماعات والمؤسسات الصناعية الصغرى المتوسطة.

2. تطبيق مفاهيم وأساليب جديدة للحصول على المعلومات، مثل تكثيف المكتبات الإلكترونية والربط بينها وتوظيف التقنيات الحديثة في إثراء المتاحف وقاعات عرض الفنون، وتطبيق شبكة الأبحاث العلمية والتكنولوجية الإلكترونية وكذلك مفهوم التعليم عن بُعد والتعليم مدى الحياة.
 3. تحسين التعليم المتقدم في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات للحصول على مهنيين ذوي المهارات العالية في هذا المجال.
 4. وإحكام تبادل المعلومات حول محيط والموارد الطبيعية للمزيد من الاستفادة العلمية للتلاميذ والطلبة.
 5. المساعدة على إيجاد شبكة عالمية لمواجهة المخاطر ومعالجة الحالات الاستعجالية.
 6. التعميم على مستوى عالمي للتطبيقات الجديدة في النظام الصحي والاستمقاء عن بعد.
 7. تكثيف الإعلام الحكومي والاجتماعي لتيسير التعامل بين الإدارة والمؤسسة الاقتصادية والمواطن.
 8. إيجاد فضاء مشترك بين المؤسسات الصغرى والمتوسطة لتبادل المعلومات والاستفادة منها على أوسع نطاق عالمي، وهذه هي الرؤية العامة لمشروع الطريق السريع للإعلام.
- و سيساهم ذلك في توفير فرص أفضل للتعليم بكافة مستوياته وفرص المشاركة بالدراسات والأبحاث العلمية والاستثمار الأمثل لنتائج الأبحاث والدراسات .

• الطرق السريعة للمعلومات والعالم العربي الإسلامي

إن الثورة التكنولوجية وعصر المعلومات والعولمة والصحافة الإلكترونية²² والطرق السريعة للمعلومات، قد غيرت العالم جذريا²³، ولم يقتصر هذا التغيير على طبيعة الدولة القومية بل تجاوزه إلى السلوكيات والقيم الاجتماعية للبشر إن لم تكن قد قلبتها رأسا على عقب. ولا أحد يتنبأ باتجاه تطور الأوضاع الحالية وإلى أين تتجه؟ فكل تطور يحمل داخله نقيضه وبذور فناءه، ويعود هذا أساسا إلى أننا نعيش حاليا بدايات عصر جديد ولا نزال نتعرف على كنيته ومقدماته، وإن كانت تأثيراته لا تخفى على أحد.

شبكة الانترنت تدفع الحياة إلى ما وراء الحواجز الطبيعية القديمة للزمان والمكان إذ يوسعك أن تتجول بواسطتها في دول العالم دون مغادرة منزلك. فينو

عبارة عن عالم افتراضي يسمح لنا بارتداد عالم وهمي مترامي الأطراف وبالإبحار في داخله دون قارب نجاة. فالكثيرون منا لا يمارسون الرياضة لكنهم يعشّون مشاهدة الرياضيين الكبار أصحاب القدرات البدنية الهائلة فهناك الحب الافتراضي والجنس الافتراضي، والحوار الافتراضي، والموسيقى الافتراضية²⁴.

إلا أن العالم العربي الإسلامي مازال يتخبط في مشاكله المعقدة والمقتعلة في أكثر الأحيان وهو بعيد كل البعد عن هذه الثقافة [ثقافة الوقت من ذهب] ومازالت شعوبه تفكر كيف تقفل الوقت في المقاهي والنوادي والملاعب وغيرها.. رغم أنها لمة قال فيها المولى نبارك وتعالى: {إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا}²⁵ ثم إن الإنشائية ليست في نقل هذه التكنولوجيات المعاصرة والتباهي بها وإنما في الاستفادة منها واستثمارها في بناء صرح المشروع الحضاري والنصدي للهيمنة الغربية، والتركيز على عامل الوقت وأهميته في الالتحاق بالركب الحضاري لإضفاء قليل من المهابة على أمتنا المجروحة.

وإذا كان البعض يتخوف من إفرازات هذه الحضارة التكنولوجية وشبكة الأنترنت وهو محق في ذلك، خاصة إذا علمنا أن هذه الأخيرة وهبنا لنا البنتاغون على طبق من ذهب، بابها فيه الرحمة وظهرها من قلبه العذاب. فتجد العالم الغربي من جهة يبعث لنا بالملايير من الصور والأفلام الإباحية التي تسبح بدون رقيب في شبكة الأنترنت، بالإضافة إلى المواقع العاجنة المبحرة لإفساد شباننا. ومن جهة أخرى نلاحظ هذه الدوائر الكبرى تقوم بمراقبة المعلومات والأبحاث في شتى المجالات لعلمائنا الأجلاء، وعلماء العالم الثالث على الخصوص في مراسلاتهم اليومية عن طريق البريد الإلكتروني والمواقع العلمية والتقنية المختلفة وذلك بتخزينها واستثمارها في مجالات علمية وتكنولوجية للزيادة في الإردهار والتطور، وللتحكم أكثر في البلدان الضعيفة واستلاب خيراتها عن طريق ملفات استكشافية ومحركات بحث حد منطوقة.

فقبل اختراع شبكة الأنترنت كان هناك ما يسمى بهجرة الأدمغة، إذ نجد الدول المنطوقة تدفع مبالغ خيالية لجلب هذه الأدمغة واستثمارها والاستفادة منها، أما الآن فكل شيء أصبح مشاعا عن طريق الأنترنت وبدون حش يذكر. فمن هنا نجد أن هذا التخوف مشروع لأنه يهدد الثقافات المحلية ويمس العقيدة في الصميم وذلك من خلال الهيمنة المطلقة للإعلام الغربي والشبكة الإلكترونية²⁶، رغم أن هذا التطور يمنح وسائل إعلامنا هامسا من الحرية والديمقراطية غير المسبوقة.

وليس من سبيل آخر لنا إذا أردنا الخروج من هذا النفق المظلم بأقل الخسائر الممكنة إلا من خلال ثلاثة طرق²⁷:

1- الطريق الأول: لابد من شحذ الهمم للأمة العربية الإسلامية والعمل على تعزيز التعاون الدائم والمُشترك فيما بين دولها وتوحيد الرؤى والمواقف من أجل إقامة نكثل ثقافي وإعلامي جيوي²⁸ يحد من الآثار السلبية للهيمنة الاستعمارية الجديدة العمئة في وحيذ القرن.

2 - طريق الثاني: لا يقل أهمية عن الطريق الأول بحيث يركز هذا الإعلام على أساس {الإعلام من أجل التنمية المستدامة}²⁹ بحيث يهدف إلى الإسهام في تطور المجتمع وترقيته وتنميته من خلال تحسيس ودفع القراء والمستمعين والمساهمين والمبشرين إلى إبراز مدى خطورة مشكلات التنمية وجديتها وإلى التفكير في إيجاد حلول لها تمكنهم من تحطى عبئة التخلف التي تعيش في مساوئها غالبية شعوب مجتمعاتنا³⁰.

3- الطريق الثالث: وهو الطريق الأساسي والمعوول عليه لإعادة المجد للثريد والحضارة الضائعة، وذلك باستغلال شبكة الإنترنت والصحافة الإلكترونية في التفكير في منظومة تربوية موحدة على شكل برنامج ثقافي إلكتروني افتراضي على شبكة الإنترنت لتكون بيا جيلا من الشباب العربي الإسلامي على مستوى جميع أوطاننا، موحدا في أفكاره، مهتما بمستقبله، مقتسا لمبادئه ومتركا لقضاياها، وتبدأ من مرحلة التعبير الواقعي بين السن (11، 13)، تقوم بيا الجامعة العربية أو منظمة الدول العالم الإسلامي، وتقوم بالترويج لها في أجهزتنا الإعلامية المرئية والسعوية والمكتوبة³¹.

الهوامش:

¹ Information superhighways Al gor - وهو صاحب فكرة الطرق السريعة للمعلومات

² أ. لطيف علي، اتصالات فضائية لقرن جديد، مجلة العربي، الكويت، العدد 495، سنة 2000، ص 25

³ - المرجع نفسه، ص 35.

⁴ د. مصطفى مصمودي، المجموعة العربية والطريق السريع للمعلومات، العربي، الكويت، العدد 440، سنة

1995، ص 32.

⁵ المرجع نفسه، ص 32.

⁶ المرجع نفسه، ص 34.

⁷ ميشيل لانغفورد، تز - حين الأشرار - التصوير الضوئي المتقدم، دار النشر، ط 1، 1999، ص 121.

⁸ أ. لطيف علي، اتصالات فضائية لقرن جديد، مجلة العربي، الكويت، العدد 495، سنة 2000، ص 25.

⁹ المرجع نفسه، ص 26.

¹⁰ المرجع نفسه، ص 33.

¹¹ جمال النجار - إستراتيجية الإعلام الإسلامي، دار السعادة، القاهرة، ط 1، 1995، ص 115.

¹² د. زهير الحداد، منهل لعلوم الإعلام والاتصال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 2، ص 13.

¹³ إيمان حلاق، الإعلام العربي بين البناء والهدم، www.google.fr

¹⁴ مكي العبد الله، ثورة وسائل الإعلام والاتصال، التحولات الكبرى ونتائجها،

Elsouhof.www.google.fr

فتور، عبد الله ثاني: فن الزخرفة الإسلامية، وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 1، سنة 2000م، ص 74

— www.wan-press.org —

¹⁷ la presse sur Internet

¹⁸ — NAA - Newspaper Association of America

¹⁹ جمال النجار - إستراتيجية الإعلام الإسلامي، دار السعادة للطباعة، القاهرة، ط 1، 1995.

²⁰ ورقة عمل دولة الكويت إلى القمة العالمية لمجتمع المعلومات، htm.www.google.fr

²¹ د. مصطفى مصمودي، المجموعة العربية والطريق السريع للمعلومات، العربي - الكويت، العدد 440

سنة 1995، ص 32.

²² — NAA - Newspaper Association of America —

— د. سليمان إبراهيم العسكري، إعلام العولمة: قيم جديدة.. أم تكفاه عن ذات، مجلة العربي، الكويت،

العدد 517، ديسمبر 2001، ص 11..

²⁴ — المرجع نفسه، ص 10

²⁵ سورة النساء، الآية.

— د. سليمان إبراهيم العسكري، إعلام العولمة: قيم جديدة.. أم تكفاه عن ذات، مجلة العربي، الكويت،

العدد 517، ديسمبر 2001، ص 11

— فتور، عبد الله ثاني: فن الزخرفة الإسلامية، وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 1، سنة

2000م، ص 54.

²⁸ — نبيل علي، الإنترنت: حديث النعم والسقم، مجلة العربي، الكويت، العدد 496، 2000، ص 32.

— فتور، عبد الله ثاني: فن الزخرفة الإسلامية، وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 1، سنة

2000م، ص 76.

³⁰ — المرجع نفسه، ص 78.

³¹ — المرجع نفسه، ص 79.

واقع الدين في المجتمع الجزائري

الأستاذ الطاهر سعود

جامعة فرحات عباس. سطيف

I- الدين.. الدين.. والفكر الاستشراقي:

تموج ساحة الأفكار-والإنسانية تعيش السنوات الأولى من الألفية الميلادية الثالثة- بطروحات متنوعة تحاول كلها أن تستشرف أفاق ما سيكون عليه العالم وكيف ستكون معالمه المستقبلية، فبعد طروحات حوار الحضارات التي دعا غارودي من خلالها إلى تفاعل تكاملي بين الحضارات والثقافات، وبعد طروحات ألفن توفتر عن حضارة الموجة الثالثة، برزت كتابات جديدة نالت من الاهتمام والنقد حظا وقيرا، لعل أبرزها طروحات فوكوياما حول نهاية التاريخ *The end of history* التي أشاد وبشر فيها بالليبرالية والديمقراطية الغربية كنظام ومنظومة قيم عالمية ستحتكم إليها كل المجتمعات الإنسانية بعد أن سقطت بدائلها الاشتراكية والغاشية والقومية... إلا أنه ما كاد نموذج نهاية التاريخ ينتشر حتى خرج صامويل هنتنغتون بأطروحاته حول صدام الحضارات *The clash of civilisation* قلب فيها التصور الفوكويامي ليؤكد في صيغة استشراقية على أن القرن القادم (أي القرن الحادي والعشرين الذي مضى منه لحد الآن ثلاث سنوات) سيكون قرن الصدام بين الحضارات. هذا الطرح الذي غدت له جاذبية خاصة بعد للتجبرات الساخنة التي استيقظ عليها العالم صباح الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، تلك التي اعتبرها كثير من المحليين أولى حروب القرن والألفية الجديدة ونموذجا واقعا (تطبيقيا) للصدام الحضاري.

لقد أعطت بعض هذه الطروحات وغيرها لظاهرة مهمة برزت بشكل لافت للانتباه في الثلث الأخير من القرن العشرين مداها من الاهتمام؛ بحيث تكاد تتمحور حول بيان خطر النزوع الديني (الدين) على مستقبل الزيادة الغربية للعالم المعاصر، فصدامات المستقبل ستكون صدامات حضارية ثقافية تتلخص أسبابها في للفروق الأساسية بين الحضارات، إذ يؤكد هنتنغتون أنه في النزاعات الأيديولوجية محللة الإحباء، العدد الثامن، 1425هـ، 2004 م. 435

التي خيرتها الإنسانية كان السؤال هو إلى أي حائب نفق؟ أما في نزاع الحضارات (المستقبلي) فالمسألة هو من أنت؟ بالإضافة إلى سدة التفاعل الحضاري في العالم المعاصر الذي كثفت من وطأته تكنولوجيا الاتصال الحديثة، وعمليات التحديث الاقتصادي والتغيير الاجتماعي التي فصلت الفرد عن جذوره وخلقت لديه كرد فعل فكرة النزوع الديني والعودة إلى الموروث الثقافي الأصيل.

وإذا تجاوزنا هذه الطروحات الاستشرافية التي تحاول بالخصوص إبراز الخطر المتوقع من طرف ما سماه هنتغتون الرابطة الكونفوشيوسية-الإسلامية، هذه الأخيرة -وفي شقها الإسلامي خاصة- التي أبرز ما يميزها هو ميلاد الحركات الأصولية *Les mouvements fondamentalistes* والجماعات الراديكالية التي تحاول الرجوع بمجتمعاتها إلى أصولها الإسلامية وتوظف الدين كمسوغ لجهودها، وتسلك في ذلك بعض المسالك المهددة -حسب هنتغتون- لأمن الغرب ونفوذه الكوني، وهي الظاهرة التي ياتت تُعرف بالخطر الأصولي أو الخطر الأخضر.

إذا تجاوزنا كل ذلك فإبنا -وبدل هذه النظرة المنحرفة- يمكن أن نؤكد على أن محاولات العودة إلى الأصل والرجوع إلى الدين قد عنت ميزة ليست خاصة بالعالم الإسلامي وحده وإن تم التعبير عنها في بعض الأحيان بكيفيات راديكالية، بل إن نزعة التدين قد عنت أهم ميزة تولد من رحم الحضارة المعاصرة نفسها -في أحضان المجتمعات الغربية التي يتخوف مفكروها وعلماء مستقبلاتها من خطر التدين الإسلامي الموسوم لديهم بالأصولية والراديكالية- بعدما غالت هذه الأخيرة في نظرتها إلى الإنسان على كونه مادة فحسب ينبغي إشباع رغائبها ومتطلباتها، حتى أصبحنا نسمع الكثيرين يرددون بأن القرن الحالي سيكون قرن الروح أو قرن التدين. فظاهرة التدين -التي سنخصصها نمزيد عنالية واهتمام في هذه المداخلة- مست الشريعة قاطبة سواء في المجتمعات الغربية التي حققت أعلى معدلات للضمانات الاجتماعية، أم على صعيد المجتمعات المتخلفة، بل حتى على صعيد المجتمعات التي ناصبت الدين العداء وطردته من مجال الحياة الاجتماعية والاعتقاد القلبي. فحواء البطون أو أمثلاؤها لا يعنى عن الروح شيئا.

فعلى صعيد العالم الغربي نلمس ذلك الإقبال على الدين (ولو بدرجات متفاوتة) هروبا من النزعات المادية والوجودية والعدمية والفلسفات الإلحادية التي

غنت فراغ الإنسان الغربي في مجتمع الإنتاج والاستهلاك الوفير الذي حققته له حضارته الفلوسفية.

أما على صعيد العالم الإسلامي فقد ظهرت تلك اليقظة الروحية منذ ما يزيد عن الثلاث أو أربع عقود تحت وطأة التجارب الفاشلة للتنمية والتحديث والبدائل الشرفية والغربية التي وعدت إنسان هذا العالم بجنتها الأرضية، فإذا كل تلك الوعود بحياء كريمة تغنو أحلاما زائفة، أساءت للمادة فأهدرت مقدرات الشعوب، وعيبت الروح فكانت أن تمسخ الإنسان، فاستيقظ العالم الإسلامي على ظاهرة الصحوة الإسلامية تلك التي تعد في جوهرها نزعة نحو العودة إلى الجذور أو بكلمة أخرى نزعة نحو التدين.

لقد غنت ظاهرة الصحوة والتدين طيلة الفترة السابقة -ولا تزال- أحد أبرز الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن نلمس تحولاتها الواقعية في العودة للكثيرة لقطاعات واسعة من الناس إلى الدين، وفي الممارسات الفردية والجماعية للشعائر الدينية، وفي زيادة كم المساجد والمراكز الدينية، ولذوات التوعية والاتصال والعودة، وكم ونوع الكتاب النثني المطبوع والمباج، وعدد المؤتمرات والندوات الفكرية التي تعنى بالبحث في حقائق الدين وتجلياتها... وتشكل رأي عام عريض من العامة والمثقفين مناصر لقضايا الإسلام ومبادئه، أصبح يطالب بتحكيمها في واقع المجتمعات الإسلامية.

إلا أن هذه الصحوة اعتورتها مشكلات خطيرة عصفت بالكثير من منجزاتها، وقلصت من حجم تلك الدفعة الروحية التي انطلقت بها، وإذا لم يتم تسديدها واستباق الزمن للجم بعض سقطاتها فقد تغدو نزعة إشعاع حرمانتي تشع على الإنسان المتدين وعلى عقيدته صورا سلبية، يتلقفها الجمهور الأقل التزاما بمقتضيات الدين أو الآخر المختلف ثقافيا ودينا فتصنع رؤيته ومواقفه.

إن الموضوع الذي بين أيدينا ليحاول البحث -من خلال الوصف والتحليل- في ظاهرة التدين في نطاق المجتمع الجزائري وبالخصوص في هذه العشرية الأخيرة من تاريخه، وسيكون ذلك عبر استئارة التساؤلات التالية:

كيف هو واقع التدين في المجتمع الجزائري؟ ما هي ملامحه؟ هل يتخذ هذا التدين صورا وأشكالا معينة؟ ما هي هذه الأشكال إن وجدت؟ هل لهذه الأشكال من التدين أثر على صورة الإسلام؟ هل توسعت دائرة التدين في نطاق المجتمع الجزائري أم

ضاقت؟ هل كان للعشرية الأخيرة أثر على نزوع الفرد الجزائري نحو الدين؟ ما هو حجم هذا التأثير؟ ...

II - في مفهوم الدين:

قبل أن نجيب على الأسئلة السابقة ينبغي منجيباً تحديد مفهوم الدين. للدين مفهوم شائع يستخدم في الدراسات السوسولوجية يتركز على جانبين اثنين:²

- جانب ذاتي يتعلق بالحالة النفسية للفرد الذي يدين بفكرة دينية معينة وهو ما يسطح عليه بالدين، أي ما يستشعره الفرد داخلياً من خضوع لمعبود غيبي.

- جانب خارجي يتمثل في الممارسات الدينية ومتعلقاتها، أي الجانب الملاحظ والملموس من الدين، وهو الجانب الذي توليه الدراسات السوسولوجية الوضعية أهميته القصوى على اعتبار نزعتها المادية (هذه الدراسات) التي لا تؤمن إلا بما هو محسوس كما نظر لها زعيم الوضعية إميل نوركايم.

وإذا تجاوزنا هذه التحديدات لتعطي تعريفاً إجرائياً للدين ينبع من المذهبية الإسلامية على أساس أن موضوع مداخلتنا يتحدث عن جمبور ينتمي أصلاً إلى الإسلام، فإننا يمكن أن نقول بأن الدين هو "جملة التعاليم الواردة في الكتاب والسنة والتي خاطب الله بها الإنسان على وجه التكليف"³. فالدين المقصود هنا كما هو واضح من التعريف هو الإسلام وليس غيره.

وإذا كان الدين بهذا المعنى جملة التعاليم والتكاليف... التي أنيطت بعهدة الإنسان فإن الدين *Religiosité* هو تمثل تلك التعاليم وإنزالها لتغدو واقعا يترجم في شكل تصورات وسلوكيات وافعال. فالدين هو الانفعال بالدين تصديقا عقليا وسلوكيا عمليا على معنى تحمل الدين واتخاذ شريعة ومنهاجا⁴ أو هو الكسب الإنساني في الاستجابة لتلك التعاليم، وتكيف الحياة بحسبها في التصور والسلوك⁴. فالدين بما هو تعاليم وأوامر ونواه... هو النموذج المثالي للفرد الملتزم، يقبس منه ويسعى جاهداً إلى إنزاله في واقعه الزمني اليومي، وبمقدار ما يحضه حياته في كلياتها وجزئياتها لمقتضياته يزداد قربه من هذا النموذج، وبمعنى آخر يزداد قربه من خالقه الذي يتوجه في جهاده التديني إليه طلباً لرضاه وطمعاً في وعده الأخروي.

إن التدين كظاهرة إنسانية هو جيد بشري إرادي، يتأسس على قناعة شخصية بمجموعة من التصورات تتفر سلوكيات وأفعالا تشكل في مجموعها الترجمة الواقعية لما بنفس المتدين. وبقدر ما تكون هذه التصورات صحيحة وسليمة بقدر ما يكون السلوك المنبثق عنها سليما محققا لمناط التدين، (وفق قاعدة لا يعبد الله إلا بما شرع).

وإذا علمنا بون ما بين الواقع والنموذج المثالي من مساحة اختلاف، علمنا أن التدين كاختيار إرادي قصد تكييف الحياة الفردية والجماعية بمقتضيات النموذج المثالي يستلزم مجاهدة مزدوجة الجوانب، فالفرد المتدين يغالب رغائيه وشهوائه النفسية من جهة، ويغالب استعصاءات الواقع الاجتماعي من جهة ثانية حتى يتقوما بمقتضى المثال، أي بمقتضى الدين¹، فاختيار التدين بيده المعاني سلوك واع ينم عن ترق نفسي يجاهد الفرد المتدين نفسه قصد التحقق بمقتضياته.

وكما يكون التدين اختيارا إراديا واعيا (وهو المستوى الأعلى من التدين) يمكن أن يتأسس على وراثته اجتماعية يرثها الإنسان من بيئته الثقافية التي تحيط به منذ صباه، فتشكل على أساسها معارفه وقناعاته وسلوكياته، ويكون تدينه على الكيفية التي وجدها في مجتمعه. كما يمكن أيضا أن يتأسس سلوك التدين في بعض جوانبه على النقل أو الاستعارة الثقافية وخاصة في عصرنا الحالي؛ حيث أصبح من اليسير أن يتعرف الإنسان إلى الآخرين ممن يختلفون أو يشتركون معه ثقافيا، ويتأثر بهم ويقبس عنهم وهو في مكانه لا يكلف نفسه سوى الضغط على زر زر التلفاز أو الإنترنت أو غيرها من وسائل الاتصال التي هبنا العلم الحديث للإنسان المعاصر.

والتدين كما بينته النصوص الشرعية والحقايق العلمية نزعة أصيلة في الإنسان مركوزة فيه بالقوة، وهي تتراوح لكي تتحول من حيز القوة إلى حيز الفعل (كما توضح) بين أن تكون ثمرة وراثته اجتماعية أو ثمرة لفعل واع ومختار. وهي في كلتا الحالتين إما أن تكون تبعا لزيادة السماء قريبا أو بعدا، وإما أن تكون غير ذلك.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم يؤد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، فالإنسان مجبول بالقوة على فطرة التدين الصحيح (الإسلام)، إلا أن الوراثة الثقافية التي يرثها من مجتمعه عبر مؤسسات التنشئة

الاجتماعية (الأسرة، المدرسة...) حينما تتولى اعداده كقيلة بان تشبع فيه هذه النزعة الاصلية تبعا ليداية السماء، أو تتخرف بها تيويدا أو تصيرا أو تعجيسا أو سير بها نحو مسالك أخرى من مسالك التدين، أو تحل محلها -كما فى بعض المجتمعات المعاصرة- نزعات لادينية والحادية تخرج الإنسان من نطاق إنسانيته.

III- التدين فى واقع المسلمين بين الأمس واليوم:

إذا كان التدين هو الكسب الإنسانى فى الاستجابة لتعاليم الدين وتكييف الحياة بحسبها فى التصور والسلوك فما هو نصيب المسلمين منه وما حظهم فيه؟ الإجابة على هذا السؤال لن تكون ذات جدوى إلا إذا استصحبنا فى أذهاننا -فى شكل نوع من المقارنة- واقع التدين فى العصر النبوي وواقع التدين فى عصرنا.

1- التدين فى العصر النبوي:

يشكل عصر النبوة أبرز مرحلة فى تاريخ الدين الجديد (الإسلام) بما تحقق فيها من تكييف رائع للحياة الإنسانية فى مختلف أبعادها الثقافية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية بمقتضيات هذا الدين.

فقد ألقى النبي صلى الله عليه وسلم فى تمثّل رسالة الإسلام وكان كما وصفته زوجته عائشة رضي الله عنها كان خلقه القرآن" لو كان قرآنا يمشى بين الناس، ولو أردنا أن نترجم هذه العبارة بلغة موضوعنا قلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان النموذج المثالي/الواقعي للتدين بما حققه فى ذاته الشريفة من تمثّل لمقتضيات ما أرسل لتبليغه للناس كافة، بل إن من إرغاصات نبوته قبل بعثته تحقّقه بالكثير من الصفات والأخلاق... التي لم يأت الدين الجديد إلا لإكمالها إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

وقد تحققت هذه القرآنية فى التصور والسلوك فى لثة المؤمنة التي اصطفاه النبي فى المراحل الأولى للدعوة لتكون سنده فى مهمة تبليغ الدين الجديد. فما برحت هذه لثة تتصل بالغير أفرادا وجماعات حتى ينتقل إشعاعها التيني إلى غيرها، حتى عدت دائرة الإسلام تتسع يوما بعد يوم مصدقة قوله تعالى" هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" الصف:9.

الاجتماعية... وتكييف واقعيته بهديه¹.

وكان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تبليغ هذا الدين نقيا على مستوى الفهم والسلوك شديدا، وفى النماذج الواقعية التي أوردتها كتب الحديث

والسيرة ترجمة حية لذلك. وقد كان صلى الله عليه وسلم يدرك أن إنزال الدين في واقع الناس (أي التدين بكلمة أخرى) اجتهاد إنساني ينبغي أن ينضبط بضوابط حتى لا يؤول فعل التدين إلى ما ينافي مقصد الدين وغايته، وحذر من ما يمكن أن يسقط فيه التدين من علل مثلما أدركته وسقطت فيه أمم سابقة، فكان سببا في تسليط العذاب عليها وعقابها وتمحيتها من التاريخ.

فموقف النبي من الثلاثة الذين سألوا عن عيادته فكانهم نقالوها أمام صومهم ونبئتهم وقيامهم الدائم واضح لرد جماهيرهم ومغالاتهم في التدين من غير وجه حق حين قال: أما والله إني أخشاكم لله واتقاكم له ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني². فكان النبي - وهو أرقى نموذج بشري جسد تعاليم الدين - ينيه إلى ما يمكن أن يؤول إليه منحي التدين حين يخالف خط الفطرة السليم في الإنسان. وبعضه حرصه على أن يسير خط التدين في نطاق الممكن الإنساني موقفه من عبد الله بن عمر الذي أغرق في العبادة إلى الحد الذي خرج عن الاعتدال، فجاءت التزبية النبوية مسددة إن لئدتك عنك حقا... فاعط لكل ذي حق حقه³.

كما يحفل البيان النبوي في غير ما موضع بتسبيبات وتسديدات لما يمكن أن يؤول إليه مسلك المتدين في انفعاله بالدين، وقد حفظت لنا كتب الأثر حديثا عظيما يمكن أن تصنف على أساسه الاتجاهات الممكنة لخط التدين قريبا وبعدا عن سوية الاعتدال والوسطية؛ حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم في إشارته لما يتعرض له علم النبوة وميراث الرسالة يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين⁴. فالحديث يشير إلى أربع مراتب هي:

- مرتبة الاعتدال (المعتدلون)
- مرتبة تحريف أهل الغلو (المغالون).
- مرتبة انتحال أهل الباطل (المبطلون).
- مرتبة تأويل أهل الجهل (الجهلة).

والبيانات النبوية الأخرى أكثر من أن نحصى. تشير كثيرا إلى ضرورة أن يسير فعل التدين في حدود الوسطية والاعتدال مثل قوله صلى الله عليه وسلم إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وقوله: ألا هلك المنتطعون، ألا هلك

المتطعون، ألا هلك المتطعون، وقوله 'ياكم وأعلو في الدين فإتوا هلك من قبلكم بالعلو في الدين'. كما حث على أن يلتزم في التدين بما نص عليه الكتاب أو أقرته السنة حتى لا يغرق المتدينون في مسالك من التدين لا أصل لها فقال من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد، وأن يكون هذا الانفعال بالدين على درجات لأن هذا الدين شديد فأوعلوا فيه برفق وما شاد الدين أحد إلا غلبه. وبهذا الحرص النبوي على سلامة الدين الجديد من أي تخن قد يتسبب الانقراض به نرز إلى الوجود جيل رباني قل ما لوحظ فيه تنكب عن حد الاعتدال.

واستمر الأمر على ما هو عليه في المراحل التالية التي استطاعت أن تستصحب روح العصر النبوي وتعمل بمقتضياته، حتى إذا بدأت النفعة الروحية التي دشنها عصر النبوة تفتقر نرز على السطح ما حذر منه الرسول من علو وتطع..

2- التدين في واقعنا المعاصر (وصف عام):

مما لا شك فيه أن القيام بعملية استقرائية بسيطة للتاريخ سنكتشف لنا بعد وبون ما بين عصر النبوة الأول وعصرنا من فوارق في النوع، فهو خير القرون التي تمثلت الدين أحسن تمثل؛ حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم خير القرون قرني ثم الذين يلونهم...، فالنزوع إلى التدين كما أوضح لنا فطرة إنسانية يشترك فيها إنسان عصر النبوة مع إنسان الصحوة اليوم، والدين هو الإسلام كما عرفه الصحابة ونعرفه، تكفل الله بحفظه إلى يوم الدين مثلما بينه قوله تعالى إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون الحجر 9، بيد أن الاختلاف واضح بين تديننا اليوم وبين تدين الجيل الأول من الصحابة والتابعين. لا على أننا استبننا إسلامنا بأدبيات أخرى، بل في نوع ودرجة التزامنا بمقتضيات هذا الدين في القيم والسلوك.

فالواقع الأممي اليوم رغم كونه لا يزال منفعلا في بعض جوانبه بالإسلام إلا أن التمعن فيه يكثف عن وجود شعرت والحرافات كبيرة عن النموذج المثالي للدين، فالمشهد الإسلامي يكثف للمنازل فيه عن فيضاء ملفقة تجمع بين توجهات متباينة ومسالك متخالفة، لأنه إذا كان هذا الواقع إسلاميا كما نسميه فالأصل في ذلك هو أن تتخرط كل عناصر الحياة المشكلة له في تناغم واتسجام مع مقتضيات الدين، إلا أنه عندما ننأمل هذا الواقع نجد في غاية البعد عن تلك المقتضيات.

إن حياة المجتمعات الإسلامية تُجري اليوم في شتى جوانبها على غير هدي الدين، فقد نجد مجتمعاً إسلامياً ولكنه يعتنق أيديولوجية شرفية أو عربية ينظم بها حياته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، حتى انحسر سلطان الدين في تنظيم الحياة الإسلامية إلى أضيق الحدود، وبقي متغنياً في ركن ما يسمى بالأحوال الشخصية التي تعتبر من أضيق النظم بخصوصيات الإنسان المسلم، والعناية الأخيرة التي يتجاوزها يغف هذا الأخير هويته، وبالرغم من كل ذلك فإن بعض المجتمعات الإسلامية ما انفكت تضيق الخناق على هذا النظام الاجتماعي الأساسي (قانون الأحوال الشخصية) بتعديلات شوهت صورته أو أزلت محله فواتين مستعارة من الغرب أو بعيدة عن روح النصوص الإسلامية.

والواقع الإسلامي هو اليوم من التعقيد إلى درجة اختلط فيها الحق بالباطل في جوانب كثيرة من الحياة، وقد أسهم في هذه الوضعية السلبية عوامل كثيرة لعل أبرزها ما ابتليت به الأمة من جمود فكري بعد عصر ما بعد الموحدين، وما لحقها بعد ذلك من مت استعماري استيطاني، ومن محاولاته الطويلة لنشر العلاقة التي تربط هذه الأمة بما هو أصيل من موروثها الثقافي، وإحلال نظمه المدنية وثقافته الغربية محلها تمهيداً لإلحاقها النهائي بمركزه، وهو ما أثمر بعد عقود من الزمن غربة لسلطان الدين عن مناسط الحياة الإسلامية، حتى كادت النفوس والعقول ترتكن لهذه الوضعية وتعتبرها لازمة طبيعية، بل وتعمل على تعزيزها، لولا بقاء من العلماء والمصلحين الذين نبهوا لخطر هذا الوضع على هوية الأمة ووجودها التاريخي.

وبفضلهم وبفضل الله قبل ذلك وبالرغم مما أصاب الأمة في مقلتها، بقي العامل الديني المشكل الأساسي لوجدان الأمة الإسلامية، فهو الذي يقوم التصور العقدي العام لمجموع الأمة... وهو الذي ينشط حياة الفرد في محيطه الفردي ومحيطه الأسري على وجه الخصوص... وإذا كانت الحياة الاجتماعية قد انسحب منها إلى حد كبير العامل الديني، فإن بقية الإيقاع العام في التعامل الأخلاقي والسلوك الثقافي بقيت محكومة بهذا العامل، وهو ما يلمسه بوضوح من يقارن بين مجتمع إسلامي ومجتمع غربي بناء على خبرة عملية ومعاشية فعلية¹.

¹ انظر: "التحولات الاجتماعية والثقافية في المجتمعات الإسلامية"، د. محمد باقر الصدر، دار الفکر، بيروت، 1980م، ص 100.

3- التدين في واقفنا المعاصر (دراسة حالة المجتمع الجزائري):

يشكل المخزون الديني والروحي عمقا استراتيجيا حيويا بالنسبة للمجتمعات الإسلامية، فهو الذي حفظ لها هويتها الحضارية ووجودها التاريخي رغم ما تعرضت له من عمليات طمس. ومحاولات اجتثاث من طرف المد الاستعماري الصليبي. ولولا هذا المخزون الروحي الوافي لغدت لثرا بعد عين، ولحصل لها كما حصل لكثير من المجتمعات التي انقرضت وانمحت من الوجود، مثلما كان حال بعض الشعوب التي سكنت أمريكا وأستراليا، فالدين الإسلامي تحديدا وبشهادة الدارسين هو من غذى به روحانيته وموافقته للفطرة وانغراسه في النفوس-جهاز مناعة المجتمعات الإسلامية، فاستعصت بذلك على كل عمليات البتر والإلحاق التي مورست عليها إبان الغزوة الاستعمارية الحديثة.

والمجتمع الجزائري هو أبرز نموذج لتلك المجتمعات التي تعرضت لأقصى درجات السحق والمحو الثقافي والحضاري طيلة مدة تربيته على قرن من الزمان، وهي مدة كافية لتصفية حسنة وروحية لأي مجتمع وإسائه خلقا آخر. ورغم طول المدة وقسوة استراتيجيات وأنوات البتر والإلحاق بقي هذا المجتمع الذي جرد من كل شيء مستعصيا على الذوبان والتلاشي.

... بين أن الاستراتيجية الاستعمارية وإن فشلت في القضاء الكلي على روح المجتمع الجزائري، فإنها قد نجحت في تضيق وحصر مجالات تأثير الدين في مناشط الحياة الاجتماعية، فبعد أن كان الإسلام هو المحرك الأساسي لعجلة الحياة في مختلف مجالاتها الاجتماعية والاقتصادية، إبان مرحلة ما قبل الاستعمار، تراجع ليحل محله القانون الفرنسي، وبقيت مساحة ضيقة من الحياة الإسلامية فقط تخضع للشرع الإسلامي هي مساحة الأحوال الشخصية، ورغم ذلك لم تمثل السلطة الفرنسية من التصيق عليها وفتح الباب للاحتكام إلى النود (Le code) الفرنسي.

بالإضافة إلى ذلك غذت السلطة الاستعمارية في نطاق الحياة الروحية للمجتمع الجزائري بعض السلوكيات والميول والاتجاهات الدينية السلبية الموروثة من عصر ما بعد الموحدين، كاتجاهات التصوف والطرقية المنحرفة، وشملتيا بالرعاية، واتخذتها إلى جانب جهود موازية من مشاريع التنقيف على الطريقة

الفرنسية كأبرز أدواتها لترسيخ سيطرتها ووجودها، دون أن ننسى محاربتها وتهجيرها وتضييقها على العلماء المصلحين.

وكرر فعل محنمعي جسد المقاومة الثقافية للمجتمع الجزائري برزت إلى الوجود جهود بعض العلماء، ثم تأسست جمعية العلماء المسلمين التي كان لها دورها البارز في الإحياء الثقافي والعقدي والديني للمجتمع وتبصيره بضرورة التغيير.

وبعد قرن وربع من الاحتلال، وبعد ثورة كانت أن تقارب العقد من الزمن خرج المجتمع الجزائري من الاحتلال بحصيلة سالوية:
مرهق القوى، مهتر الإمكان، مذئب اللسان، مشوها في الكثير من أفكاره، لا يقرأ ولا يكتب في غالبيته (أكثر من 90% من السكان)، ثقافته الدينية محدودة، مساجده محطمة، وما بقي منها حول إما إلى تكذات عسكرية أو إلى كنائس، مكباته ومخطوطاته إما مسلوبة أو محروقة، صفوة كثيرة من متفقيه وعلمائه هجروا أو قتلوا، إرث استعماري ثقيل من التخلف والتعبية.

وكغيره من مجتمعات العالم الإسلامي الخارجة من مرحلة الاستعمار بدأ المجتمع الجزائري عن طريق بقايا بعض الوجود من صفوته المؤمنة محاولات استئناف الحياة الإسلامية، في شكل جهود فردية وجماعية. وكان لبقايا جمعية العلماء المسلمين، وبعض المخلصين دور رئيس في نمو تيار تديني بدأ يتسع يوما بعد يوم ليشكل رافدا مهما من روافد ما عرف اصطلاحا فيما بعد بتيار الصحوة الإسلامية، هذا التيار الذي بقي يتسع كما ونوعا حتى غدا زخمه في الجزائر في مرحلة من تاريخها من أبرز ما يميزها، وليكون شاهدا واقعا على أن عرافة هذا المجتمع في التدين أصيلة، وأنها سبب تبعائه في التاريخ من حيث في وقت كان فيه بعض أبنائه يتساعلون عن وجود اسمه في الدفاتر أو في المقابر.

وشكلت نهاية السبعينيات إلى غاية التسعينيات بالخصوص الفترة الذهبية للامتداد الأفقي والعمودي لحركة التدين في المجتمع الجزائري، فقد أحييت جهود العمل الإسلامي التي ألمعنا إليها سابقا شعلة التدين في الإنسان الجزائري، وهو ما انعكس في عودة قوية للجماهير العريضة إلى الدين، وغدا الإنسان الواسع لظواهر الالتزام الإسلامي أمرا مألوفا، كما عززت هذه العودة القوية عوامل أخرى لعل من أهمها:

- نشأة العمل الإسلامي المنظم.
- ميلاد وتتابع ملتقى التعرف على الفكر الإسلامي الذي أصبح فرصة للمتدينين الجدد (وخاصة الفئة الجامعية منهم) للالتقاء برجال الفكر والدعوة والعمل الإسلامي، وهو ما انعكس إيجابيا على الحماس والوعي الديني.
- الانتشار المتزايد زمنيا لمعارض الكتاب، وزيادة الإقبال على الكتاب الإسلامي لشبابا كدافع المطالعة الدينية، والتعرف أكثر إلى الفكر الإسلامي.
- التوسع في بناء المساجد ودور العبادة سواء أكانت بمبادرات شعبية أو تحت وصاية رسمية، وهو ما جذب جمهورا عريضا من العامة إلى هذه القضايا الدينية، وعمق وعينها وشعورها الديني.
- انتصار الثورة الإسلامية في إيران كحدث خارجي عزز التوجه التديني.
- كل هذه العوامل وغيرها عززت حركة المد التديني في نطاق المجتمع الجزائري، وما كادت سنوات الثمانينيات تنتهي حتى أصبح هذا المد التديني تيارا ضخما زاد من حركيته ما انفح في الجزائر بعد أكتوبر 1988 من حريات سياسية.
- إننا إذا كنا في مداخلتنا هذه قد استصحبنا المنظور التاريخي في حديثنا عن واقع ظاهرة الدين فذلك أساسي لفهم جملة من النقاط منها:
 - أن فهم الماضي أساسي في فهم الحاضر.
 - أن الماضي الذي عايشه المجتمع الجزائري حاضر في بعض العناصر المشكلة لواقع دينه اليوم.
 - أن يتربص في وعينا أن مكسب الصحوة الدينية في مجتمعنا لم يأت من فراغ، وإنما هو حصيلة جهود لعقود من النضال، وبالتالي ضرورة العمل على انتشال الصحوة والتدين مما عرفنا فيه من مظاهر سلبية سنأتي على ذكرها.
- ... إن المد التديني الذي أشرنا إليه آنفا وإن شكّل في بعض جوانبه ظاهرة إيجابية؛ من حيث عودة شرائح عريضة من المجتمع إلى أصولها الحضارية (أي إلى الالتزام بالدين)، لم يكن من الانسجام بحيث يطمان إليه، ويتفاعل بمستقبله؛ لأنه وإن كان يندف في جملته إلى إعادة بعث الحياة الإسلامية من جديد، وعودة الدين كناظم للحياة الفردية والجماعية، وتكييفها بحسب مقتضيات الدين في التصور والسلوك، إلا أنه قد تغذى منذ البداية بنزعات متباينة وتوجهات متخالفة، اختلفت تصوراتها النظرية وآلياتها العملية في كيفية استئناف الحياة الإسلامية. فمنها من

تعدى من السلفية الوهابية ومنها من تعدى بالاحوانية المصرية ومنها من تعدى بالأفكار القطبية، أو المودودية، ومنها من تأثر بالفكر الثوري والانقلابي والتكفيري، ومنها من تأثر بالفكر الشيوعي...حتى غدت الساحة الجزائرية جماعاً لفسيفساء من الاتجاهات، انضافت إلى الاتجاهات التقليدية التي خبرها المجتمع الجزائري.

1.3- الفعاليات الدينية في المجتمع الجزائري:

يمكن وبناء على ما سبق أن نصنف الفعاليات الدينية في نطاق المجتمع الجزائري إلى:

* تيار الإسلام التقليدي: وتشكله الغالبية العظمى من المجتمع، ميزته الأساسية إيمانه الوراثي بالإسلام مع ما قد يشوبه في الاعتقاد والممارسة الدينية من قرب أو بعد عن الإسلام، ويمثل بعض شرائح هذا التيار فعاليات ليا صدى واسع ونقل شعبي كبير في مناطق عدة من الوطن وخاصة في الغرب والجنوب منها:

- تيار الطريقة.

- تيار الزوايا.

والملاحظ هو النشاط الحثيث لتيارين الفعاليين الدينيين في العشرية الأخيرة بدعم من الجهات الرسمية في بعض الأحيان¹¹، نذكر منها على سبيل المثال الطريقة التجانية.

* تيار تفعيل الإسلام في الحياة العامة: وهو تيار حديث نسبياً من حيث المنشأ إذا ما قورن بسابقه، ويمتاز بأنه يقدم فيها وطرق عمل خاصة لكيفية رسم معالم الحياة الإسلامية من جديد، وتتقاسمه فعاليات دينية مخالفة بل ومتناقضة أحياناً؛ من حيث التصور وطرق العمل، ويمكن أن نقسمه إلى ثلاث اتجاهات أساسية تتفرع هي الأخرى إلى اتجاهات فرعية هي:

- تيار الإسلام الحركي: ويضم اتجاهات فرعية تتشرك فيما بينها من حيث اعتدال وتوازن القيم للإسلام وكيفية العودة به من جديد كإظم للحياة الاجتماعية، وتعتمد أسلوب العمل الجماعي الحركي المنتظم، انخرط بعضها في الفعل السياسي وبعضها الآخر لا يزال يربط في حقل الدعوة، وأهمها ثلاث: الاتجاه الحضاري، الاتجاه الإخواني المحلي، الاتجاه الإخواني العالمي.

- التيار التبليغي: أو ما يعرف بجماعة الدعوة والتبليغ، وميزة هذه الفعلية تركيزها على العمل التربوي والتعبوي البسيط بعيدا عن العمل السياسي.

- تيار السلفية النصوصية: وميزتها العامة اشتراكها في منهجية فهم النص الديني؛ حيث تعتمد فكرة الفهم الحرفي النصوصي. وتختلف في ما بينها في بعض المسائل الإجرائية، وتنقسم إلى سلفية علمية، سلفية حركية، سلفية جهادية. والملاحظ أن زخم تيار السلفية النصوصية باتجاهاته الفرعية (العلمية منها خاصة) قد زك في العشرية الأخيرة؛ بحيث غدت ظاهرة التدين على الطريقة السلفية مظهرا بارزا في نطاق المجتمع الجزائري.

إلى جانب هذه التيارات الدينية هناك تيارات أخرى ذات تأثير أقل نذكر منها التيار الشيعي والتيار التكفيري.

2.3- الملمح العام لظاهرة التدين:

إلى وقت قريب (قبل جانفي 1992) كانت الملامح العامة للتدين في نطاق المجتمع أميل إلى الاعتدال* - حتى وإن اختلفت الخلفيات الفكرية للفعاليات الدينية التي أطررت الساحة الجزائرية دينيا، وفي كنفيات عملها وكذا في مضغة الاهتمام التي ركزت عليها في جهودها (التعبير الفكري أو التصحيح العقدي أو التعبير السياسي..). للعودة إلى الحياة الإسلامية- سوى بعض الممارسات المعزولة التي لجأ فيها أصحابها إلى أشكال عغفية للتعبير عن مطلب تكييف الحياة الجماعية في بعدها السياسي والاقتصادي.. وفق مقتضى الدين.

وإذا كنا نفر بل أن بعض النزعات المتطرفة كانت كاسية في فكر كثير من المتدينين**، فإن الجو العام الذي خبره المجتمع في تلك المرحلة من انفتاح سياسي، وتوسع لدائرة الحريات العامة في التعبير والتجمع والحركة والنشاط... قد أسهم في إبقاء تلك النزعات الكامنة في حيز القوة، بيد أن المتغيرات السياسية والأمنية التي طبعت حياة المجتمع بعد جانفي 1992 قد أخرجت هذه النزعات من حيز القوة إلى حيز الفعل، لتغدو مع مرور الزمن سلوكيات شاذة ومتطرفة كان لها انعكاس سلبي على صورة الدين والتدين بصورة عامة.

3.3- أشكال التدين الحالية:

يتبغى أن ننبه إلى أنه إذا كانت السمة العامة للتدين في هذه المرحلة هي الاعتدال فلا يعني هذا بحال وجود توازن وتوافق بين قيم الدين والالتزام به؛ فرغم

الجهود الفردية والجماعية المبذولة لتوسيع دائرة التدين في نطاق المجتمع الجزائري وترشيدها وتوجيهها على مستوى الفهم والممارسة، إلا أن ضخامة تيار المد التديني الذي غدا يتوسع يوماً بعد يوم قد حال دون أن يحظى بالاعتناء اللازمة من حيث درجة التأطير. وإذا أضفنا إلى ذلك قلة ونقص الصفوة الموجهة من العلماء والمفكرين والدعاة... علمنا بذلك أي خطورة كانت تتهدد الصحوة والتدين.

وعلى هذا الأساس فإن تصنيفنا لأشكال التدين سيبني على ما هو ملاحظ في الواقع الميداني، مستفيدين من الحديث النبوي الذي أتينا على ذكره سابقاً، والذي أشار إلى المسالك المتنوية التي يمكن أن يتهجها خط التدين بعيداً عن خط التدين السلبي:

إنه يمكن سواء في نطاق المجتمع الجزائري أم في نطاق مجتمعات العالم الإسلامي حصر شكلين أساسيين من أشكال التدين هما: التدين السوي الذي يبني على فقه سديد للدين وفقه سليم للتدين، والتدين المنقوص الذي يفتقد إلى فقه سديد للدين و/أو فقه سليم للتدين، هذا الأخير الذي يمكن أن يتخذ أشكالاً متعددة.

1- التدين السوي: وهو ذلك النمط من التدين الذي يجمع بين حسن الفهم للنصوص الشرعية وبين انزائها في الواقع الفردي والجماعي، وهو ما نسميه بالمصطلح الشائع خط الاعتدال والوسطية. وقد عملت فعاليات دينية كثيرة وعلى رأسها تيارات الإسلام الحركي على بناء هذا التوجه التديني وتدعيمه وتوسيعه من خلال استقطابها لجمهور كبير من المثقفين والعامة، عبر جهود الدعوة الخاصة والعامة.

2- التدين المنقوص (السلبي): وهو ذلك النمط من التدين الذي يقوم على سوء فهم و/أو سوء تفسير و/أو سوء إنزال للتعاليم والنصوص الشرعية، وينقسم بدوره إلى مستويات أربعة:

- **تيار الغلو والتشدد في التدين:** والغلو في اللغة هو مجاوزة القدر والحد في كل شيء، فيكون بهذا المعنى التكب عن حدود الوسطية والاعتدال والسماحة واليسر التي امتاز بها الدين الإسلامي. وقد زادت مساحة هذا التيار بشكل يدعو للقلق نتيجة عوامل كثيرة (سنأتي على ذكر بعضها لاحقاً)؛ بحيث غدت مظاهر التطع والغلو هي السمة البارزة في الشباب المتدين، سواء في الفضاءات الدينية أم في نطاق المجتمع العام.

- تيار المنتحلين: وهي نزعة مرضية تنتشر بين شريحة عريضة من المثقفين ثقافة غربية، وقد بدا لهذا التوجه صدى واسع في المرحلة الأخيرة سواء على مستوى العالم الإسلامي أم في الجزائر، في ظل الضغوطات العالمية على الإسلام، ودعاوى تجديده. وتقوم أفكار أنصار هذا التيار على محاولات قراءة الإسلام في ظل تجاربهم الشخصية، وتطويعه للتصورات العلمانية متأثرين في ذلك بالتجربة الغربية، وعلاقة كثير من هؤلاء بالتعاليم الشرعية في السلوك والممارسة الدينية علاقة فائرة وضعيفة.

- تيار (الجاهلین): وميزة من تدرجهم ضمن هذا التيار افتقارهم للأدوات المنهجية المطلوبة لفهم الدين، فلهم جرأة كبيرة على الفتوى وإصدار الأحكام بدون امتلاك أدواتها المطلوبة وتأويل النصوص الشرعية...

- تيار الأمية الدينية: وميزة هذه الشريحة العريضة أن علاقتها بالدين علاقة ولاء عاطفي، غير أن ممارستها السلوكية له قد تقرب أو تبعد عن المطلوب الشرعي.

4.3- الدين في الواقع الجزائري الراهن بين الغلو والتحلل:

إن أحسن طريقة لتقديم وصف صادق وسليم عن واقع الدين في المجتمع الجزائري هي النزول إلى الميدان، فإذا تجاوزنا التسميات السابقة للفعاليات الدينية وأشكال الدين.. فإن الصورة التي يمكن أن نرسمها لواقع الدين تتراوح -على ما خبرناه ولاحظناه- بين تيارين كبيرين يتسعان على حساب تيار الأمية الدينية هما:

- تيار الغلو والتسطع

- وتيار الانحلال

وقد تكرست هذه الصورة المزوجة في نطاق المجتمع الجزائري خلال العشرية الأخيرة ولا تزال تتسع دائرياً بالتدرج إذا لم تتأرجح جهود التسديد والتوجيه.

إن تيار الاعتدال والوسطية قد خفت وجوده وترك مكانه في ظل وضعيه ثقافية واقتصادية واجتماعية مأساوية يعيشها المجتمع الجزائري إلى حساسيات دينية ذات تكوين ديني قسري، تحصر الدين في ألوان من التراتيل ولا تهتم إلا بالمظاهر والشكليات. أفكارها عن الدين والدين أفكار مشوشة تفقر إلى ناظم منهجي ينتظمها، تقدم الإسلام في زي متقادم بعيد عن تحديات العصر ومتطلبات

الواقع الراهن الذي يحيا فيه الإنسان المسلم، بالإضافة إلى ذلك فإنها تستصحب بعض المراحل التاريخية التي خبرتها الأمة في عهود سابقة وتريد محاكمة الحاضر إليها، فإذا تحدث الإنسان عن العقل اتهم بأنه معتزلي أو أشعري وكان العقل نقيض للدين، وإذا قص للحمية والشارب وارندى البدلة الغربية فهو مخالف للسنة يوشك أن يكفر أو يفسق.. وإذا تحدث عن مستجدات العصر وضرورة التكيف معه اتهم بأنه مبتدع. فهذه العقلية التي ابتليت بها الأمة تغرق في الماضوية، وترفض الكسب الإنساني، ولا تؤمن بالاختلاف والتعددية الفكرية، وتحسب -وهي على خطأ- أنها تخدم الدين وتدود عنه، ولا تدري أنها إذا كانت على جانب كبير من الإخلاص له، فإنها على جانب كبير من افتقار الصواب.

وقد تطورت هذه النزعة التدينية السلفية لتغدو سلفيات يتناحر بعضها مع بعض، وبدل أن تتجه جهود الأمة إلى البناء يبقى الشغل الشاغل لهذه الشريحة من المتدينين هو اختلاق المعارك الكلامية، والطعن في العلماء وتوزيع صكوك العفران أو الحرمان، والجدال العقيم حول...جنس الملائكة! أو التوضؤ من وطء البهيمة! كما قال مالك بن نبي!!

وفي المقابل تموج الساحة الجزائرية بتيار آخر علاقته بالدين على مستوى الفكر والسلوك تكاد تكون باهتة؛ إذ نجد الكثيرين من أبناء مجتمعنا -وفئة الشباب منهم خاصة- خلال العشرية الأخيرة لا تكاد تربطهم بدينهم سوى شهادة الميلاد، فتقافيتهم الدينية ضعيفة إلى حد مخيف، والتزامهم بالدين في النطاق الفردي أو الأسري يكاد ينعدم، يتخبطون في تيار انحلالي وعممي يغرق في الفوضى الأخلاقية والتحلل من مقتضيات الدين، ويعيش على ممارسات وسلوكيات مخالفة لتصميم موروثة الثقافي والحضاري..

وإذا أردنا أن نتجاوز منهج الوصف لنبحث في الأسباب التي تقف وراء هذه الازدواجية السلبية التي يعيشها المجتمع الجزائري، فإننا يمكن أن نقول بأنها وضعية تخلقت نتيجة لتزواج بين أسباب وظروف بعضها لني وبعضها الآخر تاريخي، فالنارخي منها نرجعه إلى:

* حدة الاحتكاك الثقافي مع العرب ماضيا وحاضرا مع ما تركه ويتزكه من جروح ثقافية عميقة في الكيان الثقافي الجزائري، فالجزائر تقع في مقابل القارة الأوربية، وقد سهلت وضعيتها هذه سرعة الاحتكاك والاتصال في ظل وسائل

الغزو الفكري والثقافي التي היאها العلم الحديث وعلى رأسها القنوات الفضائية، والإنترنت.

• غياب أو قلة وجود مراجع دينية ذات كفاءة علمية شرعية وواقعية، وذات امتداد وحضور شعبي فاعل، وعجز العمل الإسلامي رغم مضي عقود من العمل عن خلق واستنبات هذه المراجع، سواء كانت مؤسسات أم شخصيات، مثلما هو الحال في كثير من بلدان العالم الإسلامي. فالجزائر كما هو معلوم قد دمرت ثقافيا من طرف الاستعمار الفرنسي. وافتقاد هذه المراجع له آثار سلبية يجني المجتمع الجزائري اليوم بعض ثمراتها المرة، ففي الوقت الذي يعود فيه التونسي إلى علماء الزيتونة، والمغربي إلى علماء القرويين، والمصري إلى علماء الأزهر، والإيراني إلى حوزات قم والنجف، نجد الجزائري يعيش فراغا رهيبا في هذا الصدد، فلا غرابة بعدها أن تجد أفراد المجتمع الجزائري ينهلون الأفكار والفتاوى من مصادر بعيدة عن واقع وظروف المجتمع الجزائري. وهنا يحق لنا أن نتساءل ماذا لو قدر لجهود جمعية العلماء أن تستمر بعد الاستقلال في شكلها المنظم؟**

• ضعف أداء المنظومة التربوية؛ حيث أن اهتمامها بالإعداد الديني في مختلف مستويات التمدرس يكاد يكون متعذرا. وهو ما فسح المجال ليغرف الشباب إشباعا لميوله الدينية- أفكاره من أوساط ذات تكوين سطحي أو متطرف. وإذا كان البعض يذهب إلى أن ما آل إليه الوضع في البلاد... يرجع إلى المنظومة التربوية التي أنتجت التدين المتطرف، فإن تحليلنا يذهب عكس ذلك؛ إذ إن ما آل إليه وضع المجتمع من ممارسات دينية شاذة ومنطرفة تتحمل المنظومة التربوية مسؤوليته الكبرى؛ من حيث أنها لم تأخذ على عاتقها دور بناء الذوق الديني السليم لدى الفرد الجزائري، ولم تخصص لذلك حيزا زمنيا كافيا في المقررات الدراسية، فهي لم تتحمل في رأينا مسؤوليتها في الإعداد الديني للفرد لأنها لم تولي هذه القضية أهميتها.

لأما الأسباب الآتية فيمكن أن نذكر منها:

• انحسار مساحة العمل الدعوي الواسطي بسبب الأزمة الأمنية والسياسية التي دخلت فيها البلاد؛ حيث التزم كثير من الدعاة بيوتهم وهاجر البعض، وتعرض البعض للتضييق، كما أن دخول البلاد في حالة الطوارئ قد قلص كثيرا من مساحة التحرك الدعوي، وبالتالي انفسح المجال أمام تيار الاتحلال، وتيارات المد التديني

المتطرف في طبيعتها السلفية الجهادية أو العلمية، حتى تشكلت معالم المشيد الديني الجزائري على الصورة التي هو عليها الآن.

* ضعف الدور المحوري لمؤسسة المسجد وعدم توفرها على كفاءات ذات تكوين شرعي وواقعي متين، يكون له صداه الإيجابي في توجيه ميول التدين لدى حميور المسجد وجهة الاعتدال والوسطية. والظاهرة تزداد اليوم خطورة؛ إذ إننا نرى أنه ومع التوسع في بناء المساجد تبقى تغطيتها بإطارات دينية كفاءة ناقصة، بل إن بعضها يقوم على متطوعين يفتقد كثير منهم لمؤهلات أداء هذه الوظيفة الدينية الحساسة والخطيرة. وتضيف إلى ذلك أيضا ما نلاحظه من غلبة طابع الاسترزاق لدى العديد ممن يتصدى لهذه المهمة، وغياب أو نقص الشعور ببعدها الرسالي.

* ردة الفعل على الواقع المجتمعي في العشرية الأخيرة، ففي ظل بطالة رهيبه وفراغ كبير وظروف اجتماعية واقتصادية كارثية** يجد الشباب طريقين أمامه للهروب من هذه الوضعية المأساوية، فالطريق الأول هو طريق التدين (والذي سيكون غالبا وفق الرؤية السلفية لخلو الساحة الدعوية)، والطريق الثاني هو طريق الانحلال.

* سهولة وبساطة نمط التفكير لدى فئة المتدينين على الطريقة السلفية، وقدرتهم على اجتذاب الشباب، وسيادة المظهرية (لحية/ قميص/ سواك)، وغلبة نمط التفكير المشوش القائم على حرفية نصومية تعتمد على "منهج" في الفهم أساسه الوقوف على ظواهر النصوص، وتتغذى في أفكارها على بعض الكتيبات والقصاصات، ولا تكلف نفسها عناء البحث والتحصيل.

5.3- الآثار السلبية للمد التديني المتطرف:

برزت بعض الفزعات الدينية المتطرفة -التي بقيت في حيز القوة إبان مرحلة الانفتاح - إلى الوجود بعد أن تخرعت بمبررات عديدة، فكلفت بسلوكياتها وردود أفعالها الانفعالية والعاطفية الهوجاء المجتمع والصحوة الإسلامية خسائر جسيمة وأبعثتها (أي الصحوة) عن أهدافها المرسومة، بل ودمرت الكثير من منجزاتها التي عمل جيل أو جيلين من أبناء العمل المعتدلين على تسييد صرحها، ويمكن أن نلمس هذا في:

- التصدع الذي أصاب الرأي العام الإسلامي المحلي وفقدانه الثقة في المشروع الذي كان يناصره يوما ما.

- تأثر الرأي العام الإقليمي والدولي سلبا وإعلانه الحرب على ما أصبح يسميه الأصولية الإسلامية أو الخطر الأخضر، وعدم تفرقة بين متدين معتدل ومتدين متشدد.

- معاداة شرائح عريضة من المجتمع للتدين خاصة في صورته الجماعية الحركية بعد أن ألصقت به شتى التهم... وبعد أن استطاع المعادون له استراحه إلى ساحات عمل كان يوما ما يتبرأ منها ويرفضها.

- النظرة المشوهة التي أصبح ينظر بها للمتدينين من طرف بعض شرائح المجتمع التي كان التزامها بالإسلام سطحيا أو شكليا، أو تلك التي كانت ضحية لبعض الممارسات المتطرفة. وقد كان سبب ذلك ما آلت إليه البلاد من فوضى سياسية وأمنية. وما حاولت بعض وسائل الإعلام المحلية والدولية الصاقه بصورة التدين؛ بحيث أعطت الانطباع على أن كل فرد متدين هو متطرف المستقبل ينبغي الحذر والحيطه منه. وكبروب من هذه الإدانة الأدبية (والمدنية أحيانا) سار كثير من الشباب الأقل التزاما في طريق الحياد السلبي. بل إن كثيرا من المتدينين أنفسهم وقعوا في ردة فعل سلبية، فحتى يكذبوا هذه الصورة النمطية عنهم عمدوا إلى نوع من النقيض، فغيروا مظهرهم وبعض سلوكياتهم حتى غنوا يبتعدون يوما بعد يوم عن مظاهر الالتزام ليسقط كثير منهم في نهاية المطاف في نزعة الميوعة والتحلل.

- كما شكلت بعض الممارسات التدينية المتطرفة سندا قويا لمواقف فئة المعادين للتدين من العلمانيين واللانكبيين، بحيث عززت أطروحاتهم النظرية حول الدين والتدين عندما صدقتهما الأمثلة الواقعية التي تؤكد ما ذهبوا إليه. فعندما يقول هؤلاء بأن الإنسان المتدين كائن رجعي ماضوي، فالدليل موجود في واقع حال المتدينين، هؤلاء الذين يعيشون مع الأموات ويرفضون مستجدات العصر، ويحاكمون واقع القرن الحادي والعشرين بعولمته وأنظمة ثقافية واقتصادية... بعقلية القرون الماضية. وعندما يقولون أن الإنسان المتدين هو كائن عنقي فالواقع من طنجة إلى جاكربتا أكبر شاهد على ذلك، وما أحداث العشرية الأخيرة في الجزائر، وأحداث الحادي عشر سبتمبر، وأحداث بالي والدار البيضاء وغيرها.. إلا أمثلة عن هذا العنف الذي تحول من دائرة الأفكار إلى دائرة الأفعال.

لقد أعطت هذه السلوكيات التدينية البعيدة عن خط التدين الصحيح الذريعة للمعادين للتدين في مجتمعات العالم الإسلامي، كما للمعادين له في المجتمعات

الغربية أكبر سند واقعي لأطروحاته، حتى غدا كل حديث عن التدين الصحيح ضرباً من الحديث عن شيء غير موجود. لماذا لأن جانباً من واقع الحال يكذب ذلك.

خاتمة:

على الرغم من أن حديثنا قد تركز في غالبيته على بعض جوانب ظاهرة التدين في نطاق المجتمع الجزائري، (وهو بالطبع ما تقتضيه منهجية دراسة الحالة) وعلى الرغم مما يمتاز به الواقع الجزائري من خصوصية في هذا المجال، بسبب ما خبره مجتمعنا عبر تاريخه الطويل، وعبر ما خبره في هذا العقد الأخير بالخصوص. على الرغم من كل ذلك إلا أن هناك قواسم مشتركة كثيرة تجمع بين واقع ظاهرة التدين في الجزائر وواقعها في مجتمعات العالم الإسلامي الأخرى الممتدة على طول محور طنجة-جكرتا، مما يجعل معالجة لحالة التدين الجزائرية قريبة جداً من معالجة الحالة الإسلامية ككل.

وعلى هذا الأساس فإذا كانت ظاهرة التدين والصحوحة الإسلامية ملمحاً عاماً من ملامح واقعنا المعاصر فإنها على قدر امتدادها وتوسعها، وعلى قدر إيجابياتها؛ من حيث أنها شكلت عودة كبيرة لتراث عريضة من أبناء المجتمعات الإسلامية إلى دينها بعد غربة طويلة، فإن لها من السلبات والعوائق التي اعترضت وتعترض طريقها ما يحتم على الراسخين من أبناء هذه الأمة الوعي بالعلل التي تتخبط فيها هذه الحركة التدينية، والبحث في أسبابها وتتبع عثراتها وأخطائها قصد تسديدها وتقويم مسارها.

وما حاولنا تقديمه من خلال وصفنا لحالة التدين في المجتمع الجزائري ليس بعيداً عما هو حاصل في الساحة الإسلامية ككل. فعلى التدين هي نفسها كما حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم. تتسحب على سلوك التدين لدى الفرد الجزائري كما تتسحب على أفراد آخرين من أبناء هذه الأمة الممتدة من المحيط إلى المحيط؛ حيث يمكننا أن نعمم بعضاً من صورة الحالة الجزائرية على مجتمعات العالم الإسلامي الأخرى، وما نقرؤه ونسمعه مما يكتبه الدعاة والمفكرون في مجتمعات العالم الإسلامي عن علل التدين وما يعتمده من مشكلات... ليس بعيداً عما نخبره في واقعنا الجزائري، وعما حاولنا وصفه وتصويره، فالمشكلة هي نفسها - مع بعض الفوارق البسيطة التي تحتمها خصوصية المكان - من طنجة إلى جكرتا.

إلا أن ما ينبغي التنبيه إليه هو ضرورة أن يتحمل العلماء والدعاة والمفكرون من الرساليين من أبناء هذه الأمة مسؤولياتهم التاريخية في العمل على انتشار الشباب المتدين، ومعهم هذه الصحوة الدينية المباركة من هذتها، وتثديب بعض شذوذاتها واليهفوات التي رانت عليها، وبيان الطريق الصحيح في الدين كما نص عليه القرآن وبينته السنة النبوية وورعاه السلف الصالح، لأنهم أهل ذلك والأداء عليه، قال تعالى "ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون" التوبة 122.

الهوامش:

* يمكن أن نضيف إلى جانب طروحات هنتغتون طروحات كل من ياري بوزان في مقاله السيلسة الواقعية في العالم الجديد، هو بريان بيدهام في مقاله الإسلام والغرب...ولمزيد اطلاع عليها أنظر: جودت سعيد وعبد الواحد علواني، الإسلام والغرب والديمقراطية قراءات وتعليقات على مقالتي صدام الحضارات لهنتغتون والإسلام والغرب لبريان بيدهام، الطبعة الأولى (بيروت: دار الفكر، 1996). وأيضا: محمد عبد الجباري، قضايا في الفكر العربي المعاصر العوامة صراع الحضارات العودة إلى الأخلاق...الطبعة الأولى (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997).

¹ صامويل بي. هنتغتون، الإسلام والغرب أفاق الصدام، ترجمة مجدي شرس، (القاهرة: مكتبة منبولي، 1995).

* ينقل جون فرانسوا ماير موقف البعض من مستغل الأديان فيؤكد على أن الفلسفات العقلانية ذهبت إلى القول بأن الأديان في القرن الحالي ستغدو في أحسن الأحوال مجرد بقايا فلكلورية أو مخلفات لأشياء تميته من الماضي، بينما ذهب البعض الآخر وهم قلة إلى التنبؤ بحدوث القضاء وتبويض الأديان بسبب سيادة العقلانية والعلمانية، وينقل في الأخير رأي Peter Berger الأستاذ بجامعة بوسطن والمعروف على المستوى العالمي وهو مختص في علم اجتماع الأديان الذي خلص فيه إلى أن: تزوع العلمنة هو الطابع الذي يميز العالم في هذا القرن*

(conclut que la théorie de sécularisation s'est trompée et annonce rien moins que la désécularisation du monde »

أنظر لمزيد اطلاع:

Jean-François Mayer. Religions,

spiritualités et sociétés au XXI^e siècle: perspectives pour la sécurité à disponible sur [17-10-2002] - l'horizon 2025

<http://www.religioscope.com/info/article/014_2025_1.htm>

** يمكن أن نشال على ذلك بما آلت إليه روسيا بعد سقوط الشيوعية أو بولندا وكيف ألهمت الكاثوليكية معثلة في شخص البابا جون بول الثاني حركة التمرد والمعارضة للنظام الشيوعي بقيادة ليش فاليزا. اما

الصين الشيوعية فلها تعرف مناعب كبيرة بسبب بروز بعض الحركات الدينية واستقطابها لقنات واسعة من المجتمع الصيني مثل حركة Falun Gong.

¹ لقد عبر عن هذه الرؤية غير واحد من الميتمين بالصحة الإسلامية، فقد أكد الداعية يوسف القرضاوي حينما سئل عن مستقبل هذه الصحة في نهاية القرن الماضي فلقد أنه لو سئل هذا السؤال في بداية الثمانينيات أو نهايتها لأجاب بتفاؤل أما الآن فإن واقع الصحة والتدين... يجعل المرء أقل تفاؤلاً.

² أنظر: المرجعين السابقين، ص 19، ص 32 على الترتيب.

³ عبد المجيد النجار، في فقه التدين قهما وتزيلا، ط1 (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1989)، ج1، ص 27 (مع تصريف).

⁴ إن التعريف الذي قدمناه هو لغاية إجرائية منضبطة بميدان مداخلتنا، لذلك يمكن إعطاء تعريف أشمل من الذي قدمناه بين مفهوم الدين في المذهبية الإسلامية بغض النظر عن كون هذا الدين هو الإسلام أو غيره، لأن الإسلام يسمى الملأ الأخرى لدينا ولا يقصر مفهوم الدين على الإسلام فحسب، وهو ما تؤكد الآيات الكريمة "ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه" ل عمران 85، "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" الصف 09، "لكم دينكم ولي دين" الكافرون 06.

⁴ عبد المجيد النجار، مرجع سابق، ص ص 27-28.

⁴ أنظر: المرجع نفسه، ص ص 28-30.

"هناك حقيقة تحفل بها كتب علم الاجتماع تؤكد على أن الإنسان حيوان متدين؛ أي أن فيه نزعة فطرية نحو التدين وهي أسس تميزه عن غيره ومركزيته في هذا الوجود العالمي. ويقول Henry Bergson لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير دينية، وهي الحقيقة التي عضدتها الأبحاث التاريخية والأثرية والأنتروبولوجية؛ فقد وجدت مدن بلا مسارح أو تواد أو بلا مرفق من مرفق الحياة الأخرى، غير أنه لم توجد عبر تاريخ الإنسانية الطويل مدن بلا معابد، وقد نص النيبال القراني على ما يعضت هذه الحقيقة في قوله تعالى "وما خلقت الجن والإئمن إلا ليعبنون" الذريات 56، وقوله "وإن أخذ ربك من بلي أدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" الأعراف 172، وقوله "فقم وجيبك للدين حينما فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" الروم 30. والتجربة الإنسانية تشهد بوضوح أن وطأة استشعار وجود خالق تزداد عندما يعرض للإنسان عارض خطير، أو عندما شك عليه الأزمات، فيحتج بين جوانحه ذلك الشعور القطري بالقصور والضعف أمام قوة عينا يطلب منها النمد، وتعد هذا الشعور هو ما عبرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى "هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ربح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين" يونس 22، وقوله "وإننا من الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدنا إلى ضره" يونس 12.

¹ عمر عبيد حسنة، تأملات في الواقع الإسلامي، ط1 (بيروت: المكتب الإسلامي، 1990)، ص 17.

² رواه البخاري.

³ رواه البخاري.

⁴ أنظر: يوسف القرضاوي، كيف تتعامل مع السنة النبوية معلّم وضوابط، ص 28.

رغم أن حقوق نص الحديث واضح إلا أن بعض الأسماء والبيانات في الحديث تشكلت بشكل غير

عقل الأمة وهو مصطلح كثيرا ما كان يستخدمه رائد السمة المعرفة الدكتور أحمد جليل راجي الفزوقي.

قد ما تشبه اليوم لدى فئة عريضة من مثقفي الأمة الإسلامية والعلمانيين منبعا خاصة.

عبد المجيد النجار، مرجع سابق، ص 138-139.

كمثال على ذلك مدينة الجزائر فقد كانت تعوي عند دخول المستعمر الفرنسي ما خالف العادة بسبب أنه

يقع منها عشية الإسكندرية سوى ثلاثة.

كما عبر عن ذلك المرحوم علي فرحات.

لا ادعي أننا وفقا في هذا التصنيف خاصة أن هناك تباينا وتغريبا بين الاتجاهات الفرعية، فما يعصف

بهم التصاهير قد يشترك في بعض النقاط مع اتجاه آخر.

خصصت رئاسة الجمهورية مصلحة خاصة لتزويدها وعهد لها مستورا.

عندما تحدث عن الاعتدال فصد به بعد الدين عن سلك العباد.

على أساس الاقتدار التي تتبعها تيارات المد الإسلامي في الجزائر في بداياته الأولى من خلال تياره

واقفائه بما وثقته تلك المرحلة من أفكار في نطاق العلم الإسلامي.

نظر في هذا الصدد الدراسة الجديدة للدكتور عبد المجيد النجار، في فقه الدين فيها وتريلا، مرجع

سابق.

ناقشت كثيرا من ظاهري في بعض القضايا التي تعتبر دالة في ما يمكن أن أسماه المعنوي من الثقافة

الدينية والأدبية بالمرور، ووجدت أن فئة عريضة لم يجدت حتى أثير العواطف الدينية، وقد كانت

ظنني مرة وأنا أفند لهم نرسا عن الدولة القاطنة عن آل البيت، فمد بجسدي واحد منهم عن المعنوي بال

البيت، علما أنني طرحت هذا السؤال عرضا ولم يكن في تصوري أنما أن ظنني لا يتروك من هذا

البيت !!! إذا كانت هذه حال الجامعيين فكيف هي حال العامة؟؟

شكر بعض التقارير التي وجدت 12 ألف نسخة ذخيرة حسب إحصائيات سنة 2000، كما أن ظاهرة تعاضد

المسخرات والقفل والانحمار والاعتصاب قد زادت بارتفاعها وتبقى كذلك من هذه الأوضاع الكارثية

مطلعة سجلات المحاكم وتقرير الشرطة وما نشره الحراك بلما عن هذه الكارثيات.

من العريب أن تجد جنودا كثيرا من الجزائريين يطؤون القوي حتى في الأمور البسيطة المعروفة من

مضارب خارجية، وما تقدمه بعض القنوات في حصصهم فداوي على الجهاد شديد على ذلك كفاءة قراء القرآن

تعبيرية.

كما هو معلوم فإن جمعية العلماء لم يسمح لها بالعمل بعد الاستقلال في شتى القضايا التي تنظم.

وجدت في الجزائر حاليا ما يزيد على 12 ألف مسجد بما فيها كل جمعية حتى في 13 مليون محفل حسبها بما

صروح به وزير الشؤون الدينية الحالي لأحد الصحف الجزائرية.

تشير التقارير إلى أن عند الفقراء في الجزائر يتجاوز 16 مليون فقير منهم 6 ملايين في حالة جد

حسيرة، و 4 ملايين طفل، 2 مليون منهم يعيشون في حياء قسرية، و 500 ألف طفل يتروكون سنويا من

المدارس.

العقبة الاجتماعية في حياة المسلمين ..

آخر حصون المواجهة مع الغرب

الأستاذ عبد القادر بن حرزالله

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية. جامعة باتنة

إن حشر الهزيمة يمتد فينا ويتوغل إلى كل مناطق الصمود التي كانت في وقت قريب تتمتع بحصانة مضعفة اعتقدنا أنها بعيدة عن التصدع أو الاختراق، حتى ما حققته المحاولات الإصلاحية من مكاسب غدت اليوم مجرد مظاهر باهتة لا تملك أدنى تأثير في حركة الحياة .

بل إن حركة الحياة أصبحت هي القوالب التي تتحكم في أشكال تلك المكاسب وتفرض عليها تكيفا متتاليا مع الأوضاع القائمة يأخذ في بعض الأحيان طابعا جذريا يفقدها صفة المكسب فتتحطم مسنمة إمكانية قضاء الوسيلة إلى غايتها في ذهول تام عن علاقة الوسيلة بالغاية .

ومع هذا الحضور السلبي لهذه المكاسب فإن استمرار وجودها الصوري أصبح غاية لا تقضى إلى شيء معلوم هذا إن لم نجزم بأن تلك المكاسب تحول بعضها إلى مجرد ركام تعثر إزاحته عنا ثقلا يضاق إلى أعياء ما يجد من محاولات إصلاحية سديدة يمكنها أن تحدث أثرا إصلاحيا في حياة الناس .

ومع هذه السلبية البارزة التي يلتحف بها هذا الوجود الصوري لما يصطلح عليه بالمكاسب فإن الدفاع عن هذا الوجود الصوري الذي يفترض أن يتوسل به لتفعيل الإسلام في حياة المسلمين تحول تحت هيمنة الحضارة الغربية وضراوة سيطرتها على مناحي الحياة إلى السقف الذي يمكن أن تنتهي إليه حيود الحركات الإصلاحية المنتشرة عبر أطراف العالم الإسلامي بعض النظر عن طبيعتها أو تسميتها، وهو ما يمثل تحولا جذريا في الاشكال الذي ينبغي أن تواجهه هذه الحركات وتداخل كبيرا بين مبررات وجودها التي تحملها صياغة التقليدية لأهداف الحركات الإصلاحية في خطابها الجماهيري وبين مبررات الوجود التي تتحكم الحضارة الغربية في صياغتها بشكل أو بآخر للتحويل هذه الحضارة إلى العنقيد الأكبر من هذا الوجود الصوري المشلول.

لذلك جاءت هذه المداخلة لتستيز إلى ضرورة التحول في أساليب مواجهة الحضارة الغربية في ظل منطلقات الأحداث المعاصرة الأخيرة بالمرآة على الفقه الاجتماعي الإسلامي في حياة المسلمين باعتباره البنية التحتية التي يجب أن تضعف حصانيتها في ظل التزدي السياسي الكبير الذي منى به المسلمون داخليا وخارجيا. وللتأكيد أيضا على أن هذا الفقه لم يلق اهتماما مناسبا في إدارة دفة الصراع مع كيان الحضارة الغربية ولم يحض بالتحفز المناسب كما هو الحال بالنسبة للفقه السياسي. وقد جاءت هذه المداخلة في المبحثين التاليين :

المبحث الأول: أهمية الفقه الاجتماعي في حياة المسلمين

المقصود بالفقه الاجتماعي الأحكام الشرعية التي تنظم علاقة الفرد بغيره ممن يحيطون به من أفراد المجتمع سواء كانت هذه العلاقات علاقات قريبة (العلاقات الأسرية) أو بعيدة (علاقات الجوار أو علاقات العمل)، إذ طبيعة المجتمع تقتضي أن أفراد لا تتحكم فيهم إلا رغباتهم الخاصة وإرادتهم الذاتية، بل يخضعون إلى جملة من المؤثرات العامة والصلوات المشتركة تثبت انتماءهم إلى وحدة معينة تثبت تميزهم عن غيرهم من الكيانات الإنسانية (ولا عجب في ذلك إذا لولا وجود هذه الظواهر التي ينشأ عنها هذا النمط من السلوك الاجتماعي لكان المجتمع عبارة عن حشد أو زكام يتكون من أفراد متراصين مكانيا فقط أي يوجدون بجوار بعضهم البعض من غير أن تربطهم روح جمعية أو تسدهم علاقات وحدوية تجعل ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم في نسق منسجم في مختلف أحواله : في سكونه وحركته، في ضعفه وقوته في عزه وذلّه، في أفراحه وأفراحه وفي كل ما يعرض له من انتقالات وتطورات) ¹، فكل مجتمع ظواهر ونظم وقوانين تمثل ثقافته شكلا ومضمونا وأن هذه الثقافة هي — حتماً — هيكل أساسي تكويني بالنسبة إلى وجوده، وأنها هي التي تعطيه طابعه المميز، وأنها ما استطاعت ذلك إلا لأنها اتخذت لنفسها مقاييس عامة مشتركة للخير والشر، للحق والباطل للخطأ والصواب، للمناسب وغير المناسب، للجمال والحسن والقبح ².

فهل مازلنا نتحكم في علاقاتنا الاجتماعية القريبة أو البعيدة إلى هذه المقاييس الإسلامية المشتركة في الخير والشر والحق والباطل والخطأ والصواب للمناسب وغير المناسب للجمال والحسن والقبح ³. وهل ما زالت الأسر الإسلامية في نشأة أبنائها تتمسك بهذه المقاييس ⁴. الذي لا شك فيه أن قيم الاجتماع الغربية

هي المسيطرة على كل تلك مع أن حضور هذه القيم في حياتنا لا يحتاج إلى سلطة سياسية تفرضه وترتب العقوبة على مخالفته بقدر ما يحتاج إلى إيمان الأفراد بهذه القيم واعتزازهم بالانتماء إليها. فالمشيد الاجتماعي لحياة المسلمين يؤكد حضور تكيف غريب مع قيم الاجتماع الغربية، فقد تكيف المسلمون في مظاهر اجتماعهم مع قيم الحضارة الغربية، والتكيف هو أعلى درجات القبول والتساقف مع الأوضاع القائمة، فهو عملية اجتماعية على جانب كبير من الأهمية مؤداها أن يتكيف الإنسان بالبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ويصبح قطعة منها فلا يشعر بوطأة نظمها ولا بضيق ذرعا بأوضاعها، بل ترسب هذه النظم والأوضاع في تكوينه وتصبح من أهم مقومات شخصيته ومن أعز ما يحرص عليه.

ويؤكد الباحثون في تاريخ المسلمين أن الوازع النفساني الذي يصدر عن الإيمان الكامل كان له القدر الكبير في إرساء أركان المجتمع الإسلامي في أطوار نشأته الأولى، يقول ابن عثوم عن هذا الوازع وأثره في تأسيس المجتمع الإسلامي: (فكان الوازع النفساني في تلك الأيام مغنياً غناء القوانين والسنن فلم يحفظ تاريخ السيرة النبوية احتياج الرسول إلى إقامة أوامر الإسلام بين أتباعه بالقوة والسلطان بل دام المسلمون زمان إقامتهم بمكة لأوازع يزعمهم عن تجاوز حدود الشريعة غير الوازع النفساني الناشئ عن كمال الإيمان)⁴، وهذا الوازع هو الذي طبع حياة المسلمين في مختلف العصور بالطابع الإسلامي الذي يحكي لنا المؤرخون لنا فيه عن صور نادرة لعذى حضور الروح الإسلامية في المشهد الاجتماعي للمسلمين، فهذه الروح لا تغرض بالقانون ولا تقام بالسلطان بقدر ما ترتب عن ذلك الوازع ترتباً لزومياً.

ومن الشواهد في واقعنا التاريخي التي تبين فعالية هذا الوازع وتثير إلى أن وجودها لا يرتبط بوجود السلطان الذي يفرض الالتزام بالتشريع بقدر ما هو مرتبط بكمال الإيمان، من بين هذه الوقائع أن ماعز بن مالك يفعل فعله ولم يره أحد ولكنه يجيب للنبي صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه، ويقول له: (ظهرني)، ويقول النبي: ويحك إرجع فاستغفر الله وثب إليه، ولكنه كلما أرجع عاد، ولم يهدأ إلا في الرابعة عندما أذن بالتنفيذ ليظهر. وهذه الغامضية لك من تلقاء نفسها، وقالت: ابني زنيبت فظهرني، فيردها النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنها تعود من الغد راجية أن لا ترد ثانية كما رد ماعز فأنته (فوالله ابني لحبلى)، فيقول لها

النبي صلى الله عليه وسلم (فذهبي حتى تلتني، ثم تأتي بالصبي، فيقول لها : انذهني حتى تقطميهِ ثم تأتي والصبي في يده كسرى خبز، وتقول : هذا بني قد قطمته، وقد أكل الطعام، وهكذا لم يهدأ لها بال حتى تطهرت، وأسلمت أمرها للموت ورجعت نفسها إلى ربها راضية مطمئنة ⁵ .

وهذه امرأة في عهد عمر ابن الخطاب يغيب عنها زوجها طويلا، وتَسْتَبِدُّ بها غوائل الشهوة فتتشد في وحدتها :

تطاول هذا الليل تسري كواكبه وأرقني أن لاضجيع الأعيه

فوالله لو لا الله لأتيتني غـيره حرك من هذا السرير جوانيه

ولكني أخشى رقبيا موكلا بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

وهذه امرأة عجوز تخاطب ابنتها قائلة : يا بنتاه فومي إلى ذلك اللبن فامدقيه بالماء. فقالت : يا أماه أو ما علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم حيث أصدر أمرا يقضي بمنع الغش، وتزد الأم قائلة أين نحن من عمر، فإبتك في موضع لا يراك عمر، ولا مناديه إنه يغط في نومه، وتزد البنت قائلة : يا أماه إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فرب أمير المؤمنين يرانا ⁶.

أين هذا الوازع اليوم في علاقتنا الاجتماعية؟ أين فقه البيوع في حياتنا الاجتماعية كما أرسى دعائمه أجيال الفقهاء على مدار أنوار الفقه الإسلامي في بناء منسقى يمنع أبسط ضرر قد يلحق بالمستياك؟ إن أسواق المسلمين اليوم كلها تنور على الصور الشاذة لنظام التعاقد في الإسلام من التنايس والغش والتعامل بالربا. وماذا بقي من فقد الأسرة؟ أليست قيم الحضارة الغربية هي المسيطرة على نظام الزواج عندنا انشاءا وفضا حتى وإن كانت قوانين الأحوال الشخصية للدولة الإسلامية مستمدة من الشريعة الإسلامية فإن التفكير الاجتماعي لمعظم شرائح الشعوب الإسلامية في التعامل مع قضايا الأسرة تستوييه عادات الغرب وتقاليده ويكن لها تمجيذا خاصا قد يجادل في رفضه واحتقاره لكنه لا يقاوم الرغبة في إظهاره والتسك به .

وأي هي قيم التعاون والتكافل وحقوق الأخوة بين المسلمين؟ أليست

الفردية والأنا هي الشريعة المحكمة في أغلب علاقتنا الاجتماعية؟

إن هذه الصور وغيرها كثير تؤكد أن هناك تغيير اجتماعي حادث لم يشهده المجتمع الإسلامي في أبلغ مراحل تحرفا عن قيم الإسلام ففي كل هذه

المراحل كان هناك حد أدنى من الصمود يبقي بعض ملامح هويتنا الاجتماعية على اعتبار أن التغيير الاجتماعي هو (كل تحول يقع في التنظيم الاجتماعي سواء في بنائه أو وظائفه خلال فترة زمنية معينة، والتغيير الاجتماعي على هذا النحو ينصب على كل تغيير يقع في التركيب السكاني للمجتمع أو في بنائه الطبقي، أو في نظمه الاجتماعية، أو في أنماط العلاقات الاجتماعية أو في القيم والمعايير التي تؤثر في سلوك الأفراد والتي تحدد مكانتهم وأدوارهم في مختلف التنظيمات الاجتماعية التي ينتمون إليها)⁷.

ولما كان خضوع المسلمين إلى هذا الفقه في حياتهم على قدر كبير من الأهمية فإن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية قد استفاضت في بيان أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، كما في قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)⁸، فمضمون الآية يشير إلى أن التنازع والتخاصم أوصاف لا يستقيم عليها بناء المجتمع، لأنه لا يمكن بحال أن يوجد وسط اجتماعي يتصف بالحياة وبملك الحصانة تجاه الأنماط الاجتماعية الأخرى إذا كانت الخلائق متدايرة والقلوب متباغضة والعداوة موروثية متجذرة في النفوس لا يردعها قانون ولا يصددها نظام، فالاجتماع مع اتساع الفرفة وقيام العداوة اجتماع متعذر، إذ المجتمع في نظر القرآن تألف بين القلوب واتحاد في المشاعر وتشارك في الوجدان⁹.

وقال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدَاوَنَ)¹⁰ فلاية تأمر بالتعاون وتحت عليه وما التعاون إلا مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية. ومن البين أن المجتمع لم يتميز عن الحشد والجمع إلا لكونه لا يبني علاقاته على الروابط الدموية لتلك العلاقات الطبيعية التي تجعل أفراد الأسرة الواحدة متصلين مترابطين على رغم ما قد يكون بينهم من عوامل الانفصال، وإنما يبنونها على التعاون ويقمها على تبادل المصالح وتنوع المطالب وتكامل الوظائف¹¹. ومع أن دلالة الأمر في نصوص التشريع واحدة فالعجب ممن يهمل دلالة هذا الأمر التشريعي الذي لا يمنع من تنفيذ سلطان جائر ولا حكومة مستبدة ويتأسف على ضياع دلالات الأوامر التشريعية في أحكام الحدود .

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُن خَيْرًا مِنْنِي وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَابِ بِسْمِ الْأَسْمِ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا احْتَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ أَثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَعضُكُمْ بَعضًا أَيُّب أَحذكم أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ بَرَّارٌ رَحِيمٌ {12}. أين دلالات هذه الأوامر في علاقتنا الاجتماعية ؟. بل ولين هذه الحقوق في صفوف من تحلوا أسماء الإصلاح وانتصوا لإقامة الأعوجاج ومحاصرة الانحراف؟ (إن سخريه البعض من البعض. واستيذاء البعض بالبعض، واحتقار البعض للبعض، والبراءة في تجريح الآخرين، والمباراة في سبب العيوب والخبرة في النقاط النقائص، والتفنن في اختلاق الألقاب المستيجنة والإكثار من سوء الظن، والكشف عما تحت الستائر والقنف جزافا وتناول الأعراض بالغبية والنميمة والبهتان وأكل لحوم الآخرين. إن تلك أفتت خطيرة لا يرضيها الإيمان، ولا تفرها التقوى. وتأيها الأخواه لأنها تجعل القلوب متنافرة والنفوس متباغضة)¹³ والمنتبع لمرآح تاريخنا الطويل يجد أن حضور الفقه الاجتماعي في حياة المسلمين وتجسده في شكل مظاهر اجتماعية كان أكثر شيئا من الفقه السياسي الذي طرأت عليه تحولات عدة انتهت إلى زواله بسقوط الخلافة .

المبحث الثاني: مبررات المراهنة على الفقه الاجتماعي

إن المراهنة على الفقه الاجتماعي في هذا الظرف ترضيها شواهد الواقع المعاصر للمسلمين كما ترضيها دلائل الشرع ورويته المتكاملة للكون والحياة . بسقوط بغداد سقطت أشياء كثيرة نعل أبرزها سقوط نظرة الحركات الإصلاحية إلى الأنظمة الحاكمة في الدولات العربية باعتبارها السد المانع من تحقق مشروعها الإصلاحي الكبير الذي منته به جماهير الأمة الإسلامية وخاصت تجارب مزيرة في سبيل تحقيقه منذ سقوط الخلافة العثمانية. فقد تاكد للجميع أن الأنظمة العربية لا تملك شهادة ميلادها كما كان يعتقد وينصير إلى وقت قريب، وأن هذه الشهادة لا قيمة لها مالم توقعها الحضارة الغربية ممثلة بالسياسة الأمريكية في العالم الإسلامي بل ولعالم بصفة عامة. وأن هذه الحضارة هي التي تملك شهادة وفاتها أيضا وهي التي تتحكم في تاريخ توقيعها الذي يتزامن مع اعتقاد أي نظام عربي بعكس هذه الحقيقة كما حدث مع النظام العراقي الذي اعتقد أنه شئني

يذكر خارج الموقف الإمبريكي فتحول إلى مجرد أثر بعد عين، وهو ما يؤكد أن الجهود الإصلاحية في العالم الإسلامي يجب أن تنظر بموضوعية كبيرة إلى أي نصر قد يكتسبه في صراعها مع الأنظمة الحاكمة على سدة الحكم وأن تعطي لهذا النصر حجمه الحقيقي في ظل الأحداث المعاصرة. فمادنا تعني حقيقة وزارية أو حقيقتان أو حكومة بأكملها في ظل السياسة الأمريكية التي طالت رقابتها حتى المناهج الدراسية المعتمدة من الأنظمة العربية ؟ فمادنا يعني ذلك في منطلقات النصر والهزيمة ؟. لذلك فإن النصر الحقيقي الذي يمكن أن تحققه الجهود الإصلاحية في المرحلة الراهنة هو الهزيمة التي يمكن أن نلحقها بالحضارة الغربية في قلوب المسلمين، والخلقة التي يمكن أن نحققها هذه الجهود الإصلاحية في الأنماط الاجتماعية في حياة المسلمين المتنوعة بالقيم العربية فتجعلهم يشعرون بوطأة هذه القيم وغريبتهم عنها، فالمنطق الأمريكي في إدانة العراق وتحطيمه منطوق يعيش بيننا ونحمله في أدبيات تفكيرنا ونمارسه في علاقتنا الاجتماعية بل وحتى في نقد جهودنا الإصلاحية وتقويمها نستخدم هذا المنطق لتقويض الآخر إن لم ينتظم في الروى الخاصة والتصورات الذاتية للحقائق والأشياء.

لذلك فإن إحياء أدبياتنا الاجتماعية بالممارسة الفعلية من شأنه أن يغير الكثير من الأشياء، كما في حقوق الأخوة والتزاماتها الشرعية من شأنه أن يمكن من السيطرة على الكثير من الانحرافات ويحطم الثقلات المغلوطة والتي من أبرزها الربط بين نجاح أو فشل المناهج الخاصة بنجاح أو فشل الإسلام والربط بين تحقق المكاسب الخاصة بالكيانات والطوائف وتحقيق الدعوة، فهذا خلاف منهج الأنبياء وسلفهم الصالح في الدعوة إلى دين الله، وأقولنا في ذلك سيرته صلى الله عليه وسلم فقد حاول الكفار تقليم أهدافه وتحجيد طموحه بالتعاقب على مشاركتهم في مردود الأوضاع القائمة إذ أقوم حاولوا عرض الزعامة عليه فرفضها رفضاً صريحاً لا يحتمل التأويل، إذ أتيم قد أرسلوا في طلبه وقالوا له : (فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى نكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فإنا فنحن لسودك علينا، وإن كنت تريد به مكا ملكناك علينا، فأجابهم مابي ما يقولون ولكن الله يعطي إنيكم رسولا، وأنزل على كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فليعظكم رسالات ربي، ونصحتكم لكم فإن تغفلوا متى ماجناكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردود على أصغر لأمر الله

حتى يحكم بيني وبينكم) ¹⁴ فمزاومة السلطة الحاكمة على مردود الترددي أو ميادنة الأوضاع القائمة في مقابل الزعامة أو النفوذ الحراف كبير طوق الجهود الإصلاحية وشل حركتها وحجب أفقها .

فمنهج تفصيل الإسلام في حياة المسلمين منيغ بقوم على التصحية بالذات ممثلة في المكاسب الخاصة لصالح الهدف (تفصيل الإسلام في حياة المسلمين) وليس استغلال الهدف للمحافظة على المكاسب الخاصة أو تعزيز وجودها والمبالغة في تسيبها لذلك كان اختلاف سلفنا في الرأي لا يتجاوز الأطر الشرعية لفقه التعامل مع الآخر. فهو خلاف (لم يكن سبياً لإفتراقهم، انهم اختلفوا لكنهم لم يتفرقوا لأن وحدة القلوب كانت أكبر من أن ينال منها شيء، انهم تخلصوا من العلل النفسية وإن أصيب بعضهم بخطأ الجوارح، وكان الرجل الذي بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بطلعه عليهم وأخبرهم أنه من أهل الجنة، هو الذي استكبهوا المره وعمله قتيبن أنه لا ينام وفي قلبه غل لمسلم) ¹⁵ . لأن الإسلام حركة باتجاه التوافق مع سنن الوجود والعالم، فأحرى به أن يكون متحققاً بالتوافق مع نفسه ¹⁶ .

ورغم هذا القصور المشاهد في الجببة السياسية وضعف مردودها في توجيه حياة المسلمين نحو قيم الإسلام وتعاليمه فإن هناك تضخم في العناية بالمسألة السياسية على حساب المسألة الاجتماعية حتى على المستوى الفكري، إذ يتفق الكثير من المفكرين أن هناك احتجاس مزمن بالمسألة السياسية على حساب المسألة الاجتماعية فقد تحولت المسألة السياسية إلى محور المنهج الفكري العربي والإسلامي الذي تجذب إلى هذه المسألة محاولاً إعطائها الأولوية في النظر والبحث، ورغم أن المنهج في ذلك كان غزيراً في الكم إلا أن الباحث فيه لا يعسر عليه أن يلاحظ أنه دخل في دائرة التكرار والتكرار المشوه في بعض الأحيان لأصول الأفكار التي طرحها الرواد الأوائل، (بل بلغ به فقره مبلغاً لا سابق له في الخطورة : إنتاج لغو إيديولوجي في مسائل مستغلقة على غير أهلها من المالكين شرائط النظر والفحص، والقارئ اليوم في ذلك الكم الهائل من النصوص — متأخرها على وجه الخصوص — لا يجد كبير رسع إلى تمييز سميتها عن غيرها، إما لتدرة ما يستحق منها أن يحسب في عداد النصوص، أو لتداخل الفكر والمضاربة الأيديولوجية في النص الواحد، إذا استثنى الباحث نصوص الإصلاحيين الإسلاميين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وهي التي احتارت ماهية فكرية

ذات اعتبار، فإن البواقي مما ضخته آلة النشر منذ سبعين عاماً ليس له تصاب من الفكر السياسي كبير مقام إلا درراً بشمة لم بعدمياً تاريخنا الفكري على كل حال¹⁷ فهذا التضخم في العناية بالمسألة السياسية يقلبه اهتمام قاصر بما آل إليه الواقع الاجتماعي للمسلمين رغم أن الجانب الاجتماعي في النبوة سطقاً يعتبر الصفة الأساسية لجوهرها، وهذا ما يؤكد معنى النبوة ذاته فالنبوة (مصطلح استعمله العرب والمسلمون القدماء وهو منسوب إلى هو، وهذه النسبة تشير إلى ما يحمله من مضمون، فهي كما يقول الجرحاني في التعريفات الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق. أما مفاهيمها الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون عندما قالت أنها حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة على صفاته الجوهرية والتي تميزه عن غيره وتسمى أيضاً وحدة الذات وبعبارة أخرى ... فإننا نستطيع أن نقول أن النبوة الحضارية لأمة من الأمم هي القدر الثابت والجوهري والمعتزك من السمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات¹⁸ .

على أن إهمال الجانب الاجتماعي في مواجهة مع الحضارة الغربية يدل على قلة ما انتهى إليه الوعي بواقع المسلمين إذ (الاهتمام المعرفي بهذا الواقع ينحط في الثقافة الإسلامية الراهنة إلى درجات بعيدة، وهو ما تمثل جلياً في ذلك الفقر المنفع الذي تعانيه المكتبة الإسلامية اليوم من الدراسات الواقعية لحياة المسلمين : اجتماعياً وثقافياً وسياسياً وديموغرافياً، بحيث تصف ذلك الواقع وتحلل عناصره، وتبين أسبابه وملابساته، حتى إن المحتاج إلى علم في ذلك يجد أنه لامناص له من أن يرجع إلى بحوث ودراسات أنتجها الفكر الغربي الذي توجه إلى واقع الحياة الإسلامية بالدرس الشامل والعميق حتى أصبح أهل الغرب يعلمون من الأحوال الواقعية للمسلمين أكثر مما يعلم المسلمون أنفسهم عن أنفسهم¹⁹ .

من بين مبررات الالتفات إلى هذه الاجتماعيات في المرحلة الراهنة أيضاً أن القرآن الكريم أثبت أن مستوى العلاقات الاجتماعية في نية المجتمع هو أساس الاجتماع وأصل العمر، فلا يقوم القراع والأصل معنوه كما لا يقوم القراع على أصل نخره السوس وذب فيه التصدع قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم

تكونون²⁰، فمضمون الآية يفيد أن التنازع والتخاصم والتعادي مؤشرات شوم، وعلاقات خراب ودمار لأنه لا يمكن بحال أن يوجد وسط اجتماعي يتصف بالحياة والنمو إذا كانت الخلائق متدابرة، والقلوب متباغضة والعداوة موروثة متمكنة في النفوس لا يقوى على ردعها قانون. ولا يجد لبيب لها نظام. ومن هنا يمكن القول بأن القرآن ينفي الاجتماع مع العداوة²¹. وإذا لتقى الاجتماع أو اختلت موازينه تعذر الإصلاح سياسياً أو ثقافياً .

لذلك يتأكد أن الجهود الإصلاحية مجبرة اليوم على النزول إلى أعماق المجتمعات وبناءاتها الأساسية إذا أرادت أن تحدث أثراً في حياة الناس يمكنه أن يتحول إلى سد منبع بقق في وجه العرب والله موفق .

الهوامش :

- ¹ محمد التومي. المجتمع الإنساني في القرآن الكريم. ص 299. الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب .
- ² جردات عزت. البديل الحضاري للمجتمع المعاصر. ص 129 مجلة أسئلة المعاصر، ع 13، 1978م.
- ³ المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع. نيل محمد توفيق السليطي. ص 266. جدة. دار الشروق. ط 1
- ⁴ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. ابن عثرون. ص 90 الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب. ط 2
- ⁵ السد. المجتمع المعاصر. كتاب العداوة. ص 119 من اعتراف على نفسه بارتكاب .
- ⁶ تاريخ عمر ابن الخطاب. ابن الجوزي. ص 77. 76 .
- ⁷ معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. أحمد زكي تويي ص 582 مكتبة لبنان .
- ⁸ ابن عمران. الآية 103 .
- ⁹ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم. محمد التومي. ص 270 .
- ¹⁰ المائدة الآية 2 .
- ¹¹ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم. التومي. ص 272 .
- ¹² الحجرات. الآية 11 - 12 .
- ¹³ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم. التومي. ص 274 .
- ¹⁴ ابن هشام. السيرة النبوية. 261/1. حصر. شركة الطباعة المتحدة .
- ¹⁵ كتاب آداب الاختلاف في الإسلام. عمر عبيد حسنة. تقدم لجنة حوار العلوي. ص 13. الجزائر
- ¹⁶ بحث منهجية التعامل مع علوم الشريعة في ضوء التحديات المعاصرة. عماد الدين خليل. بحوث مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات. 617/2. الأردن. جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية. ط 1 سنة 1995م.
- ¹⁷ النبوة في الفكر الإسلامي المعاصر. عبد الله بقرين. ص 10. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية.
- ¹⁸ النبوة الحضارية محمد حمزة ص 79 - 80. سما. ع 3. مجلة الأولى .
- ¹⁹ عوامل شيوع الحقد في (2). عبد المجيد شحر. ص 43. بيروت. دار الغرب الإسلامي. ط 1. 1999
- ²⁰ ابن عمران. الآية 103 .
- ²¹ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم محمد التومي. ص 270 .

مقومات الرسالة الحضارية للأمة الإسلامية في التناوب الحضاري

الدكتور محمد دباغ

كلية العلوم الإسلامية. جامعة أدرار

الملخص:

إن المنتبج لتاريخ الفكر الإسلامي نشأة وتطورا يدرك بجلاء عناصر القوة في هذا الفكر في مختلف الجوانب، كما أن التطبيق العملي للنظم الإسلامية عبر التاريخ، يبين ما امتازت به هذه الحضارة من مبادئ سامية في كافة النظم الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتشريعية، كما عبر عن ذلك العلامة ابن خلدون في مقدمته.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية بهذا القدر من الأهمية فإنها بلا شك تتطوي على عوامل القوة والانبعث كلما توفرت الشروط اللازمة لقيامها .

ومن المعلوم أن المبادئ التي قامت عليها الحضارة الإسلامية مبنية على أسس ودعائم قام عليها الفكر الإسلامي عموما وهي مبادئ ثابتة في أصولها منظورة في فروعها، وهذا ما يجعلها قادرة على مسايرة العصور وحل مشكلات البشرية في مختلف البقاع وذلك ما يحقق للأمة الريادة التي أناطها الله بها بمقتضى قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا).

المبحث الأول: مفهوم الرسالة الحضارية للأمة

المطلب الأول: مفهوم الأمة

إن لفظ الأمة ورد في اللسان العربي بمعان عدة أهمها ماورد في القرآن

الكريم في قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)1

أي جماعة تشترك في المبادئ والأهداف، وقوله تعالى: (واذكر بعث أمة)2

أي بعد زمن ما، وظاهر أن أنسب المعاني للموضوع هو المعنى الأول أي

معنى الجماعة³

جاء في مختار الصحاح الأمة الجماعة وتطلق على الطريقة والذين يقال فلان لا أمة له أي لا دين له ولا نحلة⁴.

وعرفها الدكتور الصادق عفيفي اصطلاحاً بأنها: (جماعة من الناس متحدة الجنس واللغة والدين والتاريخ تربط أفرادها على طول الزمن الاحساسات المتشابهة والمنافع المشتركة والعوامل الاقتصادية)⁵.

المطلب الثاني: مفهوم الرسالة الحضارية

يقصد بالرسالة الحضارية مجموعة منغاصت والأهداف التي يجب على الأمة تحقيقها، وهذه الرسالة قد تكون ذات طبيعة فردية أو جماعية.

أما الوظيفة الجماعية فمبنية على مبدأ الاستخلاف في الأرض وهذا المبدأ يقتضي جملة من المؤهلات التي تجعل الأمة في مستوى الاستخلاف.

ونأتي بعد ذلك الوظيفة الفردية المبنية على قوله تعالى: (إنا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً)⁶.

وقوله تعالى: (أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وانكم لنا لاترجعون)⁷

المطلب الثالث: مفهوم الحضارة الإسلامية

لمفهوم الحضارة علاقة متينة بمفهومى الثقافة والمدنية، ولبيان التمايز بين مفهومي الحضارة والمدنية نختار أن مصطلح الحضارة يختص بالتكوين الثقافي والمعنوي لمجتمع ما⁸. ونفط متنية بعد أكثر اتصالاً بالحضارة المادية وهناك ضبط آخر للأصطلاحين مؤداه أن:

الحضارة = مادية + قيم

ومن هذا التحليل نستخلص أن الحضارة الإسلامية تحمل في طياتها مكونات الثقافة الإسلامية بجميع مبادئها، وبذلك نستطيع القول أن يمكن أن نسقط خصائص الفكر الإسلامي على خصائص الحضارة الإسلامية خاصة ما يتعلق بخاصيتي الإنسانية والعالمية.

المبحث الثاني: أسس الرسالة الحضارية للأمة

المطلب الأول: الدعوة الإسلامية

من أهم وظائف الأمة الإسلامية الدعوة إلى الخير والتنبيه عليه سواء كان ذلك على الصعيد الفردي أو الجماعي

وبيان ذلك ماورد في قوله تعالى: (وتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)9

وبصرف النظر عن الخلاف الوارد في الآية هل هي دالة على العينية أو الكفائية، فإنه باستصحاب قاعدة تعيين فرض الكفاية عند تركه من قبل الكافة، فإنه يمكن أن يستدل بكون هذه الفريضة من أهم الأسس الحضارية للأمة

أما على الصعيد الفردي فإن انه خص المصلحين من الأمة بالثناء و عظيم الأجر في قوله تعالى: (والذين يسكنون الكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضع أجر المصلحين)10

وقد تميزت الدعوة الإسلامية عبر العصور بخصائص ومميزات كان من نتائجها لقياد الناس لرسالة الإسلام عن طواعية و كان امتثالهم للأوامر واجتنابهم للنواهي منطلقاً من دوافع فطرية وبواعث روحية، مما يدل على ان رسالة الإسلام تحمل في ثناياها ملكة تنفذ بها إلى العقول والقلوب في ان واحد ولكي تستعيد رسالة الإسلام هذا الدور لابد من اترك جملة من العوامل أهمها:

-البيان الوافي لأحكام الإسلام ومبادئه

-التصدي للشبهات التي تثار ضد الفكر الإسلامي تاريخياً وواقعياً

-أخذ المسلمين بالأسباب العلمية والعملية التي تجعلهم في مستوى رسالة الإسلام حتى يعجزوا عنها بصرف

المطلب الثاني: رباتية المنصر والوحية

جاءت رسالة الإسلام لتربط الناس بخالقهم لثناء ودواماً، فينبى في أساسها وحي الأهي سواء كان باللفظ و بالمعنى، وهذه الخاصية تجعل الشفة مثبتة بين هذه الرسالة وبين من امنوا بها11

كما ان سعياً إلى توحيد الارضاء خالقهم بقرينة ان جمع ما يعنونه إنما هو قصد تحقيق مرضاته حل وعللاً، قال تعالى: (قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين)12

المطلب الثالث: سمو المقادير والأهداف:

إن رسالة الإسلام جاءت لتحرر العقل البشري من الجهل والخرافات والتقاليد البائدة، فحررت العقل من عبادة غير الله، ووجهته إلى التفكير الحر حيث أخضعت جميع الحقائق لمبدأ البرهان حتى يكون الفكر حراً فيما يعتقد أو ينكره .
ثم انبثقت وجبت الناس إلى الاستعمال بعضا من الأمور حيث نبهت الإنسان إلى حقيقة وجوده وإلى أهم الأولويات التي ينبغي له أن يراعيها مركزاً في ذلك على ضرورة التوازن بين المتطلبات الروحية والمادية. قال تعالى: (ولتع فيما آتاك الله الخيرات ولا تخسرها في الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا)13

المطلب الرابع: كمال التشريع

تضمنت رسالة الإسلام تشريعاً متكاملًا ينظم العلاقات الإنسانية تنظيمًا دقيقًا محكمًا شاملًا يستوعب جميع جوانب الحياة، ولذلك وحدنا الفقه الإسلامي مقسمًا تقسيمًا فنيًا حسب مواضيع الأيوأب ابتداء من العبادات إلى تنظيم العلاقات الدولية في السلم والحرب

ولعل من أكثر المواضيع دلالة على واقعية رسالة الإسلام وسمو مبادئها هي تقرير كون العلاقات الدولية في الإسلام مبنية على السلم وهو مبحث مهم من مباحث السياسة الشرعية نكتفي في الاستدلال عليه بقوله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة)14

المبحث الثالث: رسالة الأمة وفاق المستقبل

المطلب الأول: استعادة الدور الحضاري:

إن الله سبحانه وتعالى وعد الأمة الإسلامية باستعادة نورها في الحياة وثبوتها المكانة الحضارية التي كانت عليها وذلك عندما تتحقق الشروط الموضوعية وتتوفر الأسباب الشرعية لهذا الدور وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئاً)15

ومن هنا نستخلص قدرة الرسالة الإسلامية على الانبعاث والتجدد كلما توفرت الشروط الموضوعية لذلك، يقول الأستاذ ابراهيم نويري: (إن الحضارة الإسلامية تتزهل وتضعف لكنها لا تموت، لأنها تحمل في جوهرها ومكوناتها كياناً خالدًا انتهى إليه الوحي الإلهامى كله، وتجمعت في شياها كل الرسالات فيو وأن

كانت ألفاظه وكلماته عربية المعاني إلا أنه مطلق بخصائصه ودلالاته وكل أمة من أمم الدنيا تستطيع أن تستفيع بما فيه من هدايات عامة وسنن كونية واجتماعية كما تحس أنها معنية بمضامينه وأن خطابه موجه إليها)16

المطلب الثاني: العلاقة بالأمم الأخرى

إن واجب الدعوة يحتم على الأمة الإسلامية أن تقوم بتورها كاملاً تجاه الأمم الأخرى. وذلك بتعريفها بحقيقة الإسلام ونشر تعاليمه السمحة كما يجب عليها أن تتمثل هذه المبادئ عملاً وسلوكاً حتى تكون في مستوى القوة الحسنة التي هي شرط أساس في الدعوة.

أضف إلى ذلك أنه لا يلقى بالأمة الإسلامية إن تتعامل مع الحضارات الأخرى بعقلية الضعيف، الميزوم بل يجب عليها أن ترتقى إلى درجة المستفيد الذي يحسن غريبة الأشياء ويميز بين النافع والضار ويوزن كل الأمور بميزان دقيق مرجعه المبادئ المبنية على الموروث الحضاري والقيم الأصيلة)17

المطلب الثالث: رسالة الأمة وتحديات العولمة

لئن كانت العولمة في أصلها فكرة اقتصادية فإنها تتوسع متخذة أشكالاً مختلفة لتغزو كافة المجالات ففي المجال السياسي تحاول فرض نموذج معين يجسد فكرة الديمقراطية الغربية ولو بوجه من الوجود، كما أنها في المجال الاقتصادي تحاول الخروج عن الأنظمة التقليدية لتعمم فكرة اقتصاد السوق. وفي المجال التكنولوجي تحاول استغلال جميع الوسائل لتجعل من العالم قرية صغيرة وفي هذا الحضم لا بد للأمة من أن تتفاعل إيجابياً مع جميع هذه المعطيات وتقرض خصوصياتها في المسائل الثابتة في مختلف المجالات. ذلك لأن الاستفادة من العولمة تقتضي ألا يكون هناك طرف مهيم يجعل الجميع تابعاً في جميع الأمور والإكانت العولمة هيمنة

الخاتمة:

إن هذه القراءة التحليلية لمبادئ الرسالة الحضارية للأمة الإسلامية نخلص إلى النتائج الآتية:

1- إن رسالة الأمة الحضارية رسالة سامية تُهدف إلى تحقيق سعادة البشرية جمعاء

2- إن حضارة الإسلاميه تحمل في طياتها عوامل الانبعاث والتجدد

3- على الأمة الإسلامية أن تكون فى مستوى حضارتها وتاريخها لتستعيد دورها الريادى بين الأمم، ولأنه لها ذلك إلا بالذرات واجتيا الشرى وسعيها الحثيث لتأديته بكافة الأسباب العلمية والعملية

4- ضرورة مراعاة السنن الكونية فى التغيير والإخذ بأسيابه

5- مواجهة الأمة للتحديات التى تعوق التنمية الحضارية وذلك بمحاربة الجهل والتخلف

6- الاستغلال الأمثل للمبادئ السامية التى تدعو إلى التعامل الإنسانى مع كافة الأمم بشرط الحفاظ على الشخصية وتجنب الانهزاد المؤدى إلى الشعور بعقدة النقص

7- التمسك بالمبادئ الثابتة للرسالة الإسلامية والتعامل مع الفروع المتغيرة فى إطارها

الهوامش:

- (1) البقرة: 143
- (2) يوسف: 45
- (3) ابن عسور: التحريز والتتوير، 3-48
- (4) مختار الصحاح، 22
- (5) السلاط أن هذا التعريف لا ينطق تماما على الأمة الإسلامية لخصوصيتها والتساعيا وعدم الحضارها فيما ذكره، ونظر أيضا عقيدة، الإسلام والعلاقات الدولية، 114
- (6) لأخراب، 72
- (7) المؤمنون: 116
- (8) سليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة، 24
- (9) ل عمران: 104
- (10) الأعراف: 110
- (11) القرصاوى، مدخل دراسة الشريعة، 87
- (12) الأعراف: 164
- (13) القصص: 77
- (14) البقرة: 206
- (15) النور: 53
- (16) مجلة المعيار، العدد الثالث، 291
- (17) محمد عمارة، لزمنة الفكر الإسلامى الحديث، 65

القوة النورية ومسؤولية المسلمين في هذا القرن في الجهاد بها

الأستاذ صالح عسكر

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية. جامعة باتنة

إذا أطلق لفظ القوة انصرف في الأذهان إلى ما يمكن أن يبينه أمة من عدد وعُدَد، ومن وسائل الغلبة والآلات الحرب من طائرات ونباتات ومدافع وقذائل وغيرها، حتى كان من يمتلكها هو القادر على فرض رأيه على غيره لا يستطيع له رداً.

هذه القوة المادية متى كانت إلى جنب الحق والعدل كانت خيراً على الناس، ولذلك كان تحصيلها مطلوباً من المظنوبات الشرعية والفطرية.

وأياً يكن؛ فمن الواضح أن المسلمين اليوم قد ضيعوا هذا الواجب وسبقوا في هذا الميدان، لأسباب كثيرة ليس هذا موضع بسطها وأغلبها معلوم، فهل معنى ذلك أن الإسلام في هذا القرب يوشك أن ينكسر وينتثر. فلا تقوم له بعدها قائمة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تنطلق من تحديد موقع القوة المادية من شريعة محمد صلى الله عليه وسلم..

فمن المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مبشراً بعقيدة التوحيد ومنقذاً لشريعتهما، فكان الإمام في المحراب وفي ساحة القتال، والمفتي والقاضي... والشريعة التي جاء بها نفسها نظمت في عقد واحد أحكام الصلاة والصيام والحج... وأحكام الزكاة والبيع والأحارة والشفعة والرهن... وأحكام الزواج والطلاق والخلع والإيلاء والنضار... وأحكام الجهاد والسير وقسمة الفداء والغنائم... وأحكام أهل الذمة والمعاهدين والمخاريبين... وأحكام واداب المطعم والمشرب والملبس... إلى جانب الحدود والنعايير وغيرها، وهذه الأحكام تبدأ من علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبأهله ثم قرابته وجيرانه وأهل ملته وأهل الملل الأخرى إلى أن تصل إلى علاقة المسلمين كأمة بغيرهم من الأمم الأخرى منحددة أو وثنية أو كتابية.

وهذه الأحكام يختلف موقع القوة والإلزام منها؛ فبينما يتجلى كصيغة أساسية في بعضها كالحُدود مثلا، فهو ينتقى في الباقي ..

فإذا أمعنا في موقع القوة من هذه الأحكام، وجدنا أن الجزء الذي تنتفي فيه هذه القوة هو مبنى الإسلام : ابتداء بالعقيدة والعبادات، قال تعالى: { لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاعات ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم } (١).

بل إن العادات والمعاملات أيضا من جنس ذلك؛ إذ الأصل أن الالتزام فيها مبني على الطواعية على اختيار.

أما الجزء الذي تعتبر القوة المادية صفة أساسية فيه -ويتمثل بصورة أساسية في الحدود والتعازير والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- فمقصده سياسي تطبيقي. إذ هدفه ضبط أمور المجتمع وتقي الحلل المتسارع إليه من مخالفة تلك الشرائع.

ويؤكد ذلك أن هذا الجزء أن هذا الجزء لم يشرع إلا بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، حيث جمع صفة إمام الأمة إلى جانب صفة إمام الصلاة، أي صار الحاكم بعد أن كان الداعية فقط.

بل إن القرآن نفسه يصرح بغاية هذه الأحكام، قال تعالى: { ولولا دفاع الله للناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا } (٢).

فإذا نقرر هذا، تبين أن القوة المادية في الإسلام ليست إلا قوة حامية حارسة، وأما القوة الفاعلة فيه فهي أمر آخر لا بد أن يكون قد صاحبه منذ فجر ولادته، بل منذ أول لحظة فيه.. فما هي هذه القوة؟

القوة الفاعلة في الإسلام:

إن القوة التي انتصر بها الإسلام حقا تتمثل في أنه يقدّر على أن يعول عدوه إلى جانبه، فإن لم يحوله هو حول زوجه وأبنائه وتركه وحيدا أعزل، وما لأمس هذا الدين أمة إلا تلفقه أهلها وانطلقوا به في الأفاق مجاهدين في سبيله، ذلك أنه يحمل نور الحق ويرمي بظلاله فإذا الباطل أمامها تنزل زاهق:

{ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب * قل جاء الحق وما يبدؤن الباطل وما يعين } (٣).

{ بل ننفخ بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون } (4).

{ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا } (5).

ولا نظير الحديث، فهذا القرآن نفسه يصرح بقوته، ويشرح بعلمه وانتصاره، قال تعالى: { يريدون ليطفنوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون } (6).

فتور الله الذي جاء به هذا الوحي هو القوة التي لا تستطيع أن تقف في طريقها قوة أبدا مهما كانت، حتى يتم، وحتى يظهر الإسلام على كل دين فوق هذه الأرض رغما عن أتوف أعدائه، وما ظهوره إلا باستجابة الناس له وسعادتهم به سعادة المبصر بالنور بعد تجلاء الظلام.

ولقد أيد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا السلاج أيضا إن قال: "ما من نبي إلا أوتي ما عنته آمن عليه النار، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله اليه فارحوا إن يكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" (7).

فرسول الله صلى الله عليه وسلم بنص في هذا الحديث على أن معجزته التي وظيفتها قطع حجج المرتابين وإثبات الصدق له - خلافاً للأنبياء قبله - معجزة معتدة من حيث الزمان من جهة، ومعجزة عقلية مبنية على التكبير لا على الحرص، وأنه يرجو أن تقنع هذه المعجزة خلقا كثيرا حتى يكون - عليه الصلاة والسلام - أكثر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - اتباعا يوم القيامة.

وما زال اتباع محمد صلى الله عليه وسلم يتزايدون يوما بعد يوم والإسلام في امتداد ولا عجب، لكن العجب أنهم ما زالوا يتزايدون بعد أن صار المسلمون أمة ضعيفة لا تحمل من الإسلام إلا شعاعا باهنا خافتا، وما ذلك إلا لأن هذا القرآن نور إذا عائق الأيصار طارت به شعفا وكرهت أن تعود إلى ما كانت عليه إلا كما تحب أن تنقى في النار.

لقد سمي الله سبحانه وتعالى قرانه روحا ونورا؛ والروح بها حياة الجسد، والنور به تنصر الأعمى، ولا قيام لهما من غيرهما: { وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا ندي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور } (8).

{ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا بمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها } (١٠).

{ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا } (١١).

هذه هي القوة النورية للقرآن الكريم. وهي سلاح الإسلام البتار، الذي ما زال يباهيه أئمة الضلال ورووس الكفار، وقد أمر الحق عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجاهد به الكافرين جهادا كبيرا. فقال تعالى: { فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا } (١٢).

فما دور هذه القوة في واقع المسلمين اليوم؟

دور القوة النورية في واقع المسلمين اليوم:

لا يختلف اثنان أن المسلمين اليوم قد أضاعوا واجبات كثيرة، وأن عقدهم قد تفرط .. وقد انبعثت طائفة منهم تريد رأب الصدع وإصلاح العطب، لكنها تجد نفسها معزولة فارغة الدين. في حين يمتلك عدوها ناصية العلم والمال ووسائل القوة والدعاية وغير ذلك بصورة لا مجال فيها للمقارنة، فما الذي يمكن أن يفعله المخلصون من هذه الأمة لإعادتها إلى مدارها الذي انحرفت عنه؟

على المسلمين أن يعلموا أنهم حين لا يملكون القوة الحامية، فإن سلاحهم الأول ما زال موجودا في أيديهم، وهو قوة الإقناع بالقرآن وتثبيت أركان هذا الدين في القلوب والافعال. وأن ذلك مع مرور الزمن هو الذي يجلب القوة المادية متى صحبه الثبات وبعد النظر. بل إن القوة المادية لا وظيفة لها حين تكون حامية للفراغ، وإنك لمن تستطيع أن تقبم الحد على ألف زان. وإنما تقيمه على الواحد المصغر المجاهر بعد أن يتوب الشاقون. وربما تلك هو طائبا للتطبير. راجيا وأنحاء تنبيه كما فعل ما عز. (١٣)

إن كان المسلمون لا يملكون العدد والعدد فإنهم يملكون " كتابا لا يغسله الماء " (١٤). لولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد } (١٤). وإن علينا مسؤولية كبرى في نقله إلى الأحمر والأبيض وأن يجاهدوا به جهادا كبيرا.

ولئن كان عدوهم يملك وسائل الدعاية والبلاغ، فإنه لا يملك ما يدعو إليه أو يبلغ الا الدعوة إلى الشيوات التنبئة والرخصة. وإن كانت الشيوات أسرع إلى النفوس من النار في الشيم فتينا لا تروى ضما ولا تسفي غيلا. وما يعقبها من ألم

أشد من ألم السياط اللواذع، وإن حلاوة الإيمان في النفوس أشد من خالص الشهد،
وليهو أرسخ فيها من الجبال الرواسي.

بيد أن عدونا قد هبأ من حيث لا يشعر من الوسائل ما قد يختصر علينا
كثيراً من العناء في طريق البلاغ، وعلينا نحن أن نكون أهل فطنة وذكاء فنحسن
استغلالها .

إن العولمة التي نشهدها اليوم قد حملت فيما حملت من سيئات أو حسنات
أمرين مهمين:

أولهما: هامش يتسع أو يضيق نسبياً من الحرية في التفكير وإبداء الرأي
وإلقاء الفكرة والحجة.

والثاني: تطور في وسائل الاتصال سبيل انتقال الأفكار والآراء والمعلومات
والمعتقدات إلى كل مكان في الأرض، من غير أن تكف في طريقه حدود أو تعجزه
المسافات.

وهذان الأمران مهمان جداً للمسلمين، فقد كانت أجساد الصحابة رضوان
الله عليهم تكوى بالنار أو تقطع بالسياط لمجرد اعتقادهم وحدانية الله، فضلاً عن أن
يدعوا غيرهم إليها، ومع ذلك غلبت الحجة السوط والسيف، فبيل لنا نحن أن نصجر
بقينات ابن حنبل ونحن نملك أن ننلو قرأنا؟⁽¹⁵⁾

إننا لن نلوم عدونا إذا استخدم ما يملك من وسائل لفصرة باطله، لكننا نحن
أيضاً يمكن أن نستخدمها في نشر دعوة الحق والخير، وقدما قال نبي الله شعيب
عليه السلام لقومه: { ويا قوم اصعلوا على مكائتكم التي عامل فسوف تعلمون من
يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتيبوا اني معكم رقيب }⁽¹⁶⁾.

ولقد أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقولها أيضاً لقومه: { قل يا
قوم اصعلوا على مكائتكم اني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل
عليه عذاب مقيم }⁽¹⁷⁾.

وأما سهولة الاتصال وانتقال المعلومات والأخبار والأفكار، فإن هذا من
أعظم ما يخدم الإسلام لو أحسن المسلمون استغلال ذلك، ولقد بشر رسول الله
صلى الله عليه بدخول هذا الدين كل بيت آمن وير أو من متر، فعن نعيم الداري
رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لنبلغن هذا
الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت متر ولا وير إلا أدخله الله هذا الدين
بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام ودلاً يذل به الكفر "⁽¹⁸⁾.

ولسنا نعلم شيئا دخل بيوت الوبر والمنز إلا هذه الأجهزة والوسائل، فلعلنا إن أحسن استغلالنا أن ندخل هذا الدين لكل بيت ودر أو مدر - والله أعلم -.

إن القوة المادية ووسائل الإعلام والدعاية وسيلة في يد من يملكها ومن يحسن استغلالها، وإنها لا تختم صاحبها إلا بقدر ما نظر في يده يوظفها في تحقيق مآربه طيبة كانت أم خبيثة، وعليه فإن القوة التي ترهب المسلمين اليوم لعلنا أن تصير يوما فينا في أيديهم

يرهب عدوهم، ولقد أعد يهود بني النضير خيلا وركابا تلقى الرجف والخوف في قلوب من يعادون ومنهم المسلمون، فلما سار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتلهم فيمن معه، ألقى الله الرعب في قلوبهم حتى جعلوا يخربون بيوتهم بأيديهم حتى لا يدخلها عليهم المسلمون، ونالهم هزيمة نكراء، فصارت خيلهم وركابهم فينا غنمه المسلمون. (19)

قال تعالى: { وما آفأه الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير } (20).

إن هذه الأحداث من أيام الله التي يقف فيها كل ما في الكون مسيحا منزها لله رب العالمين مستشرفا لروائع قدرته وحكمته: { سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار } (21).

ولكن أليس وراء ذلك توحيه آخر؟ ألا يدفع ذلك المسلمين - على مستوى الأسباب - إلى التفكير في الالتفاف على قوة العدو المادية بدلا من مواجهتها.

إن المسلمين إذ ينطلقون مجاهدين بالقرآن ناشرين لنوره، لا يؤذون واحدا شرعا في تبليغ الهدى إلى الناس والشهادة عليهم فقط، ولكنهم أيضا يبنون جيش الحق وقوته، ونصرة العقيدة وحماتها.

هذا عن الفكرة النظرية المجردة، لكن كيف يتم توظيف هذه القوة النورية

للقرآن؟

كيفية المجاهدة بالقرآن:

قد ذكرنا أنفا أن قوة الإسلام والقرآن تتمثل في قدرته على تحويل عدوه إلى جنية، ذلك أن السلاح الأول لهذا الدين هو استجابته لحاجة فطرية مغروسة في

نفس الإنسان، وانسجامه مع العقل والفطرة، وتحقيقه للسكينة النفسية، إلى جانب حجة قارعة وبرهان ساطع، وهو فوق ذلك يقدر على إصلاح التصور وتهديب العمل.

إن هذه الخصائص وغيرها تجعل تبليغ القرآن إلى الناس كاملاً وساطعاً عين الجهاد، ذلك أن الله - سبحانه وتعالى - قد أودع في آياته القدرة على إقناع جميع الناس على اختلاف أجناسهم والسننهم والوانهم.

ولئن كان من المنقرض أن معجزة القرآن كانت معجزة بيانية يتركها أهل الفصاحة من العرب فإن قصر هذه المعجزة على البيان فقط ظم لصيغة العموم للمكان والاستمرار في الزمان الذين اخصت بهما هذه الرسالة.

على المسلمين أن يذكروا أن هذا الجهاد بالقرآن عمل يومي مستمر، وأن عامل الزمن مهم، فإن الاستعجال قد يقلب حال الواحد منهم إلى مثل حال من تقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، ولقد نص القرآن الكريم على أن الأحداث الكبرى في عمر الأمم تغلس بالآف السنين. قال تعالى: { ويستعجلونك بالعذاب ولئن خلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون } (22).

ولقد أنزل الله كتابه على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجماً فيما يناهز ثلاثاً وعشرين سنة ليقرأه على الناس على مكث، فتنهذب به أعمالهم وتركى به نفوسهم، ويتربون على أخلاقه وشراعه في سهولة ويسر: { وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً } (23)، فأولى لنا أن نفقه الحكمة في ذلك.

و الواقع أن علينا أن ننظر في عديد من النواحي الشرعية نستخلص العبرة منها، فإن اخصاص القرآن المكي في عمومته بالعقيدة، والقرآن المدني بالأحكام مثلاً، يرشدنا إلى أن نبدأ أولاً بتعظيم العقيدة - أعني العقيدة الإسلامية في بساطتها كما عرضها المعين الصافي للإسلام؛ القرآن والسنة، لا مجموعة للمباحث الميتافيزيقية الفلسفية التي تجعل صدر العبد ضيقاً حرجاً كأنما بصعد في السماء -، ثم بعد ذلك الأحكام، والتي يتفلقها إثر ذلك القلب النقي المنعق بالله بشغف وإقبال .. وعلم أسباب النزول مثلاً يرشدنا إلى أن نقرن أحكام القرآن وآياته على الوقائع التي تحدث في حياة الناس يومياً، فيتعلمونها تعلمًا عملياً تطبيقياً ترسخ فيه القاعدة مع المسألة، والنظرية مع الفعل.

إن حسن التعنى بالقرآن الكريم وتطوير شرحه والتفريع على المسائل التي عرض لها - وإن كان كله من العبادة -، فإنه لا يغني عن إزراك معانيه والتزام

أوامره والالتناء إلى نواهيها، وقد قال المفسرون⁽²⁴⁾ بأن أي إخلال بأحد الشروط الثلاثة: التلاوة والتدبر والعمل، يجعل المخل معنودا ضمن من اتخذ القرآن مهجورا، المشار إليهم في قوله تعالى: { وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا }⁽²⁵⁾.

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه لم يحملوا إلى الناس كتب إعراب التنزيل، ولا لشرطة التجويد والترتيل، ولكن حملوا القرآن فعلا يرى ووحيا يتلا.

على المسلمين أن يعلموا أن نور الله الذي انتميم عليه قد جاء لجميع الناس، وأن أنفسا كثيرة تتوق إلى هذا النور ولعلها لا تشعر، في عصر - عارت التعاسة فيه بضاعة رانجة، بين شعوب الأمم التي تعد متحضرة قبل غيرها، وبين أهل الغنى والنعوذ والقوة قبل غيرهم، ولقد جعل الله هذه الأمة أمة وسطا لتكون شاهدة على الناس بالبلاغ يوم القيامة، وتلك أمانة تُال عنها يومئذ، وإن القعود عن ذلك من جلي النقصير.

هذا وإن لهذا القرن خصائص تفرض توظيف بعض الوسائل الموافقة لطبيعته.

أهم الوسائل العملية الموافقة لطبيعة العصر:

لعل من أهم الوسائل العملية التي يحتاج المسلمون إليها اليوم في تبليغ نور القرآن والجهاد به، التمكن من لسان المخاطب؛ فبذلك يتحقق البلاغ وتبين الحجة، وقر قرر القرآن لن الله - عز وجل - ما ابتعث نبيا إلى قوم إلا بلسانهم، قال تعالى: { وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم }⁽²⁶⁾.

وإن من أكبر العوائق التي تكف في طريق البلاغ اليوم، عدم إتقان كثير من المشتغلين بالدراسات الإسلامية والمختصين فيها للغات أخرى، بينما بضاعة كثير ممن يتقن اللغات من المعارف الإسلامية بضاعة مزجاة. ولعل تفكير المعاهد والكلليات الشرعية في تطوير البرامج اللغوية وتقويتها حل لهذه المعضلة، إلى جانب تنشيط الترجمة مع انتقاء الدراسات الجيدة وإعطاء الأولوية لها في المرحلة الأولى.

هذا بالنسبة للقالب الذي يتم فيه البلاغ، ومن جهة أخرى فإن توظيف الأسلوب القرآني السهل في المحاوراة، واجتذاب الأسلوب الفلسفي المعقد - الذي

يقصد أكثر مما يصلح- أصبح ضرورة ملحة، ولك أن تقارن بين سورة الرحمن والمجالات الضخمة التي كتبت في علم الكلام حتى تترك الفارق، ولتستحضر دوماً أن مهمتنا هي أن نبليغ دعوة وننشر رسالة ونقيم حججا ونحض أباطيل، لا أن نكتشف عن سعة علمنا وعمق فهمنا وقدراتنا الخارقة وقطنتنا الفائقة.

هذا واستغلال جميع الوسائل المتاحة، خاصة تلك التي أنتجها هذا العصر وسخرها في الخير والشر أمر بالغ الأهمية، بل لا مفر منه ولا مناص، ولقد اختص هذا الدين بأن في شرئعه ما يتيح الاتصال الدائم والمتكرر بالجمهير في الجماعات والجمعات والأعياد وغيرها-، وذلك ما يمكن من تهييب الأنفس وتركيبها وتبليغ الحق إليها وترسيخه فيها في سهولة ويسر.

إن استغلال كل الوسائل الممكنة في البلاغ انطلاقاً من المساجد والمدارس ووصولاً إلى وسائل الاتصال الحديثة ذات الانتشار الواسع كالإنترنت والقنوات الفضائية، والسعي إلى شغل أكبر حيز فيها وربما السعي إلى إنشاء قنوات خالصة على منوال القنوات التبشيرية أضحت من الواجبات التي لا يقبل التقصير فيها أو الإخلال بها.

على أن كل ذلك لن يكون ذا معنى إلا إذا كان القائمون عليه متصفين بصفات خاصة تؤهلهم للقيام بهذه المسؤولية.

صفات المجاهدين بالقرآن:

لو أطلقنا العنان للتفكير والتخمين لافترضنا فيمن يدعو إلى القرآن ويبلغه إلى الناس صفات كثيرة، ولكن من الأولى أن نرجع إلى القرآن نفسه، لعل أن نجد فيه كشفاً لبعض هذه الصفات ..

فحين ننظر في صفات من انتمه الله على تعليم كتابه نجد أولها أن يكون ربانياً⁽²⁷⁾، كما قال تعالى: { ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون }⁽²⁸⁾.

فالمفترض فيمن يعلم كتاب الله أن يكون ربانياً متعلقاً بربه ممثلاً لهذا القرآن في عمله، فإذا كان كذلك فهو يبلغ القرآن بأفعاله قيل أقواله، يراه الناس قيل أن يسموه.

وهذه الربانية تجعل العبد قائماً مقام القدوة للناس، فالمترك بالحس المبصر قريب إلى الأنفس قريب إلى القبول.

هذا ومن الصفات التي مناص منها للمجاهد بالقرآن، أن يصون نفسه عن حرص يطمعه فيما في أيدي الناس، أو حين يرهبه من بطشهم، فيتحرف بسببهما عن الحق، لذلك امتدح الحق سبحانه وتعالى: {الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله...} (٢٩).

وألقي سبحانه على السنة أنبيائه نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام: {وما نسألكم عليه من أجر إن أجرين إلا على رب العالمين} (٣١).
وألقي على لسان محمد صلى الله عليه وسلم أيضاً: {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكفنين} (٣١).

وأخذ العهد بذلك على الربانيين والأخبار: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهاداً فلا تخشوا الناس واخشوا ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} (٣٢).

فلما استحفظ الربانيون والأخبار على كتاب الله قيل ليم: لا تخشوا الناس، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، وهما مرضان إذا أصاب أحدهما أو كلاهما الحامل للكتاب انحرف عن الحق ووطأ لكل واطأ.

لعل هذا الطرح يحتاج إلى مراجعة وإعادة تقييم، فإن كل جهد بشري جهد قاصر، وللبنية الواحدة إذا عدل موقعها واضيف إليها واحدة ثم واحدة صارت بناء شامخاً مستقيماً، {وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً} (٣٣). وما أفا ذا أجل تنتجته:

نتائج البحث:

القوة المسندة للحق بها صلاح حياة الناس.
الأحكام الشرعية منها ما لا يبنى على القوة وهو مبنى الإسلام، ومنها ما تعد القوة مركزية فيه ووظيفته الحامية وهو مكمل للأول.

القوة التي انتصر بها الإسلام هي قوة الإقناع والنور الذي تضمنته آيات القرآن الذي حكم الله بنصامه وغلبته على غيره. وهذه القوة هي التي تنتج غير الزمن القوة المادية الحامية.

فقدان المسلمين للقوة المادية لا يعني خسارتهم لكل شيء، بل عليهم أن يفكروا في الالتفاف على هذه القوة باستعمال القوة الفاعلة في دينهم أي النور الذي تضمنته آيات التوحى.

إن وجود القوة المادية بأيدي من يعادي المسلمين لا يعني استمرارها بأيديهم إلى الأبد، وقد يهيء العدو لعدوه سلاحا يقع بيده غدا وهو لا يشعر.
المسلمون أحق الناس باستغلال وسائل الاتصالات الحديثة لأنهم يملكون ما يتلغون بينما يدعو غيرهم لشبهات زائفة.

إن تبليغ القرآن ناصعا وساطعا جهادا، يفترض أن يكون عملا يوميا متواصلا يصاحبه بعد نظر وثبات وتخطيط صائب.

على المسلمين الاستفادة من بعض الإشارات المرتبطة بالقرآن كالبدء بعرض العقيدة على منوال القرآن المكي، ثم الأحكام على منوال القرآن المدني.
الحرص على تبليغ المعاني المركزية للرسالة القرآنية وعدم شغل الناس بمسائل الترف الفكري في المرحلة الأولى.

إن الفتن والتعاسة التي تعصف بالناس اليوم تجعلهم وإن كانوا لا يشعرون في أمس الحاجة إلى الرسالة النورانية القرآنية، وتأخر وصولها إليهم أو انحجابها عنهم تقصير عظيم يسأل عنه المسلمون يوم القيامة.

على المسلمين أن يوظفوا كل وسائل العصر في تبليغ نور القرآن وأن يخاطبوا الناس بلسانهم ولغة عصرهم تيسيرا عليهم واختصارا للطريق.

إن أمانة الجهاد بالقرآن تحتاج إلى قوم رباتين اجنت من قلوبهم الطمع فيما في أيدي الناس، والخوف من غير الله سبحانه وتعالى، وتمثلوا ما يدعون إليه في أفعالهم، فالناس يروته قبل أن يسموه منهم.

الهوامش :

(¹) البقرة: 256

(²) الحج: 40

(³) ساء: 48-49

(⁴) الأنبياء: 18

(⁵) الإسراء: 81

(⁶) التوبة: 32-33

(⁷) البخاري، الصحيح (مع الفتح) كتاب الاعتصام، 247/13، دار المعرفة، بيروت، ص 14.

(⁸) الثوري: 52-53

(⁹) الأعمام: 122

(¹⁰) النساء: 174

(¹¹) الفرقان: 52

- (¹²) نظير خير ما عر في صحيح البخاري. كتاب الجنود: 121/12.
- (¹³) حديث: إنما بعثت لأبغضكم وأبغضكم إليكم، وأبغضكم لآبائكم، وأبغضكم لأبائكم، وأبغضكم لآبائكم، وأبغضكم لآبائكم، وأبغضكم لآبائكم... أخرجه مسلم في صحيحه.
- (¹⁴) فصلت: 42.
- (¹⁵) خير قبائل ابن خطم ذكر في سب نزول قوله تعالى: [ومن الناس من ينسئ ليو الحديث ليحلل عن سبيل الله بغير علم...] سورة لقمان. نظير: أبو حيان، البحر المحیط 178/7، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1413-1993.
- (¹⁶) هود: 93.
- (¹⁷) الزمر: 39-40.
- (¹⁸) أحمد، المسند 4/103، دار صادر، بيروت، دت ط.
- (¹⁹) نظير تفسير ابن كثير 6/592-602، دار الانتشار، ط2: 1400-1980.
- (²⁰) الحشر: 6.
- (²¹) الحشر: 1-2.
- (²²) الحج: 47.
- (²³) الأعراف: 106.
- (²⁴) نظير تفسير ابن كثير.
- (²⁵) الفرقان: 30.
- (²⁶) إبراهيم: 4.
- (²⁷) الزمخشري مشوب إلى الرب بزيادة الألف والنون وهو شديد التمسك بدين الله وطاعته، انظر: الشفا، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 1/185، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1415-1995.
- (²⁸) آل عمران: 79.
- (²⁹) الأحزاب: 39.
- (³⁰) الشعراء: 109، 127، 145، 164، 180.
- (³¹) سورة ص: 86.
- (³²) المائدة: 44.
- (³³) الأعراف:

- (¹²) النظر خير ماعز في صحيح البخاري، كتاب الصوم 121/12.
- (¹³) حديث "لما بعثت لاسيتك وبقلي بك وانزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقراه لئلا ينظن ...
أخرجه مسلم في صحيحه.
- (¹⁴) فصلت: 42
- (¹⁵) خير فيفات ابن خطل ذكر في سبب نزول قوله تعالى: (ومن الناس من يشري ليو الحديث ليضل عن
سبيل الله بغير علم ... [سورة لقمان، النظر: أبو حيان، البحر المحيط 178/7، دار الكتب العلمية، بيروت،
ط1: 1413-1993.
- (¹⁶) هود: 93
- (¹⁷) الزمر: 39-40
- (¹⁸) احمد، العمد 103/4، دار صادر، بيروت، ط1 ط2
- (¹⁹) النظر تفسير ابن كثير 6/592-602، دار الاندلس، ط1: 1400-1980.
- (²⁰) الحشر: 6
- (²¹) الحشر: 1-2.
- (²²) الحج: 47
- (²³) الاسراء: 106
- (²⁴) النظر تفسير ابن كثير.
- (²⁵) الفرقان: 30
- (²⁶) الزاهد: 4
- (²⁷) الرباني منسوب الى الرب بزيادة الالف والنون وهو شديد التمسك بنين الله وطاعته، النظر:
الشمسي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 185/1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1415-1995.
- (²⁸) آل عمران: 79
- (²⁹) الاحزاب: 39
- (³⁰) الشعراء: 109، 127، 145، 164، 180
- (³¹) مودة ص: 86
- (³²) المائدة: 44
- (³³) الاسراء:

واقع التدين بين الوسطية الإسلامية و التطرف

الدكتور بلقاسم شنوان

جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

الحديث عن واقع التدين بين الوسطية الإسلامية و التطرف ذو شجون إذ نراه قد شغل ألباب الباحثين و الدارسين لا سيما في هذه الأزمنة المتأخرة، ولذا ارتأينا المشاركة في ملتقاكم المبارك الذي نسأل المولى عز وجل أن تكلل أعماله بالنجاح بمداخلة حول هذا الموضوع الذي نعتقد جارمين بأنه موضوع الساعة ولذا سنتولى بالدراسة و البيان فنقول:

لقد أنزل الله على نبيه الإسلام الذي يتميز عن غيره بكثير من الخصائص ومنها منهج الوسطية في كل شيء - في التصور و الاعتقاد و التعبد و التمسك و الأخلاق و التصوف و السلوك و المعاملة و التشريع... - فكان لا يتماله على هذه الخصائص منهجا عالميا¹ لا يضاهيه نظام في العالم بأسره فسماه الله تعالى بـ "الصراط المستقيم" و لا شك أنه منهج متميز عن طرق أصحاب الديانات و التحل و الفلسفات الأخرى من المغلوب و الإفراط و التفريط، و حذر من المنهج الموروث عن أهل الديانات و خاصة أهل الكتاب الذين غلبوا في دينهم و كانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون.

أولا: الوسطية و دعوة الإسلام إليها

تعريف الوسطية:

وسط القوم من باب وعدة (بطة) أيضا بالكسر أي توسطهم، و التوسط أن يجعل الشيء في الوسط، و الوسط من كل شيء أعتله و منه قوله تعالى: " وكذلك جعلناكم أمة وسطا² أي بمعنى عدلا، و شيء وسط أيضا: بين الجيد و الرديء³، و قال صاحب القاموس المحيط⁴: الوسط محركة من كل شيء: أعتله " وكذلك جعلناكم أمة وسطا أي عدلا خيارا.

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " :
 المعنى: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطا، أي جعلناكم دون
 الأنبياء وفوق الأمم، والوسط العدل، وأصل هذا أن أحمد الأسياء أوسطها " وقال:
 روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في قوله
 تعالى " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " قال: عدلا قال هذا حديث حسن صحيح، وفي
 التنزيل " قال أوسطهم " ⁴ أي أعتلهم وخيرهم.
 وقال الشاعر:

لا تذهبن في الأمور فرطا لا تسألن إن سألت سَططا

وكن من الناس جمعا وسطا

وقال الإمام القرطبي: ولما كان الوسط مجانيا للغلو والتكصير كان محمودا
 " أي أن هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في أنبيائهم، ولا قصرت تكصير اليهود في
 أنبيائهم وفي الحديث "خير الأمور أوسطها " وعن علي: رضي الله عنه: " عليكم
 بالتمتع الأوسط فإليه ينزل العالي وإليه يرتفع النازل " ⁵.

فالوسطية هي إحدى الخصائص العامة للإسلام وهي إحدى المعالم
 الأساسية التي ميز الله بها أمة الإسلام عن غيرها فخاطبها بقوله تعالى: " وكذلك
 جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس " ⁶، في أمة العدل والاعتدال التي
 تشهد في الدنيا والآخرة على كل لحراف يمينا أو شمالا عن خط الوسط المستقيم.
 فلأجل هذا يجب أن ننشد في واقعنا الديني الفكر الوسطي أي الفكر الذي
 تتجلى فيه النظرة الوسطية المعتدلة الكاملة للإنسان وللحياة، والنظرة التي تمثل
 المنهج الوسط للأمة الوسط بعيدا عن الغلو والتكصير - لأن موقف الفكر الوسطي
 من قضايا كبيرة تطرح في الواقع المعيش للمجتمع المسلم المتدين وتتميز وسطية
 الفكر فيه في موقفه المعتدل من قضايا كبيرة ومهمة تطرح، نذكر منها على سبيل
 المثال لا الحصر الآتي:

أن هذا الفكر الوسطي الذي دعت إليه الآية وسط بين المذهبية الضيقة
 ودعاة اللامذهبية المنفرطة.

وسط بين المستعجلين لفظف الثمرة قبل أوانها والغافلين عنها حتى تنكطف
 في أيدي غيرهم بعد نضجها.

وسط بين المغالين في التحريم كأنه لا يوجد في الدنيا حلال، والمغالين في
 التحليل كأنه لا يوجد في الدين شيء حرام.

وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرر.

هذه هي الوسطية التي يتبناها الفكر الإسلامي الصحيح النابع من أصوله الممثلة في الكتاب والسنة، وإن كان قد بدأ اليوم في واقع الثنين بين فئات المجتمع من انحرفوا عن هذا المبدأ الوسطي والسقوط بين طرفي الإفراط والتفريط إلا من رحم الله، فقد ظهرت ألوان لطيف لبعض المتدينين في الواقع الديني للمجتمع، قد انحصرت عنده الألوان الكثيرة في لونين اثنين لا ثالث لهما هما الأبيض والأسود، وليس بينهما ألوان أخرى مما يعرفه غيرهم من الألوان الأصلية والفرعية التي لكل منها درجات لا تكاد تحصر، وأخرون يكادون يحصرون الألوان كلها في واحد ويجعل الأصل في الألوان كلها وفي الحياة كلها هو (السواد) تبعاً للمنظار الذي يره به الناس والأشياء.

فراجت فكرة التسيق والتبديع في واقع المتدينين بل التكفير⁷، وساعد على ذلك الجو الخائق الذي تعيشه الحركات الإسلامية ورجالاتها ودعاتها الذين سلطت عليهم ألوان التكتيل والتشريد من كل جهة، وغلب على الواقع الديني الفكر الذي ينزع إلى الرقص والتشاؤم والاتهام وسوء الظن بالآخرين على اختلاف نزعاتهم واتجاهاتهم — ومن المظاهر التي سادت واقعنا الديني سوء الظن بالآخرين يقول الشيخ القرصاوي: "سوء النظر بالناس والنظر إليهم من خلال منظار أسود يخفي حسناتهم على حين يضخم سيئاتهم"⁸ حتى أصبح الأصل هو الاتهام خلافاً مما تقرره الشرائع والقوانين: "إن المتهم بريء حتى تثبت إدانته" فإنك تجدهم يسارعون دائماً إلى سوء الظن والاتهام لأدنى سبب فلا يلتصقون المعانير لغيرهم بل يفتشون عن العيوب ويتكلمون بالأخطاء ليضربوا بها الطبل ويجعلوا من الخطأ خطيئة، ومن الخطيئة كفراً.

وبهذا المنطق تغلب على الفكر الإسلامي الوسطي الإعانات والتصلب وتقفرت روح الوسطية السمحة الميسرة التي جاء بها الإسلام، واعتقد البعض من أن الحركات الدينية في الواقع المتدين لا بد لها من التغلب على فكر المحنة أو فكر الأزمة لتنتقل بعدها إلى الفكر الوسطي المعتدل المعبر عن وسطية المنهج الإسلامي الذي أراد الله به اليسر ولم يرد به العسر.

يقول الشيخ القرصاوي: "إن الوسطية في رأيي ملازمة للتيسير فهو وسط بين التزمّت والتطعم من ناحية والتسبب والتحلل من ناحية أخرى، فعلى الحركة أن

تنتهي فقه التيسير وذلك بتبني الآراء الفقهية المتعلقة بالمجتمع في سياسته واقتصاده وقوانينه ومعاملاته وعلاقاته الدولية بخط التيسير لا التعسير والتسهيل لا التعتيق والتشديد.

وذلك لجملة من الأسباب:

إن الشريعة الإسلامية مبناها على اليسر ورفع الحرج والتخفيف والرحمة والسماحة، كما نلت على ذلك النصوص الغزيرة والوفيرة: كقوله تعالى:

"يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"⁹.

"وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم"¹⁰.

"ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج"¹¹ (في ختام آية الطيارة).

يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا"¹² (عقب أحكام التكاح والمحرمات).

"ذلك تخفيف من ربكم ورحمة"¹³ (في أحكام القصاص والعفو فيه).

"لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا"¹⁴.

"قال مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا"¹⁵ قال الحصان معلقا: بعد نزول هذه الآية خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مسرور بضحك وهو يقول: "لن يغلب عسر يسرين لن يغلب عسر يسرين إن مع العسر يسرا".

قال الحصان معلقا: يعني أن العسر المذكور بنينا هو المتني به آخر لأنه معرف بالآلف واللام، فيرجع إلى المعود المذكور، واليسر الثاني غير الأول، لأنه منكور، ولو أراد الأول لعرفه بالآلف واللام"¹⁶

ومن السنة:

قوله صلى الله عليه وسلم: "يسروا ولا تعسروا"¹⁷ وفي رواية "يسروا ولا تعسروا وكنوا ولا تنفروا"¹⁸.

قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثتكم مبشرين ولم تبعثوا معسرين"¹⁹.

وحين أصابت عمرو بن العاص جنابة في ليلة باردة فصلى دون اغتسال فشكاه من معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ذكرت قول الله تعالى: "ولا تعسوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما"²⁰ فبسم النبي صلى الله عليه وسلم غير أنه صلى الله عليه وسلم أكر أشد الإنكار على جماعة افتوا مجروحا أصابته جنابة بضرورة الاغتسال، فاعتمل فمات بسبب فتواه المعننة فقال عليه الصلاة والسلام:

قتلوه قتلهم الله، هلا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإن شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يربط على حرحه ويتيمم²¹.

عن أبي هريرة عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال: "إن الذين يسرون ولين يشاء الذين أخذوا إلا عليه، فشدوا وقاربوا، واستعينوا بالعدوة والروحة وشيء من الدلجة"²².

عن عائشة زوج النبي — صلى الله عليه وسلم — أنها قالت: ما خير رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل²³.

عن عبد الله بن عمرو قال: رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عند الجمرة وهو يسأل، فقال رجل: يا رسول الله تحرت قبل أن أرمي، قال: أرم ولا حرج " قال آخر: يا رسول الله: حلفت قبل أن أتحر، قال: " أتحر ولا حرج " قال: فما سئل عن شيء قدم ولا آخر إلا قال: " افعل ولا حرج "²⁴.

يقول الدكتور الفرضاءوي: " إن الناس في عصرنا أحوح ما يكونون إلى التيسير عليهم و التخفيف عنهم رفقًا بهم ومراعاة لحالهم، حيث ضعفت الهمم وغلب على الناس التكاسل عن الخيرات وكثرت فيهم العوائق عن الخير والمرغبات في الشر... "، ويقول: " فالأولى أن يفتوا بالرخص أكثر من العزائم، وبالنسيهيل أكثر من التشديد كما يفعل النبي — صلى الله عليه وسلم — مع حدثاء العهد بالإسلام، ومع الأعراب من أهل البادية، فيل يقبل من أقم ألا يزيد على الفرائض شيئاً من السنن والنصوح، ويقول عليه السلام " أفح إن صدق " أو في الجنة إن صدق " أو من أراد أن ينظر إلى رجل في أهل الجنة فلينظر إلى هذا، وكان ذلك رفقًا به ومراعاة لحاله "²⁵.

فعلى الفقهاء والادعاء وأهل الاختصاص الذين يتصدون لهذه الفتاوى في واقعنا الديني الذي تعيشه مجتمعاتنا أن يتبينوا الآراء المتشعبة التي تضيق ولا توسع، وتجنح إلى التحريم أكثر من التحليل في القضايا المتعلقة بالمرأة والأسرة واليهب، والفنون ونحوها وكذلك المتعلقة بالمعاملات، وقوانين العقوبات ويكون شعارهم في هذا الواقع الديني المعيش قول الإمام سفيان الثوري: " إنما الغفوة الرخصة من نعمة أما التثنية فيحسد كل أحد "، فلاحظ هذا قول الفقهاء: أن المشقة

تحلّب التيسر، وأن الأمر إذا ضاقت لسع، وأن عموم النبوى من موجبات التخفيف: 26.

ثانياً: التطرف وتحذير الإسلام منه

تعريف التطرف: التطرف في اللغة من الطرف: الشاحية والطائفة من الشيء²⁷، ومنه طرفت الناقة كفرح: رعت أطراف المرعى ولم تختلط بالنوق — كتطرف —²⁸ فاللتطرف معناه الوقوف في الطرف بعيداً عن الوسط وأصله في الحسيات كالتطرف في الوقوف أو الجلوس أو المشي، ثم انتقل إلى المعنويات كالتطرف في الدين أو الفكر أو السلوك ومن لوازمه أنه أقرب إلى المهلكة والخطر وبعد عن الحماية والأمان، فالنصوص الإسلامية تدعو إلى الاعتدال وتحذر من التطرف الذي يعبر عنه بالعلو، والتقطع، والتشدد، وقد وردت نصوص كثيرة تبين بوضوح أن الإسلام ينفّر أئمة النفور من الغلو، ويحذر أئمة التحذير، ولتكف بما نوره ليعلم إلى أي حد ينهى الإسلام عن الغلو ويخوف من مغتبه:

روى الإمام أحمد في مسنده والنسائي وابن ماجه في سننهما، والحاكم في مستدرکه عن ابن عباس رضي الله انهما أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال: "إياكم والعلو في الدين فإنما هلك من قبلكم بالعلو في الدين" والمراد بمن قبلنا: أهل الأديان السابقة من أهل الكتاب وعلى الأخص النصارى — فقد خاطبهم القرآن بقوله: "قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل"²⁹ فنهانا الله تبارك وتعالى أن نغلوا كما غلوا والسعيد من تعظ بغيره.

والحديث النبوي الشريف ينهى القائمين على الدعوة الإسلامية في واقع الناس المدعويين إلى أن الغلو يبدأ بشيء صغير، ثم تتسع دائرته ويتطير شرره والمثال على ذلك أن النبي — صلى الله عليه وسلم — حين وصل إلى المزدلفة في حجة الوداع قال لابن عباس: هلم أقطع لي — أي حصيات ليرمي بها في منى — قال: فالنقطت له حصيات من حصى الحذف يعني صغاراً مما يحذف به، فلما وضعين في يده قال: نعم بأمثال هؤلاء وإياكم والعلو في الدين...³⁰ والمعنى لا ينبغي أن يتقطع المتدينون فيقولون الرمي بكبار الحصى أفضل من الصغار فيدخل عليهم الغلو شيئاً فشيئاً فاحذرهم.

روى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — "هلك المتقطعون" قالها ثلاثاً³¹ قال الإمام النووي: أي المتقطعون

المجاورون الحدود في أفعالهم وأفعالهم، ويلاحظ من فحوى نص الحديث والذي قبله أن عاقبة الغلو والتطرف والتطبع هي الهلاك ويشمل هلاك الدين والدنيا، وأي خسارة أشد من الهلاك، وكفى بيا زجرا.

فإذا حال التطرف والتطبع والغلو فإنه يؤدي إلى المهالك والخسران، لأن من مظاهر الداعي له الغلظة في التعامل والخصونة في الأسلوب والفضاضة في الدعوة وهذا كله خلافاً لهداية الله وهدى رسول الله لأن الله تعالى يأمرنا أن ندعو إليه بالحكمة لا بالحماقة، وبالموعظة الحسنة لا بالعبارات الخشنة والمجادلة والتي هي أحسن قال تعالى: " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ³² ". ووصف رسوله - صلى الله عليه وسلم - الداعي إلى الله بقوله: " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم " ³³، وخطب رسوله مبينا له العلاقة بينه وبين أصحابه والناس بقوله: " فيما رحمة من الله أنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك " ³⁴، وخطب نصارى الذين قالوا على الله غير الحق، وذلك بمخالفتهم كتابهم بالإفراط والتفريط عند قولهم أشياء يزعمون أنها من الدين فقال: " يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله غير الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ³⁵، وسند بأسلوب فيه تفرغ وتشنيع على الذين يمنعون أنفسهم أو غيرهم ما أحل الله لهم نعم تطرفا وغلوا فقال: " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة " ³⁶.

فالنظر المتأمل للنصوص المذكورة يستنتج أنه لا مكانة للعنف والخصونة والغلظة لأن الله يحب الرفق في الأمر كله، والرسول يقول: " ما نخل الرفق في شيء إلا زاده ولا نخل العنف في شيء إلا شانه "، ولا شيء يشينه العنف ويفسده إذا نخله مثل الدعوة إلى الله لأنها تحاول أن تنخل إلى أعماق الإنسان لتجعل منه إنساناً ربانياً في مفاهيمه ومشاعره وسلوكه وتبدل كيانه كله وتشفي منه خلقاً آخر، فكراً وشعوراً وإرادة، كما أنها تهيئ كيان الجماعة المتدينة في الواقع هزاً، لتغيير عقائدها المتوارثة وتقاليدها الراسخة وأخلاقها المتعارفة وأعرافها السائدة.

يقول الدكتور الفرضاوي: وهذا كله لا يمكن أن يتم إلا بالحكمة وحسن التأنى للأمور والمعرفة بطبيعة الإنسان وعقائده، وجموده على القديم، وأنه أكثر

شيء جدلاً فلا بد من التفرق في النحول إلى عقله والتسلل إلى قلبه حتى نلين من شنته ونكفكف من جموده ونطأ من كبرياته³⁷.

ولقد تجشم بعض الباحثين طرح مجموعة من الوسائل الفعالة لعلاج هذه الظاهرة المستفحلة في المجتمعات العربية والإسلامية تمثلت في النقاط التالية:³⁸

يث ثقافة التيسير ورفع الحرج عن الناس من قبل الدعاة ومتصدي الفتوى.

الاهتمام بمنصب الفتوى وثقافة المفتي.

أن يكون المفتي حافظاً لكتاب الله.

أن يكون حافظاً لجملة من أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

أن يكون عالماً بالتاريخ الإسلامي.

أن يلم بالقصص القرآني.

أن يكون حسن القدوة.

أن يكون القائم على الفتوى حاضر البديهة.

أن يكون المنصدر للفتوى من ذوي الكفاءات القادرة على رد شبه المغالين

والمطرفين

احترام التخصص.

القيام بحملات توعوية.

التشبع بثقافة أئمة الاختلاف.

عدم مقابلة التطرف بالتطرف.

إصلاح البرامج والمناهج التعليمية.

عدم الاستعجال في إقامة الناس على الحق.

الحفاظ على وحدة المسلمين وتجنب المعارك الطاحنة بسبب الخلافات الفقهية.

التوجه لمحاربة العدو الحقيقي - المتمثل في اليهود -.

وخلاصة لما سبق نشير إلى قول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - إذ

يقول: إن التندين يوم يفقد طيبة القلب ودمائة الأخلاق، ومحبة الخلاق يكون لعنة

على البلاد... والغريب أن التطرف لا يقع في مزيد من الخنمات الاجتماعية، ولا

في مزيد من مظاهر الإيثار والفضل، إنه يقع في الحرص البالغ على الأمور

الخلافية كالنتطع في مكان وضع اليدين أو طريقة وضع الرجلين خلال

الصلاة، والاهتمام الجائل هنا ثقافته قلّة أكرت ببناء دولة الإسلام الغارية، والإقبال

على تجميع العناصر التي لا بد منها لإقامة حضارتنا واستعادة كياننا، والمجال المستحب للمغالين في دينهم بنفوسهم عندما ينظرون في ثوب الناس، إنهم يسارعون إلى الحكم بالفسق أو الكفر وكان المرء عندهم مذنب حتى تثبت براءته، على عكس القاعدة الإسلامية.³⁹

فالتطرف مرض قاتل إذا أصاب المجتمع المتدين تركه بلاقع لأن من لوائمه كما ذكرنا أقرب إلى الميالك والمخاطر وأبعد عن الحماية الأمان فليحذر المتدينون من فيروسه العدمر لجسم المجتمع ولكي يمكن تقاويه وعلاج آثاره علينا بملازمة الوسطية الإسلامية في ملازمة التيسير في الأمور التي يحتاجها المتدينون في مجتمعهم لا التيسير والتسهيل لا التعقيد والتشديد وبهذا المنهج الرباني يتحسن واقع المتدينين في المجتمع الإسلامي المعاصر، فتتجوا نفسه من القتل ودمارهم من السفك وأعراضه من الهتك وأمواله من التخريب والغصب ويسود مبدأ الرحمة والتراحم ويرقى المجتمع إلى مصاف درجات الرقي والحضارة.

الهوامش:

¹ — سورة البقرة: 143.

² — أبو بكر الرزي: مختار الصحاح، ضبط وتخريج وتعليق الدكتور مصطفى ديب البغا، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة الجزائر ص 454.

³ — القاسم الحطاب: الطبعة السادسة 1419/1998، مؤسسة لرسالة ص 691.

⁴ — سورة القلم: 28.

⁵ — الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم: ج 2/153-154.

⁶ — سورة البقرة: 143.

⁷ — الدكتور يوسف القرضاوي: الصحو الإسلامية بين الجحود والتطرف الطبعة الثانية، دار البعث العلمية، ص 146.

⁸ — المصدر نفسه: 49.

⁹ — سورة البقرة: 185.

¹⁰ — سورة الحج: 78.

¹¹ — سورة المائدة: 6.

¹² — سورة النساء: 28.

¹³ — سورة البقرة: 178.

¹⁴ — سورة الطلاق: 7.

¹⁵ — سورة الشرح: 5+6.

¹⁶ — الجصاص: أحكام القرآن 3/473.

- 17- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ج3/1359، دار إحياء التراث العربي، «فتح الباري لابن حجر العسقلاني ج10/432، دار إحياء التراث العربي.
- 18- مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب: "في الأمر بالتيشير وترك التغير".
- 19- المصدر نفسه: ج10 ص453.
- 20- سورة النساء: 29.
- 21- أخرجه أبو داود في سننه كتاب الطهارة باب: في المجرور تبعه ج1/56، دار الكتاب العربي.
- 22- البخاري: كتاب الإيمان، باب: الذين يرون، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "أحب اثنين إلى الله الحنيفة السمحة"، 93/1.
- 23- مسلم: كتاب الفضائل باب: "بما حدثه - صلى الله عليه وسلم - للأئمة، واختياره من المباح أسبغته ونعاهه له عند فقده حرمانه" 4/1813.
- 24- الدارمي: كتاب المناقب، باب: "فمن قدم لسكره شيئاً قبل شيء" 89/2 - 90.
- 25- الدكتور يوسف القرضاوي: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص119.
- 26- الدكتور يوسف القرضاوي: الصحوحة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص212.
- 27- مختار الصحاح: ص255.
- 28- القاموس المحيط: ص832.
- 29- سورة المائدة: 77.
- 30- رواه ابن ماجه: كتاب المناقب باب: حصي الرمي، ج2/1008، رقم الحديث 3029.
- 31- رواه مسلم في صحيحه: كتاب العلو، باب: "هك المتطعون دار الكتب العلمية ج16/180.
- 32- سورة النحل: 125.
- 33- سورة التوبة: 128.
- 34- سورة آل عمران: 159.
- 35- سورة النساء: 171.
- 36- سورة الأعراف: 32.
- 37- الدكتور يوسف القرضاوي: الصحوحة بين الجحود والتطرف.
- 38- الدكتور نصر سلمان: اهم الوسائل العلاجية لظاهرتي العلو والتطرف مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية العدد 14 ص195 - 210.
- 39- محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص115 - 116.

التفهد العمهي للعلاقات الحارحية للمسلمين مع غيرهم

الأستاذ عبد المجيد بوكركب

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية. جامعة باتنة

أصل العلاقات الحارحية للمسلمين في الفقه الإسلامي:

الحق أن هاته المسألة قد أثير حولها جدل كبير بين الفقهاء سواء بين المتقدمين منهم أو بين المتأخرين، ذلك لأننا نجد من الإشكاليات المستعصية، والخطرة سيما في هذا الزمن الذي أضحت فيه الدول الإسلامية ضعيفة الجانب لا تقوى على مواجهة الطرف الأخر الذي راح يتهم الإسلام بأنه شريعة السيف والدم، وأهله بالأصوليين الإرهابيين.

إن فلنكي يمكن دفع هذه الشبهات يكون من الضروري التطرق إلى موقف الفقهاء من أصل علاقة المسلمين بغيرهم.

إن الناظر في أقوال الفقهاء - المتقدمين، والمتأخرين - حول هاته المسألة يجد بأنهم قد انقسموا إلى مذهبتين:

الأول: يرى أصحابه⁽¹⁾ أن أصل العلاقات الحارحية بين المسلمين، وغيرهم - عند امتناعهم عن الإسلام أو الجزية - هي الحرب، وأن السلم ليست إلا هدنة يستعد بها لاستئناف القتال، والاستعداد له، ذلك لأن الجهاد - برأيهم - فرض دائم على الأمة لا يجوز التحلي عنه إلا في حالة ضعف المسلمين، وهذا ما أشار إليه الإمام محمد بن الحسن الشيباني - رحمه الله - بقوله: "الجهاد واجب على المسلمين إلا أنهم في سعة من ذلك حتى يحتاج إليهم لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجندوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين" التوبة 123، وعليه حث المسلمون على الجهاد، ولا يمكن أن يدع المشركين بغير دعوة إلى الإسلام أو إعطاء الجزية إذا تمكن من ذلك²، وقد استدل هؤلاء على صحة ما ذهبوا إليه بأدلة من القرآن وأخرى ومن السنة النبوية. فأما استدلالهم من القرآن فيتمثل في عموم الآيات الموجبة للجهاد، التي لم تغد الوجوب بيده الكفار لنا بالقتال، ومنها: 1- قوله تعالى: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولما تعدوا إن الله لنا نحباً المعتدين (19) وقتلوهم حيث تقتلوهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولما

تَقَاتَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَفْتَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَالْعَظَامِينَ * الْبَقَرَةُ 190-193.

يُظْهِرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِقِتَالِ الْكَافِرِ، وَأَهْلِ الشِّرْكِ الَّذِينَ يَتَصَبَّوهُمْ الْقِتَالَ، وَعَلَيْهِ لَا يَجُوزُ بِحَسَبِ هَذَا الْقَيْدِ قِتَالُ مَنْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ الْقِتَالُ كَالنِّسَاءِ، وَالصِّبْيَانِ، وَالرَّهْيَانِ، وَمَنْ أَسْلَمَ أَوْ أُعْطِيَ الْجِزْيَةَ، وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْحِصَاصُ حَيْثُ قَالَ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ الْبَقَرَةُ 193 . يُوْجِبُ فَرَضَ قِتَالِ الْكَافِرِ حَتَّى يَتْرَكَوا الْكُفْرَ ...³.

2- وَقَوْلُهُ تَعَالَى: كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كَرَهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . قَالَ الطَّبْرِيُّ مَعْلَقًا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: يَعْنِي بِذَلِكَ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ . وَأَنَّهُ مَفْرُوضٌ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ حَتَّى يَقُومَ بِهِ مِنْ فِي قِيَامِهِ الْكُفَايَةِ، فَيَسْفُطُ فَرَضَ ذَلِكَ حَيْثُ نَبَذَ عَنْ بَاقِي الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَأَقَى هَذِهِ الْفَرَضِيَّةُ لِنُجْوَائِهِ فِيهِ كَرَهُ لَكُمْ أَيُّ شَأْنٍ عَلَيْكُمْ مِنْ حَيْثُ يَفُورُ الطَّبَعُ عَنْهُ لَمَّا فِيهِ مِنْ مَوْزَنَةِ الْمَالِ وَمَسْفَقَةِ النَّفْسِ وَخَطَرِ الرُّوحِ⁴.

3- ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ جَمِيعًا فَقَالَ: وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ... النَّبِيُّ (36). قَالَ الْحِصَاصُ: إِنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تُحْتَمَلُ وَحَيْثُ:

-أَحَدُهُمَا: الْأَمْرُ بِقِتَالِ سَائِرِ أَصْنَافِ أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا مَنْ اعْتَصَمَ مِنْهُمْ بِالذِّمَّةِ وَأَدَاءِ الْجِزْيَةِ.

-وَالْآخَرُ: الْأَمْرُ بِأَنْ تَقَاتِلِمُ مَجْتَمِعِينَ مُتَعَاضِدِينَ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ، وَلَمَّا احْتَمَلَ الْوَحِيدِينَ كَانُوا عَلَيْهِمَا، إِذْ لَيْسَ مُتَنَافِسِينَ، فَتَضْمَنَ ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ لِمَجْمَعِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْ يَكُونُوا مَجْتَمِعِينَ مُتَعَاضِدِينَ عَلَى الْقِتَالِ⁵.

5- أَمَّا قِتَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَقَدْ جَاءَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ التَّالِيَةِ بِشَأْنِهِمْ حَيْثُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ * النَّبِيُّ (29).

يُظْهِرُ مِنْ سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَ لِلْمُسْلِمِينَ قِتَالَ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَنَّهُمْ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّهُمْ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ. وَعَلَيْهِ حَسَبَ بَعْضِ الْمَفْسُرِينَ⁶ يَجِبُ قِتَالُهُمْ جَمِيعًا سِوَا مَنْ وَقَعَ مِنْهُ اعْتِدَاءٌ فَعَلًا أَوْ مِنْ لَمْ يَقَعْ عَنْهُ؛ لِأَنَّ الْإِعْتِدَاءَ قَائِمٌ

ابتداء على التوحيد لله، وإزغام العباد على عبادة غيره عز وجل؛ ولأن كلمة "من" في الآية ليست للتبعض، ولذلك قالوا: إن قوله تعالى: "من الذين أوتوا الكتاب" بيان لقوله تعالى: "الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر" أي من الموصوفين بهذه الصفات الأربعة من أهل الكتاب إن جميعها راجعة إلى الضمير المنكور أولاً، والمقصود تمييزهم من المشركين في الحكم لأن الواجب في المشركين القتال أو الإسلام، والواجب في أهل الكتاب القتال أو الإسلام أو الجزية⁷.

إضافة إلى هاته الآيات الكريمات التي استدل بها أصحاب الرأي الأول على صحة ما ذهبوا إليه، فقد استدلوا أيضاً بأحاديث نبوية تدعو في مجموعها المسلمين إلى المسارعة إلى الجهاد، ومقارعة العدو إن هو لم يقبل بدعوة التوحيد، ولتفادي التطويل سأقتصر على بعضها:

1- عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله (ص) قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني فداءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله"⁸.

2- وعن ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله «ص»: "بعتت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجعل رزقي حتى ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري"⁹.

فيذا الحديث يوهم ظاهره أن السيف له المقام الأول في الرسالة المحمدية، ولكن الحقيقة غير ذلك، وهي أن النبي «ص» دعا بالحق المجرد، واستمر يدعو كذلك ثلاث عشرة سنة ونيفاً، وبعد الهجرة بنحو سنة مَرَع القتال. كما يبين أهمية الجهاد ومشروعيته وداب المسلمين عليه لأنهم كانوا في حرب مع أعدائهم الذين أجزؤهم إلى خوض المعارك الجاه، ولو أنهم توقفوا عن فتنتهم وتركوهم أحراراً في نشر دعوتهم ما شهر المسلمون سيفاً ولا أقاموا حرباً.

3- روى البخاري عن سبيل بن سعد الساعدي أن النبي «ص» قال: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة بروحياً العبد في سبيل الله أو الدعوة خير من الدنيا وما عليها".

الرأي الثاني يرى أصحابه بأن أصل العلاقات الخارجية للمسلمين مع غيرهم هو السلم لا الحرب، وقد مثله مجموعة من الفقهاء المتقدمين وجمهور المتأخرين المعاصرين، ذلك لأنه بحسب رأيهم أن الحرب تنافي منطق الضرورة، وطبائع

الأمر، وتلحق أضرارا بالدعوة الإسلامية ذاتها، وتجعل المسلمين، ومن اعتنق الدين حديثا في حالة مستمرة من القلق والاضطراب، فتتصرف بذلك العقول عن التفكير في سمو الرسالة المحمدية التي جاءت لإنهاء الحروب والمنازعات، وضمان إقرار السلام والأمن بين الأمم، والشعوب كافة.

وقد استدل أصحاب هذا الرأي لمذهبهم بالعديد من الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة التي تمل دلالة قاطعة على أن الأصل في العلاقات الخارجية مع الأمم الأخرى هو السلم لا الحرب إلى أن يقع اعتداء فيضطر المسلمون حينئذ إلى رد دفاعا عن النفس وحق البقاء أو إنقاذ لهجوم تكون المبادرة فيه ضربا من الدفاع عن النفس، ومن هاته الآيات الكريمات نذكر ما يلي:

1- قوله تعالى: « وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْزِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » الأنفال 61. وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ البقرة 208. وقوله عز وجل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبْنَاكُمْ فَلْيَسْبِغُوا وَلَا تَغْلِبُوا نَمَنَ الْقَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعَتَّ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِتْيَانُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا النساء 94. وأعلن عز وجل مبدأ التزام المسلمين بالسلام، والأمن والود والطمأنينة في الآية: « وَلِيُخْشِيَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » النساء 9. وفي الآية: نَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون الممتحنة 8-9.

فيذه الآيات، وغيرها تنص صراحة على أن الأصل في علاقة المسلمين مع غيرهم هو السلم لا الحرب؛ لأنها تعود بالحرب إذا نسبت إلى الأصل الطبيعي في العلاقات الخارجية وهو السلم، ولو كان الأمر غير ذلك لما دعي المسلمون إلى التزام جانب السلام إن جنح إليه غيرهم وأضيقوا حسن نواياهم.

كما أن الآيات الداعية إلى الجهاد يجب فهمها كلياً مع بعضها دون ترك أية منها؛ لأن الدعوة التي تتضمنها مقيدة بالسبب الأصلي الذي من أجله شرع الجهاد، وهو أحد أمرين:

- إما لنفع الظلم لقوله عز وجل: «أَنْ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا أَسْوَءُ بَدَأِئِكُمْ بِنِزَارِكُمْ فِيهَا أَنزِلَ فِيهَا مِنَ الْكُوفِرِينَ المِثْلُ لِمَا كُفِرُوا فِيهَا لِيُبْغِ اللَّهُ الْكُوفِرِينَ وَيُغْنِيَ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا حَرْبَهُمْ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَالِمٌ» وقائلوه حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» البقرة 193.

ثم إن الآيات المستفاد منها للقتال مثل آية وأقتلوهم... البقرة 191
محمولة على الآيات المفيدة المبيحة للقتال بسبب العدوان أو الاعتداء مثل آية: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...» البقرة 190، فالله عز وجل أوجب على المسلمين أن يقاتلوا المعتدين دفاعاً لاعتدائهم، وأما النهي عن موالات الكافرين، فليس معناه النهي عن مسلمتهم، والإحسان إليهم؛ لأن المراك من الموالات اتخذهم أعدائنا يستنصر بهم، ويطمأن إليهم، ويطلعون على أسرار المسلمين، وبذلك تكون الآيات القرآنية الداعية إلى السلام محكمة غير منسوخة، وبكون القتال في غير حال الجحوش إلى السلم، وبكون آيات العفو والصفح سعمولاً بيا في غير حال الاعتداء بحسب ما تقتضيه السيادة الخارجية للدولة الإسلامية.

و على هذا النحو كانت أقوال النبي «ص» وأفعاله، وسيرته في الحروب، والمسائعات، ومن أهم ما قاله «ص» أنكر ما يلي:

1- روى البخاري ومسلم أنه «ص» قال: «لا تقبلوا لقاء العدو، و سلوا الله العافية...»¹⁰

فالرسول «ص» ينهي عن الرغبة في الحرب، و تمنيتها حتى مع العدو، و سأل الله العافية و دوام نعمة السلم، إذ لو كان لقاء الكفار ابتداءً واجباً ما نهى النبي «ص» عن الرغبة في الحرب و تمنيتها و طلب السلامة منها مما يدل على أن القتال ليس مقصوداً لذاته.¹¹

2- و روى الجماعة أن رجلاً جاء إلى النبي «ص» فقال: الرجل يقاتل للمغنم، و الرجل يقاتل للذكر، و الرجل يقاتل ليزي مكانه، فسن في سبيل الله؟ فقال «ص»: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»¹²
ففي هذا الحديث الشريف نجد أن النبي «ص» قد حصر الحرب في دائرة العدل، و الحق والدعوة إلى السلام، و ما عدا ذلك من أنواع الحرب غير جائزة بطريق المقبول مما يدل على مشروعية السلم، و أنه الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم.

و مما يدعو هذا الرأي أيضاً أن نرى «ص» كان إذا بحث بحثاً يقول لبيد:
تألفوا الناس و تأثروا بهم، و لا تغزوا عليهم حتى تسعوهم فما على الأرض من أهل بيت من منز، و لا وير إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من أن تأتوني بأبائهم.

و تسليهم ، و تقتلون رجالهم " تلك هي الروح الحقيقية للإسلام المتجاوبة مع أهداف دعوته العامة، و رسالته الخالدة.

ثالثا: وقع اتفاق عند حميوز المسلمين على أنه لا يحل قتل النساء و الصبيان و الرهبان، و الشيخ الكبير و الأعمى، و الزمن¹⁴ و نحوهم لأنهم ليسوا من المقاتلة، ولو أن القتال كان للحمل على إجابة الدعوة، و طريفاً حتى لا يوجد مخالفاً في الدين ما ساع استثناء هؤلاء، فاستثنواهم برهان على أن القتال إنما هو لمن يقابل دفاعاً عن عدوانه¹⁵.

رابعاً: احنجوا أيضاً بأن أساس الدعوة الإسلامية هو التين، و الرقوق، و الحكمة و الموعدة الحسنة لا السيئة، و الإكراه لقوله تعالى: « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » البقرة 256، بقوله أيضاً: « و لو شاء ربك لأمّن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » يونس (99).

خامساً: الوقائع التاريخية في عصر النبوة:

إن المستفرد للوقائع التاريخية في عيد النبوة يجد بأن الإسلام قد بدأ دعوته سليماً، دعا الناس جميعاً لأن يدخلوا في السلم، و ظل النبي "ص" يدعو إلى دين الله سلماً في مكة ثلاث عشرة سنة، و استمر في الدعوة السلمية لما هاجر إلى المدينة، لكن بغى المشركين و اليهود، و الروم الذين ألقوا به "ص" و بصحبه رضي الله عنهم - مختلف صنوف الأذى، و التعذيب، و الطرد، و التهجير من الأوطان اضطرتهم إلى الدفاع عن دينهم، و أن اتقسيم، و عن أملاكهم لا تشفياً، و لا انتقاماً، أو توسعاً، و استعماراً أو استعلاءً في الأرض و بسط السطان، و النفوذ أو احتلالاً للعالم بغية تحقيق نزع عنصرية كما فعل النازيون الألمان و نابليون بالأسر، و اليهود و الأمريكان اليوم .

و قد أعجبتني تعليق المستشرقة الإيطالية " لورافيشيا قاعاليري " على هاته المسألة إذ قالت: "ولقد اضطر محمد" ص الصابر على سخرية قريش ، و اضطهادها إلى أن يمتشق الحسام بعد أن فرض الله عليه امر الدفاع عن الحق ، و رد كيد أعدائه ، و من ذلك الحين لم يعطه أولئك الأعداء أيما وسيلة تمكنه من إعادة الحسام إلى عنقه فقاتل قتال الرجل المضطر ضد الغطرسه، و الضغيان أو قتل قتال الرجل الذي لا يرغب في الحرب ، و لكته مكروه على منازلة أولئك الذين أصروا على تمير بالقوة لقد كانت الحرب دائماً وسيلة لحماية الدين الحديث لا عاية في ذات نفسها بل كانت دفاعاً ضرورياً لا عنواناً جائراً¹⁵.

الترجيح بين أدلة الفريقين: من حمل الضر في التليهما بظهور بأن :

- الفريق الأول: أسر رأيه على أنه يقتضي بأن الله تعالى قد أمر المؤمنين بأن يقتلوا المشركين جميعاً، و الأمر يقتضي الوحوب ما لم تكن هناك قرينة صارفة

إلى الذنب، وليس هناك قرينة تصرفه عن الوجوب، كما تخلصوا أيضا من ظاهر معارضة العموم للخصوص، وذلك بحمله على النسخ .

-أما الفريق الثاني: فقد أسس رأيه على أنه تبيين أن أساس العلاقة بين المسلمين، ومخالفه هو السلم لا الحرب التي شرعت للضرورة لذلك أرى بأن أدلة هذا الفريق هي الأطير للمرجحات التالية:

أولاً: قرر علماء الأصول أن الترجيح ينصّل إذا كان التوفيق بين النصوص ممكناً عملاً بالقاعدتين الأصوليتين القائلتين بأن: الجمع و التوفيق أولى من الترجيح¹⁶ و إعمال النص أولى من إعماله¹⁷

و بناء على هذا يمكن التوفيق بين آية البقرة المفيدة و الآيات الأخرى المطلقة، فيحمل المطلق على المقيد . و معنى حمل المطلق على المقيد في آيات القتال أنه واجب فقط عند وجود العدوان كما أثارت آية الحج : " أن للذين يقاتلون 37، و آية البقرة : " و قاتلوا في سبيل الله 189 . و على هذا يكون الأمر بالقتال مقيداً بتوفر العدوان ، و يتكرر حينئذ قياساً لا لفظاً بتكرار شرطه أو صفةه .

و مما يدعم هذا الإجراء أنه إن لم يختلف حكم المطلق، و المقيد، و اتحد سببهما فلا خلاف عند الأصوليين في حمل المطلق على المقيد ، والحكم هنا متحد، و هو وجوب القتال، و السبب متحد أيضا و هو العدوان في رأي جمهور الفقهاء¹⁸ .

ثانياً: انقضاء النسخ: الراجح عند العلماء أن آية البقرة "الذين يقاتلوكم " 89 محكمة غير منسوخة للاعتبارات التالية:

-القول بالنسخ لا بد له من دليل، و لا دليل يدل على النسخ أو التخصيص كما قال ابن تيمية إن دعوى النسخ تحتاج إلى دليل ، و ليس في القرآن ما يناقض هذه الآية، فإن نسخ

2- إن ما تضمنته الآية من أحكام لا تغلّ النسخ ، و من ذلك النبي عن الاعتداء، و هو ظلم، و الظلم من المعاني المحرمة في كل الشرائع لذلك فلا يجوز القول بالنسخ فيه مطلقاً، قال ابن عباس و عمر بن عبد العزيز، و ساجد: إن هذه الآية محكمة، و قال أبو جعفر النخاس: وهذا أصح القولين من السنة و النظر .

ثم إنه لو كان الكفر موجبا للقتل، و آية منع الاعتداء منسوخة لكان الإكراه على الذنوب جائزاً وهذا باطل من أكثر من وجه:- إن الآية "لا إكراه في الدين" البقرة 256 عند أكثر العلماء محكمة، و دعوى النسخ باطلة.

ثبت عن النبي «ص»: «إنه قد أسر من المشركين أسرى فمنيهم من قتلهم ومنيهم من فداءهم، ومنيهم من أطلق سراحهم، ولو كان القتال لأجل الكفر أو الشرك ما كان لبؤلاء إلا القتل أو الإكراه على الإسلام.

ثم إن القول بالنسخ قد فتح المجال لخصوم الإسلام لنتظن في القرآن الكريم، فرغموا بوجود تناقض، وتعارض بين آيات القرآن، فبينما نأخذ آيات في القتال تحثه آيات أخرى، وآيات تطالب العفو والصلح²¹.

لهذا قرر العلماء بانتفاء النسخ في آيات الحج، والقرعة، والنساء، والأطفال، والممحنة، والتوبة بآيات من سورة التوبة، وقالوا بأنه لا يوجد أي تناقض، ولا تعارض بينهما، وأن الكلام فيها متصل ببعضه ببعض في واقعة واحدة فلا حاجة لتزويقه، وأن النسخ لا تلجأ إليه إلا عند التعارض الحقيقي، ولا تعارض هنا لأن الآيات جميعها تنقي عند حكم واحد، وغاية واحدة، فهي لذلك محكمات.

ثالثاً: إن القول بأن السلم هو أصل العلاقات الخارجية للمسلمين مع غيرهم من الأمم، والشعوب يوافق مبدأ الأثري لا إكراه في الدين الذي احترموه قولاً وممارسة، ولعل المنتفع لنصوص المعاهدات الكثيرة التي أبرمها مع غيرهم يلحظ خلوها من التعصب الديني، ودوعتها الصريحة إلى احترام المعتقد الآخر.

لهذا فإن مبدأ حرية الاعتقاد هو الأساس الذي يرتكز عليه موقف القرآن الكريم من العقائد الأخرى، وأن الحوار، والحجة هما أساس العلاقات الخارجية لا القهر، والتعصب، والإرهاب.

رابعاً: ولأن اعتبار الحرب هي الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم يخالف منطلق الضرورة، وطابع الأمور، وإذا كان الفقهاء يقررون في قواعدهم أن الأصل في الأشياء والإباحة، والأصل الخلو من التكليف، والأصل في الذمة البراءة، وغير ذلك فإنه ينبغي عليهم ألا يعتبروا الأصل مع غير المسلمين هي الحرب لأن ذلك لا يسي مع سمو دعوه إسلام ونزعة تعصبية التي لا تحقق بغير السلام.

خلاصة ما تقدم أقول بأن أصل العلاقات الخارجية للمسلمين هو السلم لا الحرب، وما الحرب إلا عارض لنفع الشر، وإخلاء طريق الدعوة ممن وقف أمامها، والتي يجب أن تبلغ للأخريين بالحجة والزهدان لا بالسيف والسنار، وقد يعثر فقهاؤنا عندما قرروا في القرن الثاني الهجري أن أصل العلاقات الخارجية هي الحرب لأن الإسلام في ذلك الوقت كان دعوة جديدة معارضا من قبل الناس، ولأن مبادئ الأخوة الإنسانية، والمساواة بين الخلق، والتكافل الاجتماعي، ومبادئ الحرية والعدالة يتجسدا في الحكام لنلا يعجل بسقوط عروشهم، فحاربوا المسلمين ودام الصراع قرونا طويلة فاعتبروا أن الحرب هي أصل العلاقات مع أعداء الإسلام حتى يأمنوا جانبهم إما باعتناق الإسلام أو بالتعاقد معهم.

مفهوم العلاقات الخارجية:

بعد هذا العرض الموجز لأصل العلاقات الخارجية للمسلمين بظهير بأنها: الصلات التي تقيمها الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول، والجماعات، والأفراد لتحقيق أهداف معينة وفقاً لأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية.

القواعد الشرعية للعلاقات الخارجية للمسلمين: هناك العديد من القواعد السياسية التي وضعها العلماء لتنظيم العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية مع غيرها من الدول سواء في زمن السلم أو في زمن الحرب ولتفادي التطويل أذكر منها ما يلي:

القاعدة الأولى: الوفاء بالعهود، والمواثيق

تعد هذه القاعدة من الأحكام القطعية النافذة على الأفراد، والدول والأصل في ذلك الكثير من أي الذكر الحكيم، والأحاديث النبوية الشريفة، وإجماعات العلماء المسلمين على مر العصور والازمان التي ترسي هذا المبدأ الأصيل في العلاقات الدولية. وفيما يلي بيان لبعض هاته الآيات:

1- النصوص القرآنية: الحق أن هناك العديد من الآيات القرآنية الدالة على وجوب الوفاء بالعهود، ونظر لكون المجال لا يسمح بذكر جميعها فسأقتصر على البعض منها.

أ- قوله تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِنَّمَا بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا الْإِسْرَاءَ 34». قال الشوكاني معلقاً على هاته الآية: كل ما أمر الله به، ونهى عنه فهو من العهد، فيدخل في ذلك ما بين العبد وربيه، وما بين العباد وبعضهم وبعض، والوفاء بالعهد هو القيام بحفضه على الوجه الشرعي والقانون المرضي إلا إذا دل دليل خاص على جواز النقض²².

بهذا وقد امتح سبحانه وتعالى الذين يوفون بالعهد، ولا يتقصونها فجعلهم من الصديقين، والميثمين، ومن يرفون جنات عدن، فقال عز وجل: «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولِئُوا وَجْوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» النقرة 177.

قال «ابن كثير» معلقاً على هاتين الآيتين بقول تعالى مخبراً عن أنصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقي الدار، وهي العاقبة، والنصر في الدنيا، والآخرة، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم ترو وإذا حدثت كتب، وإذا أوتيت خلت²³.

وإلى هذا ذهب «الشيخ الطاهر بن عاشور» إذا اعتبر الوفاء بالعهد عنواناً لكمال النفس وضمانة أساسية لترسيخ الثقة بين الناس فقال: «والوفاء بالعهد فيه

فضيلة فردية. وهي عنوان كمال النفس. وفضيلة اجتماعية. وهي ثقة الناس بعضهم ببعض»²⁴

هذا وقد نوردت آيات التكريات في الوفاء بالعهد في مجالات أخرى كالعقيدة والأخلاق، والمعاملات المالية، وغيرها. واعتكف القرآن الكريم في بيان تلك مذاهب متعدد مثل صيغة الأمر المباشر، وصيغة الخبر، وصيغة التحذير، وغيرها من الصيغ. كما نجد في المقابل لذلك الكثير من النصوص التي ذممت نقض العهود، وحذرت من خيانتها، ومن عدم مراعاتها، بل واعتبرت من يفترق مثل هذه الأفعال من المنافقين، ومن المشركين الذين يستحقون القتل.

كما حذر أيضاً المسلمون من نكث العهود في حال عجزهم، وضعف أو قلة الطرف الآخر. لأن القوة قد تحمل أهلها على التباؤن بالعهود، والمواثيق تحقيفاً لمصلحة قريبة، أو ثارا لمظلمة سابقة. فكان من حكمه الله تعالى أن يأتي التأكيد على الوفاء بالعهد، والتحذير من العذر في التعامل مع النول الأخرى سواء في حال القوة أم في حالة الضعف، فقال تعالى: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون» النحل 91-92.

وقد بلغ اهتمام الإسلام بالعهود درجة لم تبلغها شرائع المعمورة قديماً وحديثاً بحيث لم يجر نصره المسلمون الذين تعرضوا إلى العدوان في دولة أخرى بينها، وبين الدولة الإسلامية عهد وميثاق؛ لأن الوفاء بالعهد في نظر الشارع الحكيم أعظم قدرا من مساندة المسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام. فقال تعالى «الذين آمنوا وهاجروا وجاءوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين أووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير» الأنفال 72.

وقد علق الإمام الشيباني على هذه الآية فقال: وينبغي رعاية العهد والميثاق مع الدولة غير المسلمة في كل الأحوال. ويقدم هذا على واجب النصر للمسلمين إذا استنصرونا. فإذا كان بين المسلمين وبين غير المسلمين عهد فلا ينبغي نقضه بل يجب الوفاء به حتى ينقضي العهد أو يند البهم على سواء²⁵

أش على هذه الأسس الثابتة من الأوامر الإلهية بالالتزام بالعهود والمواثيق، قامت الدولة الإسلامية ونظمت علاقاتها الخارجية مع النول، والقبائل، والطوائف الأخرى.

وقد زك النبي «ص» هذه الأوامر بيانا، حيث كان مبالا للالتزام بالعهود قولاً، وتقريراً وفعلاً؛ ولو أدى ذلك إلى صياح مصلحة تجريب الدولة الإسلامية من نفسها للعهود إلا أنه «ص» كان يقدم الوفاء بالعهد على المصالح الذاتية؛ بل وقد

ذهب «ص» إلى أن يعد من هذا حيث اعتبر النقص من الصفات الذميمة الخسيسة، وأن من لا عهد له لا إيمان له...، وفيما يلي بيان لبعض مما روي عنه «ص» في تأكيد هذه المسائل:

أ- عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله «ص»: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا. ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من اتفاق حتى يدعها: إذا أومن خان وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»²⁶

ب- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله «ص» قال: إذا الأمانة إلى من أئتمنتك ولا تخن من خانك²⁷

ج- وأخرج أبو عبيد بسنده عن رجل من حبيبة من أصحاب النبي «ص» أن رسول الله «ص» قال: «إنكم لعلكم تقاتلون قوما فيفتونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبدانهم، ويصالحونكم على صلح فلا تأخذوا منهم فوق ذلك، فإنه لا يحل لكم»²⁸

وتدعيها لهذه الأحاديث النبوية الشريفة التي نلت صراحة على وجوب الوفاء بالعهود، والمواثيق واستحقاق ناقضها للصفات الخسيسة، فقد طبق الرسول صلى الله هذا المبدأ في الكثير من المناسبات، أكتفى بذكر المشهور منها خشية التطويل:

روى الإمام أحمد عن أبي رافع عن جده أبي رافع قال: بعثني قريش إلى النبي «ص» فلما رأيت النبي «ص» وقع في قلبي الإسلام فقلت يا رسول الله لا أرجع إليهم، فقال «ص»: «فقال «ص»: «إني لا أخيس بالعين»²⁹، ولا أحس البرء، ولكن أرجع إليهم فإن كل في قلبك الذي فيه، إن فارجع»³⁰

وكان اعتماد النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الوفاء، وهذا الإخلاص لما تعهد به لأعداء الإسلام، فأنما على ثقته التامة في نصرته الله له، وتأييده لدينه، فقد ورد أنه لما أسرت قريش حنيفة بن أيمان وأباه ثم أطلقوهما على أن يتعهدوا لهم على عدم المشاركة مع المسلمين في قتالهم، ثم أتيا رعبتهما للرسول صلى الله عليه وسلم في حضور غزوة بدر، قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انصرفا نفي بعهدهم وتسعين الله عليهم»³¹

وتأكيدا على مبدأ الوفاء بالعهود اتفق الأمة، وفقهاء المسلمين على منع خداع الكفار في الحرب عن طريق نقض العهود.

لذلك إذا تتبعنا سيرة الخلفاء الراشدين نجدهم أحرض الناس على الوفاء بالعهود إن كانوا يحضرون قادة جندهم، وولايتهم في الأقاليم الإسلامية من نقض العهود، وبأمر ونهم بضرورة الوفاء بها، ولم يرو التاريخ عنهم مخالفتهم لها، بل روى، عكس ذلك تماما، فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: ثلاث من كن فيه

كن عليه: البغي، والنكث، والمكر، قال تعالى: «انما بغيتكم على أنفسكم» وقال تعالى: «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه» وقال تعالى: «ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله»³²

وروى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي اتسم بالشدة في الحق الكثير من المواقف الدالة على قسوة هذا المبدأ أذكر منها: أنه لما حاصر المسلمون حصنا في عهده كتب عبد أمنا في ماقص - نصرل السيم - فرمى به إليهم فقال المسلمون: «أمان عبد نيس بسىء». فقالوا لا نعرف العبد منكم من الحر، فكتب في ذلك عمر بن الخطاب: «إن العبد رجل من المسلمين، وإن أمانه جائز»³³ فوفى المسلمون لهم بهذا العهد بقاء على تعليقه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما نجد رضي الله عنه في إحدى رسائله إلى جنده يأمرهم بالوفاء بالعهود ويحذرهم من نكثها، والاستهزاء بها؛ لأن ذلك يؤدي إلى هزيمتهم وذهاب قوتهم، وهلاكهم، وغلبة الجيش الآخر، وتمكده، ومن ذلك ما كتبه إلى فات جنده سعد بن أبي وقاص حيث قال له: «... فإن لأعب أحد منكم أحدا من العجم بأمن أو قرفة بإشارة، أو بلسان، كان لا يدري الأعجمي ما كلمه به، وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك محروى الأمان، وإياكم والضمكت، والوفاء بالوفاء! فإن الخطأ بالوفاء بغية، وإن الخطأ بالعتز الهلكة، وفيها ومنكم، وقوة عدوكم وذهاب ربحكم، وإقبال ربحهم، واعلموا أنني أحثركم أن تكونوا سيفا على المسلمين، وسببا لتوهينهم»³⁴

وتأييدا لهذه النصوص الشرعية، والشرف العديدة - الناصرة عن النبي «ص» وعن خلفائه من بعده، والتي تكل دالة قطعية على وجوب احترام العهود والوفاء بها، ونحرهم نكثها، وخيانتها، فإن الفقهاء قد اتفقوا على وجوب أن يفى المسلمون بتعهداتهم تجاه الطرف الآخر ما لم ينقضها، أو تتضمن شروطا تخالف النصوص أو القواعد الكلية، وهذا ما أكده ابن حزم بقوله: «اتفق الفقهاء على أن الوفاء بالعهود - أي عن غير شيء - وجوب، ونكرت فيه بصفاتها، وإسماها، ونكرت في شدة وأصع الأمة على وجوبها أو جوازها، فإن الوفاء بها فرض واعطاؤها جائز»³⁵

يتضح مما تقدم أن الوفاء بالعهود من الأمانات المستلزمة للحفظ، والصون، ومن الأدب الرفيعة التي يجب على المؤمن إتصاف بها وهذا يأيد الشيخ: «محمود شلتوت» حيث اعتبر المعاهدات الدولية من أهم الضمانات الفعلية لإقرار السلام حيث قال: «... هذا حكم الإسلام في المعاهدات التي تضمن السلام، وتحفظ الحقوق من جهة إنشائها، والوفاء بها، ومن جهة نقضها، وسقوط حرماتها»³⁶

خلاصة هذه المسألة أن الوفاء بالعهود والتوثيق من أبرز القواعد العليا الواجبة الاتباع، وهي مبدأ مقدس تضمن إقرار السلام للبشرية التي تتشوف إلى العيش بأمان وطمأنينة، بعيدا عن عصابات الحروب، واضرارها الخطيرة، خصوصا

مع ظهور الوسائل الحربية المتطورة التي يؤدي استعمالها إلى خراب الكون بكامله، وذلك مثل الأسلحة البيولوجية، والكيميائية، وغيرها من الوسائل الفتاكة والمحتضرة دولياً.

القاعدة الثانية: عدم الغدر أو الغيلة: لقد كانت البشرية قبل الإسلام تقيم علاقتها الخارجية على أسس الخيانة، والغدر، والخديعة، حتى ولو كان بيننا أقوى عرى الاتفاق، والمواثيق.

لكن ما إن أقام الرسول "ص" دولته في المدينة حتى سارع إلى إقامة العلاقات الخارجية لدولته على أساس هاته القاعدة وغيرها من القواعد، وأمر أصحابه وخلفاءه بذلك، ويرجع أصلها إلى نصوص قرآنية كثيرة، أخرى نوية شريفة، فأما النصوص القرآنية فنذكر منها:

1- قوله تعالى: «**ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَيُّكُمْ أَخَذَ بِالْغَيْبِ وَأَنْ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**» يوسف 52.

2- وقوله أيضاً: «**إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**» الحج 38.

وأما النصوص النبوية، فتتمثل في وصايا "ص" لقواده حيث كان يوصيهم بعدم الغدر والغيلة، ومن أبرزها ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: «كان رسول الله "ص" إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: **الْمُنْوَا بِاسْمِ اللَّهِ فَاتْلُوا مِنْ كَفَرِ بَنِيهِ، وَاعْرُوا وَلَا تَغْوُوا وَلَا تَغْرُوا، وَلَا تَمْلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَبِنَا**»³⁷

كما حذر النبي "ص" من الغدر، وتوعده العائدين بما أعد الله لهم يوم القيامة من الخزي حين يرفع لهم لواء يعرفهم الناس به فقال "ص": «**لكل عاثر لواء يوم القيامة يعرف به**»³⁸

وجعل "ص" الغدر أيضاً من صفات المنافقين الذين يعضيم الله، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر أن النبي "ص" قال: «**أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة في النفاق حتى يدعها: إذا أومن خان وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»³⁹

ومن أهم الأمثلة العملية لهذه القاعدة في حياة النبي "ص" تصرفه مع أبي بصير الذي حسن بمكة حيث لم يستحب لنائه حفظه على العهد ولم يغير بقرين فقال له: «يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء اليوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في دنيا الغدا... إن الله حائل لك، ولئن معك من المستعصمين فرحاً ومخرباً فانطلق إلى قومك...»⁴⁰

وعلى ميثاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الخلفاء والأمراء الذين قانوا الدولة الإسلامية والتزموا مبادئها وسياساتها الخارجية التي تتعامل بها مع غيرها من الدول والشعوب⁴¹.

ليبدأ نجد فقهاء الشريعة الإسلامية قد تشددوا نحو الغرر لأن في ذلك إخلالاً بالفهم والتميز السياسي، فاجتمعوا⁴² على عدم جواز الانصاف بهذه الصفة حتى ولو الدولة غير المسلمة فقلت رعايا الدولة الإسلامية في أراضيها فلا يحل لها أن تقتل رعايا تلك الدولة كما في ذلك من الغرر. والخلاصة لأن الإسلام يرى أن قدسية العهود والمواثيق ووجوب الوفاء بها وعدم الغرر من أهم أسباب صون السلم العالمي، وحماية المصلحة الإنسانية لقوله تعالى «والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تعوذوا تكن فتنة في الأرض وفساداً كبيراً»: الإنفال 72

أذن فهذه قاعدة جنسية تحكم السياسة الخارجية، والعلاقات الدولية أبداً الدهر وهي مكملة للقاعدة الأولى.

القاعدة الثالثة: العدالة المطلقة: يعتبر العدل في الشريعة الإسلامية من القواعد

الإساسية اللازمة لقيام أي علاقة إنسانية، وخصوصاً منها العلاقات الخارجية للدول. لذلك نجد أن الدولة الإسلامية في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي زمن الخلفاء الراشدين قد تميزت علاقاتها الخارجية مع الدول الأخرى ببنائه الصفة العظيمة واعتبرتها غير منوطاً بالغالب دون المغلوب ولا بالقوى، دون المستضعف، ولا بالموالي دون المعادي، ولا بالعني دون الفقير ذلك لأن الظلم في ذاته محرم شرعاً أياً كان مصدره وأياً كان موقعه، وهذا أبين دليل على موضوعية القيم في الإسلام، وإطلاقها دون نسبية، وهو ما أكدته القرآن الكريم في أكثر من مناسبة. وترجمه النبي صلى الله عليه وسلم في الواقع بأقواله وأفعاله، لأن القوة في منطق الإسلام سند للحق والعدل، ولكنها لا تمثل العدل في ذاتها.

وعليه فإن الإسلام لا يجيز استخدام القوة في العلاقات الخارجية الدولية لأن تحكيمها يؤدي إلى الظلم، والقتل، والإبادة كما هو سائر اليوم في العراق و في فلسطين.

وبهذا يكون الإسلام قد عبر موازين السياسة الدولية لأن ميمته الأساسية تجاه دول العالم هي العمل على إزالة مظاهر العدوان المسلح، والظلم، وتقرير المساواة والعدل، لأن بغير ذلك يتحقق السلم والأمن الدوليين وهو ما أكدته شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله «المور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الشراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشرك في ثم» لذا فالدولة العادلة، لا يجوز لها أن تقيم علاقاتها الخارجية مع الآخرين إلا وفق ميزان العدل، لأنها دولة تلتزم بالميثاق الإلهي الذي يأمر بالعدل والإحسان.

هذه إذن بعض القواعد السياسية التي تحكم السياسة الخارجية للدولة الإسلامية سواء في زمن السلم أو في زمن الحرب. ولتبيّن في الأخير إلى أن هناك العديد من القواعد السياسية مثل قاعدة التسامح في معاملة الشعوب، وقاعدة تعاون وتبادل المنافع بين الناس، وقاعدة المساواة، وغير ذلك من القواعد التي لا يتسع المجال لشرحها.

الخاتمة:

يظهر مما تقدم بيّناه أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم لا الحرب وأن هاته العلاقة قد أثبتت على قواعد أزلية أبدية سرمدية لا يلحقها التسخ، و لا التبدّل، و لا التغيير.

وعليه يمكن القول بأن الإسلام لم يشكل خطراً بالأسس، ولئن بهتد اليوم المجموعة الدولية كما يدعي أغلبهم، لأنه دين سلام وتسامح وحرية.

الهوامش:

- 1 - منهم جمهور فقهاء المذاهب السنية، وفقهاء الشيعة.
- 2 - أحكام القرآن 1/260-261، شوكانى: فتح البير 1/191.
- 3 - أحكام القرآن 1/260-261، شوكانى: فتح البير 1/191.
- 4 - تفسير الطبري 4/295-299، القرطبي: أحكام القرآن 3/38-39، ابن العربي: أحكام القرآن 1/146.
- 5 - أحكام القرآن 3/111، الطبري: تفسير الطبري: 1/241-242 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم 2/357.
- 6 - منه: الطبري و البغوي و الجصاص و الرمخشري و غيره.
- 7 - الطبري: التفسير 14/198، الجصاص: أحكام القرآن 1/91.
- 8 - البحارى: الصحيح، كتاب الإيمان 1/53.
- 9 - رواه أحمد 57/8، رقم 5667.
- 10 - صحيح البخاري 50/5، كتاب التهاد، تبر، ينادى قاتل تقتل، كذا أنه من العبارة.
- 11 - وهبة الزحيلي: آثار الحرب 134-135، و العلاقات الدولية في الإسلام 96.
- 12 - رواه الجماعة (أحمد الشيباني و أصحاب السنة) عن أبي موسى الأشعري.
- 13 - الضعيف.
- 14 - عن إمام خلاف: الساسة للفرقة 74.
- 15 - الخطيب البغدادي: الفقيه و المنهجه 6/215.
- 16 - الزرقاه أحمد بن شيخ محمد: شرح القواعد الفقهية 315.
- 17 - الأندلي: الأحكام في أصول الأحكام، القرائن: الخروفي 1/104.
- 18 - رسالة القتل 141.
- 19 - وهبة الزحيلي: آثار الحرب 112.
- 20 - شيباني: الإسماء و الألقاب 34.

- 21- الجصاص: أحكام القرن 282/3 وما بعده، الخطوط: جامع بين عن تاريخ في القرن 499/9-454، ابن تيمية: الفتاوى 145/29-151.
- 22- التحرير والتنوير 132/2.
- 23- السرخسي: شرح السيز الكبير 4/1167، الجصاص: أحكام القرن 3/75-76.
- 24- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة للمنفق 89/1.
- 25- أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب: ثم العائر 283/6، مسلم في باب الأمر بالسير 1361/3.
- 26- أخرجه الإمام أحمد في المسند 4/414، والدارسي في المسند 2/264، أبو داود في السنن: كتاب البيوع، باب: في الرجل يأخذ حقه 5/185.
- 27- لا تحبس العهد: أي لا القضم... الخ ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر 4/73.
- 28- المسند 7/5، ورواه أيضا أبو داود في السنن، كتاب الجهاد، باب: في الإمام يستجف في العمود 3/190.
- 29- السهلي: الفروض الألف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام 4/29، ابن هشام: السيرة النبوية 2/318 وأخرجه البخاري في الصحيح: كتاب المغزى، باب: عزوة الحنظلية 46/3.
- 30- الإمام أحمد: المسند 5/395.
- 31- البيهقي: السنن الكبرى 1/49، محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعين النبوي والخلافة الثلاثة 411.
- 32- من 409 على الخطوط، وبنجاحي الخطوط: أخبار عمر وابن عمر رضي الله عنهما-284.
- 33- مراتب الأجماع 133، ابن شاس: عقد الجواهر الثمينة 1/498، النسوق: تحاشيته على الشرح الكبير 206.
- 34- الإسلام عقيدة وشريعة 458-459.
- 35- ابن ماجة: السنن 2/953، أحمد: المسند 5/358.
- 36- مسلم: الصحيح 3/1361، كتاب الجهاد والسير، وأحمد: المسند 7/201، رقم 5378.
- 37- البخاري: الصحيح 1/89، كتاب الإيمان، باب علامة للمنفق، مسلم: الصحيح 1/78، كتاب الإيمان، باب: حصل المنفق.
- 38- ابن هشام: السيرة النبوية 3/323.
- 39- محمد الصادق عرجون: محمد رسول الله 3/323.
- 40- الكنتي: يدافع الضائع في ترتيب الشرائع 7/110، السرخسي: المبوط 10/96.
- 41- محمد بن علي في سيرة نضر 90، هشام 135، كتاب: 8.
- 42- الحمية في الإسلام 81.

رؤى من القرآن مستنيرة بمستقبل الإسلام

الأستاذ نجيب بوحنيك

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية. جامعة باتنة

لا محالة أن الله ضمن البقاء والاستمرار لبنا الثنين.. ولا محالة أيضا أنه ضمن له الاستخلاف والتكمين والظهور على غيره من الأديان.. وهذا مما بينه في نصوص وحيه : من آيات القرآن الكريم وكلام نبيه محمد سيد المرسلين.

وعند رجوعي للنصوص الواردة في هذه المسألة من الوحي العظيم.. وقفت على آيات يبشر الله من خلالها بصورة واضحة صريحة على أن المستقبل للإسلام، وهي قوله -جاء في علا-: يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون*.

فعرزعت سمعنا يا الله- أن أقف وقفه متأنية عند هذا السياق القرآني، وتجلية الحقيقة الكبرى التي تضمنها.. في هذا البحث المتواضع تحت عنوان :

رؤى من القرآن والسنة مبشرة بمستقبل الإسلام.

ضمن النقاط الآتية :

1/ مواضع ورود هذا السياق من سور القرآن الكريم :

ورد هذا السياق في مواضع عديدة من سور القرآن الكريم مرتبة على النحو الآتي :

أولا : سورة التوبة [الآية : 32، 33]

قال تعالى : يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

ثانيا : سورة الفتح [الآية : 28]

قال تعالى : " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا " .

ثالثا : سورة الصف [الآية : 8 ، 9]

قال تعالى : " يريدون ليطفنوا نور الله بأقوامهم والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " .

2/ المعاني التبشيرية العامة لهذا السياق القرآني :

لقد تضمنت الآيات السابقة أساليب عديدة توحى في معناها العام على أن الله - عز وجل - سيمكن لدينه الإسلام - ويظهره على جميع الأديان - الآية .. وتكون خاتمة حكم هذه المعمورة به .. وهذه الأساليب من خلال السياق القرآني هي : " نور الله .. ويأبى الله إلا أن يتم نوره .. " و" والله متم نوره .. " و" ليظهره على الدين كله " .

قال ابن عاشور رحمه الله - : قوله : " يريدون أن يطفنوا نور الله .. " استئناف ابتدائي لزيادة إثارة غيظ المسلمين على أهل الكتاب . بكنف ما يضررونه للإسلام من العبادة ، والتألب على مناداة النير ، حين تحققوا أنه في انتشار و ظهور ، فثار حسدهم وخشوا ظهور فضله على دينهم ، فالضمير في قوله " يريدون " عائد إلى " الذين أوتوا الكتاب " .

... و إضافة النور إلى اسم الجلالة إثارة إلى أن محاولة إطفائه عبث وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مراتهم .

و الإياء والإبابة : الاستتاع من الفعل ، وهو هنا تمثيل لإرادة الله تعالى إتمام ظهور الإسلام بحال من يحاوله محاول على فعل وهو يمنع منه ، لأنهم لما حاولوا طمس الإسلام كانوا في نفس الأمر محاولين إبطال عراك الله تعالى . فكان حالهم . في نفس الأمر ، كحال من يحاول من غيره فعلا وهو يأبى أن يفعله (1) .

وقال في شرحه لسورة الصف : " وإضافة نور إلى اسم الجلال إضافة تشريف . أي نورا أوفده الله . أي : أوحده وقدره فما ظنكم بكلمة (2) .

و الإتمام في قوله : " إلا أن يتم نوره " . مؤذن بالزيادة والانتشار وذلك لم يقل : " ويأبى الله إلا أن يبقى نور " (3) .

و قال في شرحه لسورة الصف : **و الله متم نوره** : والجملة الاسمية تفيد ثبوت هذا الإتمام، والتمام هو حصول جميع ما للشيء من كيفية أو كمية. فتمام النور : حصول أقوى شعاعه وإتمامه إمداد الله بما يقوى شعاعه⁽⁴⁾.

و **لو في ولو كره الكافرون** اتصالية، وهي تفيد المبالغة بأن ما بعدها أجدر بانتفاء ما قبلها لو كان منتفياً، والمبالغة براهية الكافرين ترجع إلى المبالغة بإثار تلك الكراهية، وهي الثأب والتظاهر على مقاومة الذين وابطالهم، وأما مجرد كراهيتهم فلا قيمة لها عند الله تعالى حتى يبلغ بها، والكافرون هم اليهود والنصارى⁽⁵⁾.

و قد اختلف في معنى "النور" الوارد في الآية على أقوال :

قال السدي : المراد بالنور هنا الإسلام، وقال الضحاك هو محمد -صلى الله عليه وسلم- وقال الكلبي هو القرآن. وقال بعض المغررين المراد بالنور الدلائل على التوحيد ونبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- لأنها يهتدى بها إلى الحق في العقليات، كما يهتدى بالنور في رؤية الحسنيات⁽⁶⁾.

و قد رجح محمد رشيد رضا بين هذه الأقوال فقال : **ونختار هنا القول الأول** وهو دين الإسلام بالمعنى العام الشامل لكل ما جاء به رسل الله، ولاسيما دين التوراة والإنجيل والقرآن. وقد كان كل منها نوراً لأهله في الزمن الذي نزل به بقدر حاجتهم حتى إذا نزل القرآن كان هو النور الأعظم الكافي لبداية جميع البشر إلى آخر الزمان⁽⁷⁾.

ثم بين رحمه الله -وجه المفارقة بين **و الله متم نوره** في سورة الصف، **وأيلى الله إلا أن يتم نوره** في سورة براءة، فقال : ثم إن بينهما فرقاً وهو التعبير في آية سورة الصف بقوله : **و الله متم نوره** وفي سورة براءة بقوله : **وأيلى الله إلا أن يتم نوره** والأول : يفيد أنه متمم بالفعل في الحال. والثاني : وعد بأن يتمه في المستقبل، فبجتماع منيما إثبات هذا الإتمام في الحال والاستقبال، فهو النور التام الكامل الذي لا ينطفى بالقيل والقال. بل يبقى مشرقاً إلى أن يأتى الله لهذا العالم بالزوال. ولما كان هذا الوعد الذي يتعلق بالمستقبل المغيب عن علم الخلق من شأنه أن يرتاب فيه الناس، أكد الله تعالى بما لم يؤكد به الخبر الأول لأن صدقه مشاهد لا يحتاج إلى التأكيد، ونهايك بقوله : **وأيلى الله إلا أن يتم**

نوره" أي أنه لا يرضى ولا تتعلّق إرادته بشيء في هذا الشأن إلا شيئاً واحداً وهو أن يتم نوره فلا يجعل في فترة أحد أن يطفئه.

و الآية تشعر بأن هؤلاء الكافرين الكافرين له سيحاولون في المستقبل إطفاء هذا النور كما حاولوا ذلك في عصر من أتمه وأكمّله بوحية إليه وبيانه له. وهذا ما وقع من قبل... وأفظعه الحروب الصليبية ومقدماتها، وما هو واقع الآن، فإن دعاة النصرانية (المبشرون) من الإفرنج يغتزون في الطعن على الإسلام والقرآن والنبي -صلى الله عليه وسلم- في كل بلد أليم فيه حكم أو نفوذ أو امتياز (8).

و قد بين ابن عاشور سرّاً تذييل آية براءة والصفاء بقوله : "ولو كره الكافرون" فقال : "والله منم نوره" على فرض كراهة الكافرين، ولما كانت كراهة الكافرين إتمام هذا النور محققة كان سياقياً في صورة الأمر المفروض نيكماً... وإنما كانت كراهية الكافرين ظهور نور الله حالة يظن لنفاء تمام النور معيها، لأن تلك الكراهية تبعثهم على أن يتألبوا على إحدائهم العرافيل وتصليل المتصددين للاهتداء وصرفهم عنه بوجود المكر والخديعة والكيد والإضرار... وسئل لفظ "الكافرون" جميع الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم.

و لكن غلب اصطلاح القرآن على تخصيص وصف الكافرين بأهل الكتاب ومقابلتهم بالمشركين أو الظالمين وينتج على هذا أن يكون الاهتمام بذكر هؤلاء بعد (لو) الوصلية لأن المقام لإبطال مرادهم إطفاء نور الله فإتمام الله نوره إبطال مرادهم إطفاءه (9).

و قد عقب الشهيد -سيد قطب- عن قوله تعالى : "يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم".

فقال في سورة التوبة : "إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق، وعبادة أرباب من دون الله، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر - وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر- إنما هم كذلك يعنون الحرب على دين الحق، ويريدون إطفاء نور الله في الأرض المتمثل في هذا الدين، وفي الدعوة التي تتلّق به في الأرض، وفي المنهج الذي وسوخ على وفقه حياة البشر... يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم.."

فهم محاربون لنور الله. سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودساتس وقتن، أو بما يحرصون به أتباعهم وأشياعيم على حرب هذا الدين وأهله، والنووق سدا في وجهه- كما كان هو الواقع الذي تواجبه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ.

و هذا التقرير - وإن كان يرد به لتجائمة قلوب المسلمين إذ ذاك- هو كذلك بصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور الله المتمثل في دينه الحق الذي يهدي الناس بنور الله⁽¹⁰⁾.

وقال في سورة الصف : "وَلَمْ تَضَعْ الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى للحظة الحاضرة. فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلنا نغيران عليه أو نؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جبل من الأجيال. حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق، وحاربوه في الاندلس في المغرب، وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه "الرجل المريض".

...و هذا النص القرآني يعبر عن حقيقة، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم : "هذا سحر مبين" .. ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد. وهي صورة بانسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم الضعاف الميازيل!⁽¹¹⁾.

و عقب على قوله : "ويأبى الله إلا أن يتم نوره" في سورة التوبة، فقال : "وهو الوعد الحق من الله، الدال على سنته التي لا تتبدل، في إتمام نوره باظهار دينه ولو كرد الكافرون.. وهو وعد نطمئن له قلوب الذين آمنوا؛ فيدفعهم هذا إلى المضي في الطريق على المشقة والأواء في الطريق؛ وعلى الكيد والحرب من الكافرين.. كما أنه يتضمن في شيايه الوعد لبؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان"⁽¹²⁾.

وعقب على قوله : "والله متم نوره" في سورة الصف فقال : " .. وصدق وعد الله، أتم نوره في حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار. صورة ذات معالم واضحة وحنود مرسومة، تترسمها الأجيال لإ نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع. وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام

دينا يحبونه، ويجاهدون في سبيله. ويرضى أحدهم أن يلتقى في النار ولا يعود إلى الكفر. فتمت حقيفة الدين في القلوب وفي الأرض سواء. وما نزال هذه الحقيقة تتبعث بين الحين والحين وتتض وتنفض قائمة على الرعد - من كل ما جرت على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتكوير وتشريد وحضن سيئ. من نور لا يمكن أن تطفئه الأفواه. ولا أن تطمه كذلك النار والحديد، في أيدي العبيد! وإن حيل للطاعة الجبارين، وللإطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بلغوا هذا الهدف العبيد! (117).

قال ابن عاشور : وقوله تعالى : هو الذي أرسل رسول الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .. بيان لجملة ويأبى الله إلا أن يتم نوره بأنه أرسل رسوله بهذا الدين، فلا يريد إزالته. ولا يجعل تقديره باطلا وعيبا. وفي هذا البيان تنويه بشأن الرسول بعد التنويه بشأن الدين.

و في قوله : هو الذي أرسل رسوله صيغة قصر، أي هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يتوكل معانيبه بظفونه.. وإجذاب اسم الموصول : للإيماء إلى أن مضمون هذه الجملة التي نيت عليها هذه الجملة وهي جملة ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

و عجز عن الإسلام بالهدى ودين الحق تنويها بفضله، وتعريضا بأن ما هم عليه ليس بهدى ولا حق.

وفعل الإظهار إذا عني به (عنى) كان مضمنا معنى النصر، أو التفضيل، أي لينصره على الأديان كلها، أي ليكون أشرف الأديان وأغلبها، ومنه المظاهرة أي المناصرة (118).

و اللام في **ليظهره** لتعليل فعل أرسل ومتعلقته، أي أرسله بذلك ليظهر هذا الدين على جميع الأديان الإلهية السالفة ولذلك أكد به كلمة لأنه في معنى الجمع.

و معنى **يظهره** يُعَيِّبه. والإظهار : أصله مشتق من ظير بمعنى بدأ، فاستعمل كناية عن الارتقاع الحقيقي ثم أطلق محذرا عن الشرف فصار **أظهره** بمعنى أعلاه، أي يُشرفه على الأديان كلها (119).

و تعليل ذلك بقوله ليظهره على الدين كله إعلال بأن الله أراد ضيور هذا الدين وانتشاره كيلا يطمعوا أن يناله ما نال دين عيسى عليه السلام من القمع

والخفت في أول أمره وانسخر زماننا طويلاً حتى تنصّر قسطنطين سلطان الروم،
فلما أخبر الله بأنه أراد اظهر دين الإسلام على جميع الأديان علم أن أمره لا يزال
في ارتداد حتى يتم المراد.

و الاظهار : النصر ويطلق على التفضيل والازلاء المعنوي.

و التعريف في قوله على الدين تعريف الجنس المفيد للاستعراق، أي
ليعلي هذا الدين الحق على جميع الأديان وينصر الله على أهل الأديان الأخرى
الذين يتعرضون لأهل الإسلام.

و يظهر أن لفظ "الدين" مستعمل في كلا معنييه : المعنى الحقيقي وهو
الشرعية، والمعنى المجازي وهو أهل الدين كما تقول : دخلت فريداً كذا وأكرمته،
فاظهار الدين على الأديان بكونه أعلى منها تشريعاً وادباً، وأصلح بجميع الناس لا
يخص أمة دون أخرى ولا جيلاً دون جيل⁽¹⁶⁾.

قال محمّد رجب روضة : وأظهره... جعله فوقه مستغنياً عنه، والاستعلاء
هنا بالعلم والحجة، أو المبادأة والغلبة، أو الشرف والعزلة، أو بها كلياً، وهو
المختار⁽¹⁷⁾.

و قد علق الشنيد بن قنبل على قوله : ليظهره على الدين كله.

فقال في سورة التوبة : والله سبحانه بعث قضاة يظهر دين الحق الذي
أرسل به رسوله على "الدين" كله بيننا الشكوك التامل العاد... إن الدين له ستكون
له وحده، والظهور سيكون للمسيح الذي تكلم فيه النبوة له وحده... وقد نطق
هذا مرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وحققه ومن جاء بعده فترة
طويلة من الزمان، وكان دين الحق أظير وأطب؛ وكانت الأديان التي لا تخلص
فيها الدينونة له تحاف وترجف ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه؛ خطوة فخطوة
يفعل عوامل داخلية في تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب
الطويلة المدى، المتوعدة للإنانين، التي أخذنا عنها اعتادوا من الوثنيين وأهل
الكتاب سواء.

و لكن هذا ليس نهاية المطاف... إن وعد الله قائم، ينتظر العصاة
المسلمة، التي تحمل الزاية وتمضي مبتدئة من تقلة البدء، التي بدأت منها خطوات
رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يحمل دين الحق ويتحرك بقوله الله⁽¹⁸⁾.

وقال في سورة الفتح : فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية. ووعد الله ما يزال متحققا في الصورة الموضوعية الثابتة؛ وما يزال هذا الدين ظاهرا على الدين كله في حقيقته. بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادرا على العمل، والقيادة، في جميع الأحوال.

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم! فغير أهله يدركونها ويخشونها، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب! (19)

وقال في سورة الصف : وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها، ظاهرا بإذن الله على الدين كله تحقيقا لوعده الله، الذي لا تقف له جهود العبيد المهزول، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!

و لقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاضيين بيا على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعيا اليهود والنصارى. وكانت تطمئنا لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة. وما تزال حافزا ومطمئنا لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة. بإذن الله. (20)

بعد هذا العرض نستخلص المعاني الآتية :

1/ إن إضافة نور الله -الإسلام- إلى اسم الجلالة "الله" فيه إشارة إلى أن أي محاولة لإطفائه وطمسه هي من باب العبث، وهي صورة بانسة من قبل الضعاف المهزول.

2/ إن عملية إتمام الدين مضمونة بزمان الحال وزمان الاستقبال. فقولته : "والله متم نوره" يقتضي إتمامه بالفعل في الحال، وقوله : "و يلبى الله الأ أن يتم نوره" يقتضي إتمامه في الاستقبال. فيجسج للإتمام زمانان : الحاضر والمستقبل.

3/ إن ضمان عملية الإتمام لهذا الدين يعتبر بمثابة وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا.. فيحفظهم على المضي في الطريق رغم ما فيه من مشقة وحرب وكيد وتكليل وبطش شديد.. لاسترجاع أمجادهم والتعمين لدينهم.

4/ إن علة الإرسال لدين الله هي إظهاره على جميع الأديان. وفي هذا إعلام من الله لجميع الخلق أن لا يفكروا أو يطمعوا في إيقافه أو صدده.. لأن وعده بالإظهار يبقى في ازدياد إلى أن يتم المراد.

5/ إن عملية الظهور لهذا الدين تحققت مرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان.. ولا تزال لهذا الدين أنوار يظهر فيها في الزمن اللاحق - بإذن الله - تحقيقاً لوعده مهما بلغت قوة الكيد والتضليل.

في هذه المعاني المستخلصة من هذا النص القرآني يجب أن تكون حافزاً للمؤمنين الواثقين بوعد ربهم أن المستقبل سيكون لهذا الدين مرة أخرى بحكم واقع الحياة في جميع نواحيها.

3/ موقف المسلمين مما بشر الله به نبيه الكريم من غلبة الإسلام والمسلمين :

إن هذه الميثرات تزيد المؤمن يقيناً بأن المستقبل للإسلام.. ولا تجعله يخذل إلى الكسل والدعة، بل تحفزه على الجهاد والمكابدة من أجل تحقيق ما وعد الله به رسوله الكريم.

و في هذا المعنى يقول الشيخ القرصاوي : أن الميثرات بمستقل الإسلام، التي ذكرناها، لا ينبغي لنا أن نكفل عليها، وننام على أذاننا، ونخذل إلى الدعة والكسل، ومنتظر نصر الله ينزل علينا دون جهد نبدله، وجهاد نمارسه، وعمل نؤوب نقوم به في جوانب حياتنا كلها، نقوم ما اعوج منها، ونصلح ما فسد، ونبني ما تهتم، ونقوي ما ضعف، ونكمل ما نقص، بروح المجددين، لا بعقلية المقادير... نستلهم تراثنا، ونجعل مناراً يهديننا، لا قيوداً ينقل حركتنا، ويعوق انطلاقنا.

نقتبس الحكمة من أي وعاء خرجت، فلا نتقيد بمدرسة إسلامية واحدة، ولا نلتزم مذهباً واحداً لا نخرج عنه، بل نستفيد من كل المدارس والمذاهب والمشارب، في ضوء القواعد المثق عليها، رأتين المشابيهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، والجزئيات إلى الكليات، والقروع إلى الأصول... إن الرسائل لا تتنصر وحدها، إنما تتنصر بأهلها، والحق لا يعلو وحده، إنما يعلو وفق سنن الله - بذعائه ورجاله الذين جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص.

... قلنمض إن على بركة الله عاملين مصممين، في صدق لا يعرف الزيف، وثبات لا يعرف التردد، وعزم لا يعرف الكلال، ويقين لا يعرف الشك، وأمل لا يعرف القنوط، وجهاد لا يعرف القعود. و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبنا وإن الله لمع المحسنين. [العنكبوت : 69] (34).

وقد ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- عدة حكم لاستبطاء النصر للإسلام والمسلمين فصلها في قوله الأتي : إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور. [الحج : 38].

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم. وعن يدافع الله عنه فيكون ممنوع حتما من عدوه، ظاهر حتما على عدوه.. فقيم إذن بأن الله يقاتل؟ وفيه إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وقيم إذن يغفلون فيصيبهم القتل والجرح. والنجس والمشفة، والتصحية والآلام... والعاقبة معروفة، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا حين ولا مشقة، ولا تصحية ولا ألم. ولا قتل ولا قتال؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا، وأن لله الحجة البالغة.. والذي ندرسه نحن الآن من تلك الحكمة ويظهر لمعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يريد أن يكون حملة دعوته وحماتها من التناقلة الكسالى الذين يجلسون في استرخاء، ثم ينزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء، ليجرد أئمة يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء، كما سبهم الذي ووقع عليهم الاعتناء! نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة، وأن يترتوا القرآن، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء. ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحماتها؛ إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة والخبرة التي يدرسونها للموقعة، والسلاح الذي يطمنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويريدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله.

فقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم تضحيهم هم في أثناء المعركة. فالبنية الإنسانية لا تستفظ كل الطاقات المنحورة فيها كما تستفظ وهي تواجه الخطر؛ وهي تدفع وتدافع. وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المباحية.. عندئذ تتحفر كل خلية بكل ما رزق فيها من استعداد لتؤدي دورها؛ وتتشارك مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة، وتؤدي أقصى ما تملكه، وتبذل آخر ما تطوي عليه؛ وتصل إلى كسر ما هم مخدرونها وما هي مبيأة له من الكمال.

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استنقاذ كل خلاياها، واحتشاد كل قواها، وتوفير كل استعدادها، وتجميع كل طاقاتها، كي يتم نصرها، ويكمل تضحيها، وتنبأ بذلك لحمل الأمانة العظيمة والتقيام عليها.

والنصر السريع الذي لا يكف عناء، والذي ينتزل هينا هينا على القاعدين المستريحين، يعطل تلك الطافات عن الظهور، لأنه لا يحفرها ولا يدعوها، وذلك فوق أن النصر السريع الهين الهين سهل فقدانه وضياعه، أولا : لأنه رخيص الثمن لم تبدل فيه نضجيات عزيزة، وثانيا : لأن الثمن نالوه لم تترب قواهم على الاحتفاظ به ولم تتخذ طاقاتهم وتحت أحسنه، فهي لا تتحفر ولا تحشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوحدانية والتربية العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة، والنكر والفر، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر، ومن المشاعر المصاحبة لها.. من الأمل والألم.. من الفرح والغم، ومن الأطمئنان والقلق، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة.. ومعها التجمع والفتاء في العقيدة والجماعة والتسيق بين الاتجاهات في شأنا المعركة وقضاياها وبعدها وكشف نقاط الضعف ونقط القوة، وتغيير الأمور في جميع الحالات.. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس.

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعنده الله.. جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم؛ ولم يجعله أمانة تبيط عليهم من أسماء بلا عناء، والنصر قد يبطل على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله. فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدنا الله :

قد يبطل النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تتضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفر كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وحكما لعنه قدرتها على حمايته طويلا.

و قد يبطل النصر حتى تبدل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستفي عزيزا ولا غالبا، لا تبدله هينا رخيصا في سنبل الله.

و قد يبطل النصر حتى تحرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتترك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر. إنما ينتزل النصر من عند الله عندما تبدل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

و قد يبطن النصر لتزويد الأمة المؤمنة صلواتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل؛ ولا تجد لها سندا إلا الله، ولا متوجيا إلا إليه وحده في الضراء، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتنا على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله، فلا تطغى ولا تتحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

و قد يبطن النصر لأن الأمة المؤمنة لم تنجرد بعد في كفاحها وبذلها وتصحياتها لله ولدعوته فهي تقاوم لنعتم تحققة، أو تقاوم حمية ذاتيا، أو تقاوم شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بزينا من المشاعر الأخرى التي تلابسه. وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم - الرجل يقاوم حمية والرجل يقاوم شجاعة والرجل يقاوم ليرى. فأبى في سبيل الله. فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".

كما قد يبطن النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا ويذهب وحده هالكا، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في العمار!

و قد يبطن النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضروره زواله، فتظل له جنود في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى ينكشف عاريا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

و قد يبطن النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ لتقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معيا قرار. فيظل الصراع قائما حتى تنهيا النفوس من حوله لاستقبال الحق الظاهر، ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطن النصر، فتضاعف التصحيحات، وتضاعف الألام. مع دعاء الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية⁽³⁵⁾.

الخاتمة: سأوجز في هذه الخاتمة بعض النتائج التي تعتبر بمثابة ثمرة استفراء لآيات القرآن وأحاديث السنة وما تضمنته من رؤى مستقبلية لما سيكون عليه حال الإسلام والمسلمين في قادم أيامه، ومن بين هذه النتائج ما يأتي:

1- إن المبشرات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية نوحى بقينا أن المستقبل لهذا الدين، وأن له دورا في هذه الأرض هو مدعو لأدائه.

2- إن أعداء هذا الدين مهما بذلوا من جهود لإطفاء نور الإسلام، فلا ولن يبلغوا ما أرتوا.. فالنور المرتقب للإسلام لا تملك أي عقيدة أخرى، كما لا يملك أي منهج آخر أن يودي به.. وبذلك فالبشرية بجمالها لا تملك أن تستغني عنه مهما طال الزمان أو قصر.

3- يجب على المسلمين ألا يخالجهم الشك في أن ما وقع مرة من انتشار نور الله ودخول الناس فيه لأجرا من أنه سيقع ثانية.. وبذلك نحصن قلوبنا من أن يتطرق لها اننى سنك بسبب الضربات الوحشية التي تتعرض لها طلائع البعث الإسلامي في كل مكان.

4- إن هذه المبشرات يجب أن تكون حافزا للمسلمين بأن يبذلوا مئاهم وهديم الله من فترات وطقات وجهود، ويرتفعوا إلى مستوى دينهم : في حقيقة إيمانهم بالله وعبادته.. وفي وعيهم بما يدور حولهم وفي لحاظتهم بثقافة عصرهم وحضارتهم.. وفي اتر اكيهم لطبيعة الحياة الشرية وحاجتها الحقيقية المتجددة.

5- يجب على المسلمين أن يوقفوا أنه ينتظرهم : كفاح مرير.. وكفاح طويل. ولكن كفاح بصير، وكفاح أصيل.. وأن يوقفوا أيضا : أن الله معهم.. وأنه متم نورده.. وأنه "غالب على أمره" وأن الله عاقبة الأمور.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش:

(1) التحرير والتوير (171/10 - 172).

(2) التحرير والتوير (190/28).

(3) التحرير والتوير (172/10).

(4) التحرير والتوير (190/28، 191).

(5) التحرير والتوير (172/10).

(6) محمد رشيد رضا : تفسير المنار (10/448).

(7) تفسير المنار (10/149).

(8) تفسير المنار (10/453، 454).

(9) التحرير والتوير (191/28).

(10) في ظلال القرآن (3/1643).

(11) في ظلال القرآن (6/3557، 3558).

(12) في ظلال القرآن (1643/3).

(13) في ظلال القرآن (3558/6).

(14) التحرير والتبوير (173/10).

(15) التحرير والتبوير (202/26).

(16) التحرير والتبوير (192/28).

(17) تفسير المنار (455/10).

(18) في ظلال القرآن (1644/3).

(19) في ظلال القرآن (3331/6).

(20) في ظلال القرآن (3558/6، 3559).

(21) تفسير ابن كثير () -.

(22) في ظلال القرآن (2528/4 - 2530) - بتصريف.

(23) أخرجه : أحمد في مسنده (103/4)، وقال عنه الهيثمي : "رجل أحمد رجل الصحيح" (14/6).

(24) د/ يوسف القرضاوي : المبشرات بانتصار الإسلام (28).

(25) أخرجه : أحمد (176/2)، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد : "رجاله رجل الصحيح" (219/6).

وأورده الألباني في كتابه : سلسلة الأحاديث الصحيحة (8/1).

(26) سلسلة الأحاديث الصحيحة (8/1).

(27) المبشرات بانتصار الإسلام (31).

(28) أخرجه مسلم (2215/4) كتاب : الفتن وأشراط الساعة، باب : هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.

(29) المبشرات بانتصار الإسلام (32).

(30) أخرجه مسلم في صحيحه (701/2) : الزكاة، باب : الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها.

(31) أخرجه : أحمد في مسنده (273/4)، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد : "رجاله رجال" (189/5).

(32) د/ يوسف القرضاوي : المبشرات بانتصار الإسلام (35).

(33) أخرجه : البخاري في صحيحه مع الفتح (103/6) كتاب : الجهاد، باب : قتال اليهود.

مسلم في صحيحه (2239/4) كتاب : الفتن وأشراط الساعة، باب : لا تقوم الساعة حتى تعبد شعوبًا
للخنعة.

(34) المبشرات بانتصار الإسلام (99، 100، 101، 105) - بتصريف.

(35) في ظلال القرآن (2425/4 - 2427).

استراتيجية إصلاح التعليم في العالم العربي والإسلامي

مدخل نظري و ملامح مستقبلية في القرن الخامس عشر الهجري

الأستاذ حسين لوشن

قسم علم الاجتماع. جامعة الحاج لخضر باتنة

مقدمة

نموذج البحث القائم حول دراسة موضوع من هذا القبيل، في الأصل انتقناه لكونه نابعا عن إيماننا بفكرة أن الباحث في أي مجال كان... وخصوصا الباحث الذي ينتمي إلى الأمة الإسلامية روحا وعقلا و لسانا ووجدانا و عقيدة و مصيرنا، وذلك فهو مطالب أن:

- يمتد ماضيها الحى القريب و البعيد

- يعيش حاضرها أو بالأحرى واقعا بكل تغيراته

- يتفاعل مع الأحداث التي تجري وتمر بها

- يعتز بالانتصارات التي حققتها وستحرزها

- يتأثر لما أصابها من اضطرابات وسجلته من إخفاقات

- يقف اليوم وقبل أي وقت مضى لمساعدتها على مواجهة التحديات

المفروضة عليها

- يتطلع دائما لمطوحتها وفاقيا المستقبلية...إخ

مطالب حضارية كهذه ، تتفق ضمنا مع التوجيهات الكبرى للإصلاح، باعتبار أن الأمة الإسلامية حاليا، هي في أمس الحاجة كي يُلَفَّ حولها بناؤها من العلماء والباحثين والخبراء وأصحاب القرار...في الداخل و الخارج، كون المرحلة التي تمر بها، تستدعي توحيد وتماسك الجميع، إضافة إلي تكثيف الجهود وتنوع الخدمات، والعمل على إصلاح واقعا القائم، سيما في مجال التعليم بكل أصنافه ومستوياته.

مثل هذه الإشارات الوجيهة، تجعلنا نعمق النظر في تاريخ العالم العربي والإسلامي، حيث أحدث فيه الإسلام النقلة النوعية في حياة الناس، نظرا لما بحمله من قيم دينية وتعليمية وعلمية وعملية، وبانتشاره الواسع في أنحاء البلاد

استراتيجية إصلاح التعليم في العالم العربي والإسلامي

الإسلامية، ومن ضمنها البلاد العربية، هذه الأخيرة التي تشكل نقطة البداية والتحول في تاريخ هذا العالم بالذات وهو العالم الإسلامي، سيما التاريخ الهجري الذي يقدّر مائة الزماني بأكثر من أربعة عشر قرناً.

ومادام الإسلام هو القاسم المشترك بين البلدان العربية و البلدان الإسلامية، مع أن هذه المجتمعات تكون في النجاية عالماً واحداً، يطلق عليه بد: العالم الإسلامي، فإنه في هذه الحالة وحسب تصورنا يظل الإسلام يشكل الوثائق الثمين، والجسر الحصين، قياساً بمحافظه على الشيوخ: الأخلاقي والديني والتربوي والتعليمي والاقتصادي والثقافي والحضاري والاجتماعي... كما جعل مجموعة هذه البلدان يتقاطع وتتوافق فيما بينها في مجالات الحياة المختلفة.

إن طرحاً كهذا، الهدف منه تحفيز الوجود وإثبات القدرة على التطور والتقدم، وهي قيم تتكامل مع الإسلام وتعاليمه، وتقود إلى إبراز النبوية، التي لا يمكن أن تنقطع امتداداتها، مادامت شعوب العالم العربي والإسلامي تتصك بالعقيدة الإسلامية، وتعمل بعزم الإزادة الجماعية، على حفظها وصيانتها من الشوائب والتحريف، ونقلها صحيحة إلى الأجيال الجديدة، مع الحرص على تعليمها وتكوينها وإصلاح شؤون دينها ونبيها، لتكون خير خلف لخير سلف.

حين الرجوع إلى القرون الأولى من التاريخ الهجري للعالم العربي والإسلامي، وبفضل ما توفر عليه وقتها من أسباب القوة، إلى جانب وجود مقومات: تاريخية وتربوية وتعليمية وفنية وثقافية وحضارية... تركت معها الأجيال السابقة، ونخص بالذكر السلف والخلف الصالح، بصمات خالدة في مسار التراكمات التراثية، وتحديداً في مجال التربية والتعليم.

إقتداء بالمرسة المحمدية التي أنتت دوراً عظيماً في شأن التعليم، بتليل أن أولى آيات الوحي الإلهي التي نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم هي: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ (1)، وقد تمت الاستجابة لهذه الدعوة في تعلم القراءة وطلب العلم، فكان للعرب والمسلمين انذاك شأن كبير، نظراً لصلاح أحوالهم وتطور التعليم على أيديهم، كما تصدروا طليعة شعوب العوالم الأخرى في ذلك الزمان.

واضح أن سجل العرب والمسلمين على امتداد التاريخ الهجري، حافظ بالأعجاز والدروس في هياكل كثيرة، ومنها على وجه الخصوص ميدان التعليم، وبالمقابل تعرضت بلدان العالم العربي الإسلامي إلى نكبات أو إزمات متفاوتة الشرجات،

عطالت من جهتها وثيرة نغو هذه المجتمعات، مما جعلها تمثل حضوراً لا تعده قويا في الإبداعات التربوية والتعليمية على مدى فترات القرن الرابع عشر الهجري الماضي..

ونجربا من الذاتية والتصور الضيق، نقول أن العرب والمسلمين في القرون الهجرية الأخيرة، كان إيمانهم ضميلا ومناضعا في حركة التطور التعليمي والعلمي والتكنولوجي و المعلوماتي، مقارنة بما أبدعته واخترعته شعوب العالم الغربي.

مانمنا اطلقنا من الإسلام لإنبات خصوصية الهوية، والتطلع لإعادة المجد والقوة للأمة الإسلامية، فإن الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري، يستعمر كل عربي ومسلم للوقوف أمام انذات، وذلك قست المراجعة الحزبية لهذه انذات.. ثم العمل الجاد على إصلاح أحوالها: الروحية والنفسية والسلوكية والمادية... و بعد كهدا لا يمكن أن ينحقق إلا في ظل مشروع إصلاحى تعليمى متكامل ورائد، يفوق العالم العربى والإسلامى تدريجيا، لتتمك بلدانه من جنيذ أسباب وأدوات النجاح والتقدم.

أولا: المدخل النظري فى الإصلاح

ظاهرة الإصلاح فى العالم العربى والإسلامى ليست وليدة الساعة، بل لها خصوصيتها التاريخية والذنية والحضارية... وحتى العلمية، وتحدثنا تبدأ العملية الإصلاحية الكبرى والشاملة مع مجيء المعصطفى عليه الصلاة والسلام. خير البشرية وهاديها ومصالحها الأول، ومنذ ذلك العهد ولفترة استمرت إلى ما يقارب أربعة قرون من التاريخ الهجرى، والحياة داخل البلاد العربية والإسلامية تعرف تطورا يوما بعد يوم، إلى أن بدأ عهد التراجع وقيام الحروب الصليبية. ثم تلتها أشكال الاحتلال والهيمنة الغربية، فاضطربت معها أحوال العرب والمسلمين فى مناحى كثيرة، ومنها حياة التعليم بصورة عامة.

ونتيجة للفساد والضعف الذى نبت فى جسم الأمة الإسلامية. لقد ظهرت إلى الوجود مدرسة الإصلاح التى أدت نورها على مستوى المجتمعات التى يضمها العالم العربى والإسلامى، منذ بداية النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى، وتعاقت عليها ثلاثة أجيال من السلف والخلف النصارح، ولها من إصلاحى حتى الوقت الحالى.

الشيء الذي يستوجب الذكر، أن جيود رجال الإصلاح من: مفكرين وأعلام ومربين وسياسيين... ومع تنوع مشاربيهم وأوطانهم، قد تركزت جهودهم الإصلاحية في القضايا الميعة الآتية:

1- قضية إصلاح الإنسان

يعتبر الإنسان جوهر الإصلاح، وبإكمال قواه يتحقق كل مبتغى من العمل الإصلاحى، وبشأنه يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس... صلاح النفس هو صلاح الفرد. وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية موجبة كلها إلى إصلاح النفوس، أما مباشرة وأما بواسطة، فتكميل النفس هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع(2)، وخاصة عند الإنسان العربي والمسلم.

2- قضية إصلاح الدين:

بعد الدين أساس كل إصلاح، لأنه ما صلحت دنيا بلا صلاح دين، وفي هذا المقام يقول الشيخ محمد عبده: إذا سئمت العقائد من البدع، تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب، واستقامت أحوال الأفراد، واستضاعت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دنيوية ودنيوية، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة، وسرى الصلاح منهم إلى الأمة (3) والمقصود هنا الدين الإسلامى.

3- قضية إصلاح التربية:

تتشكل التربية منفتح الإصلاح، ووعاء يشمل كل فكر وعمل موجه لإصلاح حياة الناس، وفيها يقول الشيخ محمد قطب... هي منهج متكامل لا يترك صغيرة ولا كبيرة، يشمل النفس الإنسانية بحدائقها، ويشمل الحياة البشرية بالتفصيل، فقد كان من أثر ذلك الأمة التي عدت تعمر وتبنى، وتقيم مثلاً أخلاقية وإنسانية غير معهودة من قبل ولا من بعد، ونشر النور والهدى، وتتشحن الحياة بأذن ربها من جديد، فكانت أمة فريدة في التاريخ(4)، وهذا المنهج مستوحى من التربية الإسلامية.

4- قضية إصلاح التعليم

يشكل التعليم محور الإصلاح، ونظراً للقيمة الكبيرة التي يكتملها عند بعض المصلحين، ومن بنيم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي يقول بشأنه... إن

التعليم عند الامم التي عرفت الحياة معدود في المقومات ... ولأنه راس مال الأمة، ونخيرة الوطن (5). والمقومات هي:

- الإرادة الجماعية في التعليم
- الأخلاق الفاضلة في التعليم
- الإيمان بيهوية ورسالة التعليم
- العلم النافع للتعليم
- العمل الصالح في مجال التعليم
- الإبداع في العلوم والصناعات كمخرجات للتعليم
- التحضر في ممارسة التعليم
- التفاعل والتبادل المحدي في التعليم
- التحدي الذي لا يرفع إلا بالتعليم

وكل هذه المقومات وغيرها، ليست بمنأى أن يمتلكها الإنسان السليم، لأنها مرتبطة ومستعدة من روح ومنهج العقيدة والتربية الإسلامية، وممتدة في الوقت نفسه إلى التعليم الذي أخذت به المدرسة المحمدية، التي حفظت مقوماته وتمكنت بواسطته أن تبني نموذج المجتمع الأول في الإسلام، الذي ارتقى فيما بعد إلى مرتبة الأمة الإسلامية.

وإذا كان التعليم رأس مال نبضة وقوة الأمة الإسلامية، فإنه في العالم العربي والإسلامي المعاصر، الذي اقتربت شعوبه لتعيش نياية الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري، أصبح يتطلب إصلاحاً نوعياً بالدرجة الأولى، لغرض مسابرة للتطورات الحديثة، ويتحقق ذلك على مستوى العناصر التي تحكمه وهي:

- انظم التعليمية بجمع اصديا
- الخطط التعليمية قصيرة ومتوسطة وطويلة المدى
- المناهج التربوية والتعليمية بكل فلسفاتها وتصوراتها
- البرامج التعليمية بمختلف محتوياتها
- الطرائق التعليمية بجمع بيادوجياتها
- الوسائل التعليمية بكل تقنياتها واستخدماتها

نفهم أن التعليم سوق مركب ومتكامل، وفضية إصلاحه جاءت من الحخر الذي حخر به كسوق، نتيجة عن داخلية وخارجية بحيثية به، لذلك أصحت كطرح نفسها على

كافة الأضراف المعنية والمشاركة في العالم العربي والإسلامي، وتبعاً لما اثبتته التجارب المجتمعية العربية والإسلامية السابقة، والأعمال الفكرية والعلمية، والمساهمات الجماعية والفردية، أن الإصلاح المفضل قيمته في المستقبل القريب من هذا القرن، وذلك انطلاقاً من واقع التعليم السائد في هذه البلدان، هو ذلك الإصلاح الشامل والجهوي، الذي يجب أن يمس حل المكونات الحيوية المشار إليها آنفاً، والاجراءات التنظيمية والفنية، والأدوات الملموسة.... التي تتوقف عليها العمليات التعليمية في جميع مراحلها من أول إلى آخر مرحلة وهي:

- مرحلة التنعم الفردي
- مرحلة التعليم التحضيري
- مرحلة التعليم الابتدائي، أو التعليم الأساسي في الطور الأول والثاني
- مرحلة التعليم المتوسط، أو التعليم الأساسي في الطور الثالث
- مرحلة التعلم الثانوي العام والفني والمعني
- مرحلة التعليم العالي بكل فروعها وتخصصاته

إن توجيهها كهذا، يسلي نظرياً تعيين المقومات والأهداف، التي يقوم عليها نموذج إصلاح التعليم، وحتى يصبح مسلك الإصلاح سليماً، لا بد أن تسلم المقاصد والأفكار والأعمال.....، وأن تتصاغر جهود الخيرة من: العلماء والباحثين والخبراء وأصحاب القرار.... ممن يؤمنون بحقيقة: أنه في إصلاح التعليم، يمكن لمجتمع الأمة العربية والإسلامية مع الوقت، أن يحدث انطلاقاً فعليه وقوية في القرن الخامس عشر الهجري، وعند هذا المستوى من التحليل نتحدث قيمة الإصلاح في التعليم من الناحية النظرية، وهذا اتفاقاً مع ما يمليه منطق العلم دينياً ودينيوياً واجتماعياً.

ثانياً: استراتيجية إصلاح التعليم

للإشارة أن مكالمة التعليم هامة، تزداد أكثر كلما وضع في إطار استراتيجية واضحة المعالم ومكاملة الجوانب، لهذا لا يمكن النظر إليه على أنه أداة عرضية أو حاجة ظرفية، تنتهي بمجرد تحقيق منفعة معنوية أو مادية، بل هو مفتاح كل تنمية وتقدم، وبالتالي لا بد من تعديل للعالم العربي والإسلامي كي يستغني عنه بسهولة، بل لا بد أن يوضع من بين الخيارات الاستراتيجية التي تأتي على رأس نهضة الأمة،

التي ينتظر أن نقودها بحسب الملح المستقبلي بداية من الربع الثاني أو النصف الثاني كمدى معقول للانطلاقة الصحيحة من القرن الخامس عشر الهجري. مادام التعليم مرتبط بتطور تاريخ البلدان العربية والإسلامية، فإنه في هذه الحالة كان ولا زال المكسب الثمين، والهدف الرئيسي للتغيير والتطوير في أن واحد، شريطة إحاطته بالعناية والمتابعة المتواصلة في سياق الاستراتيجية التي تخص إصلاحه، مع مزاعاة توافقيا مع قيمته التي حددها الإسلام. بمعنى مصممة بدقة وتحكمها المبادئ والقيم والخيارات النابعة من العقيدة والتربية الإسلامية.

تطرق العديد من المفكرين وكبار المرينين والخبراء المتخصصين في العالم الإسلامي، إلى نوع الاستراتيجية التي تليق بإصلاح التعليم، وتقاربت تصوراتهم حول فكرة أنها توضع وتتحرك في إطارين متكاملين ومستمرين مع بعضهما هما:

1- الإطار الشامل لاستراتيجية إصلاح التعليم

الشمولية كخيار لإصلاح التعليم، مسلمة لا تتعارض مع المنظور الإسلامي المعتدل والمتوازن، كون الأخذ بالتعليم كمنحل استراتيجي من داخل هذا الإطار، الذي تبقى تشرف على تنميته وتجويده كما هو متوقع حاضرا ومستقبلا، وبصفة تدريجية إرادة وعزيمة جميع المسلمين في كافة أنحاء المعمورة، وخاصة في العالم العربي والإسلامي، مع ضرورة الوصول أو الارتقاء به إلى مستوى عظمة الأمة الإسلامية، التي وصفها الله عز وجل في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (6) وهذا تشريف وتكريم منه سبحانه وتعالى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، التي اختارت بفضل مرشدها منذ البداية طريق العلم كمنهج لها في الحياة، فوصلت إلى أعلى مراتب التطور والتقدم.

ولأجل الحفاظ على رسالة العلم كما أقرها الإسلام، وظلته الذي لا يتم إلا عن طريق الخيار السليم في التعليم، كان لابد على بلدان العالم العربي والإسلامي أن توحد جهودها وتستثمر إمكاناتها، في سبيل إصلاح التعليم حتى ينشر في مجالات الحياة المختلفة.

ومثل هذا التوجه، الذي يركز على الخيارات الكبرى للأمة، هو ما جعل الكثير من المحللين والمنظرين والمتخصصين في شؤون التعليم بالبلاد العربية والإسلامية، أنه لا مخرج للأمة الإسلامية سوى أن تستخدم تراثها ومواردها، وتستغلها حالها على النحو الذي يمكنها من النهوض والتطور .

بخصوص نيضة المسلمين يرى الأستاذ محمود أحمد شوق... أنه ينبغي على مجتمع الأمة الإسلامية، أن يستفد طاقاته في الارتقاء بطرائق الحياة فيه. وصولاً إلى أن يتبوأ مكانه ليكون خير أمة، وهذا على أساس طلب العلم والعمل الدؤوب، والوقاية من المشكلات (7)، والتاريخ العربي والإسلامي مليء بالتجارب الحية، التي تؤكد وتستشعر شعوب هذا العالم، نحو رفع التحدي المفروض على واقعها الراهن، والذي لا يتحقق إلا بواسطة استغلال الإدارة الجماعية والعقد الصحيح والعنصر النافع، وجميعها من أغنى المقومات التي يتوفر عليها المجتمع الإسلامي، والتي يجب أن يغذيها التعليم الجيد في كل ما يستمر عنه من مكونات.

إن امتلاك القدرة على إصلاح التعليم، وتوجيهه نحو خدمة الأمة الإسلامية والعكس صحيح، أمر في غاية الأهمية حالياً وفي المستقبل القريب، لذا فالعالم الإسلامي المعاصر، مطالب بوضع استراتيجية شاملة في مجال التربية والتعليم، وفي هذا الصدد يذهب المفكر زغلول راغب النجار إلى القول... أن استراتيجية التربية الإسلامية لكي تقوم بدورها، لابد أن تكون شاملة، وطويلة المدى بدرجة معقولة، وعلى قدر من المرونة، ومضبوطة ضيقاً دقيقاً، وديناميكية تأخذ بعين الاعتبار عمليات التطور المبدع والتجدد بصورة مستمرة (8)، وفي رويد هذا إشارة عميقة مفادها، أن الاستراتيجية الشاملة في حقل التربية والتعليم، تجمع مختلف مقومات المجتمع الذي تقوم عليه الأمة الإسلامية.

واستناداً لهذه الرؤية الواسعة وغيرها، نسلم أن الاستراتيجية ذات الأبعاد الشاملة في إصلاح التعليم، لابد أن تنطلق من تعاليم الإسلام، التي تدعو إلى توثيق الصلة بين العبادي والافكار والأعمال، وتقرب الخطط وقرارات من الواقع، وتقوم على تحقيق الأهداف مستقبلاً، كما تجعل من التعليم في كافة مستوياته، يقدم النتائج الإيجابية التي ترضينا الأمة الإسلامية لنفسيا.

2- الأضرار الفرعية لاستراتيجية إصلاح التعليم

إن مطلب توحيد جهود العرب والمسلمين في إصلاح التعليم داخل الاستراتيجية الشاملة، لا يمنع من حينه تفرّد مساعيهم من خلال وضع استراتيجيات فرعية، يتجه فيها كل بلد إلى تصميم استراتيجية خاصة بالتعليم، تتناسب وحجم مكانته البشرية والمالية والمادية.

لقد حاولت ولزالت تعمل العديد من البلدان العربية والإسلامية، منذ ما يقرب من الخمسة عقود من الزمن، على إدخال إصلاحات وتعديلات في مجال التربية والتعليم، ونظراً لتعدد أسبابه واقتصادية وتنظيمية واجتماعية... فافتت من حيث درجة انعكاسها السلبية، القدرات الحقيقية التي تمتلكها الكثير من هذه البلدان، إضافة إلى غياب نموذج الاستراتيجية الفرعية الناجحة، لقد أدت هذه العوامل مجتمعة بمعظم دول العالم العربي والإسلامي، أن تفقد السيطرة على واقع التعليمي، إلا البعض منها وتحكمها فيه نسبيًا من ناحية الكم والنوع.

لا يخفى على أحد أن كل بلد في العالم الإسلامي، يواجه في السنوات الأخيرة مشكلات وتحديات متعددة الأوجه، وحتى يسهل مواجهتها والتخفيف من حدة آثارها، وجب العمل على تطوير الاستراتيجيات الفرعية التي تكس حياة التعليم، على كافة المستويات ومنها:

المستوى الإقليمي

المستوى الوطني

المستوى الحيوي

المستوى المحلي

وسوف نستند في هذا السياق، إلى التجربة الموضوعية ذات الأبعاد النظرية والواقعية، التي نتج عنها في البلدان العربية إلى تطوير استراتيجيات التربية والتعليم، وتلمس ذلك فيما تقدمه بعض الهيئات والمنظمات في الوطن العربي من تقديرات حولها، وهي ما تستدعي اهتمام الباحثين وأخباراء لدراسة العناصر التي تقوم عليها، وحين التركيز على المراجعة التي قدمها عبد الله عبد الدائم حولها نحده يذكر... أن لعناصر الاستراتيجية الموضوعية وما ينبثق عنها من توصيات، على كونها صادقة في الجملة على معظم أقطار الوطن العربي، لا بد أن يقوم كل قطر بالمواءمة بينها وبين خصوصية تجربته وخصوصية أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية العامة(9)، لأن البلدان العربية في الشرق والمغرب لا تأتي على خط واحد، فإثنا بدأنا نملكه من مؤلفات وخبرات وحتى بالنسبة للتعليم.

ونحن نقول أنه في مثل هذه الحالة، أن ما ينطبق على الأقطار العربية هو نفس الوضع بالنسبة للأقطار الإسلامية، وعنده يكون من الطبيعي أن يواصل كل بلد عربي وإسلامي، يبحث عن أنجع الطرق والإدوات والعناصر، التي تمكنه في

الأخير من التقليل في ضخامة المشكلات التي تعرقل توجهاته الإصلاحية والتنموية في هذا الميدان، شريطة تبادل الخبرات، وتقديم المساعدات، والحرص على المشاركة الجماعية والعمل المتفرد في نفس الوقت، والطموح نحو تحقيق الهدف الذي تصبو إليه جميع شعوب العالم العربي والإسلامي، والمتمثل في إصلاح التعليم وتطويره، وفق استراتيجية لا تخرج عن إطارها الفرعي الذي وضعت لأجله .

إن إصلاح التعليم الذي يتماشى مع العصر. سيما مع بداية الربع الثاني من القرن الخامس عشر الهجري. هو نمط الإصلاح الذي يخرط شكلا ومضمونا مع الاستراتيجية التي تتعين داخل إطارين متكاملين، أحدهما شاملة تتعلق بتعاون مجتمع الأمة الإسلامية، والثانية فرعية ومنحلة إلى فروع يصدق كل منها على القطر العربي والإسلامي الذي يتبعها، وذلك بسبب الخصوصية التي يمتاز بها على غيره من الأقطار التي تشكل العالم العربي والإسلامي.

وحتى لا يبقى الإصلاح في المجال التعليمي مجرد أفكار نظرية. وأمل قد يضع مع تسارع الأحداث وتفاقم المشكلات التي يعيشها المسلمون . كان من الضروري أن تقوم الأطراف المعنية والجهات القادرة على التأثير الإيجابي، بإدخال إصلاحات ملموسة. لتقوية العناصر التي تحكم نوعي الإستراتيجية الشاملة والفرعية، والمصممين كما هو مفترض للتعليم. الجارية عملياته بالبلاد الإسلامية، والذات تظهر قيمتهما نظريا وتطبيقيا فيما يلي:

- بناء النظم التعليمية، والمحافظة على وحدتها في الشكل وتنوعها في

المضامين

- رسم الخطط الخاصة بالتعليم، على أساس مجموعة من الخيارات

والمبادئ والوظائف والأهداف

- وضع المناهج التربوية والتعليمية. وصياغتها وفق التصورات

الواسعة والمحددة النطاق

- تصميم البرامج التعليمية. وتجاوز كلاسيكيتها والتقليل من كثافة

المقررات التي تحتويها المواد الدراسية

- ضبط الطرائق التعليمية. وتجديدها وتحسينها من حيث بيئاتها

وتركيزها في جوانب الحوار والمشاركة التوجيهية

- تطوير الوسائل التعليمية، والتحكم في استعمالاتها لتكون في مستوى

تكنولوجيا التعليم وتساير الموجة المعلوماتية الحديثة

يبدوا أن التعليم الذي نتينا له مثل هذه الشروط والمعايير والقومات، وتغذيته عزيمة الأمة بما تحمله من معان سامية، ومؤطر بخيارات وادوات متوافقة مع الأثر التي ينحرك في فلكتها، لا محالة مع اليقت سكون له شأن عظيم بالمجتمع العربي والإسلامي. كما يتحول في المستقبل القريب أو المتوسط المدى، الى مفتاح للتمية والتطور والتقدم فيه. وهو المسعى الذي لا يتحقق إلا بإعطاء العرب والمسلمين إستراتيجية إصلاح التعليم القيمة التي تستحقها فعلا في الوقت الراهن.

اتضح لنا مما سبق أن التعليم في العالم العربي والإسلامي، يحتاج الى مزيد من الإصلاح المخطط والمبني على التعاليم الدينية والقواعد العلمية، والدعم البشري والمالي والمادي، حتى يؤدي دوره على أفضل وجه، إضافة إلى تطوير استراتيجياته، وضمان استمراره ونموه، وتحقيق الأهداف التي وجد لأجلها حاضرا ومستقبلا.

ويؤكد أغلب أنصار الإيجاد الاصلاحى، أن جهد العرب والمسلمين يجب أن يتجه إلى بناء أمة موحدة ومتعلمة ومبدعة، ثم عملهم بالمقابل على بناء الأجزاء التي تتكون منها، وهي مجموعة البلدان التي تشكل العالم العربي والإسلامي.

لهذا الغرض جاءت إستراتيجية إصلاح التعليم، المستمدة من المنخل النظري الذي سبق و أن تناولنا تفاصيله بنوع من التحليل المختصر، مندرجة من الإطار الشامل إلى الفرعي، وهي معادلة متوازنة لا نتصور أنها تحدث خلا في مسارات التعليم، وفي ظلها سيكون منكيفا ومنفاعلا بعملياته مع واقعه الاجتماعى الذي يوجد فيه، وظرفه الزمنى الذي يمر به، وبفعليته سيتمك العالم الإسلامى ومن داخله مجموعة أقطاره العربية والإسلامية، أسباب النهضة والتقدم في القرن الخامس عشر الهجرى، مادام لمجتمع هذه الأمة ملمح تطمح من خلاله شعوبها مستقبلا الى النهوض بواقعها وإصلاح أحوالها وخاصة التعليمية منها، ومواكبتها لتطورات ومستجدات العصر.

ثالثا: الملمح المستقبلى فى إصلاح التعليم

حين للنظر إلى المشكلات التي يعاني منها التعليم فى البلاد العربية والإسلامية، ومنها على سبيل الذكر:

تغلب عامل الكم على عامل الكيف في التعليم

نقص الموارد المالية والبشرية لتدوير التلميذ

عدم الاستيعاب الكامل للأفضل الذين وصوا من الالتحاق بمؤسسات التعليم

عدم التناسب الزمني بين مراحل التعليم

غموض أهداف المناهج التربوية الموجهة لنساء حياة التعليم

كثافة البرامج الخاصة بالتعليم

تغلب الجوانب النظرية على الجوانب التطبيقية في مختلف مدارس

ومستويات التعليم

غياب الانسجام بين حجم المدخلات ومخرجات التعليم

ضالة الجواب والمردود الذي يقدمه التعليم

عدم استيفاء الحاجات التنموية المنظورة من التعليم... الخ

تحكم مباشرة على أن واقع التعليم في العالم العربي والإسلامي عكس بالتحديات،

مما عطلت عن جبهتها وظيفته التي كان من المفروض أن يؤديها طيلة فترات

القرن الرابع عشر الهجري الماضي، والعشر السنوات الأولى من القرن الحالي.

لكن بالمقابل لو تقامل مساعي العديد من النقاد العربية والإسلامية، وخاصة

مع بداية القرن الخامس عشر الهجري، والتي بذلتها في إصلاح التعليم بمفهومه

الواسع، وتذكر من بينها:

التحكم نسبيا في الكم، والتركيز على النوعية في التعليم

رفع حصص التدعيم المالي والمادي لكل أصناف التعليم

المحافظة على الوحدة في الخبرات والمبادئ والأهداف، وتنويع

العناصر الداخلة في بناء نظم التعليم

الصياغة الجديدة للمناهج التربوية، المعدة لكل ما تتطلبه حياة التعلم

التفويض من محتويات البرامج الدراسية، وتصوير الطرائق والوسائل

المستعملة في التعليم

التوفيق بين الجوانب النظرية والعملية التي تقود عليها عمليات التعليم

التجويد في مختلف المدخلات والعمليات التي يعتمد عليها التعليم

التوزيع المتناسق والعمودي للحدوع والفروع والتخصصات عبر
بعض مراحل التعليم

- تحميم أساليب التكوين والتوجيه والتقييم والتكوين في مجال التعليم

- الاهتمام بالبحث العلمي الذي يتابع ويترس قضايا وظواهر التربية
والتعليم... الخ

وغيرها من استراتيجيات التي لا يمكن التقليل عن شأنها، لأننا في الحقيقة سمات
واقعية تمل على وجود ملح مستقبلي، تتطلع إليه مجموعتنا من مجتمع الأمة
الإسلامية.

وهي أعمال جادة تفسر توجهنا نحو إصلاح التعليم وتطوير مكوناته، حتى
يتسحب لمطالب التنمية التي تقودها هذه الأقطار، مما أدى هذا الأمر بالاستاذ
إبراهيم أحمد عمر إلى القول... أن أسلوب تحقيق التنمية الإسلامية، لابد أن
يتوافق مع معطيات النسق الإسلامي مثل: التوازن، والإعتدال، والعلم، والعمل،
والحلال، وترسيخ القيم الفاضلة... وكذلك الإصلاح ورفع مرتبة الإنسان (10)،
وبناء على هذه الأفكار ذات البعد الوسطي، يصبح فيمنا للإصلاح الذي يمس
التعليم بالبلاد العربية والإسلامية، أنه لا يتحقق إلا في ظل المقومات أو المعطيات
التي إنطلقت منها التنمية المتوافقة مع تعاليم الإسلام ومبادئه.

إذا كان توجه مجتمعات العالم العربي والإسلامي في هذه الفترة الحاسمة من
التاريخ الهجري، نحو المستقبل بكل ما يحمله من مفارقات ومفارقات، فإنه يكون
من الأمور الواقعية كما يتصور الأستاذ سيار الجميل... أن العرب والمسلمين هم في
حاجة ماسة، قبل أي تجربة أو تجارب سياسية و تنظيمية وإيديولوجية... إلى
تربية وتعليم بالدرجة الأساس من أجل استيعاب متغيرات الحاضر والمستقبل (11)
لأن الزمن القادم يتحلب من الجميع وفتة مع الذات، ومراجعة جذرية للأخطاء التي
ارتكبت في الماضي القريب، ووضع استراتيجيات تمكن من الاستجابة للتحديات
القائمة، وخصوصا في مجال التربية والتعليم والعمل على إدراكها وتحاورها،
وإحداث إنطلاقة صحيحة تعيد الأمة الإسلامية وأقطارها إلى صدارة الأمم من
جديد.

لكي يلحق العرب والمسلمون بالركب الحضاري، ويرفعوا التحدي المسيطر على واقعهم المعاش، ويصلوا إلى حدود المستقبل ويكون لهم وزن في القنرات الياقية من القرن الخامس عشر الهجري، يكون من الأنجع لهم:

- الأخذ بتجارب الماضي الناححة
 - الاستغلال الجيد للتراث التراثي الديني والعلمي والفني بشئى أنواعه، الذي خلفته أجيال السلف الصالح
 - الاستثمار العقلاني للطاقات الخلافة، التي يتوفر عليها الجيل الحالي والأجيال القادمة
 - التركيز على التعاون والتماك في جل مجالات الحياة
 - الاهتمام بإصلاح التعليم، وتطوير أساليب التفكير والتعامل
 - الإنفتاح على التكنولوجيات والتقنيات المعلوماتية، وحضارات الأمم المجاورة...إلخ
- وكلها خيارات استراتيجية، ودعوة للعرب والمسلمين للأخذ بها كأسباب قوية للتبويض مستقبلا إضافة الى ترتيب البيت وبناء أهم جزء منه وهو التعليم. لأنه كما يقول الأستاذ محمد عبيد يمانى... إن التعليم والواقع التعليمي في العالم الإسلامي، يحتاجان إلى إصلاح جذري، ولا بد من تحرك جاد وفاعل، يبدأ بإدراك حقيقة مهمة، هي أن التعليم في حاجة إلى تطوير فعال وتغيير جذري. يساهم في بناء الإنسان في البلاد العربية والإسلامية(12)، وعلى هذا الأساس يبقى التعليم في مقدمة العوامل الحيوية التي تدخل في إعادة تشكيل الأمة الإسلامية. وبإصلاحه الذي لمسنا له -لمحا مستقبليا، سيتحقق بمشيئة الله وإراد العرب والمسلمين الذين ينشدون الإصلاح والتقدم والرفاه.

الهوامش:

- 1- سورة العلق - الآية رقم:1
- 2- محمد يحيى الدين سالم: ابن باييس قريش الإصلاح والتطوير ط:1 دار الشروق-القاهرة-بحر سنة: 1420 هـ- 1999 م. ص: 98
- 3- محمد العربي شاطي: نسبة التربية والتعليم من خلال فكر زعماء الإصلاح ط:1 دار صادر للطباعة- بيروت - لبنان سنة: 1416 هـ- 1995 م. ص: 46

- 4- محمد عبد العظيم مرسى: المنظور الإسلامي للثقافة والتربية ط: 1- مكتبة العبيكان-الرياض- السعودية سنة: 1417هـ- 1996م ص: 92-93
- 5- د. محمد الشور الابراهيمى الجزء الثالث ط: 1- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر سنة: 1402هـ- 1981م ص: 117
- 6- سورة آل عمران - الآية رقم 110
- 7- محمود أحمد شوق: الاتجاهات الحديثة في تخطيط المناهج الدراسية في ضوء التوجيهات الإسلامية ط: 1- دار الفكر العربي- القاهرة- مصر سنة: 1416هـ- 1997م ص: 314
- 8- زغلول زاهد الشجار: أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية ط: 1- السعيد العامى للفكر الإسلامى - القاهرة - مصر سنة: 1410هـ- 1990م ص: 173-174
- 9- مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية إعداد: عبد الله عبد السلام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس سنة: 1416هـ- 1995م ص: 92
- 10- ابراهيم أحمد عمر: فلسفة التنمية- رؤية اسلامية ط: 2- السعيد العامى للفكر الإسلامى- القاهرة- مصر سنة: 1413هـ- 1992م ص: 55-56
- 11- سيار الخليل: العولمة والمستقبل- إستراتيجية تكوين من أجل العرب والمسلمين في القرن الحادي والعشرين ط: 1- الأهلية للنشر والتوزيع- صان- الأردن سنة: 1421هـ- 200م ص: 311
- 12- محمد عبده يماني: مستقبل التعليم في العالم الإسلامى طبعته: مركز صالح عبد الله كامل- جامعة الأزهر - القاهرة- مصر سنة: 1420هـ- 1999م ص: 35
- 13- سعد السحمراني : مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ط: 2- دار الفلاح-بيروت- لبنان سنة : 1406هـ- 1986م ص: 143
- 14- سورة التوبة- الآية رقم : 105.

أنجز طبعه على مطابع عمار قرفي - باتنة

الأحياء

العدد الثامن

2004

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

